رحلة الخلافة العباسية (1)

العباسيون الأقوياء

رحلة العباسيين منذ بداية الثورة وحتى نهاية عصرهم الذهبي

محمد إلهامي



بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب

إلهامي ، محمد
العباسيون الأقوياء: رحلة العباسيين منذ بداية الثورة وحتى نهاية عصرهم الذهبي /
تأليف/محمد إلهامي . ط١. - القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٣
(٦٤٨ ص)، ٢٤ سم (رحلة الخلافة العباسية ج١) تدمك: ٩-٨٩٣-٤٤١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - العباسيون
أ. العنوان ٩٥٣،٠٨٦

رقم الإيداع: ٢١٦٩١/٢٠١٣م

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

الإدارة: ١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط
ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١١٢١٢٠٢٤٧٢
مكتبة اقرأ – الأزهر: ش ابن البيطار خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤٢١٦٧ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٧
مكتبة اقرأ – جامعة القاهرة: ٤ ش حلمى بين السرايات مطلع كوبرى ثروت
ت: ٣٧٦٠٤٨٩٦ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٨
www.Iqraakotob.com
E-mail:iqraakotob@yahoo.com

إهداء

إلى الأخ الكريم

أ. قاسم عبد الله

مدير عام مؤسسة اقرأ

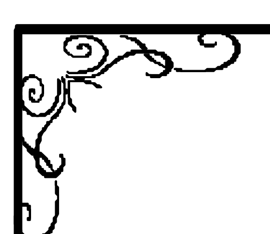
فلقد دعم هذا المشروع منذ فكرته

وحتى خروجه إلى النور

عسى الله أن يبارك فيه وفي عمله..

وأن يجعله من مفاتيح الخير دائمًا.

المؤلفان



رحلة الخلافة العباسية

(١)

العباسيون الأقوياء

رحلة العباسيين منذ بداية الثورة حتى نهاية عصرهم الذهبي

(٢)

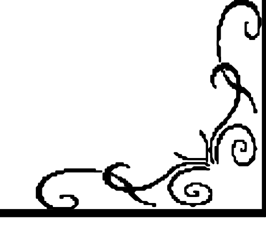
العباسيون الضعفاء

الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية

(٣)

آخر أيام العباسيين

الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد





مقدمـــــة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

ليس عسيرا أن يلاحظ المهتمون بأمر هذه الأمة ابتعادها عن تاريخها بفعل القرون التي مرت عليها من التخلف والتراجع ثم الاستعمار والاحتلال ثم الاستبداد والطغيان، حتى انقطع ما كان موصولا وما حقه أن يتصل، وهو اتصال الأمة بتاريخها وأسلافها وهو خير التاريخ وخير الأسلاف، وزُرِع لهم قسرا مفاهيم وتاريخ وأفكار غريبة عنهم فلا هي من أرضهم ولا من روحهم ولا من ثقافتهم، ثم أريد لها أن تنبت في تلك النفوس والعقول حتى تجعلهم أتباعا يفكرون بعقول أعدائهم ثم يمضون على طريقتهم وسنتهم، وهو ما لم تقبله الأمة وظلت في مقاومته ورفضه حتى تلك اللحظة.

وفي ظل هذه العقود قام الكثيرون بجهد عظيم في التنقيب عن التاريخ المدفون واستخراج كنوزه وذخائره، وبُذِلت مجهودات دؤوبة في فحص هذا التاريخ ودراسته، إلا أن كثيرا من هذه المجهودات تعطلت بفعل الاستعمار ثم أذنابه من الاستبداد، ففضلا عن التخريب العام الذي يصنعانه في الأمم إلا أن أثرهما في البحث العلمي يكون أشد وضوحا وتأثيرا، ومن فروع البحث العلمي يأتي البحث التاريخي.

لقد كان الإسلام والإسلاميون هم أعدى أعداء الاستعمار ثم الاستبداد، ولم يدخر أحدهما وسعا في استبعاد الإسلاميين والتنكيل بهم في سائر المجالات فأنتج هذا ظاهرة خطيرة ما زالت الأمة تعاني من آثارها.. تلك هي: ندرة المؤرخين الإسلاميين المحترفين!

لقد كانت الجامعات والمناصب والمراكز البحثية والإصدارات مفتوحة للقوميين واليساريين، فيما كانت مغلقة تماما أمام الإسلاميين الذين لم يكونوا يطمعون في أكثر من الأمان الشخصي على أنفسهم وأعراضهم وبيوتهم، فكانت غالبية الدراسات التاريخية في القرن العشرين –وهو القرن الذي بدأ فيه المسلمون يكتبون تاريخهم بأنفسهم وفقا لمقاييس ومعايير ومناهج البحث الحديث– صادرة عن قوميين أو يساريين أو بالحد الأدنى ممن ليس

لهم اتجاه أو رؤية تخيف المستبد!

وعلى الجانب الآخر كانت المحاولات الإسلامية أقرب إلى محاولات الهواة والدعاة منها إلى مجهود المحترفين والباحثين.. فخرجت كثير من الكتابات العاطفية التي استفزتها الدوافع النبيلة في الذب عن التاريخ الإسلامي وعن السلف الصالح أمام محاولات السحق والهجوم العنيف المستمر، والذي وصل حد التشكيك في شخصيات بمقام الصحابة وأمهات المؤمنين والخلفاء الراشدين، ثم تجاوز هذا إلى مقام النبي نفسه!

إن قليلا من المؤرخين القوميين كانت لديهم القدرة على التحرر من ميراث المستشرقين وشبهاتهم وقراءتهم للتاريخ الإسلامي، وبرغم أننا نميل إلى تثمين المجهود العظيم الذي قام به المستشرقون في بعث وفحص وتحقيق التاريخ الإسلامي إلا أن الحقيقة الراسخة أنهم في كثير من الأحوال فشلوا في قراءته وتحليله لاختلاف اللغة والروح والثقافة[١]، ومن ثَمَّ صار التاريخ مكتوبا بأيدي بني جلدتنا وممن ينطقون بألسنتنا ولكنه غريب عن روحنا وثقافتنا ومثير للأزمات والمشكلات والتساؤلات حتى ليقول القائل: هل هذا تاريخ خير أمة أخرجت للناس؟ هل تريدون أن نعود إلى مثل هذه العصور؟!

ولئن كان هذا يقال حين نقرأ نتاج قوم تابعوا المستشرقين وفشلوا في التحرر من سلطانهم، فإن أضعافه سيقال حين نقرأ نتاج قوم قصدوا عن عمد تشويه التاريخ نصرة لمذاهبهم الماركسية أو الليبرالية، تلك التي تعتقد أن التقدم هو الجديد وأن الماضي دائما هو عنوان التخلف والرجعية والجمود!

وهكذا طفق جميع من له مصلحة في الاغتراف من النهر وإعادة إنتاجه بمزيد من التزوير والتشويه حتى صرنا نقرأ تاريخنا وكأن أمتنا هي صاحبة أسوأ ميراث حضاري بين الأمم!

في هذا الواقع استيقظ المسلمون ليعيدوا النظر والتحقيق في تاريخهم ليتبينوا مواقع أقدامهم وينظروا حظ هذه الشبهات من الحقيقة، أو ليدفعوا عن أمتهم سائر ما أصبحت تُرمى به من سهام بل وقنابل، وكانت سيرة النبي ﷺ ثم سيرة الخلفاء الراشدين هما أول

(١) لهذا تجد أفضل دراسات المستشرقين وأقلها في الأخطاء هي ما كانت علمية بحتة؛ كالبحث في تاريخ العلوم أو تاريخ البلدان أو تاريخ النظم والمؤسسات، أو ما سوى ذلك من بحوث في النقود والملابس وطرق التجارة.. بينما أكثرها أخطاء هي ما تناول الفكر والأدب والفلسفة والتفسير وما إلى ذلك.

المجالات التي سعى فيها الباحثون والدارسون، والذين وجدوا في تراثهم عِلْمًا هائلا بديعا هو: علم الجرح والتعديل، فنهلوا من ذلك الميراث وحققوا ذلك التاريخ حتى استقام الأمر من بعد اعوجاج، ولا يبلغ الأمر تمامه إلا حين تتخلص الأمة من الاستبداد فتبدأ نهضتها الحقيقية المؤسسة على أكتاف مخلصين تدعمهم الدولة وتوفر لهم إمكاناتها من بعد ما بلغوا أقصى استطاعتهم في المجهودات الفردية.

لا تزال السيرة النبوية وتاريخ الخلافة الراشدة يحتاجان إلى المزيد من العمل والجهد والتحقيق، ولكن نستطيع القول بأن الثغرة في هذه المناطق قد سُدَّت إلى حد كبير بما صدر من بحوث ومؤلفات ورسائل علمية تحقق تاريخ هذه الفترة بمقاييس علمية وروح وعقلية إسلامية!

لكن ما زال باقي التاريخ الإسلامي منذ الدولة الأموية يعاني من الضعف في كتابته بالروح والعقلية الإسلامية، بل ما زالت ثمة تواريخ مجهولة تحتاج إلى الاكتشاف والبعث أصلا مثل تاريخ المسلمين في أنحاء إفريقيا وآسيا، وهذا يضع على الباحثين الإسلاميين عبئا ثقيلا ومهمة كبرى ستحتاج إلى مجهودات عظيمة ومضنية تُنفق فيها الأعمار!

والمقصود هو الإشارة إلى أن بقية التاريخ الإسلامي من بعد عصر الخلافة الراشدة تندر فيه الدراسات والبحوث الجادة التجديدية التي تقرأه بعقلية وروح إسلامية، وغالب ما يصدر في هذا السبيل تغلب عليه العاطفية والسطحية والمباشرة.

وهذه العاطفية في تناول التاريخ الإسلامي يغلب عليها الدفاع والتبرير والتماس الأعذار، مما يجعلها تنتج مادة رخوة لا تقدم دروسا مستفادة حقيقية بقدر ما تقدم حماسة وعاطفة شعورية، وهي بهذا تدخل في دائرة تزوير التاريخ وإن بحسن نية! فالتاريخ جوهره العبرة والعظة، وهدفه تكوين البصيرة في سنن الله ليكون المرء واعيا بماضيه وحاضره، عارفا بالطريق الصحيح في مستقبله.

وحيث صار التاريخ مادة رخوة تغلب عليها العاطفية ولا يضبطها ميزان البحث العلمي المتجرد فقد ظهرت فعلا كتابات تاريخية إسلامية لا تحقق الحد الأدنى من الانضباط والأمانة العلمية، فقد ظهرت فعلا بعض الكتابات التاريخية الإسلامية التى لا تحقق الحد الأدنى من الانضباط والأمانة العلمية، بل هى مكتوبة لنصرة الأفكار التي يعتنقها الكاتب

الإسلامى، أيًا كان الفصيل الذى ينتمى إليه، وبعض هذه الكتابات ذات أثر خطير في تشويه شخصيات وأحقاب تاريخية لا تنسجم مع أفكار الكاتب، وهي تساهم في صنع أزمات فكرية حقيقية، فبدلا من أن يكون التاريخ هاديا إذا به يتحول إلى سلاح يُساء استخدامه لتدمير الوعي لحساب الأفكار الصغيرة التي اعتنقتها عقول فقيرة افتقدت رحابة التأمل والتفكر والتعمق مع ما افتقدته من أمانة البحث العلمي.

وفي هذا المناخ يكون الواجب المتحتم على الباحثين في مجال التاريخ الإسلامي أن يستعينوا بالضبط العلمي المجرد والأمانة العلمية قبل كل شيء، ثم بالروح الإسلامية التي تنير مسالك البحث، وتستطيع –إذا صاحبت الباحث– أن تيسر له فهم هذه المجتمعات التي يسودها الإسلام فتنفعل له وبه وتتصرف وفقا له.

فهاتان مشكلتان: تاريخ كتب بغير الروح الإسلامية، وتاريخ إسلامي عاطفي..

وتبقى المشكلة الثالثة..

وهي مشكلة تقريب هذا التاريخ إلى عموم الأمة، بحيث يستطيع القارئ غير المتخصص أن يتعرف على تاريخه دون أن يكون ملزما بالغرق في الروايات وتفاصيلها وخلافات الرواة أو تحقيقات المصادر القديمة والحديثة –وهو الأمر المحبب إلى الباحثين، فكل باحث يحب استعراض عمله وعرض جهده في البحث والتنقيب– كما أنه في حاجة لمعرفة تاريخ يحقق الحد الأدنى من العمق والتفصيل بغير عبور سريع على المحطات التاريخية، وهو ما لا يحقق الحد الأدنى من شعور الشبع والفهم للحادثة التاريخية.

إنه في حاجة إلى ما سماه العلامة ابن رشد «بداية المجتهد، ونهاية المقتصد»..

ولهذا فإن أول ما توخينا ضبطه في هذا الكتاب هو أمانة النقل والتزام منهج البحث العلمي، والتزام المدرسة العلمية الإسلامية التي نشأنا في ظلالها فتخلصنا بها من تفسير قومي متعسف أو تفسير تطوري حتمي متكلف أو تفسير غربي غريب وعاجز عن فهمنا بقواعد فلاسفته الذين لم يقرأوا في تاريخنا أصلا!

كذلك توخينا ألا يكون البحث عاطفيا يسلك التبرير والدفاع عن بشر لا حرج أن يخطئوا وأن نهاجمهم، فلا هم الإسلام ولا الإسلام هم، بل إننا ما لم نبصر تاريخهم كما هو لما

استفدنا منه، لذا عرضنا الشخصيات بما فيها من مزايا وعيوب، ولم نشغل أنفسنا كثيرا بحل إشكاليات الشخصيات، فالبشر ليسوا كائنات سطحية بل هم أعمق من مجرد النظرة الخارجية، تختلج في نفوسهم الآمال والطموحات والمخاوف وتتعايش داخلهم المزايا والعيوب، والإنسان يتغير بين اليوم والليلة، وهو يتغير قبل السلطة وبعدها، ويتغير في بيته عما هو خارجه.. لقد فضلنا أن نعرض الشخصيات كما هي دون الانشغال بإصدار حكم نهائي عليها.. فهذا فضلا عن كونه يتجاوز هدف الكتاب، فإن الصواب فيه بعيد! على أن هذا لا يعني أننا تجنبنا هذا تماما، بل حكمنا بما تبين لنا أحيانا ونقلنا آراء المؤرخين القدامي والمحدثين ووافقناهم أحيانا وخالفناهم أحيانا أخرى.. والله يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون!

وأخيرا توخينا أن تكون اللغة بسيطة تخاطب القارئ المعاصر بُغية تقريب التاريخ إليه ليكون الكتاب سهلا في الأخذ والاستفادة.. ذا أسلوب قصصي ولكنه منضبط علميا.

ونأمل أن نكون نجحنا في تحقيق هذه الأهداف: الانضباط العلمي، الروح الإسلامية، الأسلوب القصصي.

* * *

رحلة الخلافة العباسية..

وكلمة «الخلافة» دليل على أن هذا الكتاب يناقش التاريخ السياسي، أي تاريخ الملوك والقصور والسياسات والمعارك، دون التاريخ الاقتصادي والثقافي والاجتماعي وما إلى ذلك.. وإن لم يمنع هذا من شذرات من كل هذا كلما كانت الحاجة قائمة.

والتاريخ السياسي هو الأسوأ بالنسبة إلى التواريخ، ذلك أنه تاريخ للصراعات والاضطرابات والثورات، وهو الأسوأ لما يظهر فيه من طبيعة المُلْك وطبيعة النفس البشرية.. فهو تاريخ يغض الطرف عن البناء والعمران والتقدم والتطور، وينحسر في أروقة القصور وساحات المعارك ومناطق النفوذ.. ولذا فالتاريخ السياسي لا يمثل الوجه الحقيقي الدقيق حتى للسلطان! فكثيرًا ما يبدو السلطان شخصية أخرى لدى قراءة سيرته في كتب التراجم والطبقات والرجال، وسنرى في هذا الكتاب كثيرًا من هذه النماذج التي لا يبدو الجانب الإنساني للسلطان فيها لدى مطالعة التاريخ السياسي؛ ولهذا فمن باب أولى فإن التاريخ السياسي لا يعبر أبدًا عن التاريخ



الحقيقي للأمم والشعوب التي عادة ما تكون أفضل بكثير من حكامها.

بينما التاريخ الحضاري دائما مشرق يتحدث عن الإنجازات والابتكارات والتقدم العلمي، عن العلماء والمكتبات وساحات التعليم والتدريس، عن النهضة والرخاء الاقتصادي، عن الموارد الكبيرة وعن ثراء الشعوب وسيولة الحركة التجارية..

إذا أردت أن تحب أي أمة من الأمم فطالع تاريخها الحضاري، وإذا أردت أن تكرهها فطالع تاريخها السياسي.. ولذا فالنظرة المنصفة للتاريخ لا بُدَّ أن تكون نظرة للتاريخ السياسي والحضاري معًا، وهذا هو ما يُغفله -عن عمد غالبا- أولئك الذين يشوهون التاريخ الإسلامي.

وقد كانت النية في بداية الشروع في هذا الكتاب أن يكون تاريخًا سياسيًّا وحضاريًّا للدولة العباسية إلَّا أن غزارة المادَّة وتنوُّعها جعلت الأمر مستحيلًا، إذ كنا سنحتاج إلى عشرة مجلدات بحدٍّ أدنى، وهذا غير ممكن في ظل الوقت المتاح وظروف التكلفة وطبيعة القارئ المعاصر ورؤية الأخ الكريم صاحب دار النشر.. ولعلَّ الله يُيَسِّر لنا إخراج التاريخ الحضاري للدولة العباسية، وبه سيتضح كيف أن هذه الأُمَّة قد كانت لمسة ساحرة طرأت على التاريخ الإنساني، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولكن -ومع هذا- فإن التاريخ السياسي للمسلمين هو الأفضل من غيره، وهو يحتاج بعد كل هذه السنين إلى نظرة منصفة.. لا هي مغرقة في الأخلاقية فتنتفض لأي خلل وتشبعه نقدًا وتجريحًا، ولا هي بالتبريرية التي تقبل بكل ما وقع باعتبارنا ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾؛ فإن هذه الخيرية لا تعني العصمة، بل تعني الأفضلية النسبية المقارنة.. كما ينبغي ألا نسلك المنهج التبريري باعتبار ما يتعرَّض له الإسلام وفكره وتاريخه من هجوم في عصرنا الحالي.. بل المفترض بالذي يكتب في التاريخ أن يعلو على الزمن ليُقَدِّم المعلومة الصحيحة التي تحتاجها كل الأزمان وكل الظروف.

***

تبقى إشارة إلى هذا الكتاب..

فقد لاحظنا فراغ المكتبة الإسلامية من دراسة تحقق الشروط السابق ذكرها في فترة

الدولة العباسية، فغالب ما صدر فيها إما كتبه قوميون لم يتحرروا كثيرا من سيطرة المستشرقين، فإن تحرروا من هذا فإنهم وقعوا في التفسير القومي الذي أسس له المستشرقون باعتبار أن زمانهم ونشأتهم حفل بالأفكار القومية، أو كتبه إسلاميون فكان غالبه مختصرا أو تكرارا لما في كتب تراثية دون أن يأخذ قدره من التحليل والتقريب إلى القارئ المعاصر.

فعزمنا، مستعينين بالله، على الكتابة في هذا الموضوع، وقسمنا العمل فيما بيننا، فأخذ أحدنا (محمد إلهامي) الفترة العباسية منذ إنشاء الدعوة العباسية وحتى نهاية العصر البويهي (١٠٠ – ٤٥١هـ) فيما أخذ الآخر (محمد شعبان) الفترة التالية منذ دخول السلاجقة إلى بغداد وحتى سقوطها أمام الزحف المغولي (٤٥١ – ٦٥٦هـ)، فخرج الكتاب في ثلاثة مجلدات على هذا النحو:

(١) العباسيون الأقوياء: رحلة العباسيين منذ بداية الثورة حتى نهاية عصرهم الذهبي.

(٢) العباسيون الضعفاء: الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية.

(٣) آخر أيام العباسيين: الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد.

***

نسأل الله أن نكون قد وُفِّقنا في تقديم مجهود ينفع الأمة في الدنيا وينفعنا في الآخرة إذا وقفنا بين يدي الله تبارك وتعالى.

فما كان من توفيق فمن الله وحده.. وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمن أنفسنا، ولا نسأل القارئ الكريم إلا دعوة بظهر الغيب، وأن يصوبنا إذا رأى خللا أو خطأ، ونحن نستقبل التعليقات والتصويبات على هذه العناوين:

محمد إلهامي
moha.elhamy@gmail.com

محمد شعبان أيوب
shaheen.daraamy@gmail.com

أو على عناوين دار النشر..

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

المؤلفان

سبتمبر ٢٠١٢



منهجنا في هذا الكتاب

سار العمل في هذا الكتاب على هذا النحو:

١- اقتصرنا في هذا الكتاب على التاريخ السياسي العباسي وحده، ومع الإيمان بأن التاريخ الحضاري والاقتصادي والاجتماعي مؤثِّر في السياسة ومتأثّر بها إلَّا أنه لا مناص من الاختيار ليتحقَّق الهدف المطلوب من الكتاب، وهي ضرورة بحثية تفرض نفسها على أي عمل كما يقول د. عبد الوهاب المسيري: «لا مناص من أن يتم الاختيار والإبقاء والاستبعاد والتهميش والتركيز حسب نموذج محدد، فالبديل هو أن أحاول أن أعطي القارئ كل التفاصيل، دون تفسير أو ترتيب، ولعلَّه قد يغرق فيها فلا يعرف أين بدأ وكيف ينتهي، وما معنى كل تفصيلة أو معلومة»[١].

فلهذا لم نتحدَّث عن المظاهر الحضارية أو الأحوال الاقتصادية أو حوادث الزلازل والقحط والجدب والمجاعات التي أصابت البلاد العباسية إلَّا فيما ندر، وحيث كان هذا ملحًّا ومرتبطًا ارتباطًا مباشرًا بالموضوع المطروح.

٢- اهتممنا بتتبُّع الرواية في مصادرها، ونقلها عن أول مصدر ذكرها ما استطعنا، وقد نردف بذكر المصدر الأول بعضا من المصادر التي نقلت عنه إذا كان ثمة فائدة مرجوَّة في هذا[٢]. وقد نكثر من المصادر في الحواشي إذا كانت القصة مفرَّقة في هذه المصادر، أو كان في تعدادها فائدة تدعيم صحتها أو بيان انتشارها وشهرتها أو غير ذلك مما يُحْتَاج إليه.

٣- الروايات التاريخية فيها ما هو ضعيف وما هو صحيح، ولقد اهتممنا على وجه

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص١٢، ١٣.

(٢) بعض هذه الأهداف قد لا يلحظها إلَّا الباحث، ولم نشأ أن نطيل بالإشارة إليها وبيانها؛ حتى لا نخرج بالكتاب عن هدفه في مخاطبة القارئ غير المتخصص.. ولنضرب مثالاً على سبيل الافتراض: حادثة وقعت في عام ١٥٠هـ، وفي مدينة الموصل، هذه الحادثة قد نجدها عند خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) كأقدم مصدر أوردها، سيكون من المؤكد للحادثة ومما يزيدها مصداقية أن نأتي بها أيضًا من «تاريخ الموصل» للأزدي (ت ٣٣٤ هـ) باعتباره التاريخ المتخصص في هذه المنطقة.. وهكذا، ولذلك اجتهدنا في ترتيب المصادر في الحواشي حسب ما تراءى لنا من فوائد قد لا يدركها غير الباحث، ولم نُشِرْ إليها على سبيل التفصيل؛ لئلا يتحول الكتاب إلى بحث أكاديمي لا يناسب القارئ غير المتخصص.

الخصوص بالتواريخ التي كتبها محدِّثون ذوو بصر بالرجال وأحوالهم مثل الإمام الذهبي في كتبه، وكذلك البداية والنهاية للحافظ ابن كثير(١)، فإنهما ممَّنْ كان له في تاريخه نَفَسٌ نقدي للروايات الواردة. غير أن هذا لا يعني أن كل ما ورد فيهما صحيح، بل كان يعني أنه مقبول لديهما.. فلهذا نُورد الرواية من مصادرها الأولى مشفوعة بهذه المصادر التاريخية التي كتبها المحدِّثون.. ومن المؤرِّخين المُحَدِّثين -أيضًا- الإمام ابن عساكر والإمام الخطيب البغدادي والإمام ابن حجر، فلا تخلو موسوعاتهم من فوائد جمة في مجال تقييم الرجال والروايات والأسانيد.

٤- وأما منهج العرض التاريخي في هذا الكتاب فقد سار في كل عصر على وتيرة تناسبه:

أولاً: ففي عصر الثورة العباسية وعصر الخلفاء الأقوياء كان العرض يتبع الحالة التاريخية بغية توصيل أفضل صورة إلى القارئ، فإذا كانت الفترة مضطربة وفيها أحداث كثيرة تُؤَثِّر في بعضها فيكون عرضها عرضًا شاملًا يتابع كل العناصر المؤثِّرة؛ أمَّا إذا كانت الفترة هادئة ومستقرَّة فيكون عرضها بأسلوب العناصر، وسنضرب مثالًا يقرب الصورة:

في عصر أبي العباس السفاح والفترة الأولى من عهد أبي جعفر المنصور كان الوضع مضطربًا، فكنا نعرض للقارئ صورة تاريخية تتبع مسار الأحداث يومًا بيوم وشهرًا بشهر، وكيف يعاني الخليفة من ثورة هنا واضطراب هناك وتمرد هنالك، وهو في الوقت ذاته يبني الدولة ويجاهد الروم ونحو ذلك.

فأمَّا إذا انتقلنا إلى عهود كعهد المهدي أو الرشيد، وهي عهود ساد فيها الاستقرار والهدوء؛ فإن عرض التاريخ يومًا بيوم وشهرًا بشهر يُثير الملل لرتابة الأعمال، فيبدو كقراءة في معجم أو قاموس، ففضلنا في هذه الحالة أن نعرض التاريخ كموضوعات: العلاقات الخارجية -المشكلات الداخلية- الرخاء الاقتصادي- النهضة العلمية... إلخ، ونستعرض

---

(١) يقول محمد بن طاهر البرزنجي: إن الإمام ابن حجر يؤخذ نقده التأريخي من خلال روايات مناقب الصحابة وبعض الأحاديث النادرة في صحيح البخاري حول أحداث الفتنة في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم. وأما الذهبي فقد استخدم النقد على نطاق لا بأس به في كتابيه العظيمين «تأريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء». ولكن الحافظ ابن كثير استعمل النقد أكثر منهما بكثير، ولعلَّ كتابه القيم «البداية والنهاية» هو المحاولة الأولى لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي برمته، وأثناء دراستنا لروايات الطبري ومقارنتها بما ذكره ابن كثير من روايات الطبري وغيره وجدنا الحافظ ابن كثير ناقدًا بصيرًا... لم يكثر قبله أحد في النقد كما أكثر هو من استخدامه، وتخمينًا لا حصرًا نقول: إنه نقد ما يقرب ٢٠٪ من أصل الروايات التاريخية ورجّح وصحّح. انظر: محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ١/ ٤١، ٤٢.

تحت كل عنصر ما جرى فيه على طول عهد الخليفة؛ لكي تبدو الصورة أكثر وضوحًا لدى القارئ المعاصر.

وسيبدو هذا المنهج أوضح ما يكون في عصر المأمون حيث كانت بداية عهده مضطربة فتتبَّعناها بالتأريخ اليومي والشهري؛ حتى إذا استقرَّ أمره تتبَّعنا باقي عهده تحت العناصر المذكورة.

ثانيًا: وأما في عصر سيطرة الأتراك فقد ظلت حالة السرد التاريخي على ذات المنهج السابق، ولم نتابع حالة تفكك الدول المستقلة في المشرق والمغرب الإسلامي وتطور الأحداث فيها، فهذا مما لا يحتمله التأريخ للخلافة العباسية، إلا أن يكون الأمر مؤثرا في التاريخ العباسي كما في الدول المستقلة في المشرق الإسلامي في فترة المعتمد والمعتضد وما بعدهما حتى النهاية، إذ أصبح المشرق موطنا لحركات تمرد واسعة هددت الخلافة ذاتها أحيانا كحركة يعقوب بن الليث الصفار ومرداويج بن زيار الديلمي، ثم انتهى عصر سيطرة الترك على يد البويهيين الذين احتلوا بغداد بعد أن نشأوا وتوسعوا في الشرق، وكذلك إن أثرت أحداث في المغرب على التاريخ العباسي كما في مرحلة الدولة الطولونية والعلاقة بينها وبين الخلافة العباسية، كذلك كما في نشأة الدولة العبيدية (الفاطمية) في الشمال الإفريقي ثم استقرارها في مصر.

بقدر ما أثرت الأحداث في حال الخلافة العباسية بقدر ما اهتممنا بتتبع تطورها وتوضيحها لكي يكون القارئ على معرفة بخريطة الأحداث التي تؤثر في مجرى التاريخ.

ثالثًا: وفي شأن الدول التي استقلت عن الخلافة، فقد أرَّخنا لها بحسب الحال، فأما الدول التي كانت بعيدة فاستقلت ولم تشتبك مع الخلافة العباسية في معارك أو سياسات فقد ذكرناها في آخر عصر الخليفة الذي بدأ استقلالها في عهده، وذكرنا عنها نبذة للتعريف بها يختصر كل تاريخها كما في دولة بني أمية في الأندلس ودولة بني مدرار في المغرب أو السامانيين فيما وراء النهر، وأما الدول التي استقلت وجرى بينها وبين الخلافة مناوشات فقد أخذنا في تأريخها جنبا إلى جنب مع تاريخ الخلافة العباسية، وذكرنا أحوال العلاقة بينها وبين الدولة العباسية حربا أو هدنة أو سلما، وتقلبها بين هذا وذاك.

رابعًا: وفي عصر سيطرة البويهيين، سنجد أن دائرة الجغرافيا قد انحسرت جدا حتى صارت منطقة العراق في ظل الاستقلال الفعلي للدول المحلية بمناطق المشرق والمغرب، كما

أن الخلفاء لم يعد لهم دور في سير الأحداث بل كانوا على هامشها.. لذا فضلنا أن يكون التقسيم الزمني كما هو بعهود الخلفاء كما درج عليه روادنا المؤرخون، ثم يكون السلطان البويهي من عناصر البحث، ويكون البحث مقصورًا على العراق وحده.

خامسًا: في آخر أيام العباسيين ورث السلاجقة الفاتحون ما كان للبويهيين من سلطان على العراق وفارس، وقليلًا ما اختلفوا عن سياسة البويهيين اللهم إلا احترامهم «البروتوكولي» للخليفة، فضلا عن نشوء ظاهرة الزواج السياسي بين الجانبين، ومن ثم امتثلنا منهج تعاملنا السابق مع البويهيين؛ من حيث التقسيم الزمني بعهود الخلفاء مع الإفراد بعنصر رأسي خاص للسلاجقة في طيلة هذا العصر اعتمادًا على مصادر تاريخية كانت لصيقة بالسلاجقة كتاريخ البنداري الأصفهاني والحسيني في القرنين السادس والسابع الهجريين.

سادسًا: بعد القضاء على السلاجقة في زمن الخليفة القوي الناصر برز العباسيون في موقف الاستقلال المؤقت هذه المرة، وهو ما استدعى ظهور الإصلاحات الداخلية وبروز الأوضاع السياسية والاجتماعية للعراق بصورة جديدة بعد ما يقرب من قرون ثلاثة، فبدأنا نتناول نتفًا عن أحوال بغداد الاجتماعية، فضلا عن جنوحنا لدراسة التاريخ العباسي في هذه الحقبة في صورة موضوعات منعًا للسآمة والملل، وكان اعتمادنا في ذلك على مصادر عاصرت هذه الأحداث كتاريخ المنتظم لابن الجوزي والكامل لابن الأثير.

سابعًا: لم تلبث الأخطار أن بدأت تطل من جديد على العباسيين خاصة في ظهور الخوارزميين ثم المغول في الشرق، الأمر الذي استدعى إفراد الحديث عن هذه المستجدات معتمدين في ذلك على المصادر التاريخية لصيقة الصلة بهذه الدول كتاريخ النسوي الذي يؤرخ لسيرة خوارزمشاه وابنه منكوبرتي وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني وغيرها بالطبع.

ثامنًا: أفردنا الحديث في العصر العباسي المتأخر للدول المستقلة التي كانت لها صلات مع الخلافة العباسية مثل سلاجقة الروم والشام والأتابكيات والدولة الزنكية والأيوبية وبدايات الدولة المملوكية، وهو حديث موجز سريع كان لابد منه لكشف الصورة العامة لشبكة العلاقات العامة للخلافة العباسية آنئذٍ؛ وراعينا في ذلك الاتكاء على المصادر التاريخية التي تؤرخ لهذه الدولة وتلك، وكذلك المصادر البلدانية. وكذلك طبيعة العلاقات العباسية الفاطمية وكيف أن كتابًا مثل «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» لتقي الدين

المقريزي (ت٨٤٥هـ) يعد مصدرًا مهمًا لاستقاء مادة قد لا توجد في مصادر التاريخ العباسي حول هذه العلاقات.

تاسعًا: واجهتنا مشكلة ندرة المصادر الأصلية في العصر العباسي الأخير وخاصة السنوات الستين الأخيرة قبل سقوط الخلافة على يد المغول؛ فكنا نرجع إلى ما تيسّر لنا من مخطوطات تناولت تلك الحقبة ولـمّا تُحقَّق بعد، مع ما تحصلنا عليه من مصادر أخرى، فضلا عن بعض المصادر والمراجع الفارسية والغربية المعرّبة وهي على قدر كبير من الأهمية؛ فضلا عن الاسترشاد بروايات المؤرخين النصارى والشيعة الذين عاصروا هذه الأحداث ومقارنتها بروايات المؤرخين السنة في القضايا المتشابكة بينهم مثل دور ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي ونصارى بغداد في إسقاط الخلافة العباسية وغيرها.

وفي الختام: نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل كل أعمالنا صالحة، ولوجهه الكريم خالصة، وألا يجعل فيها ندا ولا شريكا، وأن يكتب لها البقاء والقبول.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلفان

تمهيد
موجز الدولة الإسلامية قبل العباسيين

الدولة العباسية ليست إلَّا حلقة في سلسلة التاريخ الإسلامي، ولئن كان هذا الكتاب مخصَّصًا للحديث عن دولة العباسيين؛ فإن كثيرًا من الأمور لا يمكن فهمها على الوجه الصحيح بغير معرفة ما كان قبلها منذ أن أنشأ النبي محمد ﷺ دولة الإسلام في العام الأول من الهجرة في المدينة المنورة، وحتى سقوط الدولة الأموية، مرورًا بعهد الخلافة الراشدة.

إن العهد النبوي مع عهد الخلافة الراشدة هو العصر الذهبي للأُمَّة المسلمة كلها، وهو الأفق الذي ترنو نحوه الأُمَّة لاستعادته ما بقيت، وهو غرض المصلحين في كل أزمنتها وأماكنها، كلهم يُريد أن يرتقي بالمسلمين في عصره ومصره ليكونوا أقرب إلى جيل الصحابة والتابعين، وأن يكون الحاكم أقرب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم جميعًا).

ثم كانت الدولة الأموية عهدًا آخر شهد انحرافات واضحة عن العهد الراشدي؛ لكنه كان أفضل من كل ما تلاه من عصور وعهود، وعلى الرغم من أن الدولة العباسية قامت في الأصل لإصلاح الانحرافات الكائنة في العهد الأموي؛ فإن التاريخ جرى بما جعلها أقلَّ شأنًا وإنجازًا من الدولة الأموية، وأكثر انحرافًا -أيضًا- عنها وعن عهد الخلافة الراشدة، وإن كان للجميع ما له وما عليه؛ مآثره وأمجاده ومفاخره، وانحرافاته وسقطاته ومثالبه.

ومن ثَمَّ آثرنا أن نبدأ موجزًا سريعًا لاستعراض التاريخ الإسلامي قبل الدولة العباسية؛ ليكون تمهيدًا للدخول إلى الرحلة في عصر الخلافة العباسية.



دولة النبي ﷺ

انحطَّت الإنسانية ووصلت إلى دركاتها الأخيرة؛ حتى لم يبقَ من أهل الخير في هذه الأرض جميعًا إلَّا شراذم قليلة؛ حضارات الشرق والغرب تعيش على اضطهاد الإنسان وتقسيم الناس إلى سادة وعبيد، تزخر بالمظالم والكوارث، تشيع فيها فواحش الأخلاق وفساد الأفكار؛ الأصنام تصير آلهة معبودة، ليس في جزيرة العرب وحدها بل في العالم كله، وللأصنام قوم نصبوا أنفسهم كهنة وسدنة يأكلون من خلالها أموال الناس بالباطل، ويُرَسِّخُون بها للطغاة الحاكمين؛ فالطاغية في العالم حينئذٍ إمَّا إله كامل، وإمَّا نصف إله، وإمَّا أنه وكيل الإله على هذه الأرض، وبهذه الألقاب يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، ولا رادَّ لحكمه، ولا ينتهي طمعه لا في إذلال قومه وإخضاعهم، ولا في التسلُّط على غيره من البلاد والممالك؛ يبغي بذلك زيادة أمواله والإكثار من عبيده والخاضعين لحكمه.

ولم يبقَ من نور الوحي في العهود السابقة إلَّا ذبالة أخيرة ضعيفة لا تكاد تقوى على الحياة؛ فضلًا عن تنوير العالم وتغييره، لقد انحرف أهل الكتاب أنفسهم بعد أن حرَّفُوا كتبهم وبدَّلُوها إرضاءً لأهوائهم؛ حتى لم يبقَ منهم إلَّا مَنْ ينتظر زمان النبي الأخير، بعد أن أظلمت الدنيا ولم يَعُدْ ثمة أمل في إصلاحها.

فبعث الله نبيه الخاتم ورسوله الأكرم محمدًا في مكة، التي هي حاضرة الجزيرة العربية، فقام يدعو الناس إلى دين الله تبارك وتعالى، فواجهه القوم الذين تتضرَّر مصالحهم بدعوة تحرُّر الإنسان، فكيف يحكم الأسياد عبيدًا إن جاء دين يُسَوِّي بينهم، فلا يجعل أحدًا فوق أحد؟! وماذا يعمل كهنة الأصنام والأزلام إذا كان المعبود سميعًا قريبًا مجيبًا لا يحتاج إلى وسطاء؟! وماذا يفعل الذين يحبُّون أن تشيع الشهوات إذا جاء دين يُتَمِّمُ مكارم الأخلاق؟!

واجه النبي ﷺ حربًا ضروسًا هائلة في مكة فقد فيها من الأرواح والأموال شيئًا كثيرًا؛ حتى أيقن أنها مغلقة أمام حركته الإصلاحية، ففكَّر خارج مكة في الطائف، وفي غيرها من قبائل العرب التي كان يطوف على شيوخها وقادتها، فعثر في نهاية المطاف على رجال من يثرب

آمنوا به وبدعوته، وقد كانوا يسمعون من اليهود أن هذا هو النبي الموعود.

وقد بارك الله في المدينة وأهلها؛ فقام هؤلاء الرجال فنشروا الدعوة بين قومهم في المدينة، وما هو إلَّا عامان حتى كانت المدينة قد استعدَّت لحمل راية الإسلام ودعوته، وأبدت استعدادها للتضحية في سبيل هذا بكل ما تملك من أرواح وأموال ومجهود..

وكانوا رجال اللحظة وعلى مستوى المرحلة، فصاروا الخالدين الأكارم، الذين خلَّدهم الله تبارك وتعالى في العالمين بالاسم الذي غلب عليهم «الأنصار»..

لقد كان أهل المدينة أنصار الله ورسوله، استقبلوا المؤمنين بالإسلام من كل مكان، فآووهم ونصروهم، فوجد المسلمون أرضًا مستقلَّة أنشأوا عليها الدولة الإسلامية الخالدة، ومن هذه اللحظة بدأت ولادة ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾..

وضع النبي ﷺ في مكة قواعد الدولة الإسلامية، وبدأ نزول التشريعات والتعاليم والأحكام في آيات القرآن الكريم، وصار المسلمون بعد فترة بسيطة يدًا واحدة وجسدًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر!

لقد كان إنشاء الدولة الإسلامية من عجائب التاريخ؛ فعلى أرض فقيرة تعمل بالزراعة وتعتمد حياتها على الاستيراد، التحم القوم الغرباء الآتون من خارجها مع أهلها، ثم نسي أهلها ما كان بينهم من عداوات تاريخية، وفي وقت حطَّم كل الأرقام القياسية التاريخية استطاع هذا الجمع الغريب على هذه الأرض الفقيرة أن يصنع دولة قوية متماسكة، وبعد عام واحد فقط بدأ ليس في الوقوف على قدميه فحسب بل في تأسيس الدولة القوية الكبيرة.

وما هي إلَّا عشر سنين أخرى حتى كانت دولة المدينة قد أصبحت تُسيطر على كل الجزيرة العربية؛ وأصبح قائدها الطريد المهاجر محمد ﷺ هو الرجل الأول والقائد الأكبر الذي خضعت له الإرادات والقبائل.. ثم هو ما زال كحاله متواضعًا رقيقًا، ينام على الحصير الذي يُؤَثِّر في جسده، ويأتيه الرجل يرتعد من هيبته فيقول له: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ فِي هَذِهِ الْبَطْحَاءِ**»[1].

---

(١) ابن ماجة (٣٣١٢)، والحاكم (٣٧٣٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).

وتطهَّرت الجزيرة العربية من فساد الدين وعبادة الأصنام، ومن فساد الأفكار والأخلاق وانتشار الفواحش، وكانت نقطة البداية في إصلاح الأرض كلها، وصارت دولة الإسلام قوية مكينة، تتبادل الرسائل والسفارات مع إمبراطوريات فارس والروم، بل وبدأت بينهما الاحتكاكات العسكرية مؤذنة بظهور قوم آخرين على ظهر هذه الأرض؛ لا يُريدون إلَّا وجه الله وتحرير الناس من عبودية الأصنام والحكَّام إلى عبودية الله، ومن ضيق الآفاق والأفكار وانحصارها في الدنيا إلى سعة الأخلاق والأحلام في الدنيا والآخرة، ومن ظلم الكهان والسدنة والمستبدِّين إلى عدل الله الحقِّ المبين؛ الذي لا يحتجب عن عباده بكاهن ولا سادن!

***



دولة الراشدين

تُوُفِّيَ النبي محمد ﷺ وقد أسس الدولة الإسلامية، فصارت دولة قوية محفوظة الحدود، قد اكتمل لها التشريع الإلهي الذي يمثِّل الدستور الخالد لها، وصار لها رجال تتمنَّى أي دولة أن كان لها واحد منهم.. فاجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة لينتخبوا من بينهم أفضلهم وأقواهم وخيرهم وسيدهم.. ذلك هو:

أبو بكر الصديق

لقد تولَّى أبو بكر الخلافة في ظرف بالغ الدقَّة والخطورة؛ إذ نزلت وفاة النبي ﷺ على المسلمين كأشد صاعقة اهتزُّوا لها؛ حتى فقد بعضهم عقله لبعض الوقت، فكان رضي الله عنه أثبت الجميع وأسرعهم إفاقة حين صدح بقولته الشهيرة: **«مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ»**. ثم تلا قول الله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤][(١)]. فعندئذٍ أفاق مَنْ لم يكن يُصَدِّق، أو بالأحرى مَنْ لم يكن يُريد أن يُصَدِّق، وعلموا أن النبي ﷺ قد استكمل أيامه في هذه الدنيا، وأنه قد فارقها إلى لقاء ربِّه جلَّ وعلا، بعد أن قام بالمهمَّة خير قيام: أدَّى الرسالة، وبلَّغ الأمانة، ونصح للأُمَّة، وجاهد في الله حقَّ جهاده.

اختار المسلمون أبا بكر الصديق ليكون خليفة لرسول الله ﷺ في منصب رئيس الدولة، وكان هذا الاختيار هو الأساس الشرعي في الفكر الإسلامي لشرعية الحكم؛ حيث لا حقَّ لأحد في تنصيب نفسه أو غيره على المسلمين بغير رضىً منهم وتشاور، وأعلن أبو بكر في أولى خطبه عددًا من المبادئ التي تُنَظِّم العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الإسلام؛ منها: أنه مُختار منهم وهم الذين نصبوه في هذا المقام، لا أنه نصب نفسه، أو نصبه أحد من الناس، أو أنه يستحقُّ هذا المنصب لأفضلية له على غيره. ومنها: أن للأُمَّة دستورًا وقانونًا متمثلًا في

---

(١) البخاري (١١٨٥).

الشريعة، وأن الحاكم ملتزم به، وأن انحراف الحاكم عن القانون هو مدعاة لعصيانه وعدم القبول به وضرورة مقاومة انحرافه. ومنها: المساواة التامَّة بين الرعية؛ فكلهم أمام القانون سواء، كلهم يُؤخذ له حقُّه ويُؤخذ منه حقُّ غيره.

بدأ أبو بكر الصديق في منصب الخلافة وأمامه ثلاث مشكلات خطيرة: **أولاها:** ارتداد قبائل العرب التي أسلمت مؤخَّرًا وإعلانها الانفصال إمَّا عن الدين كله، وإمَّا عن تأدية الزكاة والأموال، وبعضهم وصل به الحال إلى أنه كان يجهِّز لحرب المسلمين في عاصمتهم في المدينة المنورة! **والثانية**: ذلك الجيش الذي أشرف النبي ﷺ بنفسه على إعداده وتجهيزه للخروج إلى حرب الروم بقيادة الفتى القائد أسامة بن زيد رضي الله عنه؛ إذ اقترح بعض الصحابة إلَّا يخرج هذا الجيش مع تغيُّر الوضع الأمني بارتداد قبائل العرب، وضرورة أن تبقى القوَّة المقاتلة إلى جوار العاصمة تحسُّبًا لأي طارئ؛ وهو ما كان أبو بكر يرفضه بإصرار؛ لأن النبي ﷺ أوصى بإنفاذ هذا الجيش، فكان هذا نصًّا صريحًا من النبي ﷺ لا يحتمل أن يُوضع على محكِّ البحث والنقاش. **والثالثة**: هي التعامل مع إمبراطوريتي فارس والروم؛ وقد ظهرت عداوتهما، وصاروا في مجال التنفيذ للقضاء على الدولة الإسلامية كلها.

وقد ترتَّب على هذه المشكلات مشكلات أخرى فرعية؛ مثل: الحدِّ بين المسلم والكافر، وهل يُقاتل مَنْ لا يُؤدي الزكاة مع اعترافه بباقي أركان الإسلام؟ وماذا عن تسيير الدولة وقد انقطع الوحي ومات النبي المعصوم، وصار يحكم المسلمين واحدٌ منهم؛ ليس لكلمته قداسة ولا عصمة ولا يأتيه وحي؟ وما الشورى؟ ومَنْ أهلها؟ وما حدودها؟ وضرورة أن يُجمع القرآن في كتاب واحد مكتوبًا محفوظًا؛ لكيلا يضيع لوفاة الحافظين.

وقد قام الخليفة أبو بكر بمهمته خير قيام، فاضطلع بمهمَّة إنفاذ جيش أسامة بن زيد إلى الروم مع وضع خطَّة لحماية المدينة؛ التي تشهد تداعيات الوضع الأمني الخطير المترتِّب على خلوِّها من المقاتلين، وهو ما كان له أثر بعيد حول ردع القبائل جميعًا التي رأت جيشًا يخرج في هذه الظروف إلى حرب مَنْ لا يتصوَّرون مواجهتهم، ثم أخرج الرسائل والجيوش تباعًا ضمن خطَّة موضوعة سلفًا لإنهاء حركة المرتدين سلمًا ثم حربًا في أنحاء الجزيرة العربية، واستطاعت الجيوش تحقيق انتصارات حاسمة على المرتدِّين وزعماء حركاتهم؛ مما أعاد الهيبة إلى الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية، وانتهت حركة الردَّة سريعًا، وإن كلَّفت المسلمين

عددًا من خيرة الرجال والأبطال.

وكان مما ترتب على حروب الردَّة ظهور الضرورة إلى جمع القرآن الكريم من الصدور والسطور والصحائف في كتاب واحد؛ من بعد ما فقد المسلمون كثيرًا من حفظة القرآن في حروب المرتدين، فتمَّ في عهد الصديق أهمُّ وأدقُّ وأعظم عمل توثيقي في التاريخ الإنساني كله، وجُمِع القرآن في كتاب واحد بطريقة علمية توثيقية، كانت الترجمة الواقعية لوعد الله الخالد: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

وفي خلال هذه الفترة أسس الصديق للتنظيم الإداري للدولة؛ فكان الولاة خاضعين تابعين للسلطة في المدينة المنورة التي هي العاصمة؛ فمنها تصدر الأوامر إلى كل الأنحاء، وتأتي إليها الأموال المقرَّرة في الشريعة.

ثم بدأت مرحلة الفتوح بعدئذٍ؛ حيث استطاعت الدولة الإسلامية الوليدة والخارجة من حرب داخلية طاحنة أن تدخل المواجهة مع القوتين العالميتين في ذلك الوقت؛ وهما: إمبراطورية فارس، وإمبراطورية الروم، ومن العجيب المدهش أنها خاضت هذه المواجهات في وقت واحد، وهذا يُعَدُّ من عجائب التاريخ ووقائعه المدهشة.

وبرزت في تلك الفتوحات أسماء فرسان الإسلام ورجال الإيمان الخالدين، وعلى رأسهم سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﵁؛ الذي لم يُهزم في معركة قط، وقد بدأت مسيرته المظفَّرة بقيادته فتوح العراق، وأخذت تتساقط أمامه المدن الفارسية الواحدة تلو الأخرى؛ حتى تحقَّق رسوخ مطمئن للفتوحات في فارس، ثم وجَّهه أبو بكر الصديق عونًا ومساعدة للجيوش التي تُجابه الروم؛ فقد كان الوضع أقلَّ نجاحًا منه في فارس، فانطلق خالد بن الوليد ليُغَيِّر خريطة الأوضاع في الشام، وتبدأ به مرحلة اكتساح الإمبراطورية الرومية وفتح مدن الشام.

في جبهة العراق تسلَّم الفارس الكبير المثنى بن حارثة الشيباني القيادة العامة من خالد بن الوليد، وواصل تقدُّمه في المدن الفارسية، وفي جبهة الشام كانت أربعة جيوش إسلامية تتقدَّم في المدن الرومية، ثم جاءها جيش خالد بن الوليد الخامس، فنشبت معركتان فاصلتان في تاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية: معركة أجنادين ومعركة اليرموك.

ورأى العالم وللمرَّة الأولى فتوحًا حربية ليست كغيرها من الفتوح، سرعة فروسية وقوَّة

ورحمة وعدلًا وإحسانًا، وهي الفتوح التي أثارت وستظلُّ تُثير كل أنواع الاندهاش والإعجاب من المؤرِّخين عبر العصور، وهي التي يُسَمِّيها المؤرِّخ وعالم الاجتماع الإنجليزي هـ. ج. ويلز: «أعجب قصص الفتوح التي مرَّت على مسرح تاريخ الجنس البشري»(١). ولم تكن الفتوح عجيبة من حيث قوتها وسرعتها بل بأخلاق الفاتحين أيضًا، وهو ما تُعَبِّر عنه العبارة الشهيرة للفيلسوف الفرنسي المعروف جوستاف لوبون: «وكان يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويُسِيئُوا معاملة المغلوبين، ويُكْرِهُوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... فالحقُّ أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم»(٢).

هذه الفتوح السريعة القوية صنعت موجة هادرة من الهيبة للمسلمين في العالم القديم، الذي استيقظ فجأة على قوم خرجوا من الصحراء المجهولة المهملة؛ فانطلقوا حتى لم يَعُدْ يقف أمامهم شيء، كما أن المعاملة الإسلامية بالعدل والرحمة بين الناس صنعت موجة هادرة أخرى من انتشار الإسلام بسرعة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا؛ بعد أن تعرَّفُوا على دين يحمله رجال لم يسمعوا عنهم إلَّا في الأساطير وحكايات الخيال، نبلًا ومروءة وعدلًا ورحمة!

وصحيح أن حركة الفتوح تمَّت تحت مظلَّة الإيمان القوي الهادر؛ إلَّا أنها لم تنجح بمجرَّد هذا، بل كانت الخطط الحربية التي وضعها القادة الميدانيون والقيادة العامة ثم القيادة العليا في العاصمة دليلًا على أن القوم كانوا من المحترفين الخبراء، ويمكن العودة في هذه التفاصيل إلى الكتب المتخصِّصة(٣).

وتبلغ الدهشة منتهاها حين نعلم أن كل هذا قد تمَّ في عامين فحسب؛ هما فترة ولاية الصديق ﵁، فأي رجل هذا الذي تسلَّم زمام الحكم والعاصمة مهدَّدة بالاجتياح والنهاية، ثم ترك الحكم بعد عامين فقط وقد وضع دولته بين القوى العالمية العظمى؟!

(١) هـ. ج. ويلز: موجز تاريخ العالم ص٢٠٤.
(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٦٠٥.
(٣) أفضل ما كُتب في التفاصيل الحربية للفتوحات الإسلامية فيما نعلم هي مؤلفات الأستاذ أحمد عادل كمال في سلسلته «استراتيجية الفتوحات الإسلامية»، وتشمل: «الطريق إلى المدائن، سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية، الطريق إلى دمشق، القادسية، الفتح الإسلامي لمصر»، ثم كتابه «أطلس الفتوحات الإسلامية».. ثم يأتي بعدها مؤلفات اللواء محمود شيت خطاب، والركن بسام العسلي وغيرهم.

لقد أنجز الصديق في عامين فحسب ما عجز عنه أبطال التاريخ وشخصياته الكبرى في أعمارهم؛ وذلك من إقرار الوضع الداخلي، ثم تثبيت أقدام المسلمين على الساحة العالمية، ثم هو بعد كل هذا رجل كغيره من الناس يتفقَّد الأيتام، ويقوم بحاجة الأرامل والفقراء والمحتاجين بنفسه، ويضرب المثل في الزهد والورع والخوف من الله.. إنها حقًّا شخصية لا تُحيط بها الكلمات!

جاء الأَجَلُ أبا بكر الصديق فترك هذه الدنيا غير آسف عليها، ولا حريص على أن يرى نفسه إمبراطور الدنيا، بل اشتاق إلى لقاء ربِّه، ولم يترك خلفه شيئًا ذا بال، إلَّا اقتراحًا على الأُمَّة أن يكون خليفتها من بعده رجلًا عظيمًا فريدًا من نوعه؛ ذلك هو:

عمر بن الخطاب

لقد كان عمر بن الخطاب عنوانًا على عزَّة الإسلام والمسلمين، وكان رجل المواقف الصعبة، شديدًا في الحق، بصيرًا ألمعيًّا، نزل القرآن يُوافق رأيه في أكثر من حادثة، ولم يكن المسلمون يعدلون به أحدًا بعد أبي بكر رضي الله عنه.

لقد كان اقتراح أبي بكر على الأُمَّة بخلافة عمر مجرَّد اقتراح لا أكثر؛ فالأُمَّة هي صاحبة القرار والاختيار في النهاية، ولقد أقرَّت الأُمَّة اقتراح أبي بكر ورضيت باختيار عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة عليهم، وفي أولى خطبه رضي الله عنه أعاد التركيز والتأسيس للعلاقة بين الحاكم والأُمَّة، وأن الحاكم إنما هو وكيل عن الأُمَّة؛ وليس وصيًّا عليها، أو بديلًا عنها، وأن طاعته مشروطة بالتزامه شريعتها وقوانينها، وأن للأُمَّة حقًّا أصيلًا في مقاومة انحراف الحاكم وتقويمه، وأن العدل هو القيمة العظمى التي ينبغي على الخليفة أن يُقيمها، وأنه لا أحد من الناس يتميَّز في أخذ الحقِّ له أو أخذ الحقِّ منه.

وشهد عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قفزتين كبيرتين: **الأولى** على مستوى التنظيم الإداري الداخلي للدولة الإسلامية، **والثانية** على مستوى الفتوحات العظيمة التي انفجرت شرقًا وغربًا؛ حتى زالت في عهده الدولة الساسانية الفارسية، وترنَّحت الدولة الرومانية البيزنطية، وأصبح عالم الإسلام يمتدُّ على رقعة فسيحة من أواسط آسيا وحتى السواحل الغربية لإفريقيا.

اهتمَّ عمر بن الخطاب بجوانب النشاط الاجتماعي كالحسبة، والنشاط الاقتصادي كالتجارة وأحوال الأسواق، والنشاط العلمي التعليمي؛ حتى صارت المدينة في عهده منبع العلوم، وصار يبعث إلى الأمصار بالعلماء النابهين ينشرون دين الله، ويعلمونه للناس في الآفاق جميعًا، وقد وفَّرت هذه الموجة العلمية إسنادًا لموجة الفتوح؛ فبالعلم كثر المسلمون وكثر المجاهدون، واستقرَّ الإسلام في النفوس وفي البلاد المفتوحة، وحتى الجانب الأدبي إذ كان عمر ﷺ حافظًا للشعر محبًّا له، مشهورًا بالاستشهاد به.

وشهدت الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب خطوات متقدِّمة في البناء والتعمير وإنشاء المدن؛ كمعسكرات في بادئ الأمر، ثم كعواصم حضارية؛ مثل: البصرة، والكوفة، والفسطاط وسرت، كما شهدت اجتهادات جديدة مثَّلت تشريعات أصيلة للأُمَّة فيما بعدُ؛ مثل: حالات المجاعات، والنوازل العامة، كما حدث في عام الرمادة، وانتشار الطاعون، وأثَّر ذلك على دفع الزكاة، وتنفيذ الحدود، وابتكار الحجر الصحي، وتقسيم المواريث.

وفي عهد عمر نضجت وتطوَّرت مؤسَّسات الدولة المالية والقضائية، وأُنشئت الدواوين (الوزارات)، فضُبِطت أحوال الدولة ومواردها ونفقاتها، وحُصِر المواطنون في سجلات، وكانت لهم رواتب سنوية، وابتدأ التأريخ الإسلامي، وصدرت النقود الإسلامية، وتعامل عمر ﷺ مع ولاة الدولة على المدن والأنحاء بالرقابة التامَّة في الأموال والإدارة وإقامة العدل، وكانت رغبات أهل المدن في تغيير ولاتهم نافذة ومستجابة؛ مهما كانت تَقْوَى هذا الوالي وعدله.

هذا الازدهار الداخلي لم يكن وحده الإنجاز الكبير الذي قام به عمر بن الخطاب ﷺ؛ بل لا يمرُّ قارئ على سيرة عمر بن الخطاب إلَّا ويرى موجة الفتوحات الهائلة التي توسَّعت فيها الدولة الإسلامية أضعاف مساحتها؛ ففي عهد عمر اكتمل فتح الشام ومصر والشمال الإفريقي، وسقطت الدولة الساسانية الفارسية، وواصلت الجيوش الإسلامية مسيرتها في فتح البلاد بروائع الخطط الحربية، وبسالات الشجاعة، ونوادر الإقدام، وفي فتح القلوب بما أقاموه من العدل وما نشروه من الرحمة.

وقد كان للفتوح أثر كبير في الاحتكاك الحضاري بين المسلمين وغيرهم من الأمم، وتأصَّلت في حركة الفتوحات تشريعات فقهية في التعامل مع الأمم والبلدان المفتوحة، وفي

العلاقة بين دولة الإسلام وغيرها من الدول، وغير ذلك مما هو مبسوط في الكتب المتخصِّصة في الحضارة والإدارة والسياسة الشرعية؛ ولذلك فإن الفقه المأثور عن عمر ﵁ غزير وفير[1].

وقبل كل ذلك وبعده كان عمر ﵁ مثالًا في الإيمان والزهد والتقشُّف، وكان يُحاسب نفسه حسابًا شديدًا، وكان يبكي من خشية الله ومن قراءة القرآن؛ حتى حفرت الدموع مسارًا لها في خَدَّيْه، وامتلأت قلوب الناس بمحبَّته وهيبته، ولئن كان الصديق قد ترك الدولة وقد وضعها بين مصافِّ القوى العظمى، فإن عمر بن الخطاب قد تركها وهي القوَّة الأكبر على الساحة العالمية؛ بعدما انهارت أمامها دولة بني ساسان، وانكمشت أمامها دولة البيزنطيين.

وكانت عشر سنوات فارقة في تاريخ الإنسانية، ثم جاءته الطعنة الغادرة ذات يوم وهو يُصَلِّي الفجر، طعنه عبد مجوسي مِمَّنْ يعملون في المدينة، فكانت الطعنة النافذة القاتلة التي مكث فيها أيامًا ثم فاضت روحه إلى بارئها، ﵁ ورحمه الله تعالى.

وكانت آخر مآثر عمر وآثاره أن اقترح على المسلمين طريقة اختيار الخليفة التالي، فاختار ستة من خيار الصحابة؛ وهم بقية العشرة المبشرين بالجنة مع استبعاد قرابته، ورتَّب أمر الاختيار بينهم؛ فلمَّا مات سار الصحابة على اقتراحه، وأسفر كل هذا عن انتخاب المسلمين للرجل الثالث في المنزلة والمكانة والفضل والمقام.. ذلك هو:

عثمان بن عفان

وقد سار عثمان بن عفان ﵁ على سيرة الراشدين أبي بكر وعمر في الحكم، وكانت أولى خطبه مؤسِّسة للمفاهيم والأصول ذاتها التي أسس لها خطاب الشيخين؛ من حيث إن الخليفة وكيل عن الأُمَّة، وليس وصيًّا عليها، وأن للأُمَّة حقَّ مقاومة انحرافه عن القانون الذي هو الشريعة النازلة في القرآن والسُّنَّة، وأن أمر الأُمَّة تحكمه الشورى، وأن العدل بين الناس والمساواة بينهم في الحقوق واجب من واجبات الخليفة.

غير أن ثمة إضافة جديدة مميزة في خطابه إلى الناس؛ ألا وهي التوصية بالزهد في الدنيا، ففي ذلك الوقت كانت الدولة الإسلامية قد أقبلت عليها الأموال من كثرة الفتوح والغنائم

---

(١) وقد اجتهد في جمعه الأستاذ الدكتور محمد رواس قلعه جي في كتابه: «موسوعة فقه عمر بن الخطاب»، وصدرت طبعته الأولى عن مكتبة الفلاح، الكويت، منذ ثلاثين عامًا (١٤٠١ هـ= ١٩٨١م).

والتنظيم الإداري القوي، وكان حريصًا في رسائله إلى الولاة والقادة العسكريين على التأكيد أن النظام الذي وضعه عمر لم يتغيَّر؛ لأنه كان في الأساس على مسمع ومرأى ومشورة من أهل الحلِّ والعقد، ومنهم عثمان.

وكان أهمُّ ما يُمَيِّز عثمان رضي الله عنه أخلاقه السهلة الرقيقة، فكان صورة للحلم والعفو والصفح والتواضع، وكان أكثر الناس حياءً، وكان هذا هو السمت الغالب على شخصه، وكل هذا لا ينافي أو ينقص ما كان عليه من حزم وشجاعة! كما كان مثالًا في الزهد والخوف من الله، والبكاء من خشيته.

وواصلت المؤسَّسات الإدارية نهوضها ونضجها في عهد عثمان بن عفان على الأسس والقواعد ذاتها التي وضعها عمر، مع فوارق في التفاصيل والأساليب فرضها تغيُّر الظروف والمسائل المستحدثة، فتدفَّقت الأموال وعمَّ الرخاء دولة الإسلام.

وقد كان عثمان حاكمًا يقظًا، يُراقب الولاة في كل الأنحاء، ويحرص على اختبار سير الأحوال في الدولة، وكان يتعرَّف على نبض الأُمَّة من خلال حضوره لموسم الحجِّ؛ حيث يستطيع أي إنسان أن يشكو فيه الوالي على بلده، كما كان يسأل القادمين إلى المدينة عن الأحوال، واتخذ من أهل البلاد مَنْ يكتب التقارير إليه، وهذا بخلاف الإجراءات المعتادة؛ كإرسال المراقبين من عنده أو طلب قدوم الولاة إليه، أو الرسائل المتبادلة.

لكن كل هذه الإنجازات تهون أمام هذا القرار الذي هو أهمُّ قرارات عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ وهو جَمْع الأُمَّة على مصحف واحد، وقد اتخذ هذا القرار بعد البحث والشورى والاتفاق مع وجوه الصحابة وكبارهم، وكان الدافع إليه أن البلاد المفتوحة على اتِّساعها قد تلقَّت القرآن عن الفاتحين والعلماء والصالحين، ولكنهم مع طول الوقت وتباعد البلاد أدخلوا اللهجات المحلية في قراءته، ثم بدأ يظهر بينهم التنازع حول القراءة الصحيحة، فكانت الخشية أن يتنازع الناس في القرآن، وأن يعود هذا عليه بالتحريف، فكان قرار الدولة الإسلامية بقيادة عثمان بن عفان هو جمع المسلمين على مصحف واحد، معتمد منسوخ من النسخة التي جُمِعت في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم إرسالها إلى الأمصار لتكون وحدها نسخة المصحف التي تُحاكم إليها اللهجات واللغات المحلية؛ وبذلك حُفِظت الوحدة الإسلامية، وحمى الله كتابه من التحريف والتبديل، الذي انتهت إليه كتب الأمم السابقة.

واستمرَّت مسيرة الجهاد والفتوح تتقدَّم وتُواصل فتحها البلاد والقلوب؛ فقد فُتِح في عهد عثمان بلاد أذربيجان، وطبرستان، والمناطق في جنوبي وغربي بحر قزوين وبلاد القوقاز، وقُتِل الملك الفارسي الأخير يزدجرد، ووصلت الفتوحات إلى خراسان[1]، وتجاوزت كل الجنس الإيراني، ثم بدأت مواجهة الجنس التركي -الذي يقطن مناطق وسط آسيا- من بعد نهر المرغاب، وفتحت بلاد النوبة في مصر، وغيرها من الأنحاء في الشمال الإفريقي.

ودخلت مرحلة أخرى في عهد عثمان ﷺ بإنشاء الأسطول البحري، وبداية الجهاد في البحر بالتزامن مع جهاد البرِّ، وقد كان عمر لم يسمح بهذا خشية على المسلمين من بيئة البحر المحفوفة بالمخاطر، ففتح المسلمون جزيرة قبرص في البحر المتوسط.

لكن ختام عهد الخليفة الراشد الثالث لم يكن كبدايته.. إذ اندلعت أول فتنة في تاريخ الإسلام، تلك الفتنة التي لن تزول آثارها أبدًا!

لقد تضافرت كثير من العوامل لتصنع هذه الفتنة التي أشعلها متآمرون استغلُّوا جهل وتآمر أصحاب القلوب المريضة، فأشاعوا عن الخليفة الراشد الشبهات والأباطيل؛ فإمَّا اختلقوها من الأساس، وإمَّا حرَّفُوها ليصلوا إلى أغراضهم، وخلاصتها: أن الخليفة عثمان بن عفان قد انحرف عن الشريعة وتخلَّى عن إقامة العدل، وظلم الناس، وحابى أقاربه؛ فولاهم على الأنحاء والبلاد. وكل هذه أمور باطلة فاضت الكتب بتفنيدها ونسفها؛ إذ لا تقف أمام أدنى بحث أو تحقيق علمي في الموضوع.

ثم تطوَّر الأمر نحو التشكيك في شرعيَّته أصلًا، وتزعَّم اليهودي المتمسلم عبد الله بن سبأ القول أن الخلافة كانت في الأساس وصية لعلي بن أبي طالب؛ فهو أحقُّ الناس بها، ولا يتقدَّمه أحد فيها، وعملت اليد اليهودية التي استطاعت من قبلُ تحريف المسيحية ونقلها إلى الوثنية؛ لتبدأ المخطط ذاته في الإسلام، وانتشرت هذه الحركة في مصر والبصرة والكوفة، وتفيد المعلومات المتوفِّرة أن الخطَّة كان يُمَهَّد لها منذ زمن، وأن حركتها في البلاد قد بُذِل فيها مجهود كبير.

(١) كلمة «خراسان» مركَّبة من «خور»: (شمس)، و«آسان»: (شروق)؛ أي: شروق الشمس، وكانت خراسان تشمل البلاد الآسيوية الممتدة بين جيحون شرقًا إلى فارس غربًا إلى سجستان جنوبًا، وهي الآن تشمل معظم إيران (الجزء الشمالي الشرقي)، وأفغانستان (الجزء الشمالي)، وتركمانيا (الجزء الجنوبي). انظر: د. أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص١٣٩ (الحاشية).

وكان الخليفة أقرب إلى الرفق واللين من الشدَّة والحسم؛ فزاد ذلك من انتشار الفتنة وتصاعدها، وبدأت الأمور تتأزَّم في تلك البلاد، ثم أخذت منحاها الأخير في خروج جيوش هذه الحركة من هذه الأمصار، ودخولها المدينة، وحصارها بيت عثمان بن عفان ﷺ.

لم تُجْدِ محاولات الإصلاح لا في الأمصار ولا عندما قدموا إلى المدينة، لقد كان الأمر دائمًا يصطدم بترتيب جديد لأهل الفتنة، ولم يكن لدى الخليفة مانع في عزل والٍ أو أكثر؛ ما دام كان هذا اختيار الناس، بل لم يكن لدى الخليفة مانع من التنازل عن الخلافة ذاتها؛ لولا أن الصحابة منعوه من هذا خوفًا من الفوضى، وأن يكون قرار الأُمَّة المأخوذ بالشورى رهنًا برغبات مجموعات تُثير الفتنة، «كلما كرهوا أميرهم خلعوه».. وجرت مشاورات ونصائح وخطب بين الخليفة والصحابة وأهل الصلاح من جانب، وأهل الفتنة من الجانب الآخر؛ لكن جراب الفتنة لم يكن ينضب من تدبير جديد يُعيد الأمور إلى أسوأ مما كانت.

لم يبقَ حلٌّ إلَّا القتال، ولم يكن من الصعب إبادتهم؛ لكن الخليفة رفض تمامًا أن يُراق دم مسلم في هذه الفتنة، ومنع الصحابة من القتال دونه ومنع حراسته، ثم كتبت الأزمة فصولها الأخيرة واستغلَّ أهل الفتنة خروج كثير من الصحابة إلى الحجِّ؛ فاقتحموا الدار على عثمان بن عفان وقتلوه صباح يوم الجمعة (١٨ من ذي الحجة ٣٥هـ)، وهو في الثانية والثمانين من عمره، وبدأ منذ هذه اللحظة انقسام المسلمين الذي توقَّعه عثمان نفسه بقوله: «والله لئن قتلتموني فإنكم لا تتحابُّون بعدي أبدًا، ولا تصلون جميعًا بعدي أبدًا، ولا تُقاتلون العدوَّ جميعًا بعدي».

وكان الخبر صاعقًا على أهل المدينة وعلى أهل مكة -وبها جمعٌ من الصحابة- وعلى الأمصار الإسلامية؛ إذ لم يتوقَّع أحد أن الأمور قد تصل إلى هذا الحدِّ أبدًا؛ فذلك أمر ليست له سابقة!

واجتمع الصحابة في المدينة، واختاروا من بينهم الرجل الرابع في المقام والمكانة والفضل والسابقة، وهو علي بن أبي طالب ﷺ، وكان اختيارهم هذا موافقًا بطبيعة الحال لرغبة أهل الفتنة، الذين خرجوا أساسًا وكثير منهم يعتقد أن عليًّا هو الوصي وهو الأولى بالخلافة والأحقُّ بها.. بينما حاول آخرون منهم تنصيب عبد الله بن عمر تعبيرًا عن قوتهم، وظنًّا منهم أنهم أصبحوا أهل القرار، غير أنهم لم يجدوا أي استجابة من عبد الله بن عمر؛ حتى بعد أن هدَّدُوه بالقتل، فأيقنوا أن الخلافة لن تخرج عمَّا أقرَّه أهل المدينة وبقية المهاجرين والأنصار وأهل بدر، وأن الناس لن يُخالفوهم في هذا، فاستسلموا!

فبهذا بدأ عهد الخليفة الراشد الرابع:

علي بن أبي طالب

لقد تولَّى الخلافة في وقت عصيب مضطرب؛ حيث صارت العاصمة فعليًّا تحت أيدي أهل الفتنة، والأمور قد خرجت من أيدي كبار الصحابة؛ فكانت المهمَّة الأولى إعادة الهدوء والاستقرار إلى الدولة.

ولم يُخالف علي رضي الله عنه الخلفاء الراشدين من قبله في تأصيل الأسس التي سيحكم بها؛ فالمرجعية للقرآن والسُّنَّة، والخليفة اختيار من الأُمَّة، وهو وكيل عن الناس في إدارة أمورهم، وللأُمَّة أن تخالفه وتقاوم انحرافه عن المنهج، والحكم يكون بالشورى، والعدل بين الناس هو واجب الخليفة.

وقد واصلت مؤسَّسات الدولة نموَّها وتطوُّرها في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لا سيما وقد كان هو نفسه أحد كبار فقهاء الصحابة، وله اجتهادات وقرارات ضبطت مسار الأحكام والإجراءات ونموَّ مؤسَّسات الدولة في الاقتصاد والقضاء والإدارة وغيرها.

لكن الذي غلب على تاريخ أمير المؤمنين علي رضي الله عنه هو الأزمة السياسية الهائلة التي بدأت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت أولى بوادر هذه الأزمة هي الرغبة القوية في سرعة القصاص من قتلة عثمان، وهو ما كان مستحيلًا في هذه اللحظات الأولى من الحكم، والأمر لم يستقرّ بعدُ، وكثير من أهل الفتنة ما زالوا موجودين في المدينة، غير أن وجهة النظر الأخرى هي أن القصاص منهم ممكن ولو تكلَّف حربًا شاملة، وأن هذا الواجب مُقَدَّم على كل ما عداه، بل وصل الأمر بالبعض -وهو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه- أن لا يبايع لعلي ولا يعترف بشرعيته حتى يأخذ القصاص من قتلة عثمان، وهو يطالب بهذا لأنه ولي الدم لا رفضًا لعلي ولا انتقاصًا منه؛ فالوضع كما يقول ابن حزم: «لم ينكر معاوية قطُّ فضل علي واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أدَّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة، ورأى نفسه أحقَّ بطلب دم عثمان»[1].

كذلك اجتهد فريق من الصحابة على رأسهم أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٢٤.



ومعها اثنان من كبار الصحابة المبشَّرين بالجنة؛ وهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وكان اجتهادهم أن يستعينوا بأهل الأمصار خارج المدينة في الاجتماع مع علي رضي الله عنه؛ لأخذ القصاص من قتلة عثمان، وتكوين حشد شعبي ضاغط يجعل نبذهم والقصاص منهم أمرًا سهلًا حين تقف الأُمَّة كلها وراء علي فيه.

وانضمَّ كل راغب في تأديب أهل الفتنة والقصاص لعثمان إلى هذه الحركة وهذا الجيش بزعامة عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وتوجَّهوا نحو البصرة -حيث كانت العراق من معاقل أولئك المجرمين- وسيطروا عليها، ونشبت حرب بينهم وبين بعض أهل الفتنة وانتصروا عليهم، وبدأت الأمور تتفلَّت تمامًا من يد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وهو ما لم يكن في الإمكان تركه أو السكوت عنه؛ ففيه انهيار الخلافة ودولة الإسلام كلها.

لا يُفْصِح السرد الموجز عن المشكلة وتعقُّدها وتفاصيلها؛ وقد كانت معقَّدة بحقٍّ إلى حدِّ أن خيرة عقول الأُمَّة ونفوسها -وهم الصحابة- اختلفوا في الأمر؛ حتى وقع بينهم قتال، لشدَّة ما كانت وجهات النظر تعتمد على منطق وجيه لدى كل الأطراف؛ حتى اعتقد جميع مَنْ شارك في الخلاف أن معه الحقَّ الكامل الذي لا يسعه أن يتنازل عنه أو أن يُفَرِّط فيه، واعتزل بعض الصحابة هذه الفتنة؛ إذ لم يتبيَّن لهم وجه الحقِّ فيها، على الرغم من أنهم عبقريات عقلية نادرة، ونفوس زكية كبيرة؛ مثل سعد بن أبي وقاص، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن عمر.. وغيرهم.

لقد جمع جيش عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم كلَّ مَنْ رأى أن القصاص من قتلة عثمان واجب عاجل، وكلَّ مَنْ حسب أنه قد فرَّط وتخلَّى عن عثمان ولم يقف مدافعًا عنه كما يجب، فقرَّر الخليفة نقل مقرِّ الحكم إلى الكوفة، وخرج بقوَّاته إليها، وانضمَّ إليه كلُّ مَنْ رأى الوقوف مع الخليفة علي، وأنه الأحق بإدارة الدولة وترتيب أمر القصاص ومراعاة الأولويات، وإلاَّ سينهار كيان الخلافة، ويكون لكلِّ مَنْ رأى الحقَّ في جانب أن يتجاوز الخليفة الشرعي في إقامته، بينما ظلَّ قسم ثالث من الناس في حيرة بين الموقفين وآثر الاعتزال في هذه الفتنة.

دارت حوارات وتفاهمات بين جانب علي وجانب عائشة وطلحة والزبير، ونجحت سفارة القعقاع بن عمرو التميمي في توصيل وجهات النظر الواضحة من علي رضي الله عنه إلى عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وكان قد ثبت أن مسار الطائفة الثانية لم يُؤَدِّ إلى حلِّ المشكلة؛ بل زاد في

تعقُّدها بعد أن تعصَّبت بعض القبائل لأبنائها ممن قتلوا عثمان؛ مما أشار إلى زيادة الاشتعال، وهو ما كان يُثبت صحَّة رأي علي رضي الله عنه، وهنا تمَّ الاتفاق بين الفريقين، فعمَّ الهدوء، وبات الفريقان في أهدأ حال وفي أنعم ليلة.

مثل هذا الاتفاق كان يمثِّل ضربة قوية لأصحاب الفتنة وخططهم، ولا سيما لمَنْ شارك في قتل عثمان الذين علموا أن الخلاف بين الفريقين ليس إلَّا مسألة وقت وأولويات، فتحرَّكوا في سواد الليل، واندسوا بين الفريقين، وقتلوا من الفريقين ثم صاحوا: غدر القوم. فاضطربت الأمور وذهبت إلى الاشتعال، وأهل الفتنة يُشعلونها حتى خرج الوضع عن السيطرة، وانفلتت الأحوال تمامًا، ولم يَعُدْ علي ومَنْ معه يُسيطرون على معسكرهم، وكذلك لم تَعُدْ عائشة وطلحة والزبير ومَنْ معهم يُسيطرون على معسكرهم، وضاعت أصوات العقلاء بين الأشلاء والدماء، ونشبت أول معركة إسلامية - إسلامية في التاريخ الإسلامي (الجمعة: ١٦ من جمادى الآخرة ٣٦هـ).. تلك هي معركة الجمل!

وقد سميت معركة الجمل لأن عائشة - رضي الله عنها - كانت في هودج على جمل، وكان هذا الهودج يمثِّل «لواء المعركة» وعنوانها ورمزها، فما دام ظلَّ قائمًا كان القتال دائرًا عليه ملتهبًا حوله؛ فريقُ الفتنة يُريد قتل عائشة لتنتهي المعركة لصالحهم، والفريق الآخر يقتتل لئلا تُقتل أم المؤمنين وحبيبة رسول الله وأفقه نساء العالمين، ولم يَعُدْ من حلٍّ إلَّا أنَّ أرسل علي فرقة خاصة من جيشه قتلت هذا الجمل، وأخرجت عائشة من بين الحرب في حراستها، وعندئذٍ فقط انتهت المعركة، التي أسفرت عن مقتل طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، ومئات القتلى من الفريقين، بعد أن فشلت كل جهود العقلاء في الطائفتين في وقف القتال وإنهائه.

أسفرت معركة الجمل عن اجتماع الأُمَّة خلف علي رضي الله عنه، وإن كان الثمن فادحًا، ما عدا تلك الأزمة الأصيلة التي نشبت أولًا؛ وهي امتناع معاوية بن أبي سفيان عن البيعة إلَّا بعد القصاص لعثمان رضي الله عنه.

كان معاوية رضي الله عنه واليًا على الشام منذ عهد عمر بن الخطاب، وكان سياسيًّا فذًّا؛ ذكاء وحكمة وحلمًا؛ حتى تعلَّق به أهل الشام وأحبُّوه حبًّا جمًّا، وأهل الشام منذ كانوا أهلَ قوَّة وفتوة وإيمان ونجدة، فهم منذ رأوا قميص عثمان الملطخ بالدماء، وأصابع زوجته المقطوعة حين كانت تُدافع عنه وقد امتلأوا عزمًا صادقًا على السير في أخذ القصاص لعثمان خلف



أميرهم ولي الدم إلى نهاية المطاف.

ولم يكن علي ﷺ بالذي يسمح بتكرار انفلات الولايات من بين يديه، والذي يُنذر بوقوع معارك أخرى أيضًا، ومن المهم القول هنا أن أهل السُّنَّة مجمعون على أن الخلافات التي كانت بين علي وغيره من الصحابة كان الحقُّ فيها إلى جانب علي، وأن مخالفيه هم المجتهدون المخطئون.

عزم علي على غزو الشام وجهَّز جيشًا له، وما إن وصلت الأنباء إلى الشام حتى جهز معاوية جيشًا من أهل الشام، ثم وقعت المعركة الثانية الإسلامية - الإسلامية، وهي موقعة صفين، وفيها اقتتل الجيشان قتالًا هائلًا مريرًا بعد اشتباكات متفرِّقة، فما هو إلَّا أن أدرك الفريقان أن هذه الحرب ما لم تنتهِ في أسرع وقت فلن تنتهي إلَّا وقد فني الجيشان؛ وهما عدة الإسلام ورجاله وقوته الضاربة، فهلاك هؤلاء الناس ضربة في قلب الدولة الإسلامية ذاتها؛ فسعى الساعون في إيقاف القتال، فتفتقت الأذهان عن فكرة رفع المصاحف على الرماح، وطلب الاحتكام! فوافق الطرفان وقد نزل بهما من البلاء ما لم يتوقَّعه أحد منهما!

وكان من أهمِّ ما أسفر عنه القتال هو استشهاد الصحابي الجليل عمار بن ياسر، وكان لاستشهاده معنى أعمق وأكبر من كونه صحابيًا من السابقين؛ ذلك أن النبي قال عن عمار: **«تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ»**[1]. فلما قُتِل عمار شاع هذا القول بين الجيشين، وكان هذا القول كفيلًا بأن ينتهي النزاع، لو أن الأمر لم يصل إلى الحرب، أمَّا في حالة الحرب ونفوس الناس فيها فقد كان الأمر مختلفًا، فما إن بلغ هذا القول معاوية حتى قال: «قتله مَنْ جاء به». وهو التأويل الذي يُجمع العلماء على رفضه وفساده، ولكن أجواء الحرب جعلت كلَّ فريق متمسك بما هو عليه، ولقد اقتنع أهل الشام بهذا التأويل على الرغم من وضوح ضعفه.. فاستمرَّت الحرب حتى لجأ الناس إلى التحكيم.

كلف عليٌّ أبا موسى الأشعري أن يكون ممثِّله في التحكيم، وكلَّف معاوية عمرو بن العاص أن يكون ممثِّله، ووُضعت شروط للتحكيم والصلح، ولم يكن هذا التحكيم على تنازل عليٍّ عن الخلافة أو تثبيت معاوية؛ فهذا أمر لم يكن واردًا، إذ لم يُشَكِّك أحد في خلافة علي في الأساس، ولم يكن أحد يدعو إلى خلافة معاوية، وفي التحكيم روايات كثيرة ضعيفة شوَّهت مواقف الصحابة وتاريخهم، وإنما كان التحكيم لينظر الحكماء في سبيل الخروج من الأزمة

(١) البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٢٩١٥).

التي سالت فيها دماء المسلمين.. وقد اتفق الفريقان على موعد وشروط للحكم بينهما بعد وقت، لكن هذا الأمر انتهى إلى الفشل، وظلَّت الأوضاع على أحوالها.

لكن ثمة أثرًا لم يتوقعه أحد لقبول التحكيم؛ ذلك هو انسحاب بضعة آلاف من جيش علي ﷺ معترضين على التحكيم، ومعلنين أن هذه الطريقة غير شرعية ومخالفة لكتاب الله، ولقد كان هؤلاء من القرَّاء والحفظة لكتاب الله؛ لكن لم يكن لديهم من الفقه إلَّا القدر القليل، فأصبح هؤلاء فتنة جديدة في معسكر علي ﷺ، وتركوا الكوفة وانحازوا إلى منطقة «حروراء» في العراق، وكانوا شوكة أخرى في جانب الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب.

وكانت حركة الخوارج أول حركة معارضة في تاريخ الإسلام، وقد حدَّدت سياسة علي ﷺ معها كيف تكون سياسة الحاكم المسلم مع حركات المعارضة؛ فقد بذل لهم النصح، وأوفد إليهم سفيرًا كالحبر عبد الله بن عباس، فعاد بالكثير عن انحرافهم الفكري والعلمي، وتعهَّد علي إلَّا يتعرَّض إليهم أحد، وألا يُحرموا حقوقهم إلَّا أن يحملوا السلاح على المسلمين، أو يرتكبوا جرائم، وقد وفَّى لهم بعهده ولم يقاتلهم، على الرغم من أنهم كانوا يُكَفِّرُونه على المنابر، ويذيعون أفكارهم في التكفير بالكبيرة وما إلى ذلك؛ فلمَّا انتقل الأمر إلى حيِّز الجريمة وقتلوا من المسلمين؛ قاتلهم علي ﷺ في معركة النهروان فهزمهم؛ لكن أمرهم لم ينتهِ تمامًا!

وقد كان تطرُّف الخوارج بيئة مناسبة لانتشار التطرُّف الآخر، ذلك التطرُّف الذي بدأ منذ عبد الله بن سبأ، وهو الغلو في علي وتعظيمه وتفضيله على سائر الصحابة؛ فقد ذاع هذا بين فريق من الناس حتى بلغ بهم أن يعتبروه الوصي والولي، ثم بلغ الأمر ببعضهم أن جعل عليًّا إلهه، وقد واجه علي هذا الغلو فيه بكل قوَّة وحسم؛ حتى لقد أحرق بالنار مَنِ اعتقدوا أنه رب، وهدَّد مَنْ يسبُّ أبا بكر وعمر بالعقوبة، وكان حريصًا في كل موطن على مواجهة هذه الأفكار وإنهائها!

وضع بعض الخوارج خطَّة لحسم كل مشكلات العالم الإسلامي من وجهة نظرهم؛ لقد اتفقوا على أن يغتالوا الثلاثة الكبار: علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، باعتبارهم «أئمة الضلال» عندهم، وحدَّدُوا لذلك ثلاثة منهم ليقوموا بالاغتيال في وقت واحد، في صلاة الفجر من يوم (١٧ من رمضان ٤٠هـ)، وكانوا يعلمون أن هذا يُشبه العملية الانتحارية، لكن أحدًا لم يبالِ؛ فهذا عندهم «شرف الدنيا والآخرة، فإن نجونا شفينا

أنفسنا وأدركنا ثأرنا، وإن قُتِلْنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها».

ولم تنجح الخطَّة إلَّا مع علي ﷺ وحده، فاستشهد ﷺ على يد عبد الرحمن بن ملجم، فيما كان عمرو بن العاص مريضًا في هذه الليلة؛ فصلى الفجر مكانه قائد الشرطة خارجة بن حذافة فقُتِل على يد عمرو بن بكر؛ وهو يظن أنه قتل عمرو بن العاص فقُتِل، وأما معاوية فقد أُصيب ولم يُقتل، واستطاع المحيطون به القبض على البرك بن عبد الله فقُتِل.

وبهذا انتهت حياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ الرجل الرابع في الإسلام فضلًا ومكانة ومقامًا ومنزلة.

وعهد أهل الكوفة بالخلافة من بعده لابنه الحسن بن علي بن أبي طالب، وجاءته البيعة من الأمصار، ثم صدق في الحسن قول جده رسول الله ﷺ: **«ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»**[1]. إذ تنازل عن الخلافة لمعاوية عام (٤١هـ)؛ الذي عُرف في التاريخ الإسلامي بعام الجماعة.

ومنذ ذلك الوقت بدأت مرحلة أخرى في التاريخ الإسلامي، مرحلة «الملك العضوض»، بعد أن انتهت مرحلة «الخلافة الراشدة».. وكانت أولى دول الملوك في الإسلام؛ هي:

دولة الأمويين!

(١) البخاري (٣٥٣٦)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والترمذي (٣٧٧٣)، والنسائي (٨١٦٦)، وأحمد (٢٠٤٠٨).



دولة الأمويين

قال ابن خلدون: «كان ينبغي أن تُلْحَق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم؛ فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة»(١).

لقد كانت الدولة الأموية هي أفضل دول الإسلام بعد دولة الخلافة الراشدة، ولم تأتِ بعدها دولة أفضل منها؛ فلقد اتَّسعت فيها الفتوح ما لم تَتَّسع من قبل، وأعادت فتح ما كان قد خرج من دولة الإسلام في زمن الفتنة، ثم أضافت إليها أرضًا وبلادًا جديدة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وحفظت بقاء الدولة موحدة يجمعها خليفة واحد يحكم من أقصاها إلى أقصاها.

موجز تاريخ الأمويين

تبدأ الدولة الأموية منذ تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؛ فانتهت بذلك سنوات الفتنة التي شغلت الأُمَّة الإسلامية، وسُمِّي هذا العام بـ«عام الجماعة».

ومعاوية رضي الله عنه صحابي جليل، أسلم قُبيْل الفتح، وحسن إسلامه، وكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاهد في حنين والطائف، ثم ولاه عمر بن الخطاب ولاية دمشق بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان، ثم ولي كلَّ الشام في عهد عثمان رضي الله عنه، واستمرَّ يحكم الشام في عهد علي وقت الفتنة الكبرى؛ حتى تنازل له الحسن عن الخلافة، فكان حاكمًا أربعين سنة؛ منها عشرين في الإمارة، وعشرين أخرى في الخلافة، فمات سنة ٦٠هـ، وعمره ثمانية وسبعون عامًا، وكان معاوية محبوبًا غاية الحب في الشام، وهو أساس حب أهل الشام لبني أمية وولائهم لهم، وكان في غاية الحلم والذكاء، ويُضرب به المثل فيهما، وحكم ملكًا عظيمًا وساسه بخير سياسة؛ حتى لُقِّبَ بـ«كسرى العرب»، وكان حكمه نهاية للفتنة التي أصابت المسلمين، وبداية جديدة لعودة الفتوحات(٢).

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٨٨.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٤٠٦، والبغوي: معجم الصحابة ٥/ ٣٦٣، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٩/ ٥٧ وما بعدها (وفيه كثير من الأحاديث الضعيفة)، وابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٤١٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٩ وما بعدها، وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١٥١.



قال ابن تيمية: «لم يتولَّ أحد من الملوك خيرًا من معاوية؛ فهو خير ملوك الإسلام، وسيرته خير من سيرة سائر الملوك بعده»(١).

وللإمام الذهبي -مؤرِّخ الإسلام- كلمة بليغة في أمر الفتنة التي توزع فيها الناس بين المحب والـمُبْغِض، قال: «وخلف معاوية خلقٌ كثير يحبُّونه ويتغالون فيه، ويُفَضِّلونه، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإمَّا قد ولدوا في الشام على حبه، وتربى أولادهم على ذلك. وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة، وعدد كثير من التابعين والفضلاء، وحاربوا معه أهل العراق، ونشئوا على النصب - نعوذ بالله من الهوى- كما قد نشأ جيش علي رضي الله عنه ورعيته -إلا الخوارج منهم- على حبه، والقيام معه، وبغض مَنْ بغى عليه، والتبرِّي منهم، وغلا خلق منهم في التشيع. فبالله كيف يكون حال مَنْ نشأ في إقليم، لا يكاد يُشاهد فيه إلَّا غاليًا في الحب، مفرطًا في البغض، ومَنْ أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟ فنحمد الله على العافية الذي أوجدنا في زمان قد انمحص فيه الحق، واتضح من الطرفين، وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرنا، واستغفرنا، وأحببنا باقتصاد، وترحمنا على البغاة بتأويل سائغ في الجملة، أو بخطأ -إن شاء الله- مغفور، وقلنا كما عَلَّمنا الله: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحشر: ١٠]. وترضينا -أيضًا- عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلقٌ، وتبرَّأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا عليًّا، وكفروا الفريقين»(٢).

استقرَّت الدولة عبر عشرين سنة، ولما أحسَّ معاوية رضي الله عنه بقرب أجله رتَّب الأمر ليتولَّى من بعده ولده يزيد بن معاوية، ورأى أن ذلك هو الأفضل لمصلحة الأُمَّة، والمانع لتفرقها ودخولها في فتن جديدة؛ لا سيما والدولة قد اتَّسعت، وكثرت الأمم الداخلة فيها، وما هي بحاجة لأن تحتمل نزاعات جديدة قد تودي بها.

والتحليل المتأنِّي لجميع الروايات ولأحوال هذه الفترة يُفضي إلى القول بأن هذا القرار كان هو القرار الأصوب في هذه الفترة(٣)، وقد لخَّص هذا ابن خلدون حين قال: «الذي دعا

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ٧/ ٣٢٨.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ١٢٨.

(٣) ناقشت هذا في دراسة منفصلة بعنوان: «هل كان معاوية محقًّا حين عهد بالخلافة إلى يزيد؟»، وهي منشورة على مدونتي على الإنترنت (http://melhamy.blogspot.com)، وتصدر بمزيد من التفصيل قريبًا في كتاب إن شاء الله.

معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني أمية؛ إذ بنو أمية يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يُظَنُّ أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول؛ حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء، الذي شأنه أهمُّ عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا؛ فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحقِّ هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزَّة في قبول الحقِّ؛ فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه»(١).

كثير من الروايات وردت عن فسق يزيد بن معاوية وتهتُّكه وشربه للخمر، وثمة روايات أخرى تصمه بأكثر من هذا، ولا يصح شيء من هذه الروايات، بل إن يزيد كان من الشخصيات القوية والمؤهَّلة للخلافة -ولو لم يكن أفضل الموجودين بطبيعة الحال- وقد كان قائد الجيش الذي غزا القسطنطينية في عهد أبيه.

وبايعت الأمصار يزيد بن معاوية، ولم يرفض بيعته إلَّا أربع شخصيات: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، فلمَّا تُوُفِّيَ معاوية كان محمد بن أبي بكر قد مات، وكان عبد الله بن عمر معترضًا على مبدأ مبايعة الخليفة القادم في حياة القائم؛ فلمَّا تُوُفِّيَ معاوية وبويع ليزيد بايعه عبد الله بن عمر، وبقى عبد الله بن الزبير والحسين على معارضتهما ليزيد، فأمَّا عبد الله بن الزبير فلم يخرج، وأمَّا الحسين فقد غَرَّه أهل الكوفة وطلبوا قدومه إلى الكوفة؛ لكي يتزعمهم في الخروج على يزيد.

كثير من الصحابة والتابعين نصحوا الحسين بعدم الخروج، لا سيما وأن أهل الكوفة لم يَبْدُ منهم عزمٌ جادٌّ؛ فما زال الوالي الأموي يحكمهم ولم يخرجوا عليه، إلَّا أنَّ الحسين رضي الله عنه أصرَّ على الخروج، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليأخذ له البيعة، فما كان مصير ابن عمه إلَّا الاعتقال، ولما وصل الحسين إلى الكوفة كان حال أهلها كما قال الفرزدق: «قلوبهم معه وسيوفهم عليه». وما صمدوا معه ولا ثبتوا أمام والي العراق ولا جيش الأمويين الذي كان أهله من العراق أيضًا، وسارت الأحداث كأسوأ ما تكون المسيرة؛ حتى أسفرت عن

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٢١٠، ٢١١.

استشهاد الحسين في مأساة كربلاء الشهيرة.

كان استشهاد الحسين مصيبة من المصائب التي نزلت بالأُمَّة المسلمة، لكنها على كل حال ليست أفدح من استشهاد عمر وعثمان وعلي بن أبي طالب، وتضخيم هذه الحادثة وحدها إنما هو في جوهره تضخيم لمصالح سياسية وقتية، ونقطة من نقاط الاشتعال بين السُّنَّة والشيعة، وما ثمة أحد في السُّنَّة يحبُّ يزيد أكثر مما يحبُّ الحسين، إلَّا أنها إعادة إنتاج الأحداث بما اشتملت عليه من روايات ضعيفة وباطلة رواها كذابون لا يعتدُّ بهم(١).

على كل حال؛ انتهت ثورة الحسين باستشهاده؛ لكنها أشعلت القلوب، لا سيما وأن يزيد -وإن لم يُرضه قتلُ الحسين وبكى عليه وأكرم أهل بيته- لم يأخذ إجراءً عمليًّا ضد عبيد الله بن زياد (والي الكوفة) أو عمر بن سعد (قائد الجيش)، وكلاهما لم يتركا للحسين فرصة للعودة أو لإنهاء القتال، وإنما أرادوه أسيرًا فأبى، وقاتل حتى قُتِل، فكان من آثار استشهاده ثورة في العراق قام بها مجموعة ممَّنْ شعروا بالندم لخذلانهم الحسين، وسموا أنفسهم «التوَّابين»، إلَّا أن الثورة الأخطر والأكبر كانت في المدينة المنورة.

ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية، وتزعَّم هذه الثورة عبد الله بن مطيع وعبد الله بن حنظلة بن أبي عامر ومحمد بن عمرو بن حزم ومجموعة أخرى من فقهاء المدينة، فيما عارضها آخرون كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ومحمد بن علي بن أبي طالب (محمد بن الحنفية) وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وسعيد بن المسيب، وأخرج الثوَّار والي المدينة الأموي عثمان بن محمد بن أبي سفيان كما حاصروا بني أمية فيها، ثم طردوهم عنها، فأرسل إليهم يزيد بن معاوية جيشًا بقيادة مسلم بن عقبة المري، وحاول الجيش الأموي إنهاء الأمور بالتفاهم والأمان فلم يُفلح؛ فنشبت المعركة المعروفة في التاريخ باسم «موقعة الحرة»، وفيها انهزم أهل المدينة.. وليت الأمر توقَّف هاهنا! ولكن جيش مسلم بن عقبة استباح المدينة ثلاثة، فنهبها وانتهك حرمتها، وأجبر المنهزمين على البيعة ليزيد باعتبارهم عبيدًا له، غير أن الجيش لم يرتكب ما نسبته إليه الروايات الشيعية من تهمة انتهاك الأعراض واغتصاب بنات المدينة وما سوى ذلك من الكفر القبيح، إلَّا أنَّ انتهاك حرمة المدينة واستباحتها وانتهابها

---

(١) راجع في هذا: د. علي الصلابي: الدولة الأموية ١/ ٤٨٢ وما بعدها، ويُعَدُّ هذا من أوفى ما كُتب في الموضوع، فقد جمع فيه خلاصة ما كُتب في المراجع الأخرى.

وإذلال أهلها كان من الكبائر التي اقترفها يزيد بن معاوية وقائد جيشه مسلم بن عقبة.

وكما حرَّك استشهاد الحسين وما يُقال عن يزيد أهل المدينة، فإن هذا -إضافة إلى ما وقع في الحرة- قد حرَّك ثورة أخرى في مكة، تزعَّمها بعض الصحابة والتابعين: كعبد الله بن الزبير، والمسور بن مخرمة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، لقد بدا في ذلك الوقت بما لا يدع مجالًا للشك أن انتقال الخلافة من الشورى إلى الملك العضوض؛ إنما سيُؤدِّي إلى الطغيان والتجبر والفساد وانتهاك محارم الله -حتى ولو كان ابن بنت رسول الله- وحرمة مدينة رسول الله، ولا شك أن استدعاء الأحداث وقتها ومعايشتها سيُفضي إلى هذه النتيجة بشكل لا لبس فيه، فهذا أول خليفة وصلته الخلافة بالوراثة يتجرَّأ على مثل هذه الكبائر، فمِنْ ثَمَّ كان لا بد من محاولة لإعادة الأمر إلى نصابه، وإعادة الخليفة إلى الشورى.

ولمرَّة أخرى فشل يزيد بن معاوية في إنهاء الأمر سلميًّا عبر الرسائل والوفود، فوَجَّه سريتين إحداهما بقيادة عمرو بن الزبير (أخي عبد الله بن الزبير)، فهُزِمتا خارج مكة، ثم جيشًا بقيادة الحصين بن نمير السكوني، فكان ابن الزبير ينهزم بسهولة ويفقد في كل يوم خيرة أصحابه؛ حتى لم يَعُدْ أمامه إلَّا أن ينسحب ويلجأ إلى البيت الحرام بعدما فقد كل مواقعه، ومع استمرار حصار ابن الزبير وضربه بالمجانيق؛ أضيفت كارثة ثالثة لعهد يزيد بن معاوية وهي احتراق جزء من الكعبة من أثر الضرب بالمجانيق، وهو بطبيعة الحال أمر لم يقصده أحد لا من أهل الشام ولا من أتباع ابن الزبير، ولكنها الحادثة التي اهتزَّ لها المعسكران.. وما هو إلَّا أنَّ وصلت الأخبار بموت يزيد بن معاوية (أول ربيع الآخر ٦٤هـ)، وكان قد مات (١٥ من ربيع الأول ٦٤هـ) وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، وهنا دخلت ثورة مكة منعطفًا جديدًا؛ إذ اقترح الحصين بن نمير قائد جيش يزيد على عبد الله بن الزبير أن يسارع بالمناداة إلى نفسه خليفة، وأن يمضي معه إلى الشام فيأخذ البيعة؛ فهو أحق المسلمين بها.

أمَّا أن يزيد بن معاوية قد أخطأ وارتكب عظائم فهذا ما لا يمكن أن يُنكره أحد، وأما أنه يتحمَّل كل المسئولية فهذا ما لا نُوافق عليه؛ فهذه الثورات التي انطلقت إليه ما كان منها ثورة واحدة قد استكملت أسبابها؛ بل كلها كان ينهزم بأقلِّ المجهود، ثم تحصُّنهم في المدينة وفي مكة، واتخاذهم حرم الله حرمًا لهم وهم يثورون؛ فهذا ما أوقع في الحرج، فما كان بإمكان

يزيد أن يتركهم في ثورتهم، ولا هو نجح في ردِّهم ولا التصالح معهم بالكتب والوفود، ولا كان لهم قوَّة على مواجهة يزيد؛ فضلًا عن حكم الأُمَّة كلها.. ولسنا الآن نوزِّع المسئوليات والأخطاء، فالجميع بين يدي الله تعالى وهو أعلم بهم وهو أحكم الحاكمين، ولكننا ننظر فيما عرفناه من التاريخ لنعتبر ونتعلم، بإنصاف لا يعتريه هوى!

لم يرضَ عبد الله بن الزبير بالخروج إلى الشام كما قال له الحصين بن نمير، ولعلَّه خشي إلَّا يرضى به أهل الشام، وأما أهل الشام فقد بايعوا بعد يزيد ولدَه معاوية بن يزيد، وكان صالحًا وضعيفًا ومريضًا، فلم تستمرُّ أيامه إلَّا ثلاثة أشهر على أقصى تقدير، وفيها خلع نفسه، وترك الخلافة للناس يولون عليهم مَنْ أرادوا، وما لبث بعدها أن مات، وهو في حدود العشرين من عمره، أو أكثر من ذلك قليلًا.

لم يتفق أهل الشام على خليفة، وبايعت الأمصار لعبد الله بن الزبير، وكاد أهل الشام والأمويون أنفسهم أن يبايعوا ابن الزبير بالخلافة في مكة، وتزعَّم هذا الضحاك بن قيس أمير دمشق، وأوشك أن يفعله مروان بن الحكم كبير بني أمية، لولا اعتراض قبائل اليمانية بزعامة حسان بن مالك، الذين رفضوا أن يصير الأمر إلى غير الأمويين، وستُثبت تطورات الأحداث أن بني أمية كانوا هم عصبة العرب وأقوى البيوت فيها، وأنهم لهذا هم الأقدر على ممارسة الخلافة، وهو ما ذهب إليه معاوية ﵁ من قبلُ، وعامَّة الصحابة والتابعين الذين وافقوا على البيعة ليزيد ونصحوا الحسين بعدم الخروج، كما لم يُوافقوا على ثورة المدينة، ولا ثورة عبد الله بن الزبير، ستُثبت الأحداث أن هذه النظرة كانت هي الأصح.

فهذا عبد الله بن الزبير بايعته الأمصار جميعًا، ولم يبقَ خارجًا عن سلطته إلَّا الشام، الذي يعاني هو نفسه من الانقسام بين طائفة تُريده وطائفة تُريد بقاء الأمر في الأمويين وتُؤَيِّد مروان بن الحكم، ويبدو الأمر كما لو أن مؤيديه أكبر من مؤيدي مروان بن الحكم، وهكذا صار ابن الزبير الخليفة الشرعي للمسلمين.

إلَّا أن الأمور لم تجتمع لابن الزبير بشكل كامل؛ إذ رفض ابن عمر أن يُبايعه لأن الناس في فرقة ولم يجتمعوا عليه، كذلك لم يُبايعه ابن عباس، وانتهى الأمر بخروجه من مكة إلى الطائف، وكذلك محمد بن الحنفية، ثم ثار المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة وسيطر عليها، وهو من الخوارج المنحرفين، الذين رفعوا شعار آل البيت، واتخذ المختار محمد بن

الحنفية إمامًا، لكن محمدًا تبرَّأ منه ومما يدعو إليه، وقد لا نجد عملًا كبيرًا لعبد الله بن الزبير في خلافته، إلَّا حرب المختار بن أبي عبيد وقتله (٦٧هـ) على يد أخيه مصعب بن الزبير، الذي ولاه أمر العراق.

وفي الشام أسفرت الأمور عن اختيار أهل القوة والعصبة من أهل الشام لمروان بن الحكم ومبايعته خليفة، ثم دارت حرب بين مروان بن الحكم وبين أنصار ابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري في مرج راهط (في ذي الحجة ٦٤هـ)، انتصر فيها مروان بن الحكم بعد قتال شديد، واستقرَّ له أمر الشام، ثم بدأ في ضمِّ البلاد إليه؛ فبدأ بمصر التي دخلت في سلطانه بسهولة، ثم عهد بالولاية من بعده لابنه عبد الملك، ثم لعبد العزيز، ولا شكَّ في هذه اللحظة أنه كان مقتنعًا إلى النهاية بأن ولاية العهد هي التي تمنع الفتن والانقسامات والتنافس على الخلافة، فما زال الأمر مضطربًا منذ أن انفرط عقد الشام بموت يزيد بن معاوية، ثم خلع معاوية بن يزيد نفسَه، ثم ما لبث أن مات (رمضان ٦٥هـ) بعد تسعة أشهر فقط في الحكم، وتولَّى بعده ابنه عبد الملك بن مروان.

والمتابع لتاريخ الفترة يتعجَّب من خلوِّ مشهد الشام من عبد الله بن الزبير، الذي اعتمد كلية على أنصاره في الشام، ولم يُجَيِّش معهم الجنود، ولا أرسل إليهم الدعم للقضاء على المعارضة هناك، كذلك خرجت مصر من بين يديه بسهولة، وسنرى بعدئذٍ أن البلاد ظلَّت تتساقط من بين يديه على ما كان متحقِّقًا له من اجتماع الكلمة؛ فيما استطاع بنو أمية أن يستعيدوا ملكهم كاملًا مرَّة أخرى؛ بل وأن يُوَسِّعوه أضعافًا على الرغم مما وقع في الشام من فرقة وانقسام.. في دلالة فارقة على أن بني أمية كانوا الأصلح للخلافة في هذا الوقت؛ بما امتلكوه من عصبة وتوحد، وبما نشأ فيهم من شخصيات قوية حازمة واسعة السياسة وبعيدة النظر.

تولَّى عبد الملك بن مروان الأمر وليس بيده إلَّا الشام ومصر -وكان من كبار العلماء والفقهاء في وقته[1]- فكان المؤسس الثاني لملك بني أمية، فعبد الملك شخصية قوية بارعة نجيبة إلى الحدِّ الذي ولاه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أمر المدينة وعمره ستة عشر عامًا فحسب، فكيف وهو الآن في الأربعين من عمره، أي في اكتمال النضج؟!

(١) ولا يصح ما روي من أنه لما تولى الخلافة نظر إلى المصحف وقال: «هذا فراق بيني وبينك».



في عهده ضمَّ إليه باقي البلاد الإسلامية، وانتصر على مصعب بن الزبير في العراق، ثم على عبد الله بن الزبير في مكة، واستقرَّ الأمر له، ولم يخلُ الأمر من فظائع أخرى تُعيد التذكير بعهد يزيد بن معاوية؛ إذ كان الحجاج بن يوسف الثقفي واحدًا من أبرز رجاله، وهو الذي ثَبَّت له أمر العراق، وانتصر على الخوارج، وهو الذي قاد له الحملة على عبد الله بن الزبير في مكة حتى هزمه، وقذف البيت الحرام بالمجانيق، ثم صلب جثة عبد الله بن الزبير، وأساء إلى سيدة الدنيا في وقتها أسماء بنت أبي بكر؛ فلامه فيها عبد الملك بن مروان، وعلى الجانب الآخر تخاذل الناس وانفضُّوا عن ابن الزبير واحدًا تلو الآخر، وجماعة تلو الأخرى في مشهد يُعيد التذكير بالحسين بن علي ﷺ، كما يُعيد التأكيد على أن جميع القوى افتقدت التماسك والتوحد، الذي كان متوفرًا للأمويين ما يزيدُ في التأكيد على أنه لم يكن أحد في هذا الوقت أقدر على الخلافة منهم.

وَصَفَتِ الأمور لعبد الملك بن مروان، ولم يَعُدْ يُضايقه إلَّا بعض ثورات الشيعة المحدودة في العراق، وثورات الخوارج، التي تولَّى القضاء عليها البطل الكبير المهلب بن أبي صفرة، واستطاع أن يهزمهم هزائم قاسية في أكثر من موقعة فاصلة، وقد كانت ثوراتهم أخطر الثورات على بني أمية.

ولكن سياسة الحجاج ما لبثت أن أشعلت ثورة خطيرة وكبرى قادها عبد الرحمن بن الأشعث ومعه سعيد بن جبير والشعبي، وكلاهما من العلماء الكبار، إضافة إلى دعم وموافقة من الصحابي الجليل أنس بن مالك؛ ولكنه لم يستطع القتال لشيخوخته، وانتشرت الثورة واشتعلت، وانضمَّ إليها كثير من الناس تبعًا لَمِنِ انضمَّ إليها من العلماء والفقهاء والقرَّاء، وبلغت الثورة منحى خطيرًا، وهزم جيش ابن الأشعث كافة الجيوش التي أرسلها إليه الحجاج لمواجهته؛ مما دفع عبد الملك إلى أن يعرض على أهل العراق أن يعزل عنهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وأن يتولَّى عبد الرحمن بن الأشعث إمارة ما شاء من البلاد، ولكن الثائرين ظنُّوا أن هذه التنازلات تُخبر بقرب انتصارهم الكامل؛ فرفضوا هذا العرض، فاستمرَّ القتال مائة يوم وقع فيه ثمانون معركة، انتهى أغلبها لصالح أهل العراق، ثم انتهى الأمر بانتصار حاسم للأمويين وفشلت هذه الثورة الكبرى، التي لم تُواجه الدولة أخطر منها طوال فترة قوتها.

وفي أثناء الصراع الداخلي في الدولة الإسلامية توقفت الفتوح بطبيعة الحال، بل تراجعت الدولة الإسلامية، وضاعت منها بلاد كانت قد فُتِحت في الشمال الإفريقي، بل واضطرَّ عبد الملك إلى أن يُصالح الروم على إتاوة سنوية يدفعها لهم!! وهو الأمر الذي ما كانوا يحلمون بشيء منه! ولكن بعد وحدة الدولة تحت سلطة عبد الملك انتهت هذه المرحلة، واستعاد المسلمون قوتهم؛ بل بدءوا مرَّة أخرى في فتح البلاد، ومنها بلاد الروم نفسها، التي أخذت في التساقط أمام المسلمين في عهد عبد الملك وأبنائه.

ومن أهمِّ ما صنعه عبد الملك بن مروان هو تنظيم الدولة إداريًّا، وجعله اللغة العربية لغة رسمية تُكتب بها الدواوين، وسَكَّ العملة بالعربية، وفرض التعامل بها في الدولة؛ وهي القرارات التي كان لها أكبر الأثر في حياة الأُمَّة الإسلامية بأثرها.

تُوُفِّيَ عبد الملك بن مروان (شوال ٨٦هـ) بعد عشرين عامًا حَقَّق فيها ما غاب عن الأُمَّة منذ ربع قرن، منذ وفاة معاوية، من أمن البلاد وتوحيدها، وانتهاء الفتن، والعودة إلى عصر الفتوح، وأعاد فيها سلطان بني أمية، ووطَّد فيها أمر الخلافة، وتولَّى الأمر من بعده ولده الوليد بن عبد الملك.

وجد الوليد بن عبد الملك ساحة مهيَّأة، وكان يهيم بالبناء والعمارة، فبنى المسجد الأموي الذي هو تحفة معمارية لا مثيل لها في وقتها، وبنى في المسجد النبوي وتوسَّع فيه، واهتمَّ بزخارفه وزينته، كما اهتمَّ بأعمال حفر الترع والقنوات والآبار، وتسيير الطرقات، وكان أول مَنْ بنى المستشفيات، وجعل فيها نظام الأطباء العاملين بمرتبات، وبنى مستشفى لمرضى الجذام، وتعهَّد أمر المحتاجين والفقراء والعاجزين.. وما إلى ذلك؛ حتى جعل لكلِّ مُقْعَد خادمًا، ولكل أعمى قائدًا. واستمرَّت الفتوحات كذلك في عهد الوليد بن عبد الملك؛ ففي عهده تمَّ الفتح العظيم: فتح الأندلس، التي ستكون فيما بعدُ بقعة فارقة في تاريخ الإنسانية، كما توالت الفتوحات في أواسط آسيا وبلاد السند[1]، واستمرَّ التطور المالي والإداري في الدولة في عهد الوليد بن عبد الملك، ظلَّ الوليد عشر سنوات في منصب الخليفة؛ حتى وافاه الأجل (٩٦هـ)، وتولَّى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك.

---

(١) بلاد السند: يمكن القول بأنها الآن الجزء الجنوبي من باكستان.



ساد الهدوء بشكل عامٍّ خلال عهد سليمان بن عبد الملك، وكان سليمان ممن يستعين بالعلماء وأهل الصلاح ويُوَلِّيهم، ومن أبرز مستشاريه رجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز، وكانت سياسته قائمة على الموادعة والملاينة، ووصل آل البيت وآل الزبير، وكان على خلاف مع الحجاج بن يوسف، الذي تمنى أن لا يمكن الله سليمان منه وقد كان؛ إذ مات الحجاج قبل ولاية سليمان، غير أن عهد سليمان شهد مأساة أخرى.

رفض الفاتح العظيم قتيبة بن مسلم الباهلي البيعة لسليمان، وخشيه على نفسه؛ فقد كان قتيبة ممن دعم عزل سليمان من ولاية العهد، فأعلن ثورة على سليمان بن عبد الملك؛ لكن لم يستطع أن يجمع مَنْ معه من الجيش على رأيه، وتطوَّرت الأحداث حتى قُتل قتيبة بن مسلم في هذا الخطأ القاتل والزلة التي أنهى بها حياة الأمجاد الواسعة والمآثر العظيمة، فكم دخل الإسلام بلادًا وقلوبًا بفضل قتيبة بن مسلم، ولقد كان هذا سببًا إضافيًّا ليشتد سليمان بن عبد الملك في عزل رجال الحجاج بن يوسف الثقفي، وتولية مَنْ كان الحجاج قد ظلمهم، أو لهم عنده ثأر، فولَّى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي تقصى رجال الحجاج بالانتقام والعزل؛ ومنهم محمد بن القاسم فاتح السند وأحد أكبر الفاتحين في التاريخ الإسلامي، الذي سُجن وعُذِّب، وثمة روايات -أيضًا- تُفيد بأن موسى بن نصير لما حضر من الأندلس إلى دمشق حبسه وغرمه أموالًا، وقيل: عذبه -أيضًا- حتى مات(١)، وهكذا كان عهد سليمان بن عبد الملك هو عهد مقتل الفاتحين الكبار، الذين أعطوا للدولة الأموية وللمسلمين جميعًا مأثرة لا تُقَدَّر بثمن، وهذه المقاتل كانت سُبَّة أُضيفت إلى الدولة الأموية.

لكن الفتوح استمرَّت، بل قام سليمان بمحاولة جريئة لفتح القسطنطينية، فأرسل جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، وتعامل مع هذا الفتح وكأنه قضية حياته؛ فاتخذ مدينة دابق في شمال الشام مركز عمليات يُتابع منه الوضع، وأقسم ألا يعود حتى يفتح القسطنطينية أو يتوفَّاه الله، وهو ما كان، إذ توفَّاه الله (صفر ٩٩هـ) بعد ثلاث سنوات من الخلافة، وكان من مآثره أنه عهد بالخلافة من بعده لأفضل خليفة في الدولة الأموية؛ وهو عمر بن عبد العزيز.

---

(١) وإن كانت هناك روايات أخرى لا تذكر شيئًا عن هذه النهاية المأساوية لموسى بن نصير، بل تذكر أنه مات موتًا طبيعيًّا بعد حجه وهو في المدينة المنورة، والتحقيق المتأني يحتاج بسطًا ليس هذا مكانه.

ولأجل علمه أن ولاية عمر لن ترضي الأسرة المروانية؛ فعمل على التحايل بأن كتب الولاية بالعهد في رسالة هذا نصها: «هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليته الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوه، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم». وأمر بأن يُبايَع على ما فيها دون أن يعلم أحد بما فيها، وبهذا تمَّ الأمر، ولم يخلُ -مع ذلك- من صعوبات واعتراضات.

كان عمر بن عبد العزيز جوهرة الخلفاء في بني أمية، جدَّد سيرة الخلفاء الراشدين، وأقام العدل في أنحاء البلاد، واعتبره العلماء مجدِّد المائة الأولى الذين أخبر النبي ﷺ أن الله يبعثهم لتجديد أمر الدين، وضرب المثال في الزهد والصلاح، والحرص على مصالح المسلمين، وكان من العلماء الذين بلغوا رتبة الاجتهاد في الدين، وجمع خلال الخير؛ حتى كأنه أكثر من شخص واحد؛ بل لقد قال فيه الإمام الذهبي مؤرِّخ الإسلام كلمة عجيبة: «يُعَدُّ في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري»(١). والكلام في مدحه يطول، والمواقف التي تروى عنه كثيرة رضي الله عنه.

بدأ عمر خلافته بالتخلِّي عن البيعة التي بويعت له، وترك للناس تقديم مَنْ يرضونه في الخطبة التي خطبها أول عودته إلى دمشق، ولكن الناس تمسَّكوا به؛ لما يعرفونه عن شخصه وسيرته وعلمه، ولما رأوا من زهده في الخلافة، فبدأ عمر خلافته بردِّ المظالم، وخرج من كل أملاكه التي آلت إليه بالوراثة أو الهدية، مما كان يحوطها من شبهة ظلم، ثم ثَنَّى بردِّ المظالم التي اقترفها بنو أمية من الناس، ثم عزل الظالمين من الولاة، وولَّى أهل الصلاح، ورفع المظالم عن الموالي والعبيد، وما كان قد وقع من مظالم على أهل الذمة، بل وأمر الجيش الفاتح بعد دخوله سمرقند أن يخرج منها؛ بعد وصول شكوى أهل سمرقند بأن الجيش لم يدخل مدينتهم دخولًا شرعيًّا، وبالفعل كاد القرار ينفذ لولا أن تنازل أهل سمرقند عن شكواهم ورضوا بالفتح وبالمسلمين، ولا يتسع المقام لتتبع مآثره في هذه العجالة.

وكانت سياسة عمر التوقُّف في الفتوح، والاكتفاء بما وصل المسلمون إليه؛ خشية على المسلمين من التوغُّل، الذي يُوقعهم في كمائن الأعداء بعد طول انقطاعهم عن مراكز الإمداد في البلاد الإسلامية، فأعاد جيش القسطنطينية الذي تحول الموقف العسكري إلى غير صالحه،

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٩٠.



وراسل السمح بن مالك الخولاني -والي الأندلس- بألاَّ يتوغَّل في بلاد فرنسا، وأرسل بهذا إلى عبد الرحمن بن نعيم الغامدي -والي خراسان- إلَّا يتوغَّل في بلاد ما وراء النهر[1] وأن يكتفي بما تم فتحه، ثم راسل ملوك الهند (الأرض التالية للسند التي فتحها محمد بن القاسم)؛ فدعاهم إلى الإسلام وطمأنهم، ووعدهم أن يظلَّ كل منهم على حاله في مملكته، وكان قد وصلت إليهم أخباره وسيرته، فأسلموا ودخلوا في سلطة الخلافة الإسلامية؛ وبذا تمَّ فتح بلا سيف ولا دم، وأمَّا الجبهات التي تعرَّض المسلمون فيها للإغارة -كما وقع من بلاد الترك ومن الروم- فقد تصدَّت الجيوش الإسلامية لها وانتصرت عليها.

وفي سنتين فقط هما فترة عمر بن عبد العزيز في الخلافة تمَّت إنجازات إدارية ومالية ودعوية وسياسية وحربية وقضائية لا تكاد تصدَّق، شمولًا وتنوُّعًا واتِّساعًا، ثم اختلفت الروايات هل مات ميتة طبيعية، أم مات بأثر السم الذي وضعه له أحد الخدم الذين دفعهم بعض بنو أمية الموتورين على عمر؟ ومهما يكن من أمر فقد رحل عمر بن عبد العزيز إلى جوار ربه في رجب من عام ١٠١هـ، وهو في الأربعين من عمره.. فترك سيرة خالدة لا تطويها الأيام، ولا تُنسى عبر القرون والأجيال.

تولَّى بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك، ومهما بلغ أمر يزيد فإن المقارنة مع عمر تجعله في وضع صعب، فلو أنه تولَّى بعد الوليد أو بعد سليمان فربما كانت صورته في التاريخ أفضل، لقد كان يزيد شخصية عادية ليست في صلاح عمر، ولا في سياسة عبد الملك بن مروان، ولا في همَّة الوليد بن عبد الملك، وحاول أول عهده أن يسير على خطى عمر بن عبد العزيز فلم يستطع؛ إما لأنه لم يتحمَّل، أو لأن بطانته خلت من العلماء؛ فتسلقها أهل السوء فعدلوا به عن هذه المسيرة، ونُسب إليه الإسراف في المأكل، وفي الإقبال على الجواري، ووردت في هذا أمور مبالغة وباطلة لا تُصَدَّق، على أن جوهر المشكلة كان في افتقاد يزيد للرؤية العامة والإستراتيجية في الإصلاح[2]، وفي عهده عاد ذكر الثورات، ولكنه قضى عليها، وكان من أكبرها ثورة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وبعض ثورات للخوارج، كما استوعب بذكاء ثورة البربر في الشمال الإفريقي؛ حين قتلوا واليهم الظالم يزيد بن أبي مسلم،

(١) بلاد ما وراء النهر، تعني البلاد الواقعة وراء نهر جيحون.

(٢) هذا التوصيف للمؤرخ الدكتور عماد الدين خليل.

وولَّوْا عليهم محمد بن يزيد، وكان مولى فأقرَّهم على ما فعلوا، وفي عهده كَثُر الموالي في المناصب القيادية، واستمرَّت سياسة الغزو والفتوح في عهد يزيد بن عبد الملك؛ فقضت الجيوش الإسلامية على تمردات الترك فيما وراء النهر، وأعادت فرض نفوذها على مناطق الشمال في أرمينية وبلاد الخزر[1]، واستمرَّت الفتوح في البحر المتوسط؛ وفي عهده غزا المسلمون جزيرة صقلية أكبر جزر البحر المتوسط، التي كانت مركزًا حربيًّا للروم ينطلقون منه في حملاتهم العسكرية على بلاد الشمال الإفريقي، وكذلك استمرَّت الفتوح في فرنسا على يد السمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبد الرحمن الغافقي.

ومات يزيد بن عبد الملك في شعبان عام ١٠٥هـ، بعد أربع سنوات من الخلافة، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وتولَّى الأمر بعده أخوه هشام بن عبد الملك.

يُعَدُّ هشام بن عبد الملك آخر الخلفاء الأقوياء، الذين استقامت لهم البلاد في بني أمية، قضى في الخلافة عشرين سنة، ضبط فيها أمر الدولة ضبطًا إداريًّا فائقًا، وكان حريصًا على الأموال، شديد الرقابة على العمال والموظفين، حريصًا على إقامة العدل، وكان له مجلس للعامة يُقَدِّمون له فيها الشكاوى مهما كان حال الشاكي من العبودية أو الفقر أو قلَّة الحال، وفي عهده استمرَّ الغزو في البلاد لا سيما في جبهة السند والهند على يد عمرو بن محمد بن القاسم، وجبهة أذربيجان وأرمينية على يد أخيه مسلمة بن عبد الملك، ثم مروان بن محمد، وكان يقرب العلماء، وأشهرهم في هذا الإمام الكبير محمد بن شهاب الزهري والإمام الفقيه الأوزاعي، وكان لهما أثر على سياسة هشام بن عبد الملك، وعانى هشام بن عبد الملك في عهده من بعض الثورات، وكان أكبرها ثورة زيد بن علي بن الحسين، وثورات البربر في المغرب، الذين انتشر فيهم فكر الخوارج، كما عانى من ظهور المذاهب المنحرفة في عهده؛ كغيلان الدمشقي الذي تزعَّم القول بمذهب القدرية[2]، والجعد بن درهم؛ الذي كان أول مَنْ قال بخلق القرآن، والمغيرة بن سعيد وبنان بن سمعان وكانا من غلاة الشيعة؛ يكفران كلَّ الصحابة إلَّا مَنْ ثبتوا مع علي رضي الله عنه، ويزعمون أنه نصف إله.. وغير ذلك من المذاهب المنحرفة التي أطلَّت برأسها في عهد هشام.

---

(١) هي مناطق القوقاز الآن.

(٢) وهو المذهب الذي يقول بأن الأقدار تجري ولا يعلمها أحد مسبقًا ولا حتى الله نفسه!



ظلَّ هشام بن عبد الملك خليفة قويًّا حتى وافاه الأجل (ربيع الآخر ١٢٥هـ)، بعد عشرين عامًا في الخلافة، وأربعة وخمسين عامًا في الحياة.. ثم دخلت الدولة بعده في مرحلة الانهيار.

ونحن نتوقَّف هنا حتى هذه اللحظة من تاريخ بني أمية؛ لأن الأحداث القادمة سنتناولها في سياق الكتاب إن شاء الله[١].

***

إن من اللافت للنظر أنه فيما عدا أربعة من الخلفاء هم: معاوية بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك، فيما عدا هؤلاء مات جميع الخلفاء في سنٍّ صغيرة في العشرينيات والثلاثينيات ومشارف الأربعين. كذلك فيما عدا معاوية، وعبد الملك، وهشام بن عبد الملك فإن كل فترات الخلفاء في السلطة قصيرة؛ تتراوح بين الشهور الثلاثة وبين السنوات الأربع فقط. وعلى الرغم من كل هذا الاضطراب والانتقال السريع للسلطة وتبدُّل الأحوال؛ فإن الإنجاز التاريخي لهذه الدولة هو إنجاز ضخم؛ بل ومذهل بكل المقاييس، وسيتضح هذا الأمر جليًّا حين نقارن مثلًا بين هذه الدولة وبين الدولة العبيدية (الفاطمية) فيما بعد؛ والتي كان عدد خلفائها كعدد خلفاء بني أمية أربعة عشر، ولكن طالت أعمارهم كما طالت سنواتهم في الخلافة -بل قضى المستنصر بالله ستين سنة في الخلافة- فحكم بنو أمية تسعين سنة فيما حكم العبيديون أكثر من مائتي سنة، ولا مجال على الإطلاق للمقارنة بين الإنجاز التاريخي للدولتين!

حسنات بني أمية

قال ابن حزم: «وكانت دولة عربية لم يتَّخذوا قاعدة[٢]، إنما كان سكنى كلِّ امرئ منهم

---

(١) للاستزادة في تاريخ الدولة الأموية السياسي:
محمد الخضري بك: الدولة الأموية (من سلسلة محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية)، ويوسف العش: الدولة الأموية، ومحمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ود. عبد الحليم عويس: بنو أمية بين السقوط والانتحار، ومحمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي (الجزء الرابع: العهد الأموي)، ود. حمدي شاهين: الدولة الأموية المفترى عليها، ود. محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ود. يحيى اليحيى: الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري جمعًا وترتيبًا، ود. نادية مصطفى (إشراف): الدولة الأموية دولة الفتوحات، ود. عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، ود. علي الصلابي: الدولة الأموية؛ عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

(٢) أي لم يتخذوا مدينة ملكية.

في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجانَ[١] الأموال ولا بناءَ القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل[٢] ولا التسويد[٣]، ويُكاتبوهم بالعبودية والمُلك[٤]، ولا تقبيل الأرض ولا رِجْلٍ ولا يَدٍ[٥]، وإنما كان غرضهم الطاعةَ الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد، فكانوا يعزلون العمّال، ويولُّون الآخرين في الأندلس، وفي السند، وفي خراسان، وفي أرمينية، وفي اليمن، فما بين هذه البلاد. وبعثوا إليها الجيوش، وولَّوْا عليها مَنِ ارتضوا من العمال، وملكوا أكثر الدنيا، فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلَّب عليهم بنو العباس بالمشرق، وانقطع بهم ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة، فلم يكُ في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصرًا على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير»[٦].

١- انتشار الفتوحات

كان بنو أمية يفتحون البلاد في أربع جهات على البرِّ، بخلاف فتح جزر البحر المتوسط، وبلغت دولة الإسلام أقصى اتِّساع لها -كدولة واحدة- في ظلِّ الأمويين، وكانت ذروة الفتوحات الإسلامية على أيدي هؤلاء القادة: تم فتح المغرب والأندلس على يد القادة: عقبة بن نافع، وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير، ومن ورائها فرنسا على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير، والسمح بن مالك الخولاني، وعبد الرحمن الغافقي، وسارت الفتوح في الشرق في بلاد ما وراء النهر حتى الصين بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي، وفي الجنوب الشرقي حتى السند بقيادة المهلب بن أبي صفرة، ومحمد بن القاسم، وفي الشمال وبلاد القوقاز بقيادة مسلمة بن عبد الملك، ومروان بن محمد. هؤلاء القادة هم الذين رسَّخُوا الوجود الإسلامي في تلك المناطق، وكانت فتوحاتهم تتميمًا وتكميلًا لما سبقها من فتوح في

---

(١) الاحتجان: جمعُ الشيء وضمُّه إليك. ابن منظور: لسان العرب ١٣/ ١٠٨.

(٢) أي لم يلزم الخليفةُ الناسَ أن يقولوا عند مخاطبته: يا مولاي.

(٣) أي أن يقولوا: يا سيدي.

(٤) أي أن يكتبوا إلى الولاة والوزراء بقولهم: من الملك، أو من السيد إلى العبد أو المولى.

(٥) كان من عادة خلفاء الدول من بعد بني أمية، ومما يُعَدُّ من الآداب السلطانية أو «البروتوكول الرسمي» -بمصطلح هذه الأيام- أن يُقَبِّل الناس يد الخليفة، وبعض الدول كان الناس يُقَبِّلون الأرض بين يدي الخليفة.

(٦) ابن حزم: رسائل ابن حزم ٢/ ١٤٦.

عهد الراشدين، وتأسيسًا لدخول هذه المناطق في الدولة الإسلامية بشكل نهائي[1].

وقد جرت في كل تلك الفتوح أعمال من أندر وأروع ما يمكن أن يكتب في تاريخ البطولة والأبطال، وقدَّم الفاتحون نماذج لا مثيل لها في الجهاد والبذل والتضحية والإخلاص، وكم من مجاهد مات في هذه الأرض البعيدة لا نعرف اسمه ولا قبيلته ولا شيئًا من حياته، ترك الدنيا كلها وذهب ليموت في تلك الأصقاع لا يرجو إلَّا الله والدار الآخرة، ستأتي هذه البلاد في ميزان حسناته يوم القيامة!

وما استطاع أحد بعد بني أمية أن يسطر في الفتوح تاريخًا كتاريخهم، ولا حتى تاريخًا يقاربهم!

وها هو المؤرِّخ الدكتور حسين مؤنس يَنْعَى على الدولة العباسية أنها لم تصنع شيئًا ذا بال في الفتوحات مقارنة بالدولة الأموية، يقول: «إن الخلافة العباسية لو تنبَّهت إلى حقيقة وظيفتها كخلافة إسلامية، وهي نشر الإسلام لا مجرَّد المحافظة عليه كما وجدته، لو أنها قامت برسالتها وأدخلت كل الترك والمغول في الإسلام، لأدَّت للإسلام والحضارة الإنسانية أجَلَّ الخدمات، ولغيّرت صفحات التاريخ. وهكذا تكون الخلافة العباسية قد خذلت الإسلام في الشرق والغرب. فهي في الشرق لم تتقدَّم وتُدخل كل الأتراك والمغول في الإسلام، كما تمكَّنت الخلافة الأموية من إدخال الإيرانيين ومعظم الأتراك في الإسلام، وفتحت أبواب الهند لهذا الدين. وفي الغرب قعدت الخلافة العباسية عن فتح القسطنطينية؛ ولو أنها فعلت ذلك لدخل أجناس الصقالبة والخزر والبلغار الأتراك في الإسلام تبعًا لذلك؛ إذ لم تكن قد بقيت أمام هذه الأجناس أية ديانة سماوية أخرى يدخلونها، وهنا نُدرك الفرق الجسيم بين الخلافة الأموية والخلافة العباسية؛ فالأولى أوسعت للإسلام مكانًا في معظم أراضي الخلافة البيزنطية، وأدخلت أجناس البربر جميعًا في الإسلام، ثم انتزعت شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) من القوط الغربيين، ثم اقتحمت على الفرنجة والبرغنديين واللومبارد بلادهم بالإسلام، وحاولت ثلاث مرَّات الاستيلاء على القسطنطينية. أمَّا العباسيون فلم يُضيفوا -على الرغم من طول عمر دولتهم- إلى عالم الإسلام إلَّا القليل، ومعظمه في شرقي آسيا الصغرى»[2].

---

(١) د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص١٣٠ وما بعدها.

(٢) د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص٥١.

وكما خفت الجهاد البري خفت -أيضًا- صوت الجهاد البحري، الذي كان يدوي من موانئ الشام ومصر، وقلَّ الاهتمام بالبحر المتوسط، وتولَّت الإمارات الإسلامية في المغرب والأندلس مسئولية الدفاع عن حوض البحر المتوسط، وقلَّت الاشتباكات البحرية بالطابع الذي عرفه العصر الأموي[١].

٢- وحدة الدولة

فلقد ظلَّت الدولة الإسلامية دولة واحدة في عهد الأمويين، وهو ما لم يتوفَّر لدولة من بعدهم أبدًا إذ كثرت الاستقلالات الذاتية للولايات والمناطق لا سيما البعيدة، وخصوصًا في أوقات ضعف الخلافة المركزية، بعكس الحال في عهد بني أمية؛ إذ ظلت الدولة متوحِّدة يملك خليفتها في دمشق أن يُعَيِّن الوالي أو يعزله في الأندلس غربًا أو في بلاد ما وراء النهر شرقًا، وما إن انتهت الدولة الأموية حتى كأنها على موعد مع انتهاء الدولة الإسلامية الواحدة.

فما إن بدأ عهد العباسيين حتى انفصلت الأندلس، التي قام فيها الأمير الأموي الهارب عبد الرحمن الداخل بإنشاء إمارة مستقلة، وفشلت كل المحاولات العباسية في عهدي المنصور والمهدي في استرجاعها، ثم بدأ الانفصال في المغرب يزحف شرقًا؛ حتى اعتمدت الخلافة سياسة الدول المستقلَّة الموالية لها في عهد الرشيد، فظهرت دولة الأغالبة في إفريقية ثم ظهرت دولة الطاهريين في خراسان والسامانيين فيما وراء النهر، وغيرهم.. حتى إذا ما انتهى عصر القوَّة العباسي كانت سيادة الخليفة مجرَّد اسم وشكل بلا قيمة حقيقية.

٣- التعريب

لقد ظلَّت الدواوين الإدارية تُكتب بغير العربية[٢]، بل بلغة البلاد المفتوحة، ففي مصر كانت الدواوين تكتب باللغة القبطية حتى بعد الفتح، وفي العراق وفارس تُكتب بالفارسية وفي الشام تُكتب بالرومية (اليونانية) وهكذا؛ حتى أمر عبد الملك بن مروان ثم الوليد بن عبد الملك بتحويل الدواوين إلى اللغة العربية[٣].

---

(١) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٦٨.

(٢) بخلاف ديوان العساكر أو الجند الذي كان يُكتب باللغة العربية منذ تأسيسه في عهد عمر بن الخطاب.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ١٨٤، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٤٤.



وكان لهذا القرار تأثير واسع في انتشار وثبات اللغة العربية في البلاد المفتوحة، وساهم في إقبال غير العرب على تعلُّمها واستيعابها، وهو ما أدَّى إلى النهضة باللغة العربية، وجعلها لغة العلوم والحضارة فيما بعدُ[1]، ويكفي أن نعلم أن البلاد التي ثبتت فيها اللغة العربية لم يخرج منها الإسلام أبدًا إلَّا في حالة واحدة وهي «الأندلس»، وحسبك بهذا وحده حسنة من حسنات الدولة الأموية.

كما كان لهذا القرار أثر عميق على توحيد الدولة توحيدًا حقيقيًّا وراسخًا؛ وليس مجرَّد انضواء تحت سلطة سياسية واحدة، ولا حتى توحيدها ماليًّا وإداريًّا فحسب.. إن مثل هذا القرار مَكَّن الأجيال التالية عبر القرون أن تنتقل من الأندلس غربًا إلى أقصى الشرق تطلب العلم أو تطلب الرزق، دون أن تعترضها حواجز اللغة، وحين تتكلَّم هذه الأقطار الواسعة لغة واحدة تُفَكِّر بها فتقول وتخطب وتكتب وتؤلِّف بها؛ فلا بُدَّ أن نتوقَّع ثراءً غير محدود، وإسهامات غنية من الشرق والغرب والشمال والجنوب وما بينها، وبهذه الإضافات كانت الحضارة الإسلامية أكثر الحضارات ثراء وخصوبة.

ولئن كنا نتذكَّر فضل الخليفة العباسي المأمون على الحضارة الإسلامية؛ كأوسع خليفة تمَّت في عهده حركة ترجمة العلوم إلى العربية، فلا بُدَّ أن نتذكر قبله بالفضل عبد الملك بن مروان؛ الذي أسس لسيادة اللغة العربية نفسها؛ فمن ثَمَّ نشأت الحاجة إلى ترجمة العلوم إليها، فلم يضطر المسلمون إلى الخروج من ذواتهم وهويتهم حين أنشأوا الحضارة؛ بل احتفظوا بأصالتهم، فاستوعبوا حضارات مَنْ قبلهم، ثم أضافوا إليها فأبدعوا.

٤- تدوين الحديث الشريف

وهذا ما انتبه له عمر بن عبد العزيز (رحمه الله)؛ حيث بدأ جيل الصحابة في الانقراض، وتفرَّق تلاميذهم في البلاد المفتوحة لتعليم الناس، فخُشِيَ على السُّنَّة من الضياع، أو من أن يدخلها تحريف أو تأويل، فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى البلاد والأمصار أن «انظروا حديث رسول الله فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله، ولا تقبلوا إلَّا حديث النبي، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا». وكَلَّف الإمام الكبير محمد بن شهاب الزهري بمتابعة هذه العملية والإشراف عليها، واهتمَّ تحديدًا

(١) إضافة إلى ما في الإسلام نفسه من حثٍّ على تعلُّم العربية لضرورات العبادة والتفقه في الدين.

بجمع الحديث في المدينة المنورة معقل الحديث الشريف؛ حيث أرسل إلى واليها الفقيه الكبير أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم يأمره بهذا، ثم جمع الزهري ما دُوِّن من السُّنَّة في كتب، وأخذ عمر في نسخ هذه الكتب وإرسالها إلى «كل أرض له عليها سلطان»[1].

وعن هذه النسخ رُويت السُّنَّة منضبطة مدققَّة، وسارت بين الفقهاء والرواة والعلماء، فكان هذا عملًا في المرتبة الثانية بعد جمع القرآن الكريم موضوعًا في ميزان عمر بن عبد العزيز وفي ميزان دولة بني أمية.

٥- النهضة والإعمار

على الرغم من أن الحضارة الإسلامية بلغت زهرتها وأوجها في عهد العباسيين؛ فإن تقييم المعاصرين أن الأمويين كانوا أنفع للناس وللأُمَّة من العباسيين، وقد سأل هارون الرشيد واحدًا من أبرز علماء عصره وهو أبو بكر بن عياش: مَنْ خير الخلفاء نحن أو بنو أمية؟ فقال: هم كانوا أنفع للناس، وأنتم أقوم للصلاة[2].

وقال ابن تيمية: «وكان خلفاء بني العباس أحسن تعاهدًا للصلوات في أوقاتها من بني أمية؛ فإن أولئك كانوا كثيرى الإضاعة لمواقيت الصلاة»[3].

والمفهوم من هذا أن العلماء -حتى في عهد العباسيين- فَضَّلوا الأمويين على العباسيين، فالأفضلية في التديُّن الشخصي والحرص على إقامة الصلاة أمر يُحمد به الإنسان لذاته، ولا يُحمد به وقت كونه حاكمًا على الناس.

والواقع أن العباسيين في أيامهم الأولى بصورة عامة كانوا أكثر تديُّنًا من الأمويين، وأكثر تمسُّكًا بالإسلام، ولكنهم أقلَّ خدمة للأُمَّة، وليس معنى هذا أن الأمويين كانوا جملة مهملين أمور دينهم، وأن العباسيين كانوا تاركين أمور رعيتهم، وإنما القضايا نسبية، فقد كان الأمويون أهل فضل ودين وإن وقعت في أيام بعضهم حوادث كان يجب ألا تقع[4].

---

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم ٢/ ٣٣١.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٧/ ٣٣٢، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٥١.
(٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٢٠.
(٤) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ٨١، ٨٢.

مظالم بني أمية وأسباب سقوطهم

وعلى الرغم من هذه الإنجازات التاريخية للأمويين؛ فإن عوامل أخرى وسلبيات مؤثِّرة ظلَّت تعمل في جسد الدولة حتى أنهكتها وأودت بها؛ من أهمِّ هذه السلبيات:

١- العصبية القبلية

نستطيع أن نقول: إن العصبية القبلية لم تختفِ من الحالة العربية، وإنما كان التعامل الإسلامي معها يحيلها إلى أن تكون عنصرًا فاعلًا في خدمة الحق، وألا تكون العصبية مُقَدَّمة على العدل، ثم بدأت تعود القبلية بصورتها الجاهلية في أواخر عصر عثمان، ثم تجلَّت وبرزت في عصر علي في أحداث الفتنة الكبرى، وكانت عصبة الشام أقوى وأكثر تماسكًا وفاعلية من عصبة العراق، ثم من عصبة الحجاز أيام عبد الله بن الزبير، ومن ثَمَّ كان الأساس القوي للدولة الأموية هو عصبة الشام.

لكلِّ هذا كانت القاعدة الصلبة للدولة الأموية هي القبائل العربية، وكان طبيعيًّا في هذه الفترة المبكرة في التاريخ الإسلامي أن يكون الاستعانة بغير العرب من البلاد المفتوحة ضعيفًا جدًّا ومقصورًا على الأعمال الإدارية الفنية فحسب، بينما رجال الدولة وعصبها هم العرب.

وقد أثبتت الأيام أن عصبة الشام كانت أثبت من عصبة العراق ثم من عصبة الحجاز؛ فكان التفاف الدولة حول العرب في الشام كالتفاف العرب في الشام حول الدولة، كلا الطرفين وجد نفسه محتاجًا إلى الآخر متقوِّيًا به مكتفيًا به عن غيره، لا يُفَكِّر في أن يستبدل به من أحد، بل لا يجد الداعي أصلًا لأن يُفَكِّر في قاعدة للدولة غير قاعدة العرب.

لكلِّ هذا، وفي بيئة بهذا الوضع، يمكن فهم أن العلاقة مع الموالي جاءت في درجة أَقَلَّ من العلاقة مع العرب، وهم قوم يحفظون أنسابهم ويتيهون بها ويرونها شرفًا، فتقديم الموالي عليهم كان مدعاة لاشتعال الحزازات وتغير القلوب، وتوتر الخريطة السياسية والاجتماعية المستقرَّة.

ولقد حفظت هذه العصبية كيان الدولة الأموية فترة، وكان يمكن أن تطيل فترة بني أمية لو أن الخلفاء الأواخر ساروا على نهج الخلفاء الأوائل في موازنة العلاقات بين القبائل المُكَوِّنة للطيف العربي في الشام.

إلَّا أن الوليد بن يزيد لم يكن حصيفًا ولا حكيمًا؛ فأقدم على الإساءة لشيخ القبائل اليمانية خالد بن عبد الله القسري فأسلمه إلى عدوِّه يوسف بن عمر بن هبيرة؛ الذي عذبه حتى قتله، وكانت القبائل اليمانية هم أغلب جند الشام، وانحاز الوليد إلى القبائل القيسية؛ فانقسمت الشام إلى قيس ويمن، ولما كان الوليد قد أساء إلى أبناء عمومته؛ فإن هؤلاء وجدوا قبائل اليمانية مهيَّأة لتثور معهم عليه، فنزعوا منه الخلافة وأسلموها إلى يزيد بن الوليد، وهنا جاء دور القبائل القيسية التي ساندت مروان بن محمد حتى وصل إلى الخلافة فعلًا(١).

وبهذا انتهى التوحُّد الذي مثلته الخلافة الأموية بميلها وتحيُّزها إلى جانب قبلي يُعيد إنتاج تحيُّز آخر، هذا إلى أن العباسيين قد وجدوا أمامهم قبائل جريحة هي القبائل اليمانية، ولم يُفلتوا هذه الفرصة الثمينة؛ ومن ثَمَّ انهارت الأمور من بين يدي مروان بن محمد.

وكان أخطر تمثُّل للقبلية في معركة الزاب؛ التي كانت الضربة القاصمة للبيت الأموي، وسيأتي معنا كيف كان هذا التحزُّب هو السبب الرئيسي في هزيمة الأمويين تلك الهزيمة القاسية.

٢- الموالي في الدولة الأموية

قضية الموالي تابعة لقضية العصبية العربية؛ فلئن كانت ثمة عصبيات قائمة بين القبائل العربية، فلا بُدَّ أن تُلقي بتأثيراتها على طوائف المجتمع من غير العرب.

لقد دخل في الإسلام طوفان كبير من غير العرب مع الفتوحات الشاسعة، التي امتدَّت إليها الجيوش الإسلامية في عصر الدولة الأموية، فضمَّت الأُمَّة الإسلامية عددًا متزايدًا من الموالي؛ ومما لا شَكَّ فيه أن عددًا من الموالي وصل إلى مناصب عُلْيا في الدولة؛ مثل الولاية وقيادة الجيوش والكتابة للخلفاء؛ فقد كان سرجون بن منصور الرومي كاتبًا لمعاوية على ديوان الخراج، وكان مرداس كاتب زياد ابن أبيه، وكان زاذان فروخ كاتبًا على الخراج، وذلك في أيام معاوية بن يزيد بن معاوية، وكان أبو الزعيزعة مولى عبد الملك بن مروان كاتبًا على ديوان الرسائل، وكان شعيب الصابي مولى الوليد بن عبد الملك على ديوان الخاتم، وكان يفيع بن ذؤيب مولاه -أيضًا- كاتبًا على المستغلات بدمشق، كما كان طارق بن زياد -من

---

(١) د. علي الصلابي: الدولة الأموية ٢/ ٦٢٠.

البربر- قائدًا على جيش فتح الأندلس، وكان موسى بن نصير واليًا للشمال الإفريقي، وقبله تولَّى أبو المهاجر دينار مولى الأنصار إفريقية أيضًا، وتولاها -أيضًا- يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، ولما قُتل تولاَّها محمد بن يزيد مولى الأنصار(١).

إلَّا أن هذه الأسماء تُعَدُّ استثناء من بين العدد الرهيب من الموالي الذي تدفق على الأُمَّة الإسلامية؛ لكنه يُثبت أن الدولة الأموية لم تكن تنظر للموالي نظرة عنصرية بإطلاق، وإنما كانت تستعمل منهم مَنْ تضمن فيه الولاء والكفاءة.

غير أن هذه النظرة المتعالية سادت في الأوساط القبلية، وحالت دون أن يأخذ الموالي موقعهم الذي يستحقونه من أعمال الدولة، فهذا سعيد بن جبير أحد أبرز أئمة المسلمين في العلم والفقه لم يرضَ به أهل الكوفة قاضيًا؛ وقالوا: «لا يصلح القضاء إلَّا لعربي»(٢). على جلالته في العلم والفضل، وعلى الرغم من أنهم وأبناءهم يجلسون إليه يأخذون عنه العلم، ثم هم الذين ما أنكروا على الحجاج قتل أحد كما أنكروا عليه قتل سعيد بن جبير.

ومن ثَمَّ كان نصيب الموالي -في الأغلب- المهن اليدوية كالزراعة والصناعة؛ بينما كان العرب يعملون في الحرب والسياسة، مما زاد في التعالي عليهم وازدرائهم(٣)؛ حتى لقد ورد عن المختار بن أبي عبيد الثقفي في وصيته لقائده أن الموالي لا يصلحون للحرب، وعليه فيجب أن يجعلهم المشاة في مقدمة الجيش، وأن يجعل العرب هم الفوارس من خلفهم؛ حتى لا يهرب الموالي إن لم يثبتوا(٤).

وكان الموالي يُحْرَمون من الفيء؛ حتى إن أهل الكوفة شَقَّ عليهم أن جعل المختار بن أبي عبيد الثقفي للموالي نصيبًا في الفيء، وقالوا: «لقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا»(٥).

ومما ورد في شأن المعاملة المهينة التي كان يلقاها الموالي أن العرب «كانوا يَقُولون: لا يَقْطع الصلاةَ إلَّا ثلاثة: حِمار أو كَلب أو مَوْلى. وكانوا لا يَكْنُونهم بالكُنَى، ولا يَدْعُونهم إلَّا

(١) د. علي الصلابي: الدولة الأموية ٢/ ٦١٥.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٦/ ٣٦٧.
(٣) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١٠.
(٤) المبرد: الكامل ٢/ ٤٧.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٤.

بالأسماء والألْقاب، ولا يَمْشون في الصَّفِّ معهم، ولا يُقَدِّمونهم في المَوْكب، وإن حَضَروا طَعامًا قاموا على رءوسهم، وإن أطْعموا المولَى لسنِّه وفَضله وعِلْمه أَجْلسوه في طَرَف الخِوَان؛ لئلاَّ يَخفي على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يُصَلُّون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب، وإن كان الذي يَحْضر غَرِيرًا. وكان الخاطب لا يَخْطب المرأَةَ منهم إلى أَبيها ولا إلى أخيها، وإنما يَخْطُبها إلى مَواليها، فإن رَضيَ زُوِّج وإلاَّ رُدَّ، فإنْ زَوَّج الأب والأخ بغير رَأْي مَواليه فُسخ النِّكاح، وإن كان قد دَخل بها، وكان سِفاحًا غيرَ نِكاح»[(١)].

ولا نستطيع أن نقول: إن هذا كان سياسة عامة من الدولة الأموية تجاه الموالي، ولا حتى السياسة العامة لكلِّ العرب تجاه الموالي. لا سيما في الأوساط العلمية والدينية؛ فإن العلم رفع أهله من الموالي فوق كل اعتبار، وكان العلماء من الموالي يحظون بالإجلال والتعظيم والتقدير، وهو ما سنتناوله -إن شاء الله- في القسم الثاني من هذه الدراسة. غير أن الخلاصة أن هذا الوضع جعل كتلة كبيرة من البشر في حالة من السخط والغضب، ومن ثَمَّ فهي مرشحة لأن تكون قوَّة بشرية مهمَّة في ثورة ضدَّ هذه الأوضاع.

كما لا يفوتنا أن نُنَبِّه إلى أن الموالي لم يكونوا كتلة واحدة، ولا ذوي اتجاه واحد؛ فلقد كان من الموالي مَنْ حارب في معسكر الدولة الأموية تبعًا لولائه، وسنثبت في سياق هذه الدراسة أن الثورة العباسية لم تكن ثورة الموالي، وإنما كانت ثورة عربية استفادت من الموالي.

ولهذا يجب الانتباه عند الحديث عن الموالي إلى «اختلاط الروايات التاريخية في مطلع القرن الثاني للهجرة؛ بسبب ظهور الفرق الدينية ونشوب الفتن الكبرى، وبقدر ما يتعلَّق الأمر بحالة الموالي والفرس يجدر الانتباه إلى مبالغات الشعوبية ومغالطاتها؛ هذا على الرغم من أننا لا نُنكر وقوع حالات من الضغط الاقتصادي والتفاوت الاجتماعي؛ فإنها لم تكن لتدلَّ على الوضع العام؛ ذلك أن العرب استخدموا الموالي في إدارة الأعمال والدواوين وفي الأعمال المالية أيضًا، وبرز منهم ولاة وقادة وقضاة، وطبيعي إلَّا يكون كثير من الموالي في جيش قوامه من العرب المقاتلة، وأمَّا من الناحية الاجتماعية فلقد ظهر الكثير من الموالي

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/ ٣٦١، وقد أفرد ابن عبد ربه في موسوعته الأدبية «العقد الفريد» بابًا بعنوان «باب المتعصبين للعرب»، وأورد فيه بعض الروايات، ومنها -كما هي العادة في كتب الأدب- ما لا شك في كذبه، ومنها ما هو واضح المبالغة والتناقض، ومنها ما هو صحيح ومقبول ومتناسق مع ما ثبت من الروايات، وهي بمجموعها تدلُّ على وجود وانتشار هذه النظرة للموالي.

أصحاب الكنى؛ كأبي سلمة الخلال، وأبي مسلم الخراساني، وأبي هاشم بكير بن ماهان، ولعلَّ عناية العرب بأنسابها في مجتمع قبلي حدَّ من تزاوجهم بالأجانب، وليس في هذا ما يُوجب السخط والتذمُّر ويُؤَدِّي إلى ثورة عارمة. كما أن ثقل الضرائب شمل كل الناس من العرب والموالي والعجم وغير المسلمين، ولقد مرَّ النظام المالي بين مدٍّ وجزر خلال الحقبة الأموية، فلم يكن كله مظالم وأثقال. ثم إن كثيرًا من المدن الإيرانية لم تشترك في الثورة، وبعضها انحاز إلى نصر بن سيار الوالي الأموي؛ إضافة إلى ذلك فإن خراسان ظلَّت -حتى بعد نجاح الثورة العباسية- من أخطر البقاع القلاقل ذاتها؛ مما يُؤَيِّد أن الأمر لم يكن اقتصاديًّا واجتماعيًّا»[١].

٣- عيوب نظام ولاية العهد

كان نظام التوريث هو النظام الأمثل الضامن لاستمرار المملكة في تاريخ البشرية قبل استحداث النظم الديمقراطية، وكان الحكم يئول دائمًا إلى العائلة الأقوى؛ لأنها الوحيدة التي تضمن القدر الأكبر من الاستقرار وانتظام الحياة، وظلَّت هذه هي عادة البشرية -عدا استثناءات محدودة- حتى جاء التطور الإنساني بالنظام الديمقراطي الذي يفصل بين القوَّة وبين شخص الحاكم، فتحمي قوة الدولة شخص المرشح؛ مهما كانت درجته في قوة العصبية.

وعلى رغم مما كان يُؤَدِّيه نظام توريث الملك من استقرار في المملكة، وتجنيب لحروب ودماء لدى كل انتقال في السلطة، فإن الزمن كان يأخذه إلى مَنْ ليس أهلًا للحكم، فتدخل الدولة في مراحل الضعف حتى تنهار.

ونحن نميل إلى أن نظام ولاية العهد، كان هو النظام الأمثل الذي اضطر إليه معاوية ﵁ في الظروف القائمة حينذاك[٢]، إلَّا أنه ومع دخول الدولة في مراحل الضعف ساهم هذا النظام في حدوث الانشقاقات في البيت الأموي، وفي أن يصير الحكم إلى غير أهله، وبدت هذه المعضلة أوضح ما تكون حين حاول هشام بن عبد الملك صرف ولاية العهد عن ابن أخيه الوليد بن يزيد؛ الذي لم يكن أهلًا للحكم، فلما لم يمكنه ذلك لكثير من الظروف، تولى الوليد الخلافة وهو حانق على هشام وأهل بيته، وعلى مَنْ وافقه على خلعه من ولاية العهد؛

---

(١) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٤٩، ٥٠، ١٤٨.

(٢) انظر: محمد إلهامي: معاوية والتوريث، على مدونة المؤرخ: (http://melhamy.blogspot.com).

ومن ثَمَّ ساهمت مظالم الوليد في ثورة عليه قادها ابن عمه يزيد بن الوليد، فأدَّت هذه بدورها إلى تبرُّم أنصار الوليد، ثم إلى خروجٍ آخر قاده مروان بن محمد الذي لم يستقرّ في الحكم يومًا إلَّا وهو يُجالد انشقاقات في البيت الأموي وثورات خارجه.

ولا ريب في أن مروان بن محمد -وهو من شجعان بني أمية وفرسانهم- لو لم تكن أمامه هذه الانشقاقات الأموية وانتثار كلماتهم، لكان أداؤه أفضل في مواجهة العباسيين؛ الذين كانوا بدورهم لن يخاطروا بالظهور العلني مع استقرار البيت الأموي، نستطيع أن نقول بما يُؤَجِّل انهيار الأمويين لعشر سنوات على الأقلّ.

إن العصبية العربية التي صبغت الدولة الأموية، تبعها شيء مهمٌّ وهو أن التقاليد العربية لا تعترف بنظام الوراثة المطلقة؛ بل تذهب إلى إعطاء السلطة لأصلح الموجودين من العائلة الحاكمة، ومن هنا كانت المشكلة تتفاقم مع كل تولية عهد إلى شخصية يوجد مَنْ هو خير منها، فكان تاريخ الأمويين فترة نزاع صامت بين مبدأ الوراثة المطلقة، وبين المبدأ القبلي الذي انتصر أخيرًا على يد مروان بن محمد، كما انتصر أولًا على يد مروان بن الحكم[(١)].

٤- الثورات ضد الأمويين

منذ بدأت الدولة الأموية حتى انتهت وهي تُواجه الثورات، وقد تنوَّعت الثورات وتعدَّدت وكثرت حتى أرهقت الدولة أيما إرهاق، ونستطيع أن نقسم هذه الثورات إلى خمسة أقسام رئيسية:

١- ثورات لأفراد من آل البيت يرون أنفسهم أحقَّ بالأمر من بني أمية، ويعترضون على تحوُّل الملك إلى مُلك وراثي، وعلى ما صنعه بنو أمية من انحراف عن الحق، وما ارتكبوه وولاتهم من المظالم في البلاد، وما إلى ذلك من أسباب. من هذه الثورات: ثورة الحسين بن علي (رضي الله عنهما) على يزيد بن معاوية، وحفيده زيد بن علي بن الحسين على هشام بن عبد الملك.

٢- ثورات علماء ودعاة وشخصيات من غير آل البيت لكنها كانت للأسباب نفسها؛ ومنها ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وسعيد بن جبير على الحجاج بن يوسف

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص٨.

الثقفي، وإلى حد ما[1] يمكن أن نُدرج فيها ثورة عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب بن الزبير.

٣- ثورات الخوارج[2] التي استمرَّت منذ قيام الدولة الأموية حتى نهايتها، ولا تكاد الدولة تُخمد واحدة حتى تنشأ أخرى، وهذه الثورات التي شملت كل أطراف الدولة في شرقها وفي قلبها وفي حجازها ويمنها، بل حتى في المغرب والأندلس كان الخوارج أصحاب ثورات دائمة لا تفتر، وهذا القسم هو الأكثر والأعنف والأقوى بين كل الثورات.

٤- ثورات شخصيات أخرى يغلب على الظنِّ أن تكون من أجل الملك والمصلحة، وإن تسترت بغطاء فكري وشعارات دينية وميول شيعية؛ منها ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في فارس، ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة في البصرة.

٥- ثورات من أصحاب البلاد المفتوحة يُريدون استرجاع ملكهم وسلطانهم، كما في بلاد ما وراء النهر في أقصى الشرق وفي الأندلس في أقصى الغرب.

وهذا بخلاف العديد من التمرُّدات الأخرى الصغيرة والمحلية في أطراف الدولة البعيدة، والتي قُضي عليها بغير كثير عناء.

وعلى الرغم من أن الدولة استطاعت القضاء على هذه الثورات جميعًا، فإن الثمن كان غاليًا جدًّا من أموال الدولة ورجالها، ومن توقُّف الفتوحات غير مرَّة، ونتوقَّع أن لو كانت

(١) قلنا: «إلى حد ما». لأن كثيرًا من المؤرخين يتبنون رأيًا وله وجاهته، وهو أن خلافة عبد الله بن الزبير كانت هي الخلافة الشرعية بعد أن بايعت له الأمصار؛ فيما كان مروان بن الحكم هو الخارج عليه، ثم عبد الملك بن مروان حتى استطاع التغلُّب ودانت له البلاد.

(٢) كان الخوارج قوم قتال وأهل بأس شديد، وقد وصفهم حميد بن عبد الحميد الطوسي -أحد القادة العسكريين الكبار في الدولة العباسية في القتال- على هذا النحو: يضربون الضربة الأولى بأسرع وأقوى شدة فيبلغون بها ما أرادوا، ويصبرون على طول المسير والانتقال والرحلة؛ حتى ليقطعون المسافات الكبار في زمن لا يتوقعه عدوهم الذي يجد نفسه أمامهم فجأة، ولا يدركهم أحد إن قرروا الانسحاب أو عدم المواجهة من سرعة حركتهم، ثم إن زهدهم وقلة أموالهم وعدم تعلقهم بالحياة يجعلهم أشجع في القتال لا يتعلقون بدنيا، وأشد على العدو الذي لا يجد معهم ما يغنمه منهم ولو هزمهم.

وفي اجتماع الخليفة العباسي المأمون مع قادته العسكريين سألهم: أن يلقى بهم مائة تركي أو مائة خارجي؟ (والأتراك هم سكان وسط آسيا في بلاد ما وراء النهر، وهم أبطال المعارك وسيكون منهم جند الخلافة العباسية فيما بعد)، فقال معظم القادة: لأن نلقى مائة تركي أحب إلينا من أن نلقى مائة خارجي. انظر: الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٤٠ وما بعدها. فهذا النصُّ يشير إلى مدى قوة الخوارج وإخلاصهم في القتال!

الثورات أقلَّ من هذا لكان بنو أمية قد استطاعوا فتح الدنيا في وقتهم، فهم -مع كل هذه الثورات- ملكوا نصف العالم تقريبًا، وجمعوه في دولة واحدة.

لقد كانت هذه الثورات أحد أهمِّ أسباب ضعف الدولة الأموية، لا سيما في آخر عهدها، ثم كانت سياسة الأمويين في التعامل معها -أيضًا- مما يزيد في إثارتها، لا سيما ما كان من ثورات آل البيت، وهم الذين تجب محبَّتهم على المسلمين جميعًا!

ومن سياستهم لعن علي بن أبي طالب وابنيه؛ ذَكَر ابن حزم في سياق حديثه عن العباسيين أنهم كانوا «بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، ولعن بنيه الطاهرين من بني الزهراء؛ وكلهم كان على هذا حاشا عُمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد رحمهما الله تعالى؛ فإنهما لم يستجيزا ذلك»[١].

٥- أحوال خراسان

كان لا بُدَّ للمحلِّلين والمؤرِّخين الالتفات إلى الأحوال في خراسان تحديدًا، المكان الذي ترعرعت فيه الدعوة العباسية، ومنه خرجت جيوشها.

فُتحت خراسان في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، لكنها ظلَّت مضطربة لا سيما بعد ضعف الخلافة في زمن علي رضي الله عنه، ثم بدأت الأحوال تستقرُّ بعد استقرار الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، وكان والي خراسان في العموم تابعًا لوالي العراق وهو الذي يُعَيِّنه، فمن هنا كانت أغلب القبائل العربية التي ذهبت إلى خراسان بدافع الجهاد، أو بدافع السكنى من مناطق العراق كالبصرة والكوفة، وكان طبيعيًّا أن تحمل القبائل معها عاداتها وتقاليدها، ولكن بمرور الزمن تكونت تكتلات وتحالفات جديدة بين القبائل؛ حتى إن الفخذ الصغير لينضم إلى عشيرة أخرى غير عشيرته، أو إلى تحالف آخر من جرَّاء المصالح التي تجدَّدت وتغيرت في الأرض الجديدة[٢].

على المستوى السياسي أخطأت السياسة الأموية حين اعتمدت إبقاء المقاتلين على الثغور في فصل الشتاء بعد جهادهم في الصيف، في الوقت الذي يُريد فيه هؤلاء المقاتلة العودة لأهلهم وديارهم في مرو، وإضافة إلى هذا فإن الوالي الأموي كان يسلب هؤلاء المقاتلة أحيانًا فيئهم وغنيمتهم ويأخذ أكثر من الخُمس، وقد يأخذ بعض الغنائم النفيسة فيُرسلها إلى

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم ٢/ ١٤٦.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٥١ وما بعدها.

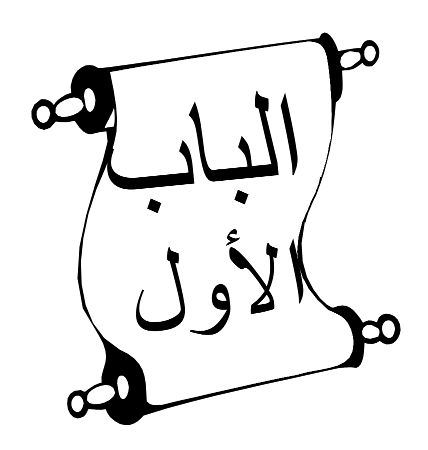
دمشق، ما أثار تذمُّرًا واسعًا في صفوف المقاتلين، ولا شَكَّ أن أخطر ما تتعرَّض له دولة أن يتذمَّر جنودها وهم أصحاب القوَّة فيها، وكانت هذه الاضطرابات وغيرها مما يدفع الدولة أحيانًا إلى جعل خراسان ولاية مستقلَّة، ويكون واليها تابعًا للخلافة مباشرة، وهكذا كان نصر بن سيار -آخر ولاة الأمويين- مُعَيَّنًا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك، وعلى الجانب الآخر فإن الخلاف بين الوالي الأموي دفع العرب إلى البحث عن أماكن أخرى غير مرو -عاصمة خراسان- للاستقرار فيها ولو مؤقتًا؛ مثل: مرو الروز، هراة، نيسابور[١].

وعلى المستوى الاجتماعي كان العرب الذين استقرُّوا في خراسان ممن اجتمع عليهم الشَّرَّان؛ إذ لم يكونوا من الطبقة الحاكمة كما كان العرب في الشام والعراق، كما أنهم لم يَسلموا من الرضوخ للدهاقين (جامعي الضرائب) الفرس، الذين كانوا أصحاب اليد العليا في خراسان، فهم حين استوطنوا البلاد واشتغلوا بالزراعة حُذِفوا من ديوان الجند ولم يكن لهم عطاء؛ ففقدوا ما يتمتَّع به المقاتلون من امتيازات، هؤلاء العرب كانوا -فيما بعد- من المجموعات التي سعى إليهم الدعاة العباسيون لضمهم إليهم، وإثارة الحساسيات بينهم وبين العرب المقاتلة، كما داعبوا خيال الزعماء القبليين؛ مثل: ابن جديع الكرماني، وشيبان الصغير، وشريك بن شيخ المهري.. وغيرهم[٢].

***

(١) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٢٤، ٥٦.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص١٩، ٥٧ وما بعدها، وهو يُوجز ويلخص رسالة الدكتور عبد الحي شعبان: الجذور السياسية والاجتماعية للثورة العباسية في خراسان.



ظهور العباسيين



ظهور العباسيين

حين طلب العباسيون الخلافة فإنهم كانوا يحملون تاريخًا طويلًا، أوله أنهم أصل النسب العريق في بني عبد المطلب وبني هاشم، وهم صفوة العرب وأصحاب الشرف فيهم، لا سيما والعرب قوم يحفلون بالأنساب ويهتمون بها كما لا يفعلون مع شيء آخر.

هذا في العرب والجاهلية، وأمَّا في الإسلام فهم من آل بيت النبي محمد ﷺ، وهو البيت الذي تتعلَّق به قلوب المسلمين محبَّة وتعظيمًا، ثم إن جدهم العباس -عم النبي ﷺ- كان سيدًا في المسلمين ورجلًا من كبار الصفوة المسلمة أيام النبي ﷺ وبعد وفاته؛ حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتوسَّل إلى الله بالعباس رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ.

ثم كان ابنه عبد الله بن عباس حبر الأُمَّة وترجمان القرآن، والفتى المُعَلَّم الذي دعا له النبي بالعلم والفقه، فكان الصحابيَّ الذي يلجأ إليه الكبارُ في المسائل والفتوى، وكان رشيدًا سديدًا حكيمًا، عالي القدر على امتداد الأجيال.

وبعد هذا التاريخ والمقام العالي والنسب الشريف، فقد كان مجهود الدعوة وتأسيس الدولة قصة أخرى كبيرة، ذهبت فيها الأموال والأنفس والأعصاب والمجهود؛ حتى بزغت الدعوة ثم ترسَّخت، ثم تحوَّلت إلى الدولة، ثم سادت وقادت..

في هذا الباب نبدأ قصة العباسيين من أولها إلى حين تأسيسهم لدولتهم الكبيرة.. الدولة العباسية!

❋ ❋ ❋



العباسيون منذ فجر الإسلام وحتى الدعوة للدولة

للعباسيين نسب عريق في الإسلام، فهم يرجعون إلى:

العباس بن عبد المطلب

وهو عمُّ النبي ﷺ، ووُلِد قبله بثلاث سنوات، وكان من سادات قريش، وكان -في الجاهلية- مسئولًا عن سقاية الحجيج وعمارة البيت الحرام في الجاهلية، فكان لا يدع أحدًا يسبُّ في المسجد الحرام ولا يقول فيه هجرًا. وكان العباس طويلًا وجميلًا، أبيض البشرة، جهير الصوت جدًّا، وكان شريفًا كريمًا حليمًا مُهابًا، وكان سيد بني هاشم وأكثرهم مالًا في الجاهلية، فكان يلجأ إليه الجائع فيطعمه والعاري فيَكْسُوَه، وكان يمنع الجار، ويبذل المال، ويعطي في النوائب.

حضر العباس بيعة العقبة الثانية، ولم يكن قد أسلم وقتها، وتَوَثَّق من قيام الأنصار بمسئولية حماية النبي ﷺ وتمسُّكهم به، وبقي على الشرك حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ولكنه كان في مكة ملجأ للمستضعفين من المؤمنين ممَّنْ لم يستطيعوا الهجرة، وخرج مُكْرَهًا إلى غزوة بدر في جيش الكفار فَأُسِر، وكان النبي ﷺ قد أمر صحابته ألا يقتلوا العباس إذا لقوه في المعركة لأنه خرج مكرها[1]، ثم افتدى العباس نفسه وابنَ أخيه عقيل بن أبي طالب من الأسر، وعاد إلى مكة.

وهنا يختلف المؤرِّخون حول إسلامه، فبعضهم يقول: أسلم بعد بدر، وظلَّ يكتم إسلامه في مكة، ويكتب بما في مكة من أخبار إلى النبي ﷺ. ومنهم مَنْ يقول: إنه ظلَّ على كفره إلى ما قبل فتح مكة. فمن المؤكد أنه كان مسلمًا في فتح مكة.

وكان العباس بعد إسلامه، أو بالأحرى بعد اشتهار إسلامه، كما كان قبله، حريصًا على النبي ﷺ دافعا الأذى عنه متفانيًا في سبيله، وهو الذي كان يُمسك بخطام بغلة النبي ﷺ في غزوة حنين، وكان المُبَلِّغ عن النبي ﷺ لما تمتَّع به من صوت جهير، فنادى على المسلمين الذين

---

(١) الحاكم (٤٩٨٨)، وقال الذهبي: صحيح على شرط مسلم.

تفرَّقُوا عن النبي ﷺ في حنين؛ فأقبلوا نحو رسول الله وجاهدوا دونه؛ حتى اعتدل ميزان القتال وانتصر المسلمون.

كان النبي ﷺ يُعظِّم العباس ويُجلِّه؛ حتى قالت عائشة: **مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُجِلُّ أَحَدًا مَا يُجِلُّ الْعَبَّاسَ أَوْ يُكْرِمُ الْعَبَّاسِ**(١).

وكذلك كان صحابته رضوان الله عليهم، وكانوا يُشاورونه، بل رُوِي أن العباس كان إذا مرَّ بعمر بن الخطاب أو بعثمان بن عفان وهما راكبان نزلا حتى يُجاوزهما إجلالًا لعم رسول الله أن يمشي وهما راكبان(٢).

وفي عام الرمادة (١٨هـ) خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتوسَّل إلى الله بالعباس أن يسقيهم، ويقول: **«اللهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»**(٣). فدعا العباس فنزل المطر وسقى الناس، وكان العباس رفيقًا لعمر في ذهابه إلى بيت المقدس؛ حتى كان البطارقة لجماله وهيبته يظنون أنه الخليفة، فكان يُشير إلى عمر.

تُوُفِّيَ العباس في عهد عثمان بن عفان، ودُفن في البقيع، وقد عَمَّر ثمان وثمانين سنة، وهو عُمْرٌ لم يبلغه أحد من ذريته الخلفاء(٤).

ومما ورد في فضل العباس من الأحاديث:

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للعباس: **«إِذَا كَانَ غَدَاةَ الاِثْنَيْنِ فَأْتِنِي أَنْتَ وَوَلَدُكَ حَتَّى أَدْعُوَ لَهُمْ بِدَعْوَةٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا وَوَلَدَكَ»**. فغدا وغدونا معه وألبسنا كساء، ثم قال: **«اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْعَبَّاسِ وَوَلَدِهِ مَغْفِرَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً لاَ تُغَادِرُ ذَنْبًا، اللهُمَّ احْفَظْهُ فِي وَلَدِهِ»**(٥).

وعن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة ساعيًا، فمنع ابن جميل، وخالد، والعباس. فقال رسول الله ﷺ: **«مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ، وَأَمَّا**

(١) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ٩٢، وقال: «إسناده صالح».
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٦/ ٣٥٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٩٣.
(٣) البخاري (٩٦٤).
(٤) انظر: ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/ ٥٠٦ وما بعدها، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ١٦٣ وما بعدها، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١/ ٧٨ وما بعدها، وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٦٣١.
(٥) الترمذي (٣٧٦٢)، والبزار (٥٢١٣)، وقال الذهبي (سير أعلام النبلاء ٢/ ٨٩): إسناده جيد، وحسنه الألباني في التعليق على الترمذي.

خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ، وَمِثْلُهَا مَعَهَا». ثم قال (أي لِعُمَر): **«يَا عُمَرُ، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ**(١) **أَبِيهِ؟»**(٢). وكان النبي ﷺ قد تسلف من العباس زكاة عامين من قبل، فلذلك قال: **«فَهِيَ عَلَيَّ»**.

عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله ﷺ للعباس: **«هَذَا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَجْوَدُ قُرَيْشٍ كَفًّا وَأَوْصَلُهَا»**(٣).

وقد وردت كثير من الأحاديث الضعيفة في فضل العباس، وضعها الوضاعون تقرُّبًا للخلفاء، وزاد في انتشارها كثرة استعمالها في الدولة العباسية في الخطب والمكاتبات والرسائل والتآليف، التي لم يُرَاعِ فيها أصحابها الصحَّة بقدر ما أرادوا الإكثار في مدح العباسيين والتقرُّب إليهم.

ومن طرائف التاريخ أنه وأبا سفيان بن حرب كانا صديقين أثيرين في الجاهلية، فدارت الأيام حتى جاءت الرسالة فلم يُؤمنا، ثم أسلما قريبًا من بعضهما، ثم ملك أولاد أبي سفيان وأقاموا دولة بني أمية، ثم أزالهم وهدم دولتهم وأسقطهم أولادُ العباس.

كان للعباس تسعة أولاد وثلاث بنات(٤)، إلَّا أنَّ واحدًا منهم فاقهم جميعًا في الفضل والمكانة، ذلك هو:

عبد الله بن عباس

وهو الصحابي الكبير، والإمام العالِم البحر، المعروف بحبر الإسلام وترجمان القرآن.

وُلِد قبل الهجرة بثلاث سنوات؛ وذلك في لحظة عصيبة من تاريخ الإسلام؛ حيث كان المسلمون محاصَرين في الشِّعْب، وظل في مكة مع أبيه العباس حتى سنة الفتح، التي أسلم فيها أبوه وانتقل إلى المدينة، ورُوي عنه أنه أسلم هو وأمُّه قبل أبيه، غير أنهما لم يستطيعا الهجرة.

---

(١) صِنْو أبيه: أي مثله ونظيره، يقال لنخلتين طلعتا من عرق واحد.

(٢) البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣)، واللفظ لمسلم.

(٣) أحمد (١٦١٠)، والنسائي (٨١٧٤)، وابن حبان (٧٠٥٢)، والحاكم (٥٤٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٢٦)، وحسنه شعيب الأرنؤوط في التعليق على أحمد وابن حبان.

(٤) وهم: الفضل -وهو أكبر ولده- وعبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وقثم، ومعبد، وحبيبة، وأمهم أم الفضل لبابة بنت الحارث بن حزن. وكثير، وتمام، وصفية، وأميمة، وأمهم أم ولد، والحارث، وأمه حجيلة بنت جندب. ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/ ٥٠٦، ٥٠٧.

وبهذا يكون ابن عباس قد صَحِب النبي ﷺ مدة ثلاثين شهرًا تقريبًا[١]، وقد فاز فيها بدعاء النبي ﷺ له **«اللهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ»**، و**«اللهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ»**[٢]، و**«اللهُمَّ عَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ وَفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»**[٣].

وقد انتبه ابن عباس لأهمِّيَّة جمع السنة بعد وفاة النبي ﷺ؛ فطفق يجمع السنة، ويسأل عن الأحاديث، ويذهب إلى مَنْ كان قد سمع الحديث؛ حتى اجتمع له من العلم ما جعله من كبار علماء الصحابة؛ على الرغم من صغر سنِّه بينهم، وهذا مع الذكاء والفهم والقدرة على الاستيعاب والاستنباط ما جعله جليسًا في مجلس عمر بن الخطاب مع كبار الصحابة -وهو في عُمر أبنائهم- حتى كان عمر إذا سُئِل في ذلك قال: «ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول». وكان يستشيره في القضايا المعضلة مع الفارق الكبير في السنِّ والصحبة[٤]، وسُئِل ابن عمر في مسألة فقال للسائل: «سل ابن عباس؛ فإنه أعلم مَنْ بقي بما أنزل الله على محمد». وكثيرًا ما أثنى الصحابة على ابن عباس ثناء كبيرًا وكثيرًا.

ولَقَّبَه ملك المغرب جرجير بـ«حبر العرب»؛ حين كان مجاهدًا تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح في فتحه للشمال الإفريقي..

وكان قريبًا عزيزًا على قلب عثمان بن عفان، يشفع ويتوسَّط فيما لا يستطيعه كثير من الصحابة، وكلفه عثمان بإمارة الحج في السنة التي استشهد فيها، وكان من المقربين إلى علي رضي الله عنه فكان واليًا له على البصرة، وكان قائد الميسرة في جيشه يوم صفين، وكان سفيره إلى الخوارج حين غالوا واشتطوا في أفكارهم، فذهب إليهم فحاورهم وأقنعهم؛ حتى رجع ثلثاهم إلى علي، وهي محاورة مشهورة تدلُّ على ما تميز به ابن عباس من علم وفقه وحكمة في التعامل مع الناس.

ولما قُتِل علي ترك ابن عباس العراق واستقرَّ في الحجاز، ثم لما تنازع عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان على الخلافة، وكانت مكة في سلطان ابن الزبير وأراد أن يحمله على

---

(١) فُتحت مكة في رمضان عام ٨ هـ، وتوفي النبي ﷺ في ربيع الأول عام ١١ هـ، فبهذا تكون صحبته أكثر قليلاً من ٣٠ شهرًا.

(٢) البخاري (٧٥)، (٣٥٤٦).

(٣) أحمد (٢٣٩٧)، والحاكم (٦٢٨٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وابن حبان (٧٠٥٥) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٨٩).

(٤) كان عمر بن الخطاب أكبر من ابن عباس بستة وثلاثين عامًا، وزاد في صحبته للنبي ﷺ بستة عشر عامًا عن ابن عباس.

البيعة له رفضها، وخرج إلى الطائف، واستقرَّ بها إلى أن مات رحمه الله.

ولقد كانت مواقف ابن عباس السياسية من أظهر الأدلة على عقله وحكمته؛ فإنه عارض الحسين بن علي في خروجه واطمئنانه لأهل الكوفة، ونصحه ألا يذهب إليهم ما داموا خاضعين لواليهم من قبل يزيد، وأطال في نصح الحسين، بل توقع أنه مقتول وقال له: «إني لأظنك ستُقْتَل غدًا بين نسائك وبناتك كما قُتِل عثمان، وإني لأخاف أن تكون الذي يُقاد به عثمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون». إلَّا أنَّ الحسين لم يسمع له ومضى إلى الكوفة فكان ما كان.

وكذلك عارض ابنُ عباس عبدَ الله بن الزبير في قيامه بالخلافة؛ على الرغم من أن قراءة المشهد السياسي كانت تقول بأن ابن الزبير كان أفضل حالًا وأقوى موقفًا؛ فإن الأيام كشفت كم كان ابن عباس بصيرًا ببواطن الأمور وصحيح التقدير لموازين القوى في وقته.

وكان أبيض طويلًا مشربًا صفرة، جسيمًا وسيمًا، صبيح الوجه وافر الشعر، ومات في عام ٦٨هـ وعمره واحد وسبعون سنة، وله خمسة أولاد وبنتان[١]، مات بالطائف بعد أن ترك مكة حين كانت في سلطة عبد الله بن الزبير، وابتُلي قبل موته بذهاب بصره.

وكان -رحمه الله- من أعلام الزهد والورع والخشية من الله، كان يُرى على خديه أثر البكاء مثل الشراك البالي[٢].

كانت شخصية ابن عباس من الشخصيات النادرة؛ التي اجتمع فيها العلم الغزير مع الحكمة والفطنة والبصر بالواقع وطبائع الناس ومسارات السياسة، مع الزهد والورع والخشية، ولا شَكَّ أن كثيرًا من هذه المزايا استطاع أن ينقلها إلى أولاده، الذين كان أهمُّهم -في موضوعنا هذا- ولده الأصغر:

علي بن عبد الله بن عباس

وُلِد في الليلة التي قُتل فيها علي بن أبي طالب، فسُمِّي باسمه وكُنِّي بكنيته؛ فصار أبا

---

(١) أولاده من الذكور: العباس والفضل ومحمد وعبيد الله وعليّ، ومن الإناث: لبابة وأسماء. الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٣.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣/ ٩٣٣ وما بعدها، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٢٩٥ وما بعدها، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣١ وما بعدها، وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ١٤١ وما بعدها.



الحسن علي بن عبد الله بن عباس(١).

وصفه المؤرِّخون بأنه أجمل قرشي على وجه الأرض في وقته، وكان طويلًا مفرط الطول، وكان كثير العبادة حتى لُقِّب بالسَّجَّاد(٢)، قال ابن كثير: «كان علي هذا في غاية العبادة والزهادة والعلم والعمل وحُسْن الشكل والعدالة والثقة»(٣).

وكان سيدًا شريفًا، وكان مُعَظَّمًا جدًّا إلى الحدِّ الذي كان إذا قدم مكة حاجًّا أو معتمرًا عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام، وهجرت مواضع حلقها، ولزمت مجلس علي بن عبد الله إعظامًا وإجلالًا وتبجيلًا؛ فإن قعد قعدوا، وإن نهض نهضوا، وإن مشى مشوا جميعًا حوله، وكان لا يرى لقرشي في المسجد الحرام مجلس ذِكْر يجتمع إليه فيه حتى يخرج علي بن عبد الله من الحرم(٤).

وكان عبد الملك بن مروان يُكرم علي بن عبد الله بن عباس ويُقَدِّمه ويُهدي إليه الهدايا، بل كان يُجلسه على سرير الحكم معه، وهي منزلة عُليا؛ إلَّا أنه لما عرف أن كُنيته أبا الحسن، فهو كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في اسمه وكنيته، طلب منه أن يُغَيِّر اسمه أو كنيته، فرفض أن يغير اسمه؛ ولكن غَيَّر كنيته إلى أبي محمد، ويُصَرِّح ابن خلكان بأن هذا لبُغْض عبد الملك بن مروان لعلي بن أبي طالب؛ حتى إنه لم يحتمل سماع الاسم والكنية معًا(٥).

ولا شَكَّ أن مثل هذا الموقف ساهم في إضافة مزيد من تراكم الثارات في نفوس آل البيت تجاه الأمويين، وأن عليًّا -فيما نظن- أقدم على تغيير كنيته كارهًا مضطرًا.

لكن العلاقة بين علي وعبد الملك بن مروان كانت طيبة؛ بل كان لعلي عند عبد الملك قدْرٌ كبير، حتى إن بعض مَنْ يخشون عبد الملك كان يُجيرهم علي بن عبد الله، كما في حالة عبد الله بن يزيد القسري ويحيى بن معتوق الهمداني(٦). وكان الإحسان إلى علي بن عبد الله جزءًا

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٣١٢، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٣/ ٣٨.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٣١٣، والمبرد: الكامل ٢/ ١٦٢، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٣/ ٣٨، ٣٩، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٥٢، ٢٨٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٥١.

(٤) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٣/ ٢٠٧.

(٥) المبرد: الكامل ٢/ ١٦٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٦٥، وابن الأثير: الكامل ٤/ ٥٥، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢٧٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٥١. ووضع محمد بن طاهر البرزنجي هذه الرواية في قسم الضعيف والمسكوت عنه في تاريخ الطبري ٩/ ٥٦٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٤/ ١٠٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٣/ ٣٤.

من وصية عبد الملك بن مروان لولده الوليد حين حضره الموت، قال: «... وانظر ابن عمنا هذا علي بن عبد الله بن عباس، فإنه قد انقطع إلينا بمودته وهواه ونصيحته، وله نسبٌ وحقٌّ، فصِلْ رحمه واعرف حقَّه»[١].

لكن العلاقات ساءت بين علي بن عبد الله بن عباس والوليد بن عبد الملك؛ إذ وردت روايات تُفيد بأن الوليد ضرب علي بن عبد الله بن عباس حين تزوج أم أبيها[٢] بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب؛ ذلك أنها كانت مُطَلَّقة عبد الملك بن مروان، ورأى الوليد في زواجه منها أنه قصد إلى الحطِّ من شأن الخلفاء بتزوُّجه أُمَّهم، فردَّ عليه علي بن عبد الله بأنه ابن عمها وأراد السفر؛ فتزوجها لئلاَّ يكون عليه حرج في مرافقتها في السفر[٣].

وأقدم مصادر هذه الرواية هو المبرد في الكامل، وأوردها بلا إسناد، والجزء المؤكد منها هو تطليق عبد الملك لأم أبيها ثم زواجها من علي بن عبد الله[٤]؛ أمَّا المبررات فتبدو مثيرة للشك؛ ذلك أننا لا نجد ذرية لأم أبيها من عبد الملك في المصادر التي بأيدينا؛ بل إن ابن سعد لم يذكرها في زوجات عبد الملك[٥]؛ مما يزيد في التأكيد على أنها لم تُنجب من عبد الملك لتكون «أم الخلفاء»، كما أن تَزَوُّج علي بن عبد الله ليس بالذنب العظيم؛ الذي يستلزم الضرب والجلد فيما نرى، كذلك يبدو تبرير علي لزواجه منها متهافتًا؛ أفكلما اضطر رجل إلى السفر مع امرأة اضطر إلى الزواج منها؟!.. وإضافة إلى هذا فإننا نرى علي بن عبد الله قد تزوَّج بالفعل من عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله[٦]، وكانت قبله زوجة لعبد الملك بن مروان، وأنجبت منه بكار بن عبد الملك[٧]، ولم يَرِدْ شيء بخصوص غضب الوليد بن عبد الملك لهذا الزواج، أو تَخَوُّف علي بن عبد الله من الزواج منها.. إن كل هذا يدفع إلى القول بأن مبررات العداوة بين عبد الملك وعلي بن عبد الله -كما جاءت عند المُبَرَّد- بعيدة عن التصديق.

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٦/ ١٤٤.

(٢) وفي بعض المصادر أن اسمها «لبابة»، ولكن غالب مصادر التراجم على أن اسمها «أم أبيها».

(٣) المبرد: الكامل ٢/ ١٦١.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٣١٢، وابن قتيبة: المعارف ص٢٠٧، وورد هذا -أيضًا- في كتب المحدثين مما يجعلها ثابتة، انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧٠/ ٢٠٣، والمزي: تهذيب الكمال ٣٥/ ٣٢٦، ٣٢٧، وابن حجر: تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٠٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٢٢٣، ٢٢٤.

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٩/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٢٢٤.

لكن سوء العلاقات بين علي بن عبد الله بن عباس والوليد يبدو ثابتًا؛ وذلك لأسباب غير هذه الرواية، ومن أقوى ما يُؤَيِّده أن علي بن عبد الله ترك دمشق وسكن الحميمة، وهي قرية لا هي بعيدة عن دمشق ولا هي قريبة منها، وقد ورد أن الوليد أخرج عليًّا من دمشق إلى الحميمة عام ٩٥[١]، فيما أورد الذهبي أن الذي أخرجه هو هشام بن عبد الملك إذ خافه وأولادَه[٢].

وكان هشام بن عبد الملك يُكرمه ويُقدِّمه ويصله بالأموال كذلك، على الرغم من أنه كان يُواجهه ويُصارحه بأن أحفاده سَيَقْضون على مُلْك الأمويين، وسيملكون ما تحت أيديهم من البلاد مما سيأتي بيانه بعد قليل.

ومما كان يزيد من هذه المخاوف أن عليًّا له أكثر من ثلاثين ولدًا؛ منهم أكثر من عشرين ولدًا ذكرًا غير الإناث[٣]، وتُوُفِّيَ عليٌّ (رحمه الله) ١١٧ هـ، أو ١١٨ هـ، وعمره ثمانٍ وسبعون سنة[٤].

حديث النبوءة

كثيرًا ما يرد في المصادر التاريخية خبر النبوءة، خبر رجل قال بأنه سوف يحدث كذا وكذا، ثم يحدث التاريخ وَفق ما قال القائل، والمؤرِّخون يُوردون هذه الأخبار بحسب مناهجهم؛ فثمة مَنْ يكتبها لأن منهجه في الكتابة التاريخية أن يذكر ما وصله من أخبار دون أن ينقدها، وثمة مَنْ يذكرها من قبيل الطرافة وعجائب الاتفاق، وثمة من يذكرها كاستئناس على ضفاف الحدث نفسه، ولا شَكَّ -أيضًا- أن ثمة من يذكرها لأنه يُصَدِّقها.

وعلى حدِّ ما نعلم، فإنه ليس ثمة خبر قد ثبت أنه وُضِع قبل أن يقع الحدث بالفعل، ولا سيما في مراحل التاريخ المبكرة، التي تشملها الفتوحات الإسلامية والدولة الأموية وصدر الدولة العباسية، ففي هذا التوقيت كانت الرواية الشفهية هي السائدة، ولم تكن قد ظهرت بعد دواوين التاريخ، التي كتبها المؤرِّخون الكبار، الذين بدأ ظهورهم في القرن الثاني للهجرة.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢٧٨، وابن العماد: شذرات الذهب ١/ ١٤٣.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٥٣.
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٣١٢، ٣١٣.
(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٣١٣، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٣/ ٣٨، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٥٣.

أحيانًا تكون النبوءة على لسان رجل صالح، وأحيانًا على لسان كاهن عالم بالحِدْثان، وأحيانًا لا يُعرف لها قائل، وأسوأ ما في النبوءة أنها تُعطي تفسيرًا سهلًا لحركة التاريخ، كما أنها تُضفي لمحة أسطورية على الأحداث والشخصيات.

ومن هذه النبوءات الشهيرة ما ورد من أن علي بن عبد الله بن عباس كان يقول ويُعلن: إن حفيديه أبا العباس وأبا جعفر سيتوليان الخلافة، ويحكمان ما كان بيد الأمويين، «قيل: إنه دخل على هشام، فاحترمه وأعطاه ثلاثين ألفًا، ثم قال: إن هذا الشيخ اختلَّ وخلط، يقول: إن هذا الأمر سينتقل إلى ولدي. فسمعها علي، فقال: والله ليكونن ذلك، وليتملكن هذان، وكان معه ولدا ابنه السفاح والمنصور»[(١)].

ولأجل هذا القول والإصرار عليه ساءت علاقته بالوليد بن عبد الملك؛ حتى ضربه وطاف به على جمل مقلوبًا ينادى عليه: هذا عليٌّ الكذاب. لأنهم بلغهم عنه أنه يقول: إن هذا الأمر سيصير في ولدي. وحلف ليكونن فيهم حتى تملك عبيدهم الصغار الأعين العراض الوجوه[(٢)]، وفي رواية أخرى: «إي والله لتكونن الخلافة في ولدي، ولا تزال فيهم إلى أن يأتيهم العلج من خراسان فينزعها منهم»[(٣)].

والرواية الأولى أشبه بتغلُّب الجنود الترك على أسيادهم الخلفاء، والأخرى أشبه بتغلُّب المغول عليهم، والرواية الأولى نجدها في مصادر عاش مؤلفوها في زمن تغلُّب الترك؛ مثل المبرد (ت ٢٨٦هـ) في كتابه الكامل، والمجهول صاحب «أخبار الدولة العباسية»[(٤)]، الذي

---

(١) المبرد: الكامل ٢/ ١٦٢، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٥٨، وابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٣، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٨٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٥٢.

(٢) الكامل: المبرد ٢/ ١٦٢. وقال عن إسناد الرواية: «إسناد متصل لست أحفظه». ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٣٩.

(٣) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ٢/ ٢٣٣، وبدر الدين العيني: عقد الجمان.

(٤) تعليق على كتاب «أخبار الدولة العباسية»:

مؤلفه مجهول، أُلِّف في منتصف القرن الثالث الهجري بحسب ما حقق د. عبد العزيز الدوري، وهذا الكتاب يؤرخ للحركة العباسية أيام كانت دعوة وتنظيمًا سريًا، وبدأ الكتاب بفضل العباسيين، وجاء فيه بكل ما استطاع من روايات ترفع من قدر العباسيين (العباس، عبد الله بن عباس، علي بن عبد الله بن عباس) وتضع من قدر غيرهم، أيًّا ما كان هؤلاء الآخرون: أمويين أو تابعين أو صحابة أو خلفاء راشدين أو أم المؤمنين عائشة، وتكاد كل هذه الروايات أن تكون ضعيفة وموضوعة ومكتوبة بنَفَس وغرض شيعي واضح الحقد والكذب، وفيها كل ملامح الرواية الضعيفة من الطول والإسهاب، وكثرة السب والشتم، وكثرة ألفاظ القسم، وهي تستهدف تثبيت القول بأن الإمامة حق لآل البيت لا يتعداهم إلى غيرهم، وهو قول أُلِّفَ لغرض السياسة؛ ليُؤَكِّد على أن خلافة العباسيين إنما تصحيح للوضع الخاطئ، فهو حافل بروايات تبادل السباب بين معاوية وابن عباس (رضي الله عنهما)، وفيها يستطيع ابن عباس –دائمًا– إفحام معاوية إفحاما مهينا!! =

أُلِّف قريبًا من زمن المبرد في منتصف القرن الثالث الهجري؛ بحسب ما حقق المؤرِّخ الدكتور عبد العزيز الدوري[١].

والرواية الثانية نجدها في المصادر التي كُتبت بعد إسقاط المغول للخلافة العباسية؛ مثل فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، وعقد الجمان لبدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ)، وغيرهما، ومن ثَمَّ فُسِّرت النبوءة بحسب ما وقع من أحداث، فمَنْ رَأَى المغول كَتَب بأنها تنبَّأت بالمغول، ومَنْ لم يدركهم ظنَّها خاصَّة بتغلُّب الجنود الترك على الخلفاء.

إلا أن احتمالًا ينبغي أن نضعه هنا؛ ذلك أن ما يقوله الرجل الصالح ينبغي أن يُؤخذ باحترام على غير ما يصدر عن الكُهَّان؛ فالرؤية الصالحة جزء من النبوة، وقد يكون علي بن عبد الله بن عباس نطق عن رؤية صالحة رآها..

وتُشير بعض الروايات الضعيفة إلى أن النبوءة قالها عبد الله بن عباس في وصيته عندما حضرته الوفاة[٢]، كما تُشير روايات ضعيفة أخرى إلى أن النبي ﷺ هو الذي بَشَّر العباس بأن الخلافة ستئول إلى ولده[٣].. وهي الروايات التي وُضِعت في العصر العباسي بغرض إسباغ الثوب الشرعي على الخلفاء.

= وأغلب الظن أن هذه الروايات وضعت في أوائل العصر العباسي، لا سيما عهد أبي جعفر المنصور، حيث كانت المعركة على شرعية الخلافة على أشدها بين العلويين والعباسيين، كما يمكن أن يكون بعضها وُضِع منذ أواخر العصر الأموي في إطار الأسلحة التي استخدمتها الدعوة العباسية لإثبات الأحقية في الخلافة لآل البيت، ولاشك أن مثل هذه الروايات هي التي ملأت النفوس بالحقد والثارات وجعلت ثورة العباسيين بهذه الدموية، وما وُضِع منها بعدئذٍ في عهد المنصور كان يساهم في تبرير هذه الدموية وإتاحة الأعذار لها.

إن مطالعة هذه الروايات تشرح حال زمنها وأفكار العباسيين فيها، ونعلم منها حقًّا أن هذا الدين محفوظ بحفظ الله، قد هيَّأ الله الرجال الأفذاذ الذين وضعوا علم السند، وناقشوا صلاحية الرجال لرواية التاريخ، ولولا هذه النعمة على الأمة لكانت مصادرنا موضع التشكك والاضطراب والاختلاف.. فالحمد لله رب العالمين.

ويلاحظ في هذا الكتاب -أيضًا- كثرة النبوءات والعلامات والأحاديث المكذوبة التي تُبَشِّر بقدوم العباسيين وما إلى ذلك، لكنه على الرغم مما فيه يمثل المصدر الرئيسي في التأريخ لفترة الثورة العباسية حتى قيام الدولة، والمعلومات التي أوردها بهذا الخصوص لا توجد في غيره، وتمتاز بالتفصيل والشمول والتتبع الدقيق لمسارات الحركة العباسية.

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٠ (مقدمة التحقيق).

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٣١، وسنده ساقط لجهالة المؤلف ولعدم تصريحه بالتحديث، كما أن سنده هو: محمد بن يوسف بن يعقوب الهاشمي قال: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن عيسى، قال: حدثني سليمان بن عيسى بن موسى، عن عيسى بن موسى بن محمد بن علي، عن أبي عبد الله محمد بن علي، ولم أعثر على تراجم لرجال بدايات السند، ووجدت محمد بن طاهر البرزنجي يضع روايةً وردت عن محمد بن يوسف بن يعقوب الهاشمي، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عيسى في قسم الضعيف والمسكوت عنه من تاريخ الطبري. انظر: محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ١١/ ١٤٨.

(٣) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٨.

ولنا وقفة أخرى مع حديث النبوءة إن شاء الله تعالى.

***

لم يختلف العلماء على الفضل الكبير والمكانة العليا في الإسلام للعباس وابنه عبد الله بن عباس وحفيده علي بن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهم جميعًا؛ فلقد كانوا من خيرة الناس نبلًا وشرفًا ومروءة وعلمًا وعملًا؛ وعلى الرغم من أن هذا من الحقائق التي لا شَكَّ فيها؛ فإن قيام دولة الخلفاء من بني العباس واستمرارها قرونًا أسفر عن كثير من الروايات، التي لا ترفع من شأن أجداد الخلفاء فحسب، بل تُسقط من شأن كل مَنْ ولي الخلافة من الأمويين حتى معاوية رضي الله عنه؛ بل امتدَّت كثيرٌ من الروايات إلى الطعن في الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان.. وانتشرت هذه الروايات في كتب الأدب، وتناقلها الإخباريون ووضعها المؤرِّخون في كتبهم، ولا شَكَّ في أن هذه الروايات ساهمت في تضليل كثير من الناس، وتشويه أنصع صفحات التاريخ الإسلامي ورجاله العظام، ولولا أن ديننا دين الإسناد لاستحال تمييز التاريخ الصحيح من تشويهات الوضَّاعين من الإخباريين وذوي الأهواء، الذين أحبُّوا أن يُنافقوا الخلفاء ولو على حساب دينهم.

ولذلك ينبغي التنبيه إلى ما شاب الروايات الواردة في فضل العباس وعبد الله بن عباس وعلي بن عبد الله بن عباس من روايات ضعيفة، ظاهرها الفضل وباطنها الطعن في غيرهم، وهذا بخلاف ما هو ظاهره وباطنه الطعن[١].

***

(١) انظر مثالاً من هذه الروايات الساقطة في كتاب «أخبار الدولة العباسية»، الذي أُلِّف في منتصف القرن الثالث الهجري بحسب تحقيق د. عبد العزيز الدوري، ولا يُعرف مؤلفه.



محمد بن علي العباسي وتأسيس الدعوة العباسية

كان محمد بن علي أكبر أبناء أبيه، وكان جميلًا طويل القامة، صاحب عقل وعلم وفضل وحلم وعبادة؛ حتى رُوي عن أخيه عيسى بن علي أنه يزيد في الفضل على أبيه علي بن عبد الله بن عباس، وكان من علماء عصره حتى عَدَّه ابن حبان في مشاهير علماء الأمصار، وقال فيه: «من عُبَّاد أهل المدينة وعلماء بني هاشم». ومِنْ أشهر مَنْ تلقى عنه العلم أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، ولقب -لكثرة عبادته- بلقب أبيه «السَّجَّاد»[(١)].

وحياته تدلُّ على ما تميز به من قوَّة الشخصية والذكاء والفطنة، والمهارة في التجميع والتأسيس والتنظيم، والقدرة على قراءة الواقع قراءة خبيرة متعمِّقَة.

في الحُمَيْمَة

كان علي وأولاده من المشهورين بالزهد والعبادة مما زاد في حبِّ الناس لهم؛ حتى إن اشتهر العباسيون بالزهد والعبادة في الحميمة حتى لقد قيل: «لقد أفضت الخلافة إليهم وما في الأرض أحد أكثر قارئًا للقرآن، ولا أفضل عابدًا وناسكًا منهم بالحميمة»[(٢)].

وربما لم يكن هذا الوضع مطمئنًا للأمويين وهم -أي العباسيين- في دمشق عاصمة الخلافة التي تزدحم عليها الأقدام، ويسهل فيها الاستكثار من الأتباع والالتقاء بهم، فكان قرار هشام بنزولهم الحميمة -التي لا هي بعيدة ولا هي قريبة من دمشق- يجعلهم أبعد عن الالتقاء بالناس وتكوين الأتباع، كما يجعلهم غير بعيدين عن يد الخلافة إذا بَدَر منهم ما يُخشى خطره.

لكن محمد بن علي استثمر كَوْن الحميمة بعيدة عن عين الأمويين ورقابتهم، ولئن كان الأمويون يخشون من ثورة أو فتنة علنية في دمشق؛ فإن تفكير محمد بن علي باتجاه تكوين التنظيم السري، والحميمة -في هذه الحال- أنسب من دمشق.

---

(١) ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص٢٠٧، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٤/ ٣٦٥ وما بعدها، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٨٦، والصفدي: الوافي بالوفيات ٤/ ٧٧، ٧٨، وابن حجر: نزهة الألباب ص٣٦١، والزركلي: الأعلام ٦/ ٢٧١.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٣١٣.

إن اختيار المركز هو الخطوة الأهمُّ في تأسيس الدول من الناحية والإستراتيجية؛ ولهذا فإن اختيار علي بن عبد الله للحميمة -التي تقع بين دمشق وفلسطين وعلى طريق الحجاز- لم يكن عشوائيًّا، بل هو وضع حجر الأساس للدعوة العباسية، فعند الحميمة يمكن التخفِّي في ثوب العالم الذي شغله علمه، والتاجر الذي يسعى في تجارته، والحاج الذي يُريد البيت الحرام؛ ولهذا يجعل بعض المؤرِّخين -كالمسعودي واليعقوبي- عليَّ بن عبد الله هو المؤسِّس الحقيقي للدعوة العباسية(١).

إلا أن هذا الرأي قال به قليل من المؤرِّخين، وأغلبهم -كما نرى من المصادر- يُرْجِعون فضل تأسيس الدعوة العباسية إلى محمد بن علي.

آل البيت المعارضون

قال الذهبي: ولكن آل العباس، كان الناس يحبُّونهم، ويحبُّون آل علي، ويودُّون أن الأمر يئول إليهم؛ حبًّا لآل رسول الله ﷺ وبغضًا في آل مروان بن الحكم، فبقوا يعملون على ذلك زمانًا؛ حتى تهيأت لهم الأسباب، وأقبلت دولتهم وظهرت من خراسان(٢).

ما من شكٍّ في أن الناس كانوا يحبُّون آل البيت أكثر من حبِّهم لبني أمية، ولقد أمدَّ هذا الحبَّ رافدان: كونهم من سلالة النبي ﷺ، ثم ما نزل بهم من مظالم على يد الأمويين؛ لا سيما في الثورات التي انتهت إلى الفشل.

إلا أن أتباع آل البيت لم يكونوا جبهة موحدة؛ بل كان كلما قُتل أو مات واحد من أئمة آل البيت تَفرَّق الأتباع إلى أكثر من مجموعة، بحسب اختلافهم على الإمام الذي ينبغي أن يليه؛ فمن بعد مقتل الحسين رضي الله عنه رأت جماعة أن الأولى بالإمامة من بعده أخوه محمد بن علي بن أبي طالب (محمد بن الحنفية)، وهو ابن علي من زوجته خولة بنت جعفر من قبيلة بني حنيفة؛ ولذلك دُعي «ابن الحنفية»، وكانت حُجَّتهم أنه لم يبقَ بعد الحسن والحسين أحد أقرب إلى عليٍّ من محمد ابن الحنفية؛ فهو أَوْلَى الناس بالإمامة، كما كان الحسين أَوْلَى بعد الحسن من ولد الحسن. وقد انتهت هذه الجماعة -بعد انقسامات أخرى- إلى زعامة أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية.

(١) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٣، ١٥.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٨.

ورأت جماعة أخرى أن الإمامة من بعد الحسين ينبغي أن تكون في ولده زين العابدين علي بن الحسين؛ وأنها ينبغي ألا تخرج إلى خارج أبناء فاطمة رضي الله عنها، وانتهت هذه المجموعة -بعد انقسامات أخرى- إلى زعامة زيد بن علي بن الحسين، الذي قاد ثورة ضد هشام بن عبد الملك وانتهت بالفشل؛ لكنَّ زعامة زيد لم تكن الزعامة الوحيدة، فظلَّت شخصيات أخرى تقود حركة المعارضة؛ مثل: جعفر الصادق -الذي كانت معارضته سلمية، ولم يُحاول أن يثور على الأمويين- وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وابناه محمد «النفس الزكية»، وإبراهيم.

وكانت ثمة جماعة أخرى؛ هي العباسيون الذين لم يظهروا على مسرح الأحداث، ولم يُتوقَّع منهم خطر كبير.. لكنَّهم اكتسبوا قوَّة أخرى جديدة على غير ترتيب.. فكيف؟

وصية أبي هاشم عبد الله

ذكرنا أن زعامة المجموعة التي رأت انتقال الإمامة إلى محمد ابن الحنفية انتهت إلى ابنه أبي هاشم عبد الله، لكنَّ أبا هاشم لم يكن له ولد، فلما كان عائدًا ذات مرَّة من زيارة للخليفة الأموي[١] شعر بالمرض وأحس بقرب أجله، فذهب إلى الحُمَيْمَة حيث استقرَّ أولاد علي بن عبد الله بن العباس، وكبيرهم محمد بن علي الذي كان أفضل تلاميذه، فأوصى إليه بالإمامة من بعده، أي إمامة الدعوة التي كان يتزعَّمها أبو هاشم -والتي كانت سِرِّيَّة في مستقبل أمرها، وتعمل على الثورة على الأمويين -أيضًا- وتمكين آل البيت من الحكم- فبهذا انضمَّ جُلُّ أتباع أبي هاشم إلى أتباع محمد بن علي العباسي، ومن هنا كانت البداية الحقيقية الفعالة للدعوة العباسية.

بعض المؤرِّخين لم يصدق هذه الرواية، واعتبروها نوعًا من ادِّعاء الشرعية؛ الذي احتاج إليه العباسيون لينضمَّ إليهم العلويون في معركتهم ضدَّ الأمويين.. لكنَّ المؤرِّخين الأوائل أثبتوا هذه الواقعة في كتبهم وتلقَّوْهَا بالقبول.

والجدير بالذكر أن روايات البلاذري واليعقوبي والطبري استُقِيَتْ من مصدر واحد؛ هو إمَّا الهيثم بن عدي أو المدائني، وكلنا الروايتين على جانب لا يُستهان به من حيث صحَّة

(١) هو الوليد بن عبد الملك، أو سليمان بن عبد الملك بحسب اختلاف الروايات.

روايتهما التاريخية، كما أن الاختلاف في الأسلوب والألفاظ مع اتفاق المعنى يُؤَيِّد الصحَّة التاريخية، كما يذكر الوصية ابن سعد في الطبقات وابن حبيب في أسماء المغتالين، وابن قتيبة في المعارف، والمسعودي في مروج الذهب، والمجهول صاحب كتاب العيون والحدائق، والمجهول الآخر صاحب «أخبار الدولة العباسية»، كما ذكرها المتأخِّرُون من المؤرِّخين؛ مثل: ابن عبد ربه، والمقدسي، وابن عساكر، وابن الأثير، وابن خلكان، وابن خلدون، والمقريزي، وابن تغري بردي، والداؤدي، كما ذكرها مؤرِّخو الفرق؛ مثل: النوبختي، والقُمِّي، وذكرها الأشعري بقوله: «ويزعمون...»[١]، والبغدادي، والشهرستاني، والإسفراييني. ويظهر مما سبق أن المصادر الأصلية تتَّفِقُ على الحقيقة التاريخية للوصية[٢].

على أن الفهم المستقيم لهذه الوصية كما يبدو لنا هو تسليم نواة «تنظيم الدعوة» لآل البيت لمحمد بن علي؛ باعتبارها حركة سياسية إصلاحية ترى في تولِّي آل البيت للخلافة سبيلًا لإنهاء المظالم والانحرافات لدى الأمويين، لا على أنها دعوة دينية تُمَثِّل مذهبًا عقديًّا، يجعل استحقاق آل البيت بالخلافة واجبًا دينيًّا؛ إذ لم يثبت على أبي هاشم -فيما نعلم- انتحاله لغير مذهب أهل السنة والجماعة، ولا ورد عنه طعن في خلافة الشيخين أو عثمان، على أنه حتى إن افترضنا أنه كان يرى الخلافة استحقاقًا لآل البيت، ويرى عليًّا الأولى بها، فإن الوصية لمحمد لا تعني كذلك أكثر من تسليم أمر التنظيم ليُكمل المهمَّة، ولا يثبت هذا أنه كان على علم بالغيب، أو أن لديه علمًا خاصًّا بأن الخلافة في العباسيين!

أقام محمد بن علي العزاء لأبي هاشم، ثم جمع مَنْ كان عنده من أنصار أبي هاشم، وقال لهم: «لئن كنتم أصبتم بموته لقد خصصت بذلك منه، وقد جمعني وإياكم القيام بهذا الأمر، وعلمت منه كثيرًا مما لم تعلموا؛ فاتقوا الله ربكم، وحافظوا على هذا الحقِّ الذي سعيتم في إقامته، واحفظوا ألسنتكم فلا تطلقوها إلَّا في مواضع النفع والغناء، وتصبروا للمكروه فقد قرن بكم، فإن حفظتم ذلك فأنتم شيعتي وخاصتي، وأولى الناس بي في محياي ومماتي»[٣].

فاستوعب محمد أتباع أبي هاشم؛ لكنه انتظر حتى يأتي أكبر أتباع أبي هاشم وأوثقهم،

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين ص٢١.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٣٢ وما بعدها، وذكرها -أيضًا- المحدث والمؤرخ الكبير الإمام الذهبي في: سير أعلام النبلاء ٤/ ١٢٩، وتاريخ الإسلام ٦/ ٤٠٦، والمحدث الإمام المزي في تهذيب الكمال ١٦/ ٨٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (القسم المتمم) ص٢٤٤، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٨٩.

وهو سلمة بن بجير[1] الذي كان قد تأخَّر في دمشق، ولما جاء سلمة وعرف بالخبر وبأمر الوصية؛ انتقل ليكون الذراع الأولى لمحمد بن علي العباسي في أمر دعوته، وهو الأمر الذي استقبله محمد بالتقدير والترحيب، والوعد بأن الأمر سيكون شورى، وأنه ليس أمر دنيا فتتناوله الأهواء، ويُطمَع إلى الاستبداد فيه؛ بل هو أمر دعوة حقٍّ[2].

وبهذا بدأت مرحلة من الدعوة والعمل السرِّي استغرقت ثلاثين سنة، بدأت في نهاية القرن الأول الهجري (٩٧ أو ٩٨ أو ١٠٠ هـ، بحسب اختلاف الروايات) وحتى ١٢٩ هـ، حين أُعلنت الدعوة في خراسان.

لكن.. وقبل أن نخطو وراء متابعة ما حدث نسأل:

تُرى هل كان يُفَكِّر محمد بن علي من قبلُ في أمر كهذا؟ وإذا كان قد فكَّر؛ فهل سعى من قبلُ لتكوين أنصار وأتباع؟

لسنا نجد قبل هذا التاريخ فيما بين أيدينا من المصادر ما يدعم أنَّ ثمة تفكيرًا مسبقًا في تكوين دعوة تطالب بالخلافة، غير أن هذه الاستجابة السريعة لوصية أبي هاشم، والاستيعاب السريع والمتفوق لأتباعه، وبداية التخطيط يُثير الحيرة من أن يكون هذا قد تمَّ بدافع من البديهة السريعة والتقاط الفرص؛ فالأمر ليس سهلًا، ولا هو بالذي يُحسم فيه خلال تفكير ساعات أو حتى أيام.. فهل كانت الفكرة في طور الاختمار، ثم جاءها الأنصار على غير اتفاق مسبق في علم محمد بن علي؟ أم أن محمدًا كان قد سعى لتكوين أنصار ثم لم يستطع؟ أو هو على الأقل قد وجد في أتباع أبي هاشم خيرا منهم؟ (سنرى بعد قليل كيف أن أتباع أبي هاشم كانوا على مستوى اللحظة التاريخية بأتم ما يكون).. يصعب التصديق بأن الأمر تمَّ بهذه السرعة دون استعداد مسبق، كما لا نستطيع الجزم بشيء في ظلِّ عدم توفر أي معلومات عن أي استعداد مسبق!

على كل حال، فإن القيمة الكبيرة لهذه الوصية هي أنها سارت بمحبي آل البيت وأنصارهم، بجانب كبير منهم، نحو العباسيين الذين لم يكونوا في هذا الوقت مصدر قلق بالنسبة إلى الأمويين كأبناء عمومتهم العلويين، فتأسَّست للعباسيين -بهذه الوصية- شرعيةٌ

(١) وسلمة هذا هو ابن بجير بن عبد الله، وأبوه كان -أيضًا- من قادة أتباع محمد بن الحنفية، ومن كبار القادة مع المختار بن عبيد الثقفي.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٩٠.

جُمِع لهم فيها كل أنصار آل البيت، الذين ما جال ببال أكثرهم أن الإمام عباسي لا علوي، وهي الشرعية التي استمرَّت معهم حتى قامت الدولة بالفعل، وحينها سيكون لكلٍّ حادث حديث.

بداية الحركة

تسلَّم محمد بن علي العباسي أمر أتباع أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وكانت حلقة الوصل بينه وبينهم سلمة بن بجير، وكان أغلبهم من بني مسيلة؛ وهم قوم يُقيمون بالكوفة، وهؤلاء هم الذين سيُؤَسِّسون الدعامات الأولى والرئيسية للدعوة العباسية؛ فمنهم: بكير بن ماهان، وأبو سلمة الخلال، وميسرة الرحال، وأبو موسى السراج، وأبو عكرمة زياد بن درهم. إلَّا أنَّ عدد الكوفيين ظلَّ في الدعوة قليلًا لا يبلغ الثلاثين؛ لأن محمدًا العباسي كان حَذِرًا من الكوفيين لميلهم إلى العلويين، وورد عنه قوله لأتباعه: «ولا تُكْثِروا من أهل الكوفة، ولا تقبلوا منهم إلَّا أهل النيات الصحيحة»[1].

لكنَّ سلمة بن بجير لم يَطُلْ به العمر؛ فما إن خرج من عند محمد بن علي حتى مرض ومات في الطريق، وكأنما لم يتحمَّل الحياة بغير شيخه أبي هاشم، فما استطاع أن يرى الكوفة خالية منه، فكان القائم على الدعوة في الكوفة بعده أبو رباح ميسرة النبال، الذي صار بهذا أول كبير للدعاة في الكوفة، وثاني كبير للدعاة -بعد ابن بجير- العباسيين، لكنَّ أبا رباح لم يُكمل هو الآخر شهورًا معدودة حتى تُوُفِّيَ قبل انقضاء عام ١٠٠ هـ، وأوصى من بعده لسالم بن بجير[2]، الذي سارع بالإرسال إلى محمد بن علي بما حدث من موت ابن بجير وأبي رباح مع بكير بن ماهان[3].

بكير بن ماهان

لم يكن رجلًا عاديًّا.. بل هو عمليًّا المؤسس الحقيقي للدعوة العباسية في العراق وخراسان، وبه دخلت الدعوة العباسية منعطفًا جديدًا؛ وذلك على مستوى الرؤية والتخطيط، وليس التنفيذ فحسب.

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٩٣، ١٩٤.

(٢) ويلقب بسالم الأعمى؛ لأنه فقد بصره في كبره، وهو ليس أخي سلمة بن بجير أول الدعاة بل من أقاربه.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٩٢ – ١٩٦.



تعرف على دعوة بني العباس سنة (١٠٥هـ)[١]، والأرجح أنه تعرف عليها قبل هذا الوقت، وكان مولى لبني مسيلة؛ غير أنه كان بمنزلة أولادهم الذين من أصلابهم؛ فهو شخصية محبوبة طيبة الأخلاق والصفات، وما كان له أن يكون من مؤسسي الدعوة لو لم يكن كذلك؛ إضافة إلى امتلاكه مهارة الدعوة والتنظيم والاستيعاب، وكان إضافة إلى ذلك ذكيًّا ألمعيًّا ذا شخصية قوية مع نظرة فاحصة يعلم بها طبائع الناس، لا سيما وأنه كان من الجنود الذين شاركوا في الفتوحات، وغزا مع يزيد بن المهلب بن أبي صفرة في خراسان ودخل معه جرجان، وكان من أصحاب التجارب، وسافر كثيرًا من البلاد[٢].

استعدَّ بكير بن ماهان للسفر بالرسالة إلى محمد بن علي، وقبل أن ينطلق إليه جاءه خبر بوفاة أخيه في السند، فأعفاه سالم بن بجير من مهمَّة الرسالة؛ لكي يُدرك أمر أخيه وميراثه منه، لكن بكيرًا رفض وفَضَّل الآخرة على الدنيا، وترك الميراث الكبير لحساب المهمَّة الدعوية، وانطلق إلى دمشق، فاشترى عطورًا، ولبس ثياب العطارين، واصطنع أنه تاجر يجوب البلاد؛ حتى وصل بعد بعض الاحتياطات والاحترازات إلى محمد بن علي بالرسالة، ولقد حزن محمد حزنًا شديدًا لموت ابن بجير، كما تأسَّف لموت أبي رباح؛ لكنه اطمأن لوضع الدعوة في الكوفة. وكان أول ما نصح به بكيرُ بن ماهان محمدَ بن علي أن يتخذ منزلًا بعيدًا عن إخوته (وهم أكثر من عشرين)؛ حتى لا ينتبه أحد منهم أو من جيرانه إلى مَنْ يقدم عليه ويذهب من عنده؛ فيفشو سرُّ الدعوة، فاتخذ محمد منزلًا أبعد عن الناس، كما نصحه بأن يجعل واحدًا من أهله في حكم «السكرتير» أو مدير الأعمال؛ حتى يكون الاجتماع بينهما طبيعيًا وغير لافت للأنظار، كما أن هذا يقلل لقاء الأتباع بالإمام محمد نفسه، فيظلّ بعيدًا عن الشبهات ما أمكن، فاختار محمدٌ فضالة بن معاذ مولاه لهذه المهمَّة، ثم نصح بكيرٌ محمدًا بأن يجعل أساس دعوته في خراسان لأنه -وهو الذي جال في البلاد- قد رأى بنفسه حبَّ هؤلاء القوم لآل البيت، واستغرابهم أن العرب لم يصرفوا الأمر لآل بيت نبيهم بعد موته[٣]، وأنهم على أتمِّ استعداد أن ينصروا هذا الحق الضائع، وأن يُعيدوه إلى أهله، فقال محمد: إن خراسان

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١١١.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٩١، ١٩٦.

(٣) وهذه هي التقاليد الفارسية التي شَكَّلت ثقافتهم، وما كان لهم أن يستوعبوا أن الإسلام يجعل الزعامة بالشورى لا بالنسب في ظلِّ العديد من الحركات الشيعية، التي تؤصل لمبدأ حق آل البيت بالخلافة.

هي أساس هذه الدعوة[١].

وبهذا انتهت المهمَّة العاجلة لبكير بن ماهان فعاد إلى الكوفة، وصارت الرسائل بينهم وبين محمد بن علي تكتب إلى فضالة بن معاذ، وانطلق إلى السند ليأتي بميراث أخيه، وليُؤَسِّس لأمر الدعوة في خراسان.

لماذا خراسان؟

كان محمد بن علي العباسي بصيرًا بالحال في عصره، فعندما قرَّر أن يجعل خراسان مركز دعوته شرح لأتباعه أسباب هذا القرار؛ قائلًا: «أمَّا الكوفة وسوادهم فهناك شيعة عليّ بن أبي طالب. وأمَّا البصرة فعثمانية تدين بالكفِّ وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. وأمَّا الجزيرة فحرورية مارقة، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى. وأمَّا أهل الشام فليس يعرفون إلَّا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، عداوة لنا راسخة وجهلًا متراكمًا. وأمَّا أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان؛ فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وصدورًا سليمة، وقلوبًا فارغة، لم تتقسمهم الأهواء، ولم تتوزَّعهم النِّحَل، ولم تشغلهم ديانة، ولم يتقدَّم فيهم فساد، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم؛ كتحازب الأتباع بالسادات، وكتحالف القبائل وعصبيَّة العشائر، ولم يزالوا يذلون ويمتهنون، ويظلمون ويكظمون، ويتمنّون الفرج ويؤمّلون «الدول»، وهم جند لهم أجسام وأبدان، ومناكب وكواهل وهامات، ولحىً وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة، تخرج من أفواه منكرة، وبعدُ فكأني أتفأَّل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق[٢].

وهذه المقولة فوق أنها بيان لبصيرة محمد بن علي، ومعرفته بالبلاد، تكشف لنا أحوال هذه الحواضر الإسلامية:

- فأمَّا الكوفة فهي علوية؛ ترى أن الحق في الخلافة لعلي وأبنائه من بعده، فلن تصلح للعباسيين.

- وأمَّا البصرة فقومها ليسوا أهل فتن؛ بل هم أهل زهد وتصوف وتقشُّف، شعارهم

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٩٦ – ١٩٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١١١.

(٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ١٦ وما بعدها، وابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ٣٠٣.

«كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل».

- وأما الجزيرة (الفراتية)[١] فتسودها أفكار الخوارج، وهم لا يرون أن الخلافة من حقِّ أحد بعينه لا من آل البيت ولا من خارجه.

- وأما الشام فهو عصبة الأمويين وأهل الشام تعلَّقُوا بهم منذ كان معاوية واليًا عليهم أيام عمر بن الخطاب، وخاضوا معه الحروب الداخلية والخارجية، ولا يُفَضِّلُون على الأمويين أحدًا.

- وأمَّا مكة والمدينة فأهلها ممن حكمهم أبو بكر وعمر أرشد حكم؛ فهم يرون الأمر في قريش عامة ولا يضعونها في أحد بعينه من آل البيت.

- وأمَّا خراسان فقد اجتمع فيها العديد من المزايا، ففيها المقاتلون العرب أو كما يقال - «جمجمة العرب وفرسانها»[٢]- الأشداء، مع كثرة عددهم، وامتلاكهم الصبر والجلد والقوة، ثم إن خراسان لم تنتشر فيها فكرة أو دعوة أو ملة لا تناسب العباسيين، وهكذا يمكن الدخول إلى قلوب الخراسانيين عبر دعوة آل البيت ومحبتهم، وهي واجب على كل مسلم، كما أن خراسان قد انخفضت فيها عصبيات العرب القديمة بين القبائل، وصار من الممكن تجميعهم خلف فكرة دون الخشية من تكتل القبليات العربية الذي كان قديمًا، ثم إنهم ممن وقعت بهم المظالم، التي تجعلهم غاضبين متذمرين، يأملون تغير الحال وتقلب الدول.

إنها كلمات من عيون الحِكَم السياسية المثيرة للإعجاب بنفسها وقائلها.

إضافة إلى أن خراسان في مشرق الدولة الإسلامية؛ ومن ثَمَّ فهي أبعد عن يد الدولة.

وكانت العلاقة بين محمد بن علي وأهل خراسان قد بدأت قديمًا في حلقة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، التي كان يرتادها بعض من الخراسانيين، ولما سألوه ممن يأخذون العلم إن مات هو؟ قال: لا أعلم أحدًا أعلم من محمد بن علي ولا خيرًا منه، ثم صاروا يأخذون العلم منه[٣].

(١) الجزيرة الفراتية هي المناطق الواقعة في شمال العراق الآن.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٨٦.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٤/ ٣٦٧، ٣٦٨، والذهبي: تاريخ الإسلام ٦/ ٤٠٦.

الدعوة في خراسان

في سفر بكير بن ماهان إلى السند مرَّ في طريقه على خراسان، والتقى بمَنْ كان قد رأى منهم حبًّا لآل البيت واستعدادًا لدعوتهم، واستطاع في هذه المهمَّة أن يكسب بعض الأتباع المهمين، والذين سيكون لهم أثر بعيد في الدعوة، وعلى رأسهم سليمان بن كثير، وكذلك إسماعيل بن عامر، ويزيد بن النهيد، وشبر بن النهيد، ومالك بن الهيثم، وعمرو بن أعين، وزياد بن صالح، وطلحة بن زريق، وخالد بن إبراهيم، وعلاء بن الحارث، وموسى بن كعب، وآخرون من خزاعة إضافة إلى بعض الموالي[1].

وبهذا أسس بكير بن ماهان نواة الدعوة العباسية في خراسان؛ وطبيعيٌّ ألا نعلم كيف تمَّ هذا على وجه مفصَّل؛ فإن مثل هذا مما لا يُسَجَّل في كتب التاريخ، ولا يعرفه إلَّا أصحابه الذين يكتمون التفاصيل عن أنفسهم فلا يعرف أحد منهم إلَّا ما ينبغي له أن يعرفه فحسب.. لئن كان هذا طبيعيًّا؛ فالثابت أن تأسيس الدعوة في خراسان كان قويًّا ومتميزًا، كما دلت على ذلك ثمراته فيما بعدُ.

وقد احتاجت خراسان إلى كبير للدعاة يقوم على أمر الدعوة؛ ذلك أن الدعوة تحتاج وجود بكير بن ماهان في الكوفة، فأرسل محمد بن علي أبا عكرمة زياد بن درهم السراج إلى خراسان، وأمره بالسير على طريقة بكير بن ماهان، وكانت وصيته له هكذا:

«أوصيك بتقوى الله، والعمل ليوم مرجعك، واعلم أنه لا تخطو خطوة فيما تذهب إليه إلَّا كتب الله لك بها حسنة، وحطَّ عنك بها سيئة، ولا تظهرنَّ شيئًا من أمرك؛ حتى تقدم جرجان وتلقى بها أبا عبيدة[2]، وتُلقي إليه ما أُلقي إليك، ثم تأتي مرو فتلقى أهلها بتجارتك، وتلابس العامة بسنتها، وتلقى سليمان بن كثير والنفر الذين استجابوا لأبي هاشم (بكير بن ماهان).

ولا تظهرنَّ جدًّا ولا دعاء إلى سَلَّةِ سيف، وأقلل مكاتبتي ومراسلتي، وأنفذ كتبك إلى أبي الفضل وإلى أبي هاشم إن رجع إلى العراق، وإن دعوت أحدًا من العامة فلتكن دعوتك إلى الرضا من آل محمد، فإذا وثقت بالرجل في عقله وبصيرته؛ فاشرح له أمركم، وقل بحجتك التي لا يعقلها إلَّا أولو الألباب، وليكن اسمي مستورًا عن كل أحدٍ إلَّا عن رجل عَدَلَكَ في

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٩٩ وما بعدها.

(٢) هو أبو عبيدة قيس بن السري، ويبدو من النص أنه مسئول الدعوة في جرجان، وكان من السابقين في الانضمام إلى الدعوة.

نفسك في ثقتك به، وقد وكدت عليه، وتوثقت منه، وأخذت بيعته، وتقدَّم بمثل ذلك إلى مَنْ تُوَجِّه من رسلك، فإن سُئِلْتم عن اسمي فقولوا: نحن في تقية، وقد أُمِرْنا بكتمان اسم إمامنا.

وإذا قدمت مرو فاحلل في أهل اليمن، وتألف ربيعة، وتَوَقَّ مضر، وخذ بنصيبك من ثقاتهم، واستكثر من الأعاجم، فإنهم أهل دعوتنا، وبهم يُؤَيِّدُها الله، واحذر غالبًا ورهيطًا قد ظاهروه على رأيه من أهل الكوفة[1]، فإنهم قوم قد سعوا في الفتنة، وقد برئنا منهم فابرءوا منهم». كما أمره ألا يضمَّ إلى الدعوة من له علامات مميزة؛ كالمديد الطول، أو الشديد القصر، أو القوي البياض، أو الجعد الشعر.. وما إلى ذلك، أو مَنْ كان غاليًا في حبِّ العلويين على التحديد، وشدَّد عليه في عدم الثورة، أو الخروج بالسيف؛ حتى يأتي الإذن منه بذلك[2].

ذهب أبو عكرمة زياد بن درهم السراج، ويُسَمَّى -أيضًا- أبو محمد الصادق، إلى خراسان فكان أول كبير للدعاة فيها، ويحسب له تنظيم أمر الدعاة في خراسان؛ إذ اختار اثني عشر نقيبًا يتولون أمر الدعاة[3]، فبهم بدأت مرحلة تنظيم الدعوة في خراسان، وهو الإنجاز الذي سيُبنى عليه فيما بعد.. وكان الاتصال قائمًا مع مركز الدعوة في الحميمة، ويُشير الطبري إلى لقاء (١٠٤هـ)[4]، وقد كان أبو عكرمة -فيما يبدو- من النشاط والحماسة، إلى الحدِّ الذي وصلت معه بسرعة أخبار الدعوة التي يقودها إلى والي خراسان، وكان في ذلك الوقت أسد بن عبد الله القسري، فقبض عليه ومعه صاحبه حيان العطار، ويبدو أنه كان متحققًا مما كانا يدعوان إليه، فقتلهما وصلبهما (١٠٧هـ)[5].

وكانت هذه سياسة الولاة الأمويين في خراسان من بعد أسد القسري كالجنيد بن عبد الرحمن، الذي قتل مَنِ استطاع القبض عليه من دعاة العباسيين[6].

بعد أبي عكرمة تولَّى أمر الدعوة في خراسان سليمان بن كثير، وكان معه خمسة آخرون؛ هم: مالك بن الهيثم، وموسى بن كعب، وخالد بن الهيثم، وطلحة بن زريق، ومضوا في

---

(١) كانت هذه المجموعة ممن قالوا بإمامة محمد بن علي العباسي؛ لكنهم تحمسوا وشرعوا في الثورة.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٠٣، ٢٠٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٢٦.

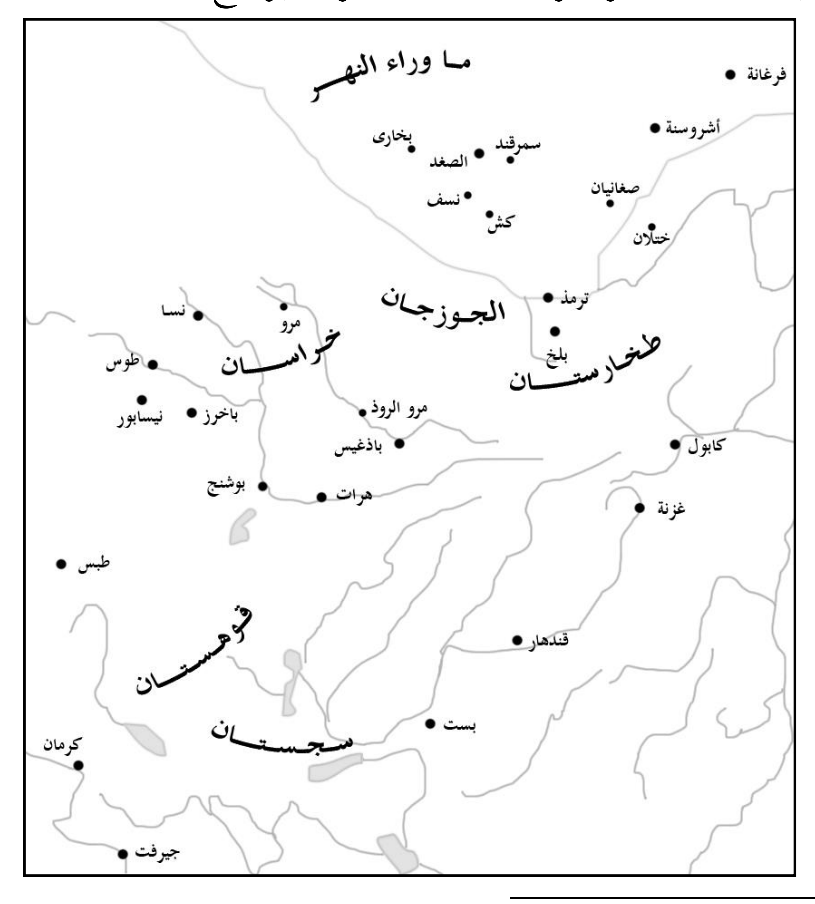
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٣٢٢، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٢١٣.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٠٥.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٣٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٢٠، ١٢٢.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٤٩.

الدعوة بين الناس في قرى خراسان؛ حتى وصلت أخبارهم إلى والي خراسان أسد القسري – وكان قد عُزِل، ثم عاد لإنهاء حركة تمرُّد الحارث بن سريج– فواجههم بهذا، فأنكروا واتهموا من وشى بهم بالعصبية القبلية، واستثمروا كونهم من العرب اليمانية –التي منها الوالي– فاستعاذوا به أن يُؤذيهم –وهم من قومه– لوشاية واشٍ من المُضرية، وكان تقدير أسد أن يهدئ الأجواء، ولا يستعدي قبائلهم بقتلهم في ظلِّ ما تمور به خراسان من اضطرابات، فأطلقهم إلَّا موسى بن كعب؛ فقد عذَّبه حتى كُسِرت أسنانه وأنفه، ولاهز بن قريظ فقد جُلِد على الرغم من كونه من المضريين، وحين كتبوا بما حدث معهم للإمام أمرهم بالتهدئة والمزيد من الاستخفاء، وأن يعملوا بدعوتهم بعيدًا عن العاصمة «مرو»؛ فانتقل أساس نشاطهم إلى المدن الخراسانية الأخرى؛ مثل: بخارى، وسمرقند، وكش، ونسف، والصغانيان، وختلان، ومرو الروذ، والطالقان، وهراة، وبوشنج، وسجستان[1].



---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٣٥، ٣٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٦٢، ١٦٣، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٦٠.



وانتشرت دعوتهم في هذه المدن حتى بلغت الأخبار إلى والي خراسان؛ فندم على تركهم من قبلُ، وحاول أن يقبض عليهم مرَّة أخرى فلم يستطع؛ إذ يبدو أنهم كانوا محتاطين للغاية لمثل هذا الأمر، ثم لم يجد الجنيد بن عبد الرحمن والي خراسان إلَّا أن يرفع الأمر إلى والي الكوفة خالد القسري، الذي رفعه بدوره إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، غير أن هشامًا -الذي كان منشغلًا في ذلك الوقت بأخبار المغرب والأندلس[١]- لم يكن مستعدًا لفتنة أخرى حربية تشتعل في المشرق، فأرسل إلى خالد أن يأمر الجنيد: «ألا يرغب في الدماء، وأن يَكُفَّ عمَّنْ كَفَّ عنه، ويُسَكِّن الناس بجهده، وأن يطلب النفر الذين يدعون الناس حتى يجدهم، فينفيهم»[٢].

مهارة شعار «الرضا من آل محمد»

كان دعاة العباسيين، وعلى رأسهم إمامهم، يُخططون ولا يتعجلون، ولا يطلقون شعارًا قبل دراسته، وعلى أي ساحة يُطلقونه، وفي أي ساحة يحقِّق لهم الأهداف، ويكسب لهم الأتباع، فكان شعار «الرضا من آل محمد» مدروسًا وَفق منهج الدعوة، فإذا اشتمَّت المخابرات الأموية ما يفوح بهذا الشعار راحت تترصَّد كل علوي، وربما زجت به في السجن أو قضت عليه بالقتل، فتزداد النفوس اشتعالًا وتربح الدعوة أنصارًا، ولم يكن سهلًا أن تظن الدولة الأموية الحاكمة في العباسيين، الذين ارتضوا بالظلِّ في مقابل نار العلويين التي لم تهدأ[٣]. فحقق الشعار ثلاث سمات: «خلاب، فضفاض، غامض»[٤].

أزمة خداش

اختار بكير بن ماهان داعية جديدًا ليتولَّى أمر خراسان (١١٨هـ)، فوقع اختياره على عمار بن يزيد، وكان عمار بن يزيد من النصارى الذين أسلموا في الكوفة، وكان داعية موهوبًا، وأحدث تقدُّمًا في الدعوة في خراسان، والتفَّ حوله كثير من الأتباع، وكان قد غيَّر

---

(١) في هذا الوقت انتشرت في المغرب دعوات الخوارج، وكثر خروجهم على الولاة من بني أمية، كما خرجوا -أيضًا- في الأندلس التي كانت في هذه الأثناء قد دخلت في آخر عهد الولاة، وهو العهد الذي فشت فيه العصبية القبلية بين أهل الأندلس، ففضلاً عن الخوارج انقسم العرب إلى قيسية ويمانية، واندلعت بينهم الحروب؛ حتى لقد فقد المسلمون الأراضي التي فتحوها في فرنسا، وأراضي الشمال الإسباني، وتوسعت على حسابهم ممالك الصليبيين.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٣٦.

(٣) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١١، ١٥.

(٤) د. حسين عطوان: الدعوة العباسية مبادئ وأساليب ص٩٣.

اسمه إلى «خداش»؛ وفجأة بدا أن خداشًا يسير في طريقة أخرى غير طريق الدعوة؛ إذ دعا أتباعه إلى مذهب الخرمية؛ فأحل لهم نساء بعضهم، وأسقط عنهم الصلاة والصيام والحج؛ باعتبار أن الصلاة المطلوبة هي الدعاء للإمام، وأن الصيام هو الصيام عن ذكر اسم الإمام، وأن الحج هو القصد إلى الإمام، وكما فَرَّقَت هذه الآراء جموعًا كثيرة عنه، فهي قد جذبت إليه آخرين من أصحاب الجهل والهوى؛ لا سيما وهو يغلف هذه الدعوات بتفسيرات قرآنية؛ مثل: أخذه بظاهر الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [المائدة: ٩٣]، ويزعم أنه يقول هذا نقلًا عن الإمام صاحب العلوم من آل البيت، ولم يكن غريبًا -وقد وصلت هذه الأفكار إلى الدعوة- أن يصل خبرها إلى والي خراسان أسد بن عبد الله القسري، الذي قبض على خداش وعذَّبه؛ حتى عرف منه اسم إمامه محمد بن علي العباسي ثم قتله(١).

ما من شكٍّ في أنها أزمة قاسية نزلت بالدعوة العباسية ورجالها؛ وذلك على مستوى سمعتها بين الناس أو على مستوى انكشاف بعض رجالها أمام السلطة الأموية، وقد استدعى هذا تحركًا سريعًا؛ إذ قام الإمام محمد بن علي بإرسال بكير بن ماهان بنفسه إلى خراسان، وهناك قام بكير بمهمتين أساسيتين: أولهما البيان والشرح بأن أفكار خداش إنما هي أفكار منحرفة، ولا تمت للدعوة بصلة، ولا يرضاها الإمام، ويتبرأ منها، والثانية إعادة هيكلة الدعوة في خراسان بما يُعالج أي انكشاف كان قد وقع في هذه الأزمة(٢).

وصل بكير بن ماهان إلى خراسان ومعه رسالتان؛ رسالة إلى العامة، ورسالة أخرى إلى خاصة أهل الدعوة. جاء في الرسالة الأولى:

«سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلَّا هو، وأشهد أن السنن والأمثال فيما بقي على أشباه ما مضى، وأشهد أن الله يبدئ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، فتبارك ذو الفضل العظيم.

أما بعد؛ فإني أوصيكم بتقوى الله الذي لا يزيد في ملكه مَنْ أطاعه، ولا ينقص من ملكه

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٦٤، وابن عساكر: تاريخ دمشق ١٠/ ٣٨٩ (ترجمة بكير بن ماهان)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٤٢٠، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٥١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ٣٥٧.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١١٧، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٦١.

مَنْ عصاه، بيده الملك ويبقى ملكه، وهو عزيز ذو انتقام.

فأعلموا أنفسكم لما خلقكم الله له؛ فإن الله لم يخلقكم إلَّا لعبادته، فناصحوا الله ما استطعتم بولاية أوليائه، وراقبوه في سرِّ أمركم وعلانيتكم، واخشوا الله من كل قلوبكم، وتقرَّبُوا إليه بحسن أعمالكم؛ فإنكم لذلك خُلقتم، وبذلك أمرتم، وعليه خصصتم، وله ابتغيتم، فإنكم متى تُواظبوا على ذلك تجدوا معه راحة من نصب الدنيا، وتراضوا بما قسم لكم منها، وتصبروا على كل ما منعتم من زينتها، فلا تغتروا بشيء من أمر الدنيا عما ينفعكم الله به في الآخرة، فإن العباد لو أعطوا الدنيا وما فيها من ملك ومال؛ ثم لم يعرفوا الله فيما أعطاهم فيها حقَّه الذي اشترط لنفسه وأوجبه لأوليائه؛ لم تزدد منهم إلَّا بعدًا، فاتقوا الله ما استطعتم، وقدِّموا خيرًا لأنفسكم؛ فإن الله تبارك وتعالى يقسم الرزق يومًا بيوم، وعلى قدر ما قسم يطلب حق بعضهم من بعض لبعض.

فاعرفوا حقَّ الله واصبروا عليه، ولا تجعلوا دينكم وما عرَّفكم الله من حقه تبعًا للدنيا؛ فإنما خُلقت بلاء وفتنة، وضرب لها أجل إذا انتهى إليه ينفد، فعليكم بالتوكل على الله فيما أوجب عليكم من حقه؛ فإنه لم يخب من اعتصم بالله واتقى وصبر على ما أصابه؛ فإن ذلك من عزم الأمور، فإنكم قد علمتم من العلم ما قد عظم به النعم، وأبلغ إليكم في الحجة، فإنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب، فكذلك لا يستوي عاملان؛ أحدهما يعمل للدنيا ويكدح لها ويجهد نفسه فيها رجاء ثواب فانٍ زائل، وعامل يعمل لآخرته رجاء ثوابها مخافة عواقب الأمور فيها، فبذل نفسه لله وماله وولده ومناصحته لأوليائه؛ فهذا ما أصبح عليه سعاة الناس وأولياؤهم، البرُّ منهم والفاجر، والمؤمن منهم والكافر.

فاعقلوا عن الله أمره، واتعظوا بمواعظه، وأوفوا بعهده وعقده، وتمسكوا بصالح الذي عاهدتم الله عليه، وأدوا الأمانة فيما عهد إليكم من أوليائه، وخافوا الله أن تعصوه في شيء مما أمركم به واعتصموا بحبل الله جميعًا، وخذوا بحظكم منه، واشكروا بلاءه الذي أصبح بكم من سوابغ نعمه، واعتبروا ما بقي بما سلف، وإنما ضرب الله لكم أمثال ما مضى من الأمم لتعقلوا عن الله أمره فإنكم قد رأيتم من الدنيا وتصرفها بأهلها إلى ما صار من مضى منهم، وخير ما يُصيب الناس فيما بقي من الدنيا ما أصاب الصالحون منها، ومن يقسْ شأن الدنيا

بشأن الآخرة يجد بينهما فوتًا بعيدًا.

ثم اعلموا علمًا يقينًا أن لأهل ولاية الله منازل معروفة؛ كأنما ينظرون فيما أعطاهم الله من اليقين إلى عواقب الأمور ومستقرِّها، فعليكم بمحاب الله وصدق الحديث ووفاء بالعهد وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وبذل السلام، وطيب الكلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، وترك الحرام، وأخذ الحلال، وعرفان الحق، وإنكار الباطل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، واتباع التقوى، وفراق الهوى، واجتناب قرناء السوء، وحذار الدنيا، وحب الآخرة، والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والفرار من العذاب ومن سوء الحساب، وكظم الغيظ، ولين الجانب، وفعل المعروف، وذكر النعم، واجتناب السيئات، والرغبة في الحسنات؛ فإن من محاب الله وطاعته وطاعة رسوله أن تعفوا عند الغضب، وتحمدوا عند الرضا، وتكونوا صادقين أبرارًا، مسددين أخيارًا، مرشدين.

لا تصدقوا كذبًا، ولا تجمعوا خبيثًا لتكثروا به طيبًا، ولا تركبوا ظلمًا، ولا تنتهروا سائلًا، ولا تقهروا يتيمًا، ولا تخيفوا تقيًا، ولا تحقروا يتيمًا صغيرًا، ولا تنتهكوا ذمة، ولا تفسدوا أرضًا، ولا تشتموا مؤمنًا، ولا تقطعوا رحمًا ماسة محقة، ولا ترموا بريئًا، ولا تعصوا إمامًا، ولا تركبوا زيغًا، ولا تطيعوا إثمًا، ولا تفتحوا مغلقًا، ولا تقفلوا مفتوحًا، ولا تختانوا ولاة أموركم، وأحسنوا مؤازرتهم وصيانة أمرهم، أعينوهم إذا شهدتم، وانصحوا لهم إذا غبتم، وأقسطوا إذا حكمتم، واعدلوا إذا قلتم، وأوفوا إذا عاهدتم، وأدُّوا إذا ائتمنتم، واصبروا إذا ابتليتم، واشكروا إذا أعطيتم[1]، واحفظوا جواركم، وارحموا من خولتم، ولينوا جانبكم، واخفضوا أكنافكم، وأكرموا كريمكم، وصونوا أنفسكم، وأحرزوا أعراضكم؛ فإن الله يعلم سرَّكم وعلانيتكم.

واشكروا الله على ما هداكم لطاعته، واعترفوا بما اشترط عليكم لنفسه، واعلموا أن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق التقوى لزوم حقه، وخير الملل ملة إبراهيم، وأفضل السنن

---

(١) هذه الفقرة التي حفلت بالحديث عن طاعة ولاة الأمور والنصح لهم والصبر عليهم تحتمل معنيين:

الأول: أن محمد بن علي العباسي لما علم بأن خداشًا قد انتسب إليه سارع بتبرئة نفسه علنًا أمام بني أمية برسالة يرسلها إلى عامة أهل خراسان، ويتولى تسريبها إليهم بكير بن ماهان، فكان طبيعيًّا أن يُعيد التأكيد على براءته من فتنة خداش البراءة من الأفكار المنحرفة عن الدين، والبراءة من الدعوة للثورة على بني أمية.

والثاني: أنها رسالة إلى عامة أهل الدعوة لا إلى عامة أهل خراسان، وحينها ينصرف معنى ولاة الأمور إلى قادة الدعوة لا إلى أمراء بني أمية؛ رغبة في ضبط الأفراد داخل سياق التنظيم، وإلزامهم عدم الاجتهاد من أنفسهم في شيء قد يجر على الدعوة وبالاً كثيرًا.

سنة محمد ، وأعظم الضلالة ضلالة بعد هدى، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص كتاب الله، وخير الأمور عواقب أعمها نفعًا، وخير الهدى هدى محمد ، وأصدق الحديث ما جاء به أحمد ، وما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى، ونفس تناجيها بتقوى خير من نفس أمَّارة بالسوء.

فاتقوا الله ولا تكونوا أشباهًا للجفاة؛ الذين لم يتفقهوا في الدين، ولم يُعطوا بالله اليقين، وإن الله أنزل عليكم كتابًا واضحًا ناطقًا محفوظًا، قد فصل فيه آياته، وأحكم فيه تبيانه، وبيَّن لكم حلاله وحرامه، وأمركم أن تتبعوا ما فيه، فاتخذوه إمامًا، وليكن لكم قائدًا ودليلًا، فعليكم به فعوه، ولا تُؤَثروا عليه غيره؛ فإنه أصدق الحديث، وأحسن القصص، وأبلغ الموعظة، به هدى الله من مضى من الأولين والآخرين.

و﴿**اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٤]. ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]، فإن الله قد بيَّن لكم ما تأتون وما تتقون، فقال لنبي الرحمة: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...**﴾ [الأعراف: ٣٣] الآية، وقال لنبيه: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...**﴾ [الأعراف: ٢٩] الآية.

أسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكم مهتدين غير مرتابين، والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين»[١].

فهذه الرسالة الحافلة تُؤَكِّد على التعلُّق بالإسلام، واتخاذ القرآن إمامًا في كل شيء، وطولها قد حمل نوعًا من التكرار في المعنى؛ ليتأكد به المقصود من براءة الدعوة من كلِّ فكر يخالف الإسلام.. فهي رسالة صريحة في التبرؤ من خداش وأفكاره وأفعاله.

وجاء في الرسالة الثانية التي هي خاصَّة لأهل الدعوة:

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٠٨ وما بعدها.

من ناحية الإسناد، فإن هذه الرسالة ضعيفة؛ لأنها رُويت بغير إسناد، ويزيدها ضعفًا طولها المفرط، الذي يصعب أن ينتقل عبر الجيل دون أن يُصيبه التحريف، وعلى هذا فلسنا نقول بأنها صحيحة السند، ولكنها مقبولة في إطار التأريخ؛ فهي لا تخرج عن الأطر العامة للدعوة العباسية وأفكارها، كما أنها مناسبة لأن تُقال في ظرفٍ كالذي وقع في أزمة خداش.

«أما بعد؛ عصمنا الله وإياكم بطاعته وهدانا وإياكم سبيل الراشدين.

قد كنتُ أعلمتُ إخوانكم رأيي في خداش، وأمرتهم أن يبلغوكم قولي فيه، وإني أشهد الله الذي يحفظ ما تلفظ به العباد من زكي القول وخبيثه، أني بريء من خداش؛ وممَّنْ كان على رأيه ودان بدينه. وآمركم ألا تقبلوا من أحد ممن أتاكم عني قولًا ولا رسالة خالفت فيها كتاب الله وسنة نبيه والسلام»[١].

وكان محمد بن علي قد أرسل رسالة أخرى مع قحطبة بن شبيب الطائي؛ لكنه تأخَّر لمرض أصابه، وكان نصُّها: «وفقنا الله وإياكم لطاعته، قد وجهت إليكم شقَّة مني بكير بن ماهان، فاسمعوا منه وأطيعوا، وافهموا عنه؛ فإنه من نجباء الله، وهو لساني إليكم، وأميني فيكم؛ فلا تخالفوه، ولا تقضوا الأمور إلَّا برأيه، وقد آثرتكم به على نفسي لثقتي به في النصيحة لكم، واجتهاده في إظهار نور الله فيكم والسلام»[٢].

التنظيم العباسي

لما وصلت الرسالة التي يُثْني فيها الإمام محمد على بكير بن ماهان ويُوصي بطاعته، ازداد أهل الدعوة تعظيمًا وإجلالًا لأبي هاشم بكير بن ماهان؛ الذي بدأ في تولِّي أمر تنظيم الدعوة في خراسان، وذلك عام (١١٨هـ)، فجعل الدعاة على مراتب ودرجات؛ فالهيئة العليا للدعوة في خراسان سماهم النقباء؛ وعددهم اثنا عشر، اختارهم أهل الدعوة في خراسان ليكونوا رؤساءهم، ثم في المرتبة الثانية مجلس مكون من سبعين رجلًا (هيئة تأسيسية) يضمُّ الاثنى عشر نقيبًا، فهؤلاء هم رؤساء الدعوة في مرو (عاصمة خراسان)، وأما في البلاد والقرى المحيطة فكل داعية من الدعاة نقيب على من ببلدته من الذين يستجيبون للدعوة[٣].

والملاحظ أن النقباء الاثنى عشر كانوا من قبائل عربية، وفي هذا ردٌّ على الاعتقاد الشائع بأن الثورة العباسية كانت ثورة الفرس على حكم العرب الأمويين، وهذا ثبت بهم وبقبائلهم:

(١) أبو محمد سليمان بن كثير (شيخ النقباء) [خزاعة]

(٢) أبو منصور طلحة بن زريق [خزاعة]

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢١٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢١٤ وما بعدها.



(٣) أبو نصر مالك بن الهيثم [خزاعة]

(٤) أبو عيينة موسى بن كعب [تميم]

(٥) أبو جعفر لاهز بن قريظ [تميم] (وهو زوج ابنة شيخ النقباء سليمان بن كثير[١])

(٦) أبو سهل القاسم بن مجاشع [تميم]

(٧) أبو عبد الحميد قحطبة بن شبيب [طيء]

(٨) أبو داود خالد بن إبراهيم [شيبان]

هؤلاء هم المتفق عليهم بين المؤرِّخين، وثمة أسماء أخرى أثبتها بعضهم باعتبارهم من النقباء الاثني عشر، وأثبت غيرهم أسماء أخرى بدلًا منهم، وهذه الأسماء هي:

(١) أبو علي شبل بن طهمان الهروي [مولى بني حنيفة]

(٢) زياد بن صالح [مولى خزاعة]

(٣) أبو النجم عمران بن إسماعيل [مولى آل أبي معيط]

(٤) عيسى بن كعب [تميم]

(٥) أبو الحكم عيسى بن أعين [مولى خزاعة]

(٦) أسلم بن أبي سلام [بجلة]

(٧) أبو حمزة عمرو بن أعين [مولى خزاعة][٢]

وثمة وظائف أخرى تنظيمية تولاها ما يمكن أن نسميهم المعاونين للنقباء، أو الصف الثاني من أهل الدعوة، مثل:

١- أبو صالح كامل بن المظفر يتولَّى كتابة الرسائل، وجمع الأموال والغنائم وتقسيمها، ورواتب الجُنْد، وهو أمين السرِّ للجُنْد.

٢- أبو إسحاق خالد بن عثمان تولَّى قيادة الحرس.

٣- نصر بن مالك بن الهيثم تولَّى حراسة أبي مسلم الخراساني.

٤- أسلم بن صبيح تولَّى أمر المراسلات والبريد.

---

(١) السمعاني: الأنساب ٨/ ١٧٠، ١٧١، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٢/ ٣٥٦.

(٢) البغدادي: المحبر ص٤٦٥، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١١٥، ١١٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٠، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢١٦، ٢١٧. وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٣٢٢، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٢١٤، ود. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٧٥، ٧٦.

٥- داود بن كرَّاز تولَّى إدارة العبيد الذين انحازوا إلى الدعوة[١].

وكان ثمة دعاة متخصِّصون أشبه -في أيامنا المعاصرة- بأسلوب القطاعات نعرف منهم مصعب بن قيس (وفي رواية الطبري: موسى بن كعب)؛ الذي كان مسئولًا عن دعوة العبيد والموالي فقط[٢]، كما شُكِّلت لجنة احتياطية لما يمكن أن يقع من أحداث طارئة، فتبقى جاهزة لملء الفراغ[٣].

وعلى هذا فالشكل العام كان يُفصح عن نقباء، تتبعهم طبقات أقلَّ في مراتب الدعوة؛ وهي طبقة العمال، وكان لكلِّ نقيب سبعون عاملًا يُديرون الجهاز السرِّي ويساعدون النقباء، ثم يمضي التشكيل في عمقه إلى أن ينتهي بالخلايا السرية التي كانت تندس بين الناس[٤].

وأمَّا التمويل فكان أتباع الدعوة يدفعون الخمس إلى الإمام العباسي، وكان موسم الحج فرصة يجتمع فيها النقباء بالإمام العباسي؛ فيُطلعونه على أحوال الدعوة ويتدارسون أمرها، ويسلمونه الخمس والهدايا[٥].

ومن حيث الاجتماعات والتشاور؛ فقد كان التخفي وراء التجارة هو الأسلوب الأمثل للدعاة في الحركة والدعوة في العراق وخراسان، وكذلك في رفع التقارير وتلقِّي التوجيهات من الحميمة في الشام[٦].

ومما يُذكر لأساليب هذه الدعوة أنها سبقت عصرها في الإخفاء والتمويه؛ حتى إنهم استعملوا الإشارة والرموز[٧].

بعد انتهاء مهمَّة إعادة تنظيم الدعوة في خراسان عاد بكير بن ماهان إلى الكوفة، وظلَّ هناك ممارسًا عمله ككبير الدعاة، وهو الرجل الثاني في التنظيم بعد الإمام، وظلَّ يُؤَدِّي مهامَّه من هناك في التخطيط والتهيئة لإعلان الدعوة، واستعان بصهره حفص بن سليمان الملقب

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٢، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٧٩، ٢٨٠.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٨١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٣.
(٣) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٢١.
(٤) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٢١.
(٥) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٤٣.
(٦) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٠٣، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٣٣، ٣٤٣.
(٧) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٩، وهو ينقل عن عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول ص٢٧.

بأبي سلمة الخلال[1] فجعله نائبه؛ حتى تُوُفِّيَ بكير (١٢٧هـ)[2]، بعد أن انتقلت الدعوة العباسية به نقلة كبيرة وفارقة لا نعلم منها غير إنجازين أو ثلاثة؛ فيما ظلت الأعمال الأخرى سِرِّيَّةً على زمنه ومعاصريه، فضلًا عمن بعدهم من الأجيال.. لكنَّ عظمة الثمار تكشف عن عظمة التأسيس.

أفكار وأدبيات التنظيم العباسي

مما وصل إلينا من رسائل ووصايا ومواعظ للإمام محمد بن علي وكبير دعاته بكير بن ماهان نستطيع أن نستخلص أهمَّ الأفكار التي حركت هذا التنظيم، وأهمَّ الآداب التي كان مطلوبًا على الأعضاء أن يتمسكوا بها: وأهمُّ ما كان يشغل أفكار محمد بن علي هو:

١- **السرية والتخفي**: فاتخذ منزلًا بعيدًا، واتخذ وسيطًا في الرسائل، وجعل اللقاءات التنظيمية في موسم الحج، وبلغ حرصه على السرية إلى الحدِّ الذي منع فيه ضم ذوي الصفات المميزة إلى صفوف الدعوة.

٢- **السلمية**: فقد شدَّد في كل وصاياه على ألا يتمَّ سلُّ السيوف بأي حال من الأحوال؛ حتى يأتي الإذن منه بذلك.

٣- **الانضباط**: والتزام الأفراد السمع والطاعة لأمرائهم في التنظيم.

٤- **البعد عن أهل الشام**: وعدم محاولة ضمهم إلى الدعوة؛ لما شاع فيهم من حب بني أمية، حتى صار ذلك الولاء عميقًا، وصار أمر أهل الشام غير مأمون.

٥. **البعد عن أهل الكوفة**: فهم الذين يكثرون في أول الثورات؛ حتى يظن القائم بأمرهم أنهم ميتون دونه، فإذا جدَّ الجدُّ لم يجدهم حوله، ووجد نفسه قتيلًا أو أسيرًا.. كما أن أهل الكوفة شاع بينهم الولاء للعلويين؛ فولاؤهم للعباسيين غير مأمون أيضًا.

٦- **الميل إلى أهل خراسان**: للأسباب التي تميزَّت بها خراسان من قلَّة المذاهب والأفكار التي تَوَزَّعَتْ الناس وفرقتهم في العراق، وكثرة الرجال المجاهدين الأقوياء، ولما لخراسان من

---

(١) لقب بـ «الخلال» إما لأنه كان يصنع خِلَل السيوف، أي أغماد السيوف، أو لأنه كان يتاجر في الخَلِّ (الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٥٥)، أو لأنه كان يجالس تجار الخل (ابن الجوزي: المنتظم ٧/ ٣١٥، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١١٨.

بُعد عن السلطة الأموية؛ وهو البعد الذي جعل بعض أحوالها أكثر سوءًا؛ فجعل أهلها أكثر نقمة على الأمويين، كذلك فإن الثقافة الفارسية ما زالت تُشَكِّل عقول مَنْ أسلموا؛ فهم يتقبَّلُون أمر وراثة الملك في أهل بيت واحد، كما كان الحال في عهودهم السابقة مع الأسر الملكية، كما أن نسل الحسين بن علي وهو من بيت النبوة قد انحصر في ولده علي زين العابدين، وعليٌّ هذا إنما كان ابن سلامة أو سلافة ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس[1]؛ وهذا بلا ريب كان له أثر في تعلُّق الخراسانيين بآل البيت. بل إن البعض[2] يزعم أن أغلب الفرس كانوا شيعة لهذا السبب.

٧- **الاهتمام بدعوة العرب**: لا سيما زعماؤهم وشيوخهم من كل القبائل مع التركيز على اليمانية، وإلى حدٍّ ما الربعية.

٨- **الاستكثار من الأعاجم**: وهذه كانت إحدى أكبر دلائل عبقرية محمد بن علي العباسي، وفيها قرأ تجربة بني أمية واستفاد منها؛ فلقد كانت إحدى أكبر المشاكل التي ساهمت في سقوط الدولة الأموية هو عامل العصبية القبلية، التي ازدادت في الفترات الأخيرة من حكمهم، فالعرب -لا سيما في تلك الأيام- على جانب عظيم من الأنفة إلى الحدِّ الذي ينبغي فيه على الخليفة أن يكون مستعليًا على القبلية، ومحافظًا على التوازن فيما بينها، وما إن يميل الخليفة إلى جانب حتى يضطرب أمر الملك، وتبدأ الصراعات والنزاعات، فكان الاستكثار من الأعاجم -الذين مثَّلوا فيما بعدُ جسم الدولة الرئيسي- من العوامل التي حفظت بقاء العباسيين في الخلافة، حتى في فترات ضعف الخليفة، فما كان الأعجمي يجرؤ على المناداة بنفسه خليفة، أو يحاول عزل الخليفة الشريف النسب؛ بل مهما بلغت الخلافة من الضعف كان يأخذ جانب الوزير أو الملك أو السلطان مع الاحتفاظ بتقديره للخليفة، وإن كان تقديرًا شكليًّا. لقد أفاد العباسيون من هذه السياسة فيما بعد إفادة كبيرة.

هذه أهمُّ الأفكار التي انتشرت في رسائل محمد بن علي العباسي، وحدَّدت رؤية التنظيم للحركة والدعوة.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) د. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري ص١٦.

وأمَّا موعظة بكير بن ماهان حين تولَّى أمر تنظيم الدعوة في خراسان؛ فقد جاءت بينة وكاشفة عن الآداب والمبادئ التي تُنَظّم عمل الدعوة، وتُنَظِّم العلاقات بين أفرادها، قال بكير:

«يا معشر الشيعة[1]؛ إن الله قد ساق إليكم من كرامته فيما بصَّركم من هداه ما لم يسقه إلى عامة هذا الخلق، وألَّف بينكم بالحق، وأعزكم به، وجعل سببه أقوى من سبب الأنساب؛ فإن تناصحتم قويتم، وإن ابتغيتم إيمانكم هديتم... وقد رأيت أن أختار منكم اثني عشر رجلًا؛ فيكونوا نقباء على مَنْ يُجيب دعوتكم وضمناء عليهم، مَنْ رضوا إيمانه وعرفوا صحته أخذوا بيعته، ومَنِ اتهموه حذروه واحترسوا منه، وتلك سنة رسول الله ﷺ فيمَنْ أخذ من النقباء على الأنصار حين بايعوه، فكانوا هم الضمناء على أصحابهم والمتوثقين لهم منهم، وتلك سنة موسى وأصحابه.

وليس للنقيب أن يَدَّعِيَ الفضل على غيره بالنقابة، وإنما الفاضل بالعمل، وقد بلغنا أن سعد بن معاذ لم يشهد بيعة رسول الله ﷺ، ولا كان في العدة التي حضرته ليلة العقبة، ثم قدَّمه رسول الله ﷺ على قومه النقباء وغير النقباء، وبلغنا أنه أقبل ورسول الله ﷺ جالس في ملأ من أصحابه، فلما نظر إليه قال لمَنْ عنده: **قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**. فقال عمر بن الخطاب: الله سيدنا ورسوله. فقال رسول الله : **وَسَعْدٌ سَيِّدُكَ يَا عُمَرُ**[2].

هذا لتعلموا أن الفضل إنما هو بالعمل لا بغيره، وكم من متأخِّر سيُقَدِّمه عمله، وكم من متقدِّم سيؤخِّره تقصيره، وقد أمرني إمامكم بالنظر في ذلك بما فيه عزّ دعوتكم، وقوَّة شيعته؛ فإن وافقتموني على رأيي أمضيت رأيي فيه، وإن كرهتموه وفيه وهنكم تركناه»[3].

وفي هذه الموعظة نرى الآداب والمبادئ الأساسية التي قامت عليها الدعوة، وأكَّد عليها بكير بن ماهان؛ وأهمُّها:

١- الأخوة: فقد تحدَّث بكير بن ماهان بلسان الأخ لأخيه وصاحبه، لا بلسان الأمير أو الرئيس، وتحدَّث بوضوح عن أن الارتباط بهذه الدعوة يصنع أخوة أقوى من أخوة النسب،

---

(١) كلمة الشيعة تعني الأتباع والأنصار، وليس المقصود بها هنا «الشيعة» بالمعنى الحديث الذي يُشير إلى المذهب المعروف.

(٢) لم أجد هذا النص إلا في هذا الكتاب، لا في كتب الحديث ولا في كتب التاريخ.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢١٣ وما بعدها.

كما أن النقيب ليس له تميز على غيره من أهل الدعوة، والأمر لا يعدو أن يكون إجراءً إداريًّا تنظيميًّا.

٢- اصطفاء الله: وهو أن الله قد اختار هذه المجموعة وأنعم عليها بمعرفة هذه الدعوة والارتباط بها، وهي نعمة لم ينلها كثيرون غيرهم؛ فمن ثَمَّ كان الواجب عليهم أن يكونوا أهلًا لهذا الاصطفاء، بالبذل والعمل والإخلاص؛ فالأمر بهذا واجب ديني يكون المُقَصِّر فيه مُقَصِّرًا في حقِّ الله ورسوله، فليس الأمر أمر دنيا، أو غنيمة، أو شيء مما يصلح التنافس عليه.

٣- الشورى والتناصح: وقد اتضحا في أسلوب بكير بن ماهان؛ حيث وضع نفسه تحت قرارهم في القبول به أميرًا عليهم، بل سار أبعد من هذا فوضع قرار الدعوة نفسه في أيديهم: هل يسيرون في هذا الطريق أم لا؟

٤- الالتزام بالكتاب والسنة: حتى في اختيار العدد اثني عشر نقيبًا، استدلَّ عليه بقول الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿**وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا**﴾ [المائدة: ١٢]، وباختيار النبي اثنى عشر نقيبًا من الأنصار ليلة العقبة، كذلك في عدد السبعين باختيار موسى ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا**﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وبأن النبي ﷺ وافاه سبعون رجلًا من الأنصار في بيعة العقبة الثانية. وفي هذا تأكيد وتشديد على استقامة هذه الدعوة على سبيل الإسلام، والتزامها بالكتاب والسنة، وابتعادها عن الانحرافات الفكرية والشرعية.

٥- لا فضل لأحد على أحد إلَّا بالعمل: وهذا مبدأ إسلامي أصيل، والدعوات في أمسِّ الحاجة إليه؛ ذلك أن الإخلاص وحده هو المفجر للطاقات الإنسانية، وهو نفسه الذي يُزَهِّد النفس في التطلع إلى المكاسب والغنائم والمناصب، بل الكل يعمل في سبيل الدعوة ناسيًا حظ نفسه ومكاسبها ومغانمها، راجيًا الثواب عند الله، غير متطلع لمرتبة أو منصب في الدعوة، يستوي في هذا رجال كل المراتب الإدارية؛ إذ يرى صاحب المرتبة نفسه في موضع الأمانة والمسئولية، التي يتمنَّى لو حملها عنه غيره، كما يرى غير صاحب المرتبة أنه عُوفي من مسئولية وأمانة ثقيلة.

ولا ريب في أن رجال الدعوة العباسية في هذه المرحلة كانوا الصفوة من الناس؛ إيمانًا وعلمًا وزكاة نفس، فهم يُقْدِمون على عمل محفوف بالمخاطر، هو -بتعبير العصر- قلب نظام الحكم، لا يقدمون عليه إلَّا لأنهم يرونه واجبًا دينيًّا وجهادًا، لا يسعهم التخلِّيَ عنه؛ لرفع المظالم التي أحدثها بنو أمية، ولردِّ الحقِّ إلى نصابه، والحقُّ أنهم احتملوا كثيرًا من التضييق والعنت، وتعرَّضوا للخوف



والجزع، بل للقبض والتعذيب والمطاردة، ولا شكَّ في أن كثيرًا منهم تعرّضوا لخسائر في الأموال والأنفس أثناء مراحل الدعوة مع الأمويين، ولا شكَّ -أيضًا- أنهم كانوا على مستوى المرحلة، وأنهم قدَّموا نماذج فريدة في الثبات والاستعداد والتضحية بالغالي والنفيس.. فمنهم قوم عُرفوا باسم «الكفية»؛ وذلك لأنهم عاهدوا الدعوة على ألا يأخذوا أي أموال أو مغانم إن انتصرت؛ بينما لن يُقَصِّروا في دفع أموالهم وما احتاجت إليه الدعوة منهم، ولقد كانوا يتبرعون بأقلِّ ما يملكون، فيعطون حتى قدر الكف من الحبوب(١).

وسنسمع لأحد رجال الدعوة يقول بعد سنين هذه العبارة المؤثِّرة: «صُلينا بمكروه هذا الأمر، واستشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر حتى قُطِّعَت فيه الأيدي والأرجل، وبُرِيَت فيه الألسن حَزًّا بالشفار، وسُمِلَت الأعين، وابْتُلِينا بأنواع المثلات، وكان الضرب والحبس في السجون من أيسر ما نزل بنا...».

إلا أن كل هذه التفاصيل -تقريبًا- لا علم لنا بها؛ لأنها مما لا يمرُّ عليه كتاب التاريخ، ولا تحفظه إلَّا صحائف الغيب عند علام الغيوب.

ثورة زيد بن علي

بعد إعادة الهيكلة وتأسيس المعاني والآداب للتنظيم مضت الدعوة في طريقها السرِّيِّ مضيًّا حثيثًا، لكنها لم تكمل ثلاث سنوات أخرى حتى فاجأتها ثورة علوية أخرى في الكوفة، يقودها زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب (١٢٠هـ).

كان زيد بن علي في المدينة المنورة، ثم قدم إلى الكوفة في دعوى نزاع على مال قيل: إنه أخذه من خالد بن عبد الله القسري. فلما قُضي الأمر وأراد الخروج من الكوفة، تبعه كثير من أهلها يُبايعونه على الخروج على بني أمية ويحرضونه على ذلك، وبايعه على هذا أربعون ألفًا منهم، ثم انتكس أمره حين سأله بعض الشيعة(٢) عن رأيه في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٦٨.

(٢) مفهوم «الشيعة» تعرَّض إلى تطور تاريخي؛ ففي حين كان معناها في عصر علي بن أبي طالب هو المعنى اللغوي نفسه «الأنصار والأتباع وما إلى ذلك»، صار اسم الشيعة ينصرف إلى مذهب فكري يرى أحقية آل البيت بالخلافة، وهنا في تلك اللحظة سيظهر بوضوح مذهب آخر في الشيعة يسب أبا بكر وعمر، ولا يترضى عليهما، ويراهما اغتصبا حق علي رضي الله عنه في الخلافة، وسيُطلق على هؤلاء لفظ «الرافضة» أو «الروافض»؛ لأنهم رفضوا زيد بن علي حين لم يوافقهم على سب الشيخين.. كما سيُعرف مَنْ وافقوه بـ «الزيدية»، وهم أقرب طوائف الشيعة إلى أهل السنة.

فتركوه وانسحبوا عنه. ثم تكرَّرت معه قصة جدَّه الحسين رضي الله عنه؛ إذ انفضَّ عنه أهل الكوفة بأثر الترهيب، ولم يُقاتل إلَّا في جمع صغير حتى قتل رضي الله عنه.

وما يهمنا الآن في سياق التأريخ للعباسيين أن ثورة زيد في الكوفة فاجأت دعاة العباسيين بظهور رجل من آل البيت يتزعَّم ثورة على بني أمية، وهو الهدف نفسه الذي يدعون إليه؛ فلا شكَّ أنه ساهم في انفضاض بعض أتباعهم انحيازًا إلى ثورة زيد بن علي، كذلك كان الدعاة العباسيون أنفسهم على شكٍّ من أمرهم: هل يتبعون زيدًا باعتبار أنه ثائر من آل البيت وينحازون بثقلهم إليه؟ أم لا يتبعونه ولا يمنعون منِ اتباعه؟ أم يُخَذِّلون الناس عنه؟ ثم حسم الأمر بما جاءهم من الإمام محمد بن علي باجتناب هذه الثورة التي توقَّع لها الفشل، بل زادت بعض روايات أنهم مارسوا التخذيل عنه -أيضًا- مما تسبب في ازدياد انفضاض الناس عن زيد بن علي، وأهمُّ من هذا وذاك أن الدعوة دخلت في طور الكمون والهدوء مرة أخرى؛ حتى انتهت هذه الثورة[١].

ومن المتوقَّع أن أثر هذه الثورة عاد على أهل الدعوة العباسية بالخير على مستوى الثقة بالقيادة، وبالمنهج التنظيمي الهادئ المتدرِّج، ولكنه عاد بأثر سلبي على بيئة الدعوة؛ التي تعرَّضت لإحباط جديد بعد هذا الفشل الجديد، فلو نظرنا بعين المحب لآل البيت والثائر معهم لرأينا فشل الثورة ومقتل زيد، وكأنه حلقة جديدة في مسلسل لا يُريد أن ينتهي؛ بل ولا تبدو له نهاية.. وما كان أحد منهم يدري ولا من غيرهم أن عشر سنوات فحسب تفصلهم عن نهاية الدولة الأموية القوية، وكذا الناس في كل عصر؛ ولا يعلم الغيب إلَّا الله!

وفاة الإمام محمد بن علي العباسي

وفي سنة (١٢٥هـ) تُوُفِّيَ محمد بن علي العباسي وعمره ستون سنة أو أكثر قليلًا[٢]، في السنة نفسها التي مات فيها خليفة الأمويين هشام بن عبد الملك، لكنَّ محمد بن علي ورثه مَنْ كان على المستوى المطلوب فأكمل ما بدأه، على خلاف مَنْ ورثوا هشام بن عبد الملك.. ذلك هو ولده إبراهيم بن محمد، وكان الإمام محمد قد أوصى النقباء في الاجتماع الأخير بهم بابنه

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٣٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٣٢، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٤/ ٣٦٥، والزركلي: الأعلام ٦/ ٢٧١.

إبراهيم، وتوقَّع أنه قد لا يعيش إلى العام القادم[١].

وحمل أبو مسلم خادم الإمام محمد خبر وفاته، وتولِّي ابنه إبراهيم الإمامة من بعده إلى أتباعه وأنصاره في العراق وخراسان[٢].

كان الإنجاز الكبير لمحمد بن علي العباسي تأسيسه للتنظيم؛ فمن هنا تحوَّلت الفكرة الهائجة في العقل والقلب إلى عمل في الواقع، فلهذا وككل المؤسسين فلا بد أن محمدًا قد ملأ نفوس أصحابه بالحب والإجلال والتعظيم، وقد ساعده في ذلك أنه سليل آل البيت، لكن شخصيته -أيضًا- كانت على القدر المطلوب من الكفاءة والدين والعلم والأخلاق، فهي الشخصية التي بهرت أستاذه أبا هاشم عبد الله؛ فجعلته يُوصي طلابه بالأخذ منه، ثم جعلته أخيرًا يُوصي إليه بأمر الدعوة، وكانت الأيام تزيدها حنكة وتجربة وتوهجًا؛ حتى استطاع أن يُدير تنظيمًا رأسه في الشام (معقل الأمويين) وطرفه في خراسان، في زمن تنتقل فيه الأخبار والتعليمات على ظهور الجياد.

إن اللحظة المفصلية في تاريخ محمد بن علي، وهي لحظة مفصلية في تاريخ الإسلام، بل وتاريخ الدنيا حين وضعت بين يديه وصية لدعوة جنينية ما زالت في طور التكوُّن؛ فالتقط الفرصة بسرعة بديهة عجيبة، واستوعب الأمر، ثم استوعب شخصيات الدعاة، وحلَّ في نفوسهم محلَّ شيخهم أبي هاشم، وأنشأ معهم علاقة وثيقة تقوم على الأخوة والتعاون؛ كان يخاطب سلمة بن بجير: «أنت أخي دون الإخوة، ولست أقطع أمرًا دونك، ولا أعمل إلَّا برأيك، وهذا الأمر لا تنال حقيقته إلَّا بالتعاون عليه». و«لك سبقك في هذا الأمر، ولك فيه فضلك بنفسك وبما مضى عليه أبوك رحمه الله، ولكل رجل خاصة، وخاصتي من أهل مصركم أنت وقبيلك». كما يقول عن بكير بن ماهان: «قد وَجَّهْتُ إليكم شُقَّة مني»[٣].. وهكذا!

واستطاع محمد بن علي أن يحافظ على استمرار الدعوة وسريتها بإخفاء اسم الإمام،

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١١٨.
(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٣٩.
(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٩٠، ١٩٢، ٢١٣.

الذي لم يكن يعرفه إلَّا كبير الدعاة في الكوفة، وكبير الدعاة في خراسان، وعدد محدود لا يتجاوز أصابع اليد يسير بالرسائل منه وإليه، وعلى الرغم مما أثارته مجهولية اسم الإمام هذه من مشكلات للدعاة؛ فإنها حافظت على رأس الدعوة حتى اللحظة الأخيرة.. وسنرى أنه في اللحظة التي اكتُشف فيها إمام الدعوة كان الوقت قد فات، والدولة قد قامت، وما عادت معرفة الإمام شيئًا مؤثِّرًا في مجرى الأحداث.

ما كنا سندري شيئًا من أحوال محمد لولا أن دولته التي غرسها قامت.. فكم من مؤسسي الحركات تجاوزهم التاريخ؛ لأن حركاتهم فشلت! فبقدر نجاح الحركات يُذكر رجالها.

***



الإمام إبراهيم بن محمد وإعلان الدولة العباسية



إذا كان الإمام محمد بن علي قد أسس الدعوة، فإن ولده إبراهيم قد استكمل البنيان عليها حتى خرج بالدعوة إلى الدولة، لقد ظلَّ بعد وفاة أبيه سبع سنوات فحسب ثم اكتُشف أمره فقُتِل، لكن قتله لم يَعُدْ مؤثِّرًا فلقد كانت الدولة قد قامت بالفعل، وسبق السيف العذل.

إبراهيم بن محمد العباسي

كان سيدًا في أهله، وافر العقل فصيحًا، وحياته كلها دليل قائم على رجاحة عقله وذكائه المفرط وحكمته، وكان فاضلًا نبيلًا، وكان معروفًا بالكرم المديد، والعطاء الجزيل، وإرضاء السائلين مهما كان ما بيده قليلًا، ورويت في هذا كثير من القصص في الكتب التي اهتمَّت بتاريخ العباسيين؛ حتى قيل: إن إبراهيم بن محمد كان إذا قدم الحرمين بهج به من بهما من ولد عبد المطلب وجذلوا، وتباشروا به واستبشروا، ومَنْ كان في نعمة زاد في نعمته، ومَنْ كان منهم مختلًا أنعم عليه(١).

ومما يُنسب إليه من أقوال الحكمة(٢):

- السخاء من رقة القلب والرحمة أصل كُلِّ حسنة.

- وسئل عن البلاغة فقال: معرفة الوصل من الفصل، وإصابة المعنى، واختصار الطريق إلى الغاية الَّتِي يريد.

- سمعتُ أبي يقول: لا يزال الرجل يزداد في رأيه ما نصح لِمَنِ استشاره. ثم قال: وأنا أقول: نصح المستشير قضاء لحقِّ النعمة في صواب الرأي.

- الكامل المروءة مَنْ أحرز دينه ووصل رحمه، واجتنب ما يُلام عليه.

- لا تدعوا إلى طاعتنا عشرة أصناف من الناس: الطويل الممدد(١)، والقصير المردد(٢)،

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٨٢، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٣ وما بعدها، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ٢٠٢ وما بعدها، والصفدي: الوافي بالوفيات ٦/ ٧٠ وما بعدها، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٩، ٣٨٠، والذهبي: تاريخ الإسلام ٨/ ٣٦٨، والزركلي: الأعلام ١/ ٥٩.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٨٥ وما بعدها، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٤ وما بعدها.

والجعد القطط[٣]، والأمهق المغرب[٤]، والأعور بعين اليمين، والزائد والناقص في الخلقة، والمتشبه من الرجال بالنساء ومن النساء بالرجال، والمصفر لونه من غير علَّة[٥].

تَضَعْضُع الخلافة الأموية

تُوُفِّيَ هشام بن عبد الملك (١٢٥هـ) آخر الخلفاء الأقوياء من بني أمية، وكان مُلزمًا بأن يكون ولي العهد من بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ولم يكن الوليد على مستوى المسئولية؛ بل كان منصرفًا للهو والعبث والمجون وشرب الخمر[٦]، وتفيض بعض المصادر في وصف مساوئ الوليد إلى حدٍّ لا يمكن تصديقه، كما دافعت عنه كثير من المصادر المعاصرة التي وصل بعضها إلى تحميل كل المسئولية لهشام بن عبد الملك، ثم للعباسيين الذين أرادوا تشويه صورة الأمويين، والذي نطمئن إليه هو أن الوليد لم يكن على مستوى اللحظة مطلقًا، وأنه مُدان بالمجون والعبث، والانصراف إلى اللهو وشرب الخمر، وترك تدبير الأمور.

ولقد فكَّر هشام كثيرًا في عزل الوليد عن ولاية العهد وصرفها إلى غيره، وكان ممَّنْ يُؤيده في هذا الإمام الكبير محمد بن شهاب الزهري؛ حتى عرف الوليد منه ذلك، وجرت بينهما خصومات قال فيها الزهري: «ما كان الله ليسلطك عليَّ يا فاسق». وبالفعل شاء الله له ومات قبل ولاية الوليد، بل لقد تمنَّى المحدِّث المؤرِّخ ابن كثير أن لو نجح هشام في إقصائه عن ولاية العهد[٧]، إلَّا أنَّ هشامًا لم ينجح وصارت الخلافة إلى الوليد بن يزيد[٨].

استهلَّ الوليد بن يزيد خلافته بالإسراف في إنفاق الأموال، وكانت الأموال كثيرة بفعل سياسة هشام بن عبد الملك؛ الذي كان شديد الحرص على المال حتى لقد رُمِي بالبُخْل، فزاد الوليد في الأعطيات وزاد في الرواتب، وأعلن تخلِّيه عن البخل الذي وصف به عمّه هشام، وعن مجموعة من «الإصلاحات الاقتصادية»، ولم يَدَعْ أحدًا يسأل حاجة من الأموال إلَّا

(١) الطويل الممدد: أي الشديد الطول.

(٢) القصير المردد: أي الشديد القِصَر، ويقال في وصف المتردد المتحير غير ذي العزم.

(٣) الجعد القطط: أي ذي الشعر القصير المُجَعَّد، ويقال في وصف الشديد البخل.

(٤) الأمهق المغرب: شديد البياض.

(٥) في هذه المقولة سار على خطى أبيه محمد بن علي في اجتناب ذوي الصفات الجسدية المميزة؛ مبالغة في السرية والتخفي والابتعاد عن أي خيط يمكن أن يؤدي إلى كشف التنظيم.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٢.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣.

(٨) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٢، ٢٢٣.



أعطاها إيَّاه، وقد قال الوليد شعرًا وعد فيه الناس إن طالت خلافته بحياة مزهرة:

ضَمِنْتُ لَكُمْ إِنْ لَمْ تَعُقْنِي عَوَائِقٌ ... بِأَنَّ سَمَاءَ الضُّرِّ عَنْكُمْ سَتُقْلِعُ

سَيُوشِكُ إِلْحَاقٌ مَعًا وَزِيَادَةٌ ... وَأَعْطِيَةٌ مِنِّي عَلَيْكُمْ تَبَرَّعُ

مُحَرَّمُكُمْ دِيوَانُكُمْ وَعَطَاؤُكُمْ ... بِهِ تَكْتُبُ الْكُتَّابُ شَهْرًا وَتَطْبَعُ(١)

ولم يعتدل أمره في الخمر واللهو بعد أن تولَّى الخلافة؛ بل ظلَّ على حاله وازداد؛ حتى قال الطبري: «قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعته ومجانته، وما ذُكر عنه من تهاونه واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته، ولما ولي الخلافة، وأفضت إليه لم يزدد في الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد، وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلَّا تماديًا وحدًّا؛ تركتُ الأخبار الواردة عنه بذلك كراهة إطالة الكتاب بذكرها»(٢).

ومنذ اللحظة الأولى بدأ الوليد في البطش بكل مَنْ كان له رأي يُوافق هشامًا في خلعه من ولاية العهد، فحتى قبل أن يصل إلى دمشق أرسل بأن يُتحفظ على كل أموال هشام، كما عزل كل ولاة هشام الذين عرف موافقتهم على خلعه، وكذلك عماله على الشرطة والخراج والدواوين والرسائل والحرس وبيت المال والجند، ولا نجد للعلماء ذكرًا في خاصة الوليد. وكان أقسى ما فعله الوليد هو بطشه بأبناء عمومته؛ فقد جلد ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك، وأهانه على مشهد من الناس، فبذر بذلك بذرة الانقسام في بيت الخلافة نفسه، فقد صار سليمان بن هشام بعدئذٍ واحدًا من أبرز الشخصيات التي ساهمت في انهيار الخلافة الأموية، ولم يكتفِ الوليد بهذه العداوات التي بذرها قبل أن يتوطَّد سلطانه؛ بل سعى في أخذ البيعة لولديه الصغيرين الحكم وعثمان بعد شهر واحد من توليه الخلافة، وحين حذَّره الوزير سعيد بن صهيب من هذا سجنه ومات في سجنه، ثم جاءت الضربة القاضية حين أراد أن يستطلع رأي خالد بن عبد الله القسري شيخ اليمانية ووالي الكوفة من قبل، فلمَّا نهاه خالد عن هذا سجنه؛ بل وسلَّمه إلى عدوِّه القديم يوسف بن عمر -والي الكوفة الجديد، وكان بينهما عداءٌ كبير- الذي ما إن تسلمه حتى سجنه وعذَّبه ثم قتله، فأضاف الوليد إلى أعدائه قبائل

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٤٧٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٣٥.

اليمانية. ثم أضاف إلى كل هذا انصرافه عن عاصمة الخلافة وإقامته في الأغدف[1]، وترك إدارة الأمور بنفسه وقيامه بمهامه كخليفة[2].

أدَّى هذا كله إلى ثورة ناجحة على الوليد بقيادة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، اجتمع فيها الغاضبون على الوليد من قبائل اليمنية وأمراء البيت الأموي وغيرهم، وتمَّ التخطيط للانقلاب على الوليد، وبالفعل تمَّت السيطرة على دمشق والقبض على أنصار ورجال الوليد فيها وقتل بعضهم، ثم بُويع فيها ليزيد بن الوليد خليفة، ومن دمشق سار جيش يزيد بن الوليد إلى الوليد وانتصر عليه، وقُتِل الوليد بن يزيد (جمادى الآخرة ١٢٦هـ) بعد خلافة قصيرة مضطربة قلقة دامت سنة وثلاثة أشهر[3].

وبمقتل الوليد بن يزيد دخلت الدولة الأموية في مرحلة الانهيار؛ فلقد كانت هذه سابقة في الشام أن يخرج واحد من بيت الخلافة على الخليفة، الذي بُويع له، وأن يصل الأمر إلى القتل، كذلك انتعشت آمال اليمانية باعتبارهم القوَّة الضاربة في هذه الثورة، ومعها زادت حدَّة العصبية في الشام بين القيسية واليمانية، وصارت الخلافة في موضع المضطر لأن ينحاز إلى طرف، ثم إن انحيازه هذا يزيدُ بدوره من حدَّة العصبية، ولقي مقتل الوليد اعتراضات من مناطق عدَّة؛ إذ ثار سليمان بن هشام بن عبد الملك في عَمَّان، غير أنه لم يلبث أن عاد ودخل في الطاعة؛ بعد أن استقدمه يزيد وأمَّنه وعفا عنه، ونشبت ثورة في حمص تطالب بالخلافة لولدي الوليد، وما نفعت معها رسائل الأمان حتى أخمدها جيش الخلافة بقيادة عبد العزيز بن الحجاج، ونشبت ثورة أخرى في فلسطين وفي الأردن؛ فوجَّه لها يزيد ابن عمِّه سليمان بن هشام، واستطاع بالإقناع والأمان أن يُعيدهم إلى الطاعة، ونشبت ثورة في المدينة وطرد أهلُها الوالي، وهكذا لم يهدأ الأمر من بعد مقتل الوليد؛ حتى قال الذهبي في شأن يزيد: ما مُتِّع ولا بلع ريقه[4].

وكان يزيد بن الوليد من خيرة خلفاء بني أمية وأعدلهم، وكان يُشبه بعمر بن عبد العزيز

---

(١) الأغدف: ماء من نواحي عمَّان، بشرقي الأردن، وكان المكان المفضل له، للصيد واللهو وما إلى ذلك.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٦ وما بعدها، ود. علي الصلابي: الدولة الأموية ٢/ ٥١٢ وما بعدها.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٣٨ وما بعدها.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٥٢ وما بعدها، وعبد العزيز الثعالبي: سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ص٧٥ وما بعدها، ود. علي الصلابي: الدولة الأموية ٢/ ٥٣١، ٥٣٢.

حتى قيل: «الأشج[1] والناقص خير بني أمية». وقد لُقِّب بـ «الناقص»؛ وذلك لأنه أنقص من مرتبات الجند الزيادات التي كان الوليد قد قرَّرها لهم، لكنَّه ما لبث أن مات (ذي الحجة عام ١٢٦هـ)، وعمره لم يتجاوز الأربعين، وقيل: ست وثلاثون عامًا، ولم يُمْضِ يزيد بن الوليد في الخلافة غير ستة أشهر، وعلى عدله وتقواه إلَّا أنه كان قَدَريًّا، ودعا الناس إلى القول بالقدر، قال عنه الشافعي: ولي يزيد بن الوليد فدعا الناس إلى القدر وحملهم عليه[2]، وفي هذا دليل على أن يزيد كان على غير ما هو معروف عن الأمويين من القول بالجبر[3]، ومما يلفت النظر أنه لم يجعل ولاية العهد في أبنائه؛ بل ولا في أبناء الخلفاء الأقربين، بل كانت ولاية عهده لأخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك أبرز قادة ثورته وقاتل الوليد بن يزيد، وهذا بتأثير من خواصه ممَّن على مذهبه في القدر[4].

لما مات يزيد بن الوليد بويع لأخيه إبراهيم بن الوليد، لكنَّه لا يُعتبر خليفة؛ لأن الأمر لم يتمّ له؛ إذ ما إن مات يزيد حتى تحرَّك مروان بن محمد والي أرمينية وفارس بني أمية القوي؛ يطلب الخلافة لنفسه، ويرى نفسه أولى وأحق بها والقادرَ على انتشال ما وصلت إليه الخلافة من الضعف وانتشار الفتن، وكانت رغبة مروان قد بدأت تظهر منذ قُتل الوليد بن يزيد، ثم أسفرت عن نفسها وصارت رغبة أكيدة بعد موت يزيد بن الوليد، فخرج بجيشه من أرمينية، وسار إلى الشام؛ فأرسل له إبراهيم بن الوليد جيشًا بقيادة أخويه بشر ومسرور، فهزمهما مروان وأسرهما، وكان مروان في خروجه يدعو إلى أن يتولَّى الخلافة ابنا الوليد بن يزيد الصغيران الحكم وعثمان؛ وقطعًا لهذه الغاية اقتحم يزيد بن خالد القسري (زعيم اليمانية) السجن الذي وُضِع فيه ولدا الوليد فقتلهما، وقتل معهما يوسف بن عمر (والي الكوفة السابق الذي عذب وقتل والده خالد القسري)، وسارت الأمور كما يشتهي مروان الذي هزم جيوش الخلافة، ولم يجد إبراهيم بن الوليد إلَّا أنَّ يخلع نفسه ويُبايع مروان بن محمد خليفة[5].

---

(١) وهو عمر بن عبد العزيز، سُمِّي الأشج لأنه أصيب بشَجٍّ في وجهه.

(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر ١/ ١٢٤.

(٣) يذهب بعض المحللين إلى أن اعتناق يزيد بن الوليد لمذهب القدرية؛ إنما كان في جوهره مقاومة لموقف بني أمية الرافض لتولِّي أبناء الجواري للخلافة، فيزيد «كان ابن أمة فارسية، ولم يكن له من المنزلة في الأسرة المروانية ما كان لغيره من أبناء الخلفاء من الحرائر العربيات؛ فحُرم هو وإخوته وسواهم من الأمراء الأمويين من أبناء الأعجميات». انظر: د. علي الصلابي: الدولة الأموية ٢/ ٥٢٦، وهو ينقل عن: د. حسين عطوان: سيرة الوليد بن يزيد ص٣١٩.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٩/ ٢٠٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٧٠.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٧٣ وما بعدها.

ومن أهمِّ ما في خروج مروان بن محمد أنه زاد من تعميق العصبية القبلية؛ إذ اعتمد في خروجه على القبائل القيسية، فيما كان جانب الخلافة معتمدًا على القبائل اليمانية، كما أنه عمَّق الأزمة والانقسام بين أمراء البيت الأموي؛ الذين طرأ عليهم خليفة من غير فرع الخلافة في البيت المرواني؛ ومن ثَمَّ ساهم في مزيد من انهيار هيبة الخلافة.

أدرك مروان كلَّ هذا؛ فسعى بكل وسيلة إلى العفو عمن حاربه، وبذل الأمان لإبراهيم بن الوليد(١)، لكنَّه لم يكد يستولي على الخلافة حتى كأنه كان على موعد مع الثورات، التي اشتعلت في كل مكان من أنحاء الدولة.

فقد ثار عليه أهل حمص (١٢٧هـ) الذين لم يرضوا به، وفشل مروان في إصلاح الأمور سلميًّا؛ فلم يَعُدْ أمامه إلَّا الحرب، فحارب أهل حمص حتى هزمهم؛ بل وهدم أسوار المدينة لكيلا يُفَكِّروا مرَّة أخرى في الثورة(٢).

وبينما هو مشغول في ثورة حمص إذ ثار عليه يزيد بن خالد القسري، الذي كان في جبهة يزيد بن الوليد حيث تحالف معه، ووراءه قومه من اليمانية، على الخروج على الوليد بن يزيد بعد أن تسبب في قتل أبيه خالد القسري، وقد خرج يزيد بن خالد القسري ومعه قومه حتى حاصروا دمشق، فأرسل إليهم مروان -وهو في حمص- قائدين من جيشه هما: أبو الورد بن الكوثر وعمر بن الوضاح مع عشرة آلاف جندي؛ ساهما مع القوة الأموية في دمشق في دحرهم وردهم، وقُتِل يزيد بن خالد وأحرقت ديار قومه اليمانية(٣).

ولم يكد ينتهي الأمر في دمشق حتى ثار والي فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي، فأرسل إليه مروان أبا الورد بن الكوثر الذي انتهى لتوه من إنهاء ثورة يزيد بن خالد القسري، واستطاع أبو الورد بمساعدة أهل طبرية أن يقاتل ثابت بن نعيم فيهزمه في معركتين؛ حتى انتهى خطره، ثم أُلقي القبض على ثابت وقُتِل(٤).

في العام نفسه (١٢٧هـ) وعلى الجبهة الشرقية ثار عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٨١.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٨١.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٨١، ٢٨٢.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٨١، ٢٨٢.

جعفر بن أبي طالب في الحيرة ثم انسحب إلى الكوفة منهزمًا، ثم هُزم مرَّة أخرى في الكوفة على يد واليها الأموي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وانسحب إلى فارس، وهناك في فارس استطاع استعادة قوته؛ بما انسحب معه من رجال وبمن انهزم من الخوارج أمام مروان بن محمد في شمال العراق، وبكل مَنْ رآها فرصة سانحة للانقلاب على الأمويين، فاستولى على فارس وحكمها لمدَّة عام تقريبًا، ولم يكن أحد متفرِّغًا له؛ فمروان بن محمد شغلته ثورات العراق التي سنذكرها بعد قليل، وخراسان كان واليها نصر بن سيار منشغلًا في حروبه مع اليمانية، وظلَّ أمر عبد الله بن معاوية يتقوى في فارس، وبُويع له بالخلافة في أصبهان، غير أنه لم يصمد أمام الجيش الأموي الذي هاجمه سنة (١٢٩هـ)، فانسحب إلى خراسان، التي كانت قد دخلت بالفعل في سلطة العباسيين، فما كان له أن يقوم هناك بثورة، ولا كانوا بالذين يطمئنون له ويحتملون وجود ثائر بينهم[١].

وبالعودة إلى العراق سنجد واليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ينقض بيعة مروان بن محمد ويخرج عليه، وتتلاقى رغبته مع رغبات القبائل اليمانية الموتورة، التي هُزِمت وأُحرقت ديارهم في ثورات حمص ويزيد بن خالد القسري، ولهم ثارات أبعد من هذا مع الخلافة الأموية منذ هزيمة عبد الرحمن بن الأشعث، وهزيمة يزيد بن المهلب، ثم أخيرًا حبس زعيمهم خالدًا القسري وقتله، كذلك ساءهم اعتماد الخلافة على قبائل القيسية.. وسيطر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على الكوفة والحيرة وبعض المناطق الأخرى[٢].

وبالعودة إلى الشام سنرى أن سليمان بن هشام بن عبد الملك قد قام بثورة أخرى كبيرة، هي أخطر ما وقع بالشام من ثورات، فقائدها هو ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، والذي كاد يكون خليفة لولا أن ولاية العهد كانت للوليد بن يزيد، وهو من بيت الخلافة على عكس مروان بن محمد، وكان بعد هزيمته مع جيوش إبراهيم بن الوليد أمام مروان بن محمد قد طلب الأمان وبايع مروان وسكن، ولكنه ما لبث أن انحاز إلى حمص وتحصن بها، وبنى ما كان مروان قد هدمه من سورها، وتبعه هناك سبعون ألفًا، فتوجَّه إليه مروان بجيشه فانهزم وهرب، وظلَّ كذلك حتى فشلت ثورته، وانضمَّ إلى ثورة الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس،

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٦، ١١١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٧٥ وما بعدها، ٣١٥ وما بعدها، ٣٣٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٨٣ وما بعدها.

وكانت هذه إحدى مفارقات التاريخ أن يبايع أمويٌّ خارجيًّا بالخلافة[١]!!

كذلك ثار الضحاك بن قيس الخارجي في الموصل (١٢٨هـ) واستولى عليها، وقتل والي بني أمية، وكان الوضع خطرًا حتى خرج له مروان بن محمد بنفسه، ودار قتال شديد بينهما انتهى بنصر مروان بن محمد[٢]، لكنَّ الخوارج لم ينهزموا هزيمة كاملة؛ بل تسلَّم قيادتهم رجل يقال له: الخيبري، والذي استطاع تحقيق نصر كبير، حتى دخل فيه خيمة مروان بن محمد وأجبره على الهرب، لكنَّ هذا النصر لم يكتمل؛ إذ إن الجيش الأموي لم يعلم بانسحاب مروان، واستطاع بعضهم قتل الخيبري في خيمة مروان، فعاد مروان إلى الجيش مرَّة أخرى منتصرًا، لكن الخوارج أَمَّروا عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري الحروري، الذي ظلَّ القتال بينه وبين مروان بن محمد عشرة أشهر، لا يستطيع فيها أحد أن يحسم الأمر؛ لكنَّ راية مروان بن محمد كانت دائمًا مهزومة، وأعادت هذه الثورة للأذهان ذكرى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف الثقفي قبل نصف قرن تقريبًا[٣].

لكن بدأ مروان بن محمد يُحَقِّق انتصارات نهائية على الخوارج (١٢٩هـ)؛ فبعد النصر الصعب الذي حَقَّقه في العام الماضي (١٢٨هـ)، سار مطاردًا لهم حتى تحصنوا بالموصل (في العراق)، وحفروا حولهم خندقًا، ثم دارت بينهم معارك أسفرت عن نصر مروان بن محمد، وكان والي العراق الجديد يزيد بن عمر بن هبيرة على مستوى المسئولية؛ إذ بدأ من جهته في قتال الخوارج بالعراق، حتى حقَّق عليهم نصرًا نهائيًّا، وأخرجهم من الكوفة، ولم يبقَ لهم في العراق بقية، ثم أرسل إلى مروان بن محمد قائده القوي عامر بن ضبارة، فصار الخوارج في الموصل محاصرين من الأمام بمروان بن محمد ومن الخلف بعامر بن ضبارة، فاضطروا إلى ترك الموصل والاتجاه مبتعدين إلى الأهواز، وما يزال عامر بن ضبارة يتتبعهم حتى فرقهم وشتتهم، وقُتل قائدهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري في الأهواز، وهرب مَنْ كان معهم من الأمويين إلى السند، ورجع مروان بن محمد إلى منزله في حران[٤].

وثار في اليمن عبد الله بن يحيى الكندي الإباضي (من الخوارج) ولقب نفسه «طالب

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٨٧ وما بعدها، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٢/ ٣٩٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ١٠.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٨٣.
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٨، ١٠٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٣ وما بعدها.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٤، ٣٠٥.



الحق»، وقاتل واليها القاسم بن عمر، وهزمه وقتل أخاه الصلت، وحكم اليمن (١٢٩هـ)، وكان عبد الله بن يحيى قد التقى برجل يسمى أبا حمزة المختار بن عوف في الحج (١٢٨هـ)، كان أبو حمزة هذا يأتي الحج في كل عام ويخطب في الناس، وينصح لهم ويدعوهم إلى الخروج على مروان بن محمد، فأعجب به عبد الله بن يحيى، وضمه إليه فوجد فيه زعيمًا قويًّا، كما وجد أبو حمزة فيه العدد والنصرة، وبعد أن سيطر طالب الحق على اليمن، أرسل قوة قوامها عشرة آلاف بزعامة أبي حمزة إلى الحجاز فظهر في موسم الحج (١٢٩هـ)، وكره والي مكة عبد الواحد بن سليمان قتالهم فانسحب عنها، وهكذا اتَّسعت الثورة إلَّا أنَّ أبا حمزة الخارجي بدخوله المدينة (صفر ١٣٠هـ)، وما فعله فيها صار أشهر في التاريخ من مفجر الثورة طالب الحق. أرسل مروان بن محمد جيشًا بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، فهزم أبا حمزة وقتله (١٣٠هـ) بمساعدة من أهل المدينة، ثم انطلق إلى أن قاتل طالب الحق نفسه فهزمه وقتله -أيضًا- بعد معارك شديدة[1].

لكن مروان ما كاد ينتهي من الخوارج في العراق، ويبدأ في التفرغ لباقي الثورات في الجنوب والغرب؛ حتى ظهر في خراسان أبو مسلم الخراساني.

هكذا كانت أحوال الخلافة، والصورة لا تكتمل إلَّا إذا طالعنا عن قرب أحوال خراسان، التي تتمركز فيها الدعوة العباسية، وكان الوالي على خراسان في هذه الفترة رجلًا يسمى:

نصر بن سيار

وهو نصر بن سيار بن رافع بن حرِّي الليثي المُضَري، أحد الأبطال البارزين في الحرب والسياسة ومن أصحاب الفتوحات في بلاد ما وراء النهر، وهو خطيب مفوَّه وشاعر مُجيد، قال الذهبي: كان من رجال الدهر سؤددًا وكفاءة، وكان نصر قبل توليه أمر خراسان قائدًا للعرب المقاتلة في بلخ -أحد حواضر خراسان المهمَّة- وكان في ذلك الوقت من معارضي أسد بن عبد الله القسري والي خراسان، بعد أن كان لفترة من الفترات ساعده الأيمن، ورَجُلَه في الإدارة والحرب في بلاد ما وراء النهر، ظهر نصر بن سيار كزعيم قوي لقبائل الأزد وللعرب المقاتلة لا سيما البصريين، وكان أتباع نصر يضمون بالإضافة إلى قبائل مضر أفخاذًا

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٠، ١١٣، ١١٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٢، ٣٢٨ وما بعدها.

عديدة من قبائل أخرى[١].

أحوال خراسان

ظهر انقسام بين العرب في خراسان[٢]؛ فكان قسم مع نصر بن سيار، وقسم آخر مع زعيم آخر قوي هو جديع الكرماني (وهو عربي من معد، وسمي بالكرماني؛ لأنه وُلد في كرمان[٣])، فكان تعيين الخليفة هشام بن عبد الملك لنصر بن سيار في ولاية خراسان دليلًا على رؤية الخلافة بأن كتلة نصر بن سيار هي الأقوى، وبالتالي فهي الأقدر على حكم خراسان[٤].

هذا رأيٌ، والرأي الآخر يقول بأن الخليفة هشام بن عبد الملك لما استشار خبيرًا بشأن خراسان، وهو عبد الكريم بن سليط الحنفي، لم يجد أحدًا أنسب للولاية من نصر بن سيار، فكل الخيارات كانت بين رجل من العرب اليمانية كجديع الكرماني، أو رجل لا يقبله أهل خراسان كقطن بن قتيبة الباهلي، أو لا يخلوَنَّ من عيوب قادحة في النزاهة والأمانة، بينما كان عيب نصر بن سيار أنه لا عشيرة له، وقد اختاره الخليفة هشام باعتبار أن دعم الخلافة له يُغنيه عن العشيرة القوية[٥]، ويجعله محايدًا في النزاع بين الكتل المختلفة وأكثر ولاء للخلافة[٦]، فولاَّه خراسان (رجب ١٢٠هـ)، لكنَّ نصرًا لم يكن محايدًا، بل كان على مذهب الخليفة هشام في استبعاد اليمانية والربعية، فلم يكن يستعين بأحد منهم، ولا شك أن أوقع بهم بعض مظالم[٧].

فلما مات هشام بن عبد الملك وجاء الوليد بن يزيد إلى الخلافة؛ عاد إلى النظام القديم في

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ١٠٨، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٦٣، ٤٦٤، والصفدي: الوافي بالوفيات ٢٧/ ٤١، والزركلي: الأعلام ٣/ ٢٨، ود. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٧٩.

(٢) لكي يكون القارئ على بينة من الخريطة في خراسان نقول: يُنسب العرب إلى جَدَّين كبيرين هما قحطان وعدنان، فمنهما تتفرع القبائل العربية، وفيما يخص حال خراسان الذي نناقشه في الصفحات القادمة فإننا سنجد كثيرًا لفظ «العرب اليمانية» أو «اليمنية» أو «اليمانيين» كما سنجد لفظ مُضَر أو المضريين وسنجد لفظ ربيعة أو الرَّبْعيين، وسنسمع أسماء بعض القبائل، فبالنسبة لما سيرد في الكتاب سيكون مهما أن نعلم أن: القبائل اليمانية هي القبائل التي تنتسب إلى قحطان وتشمل قبائل الأزد وطيء وكنده، بينما تنتسب قبائل ربيعة ومضر إلى عدنان وتشمل قبائل كنانة وبني سليم وهذيل وثقيف وبني تميم وبني حنيفة.
للاستزادة والتفصيل: راجع كتب الأنساب مثل: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٩، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٦.

(٤) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٧٩.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٤٠، وما بعدها، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٩٠.

(٦) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٧٩.

(٧) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٥١.

جَعْل خراسان تابعة لولاية العراق، فقام والي العراق يوسف بن عمر بعزل نصر بن سيار، لكنَّ الوليد نفسه ما لبث أن قُتل وجاء يزيد بن الوليد، الذي عيَّن على العراق منصور بن جمهور، فعين منصورٌ أخاه منظورًا على خراسان، لكنَّ نصرًا عاد إلى مرو وتولاها غصبًا بلا تفويض من الخليفة، ورفض الاعتراف بمنظور بن جمهور واليًا، وتمَّ له الأمر، وأعاد عاصمة خراسان إلى مرو بدلًا من بلخ؛ التي اتخذها أسد القسري[1]، لكنَّ نصرًا فشل في كسب ودِّ جديع الكرماني؛ فأقصاه من مركزه كزعيم للأزد، ولكنَّ هذا لم يفلح لسعة نفوذ الكرماني[2].

قبل تلك السنين في خراسان، كان نصر بن سيار ممن خاض معارك عسكرية كبيرة مع الأتراك في بلاد ما وراء النهر، وخاصة الشاش، واتفق مع أميرها على طرد الحارث بن سريج المرجئي من الشاش إلى فاراب[3].

والحارث بن سريج هو أحد الثوار على حكم بني أمية في خراسان، كان شجاعًا بطلًا موهوبًا في القيادة، ثار على الأمويين في عام ١١٦ هـ، واستطاع أن يجمع معه كثيرًا من الناس؛ حتى بلغ جيشه ستين ألفًا فيما يقال -وإن كنا لا نطمئن إلى هذا الرقم ونراه مبالغة، لكنَّه دليل على قوة وخطورة هذه الثورة- واستولى على حواضر مهمَّة في خراسان كبلخ والجوزجان ومرو الروذ والطالقان، ثم انهزم عند مرو وهرب إلى الشرق؛ حيث بلاد الترك، فظلَّ هناك اثني عشر عامًا، وشنَّ فيها الغارات على بلاد المسلمين بجيش من الترك، أو كان في قيادة جيوشهم التي تهاجم المسلمين، وكان يدلهم على المسالك والثغور، ثم أراد الوليد بن يزيد أن يسترجعه إلى الإسلام والمسلمين؛ فدعاه وأرسل إليه نصر بن سيار أمانًا من الخليفة يزيد بن الوليد؛ فعاد وتاب وزار بلاد الشام، ثم استقرَّ في مرو (١٢٧هـ)، وأجرى عليه نصر راتبًا كبيرًا (خمسين درهمًا في اليوم)، وعرض عليه الولاية فلم يرضَ بها؛ وقال: إنه ليس يريد الدنيا، وإنما يريد أن يكون الأمر شورى. وظلَّ على بعض المناوأة لنصر بن سيار[4].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٣٠، ٢٣١، ٢٥٦ وما بعدها.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٨٠.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٠ وما بعدها.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ١/ ٩٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٥٤ وما بعدها، ٤/ ١٦٩ وما بعدها، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٨/ ٣١٧، ٣١٩ (ترجمة أسد بن عبد الله القسري)، ٢٥/ ٢٥٥ (ترجمة عاصم بن عبد الله)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٤١٠ وما بعدها، والذهبي: تاريخ الإسلام ٧/ ٣١١، ٣١٤، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٤٢، ٣٥٣، ١٠/ ٢٨، ٢٩، والزركلي: الأعلام ٢/ ١٥٤.

ويغلب على الظن أن الحارث لم يكن مخلصًا فيما دعا إليه، وإنما كان زعيم قبيلة ورجل سياسة حاول من خلال الشعارات التي رفعها أن يكسب الأنصار، فهو لم يتورع عن الانضمام إلى الترك المشركين واستخدامهم من قبلُ لشنِّ الهجمات على المسلمين، وقد عاش بين هؤلاء المشركين سنين عديدة(١).

واستغلَّ جديع الكرماني -منافس نصر وخصمه- الأزمة بين نصر بن سيار والخلافة في دمشق بتوليه أمر خراسان دون تفويض من الخلافة؛ ولهذا سجنه نصر، لكنَّ الكرماني هرب من السجن واجتمعت له اليمانية والربعية -أيضًا- بعد أن ذكَّرهم بالأحلاف القديمة بين قومه وقومهم(٢)، ثم استطاع نصر أن يحلَّ الخلاف، ووعد بدفع العطاء للعرب وخاصة أتباع الكرماني(٣).

ثم ما لبث أن عيَّن الخليفة يزيد بن الوليد على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز؛ بدلًا من منصور بن جمهور (١٢٦هـ)، فعيَّن بدوره نصر بن سيار على خراسان، فعادت إلى نصر شرعية الولاية على خراسان، وعادت معها ثورة جديع الكرماني؛ الذي رأى في هذا التعيين انتصارًا لنصر؛ فأعلن عصيانه، ثم إن الخليفة يزيد بن الوليد ما لبث أن مات، وزادت الاضطرابات في دمشق بين الأسرة الأموية؛ مما ألقى بتأثيراته على وضع نصر بن سيار بالضعف وعلى وضع الثائرين بالقوة، وظهر لمرة أخرى الحارث بن سريج المرجئي(٤).

ولما استقرَّ الأمر لمروان بن محمد عيَّن على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة؛ الذي ثَبَّت نصر بن سيار على خراسان، لكنَّ شرعية مروان بن محمد نفسه كانت موضع جدل وكلام، واتخذ الحارث بن سريج من ولاية مروان فرصة لإعلانه الثورة؛ بحجة أنه أخذ الأمان من يزيد بن الوليد، وأن «مروان لا يجيز أمان يزيد»(٥)، وتحالف معه جديع الكرماني. ثم استطاع نصر أن يهزم الحارث؛ لكنَّه اضطر إلى الانسحاب بعد تقدُّم أتباع الكرماني، فانسحب إلى

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٤، ود. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٨٣.

(٢) إن هذا يشير إلى أي مدى وصلت العصبية في خراسان؛ حتى إن أحدهم لَيُحْيِيَ أحلافًا كانت في الجاهلية، انظر نص هذا الحلف في: الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٥٣، ٣٥٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٩، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٥٢ وما بعدها، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٥ وما بعدها.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٤، ٢٧٩ وما بعدها.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٢، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٣/ ٢٤٣.

نيسابور فيما سيطر الكرماني والحارث على مرو[١].

غير أن التحالف لم يستمر طويلًا فما هو إلَّا أنَّ تقاتل الحارث والكرماني؛ إذ انفض عن الحارث مَنِ انخدع بشعارات القتال في سبيل الحق ورأوا أن الكرماني يقاتل على العصبية لا على الحق، ثم رأوا كذلك غدرات حدثت من الحارث بن سريج، فهُزم الحارث بن سريج وقُتِل (رجب ١٢٨هـ) بعد ثلاثين يومًا فقط من نصرهما على نصر بن سيار[٢].

وكانت هزيمة الحارث ضربة أخرى من اليمانيين للمضريين بعد هزيمتهم لنصر بن سيار المضري أيضًا، مما أَجَّج الصراع القبلي، وجعل المضريين أصحاب ثأر؛ حتى لقد قالت شاعرة منهم وهي أم كثير الضبية:

لَا بَـــارَكَ اللهُ فِي أُنْثَـــى وَعَـــذَّبَهَا	تَزَوَّجَـتْ مُضَرِـيًّا آخِـرَ الـدَّهْرِ
أَبْلِـغْ رِجَـالَ تَمِـيمٍ قَـوْلَ مُوجَعَـةٍ	أَحْلَلْتُمُوهَـا بِـدَارِ الـذُّلِّ وَالْفَقْـرِ
إِنْ أَنْـتُمُ لَمْ تَكِـرُّوا بَعْـدَ جَـوْلَتِكُمْ	حَتَّى تُعِيدُوا رِجَالَ الْأَزْدِ فِي الظُّهْرِ
إِنِّي اسْتَحَيْتُ لَكُـمْ مِـنْ بَعْـدِ طَاعَتِكُمْ	هَـذَا الْمُـزُونِيَّ يَجْبِـيكُمْ عَـلَى قَهْـرِ[٣]

وهكذا استمرَّ زعماء خراسان في التقاتل والحرب، وما بين كرٍّ وفرٍّ، وتحالف وانفصام، كانت الدعوة العباسية تُواصل تقدُّمها بين الناس، فنتوقف هنا الآن لنتابع تطور الدعوة العباسية، التي كانت قد دخلت في طور جديد.

تقدم الدعوة العباسية

في ظلِّ هذا المسرح المضطرب قام أبو سلمة الخلال -نائب كبير الدعاة في الكوفة أبي هاشم بكير بن ماهان (ثم كبير الدعاة فيما بعد عندما تُوُفِّيَ بكير بن ماهان)- بجولات في خراسان، فزار جرجان ونقيب الدعوة فيها أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، ومرو ونقيب الدعوة فيها سليمان بن كثير الخزاعي وأعطى له راية سوداء، وأرسل بمبعوثين -أيضًا- منهم

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٣ – ٢٩٦.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٠٩، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٦ – ٢٩٨.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٩، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٣/ ٢٥٥.

مجاشع بن هريث الأنصاري ومعه راية سوداء إلى بلاد ما وراء النهر، ثم إن أبا سلمة أقام بنفسه في مرو، واستقرَّ بها أربعة أشهر لمتابعة وإدارة شئون الدعوة، ونجح بالفعل إذ «تمكن أبو سلمة في تلك الأيام مما أراد، واستثارت الدعوة وقوي أهلها، وبثَّ دعاته ورسله»[(١)].

ومع طول الصراع بين نصر بن سيار والكرماني، واختلال أحوال العرب في خراسان تبعًا لاختلال دمشق، التي لم يجتمع الرأي فيها على أحد، تمكن العباسيون من رصد الرغبة العربية في وجود أمر يجمعهم ويوحدهم؛ «فتحركت الدعوة: يدعو اليمانيُّ من الشيعة اليمانيَّ، والربعيُّ الربعيَّ، والمضريُّ المضريَّ؛ حتى كثر من استجاب لهم، وكَفُّوا بذلك عن القتال في العصبية»[(٢)].

❊ ❊ ❊

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٤٨.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٤٨، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٩، ١٣٠.



أبو مسلم الخراساني

تتعدَّد الروايات وتصل إلى حدِّ التضارب حول أصل أبي مسلم الخراساني وطريقة انضمامه إلى الدعوة؛ وانقسم المؤرِّخون تبعًا لذلك في القول بأنه مولى فارسي أو هو عبد، وإذا ما أخذنا بالرواية التي يتناقلها الكثير من المؤرِّخين؛ فإن القصة تكون كالآتي: وُلِد أبو مسلم في قرية قرب أصبهان من أب فارسي وأم أَمَة، ولقد اضطر والده تحت ظروف مالية قاهرة إلى بيع الأَمَة التي كانت حاملًا بأبي مسلم إلى عيسى العجلي؛ الذي كان يمتلك بعض الأراضي في ضواحي أصبهان، فهناك وَلَدَت إبراهيم الذي نشأ مع أولاد العجلي، وحينما شبَّ عمل في خدمتهم، وفي جمع الأموال من مزارعهم المنتشرة في أصبهان والكوفة، وصار مولى لهم.

وفي الكوفة تعرَّف على بعض الأتباع من الغلاة، وجذبه العمل إلى «آل البيت»؛ بل اشترك في حركة المغيرة بن سعيد العجلي في الكوفة عام ١١٩ هـ؛ لكنه استطاع أن يفلت من السلطة الأموية ولم يُمَسَّ بأذى. وظلَّ ملازمًا لأبي موسى السَّرَّاج يعمل في صناعة السروج، ويتلقى منه آراء الشيعة لآل البيت، وعند العجليين تعرَّف أبو مسلم على الدعوة العباسية، حينما التقى ببعض الدعاة العباسيين الذين زاروا بعض العجليين في سجن الكوفة -وكانوا في طريقهم إلى الحجاز- فلفت أنظارهم؛ فأعجبوا به وكسبوه إلى دعوتهم، وأخذوه معهم إلى إبراهيم الإمام بعد أن استأذنوا أبا موسى السراج[1].

ملامح شخصية أبي مسلم

كان أبو مسلم قصيرًا، أسمر، جميلًا، نقي البشرة، أحور العين، عريض الجبهة، حسن اللحية وافرها، طويل الشعر، طويل الظهر، قصير الساق والفخذ، خافض الصوت، فصيحًا بالعربية والفارسية، حلو المنطق راوية للشعر، عالمًا بالأمور، لم يُر ضاحكًا ولا مازحًا إلَّا في

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١١٩ وما بعدها، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٣٧، ٣٣٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢١٥، ٢٩٠، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ٢٥٣ وما بعدها (وقد أفاض في ذكر نسبه وخبره حتى انضمامه للدعوة واستقصى جميع الروايات في أمره)، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/ ٢٠٧ وما بعدها، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤٠٨ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٤٦١، ٤٧٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٢، وصالح سليمان الوشمي: أبو مسلم الخراساني ص١١ - ١٩، ود. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٨٦.

وقته، ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يُرَى مكتئبًا، وإذا غضب لم يستفزه الغضب. ظهرت عليه ملامح النبوغ منذ صغره، ثم زادت مع الأيام توهجًا واشتدادًا؛ فكان شجاعًا ذا عقل ورأي، وتدبير وحزم، وكان عالمًا بالشعر(١).

كان أبو مسلم من الأمثلة التي تُضرب في علوِّ الهمَّة، وذلك في كل أموره، كما كان شخصية قوية وعنيدة لا تقبل بالهزيمة، ولو كانت في لعبة شطرنج، يروي أحد أقرانه هذا الجانب من شخصيته فيقول: «كنت أطلب العلم فلا آتي موضعًا إلَّا وجدت أبا مسلم قد سبقني إليه، فألفني، فدعاني إلى منزله، ودعا بما حضر فأكلت، ثم قال: كيف لعبك بالشطرنج؟ فقلت: إني لاعب بها. فدعا بشطرنجه فتناولت السواد فوضعته بين يدي، فتناولها من بين يدي وأعطاني البياض، فأَشْفَتْ شاهه(٢) على القتل، فداخله أمر عظيم، فاغتممت له، ثم قال لي: العب فقد فرج الله. فَخَلَّص شاهه، وجعل يقول:

ذَرُوْنِي ذَرُوْنِي مَا قَـرَرْتُ فَـإِنَّنِي   مَتَـى مَـا أُهِـجْ حَرْبًـا تَضِـيقُ بِكُـم أَرْضِي
وَأَبْعَـثُ فِي سُـوْدِ الحَدِيْـدِ إِلَـيْكُمُ   كَتَائِـبَ سُـوْدٍ طَالَمَـا انْتَظَـرَتْ نَهْضِي»(٣)

ويقول هو عن نفسه: «ارتديت الصبر، وآثرت الكتمان، وحالفت الأحزان والأشجان، وسامحت المقادير والأحكام، حتى بلغت غاية همتي، وأدركت نهاية بغيتي»(٤).

تميز أبو مسلم عن غيره من دعاة العباسيين بالكفاءة والعسكرية، ودهاء الدبلوماسية، وفتوة الشباب(٥)، وأثبتت الأيام أنه إداري ناجح، كان يهتم بإحصاء قوته وجنده ومعرفتهم بأعيانهم وأنسابهم وبلدانهم(٦)، وفعله فيما سيأتي هو أوضح دليل على مواهبه!

استقرَّ أبو مسلم عند الإمام محمد بن علي العباسي يعمل في خدمته، ومن بعده مع ابنه

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤١٣، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٤٦، وما بعدها، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٨، وصالح سليمان الوشمي: أبو مسلم الخراساني ص١٩ – ٢١، ٩٥ – ٩٩.
(٢) أشفت شاهه على القتل: المراد أوشك على الهزيمة في الشطرنج.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤١٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٣.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/ ٢٠٨، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤١٤.
(٥) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٢١.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٨، ٣١٣، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٣/ ٢٦٦، ٢٧٤.



إبراهيم بن محمد، ولفتت شخصيته ومواهبه نظر إبراهيم بن محمد؛ فاستعمله في حمل الرسائل إلى الكوفة وخراسان، وهو عمل في غاية الخطورة -بالنسبة إلى تنظيم سري- يدل على ثقة الإمام إبراهيم في كفاءة أبي مسلم وأمانته، وإخلاصه للدعوة، والإمام إبراهيم هو الذي طلب منه تغيير اسمه إلى عبد الرحمن بن مسلم، وكَنَّاه بأبي مسلم الخراساني(١).

لا ندري بالتحديد كم ظلَّ أبو مسلم يحمل الرسائل بين مراكز الدعوة، لكنَّه ظلَّ فيه إلى عام ١٢٨ هـ؛ حيث سيتم تكليفه بالمهمَّة التي أدخلته باب التاريخ!

أبو مسلم أمير الدعوة في خراسان

من خلال هذا العمل اكتسب أبو مسلم معرفة بأحوال خراسان(٢)، كيف لا وهو يُطالع تقارير تتوخَّى أكبر قدر من الصدق والدقة لأنها مرفوعة إلى الإمام.

وفي (١٢٨هـ) طلب النقباء في خراسان أن يُرسل الإمام مَنْ ينوب عنه من أهل البيت؛ ليكون ممثلًا له أثناء إعلان الثورة، وذلك لاشتداد العصبيات في خراسان ذلك الوقت؛ مما يجعل وجود رجل من آل البيت قوة للدعوة، وبعد فشل إبراهيم الإمام في إقناع عدد من الرجال مثل سليمان بن كثير وقحطبة بن شبيب وإبراهيم بن سلمة، قرَّر اختيار مولاه أبى مسلم الخراساني(٣).

وأغلب الظن أن رفض نقباء خراسان القيام بهذا الأمر كان نوعًا من الزهد في المسئولية إزاء هذه المرحلة الفاصلة، وهذا مما يظهر في عدد من أقوالهم مثل قول سليمان بن كثير: «ما كرهت القيام بهذا الأمر إلَّا أنَّ أكون أضعف الناس فيه نية». والزهد في المناصب الكبرى لدى مؤسسي الدعوات الدينية أمر مفهوم؛ فالغالب على هؤلاء الرجال أنهم يفزعون عند الجزع، ويقلون عند الطمع، ويتعرَّضون للمخاطر لا يرجون إلَّا وجه الله وثواب الآخرة، كما يبدو أنهم كانوا يتوقَّعون في حال رفضهم أن يقدم عليهم واحد من آل البيت، وربما الإمام نفسه ليقود الثورة؛ كما هو الحال في كل ما سبق من ثورات معروفة.

وعلى الناحية الأخرى فلم يكن أمام الإمام إبراهيم إلَّا أنَّ يدفع برجل مثل أبي مسلم؛

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٠، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٢٣٢.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٨٧.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١١٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٠.

الذي توفرت له عدة مزايا تجعله الرجل المناسب:

١- هو رجل من غير آل البيت، فلن يُؤَثِّر ظهوره على سرية اسم الإمام، الذي سيظل مجهولًا بالنسبة إلى الأمويين، حتى اللحظة المناسبة التي يتحقق فيها النجاح الكامل، وفي حالة ظهوره وفشل الدعوة فإن رأس الدعوة المتمثل في الإمام سيظل مجهولًا؛ ويتمكن من إعادة ترتيب الصفوف من جديد، مثلما حدث عند مقتل أبي عكرمة السراج وحيان العطار وعند مقتل خداش.

٢- هو في ذاته رجل كفء لهذه المهمَّة، وقد ظهرت منه المواهب الذاتية المدهشة التي تجعله مؤهلًا للقيام بهذا الدور؛ حتى لقد وصفه الإمام إبراهيم بعد التجربة والمعاشرة بقوله: «هذا عضلة من العضل[(١)]... إني قد جربت هذا الأصفهاني، وعرفت ظاهره وباطنه، فوجدته حجر الأرض»[(٢)]. وبالإضافة إلى هذا فهو قد اكتسب علمًا وخبرة بالحال من واقع عمله في نقل الرسائل.

٣- هو رجل من الموالي؛ ومن شأن اختياره قائدًا للدعوة في خراسان أن يجذب للدعوة كثيرًا من الموالي، الذين سيرون بأعينهم كيف لا تُفَرِّق الدعوة الجديدة بين العرب وغيرهم، بل كيف يبلغ المولى أن يكون سيِّدًا على شيوخ العرب! وقد أسهم هذا بالفعل في انحياز كثير من الموالي إلى الدعوة العباسية.

وعلى الرغم من أن هذا السبب الأخير قد يُحدث أزمة في صفوف الدعوة، فقد لا يتقبل نقباء الدعوة وهم شيوخ العرب أن يتولَّى عليهم واحد من الموالي، لا بل هو مع هذا الخادم الذي كان يخدمهم قبل سنوات بسيطة، والذي دخل الدعوة على أيديهم.. على الرغم من هذا فإن الإمام إبراهيم قد عرض الأمر عليهم من قبل فلم يقبلوا، وأصرُّوا على أن يبعث لهم الإمام من عنده مَنْ يقود أمرهم في هذه اللحظات، فمن ثَمَّ كان طبيعيًّا ألا يعترضوا على هذا الاختيار.. على أنه قد احتاط مرَّة أخرى لمثل هذا السبب فكتب مع أبي مسلم أنه لو وافق سليمان بن كثير على أن يظلَّ هو الأمير فهو الأمير؛ وعلى أبي مسلم أن يكون من جنوده باذلًا له حقَّ السمع والطاعة.

---

(١) المعنى الظاهري الحرفي: «مشكلة من المشاكل». وتقال للمبالغة والتعظيم والإعجاب.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٤٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٠.

لكن الأمور جرت على نحو عجيب..

ومع رسالة تعيين أبي مسلم قائمًا بأمر الدعوة في خراسان، أرسل معه كذلك أمرًا بتزويجه من ابنة أبي النجم عمران بن إسماعيل؛ وهو أحد النقباء في خراسان(١).

بين أبي مسلم وسليمان بن كثير

نزل أبو مسلم الخراساني على أبي النجم عمران بن إسماعيل، ثم اجتمع النقباء في بيت سليمان بن كثير، فوضع لهم أبو مسلم كتاب الإمام إبراهيم أمامهم، فقال سليمان لطلحة بن زريق الذي كان يتولَّى قراءة رسائل الإمام والردَّ عليها بخطِّه: «افضض الخاتم، واقرأ علينا كتاب إمامنا». فلما قرأ طلحة الكتاب غضب سليمان لما فيه، وصاح: «صُلينا بمكروه هذا الأمر، واستشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر حتى قُطِّعَت فيه الأيدي والأرجل، وبُرِيَت فيه الألسن حَزًّا بالشفار، وسُمِلَت الأعين، وابْتُلِينا بأنواع المَثُلات، وكان الضرب والحبس في السجون من أيسر ما نزل بنا، فلمَّا تنسمنا روح الحياة، وانفسحت أبصارنا، وأينعت ثمار غراسنا طرأ علينا هذا المجهول، الذي لا يُدرى أية بيضة تَفَلَّقَتْ عن رأسه، ولا من أي عُشٍّ درج؟! والله لقد عرفت الدعوة من قبل أن يخلق هذا في بطن أمه. اكتب يا أبا منصور بما تسمع إلى الإمام.

فقال أبو منصور (معترضًا على سليمان): سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير، أنا والله أول من سَلَّم لأمر الإمام وسمع وأطاع.

وتكلَّم أبو داود خالد بن إبراهيم وغيره ممن حضر فقالوا لسليمان: يا أبا محمد! إن كنت مؤتمًا بطاعة إمامك فقلده شرائع الدين، واسمع له وأطع فيما وافقك أو خالف هواك.

ومدَّ أبو مسلم يده إلى كتاب إبراهيم ليأخذه، حذفه(٢) سليمان بن كثير بالدواة فشَجَّه، فسال الدم على وجهه، وقذفه بشير بن كثير أخو سليمان. فقام أبو مسلم عن المجلس وهو يقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من إمامكم؟

وافترق القوم عن مجلسهم مختلفين، فكانت النقباء تحب أن تضع من أبهة(٣) سليمان بن

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٩، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤١٢.
(٢) أي رماه.
(٣) أبهة: أي كبرياء

كثير، وكان أن يترأس عليهم أجنبي ليس منهم أروح عليهم وأوفق لهم، فاجتمعت الكلمة من الشيعة على ترئيس أبي مسلم، وخذلوا سليمان بن كثير، وأفردوه. واضطر سليمان إلى اتباع إخوانه وأصحابه؛ فسمع وأطاع لأبي مسلم على الكره منه، واستقامت لأبي مسلم طاعة الشيعة بخراسان وانقادوا له.

ثم إن أبا مسلم راجع سليمان بن كثير وأعلمه بما أتاه، وأقرأه ما كتب به إليه، وكان فيما كتب به إليه: إن قبل سليمان بن كثير القيام بأمر الدعوة ونصب نفسه لذلك فسلِّم له، وإن كره قبول القيام فلا تَعْصِيَنَّ لسليمان أمرًا، وقدِّمه في جميع ما تدبرون.

فلمَّا قرأ سليمان ذلك قال: إني والله ما كرهت القيام ألا أكون أضعف الناس فيه نية، ولكني أخاف اختلاف أصحابي، ونحن نداري ما نداري، وأنا يدك وصاحبك الذي لا يخذلك ولا يغشك ما لم تخالفنا، وتعمل ما يوهن أمرنا. قال أبو مسلم: أحسن بي الظن فَلأَنا أطوع لك من يمينك»[1].

ياله من موقف!

أمَّا الإمام إبراهيم فقد فعل غاية ما ظنه نازعًا للخلاف بعرضه الأمر على سليمان بن كثير أو قحطبة، أو أمثالهم من النقباء فلم يرضوا، فأرسل أبا مسلم أميرًا إذا ظل القوم على رفضهم له. وأمَّا أبو مسلم فلا شكَّ أنه دُهِش لهذا الاستقبال من سليمان بن كثير؛ فقد ناله فيه التحقير والإهانة؛ بل الضرب أيضًا. وأما سليمان بن كثير فيبدو أن له عذرًا -أيضًا- فبينما هو ينتظر قرارًا من الإمام بأن يكون واحد من آل البيت في الطريق إليه ليقود الثورة، أو في أقلِّ الأحوال واحد من كبار الدعاة في الكوفة كأبي سلمة الخلال؛ إذا به يجد حامل الرسالة هو الأمير الجديد.. ذلك الشاب الحدث الصغير الذي لم يكمل الثلاثين من عمره، المولى، الذي كان خادمًا منذ سنين بسيطة عند أحد أتباع الدعوة، ثم اشتراه سليمان نفسه؛ لكي يخدم الإمام!!.. لا نستطيع ألا نلتمس العذر في موقف كهذا لسليمان بن كثير!

وعلى أية حال، وكما يحدث كثيرًا في هذه الدنيا، توترت الأحداث في رأس التنظيم الخراساني جراء موقف لا يتحمل أحد بعينه المسئولية عنه.. لكنَّ شخصيات الدعاة كانت من

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٧٠ وما بعدها، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٩، ٣١٠.

الإخلاص والتجرُّد، وكذلك شخصية سليمان بن كثير، بحيث تجاوزت هذا الموقف «الدنيوي»، الذي يبدو كالصراع على المنصب لحساب الثقة في الإمام، والعمل معًا لصالح الدعوة.. وبمثل هؤلاء تقوم الدعوات!

سياسة أبي مسلم في خراسان

جرى أبو مسلم في خراسان على سياسة الدعوة العباسية؛ التي استقرَّت قواعدها من قبله، وإن كان بوتيرة أسرع وأقوى بطبيعة الحال؛ ذلك أن شخصية أبى مسلم الموهوب والمدهش قد أعطت دفقًا جديدًا لنشاط الدعوة، وأهمُّ ملامح هذه السياسة كالآتي:

١- مع القبائل العربية

أوصى الإمام إبراهيم أبا مسلم بالعمل على كسب مزيد من تأييد القبائل العربية، يذكر أبو مسلم «أمرني الإمام أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة، ولا أدع نصيبي من صالحي مضر، وأحذر أكثرهم من أتباع بني أمية، وأجمع إليَّ العجم وأَخْتَصُّهُم، وإنما الأعمال بخواتيمها، قال الله ﷻ: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: ٥]، ومن أتانا من مضر ودخل في أمرنا وصحح لنا قبلناه وحملناه على رءوسنا، ومن عاندنا استعنا الله عليه، وكان الله حكمًا بيننا وبينه»(١). وقريب من هذه الرواية ما ذكره الطبري: «قال له: ادْعُ الناس إلينا، وانزل في اليمن والطف بمضر، ونهاه عن رجل من أبرشهر يقال له: غالب. لأنه كان مفرطًا في حبِّ بني فاطمة»(٢).

فسعى أبو مسلم في مد روابط الصلة بقبائل العرب وشيوخها، معتمدًا على اليمانية بشكل أساسي، ثم على الربعية، وحذرًا إلى حدٍّ ما من المضرية، لا سيما ونصر بن سيار والي خراسان من المضريين، وكان طريقه في الوصول إلى الناس هو دعوة شيوخ القبائل وزعمائها.

وهو أسلوب ناجح لا تكاد تخلو منه دعوة، بل ربما لم تنجح من دونه دعوة؛ وقد كان النبي ﷺ بدأ بدعوة شيوخ قريش، وحرص على ذلك حتى عوتب على شدَّة حرصه: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [الشعراء: ٣] ثم عوتب على أن عَبَس في وجه أعمى أتاه حين

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٨٥.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ١٢٦، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٣/ ٣٧.

كان يسعى في دعوتهم، وحين ذهب إلى الطائف كان أول مَنْ قصده فيها هم زعماءها، كذلك دخل أهل المدينة في الإسلام بعد إسلام زعمائهم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ(١).

أدرك الدعاة العباسيون بحذق وذكاء أهمِّيَّة القبائل العربية التي يتزعمها شيوخها - وأهمية زعمائها المتنفذين- وقوتها، فخططوا لكسبهم لمصلحة الدعوة، فهذا يعني كسب أتباعهم وعشائرهم بطبيعة الحال، وتذكر روايات البلاذري وأخبار الدولة العباسية والأزدي والطبري أسماء هؤلاء الشيوخ الذين أُعْطوا رتبة قائد الجيش العباسي(٢).

ويذكر ابن الكلبي أسماء بعض العرب الذين ميزوا أنفسهم بما قاموا به من أعمال في سبيل الدعوة العباسية؛ مثل: خفاف بن هبيرة من أشجع الفرسان، وعقبة بن حرب «قائد في الدعوة»، وعلقمة بن حكيم والعلاء بن سالم، والزبير بن محمد الأزدي، انضموا إلى الثورة مع ١٠٠٠ شخص، وانضم ١٠٠ من بني الحارث مع شيخ لهم، كما استولى خازم التميمي على مرو الروذ باسم العباسيين بمساعدة قبيلته تميم (ذي القعدة ١٢٩هـ)(٣).

ولا ينفي هذا أنهم ساروا في الدعوة العامة بين الناس على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية؛ حتى العبيد والموالي، وإنما ينبغي أن تكون خطَّة الدعوة قائمة على الوصول إلى مفاتيح المجتمعات ومفاصل الشعوب، وهم صفوة الناس ونخبتهم وزعماؤهم.

٢- مع أهل الدعوة

كأي زعيم موهوب، تعامل أبو مسلم مع أهل الدعوة كما لو كان واحدًا منهم أو أقلهم، وظهر لأهل الدعوة من تواضعه وأخلاقه -مع قلة كلامه وعظيم همته وحدة ذكائه- ما جعلهم يتعلقون به؛ لقد بهرت شخصية أبي مسلم نفوس أتباعه، وملكهم بمواهبه وقوة شخصيته؛ حتى «صار من أعظم الناس منزلًا عند شيعته؛ حتى كانوا يتحالفون به، فلا يحنثون، ويذكرونه، فلا يملون»(٤).

ومن براعته الإدارية أنه كان يُسارع بمكافأة مَنْ أحسن العمل، لا سيما إن كان قد قام به

---

(١) وفي واقعنا المعاصر الآن نجد أن الحركات الإسلامية إذا استوعبت هذه الحقيقة في مسيرتها؛ فإنها تحقق نجاحات ملموسة، وتكون جزءًا مهمًّا من موازين القوى، ويبدو اليمن مثالاً جيدًا على هذا، والعكس بالعكس.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٩٦.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٩، ومحمد طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٦، ٣٨٧ (قسم الصحيح).

(٤) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٤٣.



مبادرة وليس تنفيذًا لأمر؛ فمن هذا مثلًا أنه حين حشد أهل الدعوة تمهيدًا لإعلانها، كان أول من أتاه يلبس السواد -وهو شعار الدولة العباسية- هو حية بن عبد الله المرئي، وقد قام بذلك بمبادرة منه، فقال له أبو مسلم: أنت أول مَنْ أتانا في السواد فلك أول صافية نستصفيها[1]، فكان أولَ ما استصفى قصرٌ لنصر بن سيار (والي الأمويين على خراسان) فأعطاه إياه، وعُرِف بعدئذٍ بقصر حية[2].

ومن سياسة أبي مسلم مع أهل الدعوة تعظيم شأن السابقين منهم؛ لا سيما سليمان بن كثير، الذي لم يكن يقطع أمرًا مهمًّا دون الرجوع إليه، وكثيرًا ما كان ينزل عن رأيه لصالح رأي سليمان، وإذا حضرت وفود للمصالحة أو المفاوضة أو غير ذلك لم يبرم معهم أمرًا إلَّا أنَّ يحضر سليمان المجلس، ويكون شاهدًا وفاعلًا؛ وعلى الرغم من أن أبا مسلم هو الأمير على خراسان فإن الذي كان يؤمهم في الصلاة هو سليمان بن كثير، وظلَّت سياسة أبي مسلم تقوم على تقديم وتقدير مقام سليمان بن كثير.

٣- مع الدعوات الأخرى

وكان من سياسة أبي مسلم -أيضًا- ألا يسمح لوجود حركة أخرى في خراسان غير حركة الدعوة العباسية؛ حتى لو اتفقت معها في شعاراتها ودعوتها، ويبدو هذا طبيعيًّا ومفهومًا في هذا الإطار؛ إذ من شأن تعدد الدعوات في خراسان أن يفترق الناس فيتوزعون بين هذه الرايات والشعارات، كما أن كل دعوة لا بد وأنها ستأخذ من رصيد الدعوة الأخرى، ثم ستحاول كل دعوة أن تثبت بأنها الأحق والأولى والأقدر والأصوب، مع ما يستلزم ذلك من معارك فكرية متبادلة، وكل ذلك يمثل خصمًا من المجهود ومن الطاقة المبذولة للاستكثار من الأنصارِ ومواجهة الأمويين؛ بل ربما كان الوضع أكثر خطورة لو أن قائمًا بأمر دعوة ما كان علويًّا؛ إذ سيخرج الأمر حينئذٍ من أيدي العباسيين إلى أيدي العلويين. لكلِّ هذه الأمور وغيرها مما يمكن أن يُؤَثِّر على مسار الدعوة كان من سياسة أبي مسلم ألا يسمح بحدوث شيء من ذلك.

وقد تبدت هذه السياسة كأوضح ما يكون في حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن

---

(١) أي أول مغنم كبير.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٧٥.

جعفر بن أبي طالب، (الذي تُنسب إليه طائفة الجناحية[١])، وكان عبد الله قد ثار في الكوفة ثم انهزم ثم استولى على فارس ثم انهزم إلى خراسان، وتورد المصادر أنه حظي بمساندة عباسية قوية قادها أبو جعفر المنصور أخو الإمام إبراهيم زعيم الدعوة العباسية[٢] وعبد الله بن علي عم الإمام[٣]؛ لكنَّه حين فشلت حركته وانهزم إلى خراسان -ثم حاول منها أن يعيد إحياء دعوته- اعتقله أبو مسلم الخراساني، وقيل: قتله. وقيل: بل مات في سجنه[٤].

وقد يكون من هدف العباسيين في تأييده إتعاب الجيش الأموي، وإشغاله بالحروب في العراق وفارس؛ ليترك المجال للعباسيين بتجميع قواهم، وضبط حركتهم في خراسان، ثم إن العباسيين شجعوا عبد الله بن معاوية ليروا بصورة عملية إمكانات التأييد والنجاح والفشل لثورة تشبه ثورتهم المرتقبة[٥].

وفي الوقت الذي حارب فيه أبو مسلم وجود دعوات أخرى في خراسان كان حريصًا على احتواء كل حركة دعوية أو إصلاحية، وإدخالها في سياق الدعوة العباسية، وبهذا استفاد من القوى الضاربة للساخطين والثائرين بتوحيدهم، ثم تجنب التفرق والتمزق الذي توجده الزعامات غير القابلة للانضواء تحت راية الدعوة العباسية[٦].

ولقد نجح أبو مسلم نجاحًا كبيرًا، وأفضت سياسته وإدارته ومواهبه الشخصية إلى إقبال الناس على الدعوة؛ حتى ليبالغ الدينوري فيذكر أنه قد «أجاب جميع أرض خراسان، سهلها وجبلها، وأقصاها وأدناها، وبلغ في ذلك ما لم يبلغه أصحابه من قبله، واستتب له الأمر على محبته»[٧]؛ حتى كان يقال: ظهر رجل من بني هاشم له حلم ووقار وسكينة[٨].

---

(١) سميت «الجناحية» لانتسابها إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو الصحابي الملقب بذي الجناحين لبشارة النبي بعدما استشهد في غزوة مؤتة. إلَّا أنَّ الجناحية فرقة غالية من فرق الشيعة ترى في الأنبياء والأئمة آلهة، ويكفرون بالبعث والحساب. انظر أفكار الجناحية في: الإسفراييني: التبصير في الدين ص١٢٦، وعبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٣٥ وما بعدها، والأشعري: مقالات الإسلاميين ص٦.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: أخبار أصبهان ٢/ ٣، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٣/ ٢١٣، وابن حجر: لسان الميزان ٣/ ٣٦٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١١٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٧.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٣/ ٢١٣، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٥، والذهبي: تاريخ الإسلام ٨/ ٢٧، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٧/ ٣٣٧، وابن حجر: لسان الميزان ٣/ ٣٦٤.

(٥) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٩٢.

(٦) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٥٤، ٥٥.

(٧) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٤٣.

(٨) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١١.

الوصية الغريبة

أورد الطبري أن الإمام إبراهيم أوصى أبا مسلم الخراساني لدى ذهابه إلى خراسان بهذه الوصية: «يا عبد الرحمن إنك رجل منَّا أهل البيت؛ فاحتفظ وصيتي، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم، وحلَّ بين أظهرهم؛ فإن الله لا يتم هذا الأمر إلَّا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر؛ فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل مَنْ شككت في أمره، ومَنْ كان في أمره شبهة، ومَنْ وقع في نفسك منه شيء، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانًا عربيًّا فافعل؛ فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ -يعني سليمان بن كثير- ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»(١).

وثمة شكوك تدور حول هذه الرواية:

١- ذكرها الطبري بلا إسناد، وبين مولد الطبري وهذه السنة (١٢٨هـ) ما يقرب من قرن من الزمان، ولا ذكر لهذا النصِّ في المصادر المتقدِّمة الأخرى كالبلاذري وأخبار الدولة العباسية، ولا عبرة بأن المتأخرين ذكروها فإنما هم ناقلون(٢).

٢- كيف يدعو الإمام إبراهيم وهو القرشي الهاشمي الداعي إلى الرضا من آل بيت عربي إلى قتل العرب؟ كيف والعرب كانوا عصبة الدعوة؟ ثم كيف يأمر بقتلهم وقد أوصى في بداية الرواية بتعهد اليمانيين وإلى درجة ما بني ربيعة(٣).

٣- إضافة إلى أن سياسية أبي مسلم الخراساني لم تجرِ على ما جاء في هذه الوصية؛ فإن العباسيين تقرَّبُوا لليمانية والربعية، وقبل أبو مسلم كثيرين من المضريين في صفوف الثورة(٤).

٤- إن لهجة القتل غريبة على دعوة تريد تجميع الناس تحت رايتها، لا سيما قبيل دخولها مرحلة المواجهة مع عدوها؛ فهي مرحلة الاستكثار من الأنصارِ لا صناعة الخصوم.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٠.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٨٨، ومحمد طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٩/ ٧٤٧ (قسم الضعيف والمسكوت عنه).

(٣) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٨٨، ومحمد طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٩/ ٧٤٧ (قسم الضعيف والمسكوت عنه).

(٤) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٥٨، ٥٩، ود. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٨٨.

٥- وردت الرواية في مصادر أخرى مبكرة مثل الأخبار الطوال للدينوري، والحدائق والعيون، ولم يكن فيها النص المصرح بقتل العرب، وإنما بقتل «مَنْ شككت في أمره»، أو بقتل مَنْ تصدى لطلب الإمامة[١]، وهذا شيء يمكن فهمه وقبوله.

٦- ويساهم في إسقاط هذه الرواية ما جاء من وصية الإمام إبراهيم نفسه في التودد للعرب والتقرب منهم، والتي فيها: «أمرني الإمام أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة، ولا أدع نصيبي من صالحي مضر...». وهو قريب مما في رواية الطبري نفسه: «ادْعُ الناس إلينا وانزل في اليمن والطف بمضر».. وقد ذكرناهما من قبل.

٧- وهذه الوصية تتطابق مع الوصية القديمة من محمد بن علي العباسي لأبي عكرمة زياد السراج، والتي كان فيها: «فاحلل في أهل اليمن، وتألَّف ربيعة، وتَوَقَّ مضر، وخذ بنصيبك من ثقاتهم».

مباحثات إعلان الدعوة

خرج أبو مسلم على رأس طائفة من أهل الدعوة إلى الحج (١٢٩هـ)، ولما كان في قرية قومس في طريق الحج وصلته رسالة من الإمام إبراهيم يأمره فيها بإعلان الدعوة هذا العام، وبعث مع الرسالة راية النصر، فعاد أبو مسلم إلى خراسان وأناب عنه في الحج قحطبة بن شبيب؛ ليذهب إلى الإمام بما معه من الأموال ومن أخبار خراسان[٢].

ولا بد هنا من الإشادة بهذه القيادة البعيدة عن مسرح الأحداث في خراسان والعراق - لا سيما في هذا الزمن البعيد؛ حيث لم تكن الأخبار تصل إلا بعد حين- ولكنها مطلعة عليه بدقة يدل عليها اختيار هذا التوقيت لإعلان الثورة:

فإذا نظرنا إلى هذا العام وما وقعت فيه من أحداث سنجد الآتي:

١- الشام: تعيش على قلق مكتوم؛ فهي لم تخلص بعد من آثار ثورة سليمان بن هشام على مروان بن محمد، وما حدث من مقاتل في البيت الأموي وفي القبائل العربية، التي انحازت لكلِّ طرف، وكانت حمص وفلسطين أكثر المدن اضطرابًا.

---

(١) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٨٨.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١، ومحمد طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٦ (قسم الصحيح).

٢- العراق: الخليفة الأموي مروان بن محمد يطارد الخوارج، وقد بلغت المعارك بينهما ذروتها، ورماهم فيها بخيرة قادته وجنوده، كعامر بن ضبارة، وحشد لهم جيش الشام وجيش العراق.

٣- فارس: يسيطر عليها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الثائر على بني أمية.

٤- خراسان: تشتعل بالنزاع بين نصر بن سيار والي الأمويين من جهة، وبين الكرماني والحارث بن سريج من جهة أخرى.

٥- الحجاز: يشتعل بثورة أبي حمزة الخارجي.

٦- اليمن: يحكمه عبد الله بن يحيى الحضرمي الملقب بطالب الحق، وهو من الخوارج.

٧- وأما المغرب والأندلس فعلى ما فيهما من الحروب بين القبائل وبعضها، وبين الأمويين والخوارج فإن أحدًا لم يَعُدْ متفرِّغًا أن ينظر في شأنها؛ وهي البعيدة عن قلب الخلافة.

فلا يكاد يوجد عام في عمرِ بني أمية منذ استقراه لعبد الملك بن مروان كان أكثر اضطرابًا من هذا العام!

وكدليل على وجود القيادة في الحميمة كعنصر فاعل رئيسي؛ نجد بعض الروايات تصرح بأن كل التخطيط كان من لدن الإمام إبراهيم، فيما لم يكن دور أبي مسلم الخراساني إلا التنفيذ والموهبة العسكرية[١].

وكان مجلس النقباء قد عقد اجتماعًا لينظروا في أمر المكان الملائم لإعلان الثورة فيه، وكان محضر الجلسة على هذا النحو كما نقله صاحب أخبار الدولة العباسية:

- قال سليمان بن كثير: انظروا في الموضع الذي تبتدئون بإظهار أمركم فيه.

- فقال أبو النجم وعدة وافقوه على رأيه: نرى أن يكون أول ظهور أمرنا بخوارزم، فإنها بلاد منقطعة عن نصر، فإلى أن يرسل إلينا عسكره يكون قد تسامع بنا إخواننا فيأتونا

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٢، ١٢٣، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ٢٠٤، ود. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٢٣.

ويكثر جمعنا؛ فنقوى على مَنْ يأتينا.

- قال موسى بن كعب ولاهز: مرو الروذ فإنها متوسطة بين مرو وبلخ. وقال مالك بن الهيثم والعلاء بن حريث وطلحة بن زريق: فإن بها خلقًا كثيرًا من إخواننا، وبها السلطان قد وهن أمره، وبمن نقاتله يقوينا عليه ويقوى بنا عليه، ومتى يقو بها أمرنا يقو في غيرها.

- فقال أبو مسلم لسليمان بن كثير: ما تقول يا أبا محمد؟

- قال: ما أرى إلا كما قال، فإن قولنا بها أعظم وعدونا أضعف.

- قال أبو مسلم (متوجهًا بالحديث إلى كامل بن المظفر): ما تقول يا أبا صالح؟

- قال: إذا اجْتُثَّ الأصل فلا بقاء للفرع، إذا ظهرتم بغير مرو تفرغ لكم سلطانكم، وساعده عدوه عليكم.

- فقال أبو مسلم: قلتَ الحق يا أبا صالح والرأي أن نظهر بمرو.

فأطبقوا على ذلك ورضوا به(١).

وبدأت الترتيبات اللازمة لإخبار الأتباع في كل هذه المناطق بموعد إعلان الدعوة، فأمر أبو مسلم النقباء بالاجتماع بأهل دعوتهم، والإرسال إليهم ليكونوا مجتمعين جميعًا في مواضعهم إلى دخول (المحرم عام ١٣٠هـ).

إعلان الدعوة قبل الموعد

لكن المخابرات الأموية رصدت فيما يبدو هذه التحركات؛ حتى وصل إلى علمها ماذا ينوي القوم أن يفعلوا، وأشار أحد المقربين من نصر بن سيار -وهو سلم بن أحوز- عليه أن يُسارع بالخروج إلى القوم وقتالهم؛ قبل أن يتجمعوا في مكان واحد فيستفيد باجتماع جيشه وتفرق جموعهم، وأخذت هذه الفكرة طريقها إلى التنفيذ.

غير أن الخبر تسرَّب إلى الدعوة العباسية، فوصل إلى سليمان بن كثير وكامل بن المظفر، فأشارا على أبي مسلم بضرورة إعلان الدعوة قبل الموعد المحدد لها وإلا فشلت، فسارع أبو

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٧٣ وما بعدها.

مسلم إلى الإرسال لكلِّ أهل الدعوة بالقدوم إلى قرية شنفير؛ حيث المكان الذي اختاروه لإعلان الدعوة؛ وكان مكانًا حصينًا وتابعًا لسليمان بن كثير، فأقبل الناس إليهم، وجاءته الأرسال تباعًا، وكان أول من وصل رجال خزاعة الأقرب منزلًا من هذا المكان، وأقبل أهل الدعوة من كل وجه من نواحي مرو، وتحدَّث الناس باجتماعهم فكثر سوادهم عند أبي مسلم»[1].

هذه اليقظة وهذا التنبه، ثم هذه الجاهزية والسرعة في اتخاذ القرار أنقذت الدعوة من مصير مجهول، والحقيقة أن افتقاد الكثير من الحركات والدعوات والثورات إلى هذيْن العامليْن هو الذي وضع نهايتها، فكم من دعوة فوجئت بأن السلطة تهاجمها وتفاجئها؛ لأنها لم تكن تملك معلومات من داخل أروقة السلطة! ومن ثَمَّ لم تتوقع تصرُّفها، ففوجئت بها فانتهت على حين غِرَّة.

وفوق هذه السرعة والجاهزية، كان اختيار أهل الدعوة للمكان الذي يُعسكرون فيه ذكيًّا أيضًا؛ إذ كان في ديار القبائل اليمانية، التي تمثل عصب الدعوة من جهة حيث يكثرون فيها، وهي من جهة أخرى على توتر مع نصر بن سيار، وبمثل هذا القرار كانت الدعوة في موضع القوة، وكان نصر بن سيار في موضع الأزمة.

والحقيقة أن المطالع لهذه الفترة يكاد يرثى لحال نصر بن سيار، الذي تداعت عليه الهموم، وانفتحت عليه الجبهات، وصارت أكبر من طاقته، حتى ولو كان من رجال الدهر حزمًا ورأيًا وسياسة كما وصفه المؤرِّخون، وقد جاءت الأخبار إلى نصر بأن تجمع أهل الدعوة قد تم بالفعل، وقد فشلت خطَّة اصطيادهم فرادى، جاءته هذه الأخبار وهو منشغل بمحاربة علي بن جديع الكرماني، «فجمع ثقاته؛ فشاورهم فيما بلغه عن أهل الدعوة، فأجمع رأيهم على أن يبعث إلى قرى خزاعة ومَنْ لجأ إليها من أهل الدعوة فيُبَيِّتهم[2] ويأخذ رجالهم ورؤساءهم قبل أن يتفاقم أمرهم.

فقال لهم سلم بن أحوز (صاحب اقتراح إدراكهم قبل أن يتجمعوا): كان هذا الرأي يوم أشرت عليكم أقوى، ولم يفتكم بعد.

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٧٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) يُبَيِّتهم: أي يقتلهم ليلاً، وعلى حين غرة.

فلما اتسقوا على ذلك قال لهم عقيل بن معقل: إن فعلتم ذلك خالفتكم أحياء اليمن، ورأوا أنكم تريدون هضمهم وإذلالهم بدخولكم عليهم في منازلهم، ولا آمن أن يدعوهم ذلك إلى أن يدخلوا فيما دخل فيه القوم، ويُسَوِّدوا كما سَوَّدوا، ولكني أرى أن تناظرهم وتبعث إليهم، فإن سَهَّلوا لكم الإقدام عليهم أقدمتم عليهم، وإن منعوكم عملتم على قدر ذلك، وما أهون شوكة هؤلاء إن كفت عنهم اليمن وربيعة.

فبلغنا[١] أن عاصم بن عمير السمرقندي قال لهم: لا يجيبكم والله ابن الكرماني إلى إسلامهم، والحيلة بينكم وبينهم أبدًا. فانقضى المجلس على ذلك ولم يبرموا فيه رأيًا»[٢].

إن الوضع كان يمثل أزمة بلا شك، لكنَّ انفضاض المجلس دون اتخاذ قرار في هذه المعضلة كان الخطأ الأكبر؛ إذ ساهم هذا في استمرار نصر بن سيار في موضع الضعف وفي موقع ردِّ الفعل، وجعل أبا مسلم في موضع الاطمئنان على وضعه، وانتقاله إلى المبادرة والفعل.

ولم يُضِع العباسيون وقتًا، فسارع أبو مسلم فعسكر مع شيعته في منازل اليمانية، وتتابع الناس إليهم من أهل الدعوة ومن غير أهل الدعوة، فأما الأولون فتداعوا لما كان بينهم من اتفاق على الموعد، وأما الآخرون فتتابعوا حميَّةً وأنفة أن يدخل نصر بن سيار إلى ديارهم محاربًا لَمِنْ نزل بينهم واحتمى بهم، وهكذا اجتمع الناس حتى لم يكن ممكنًا تأجيلُ إعلان الدعوة في موعدها المحدد في عيد الفطر لعام ١٢٩ هـ. وقبل عيد الفطر بخمسة أيام أعلن أبو مسلم أمر الدعوة، ولبس الثياب السوداء شعار الدعوة العباسية هو وأصحابه، وعقد اللواء الذي سموه: «الظل». وذلك -عندهم- لأن الأرض لا تخلو من ظلٍّ أبدًا، وهي كذلك لا تخلو من خليفة عباسي أبد الدهر، ونشر الراية التي سموها: «السحاب». وذلك لأن السحاب يطبق على الأرض مثل دعوة بني العباس[٣]، وتلا قول الله ﷻ: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ [الحج: ٣٩]، وما إن تم الإعلان حتى تكاثر الناس وأقبل أهل الدعوة من كل وجه؛ حتى صاروا قوة كبيرة، وما هو إلَّا أنَّ وصلت رسالة من أبي سلمة الخلال تحمل

---

(١) الكلام على لسان صاحب كتاب أخبار الدولة العباسية.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٧٥.

(٣) إلَّا أنَّ هذا التأويل لم يعلن بهذه الصراحة «العباسية» بطبيعة الحال، ففي هذا الوقت كان المعلن والمعروف أنها دعوة «هاشمية» للرضا من آل البيت ولا يعرف الناس أنها عباسية، وإنما هذا هو مدلول هذه الأسماء لدى أصحاب الدعوة العباسية.



وصية من الإمام بأن يُخَنْدِقوا على أنفسهم حال اجتماعهم؛ فإن هذا خير لهم؛ إذ يساعدهم في انحياز كل خصوم نصر بن سيار إليهم، وأوصاه أن يُؤَجِّل الحرب مع نصر بن سيار أطول فترة ممكنة، إلى نهاية المحرم على الأقل، وألا يُظْهر له العداوة؛ بل أن يترك مساحة من الود معه(١).

ومن موقعه هذا بعث أبو مسلم إلى أهل الدعوة في الحواضر الخراسانية الأخرى بأن يُعلنوا الدعوة، وبألا يدخلوا في قتال إلا إن هُوجِموا، وقد جاءت الأنباء بما يسر من ظهور الدعوة وقوة أهلها في نسا والطالقان ومرو الروذ وآمل وغيرها، إضافة إلى أنه وبمجرَّد ظهور أهل الدعوة انحاز إليها كثير من العبيد الذين كان انضمامهم إلى الدعوة يعني تحررهم من العبودية كما أعلن العباسيون، وصاروا قوة كبيرة، وظلَّ الأمر هكذا في ازدياد حتى بلغوا عشرة آلاف بحلول المحرم عام ١٣٠ هـ(٢).

العباسيون يغيرون خريطة القوى بخراسان

بعدما قَتَل الكرماني الحارث بن سريج وصارت مرو -وهي عاصمة خراسان- في يده، وَجَّه إليه نصر بن سيار ثلاثة جيوش كلها عادت مهزومة، وفي هذا الجيش الأخير جرى القتال بين الفريقين كأشد من سابقيه؛ حتى لقد مات من جيش نصر سبعمائة ومن جيش الكرماني ثلاثمائة، وهنا احتال أبو مسلم في الاستحواذ على الرجال والاستكثار من الأنصار، فلمَّا تأكد أنه لا مدد سيأتي إلى الفريقين المتحاربين وأن كلًا منهما قد أصاب من الآخر ويحتاج النصرة، أَلَّف رسالة على لسان الإمام، وأرسلها مع رسول يمرُّ على مناطق العرب المضرية (أصحاب نصر بن سيار) وفيها: «إني رأيتُ أهل اليمن لا وفاء لهم، ولا خير فيهم؛ فلا تثقن بهم، ولا تطمئن إليهم، فإني أرجو أن يريك الله ما تحب، ولئن بقيت لا أدع لهم شعرًا ولا ظفرًا». ثم يرسل رسولًا آخر إلى مناطق العرب اليمانية (أصحاب الكرماني) وفيها كلام نفس هذه الرسالة، ولكن في شأن المضرية، فصار بذلك هوى الفريقين جميعًا وموضع أملهم(٣). وأقبل أبو مسلم في جيشه ونزل حاجزًا بين الفريقين، ولما رأى الفريقان كثرة عددهم هابوهم(٤).

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٧٥ - ٢٧٧، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٧.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٧٧ - ٢٨١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٧.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٣ وما بعدها، وابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٤.

ولقد استفاد أبو مسلم من هذا الظهور أنه بدا كمن منع حربًا بين فريقين من المسلمين وأطفأ فتنة، إلَّا أنَّ الأهمَّ أنه ومنذ هذه اللحظة ظهر أبو مسلم كقوة علنية في خراسان تُؤَثِّر على مسار الأحداث، وينبغي أن يحسب لها كل حساب.. ومنذ الآن سيغير العباسيون خريطة الصراع في خراسان.

أرسل أبو مسلم إلى الكرماني بالتحالف معه، فأجابه الكرماني إلى هذا التحالف[١]، ولا شك أن خبرًا كهذا نزل على رأس نصر بن سيار كالصاعقة، فأرسل إلى الكرماني يطلب الصلح معه ويتنازل له عن مرو (العاصمة)، وأكثر من ذلك أنه أعلن تنازله عن الحكم كله وتولية مَنْ يختاره الناس من ربيعة (وكان هذا طلب الكرماني قديمًا)، فوافق الكرماني، وخرج إليه في جمع من فرسانه ليكتبوا وثيقة بهذا[٢].

لا نشك في أن نصرًا استعمل كل ما قدر عليه من وسائل وحيل، حتى يقنع الكرماني بهذا الصلح؛ إذ من المثير للشك أن يخرج الكرماني مع مجموعة قليلة إلى نصر بن سيار، على الرغم من العداوة الطويلة والدماء الكثيرة التي سالت، هذا في حين أنه لم يرَ من أبي مسلم شرًّا يجعله يفكر في إنهاء هذا التحالف إلى تحالف مع عدوه اللدود، كيف استطاع نصر إقناع الكرماني بهذا؟ وما الذي دفع الكرماني إلى ترك تحالف أبي مسلم إلى تحالف نصر؟ هذا ما لا نجد إجابة واضحة عنه فيما بين أيدينا من مصادر، ونميل إلى أن نصرًا بذل من المساعي والوسائل والرسائل والرسل والمواثيق المغلظة ما طمأن الكرماني إليه.

إلا أن نصرًا كان يُدَبِّر لشيء آخر؛ إذ ما إن أبصر ثغرة في مجموعة الكرماني حتى وَجَّه إليها حاتم بن الحارث بن سريج الخارجي[٣] في مجموعة من الفرسان، فدار بينهما قتال غير طويل قُتِل فيه الزعيم الكبير جديع بن علي الكرماني[٤].

لعلَّ نصر بن سيار ظنَّ أن إنهاء النزاع مع جديع الكرماني بهذا الأسلوب وبيد غيره يُوفر

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٦٢.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٦٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٥.

(٣) لقد انضم حاتم بن الحارث بن سريج إلى نصر بن سيار بعد أن قتل الكرماني أباه الحارث بن سريج لدى دخولهما مرو، وهكذا تفعل تقلبات السياسة؛ إذ بعدما كان الأب من أشد أعداء نصر بن سيار ومن حلفاء الكرماني، صار الابن حليف نصر بن سيار على الكرماني!!

(٤) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٦٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٥.

فرصة ممتازة لإنهاء الصراع بينهما، والتفرغ لهذا الخطر الجديد أبي مسلم.

لكنَّ علي بن جديع الكرماني ورث زعامة أبيه على قبائل الأزد اليمانية؛ ومن ثَمَّ على أنصار أبيه من اليمانية والربعية وبعض المضرية أيضًا، وورث فوق ذلك ثأر أبيه أيضًا، ولم يَعُدْ من شَكٍّ في أنه سينحاز إلى حلف أبي مسلم الخراساني!

ثم ظهرت في خراسان شخصية أخرى ساهمت في تغيير موازين الصراع المتوتر، وهي شخصية شيبان بن سلمة الحروري؛ كان شيبان من أتباع الضحاك بن قيس من الخوارج، والذي انتهت ثورته بالفشل في العراق، ثم انضمَّ إلى ثورة عبد الله بن معاوية التي فشلت - أيضًا- وهرب إلى خراسان.. ظهر شيبان الحروري فكان أول من اجتذبه إلى فريقه عليٌّ بن جديع الكرماني فَتَقَوَّى مركزه، وبهذا صارت خراسان بين ثلاث جبهات قوية:

١- جبهة علي بن جديع الكرماني في مرو، ومعه شيبان الحروري وأتباعه.

٢- جبهة نصر بن سيار الوالي الأموي في نيسابور.

٣- جبهة أبي مسلم الخراساني وأهل الدعوة العباسية فيما حول مرو[١].

أمَّا جبهة نصر بن سيار فهي واضحة؛ إذ هي الممثلة لبني أمية، كذلك جبهة أبي مسلم الخراساني الذي يمثل الدعوة الهاشمية الجديدة، إلَّا أنَّ بعض الغموض يحيط بجبهة علي بن جديع الكرماني؛ ذلك أن علي بن جديع طامح لزعامة خراسان على الأقل، بينما شيبان الحروري طامع في الخلافة ذاتها، وكان أصحابه يُنادون عليه بأمير المؤمنين كما هو المعروف عن الخوارج، ولا نعرف بالتحديد كيف كان الاتفاق بين علي بن الكرماني وشيبان الحروري؛ غير أن المؤكد أن شيبان كان يحظى بتوقير كبير وهو في حلف علي بن جديع، وكان يُنادي و«يُسَلَّم عليه بالخلافة»[٢]، فهل كان ثمة اتفاق بينهما على أن ينصره هذا في طلب الخلافة، وينصره هذا في طلب خراسان؟ أم كان اتفاقًا مرحليًّا لم يتعرَّض للغايات والأهداف النهائية؟ هذا ما لم نجد شيئًا عنه فيما بين أيدينا من مصادر.. فالله أعلم!

وبالنظر إلى شأن هذه الجبهات وما كان منها من أحداث سنرى وجوه السياسة كأوضح

---

(١) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص١٠٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٢.

ما تكون؛ إذ تفاعلت الأحداث وانقلبت المواقف، وانعكست التحالفات، وكل طرف يخطط لمصلحته وهو يحذر الآخرين.

نصرٌ يستغيث ولا مجيب

ببصيرة السياسي الحاذق أدرك نصر بن سيار أن خطر أبي مسلم هو الخطر الأكبر في بلاده، وأنه من الممكن تجميد وتأجيل كل الخلافات والصراعات إلا هذا الخطر المجهول، فالدعوة الهاشمية الغامضة التي كان يلمحها سرًّا، ولا يستطيع الإمساك بخيوطها قد صارت قوة كبرى، وهي ليست من جنس الحركات التي يمكن التفاهم معها بالأموال أو الولايات؛ بل هي دعوة تطلب أمر الخلافة نفسه، ثم إنه ليس في حالة تسمح له بمحاربتها وحده، وخراسان منقسمة عليه، وجيشه لا يكاد يخرج من نزاع حتى يدخل في آخر، فلا طاقة له بهذه الدعوة الفتية الجديدة، لكلِّ هذا ولغيره بدأ نصر بن سيار منذ تلك اللحظة في إرسال استغاثاته ومناشداته.

فأرسل إلى الخليفة مروان بن محمد قائلًا:

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ

فَإِنَّ النَّارَ بِالعُودين تُذْكَى ... وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الكَلَامُ

فَإِنْ لَمْ تُطْفِئُوهَا تَجْنِ حَرْبًا ... مُشَمِّرَةً يَشِيبُ لَهَا الْغُلَامُ

فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي ... أَأَيْقَاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ

فَإِنْ كَانُوا لِحِينِهِمُ نِيَامًا ... فَقُلْ قُومُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ

فِفِرِّي عَنْ رِحَالِكِ ثُمَّ قُولِي ... عَلَى الإِسْلامِ وَالْعَرَبِ السَّلامُ[(١)]

على أن مروان، في الواقع، لم يكن غافلًا؛ ولكنه كان مشغولًا بقمع ثورات العراق والجزيرة والحجاز واليمن ومصر، التي تكالبت عليه من كل جهة[(٢)]، وقد وصلته هذه الرسالة وهو يخمد ثورة أهل حمص[(٣)]، فردَّ عليه بقوله: «الشاهد يرى ما لا يرى الغائب

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٥، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٢٢١، وابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٥.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص١٠١.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٥٧.

فأحسم الثؤلول[١] قِبَلك»[٢].

فكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، والي الأمويين على العراق، وهو الذي ترجع إليه أمور خراسان، قائلًا:

أَبْلِغْ يَزِيدَ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ ... وَقَدْ تَبَيَّنْتُ أَنْ لَا خَيْرَ فِي الْكَذِبِ
بِأَنْ خُرَاسَانُ أَرْضٌ قَدْ رَأَيْتُ بِهَا ... بَيْضًا لَو أفْرَخَ قَدْ حُدِّثْتَ بِالْعَجَبِ
فِرَاخُ عَامَيْنِ إِلَّا أَنَّهَا كَبُرَتْ ... لَمَّا يَطِرْنَ وَقَدْ سُرْبِلْنَ بِالزَّغَبِ
فَإِنْ يَطِرْنَ وَلَمْ يُحْتَلْ لَهُنَّ بِهَا ... يُلْهِبْنَ نِيرَانَ حَرْبٍ أَيَّمَا لَهَبِ[٣]

فقال يزيد: لا غلبة إلا بكثرة؛ وليس عندي رجل. وكانت العلاقة بين الرجلين سيئة ومضطربة، لذا لم يفكر في إنجاده متعللًا باحتياجه إلى مَنْ لديه من الجنود لمواجهة ثورات الخوارج في العراق[٤].

وأرسل نصر استغاثة أخرى إلى مروان بن محمد:

مَنْ مُبَلِّغٌ عَنِّي الإِمَامَ الَّذِي ... قَامَ بِأَمْرٍ بَيِّنٍ سَاطِعِ
إِنِّي نَذِيرٌ لَكَ مِنْ دَوْلَةٍ ... قَامَ بِهَا ذُو رَحِمٍ قَاطِعِ
وَالثَّوْبُ أَنْ أَنْهَجَ[٥] فِيهِ الْبِلَى ... أَعْيَى عَلَى ذِي الْحِيلَةِ الصَّانِعِ
كُنَّا نُدَارِيهَا، فَقَدْ مُزِّقَتْ ... وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ

ولم يكن مصيرها أفضل من سابقاتها[٦].

وبالموازاة مع هذه الرسائل اجتهد نصر بن سيار ليمنع تحالفًا قد يكون بين الكرماني ومَنْ وراءه من اليمانية وبين أبي مسلم، ثم خاف أكثر من ذلك أن ينضم الربعية إلى هذا الحلف فيكون الأمر قد انتهى تقريبًا وصار بلا قوة، ولئن كانت العداوة مشتعلة بينه وبين الكرماني

(١) الثؤلول: بَثْر صغير صلب مستدير بقدر الحِمَّصة أو أصغر منها يشبه الخراريج يظهر في الجسم.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٤، وابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٥.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٣.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٥.
(٥) أنهج الطَّرِيق: وضح واستبان، وأنهج الثَّوْب: أخلقه وأبلاه.
(٦) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٦٠.

زعيم اليمانية؛ فلقد سارع أولًا إلى محاولة تحييد الربعية، فأنشد يقول:

أَبْلغ ربيعةَ في مَرْوٍ وإخْوَتهم ... فلَيْغضبوا قبل أن لا يَنْفع الغَضَبُ
وَلْينصبوا الحربَ إن القومَ قد نَصَبوا ... حربًا يُحرَّق في حافاتها الحَطب
ما بالُكم تَلقَحون الحربَ بَينكمو ... كأنّ أهل الحِجا عن فِعْلكم غَيَب
وتَتْركون عدوًّا قد أظلَّكمو ... مما تَأشب لا دِينٌ ولا حَسَب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ... ولا صميم الموالي إن هم نسبوا
قِدْمًا يدينون دينًا ما سمعتُ به ... عن الرَّسول ولم تَنزل به الكُتب
فمن يَكن سائلًا عن أصْل دِينهم ... فإنّ دينَهمو أنْ تُقْتل العربُ[1].

ثم كان ما كان من أمر تطوُّر الصراع مع الكرماني، وغدر نصر به، وانحياز ابنه إلى جبهة أبي مسلم.

مواجهة نصر بن سيار للدعوة العباسية

بعد الفشل على المستوى السياسي، مستوى الزعماء، توجَّه نصر بن سيار إلى المستوى الشعبي؛ إذ بعث نصر بن سيار إلى المتفقهين والقُرَّاء والنُسَّاك، ومَنْ كان معارضًا للحروب الداخلية بين نصر والكرماني، وقال: إنكم كرهتم مشاهدتنا في حربنا هذه، وزعمتم أنها فتنة القاتل والمقتول فيها في النار، فلم نردد عليكم رأيكم في ذلك، وهذا حَدَثٌ قد ظهر بحضرتكم: هذه المسودة وهي تدعو إلى غير ملتنا وقد أظهروا غير سنتنا، وليسوا من أهل قبلتنا يعبدون السنانير[2]، ويعبدون الرءوس، علوج وأغتام[3] وعبيد وسُقَّاط[4] العرب والموالي. فَهَلُمُّوا فلنتعاون على إطفاء نائرتهم[5] وقمع ضلالتهم، ولكم أن نعمل بما في كتاب الله وسنة نبيه وسنة العمرين بعده». فأجابوه إلى مظاهرته على حرب أبي مسلم والجد معه في ذلك، وتنفير الناس منه[6].

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٢، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٦١، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٢٢١.
(٢) السنانير: جمع سنور، وهو القط.
(٣) أغتام: جمع غُتْميّ، وهو الرجل الذي لا يفصح شيئًا.
(٤) سُقَّاط: جمع ساقط.
(٥) النائرة: الهوجة أو الفتنة.
(٦) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٩٠.

إنها سيرة المستبدين في كل زمان، ألا يحفلوا بعلماء الدين ولا يلقوا لهم بالًا؛ حتى إذا وقعوا في أزمة سارعوا إليهم: أن أنقذوا الأُمَّة والبلاد، ولكم علينا إن انتهت الفتنة أن نحكم بشرع الله. وعلى الجانب الآخر فلا شك أن في المتفقهين والنساك مَنْ لا يدرك أمور السياسة؛ لا سيما إن صُوِّر له الأمر على أنها فتنة تسيل فيها دماء المسلمين، فهو يسارع إلى إطفاء هذه الفتنة دون أن يعمل جهده في تبين وجه الحقِّ فيها، وقد رأينا في عالمنا المعاصر كيف يستخدم الطغاة المستبدون بعض العلماء في إخماد الثورات الشعبية؛ باعتبارها فتنة تهدد البلاد والعباد، وتسيل فيها الدماء، وكذبوا: فما هدد بلادنا ودمرها وأسال دماء أهلها إلا هم أنفسهم!

كما أنشد نصر بن سيار شعرًا ابتغاء توحد القوم حوله ضد هذه الدعوة؛ ذَكَر فيه أن قصد هؤلاء إهلاك العرب على الجملة:

قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ ... عَنِ الرَّسُولِ وَلَمْ تَنْزِلْ بِهِ الْكُتُب

فَمَنْ يَكُنْ سَائِلًا عَنْ أَصْلِ دِينِهِمُ ... فَإِنَّ دِينَهُمُو أَنْ تُقْتَلَ الْعَرب

أقلقت هذه الدعاية بالتحديد العباسيين، وخشوا من تأثيرها البالغ، ولم ينزل بأبي مسلم غمٌّ كما نزل به في هذا الحين؛ إذ الطعن في العقيدة أنفذ في النفوس من غيره، فسارع أبو مسلم لجمع أهل الرأي من النقباء وطرح الأمر عليهم فاقترح أسلم بن أبي سلام أن يجمع أبو مسلم أهل المعسكر جميعًا، ثم ينادي فيهم أنه يدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإقامة الحق والعدل، وأنه يبايع على ذلك هو وجميع أهل الدعوة، وبهذا تنتهي دعاية نصر بن سيار بأنهم على غير ملة الإسلام، واتفقوا على هذا الرأي، فنادى أبو مسلم بأن يجتمع أهل المعسكر جميعًا صباح الغد لأمر مهم، وبلغ أمر الدعوة نصر بن سيار فبعث جواسيس إلى معسكر العباسيين لاستطلاع الأمر، ولما جاء الصباح نادى أبو مسلم: «يا معشر المسلمين بلغنا أن نصر بن سيار جمع قومًا فخبرهم بأنكم على غير دين الإسلام، وأنكم تستحلون المحارم، ولا تعملون بكتاب الله ولا سنة نبيه ، يريد بذلك ليطفئ نوركم، ويؤلب عليكم الناس، وقد كان الإمام أمرنا وتوالت كتبه إلينا بأن ندعو الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه والعمل بذلك، وإظهار العدل، وإنكار الجور، وأن أبايع الناس على ذلك، وأنا أول من بايع على كتاب الله تعالى وسنة نبي الله والعمل بالحق والعدل ودفع الظلم عن الضعفاء، وأخذ الحق من الأقوياء، خذ بيعتي يا أبا محمد» (سليمان بن كثير). فأخذ بيعته، وقال: عليك عهد الله وميثاقه لتفينَّ بما أعطيت

من نفسك؟ قال: نعم. ثم تتابع أهل الدعوة على البيعة حتى شمل كل من في المعسكر، وقد فوجئ القُرَّاء والنُّسَّاك بهذا؛ فأمسكوا عن الطعن في العباسيين وفي أبي مسلم؛ بل إن منهم من انحاز إليهم، وفشل تدبير نصر بن سيار(١).

ومع هذا الفشل لجأ نصر بن سيار إلى الحوار، فأرسل رجلين من بني ليث ومن باهلة إلى أبي مسلم لسؤاله عن هذه الدعوة، وقد اندهش الرسولان حين عَلِما بأنهم يقيمون الصلاة وقالا: «والله ما كُنَّا نحسبكم تصلون... كان يقال لنا: إنكم لا تصلون وإنكم تعبدون السنانير. فلما رأيناك (أبا مسلم) تصلي ورأينا السنور مهينًا لديكم؛ علمنا أن ما قيل فيكم باطل». وأحضر أبو مسلم كبار الدعوة وعلى رأسهم سليمان بن كثير لمجلس المناظرة، وبَيَّن أنه يدعو لدعوة الحق على كتاب الله وسنة نبيه وعلى المبايعة للرضا من آل محمد، فحاولا معرفة زعيم هذه الدعوة من آل البيت فلم يمكنهما؛ بل قال لهما أبو مسلم: «إن أجبتماني ووثقتما له وأعطيتماني ما نطمئن إليه منكما جمعنا بينكما وبينه، فأما أن ندلكما على صاحبنا وأنتما مقيمان على باطلكما فلا». وأظهر لهما الزهد والتواضع وتجرد من الأحساب والأنساب، وأعلن أن نسبه هو الدين وأن حسبه هو نصرة آل البيت لا غير، وبهذا ارتفع بدعوته فوق العصبيات والقبليات، فعاد الرجلان إلى نصر بن سيار يخبرانه بأن عدوه هذه المرة إنما هو داهية!(٢)

وفي رواية عند الطبري أن العباسيين أسروا جماعة من أتباع الأمويين؛ ومنهم مولى لنصر بن سيار نفسه، فأمر أبو مسلم أن يعالَج مولى نصر من جراحه، ويُحسن إليه، ثم دعاه إليه فقال: إن شئت أن تقيم معنا وتدخل في دعوتنا فقد أرشدك الله، وإن كرهت فارجع إلى مولاك سالمًا، وأعطنا عهد الله ألا تحاربنا وألا تكذب علينا، وأن تقول فينا ما رأيت. فاختار الرجوع إلى مولاه، وقال أبو مسلم: إن هذا سيردُّ عنكم أهل الورع والصلاح؛ فإنا عندهم على غير الإسلام. فلما قَدِم على نصر بن سيار قال نصر: لا مرحبا بك، والله ما ظننت استبقاك القوم إلا ليتخذوك حجة علينا. فقال: فهو والله ما ظننت وقد استحلفوني ألا أكذب عليهم، وأنا أقول: إنهم يصلون الصلوات لمواقيتها بأذان وإقامة، ويتلون الكتاب، ويذكرون الله كثيرًا ويدعون إلى ولاية رسول الله ، وما أحسب أمرهم إلا سيعلو، ولولا أنك مولاي أعتقتني من

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٩٠ – ٢٩٣.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٨١ – ٢٨٣.

الرق ما رجعت إليك، ولأقمت معهم. والحال نفسه تكرَّر مع أسرى لسرية من جيش نصر بن سيار آذت أهل قرية طوسان، فاستغاثوا بأبي مسلم؛ فأرسل إليهم سرية هزمتهم وأسرت منهم، فداوى جرحاهم ثم أفرج عنهم[١].

ثم أرسل إليهم رجلًا آخر واعظًا فصيحًا اسمه حية، وكان ممن استجاب لدعوة العباسيين، ثم انفصل عنهم، ولم تكن هذه المرة مثل السابقة تقصد الفهم والتعرف على هذه الدعوة؛ بل كانت هجومية؛ حتى لقد أوصى نصرٌ حيةَ بأن يسائله عن انحياز العبيد إليه، وهل يرضى هروبهم من مواليهم، وعن تجاوزات وقعت من أصحاب الدعوة في مدن نسا وطالقان وآمل، وعن انحيازه لقبائل اليمانية في اتهام له بالحزبية والعصبية والقبلية؛ التي لا تتفق مع دعوة الإسلام، وقد أفاض حية في عرض هذه العيوب بأسلوب فصيح إلَّا أنَّ أبا مسلم ردَّ عليه بكلام قليل موجز؛ لكنه بليغ كذلك، قال: «أما العبيد فلسنا نُكره أحدًا منهم، فمن أراد مولاه فشأنه، وإن أنفذتم أحكامنا حكمنا بينهم وبين مواليهم بالحق، وأما أهل نسا وطالقان وآمل، فإن الذي كان منهم لم يكن عن رأينا ولا بأمرنا؛ ولكنهم أمة أُرِيد ظلمهم وسفك دمائهم فامتنعوا؛ فلا حجة عليهم... ونعم أمرني الإمام أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة، ولا أدع نصيبي من صالحي مضر»[٢].

وبهذا نفى عن نفسه تهمة العصبية، وذنب تحريض الموالي على الهرب من مواليهم، والمسئولية عما فعل أهل الدعوة من تجاوزات مع التماس العذر لهم وتبرئتهم من الذنب باعتبار أنهم الذين أُريد الاعتداء عليهم ولم يبدءوا بالعداوة.

ولما شاعت هذه الإجابة السديدة بين الناس؛ زاد هذا في إقبال العبيد عليه؛ حتى بلغوا سبعة آلاف، فكان يُكرمهم ويعطي الواحد منهم ثلاثة دراهم يوميًّا، ثم زادت إلى أربعة، وكذلك زاد إقبال اليمانية إمّا رغبة في الدعوة، وإما طلبًا للثأر من نصر بن سيار، وكذلك إقبال الناس من ربيعة، وإقبال العديد من مُضر أيضًا[٣].

وعلى هذا فشل نصر بن سيار في هذا الأسلوب أيضًا!

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٩، ٣١٣.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٨٤، ٢٨٥.
(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٧/ ٣٦٦.

الصفحة الأخيرة من تاريخ خراسان الأموية

بعد هذا الحوار ترك العباسيون خانة ردِّ الفعل والانتظار، وتحركوا نحو المبادرة، فاجتمع النقباء وأهل الدعوة وقرروا أن يُراسلوا الفريقين المتحاربين في خراسان، ويدعوهم إلى دعوتهم، نصر بن سيار من جهة وجديع الكرماني من جهة أخرى، وكان في عرض الدعوة على نصر بن سيار مزيد من التبرؤ من تهمة العصبية والانحياز إلى اليمانية، وفيه -أيضًا- تأليف لقلوب المضرية (قوم نصر) واجتذاب لهم إلى صف الدعوة، فأرسل أبو مسلم أحد نقباء الدعوة -وهو لاهز بن قريظ (المُضريّ)- إلى نصر بن سيار يدعوه إلى الدخول في الدعوة، ويُعلمه بأنه إن فعل فمكانته محفوظة وقدره معلوم، وأنه سيظل الإمام في الصلاة، ومن له الأمر والنهي، حتى على أبي مسلم، لكنَّ نصرًا رفض قائلًا: «بئس وافد العشيرة أنت! يدعوني صاحبك إلى أن يعزلني، ويتقدمني والسلطان في يدي والنعمة عليَّ، لا ولا كرامة... ما أفلح من غررتموه»(١).

والواقع أن نصر بن سيار كان حصيفًا في هذه الرؤية، فمن يملك القوة هو الحاكم الفعلي، الذي لا يرضى معه شريكًا في الحكم، وكما قيل في حكمة العرب: لا يجتمع سيفان في غمد واحد، وستأتي الحوادث بما يؤكد أن من قَبِل هذا العرض لم يحصل على شيء من هذا آخر الأمر.

عاد لاهز بن قريظ وأخبر أبا مسلم بما حدث، بيد أنَّ أبا مسلم -لمزيد من التبرؤ من تهمة العصبية ومن التأليف لقلوب المضريين ومن إقامة الحجة على نصر- أرسل وفدًا آخر، لكنَّ أهل مجلس نصر سبوهم وشتموهم، وقطعوا بذلك آخر فرص الموادعة(٢).

كان الأفضل للعباسيين أن ينزل لهم نصر بن سيار عن خراسان طوعًا، ودون الدخول في حرب، لكنَّ هذا لم يتيسر، فما كان من أبي مسلم إلَّا أن بدأ في مراسلة الطرف الآخر المنتظر وصاحب الثأر، وهو علي بن جديع الكرماني، الذي ورث زعامة أبيه لليمانية، فبعث أبو مسلم أسلم بن أبي سلام البجلي ومعه سليمان بن كثير إلى علي بن الكرماني، فعرضا عليه أمر الدعوة، وأعلماه أن أبا مسلم سيجعله أميرًا على خراسان، وسيكون عونًا له في حربه على

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٨٦، ٢٨٧.

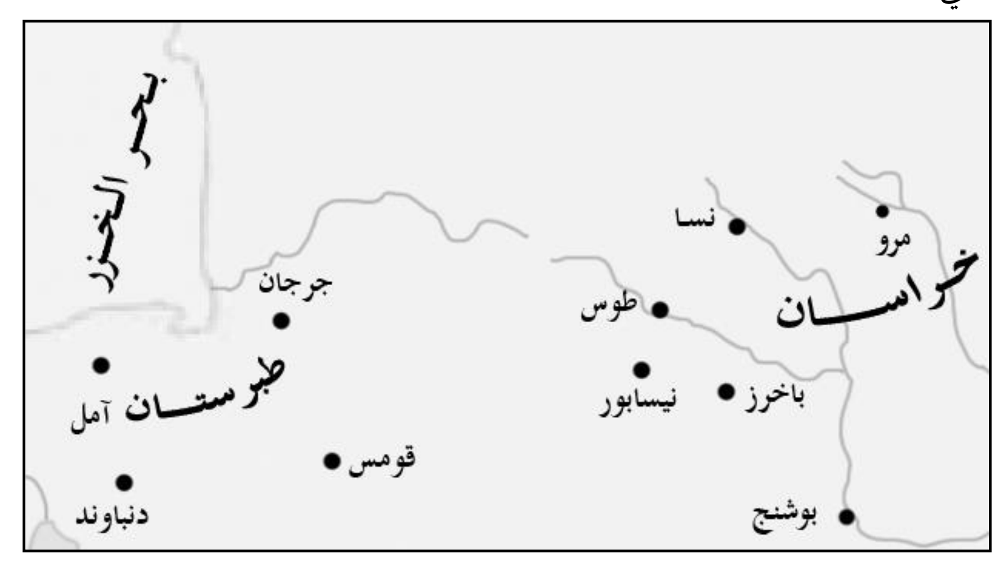
عدوه، وأن هذا كله بأمر الإمام. ثم قال له سليمان بن كثير: «قد سمعت أباك يوم وقع بينه وبين نصر ما وقع من التباعد يقول: لهفي على قائم يقوم من آل محمد، ولو أن راية ترفع، أين دعاة آل محمد، فكان يتمنى ما أتاك الله به عفوًا». وقد نجح الرسولان فلم يخرجا من عنده حتى أجابهما إلى قبول الدعوة، فأخذا بيعته[(١)].

وقد نزل هذا الخبر على رأس نصر كما نزل قبل شهور خبر إجابة الكرماني الأب أبا مسلم، إلَّا أنَّ هذه المرة كانت أقسى؛ فما إن أجاب علي بن الكرماني أبا مسلم حتى تتابع اليمانية يبايعون أبا مسلم على أمر الدعوة وينضمون إليه، فحاول نصرٌ المحاولة السابقة نفسها مرَّة أخرى، فأرسل إلى علي بن الكرماني: «إن الحرب كانت بيننا على الحَمِيَّة، وقد كانت لبعضنا على بعض فيها بقية ترجع إلى ألفة العرب، وقد نجم بين أظهرنا من همته استئصالنا جميعًا، وقد بلغك ما أوقع هؤلاء القوم بنسا وطالقان ومرو الروذ وآمل وزم، وقلة إبقائهم على حرمة العرب، فهَلُمَّ فلتجتمع أيدينا عليهم؛ فإذا حصدناهم عاودنا ما كنا فيه، أو حَكَّمْنَاك فأنفذنا حكمك، ورضينا بذلك». لكنَّ دماء الأب التي لم يمضِ عليها كثير وقت كانت حاضرة في ضمير الابن، فردَّ على رسل نصر ورسالته بقوله: «والله ما وفيت لي قبل اليوم، فكيف أثق بك اليوم، وإنما تدعوني إلى نفسك وفلّ حَدِّي[(٢)] عنك، والله لو قدرت أن أقاتلك بحرشان الأرض[(٣)] فضلًا عن إنسها فعلت، وقد سنح لي من أمر هؤلاء شيء قد رجوت به صلاح أجلي ودرك قتلي قبلك، فاله عما أخذت فيه، فليس لك عندي إلا السيف حتى يحكم الله بيني وبينك وهو خير الحاكمين»[(٤)].

ثم ما لبث أن جاء خبر آخر نزل كالصاعقة على نصر بن سيار، ذلك هو ظهور الدعوة في جرجان، وجرجان إلى الغرب من نيسابور، أي أن نصر بن سيار أصبح محاطًا من الأمام والخلف بدعوة العباسيين، وقد عَبَّر عن هذا بقوله: «كأن الجبال قد وُضِعت في أعناقنا». فسارع بالإرسال إلى الخليفة الأموي، وإلى المضريين من أهل جرجان؛ فسعوا عند واليها بحبس رءوس الدعوة فيها ففعل، ومع هذا الطارئ الجديد أرسل نصر بن سيار مرَّة أخرى

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) فل حدي: أي تجنب مواجهتي.
(٣) حرشان الأرض: أي دود الأرض.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٣، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٨٩.

إلى علي بن جديع الكرماني بطلب الهدنة قائلًا: «إن الأمر قد جَلَّ عن الذي كنا نقتتل عليه، وعاقبة هذا التباين فيها البوار، فإذا أبيت أن تساعدني على حرب هؤلاء المسودة فوادِعْني أَشْهُرًا؛ فقد شَغَلْتَني عن إطفاء جمرتهم، وَضَعِ الحرب بيني وبينك؛ حتى أتفرغ لهم وأحاكمهم، فإن ظفرت بهم فأنت على رأس أمرك، وإن ظفروا بي فأنت أعلم بشأنك بعد، وأيقن أنهم إن ظفروا بي تفرغوا لك». إلَّا أنَّ عليًّا كان مستحضرًا لدرس أبيه فردَّ على نصر بقوله: «لَسْتُ من خِدَعِك في شيء، وقد عاقدت القوم، ولن أرجع عما أعطيتهم من نفسي»[1].



إلا أن تطورًا مهمًّا حدث في المواقف أدى إلى انقسام جبهة علي بن الكرماني؛ يروي الطبري أن مجموعة من طلبة الفقه والعلم ذهبوا إلى أبي مسلم يريدون التعرُّف على هذه الدعوة الهاشمية الجديدة وقائدها، فلمَّا لم يحصلوا على جواب يقنعهم، ولم يعرفوا من هو زعيم الدعوة من آل البيت قالوا: لا نظنك تبقى إلا قليلًا حتى تُقْتَل، وما بينك وبين ذلك إلَّا أن يتفرغ أحد هذين (نصر بن سيار وابن الكرماني). فقال أبو مسلم: بل أنا أقتلهما إن شاء الله. فرجع الفتية بهذا الكلام الخطير إلى نصر بن سيار وإلى شيبان الحروري في جبهة علي بن الكرماني[2].

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٩٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١١.



وهنا حصل الاضطراب في جبهة علي بن جديع الكرماني؛ إذ سارع شيبان الحروري بالإرسال إلى نصر بن سيار: «إنَّا قد أشجى بعضنا بعضا». فالتقط نصر -وهو السياسي البارع- خيط الموادعة الكامنة في الرسالة، وسارع بالدعوة إلى الهدنة وعقد تحالف على حرب أبي مسلم، وأرسل له: «إن شئت فكُفَّ عني حتى أقاتله، وإن شئت فجامعني على حربه حتى أقتله أو أنفيه، ثم نعود إلى أمرنا الذي نحن عليه». وكاد شيبان أن يوافق إلى عقد هذا الصلح لولا أن هذه الأخبار تسربت إلى أبي مسلم؛ فسارع بمراسلة علي بن جديع الكرماني: «إنك موتور قُتِل أبوك، ونحن نعلم أنك لست على رأي شيبان، وإنما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر». وبالفعل استطاع علي بن الكرماني إقناع شيبان أو حتى إجباره على رفض دعوة نصر بالصلح، فأرسل إليه نصر كلمته التي تحمل مرارة الفشل في هذه الفرصة النادرة: «إنك لمغرور وايم الله ليتفاقمن هذا الأمر (أي أمر أبي مسلم) حتى تستصغرني في جنبه»[1].

هذه رواية الطبري، وأما رواية صاحب أخبار الدولة العباسية فهي تقول بأن نصر بن سيار في شدَّة حرصه على تحييد جبهة ابن الكرماني أرسل إلى شيبان الحروري بطلب الهدنة، فرفض شيبان خوفًا من غدرة أخرى كالتي كانت مع الكرماني[2].

إلا أن محاولة نصر تجددت مع تقدم العباسيين؛ إذ استولى العباسيون على مدينة هراة، وخرج الوالي الأموي منها مهزومًا، وهنا أدرك يحيى بن نعيم بن هبيرة[3] (من زعماء جبهة ابن الكرماني وشيبان، ويتبعه خمسة وعشرون ألف رجل) أن أمر أبي مسلم أخطر من الحرب مع نصر بن سيار، وأن أمر أبي مسلم إذ ينتصر فلن يدع أي قوة إلى جانبه، فدعا إلى الهدنة والمصالحة مع نصر على حرب أبي مسلم قائلًا: «اختاروا إما أن تهلكوا أنتم قبل مضر أو مضر قبلكم. قالوا: وكيف ذاك؟ قال: إن هذا الرجل إنما ظهر أمره منذ شهر، وقد صار في عسكره مثل عسكركم. قالوا: فما الرأي؟ قال: صالحوا نصرًا؛ فإنكم إن صالحتموه قاتلوا نصرًا وتركوكم؛ لأن الأمر في مضر، وإن لم تصالحوا نصرًا صالحوه وقاتلوكم، ثم عادوا عليكم. قالوا: فما الرأي؟ قال: قدموهم قبلكم ولو ساعة؛ فتقر أعينكم بقتلهم»[4].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٢.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٩٤.

(٣) في رواية صاحب أخبار الدولة العباسية أنه علي بن معقل وليس يحيى بن نعيم.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٢.

وهذا تحالف المضطر ذي الكراهية البليغة، فهو تحالف لدفع الضرر، واستباق لتحالف محتمل بين نصر وأبي مسلم عليهم، فإن لم يتم دفع الضرر فإن دفع جبهة نصر بن سيار إلى حربٍ يكونون قتلاها هو أفضل المتاح، وهو -مع هذا- تحالفٌ يأمل في إضعاف كلتا القوتين.

وبالفعل أرسل شيبان إلى نصر بن سيار مرَّة أخرى بالمصالحة، فسارع نصر بالإجابة إلى هذا الطلب، واستشار علي بن الكرماني أبا مسلم الخراساني في هذا الموقف، فأخبره أبو مسلم بأن لا مانع لديه من الصلح ولكنه ينصح عليًّا بأن يشترط تفكيك المعسكرات، فلا يبقى نصر في جيشه في حين تتفرق جيوشهم هم، وقد استطاع عليٌّ أن يجعل هذا الشرط في الصلح الذي كُتب بين نصر بن سيار وشيبان الحروري، ووافق نصر بن سيار وأرسل مَنْ يكتب العهود والمواثيق على الموادعة لسنة(١).

عجيب ذكاء أبي مسلم الخراساني!! إن هذا الشرط الذي نصح به ابن الكرماني كان عبقريًّا، فهو شرط يتفهمه ويقبله شيبان الحروري؛ لأنه يُؤَمِّنه من غدرةٍ لنصر بن سيار، كالتي كانت مع ابن الكرماني، كما أنه شرط يساعد في تفكيك المعسكرين، ولا يبقى على الأرض إلا معسكر العباسيين وقوتهم المجتمعة وحدها، وهو شرط لا يستطيع نصر أن يرفضه؛ وإلا ثارت الشكوك حول نياته، كما أن الهدنة في هذه اللحظة تساعد الناس في الانحياز إلى معسكر العباسيين في أمان ودون خوف من الجيوش المترقبة! وفي النهاية هو شرط يزيدُ في ارتفاع أسهم أبي مسلم بأنه داعية مسالم لا داعية حرب أو فتنة.. لقد كان أبو مسلم رجل المرحلة!

وهكذا حدث الانقسام في هذه الجبهة بين علي بن الكرماني وشيبان الحروري، وعَاوَد عليٌّ قتالَ نصر بن سيار، ورفض شيبان أن يعينه(٢).

ولقد كان التحالف بين نصر وشيبان كما هو المتوقع تحالفًا هشًّا؛ فلما أراد نصر بن سيار من شيبان مقاتلة قوم من أهل الدعوة ظهروا في بعض المدن التي في جواره، ولكن لم يأمن شيبان إن هو أخرج فريقًا من جيشه لمقاتلتهم أن يغدر به نصر بن سيار، وهو في قلة من جنوده فلم يفعل. وقال بعض مستشاريه: ولماذا لا يبعث إليهم نصر من يقاتله من جيشه؟

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٩٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٢.

كذلك حين اتفق نصر وشيبان على حرب أبي مسلم الخراساني استطاع علي بن الكرماني بقليل من المجهود أن يُثَبِّط شيبان الحروري عن حرب أبي مسلم؛ بتخويفه من غدرات نصر بن سيار حين يسير إليه في حرب أبي مسلم، فيكون في وضع غير آمن على أرض نصر وبين قومه، وافتعل رسائل كأنها من نصر بن سيار إلى أصحاب شيبان أن يغدروا به؛ فأحجم شيبان عن الاشتراك في هذه الحرب، ففشل تدبير نصر بن سيار، وخسر أول مواجهة مع أبي مسلم قبل أن تبدأ(١).

كان نصر بن سيار سياسيًّا عنيدًا حقًّا، لم يكفّ عن المحاولة لمرَّة أخرى مع شيبان الحروري، وهذه المرة بدا كما لو كان يريد طمأنة شيبان دون الدخول في حرب حقيقية، فأراد أن يُثبت له أن أبا مسلم الخراساني لا مبدأ له ولا صاحب، بل يتحالف مع كل الأطراف، فأرسل إليه: «إن هذا الرجل غير شأنك، فساعدني على كشف أمره، فإنه يقدم ويؤخر ويبعث إليَّ بالموافقة ويبعث إليك بمثل ذلك». لذا أراد أن يُوَحِّد الجبهة ضده فاتفق مع شيبان على أن يرسلا إلى أبي مسلم: «إنا قد اتهمناك وأنكرنا أمرك ودعوتك، ورأينا قلة إبقائكم على الحرمة، فإن كنت تحب أن نكفَّ عنك ففرق جمعك، واخرج عن بلادنا». وما إن وصلت الرسالة حتى بعث أبو مسلم إلى ابن الكرماني يستوضح موقفه من هذا التحالف الجديد، ويُذَكِّره بالعهود السابقة قائلًا: «إنك قد أعطيتني من نفسك ما تعلم، وقد أُمِرْنا بالجهاد، وأنت وقومك أنصار الحق قديمًا، فأنتم آويتم رسول الله ونصرتموه، وقد أمرني صاحبي بأن أستظهر بكم، وأُلقي أمره إليكم، وقد نصب لي نصر، فإن أجبتني وعاقدتني على القيام بحق رسول الله ، أَمَّرْتُك أميرًا عليَّ وعلى من أجابني، وأطعتُ أمرك، وقتلتُ عدوك، وصار لك سناء هذا الأمر وشرفه»(٢).

وهنا لم يكتفِ أبو مسلم فقط بإرجاع التحالف ولا التأكيد عليه، بل لَوَّح لعليٍّ بمنصب الإمارة على خراسان، والتحالف الدائم بينهما، وفوق كل ذلك الخلود في التاريخ حين يقال: إنه زعيم هذه الدعوة والقائم بها!

ويبدو أن الرسالة بلغت من نفس علي بن الكرماني فأجابه: «إني ما صالحت نصرًا وإنما صالحه شيبان، وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله»(٣). وفي رواية: «قد أجبتك حيث

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٢٩٧ - ٢٩٩.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٠١، ٣٠٢.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٢.

عرضت عليَّ أمرك، وهذي يدي عن نفسي وقومي جميعًا، وأنا مرسل إليك أخي ووجوه أصحابي، وكاشف لك عن أمري في ذلك، ولا بُدَّ لنا من الترفق بشيبان؛ حتى يجتمع لنا أمرنا ما نريد منه»(١).

وقبل أن يصل جواب علي بن الكرماني، كان أبو مسلم يخطط على المستوى الآخر؛ إذ أرسل لاهز بن قريظ (أحد النقباء) إلى نصر بن سيار برسالة: «قل لنصر: إن صاحبي أمرني بالانضمام إليك، وتأميرك على نفسي إن قمتَ بأمر دعوته وخلعتَ مروان، وأنا لك ناصح، فبادر هذا الأمر قبل أن تُسْبَق إليه». لكنَّ نصرًا ذا العقلية السياسية الواعية طالب بضمانات؛ وقال للاهز: إن أريتني مصداق قولك قبلت، وما مثلي اختدعتموه عن نفسه، فانصرف إلى أبي مسلم فَخَبَّره بذلك»(٢).

وبطبيعة الحال لم يكن لدى أبي مسلم ضمانات ليقدمها إلا الوعود، فأرسل إلى نصر بن سيار يقول: «إني لست أعدل بك أحدًا إن أجبتني؛ فأنت الأمير وأنا عونك على من خالفك». فأعاد نصر الجواب نفسه بطلب الضمانات، بل سار أبعد من ذلك فكانت له شروط وطلبات؛ فقال للرسل: «قد أجبتك إن صححت مقالتك، إن كنت تفي بقولك فانضم إليَّ، وفرق جماعتك، وأنت في ذمتي، لا يُوصل إليك حتى يُوصل إليَّ، وإن أبيت إلا مضيًّا على ما يبلغني عنك من مقاربة علي (بن الكرماني) وقومه استعنت الله عليك، وتفرغت لحربك، فلا تغتر بهذه اليمانية؛ فإني لو قد أقبلت عليك بجدي وحدي قصمتك وتركتك كأمس الذاهب». إلَّا أنَّ مستشاري نصر بن سيار انزعجوا لهذه الإجابة الشديدة التهديدية، وحذروا نصرًا من أن مثل هذا الجواب وهو في حالة الضعف وأبو مسلم في حالة القوة له عواقب وخيمة؛ أولها أن تجعل أبا مسلم يتحالف مع علي بن الكرماني، ثم إن الأمر لا يستدعي هذا التهديد ما دام لم يبدر من أبي مسلم العداوة، فأرسل نصر بن سيار رسالة أخرى تغلب عليها لهجة المودة والنصح، قال: «إني عليك شفيق، وقد هجم عليك الشتاء(٣) على رقَّة مَنْ معك وسوء حالهم، فانضمَّ إلينا

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٠٢.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٠١، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٠.
(٣) كان العرب لا يقاتلون في الشتاء، بينما كان من سياسة أبي مسلم الخراساني أن يقاتل في الشتاء معتمدًا في ذلك على جنده الخراسانية ممن نشأوا في هذه البيئات واعتادوا القتال فيها، على العكس من العرب، وكانت هذه أحد العوامل التي نجح بها أبو مسلم الخراساني في إدارة الصراع الحربي في خراسان. صالح سليمان الوشمي: أبو مسلم الخراساني ص١٥٩.

بطاعتك نواسك ونتحنن عليك، فإن جنود أمير المؤمنين قد أقبلت إلينا، فيوشك من اجتمع إليك أن يتفرَّق عنك، ومن وعدك نصره أن يخذلك والسلام». فلما وصلت الرسائل لأبي مسلم كتب ردَّه القوي القاطع المُهَدِّد على نصر: «قد فهمت كتابك، وبلغتني رسالتك، ولست بوادٍّ(١) ولا نصيح(٢)، وما استشرناك ولا شكونا خلَّتنا إليك، فأمَّا ما ذكرتَ من رقَّتنا وسوء حالنا فقد صدقتَ؛ وذاك يدعونا إلى مزاحمتك على ما في يدك والسلام». فلمَّا قرأ نصر الكتاب تعاظمه وقطب ما بين عينيه، وتغير لونه، وكرَّر قراءة الكتاب ثم قال: هذا جواب أحسب أن يتلوه ما هو أشد منه(٣).

ولما وصل خطاب التحالف من علي بن الكرماني، انتهت محاولات أبي مسلم لكسب نصر بن سيار، وأرسل له رسالة أخرى تهديدية -أيضًا- بدأ فيها بنفسه -للمرة الأولى- وقال: «إن الله تباركت أسماؤه عَيَّر أقوامًا فلا تكن منهم، فقال ﷻ: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا**﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣]». فاغتمَّ لذلك نصر بن سيار وحاول ملاطفة أبي مسلم وتهديده من طرف خفي برسالة؛ قال له فيها: «أما إنك لو قبلتَ نصحي لك لكان خيرًا، وليس يمنعني من ذلك ما أرى من ميلك إلى غيري، وأَيْقِن أن أسلم بن صبيح كاتبك يُفشي عليك سرَّك، ولا يكتم عنك، وقد كان في شيء من عملنا، وظهرنا منه على الغدر وإفشاء السرِّ فتجنبناه لذلك». فردَّ عليه أبو مسلم بردٍّ قوي آخر: «سِرُّنا مصون عمَّن لا نثق به، وما يعلم أسلم من سرِّنَا شيئًا نكره معرفتك ومعرفة غيرك به»(٤).

وبهذا خسر نصر بن سيار أبا مسلم بعد علي بن الكرماني، ولم يبقَ له إلا التحالف مع شيبان الحروري.

وإذا نظرنا إلى الأمور من زاوية شيبان سنجد أمورًا قد طرأت على موقفه؛ فانسحب

(١) الوادّ: المحبُّ.
(٢) نصيح: نصح لفلان الود ونصح له المشورة: أرشده إلى ما فيه صلاحه.
(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٠٢، ٣٠٣.
(٤) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٠٣، ٣٠٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٨، ومجهول: العيون والحدائق ٣/ ١٨٨.

لأجلها من هذا الصراع، منها:

١- انفضاض كثير من أتباعه عنه ودخولهم في دعوة أبي مسلم وجبهة علي بن الكرماني؛ ذلك أن طرف أبي مسلم هو الطرف الوحيد الذي يتمتَّع حتى الآن بطهارة الثوب والسمعة الحسنة؛ فجديع الكرماني قتل الحارث بن سريج من قبل، ثم إن نصر بن سيار قتل جديع الكرماني بخديعة، كما أن أمر الأمويين مضطرب ومتشتت في الشام يقتل بعضهم بعضًا، وكذلك انحاز ابنا جديع الكرماني إلى أبي مسلم[١].

٢- شيبان نفسه -وهو الوافد الغريب عن خراسان- ما كان بإمكانه أن يثق في نصر بن سيار ثقة تامة، فنصرٌ هو الوالي الأموي المخلص لهم، وشيبان ذو تاريخ تمردي ومتواصل[٢].

٣- وفي الوقت ذاته كان علي بن الكرماني حريصًا على ودِّ شيبان -كما في رسالته إلى أبي مسلم- فاجتمع به، وبكلِّ لهجة الودِّ والنصح شرح له الوضع المتردي الذي هو فيه، وأعطاه سلطة في سرخس وسمح له بأخذ الضرائب في المنطقة ما بين نيسابور وهراة، قال: «قد شغل الله نصرًا عنا وعنك بهؤلاء القوم، وهذه الكُوَر (القرى) التي في يديك، فيما بينك وبين نيسابور وهراة وبوشنج ولست آمنًا باشتغالك بالمقام هاهنا أن تضعف أعوانك فيها، فقد أرى أن تسير إلى سرخس وتوجه عمالك وتجبي خراجك وتقوي بذلك أهل طاعتك، فإذا قويت واستجمع لك ما تريد نهضت فيما تطلب من الحق، وقد رأيت أكثر من معك قد تسللوا عنك لهذا الشأن».

وأمام هذا الوضع وهذه الإغراءات لم يملك شيبان إلَّا أن يطلب السلامة والموادعة؛ فقال: «قد لعمري كان ذاك منهم، والرأي ما رأيت، وأنا شاخص عنكم في أيامي هذه، وقد أجمعت على ذلك من اختلاط أموركم، وخشيت أن أكون مقيمًا على ضلال، فثبطني عن الشخوص علي بن معقل لما جرى بينه وبين نصر، فابعث أنت الآن إلى أبي مسلم لتوكِّد عليه في الكفِّ عنا، وحسن مجاورتنا؛ حتى ينصرم الأمر بينكم وبين نصر، فإذا صحَّ ذلك ناظرناكم فيما فيه صلاح ديننا ودنيانا». وهو ما وافق عليه -بالطبع- أبو مسلم[٣].

(١) مجهول: العيون والحدائق ٣/ ١٨٨.
(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص١٠٦.
(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٠٩، ٣١٠.

وهكذا خرج شيبان الحروري من المشهد الخراساني، مما زاد في قوة أبي مسلم وفي ضعف موقف نصر بن سيار.

واعترف أبو مسلم بعلي بن الكرماني أميرًا على خراسان، وصلى وراءه الصلوات، وتم بهذا كسب ابن الكرماني تمامًا إلى جانب الدعوة العباسية، ولا شك أن علي بن الكرماني كان يعيش في هذه اللحظات نصرًا معنويًّا عاليًا، وهو يظن أن الأيام قد أتت له أخيرًا بما عجز عنه والده من الزعامة على خراسان، بل بما هو أكثر من ذلك: بدخول التاريخ، إذ هو الأمير على أهل دعوة هاشمية يلوح في الأفق أنها على وشك الانتصار؛ بعد هذا الحال المتضعضع الذي تعيشه الدولة الأموية.

نداءات ما قبل السقوط

ما كان أصعب الحال على نصر بن سيار، الرجل السياسي الداهية الذي فتحت عليه الجبهات دفعة واحدة، ونزلت به المصائب التي تدع الحليم حيرانًا؛ حتى كأن لسان حاله يقول:

وَلَـوْ كَـانَ سَـهْمًا وَاحِـدًا لاحْتَمَلْتُـهُ   وَلَكِنَّهُ سَـهْمٌ وَثَـانٍ وَثَالِـثُ

وانفتحت مرو أمام الدعاة العباسيين، فهي تقع في نفوذ هذه الجبهة التي يتزعمها ابن الكرماني، وأَمَّر عليها أبو مسلم رجلًا من أهل الدعوة هو شبل بن طهمان، وصار الدعاة يحدثون الناس ويظهرون دعوتهم، ويبينون لهم ما هم عليه من اتباع السنة والعمل بالحق، ويبغضونهم في الأمويين، وصار الناس يستجيبون ويتوافدون على أبي مسلم، وضعف حال والي نصر بن سيار على مروان، وازداد نصر نفسه همًّا على همٍّ[1].

وكانت رسائل نصر إلى والي العراق وإلى الخليفة في هذه الأثناء مزيجًا من الغضب والحزن والتحذير والدهشة؛ حتى إنه تجاوز -متعمدًا ومصرحًا- أدب الخطاب الرسمي بين الوالي والخليفة، ولكن لم يعبأ بهذا لأن الأمر جلل.

أرسل إلى والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يقول:

«قد أُخْرِجت من بيتي إلى مقصورتي فاستغثت بكم، فلما أبطأ غياثكم وتأخرت مادتكم أخرجت من مقصورتي إلى ساحة داري، وإنكم إن تقاعدتم عني أخرجت من داري كلها،

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣١٠.

وإذا أخرجت منها دخل عليك دارك، ولو دخلت جُحْرًا لدخل عليك فيه حتى يُؤْتَى عليك وعلى غيرك»[1].

وكتب إلى الخليفة مروان بن محمد يقول:

«كتبت إلى أمير المؤمنين ولم يبقَ مني شيء أستعين به على عدو أمير المؤمنين؛ لا في رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي، ولو كنت أمددتني بألف فارسٍ من أهل الشام لاكتفيت بهم، ولقطعت دابر القوم الظالمين. إني حين كتبت إلى أمير المؤمنين قد أُخْرِجت من جميع سلطاني، فأنا واقف على باب داري، وإن لم تأتني مواد أمير المؤمنين ووَكَلَنَا إلى ابن هبيرة طُرِدْت عن باب داري، ثم لا رجوع إليها إلى ملتقى الحشر، فلا يكون مثل أمير المؤمنين ومثل ابن هبيرة كما قال الأول:

ولو أني أطيعـــــك في أمور ... تناجيني إذن لقرعت سني»[2].

إلا أن النجدات لا تصل، فكتب للخليفة مرة أخرى:

«أما بعد؛ فإني ومن معي من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو على مجمع الطريق، ومحجة الناس العظمى من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق، في حائط قد خندقت فيه على نفسي ومن معي، وعن يميني وشمالي قرى بني تميم وسائر أحياء مضر ليس يشوبهم غيرهم إلا قرى على حدهم خاملة الذكر فيها خزاعة، وفيها حلَّ طاغيتهم أبو مسلم، فنحن حين كتبت إلى أمير المؤمنين في أمر هائل يتكفأ بنا تكفؤ السفينة عند هبوب العواصف، ونحن من إخواننا اليمانية وأغتامهم[3] ورعاعهم، فيما نتوقع من سفههم ولما قد شملهم من ورائهم الخبيث، على مثل لجة البحر، وأنا معتصم بطاعة أمير المؤمنين ومن معي على مثل ذلك لا نؤثر عليها شيئًا، وقد أملنا غياث أمير المؤمنين ومواده وورود خيله وفرسانه ليقمع الله بهم كل مصر على غشه وساع في خلافه، فلا يكونن مثلنا يا أمير المؤمنين قول الأول:

لا أَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الْيَوْمِ تَنْدُبُنِي ... وَفِي حَياتِي مَا زَوَّدْتَني زَادِي

إنه قد بلغ الحزام الطبيين[4]، وكادت القلوب تبلغ الحناجر، فلا يتهمني أمير المؤمنـــين

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣١١.

(٣) جمع غُتْميّ، وهو الرجل الذي لا يفصح شيئًا.

(٤) بلغ الحزام الطّبيين: هو من الأمثال المشهورة والطُّبيان للفرس كالثديين للمرأة، وإذا بلغهما الحزام سقط السرج.

على ما أكتب به وأغلظ له فيه، وإني لكما قال الأول: أحلب حَلبًا لك شطره[١]، ولئن أزالنا عدونا من موضعنا الذي نحن به، إنها زلزلة سرير أمير المؤمنين، فلا يضعن أمير المؤمنين كتابي هذا إليه على الجزع وعلى الجرأة عليه، فإنه لا مخبأ لعطر بعد عروس[٢]، ومثلنا فيما قد أشرفنا عليه كمثل شجرة على ضفة البحر، قد بلي أصلها، فالأمواج تضربها من كل وجه، فما بقاؤها بعد فساد أصلها، وإلحاح الأمواج عليها؟؟!![٣]

وعلى الرغم من كل هذه النداءات فإن شيئًا لم يحدث، والحق أنه لم يكن حال العراق ولا حال الشام بأفضل من حال خراسان، ففي كل منطقة ثورة أخرى تستهلك المجهود والجنود والتفكير؛ فلهذا لم تنفع رسائل نصر بن سيار في أن تفعل شيئًا، ولا شك أن تقدير مروان وتقدير يزيد بن هبيرة أن القضاء على الثورات المشتعلة في قلب الدولة أولى من القضاء على ثورة في أطراف الدولة، فلأجل هذا كان همُّهم الأول ما بين أيديهم من الثورات.

حاول نصر أن يفعل شيئًا، فجمع وجوه أصحابه وأهل الرأي منهم والتجارب، فأجالوا الرأي، فلم يأتِ واحد منهم برأي إلا نقضه الآخر، ولم يجتمعوا على شيء[٤]. وكفى بهذا دليلًا على عمق الأزمة واستفحالها.

ثم قام نصر بن سيار بمحاولة أخيرة، إذ بعدما فشل في التحالف مع ابن الكرماني، ثم مع شيبان، حاول مرة أخرى أن يتقرب إلى أبي مسلم -وأغلب الظن أنه كان تقربًا شكليًّا؛ ريثما تصل الإمدادات من الخليفة- فأرسل إليه بالتحالف معه، لكنَّ الوقت كان قد فات، ففي هذه اللحظة كان أبو مسلم قوة تطلب ودَّها كل الجبهات، فما إن وصلت رسالة نصر بن سيار بطلب التحالف بين أبي مسلم وبين مضر كانت قد وصلت رسائل أخرى من الرَّبْعيين واليمانيين بطلب التحالف، فطلب أبو مسلم أن يأتيه الوفدان: وفد مضر، ووفد اليمانية والربعية، وكان طبيعيًّا ومتوقَّعًا -بالنسبة إلى دعوة تطلب الخلافة- أن ينفض الاجتماع بالتحالف بين أبي مسلم واليمانية، ذلك أنه وكما قال مزيد بن شقيق السلمي وهو أحد

---

(١) أحلب حَلبًا لك شطره: يُضْرب مثلاً للرجل يُعين صاحبه على أمر له فيه نصيب.

(٢) لا مخبأ لعطر بعد عروسٍ: يُضْرب مثلاً للشيء يستعجل عند الحاجة إليه، وأصله أن رجلاً تزوج امرأة فهديت إليه، فوجدها تفلةً، فقال: أين الطيب؟ فقالت: خبأته. فقال: لا مخبأ لعطر بعد عروس.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣١١، ٣١٢.

(٤) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣١١.

المتحدِّثين باسم العباسيين: «مُضَر قتلة آل النبي ، وأعوان بني أمية، وشيعة مروان الجعدي، ودماؤنا في أعناقهم وأموالنا في أيديهم، والتباعات[1] قِبَلهم، ونصر بن سيار عامل مروان على خراسان ينفذ أموره، ويدعو له على منبره، ويسميه أمير المؤمنين، ونحن من ذلك إلى الله برآء أن يكون مروان أمير المؤمنين، وأن يكون نصر على هدى وصواب»[2].

وبهذا فشلت هذه المحاولة الأخيرة!

سقوط مرو (عاصمة خراسان)

كانت مرو منقسمة فعليًّا بين نصر بن سيار من جهة، وأبي مسلم من جهة أخرى، وكان ثمة اتفاق غير معلن بأن المدينة مفتوحة للطرفين؛ يدخلون أسواقها دون أن يتعرَّض لهم أحد، وفي مثل هذه الأوضاع الهشَّة تأتي الشرارة الصغيرة لتصبح بسرعة نارًا كبيرة، وبالفعل جاءت الشرارة من تعارك وقع في السوق بين فتية من بكر بن وائل وبعض المضريين، وبسرعة تطورت الأمور فتدخَّل نصر لمساعدة قومه المضرية، وتدخل ابن الكرماني لمساعدة حلفائه البكريين وتقاتلوا، فأرسل شبل بن طهمان (والي أبي مسلم على مرو) إليه بما حدث، فجهز أبو مسلم جيش العباسيين وانطلق إلى مرو، وبينما هو في الطريق إذ جاءته رسالة من ابن الكرماني يستعجله فيها، ويخبره أن الحرب قد وقعت، فأسرع أبو مسلم في سيره، وعلى بعد فرسخ من المدينة التقى وفد مضر (أصحاب نصر بن سيار) فبايعوا أبا مسلم، وأخبروه أن نصر بن سيار ومَنْ معه ينوون مبايعته أيضًا، فأرسل أبو مسلم من حلفائه من أوقف الحرب الدائرة في مرو، وأَمَّن أصحاب نصر بن سيار الذين عادوا إلى معسكرهم دون أن يمسهم أحد بأذى، بل وعفا أبو مسلم عن أحدهم ممن قتل رجلين من أنصار العباسيين[3].

وبهذا فُتِحَت مرو أمام جيش أبي مسلم، الذي دخلها (٩ من جمادى الآخرة ١٣٠هـ)، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ**﴾ [القصص: ١٥][4].

---

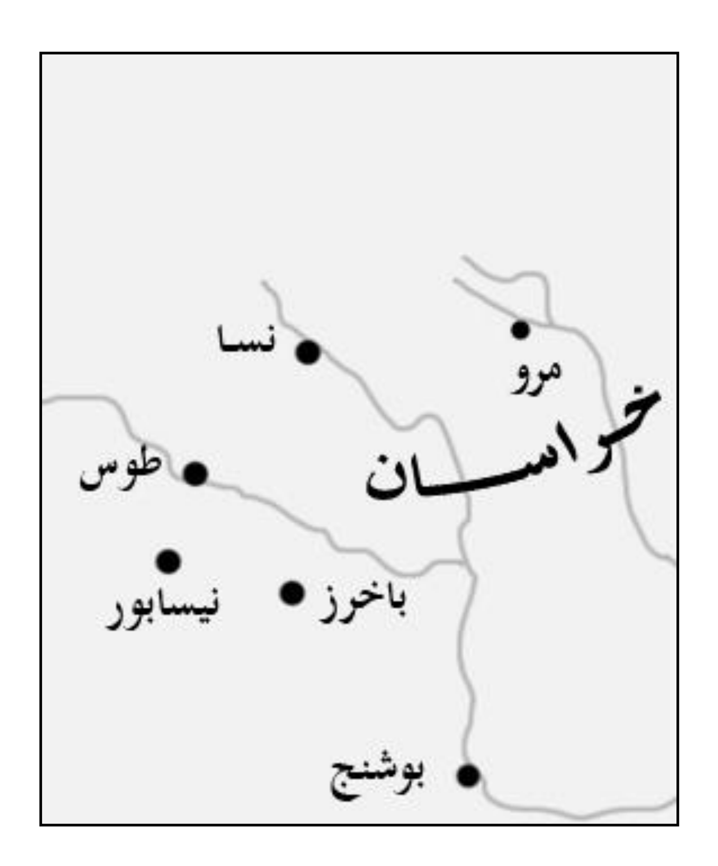
(١) تباعات جمع تباعة: وتباعة الأمر عاقبته وما يَتَرَتَّب عليه من أثر، ويقال: لي قِبَل فلان تباعة: أي ظلامة.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٩.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣١٥، ٣١٦.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٠، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٠.

وسيطر أبو مسلم على دار الإمارة، ونَصَّب علي بن الكرماني أميرًا على خراسان، وأخذ البيعة من أهل مرو، ثم أرسل إلى نصر بن سيار (الذي كان مقيمًا في باب سرخس، وهي قريبة من مرو على طريق العراق) أن يلقاه ويبايعه، فتعلل نصر بأنه لا يأمن من الأعداء ممن اجتمع إلى أبي مسلم، وطلب منه أن يكون اللقاء في أحد قصور الإمارة، فوافق أبو مسلم. ثم لم يأتِ نصر، فعاود أبو مسلم الإرسال إليه فذهب وفد على رأسهم كبير أهل الدعوة سليمان بن كثير إليه، إلَّا أنَّ نصرًا صَرَّح لهم بأنه لا يأمن أبا مسلم نفسه، ولا يلقاه إلا ومعه عدة الحرب، فعاد الوفد إلى أبي مسلم، الذي عاود الإرسال مرة أخرى فأرسل إليه لاهز بن قريظ، ويبدو أن نصرًا علم أنه الإرسال الأخير، وأن أبا مسلم لن يتركه دون أن يبايع، فأرسل نصر مَنْ يأخذ الأمان له من أبي مسلم، ثم تعلل بأنه سيدخل للوضوء لصلاة العصر فإذا صلى خرج معهم، ولكنه غافل الوفد وخرج من الجهة الخلفية في بيته، وانطلق هاربًا إلى نيسابور[١].



(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣١٧، ٣١٨، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٠، ١٣١.

من «الدعوة» إلى «الدولة»

إن سياسة أبي مسلم حتى هذه اللحظة هي سياسة الداعية، فهو حريص على حقن الدماء منذ بدأ ظهوره، راسل الأطراف جميعها بطلب المودَّة والنصح، فلمَّا لم يُجِبْه إلى هذا غير ابن الكرماني تمسَّك بحلفه، وأخلص له حتى اللحظة الأخيرة، حجز بين جيش نصر وجيش الكرماني أول ظهوره، وأوقف القتال الدائر في مرو، وعفا عن قاتل منهم وخَلَّى سبيله، لم يُطلب إليه أن يعطي الأمان فتأخر، بل كان يبذله على الفور، بذله لشيبان حين أراد أن يخرج من المشهد الخراساني؛ على الرغم من عداوته السابقة، وبذله لوفود نصر بن سيار، وبذله لعسكر نصر بن سيار الذين كانوا طرفًا في القتال في مرو، وبذله غير مرة لنصر بن سيار نفسه. أخلص لعلي بن الكرماني فجعله أميرًا على خراسان، وصلى وراءه ولم ينازعه شيئًا.

إن هذه السياسة التي ظهرت منه كانت خير داعية له بين الناس؛ الذين يُقَدِّرون هذه الأخلاق، لا سيما في زمن الانهيار حيث تكثر الحروب والعداوات والعصبيات، بما يقع وسط هذا كله من ظلم وفساد واستهتار بالدماء والأموال والأعراض.. لهذا كان طبيعيًّا أن يكثر الناس حول أبي مسلم طوال كل هذه المراحل، وكان طبيعيًّا أن يزيدَ هذا الالتفاف كأكثر ما يكون لحظة دخوله مرو دخول المنتصر؛ الذي عفا عن أعدائه وبذل لهم الأمان، بل الذي لم يضع نفسه في منصب الإمارة؛ بل تركه لحليفه علي بن الكرماني.

لمثل هذا، وغيره، نتوقع أن أبا مسلم كان في هذه اللحظة بطلًا شعبيًّا في خراسان، فإذا أضفنا إلى هذه الأعمال على الأرض دعاة يزينون للناس كل هذه الأفعال ويجيدون تسويقها ونشرها، ثم حين يُنسب كل هذا إلى دعوة هاشمية، يقودها واحد من آل البيت، ما قامت إلا لرفع الجور وإقامة العدل واتباع الكتاب والسنة، فنحن أمام تيار يجتذب كلَّ مَنْ كان من أنصار آل البيت؛ بل ومعهم كل مَنْ لا يرضى عن حكم الأمويين، وفوق ذلك مَنْ لا همَّ له في السياسة إلا أنه يُريد العدل.

لكن الأمر لم يستمرّ على هذا الحال، بل دخل أصحاب الدعوة في طور الدولة، وأضحت بأيديهم السلطة.

كَلَّف أبو مسلم أحد كبار النقباء -وهو طلحة بن زريق- بأخذ بيعة أخرى من الجنود

بعد دخولهم مرو، ولربما صَلُح أن نسمي هذه «بيعة الدولة»، بعد أن كانوا قد بايعوا «بيعة الدعوة»، ذلك أن أبا منصور بايعهم على ما يمكن أن نلخصه في كلمة «الانضباط» أو «السمع والطاعة»، فأخذ منهم العهد على «كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، والطلاق والعتاق، والمشي إلى بيت الله، وعلى ألا تسألوا رزقًا ولا طمعًا؛ حتى يبدأكم به ولاتكم، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم»(١).

كان أبو منصور طلحة بن زريق من النقباء الاثني عشر، وهو -بحسب الطبري- أول دعاة بني العباس في خراسان؛ بل هو الذي تعرف على سليمان بن كثير وضمه إلى الدعوة، وكان أبو منصور من أصحاب الرأي في أهل الدعوة ومن كبارهم، وكان أبو مسلم الخراساني كثيرًا ما يستشيره الرأي بما له من خبرة، وبما لأبيه -أيضًا- فأبوه ممن حضر ثورة عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف الثقفي، وممن حضر جهاد المهلب بن أبي صفرة للخوارج أيام عبد الملك بن مروان، كان أبو منصور هذا هو صاحب أول نصيحة في حسم الأمور بالسيف والسجن، والأخذ بالشدة، وترك المسامحة واللين، وقال له: «اجعل سوطك السيف وسجنك القبر». فكان أول إجراء «سُلْطَوِيّ» -لو صحَّ التعبير- أن أرسل أبو مسلم إلى قادة نصر بن سيار ونقبائه، وكانوا أربعة وعشرين رجلًا، فاستحضرهم، وضرب أعناقهم، وعَلَّق رءوسهم في المسجد، فلما أصبح الناس ورأوا هذه الرءوس داخلهم من هذا رعب شديد، وازدادوا لأبي مسلم هيبة وتعظيمًا(٢).

وفيما بعد صار مجرَّد الكلام يحتمل الخطر مع أبي مسلم؛ من ذلك أن أحد الزعماء المحليين البعيد عن النزاع، واسمه عرفجة بن الورد، أرسل إلى أبي مسلم بعد ظهوره رسولًا يسأله «مَنْ هو وما أمره؛ فأتاه فقال له: ما اسمك؟ فنظر إِليه شزرًا. ثم قال: عبد الرحمن بن مسلم. فقال: مِنْ مَنْ؟ فنظر إِليه حتى قيل: سيقتله. ثم قال: عِلْمُ خبري خير لك من علم نسبي». فعلم عرفجة أنها بداية دولة لا تدع بجوارها في هذه اللحظات أي معارضة فهاجر إلى البصرة(٣).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢١.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢١، ٣٢٣، وابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٥، ٢٧٦.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٢.

ولم يَطُل الأمر كثيرًا حتى بدأ القتل يشمل كل مَنْ يُعارض أبا مسلم، فهذا محمد بن سليمان بن كثير -ابن شيخ الدعوة في خراسان قبل أبي مسلم- يعرف عنه أبو مسلم بغضه له وكراهيته أن أباه سليمان بن كثير سلَّم الأمر إلى أبي مسلم، فما إن اشتدَّ أمر أبي مسلم حتى قتله، بدعوى أنه منحرف الفكر عن الإمام ومن أتباع خداش(١)، وهو ما نحسب أنه مكذوب عليه، وإنما رتب أبو مسلم من يشهد عليه بهذا ليعاقبه به(٢).

لو لم نكن ننتمي إلى الإسلام وتحكمنا قِيَمُه فلربما تقبلنا ما فعله أبو مسلم، فهؤلاء قوم من الأعداء كانوا في حربهم حتى ساعات قليلة، غير مأمونين ولا موثوق بهم، وهم زعماء في أقوامهم ولهم أتباع وأنصار، ويُخشى لو تُركوا أن يُفسِدوا أمر الدولة وهي لا تزال في بداية أيامها وأحوج ما تكون إلى الاستقرار والتثبيت، وهم قوم أصحاب ثأر، كان لهم مُلك وسلطان ومناصب ومراتب وأموال وقصور ونفوذ، فذهب هذا كله على أيدي العباسيين؛ فلا شك في أن بقاءهم لن يكون بقاء الذي يقنع من الدنيا بما آلت إليه الأمور، أو بقاء الذي سيزهد فيها وينصرف إلى العبادة مثلًا..

لقد كان العباسيون في هذه اللحظة أحوج ما يكونون إلى تثبيت دولتهم، ولو أنها لم تثبت فلا تلبث أن تنتهي بغتة بفعل مؤامرة، أو تحالف خفي، أو انقلاب في المواقف، أو أي شيء.. فكل الاحتمالات مفتوحة في زمان الفتن والتقلبات، وكانوا في سبيل هذه الغاية على استعداد لفعل أي شيء، فإن ثلاثين عامًا من الدعوة والصبر على الأذى والتعذيب والحبس وطلب الغاية قد تضيع هدرًا لو لم يتم إحكام الأمر وتثبيت الدولة في هذه اللحظة!

وقد رأينا في التاريخ كيف يمكن الانقلاب على الدولة الوليدة وإجهاض التجارب الجديدة، وكيف يمكن للثورات أن تقوم ثم تفشل بفعل بقايا الدولة السابقة، فما قامت ثورة إلا وكان تعاملها مع بقايا النظام البائد عاملًا فعالًا في نجاحها أو فشلها.

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٢.

(٢) ذلك أن الرواية تحمل في متنها ما يحمل على الشك فيها، فلو أن محمد بن سليمان بن كثير كان خداشيًّا بالفعل لكان قد ابتعد عن الدعوة وأهلها منذ وصلتهم براءة الإمام منه، إما من تلقاء نفسه لاختلاف أفكاره، وإما قهرًا؛ لأن مثل سليمان بن كثير لم يكن ليرضى بوجود انحراف في صف الدعوة القائم عليها، ولو كان من ابنه، فتلك طبيعة الرجال المؤسسين للحركات الإصلاحية، ويزيد في هذا ما نجده في الأنساب للسمعاني من أن حمزة بن سليمان بن كثير -الأخ الأصغر لمحمد- كان من طبقة السبعين الذين هم الهيئة الثانية في تنظيم خراسان، أي أن أسرة سليمان بن كثير كانت كلها في قلب الدعوة؛ مما يستبعد معه بقاء واحد منها على أفكاره المنحرفة قريبًا من أهلها. انظر: السمعاني: الأنساب ٧/ ٣٤٩.

لو لم نكن مسلمين تحكمنا قِيَم الإسلام ورؤيته للأمور، لتفهمنا وتقبلنا ما فعله أبو مسلم.

إلا أن القتل على الظن حرام، والقتل بعد إعطاء الأمان حرام، وقد أثبت التاريخ أن دين الله أولى بالاتباع، وأن هذا الذي وقع في أول الدولة إنما كان سلسلة لمزيد من الدماء والمظالم؛ التي سالت بغير وجه حق حتى تم تثبيت الدولة، وأن هذه الدماء ما لبثت أن فجرت ثورات أخرى من قوم ذوي ثأر، وممن رأوا أن العباسيين جاوزوا سيرة العدل والحق؛ الذي كان شعارهم يوم انطلقوا بدعوتهم.. ولقد كان في سيرة النبي ﷺ أسوة حسنة في تعامله مع المنافقين في المدينة؛ فلم يأخذ أحدًا منهم بما لم يثبت عليه من تهمة، وفي تعامله مع أهل مكة يوم الفتح، وكذلك في سيرة الراشدين، ولئن كان التاريخ قد أثبت أن ثمة مواقف قليلة قد غدر فيها من عُفي عنه ولم يحفظ الجميل، لكنَّ المكسب كان كبيرًا؛ فلقد ظلت سيرة النبي والراشدين مثالًا تنظر إليه الدنيا، ويتطلع إليه المسلمون والعقلاء في كل جيل وفي كل مكان، ولربما ذهبت دماء غالية نتيجة هذا الغدر، لكنَّ ما بقي كان أغلى وأعظم، بقيت صبغة الإسلام الأخلاقية ومبادئه العالية، التي لم تتأثر ولم تتلوث بغدر أو بدم حرام، بل ولا بدم شبهة.. كيف ونحن نرى النبي ﷺ يلوم أسامة بن زيد؛ لأنه قتل رجلًا قال: لا إله إلا الله. قبل أن يصل السيف إليه؟[(١)] وهي حالة تثبت كل الشواهد والأدلة أنه قالها خوفًا من السيف لا قناعة ولا إيمانًا، لكن ديننا رفض حتى هذه الشبهة، واعتبرها دخولًا في النوايا وشَقًّا عن الصدور.. وما زال النبي ﷺ يعاتبه حتى تمنى أسامة أن لم يسلم إلا يومها.

إن تنفيذ العهود والمواثيق أدعى لأن يكثر الأنصارُ، وينفض الناس عمن أراد الغدر بعد أن عُفِي عنه، لكن خرقها -وإن ضمن أمانًا وقتيًّا- بقتل من يُظَنُّ فيهم الخطر يجعل القلوب أكثر غيظًا وثورة، ويجرد الدعوة الوليدة من وجهها الأخلاقي، ومن ادعائها اتباع النبي .

إن هؤلاء الناس كلهم الآن بين يدي ربهم، ونحن لا نحكم إلا بما انتهى إلينا خبره، وقد

(١) عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله في سرية فصبحنا الحرقات (اسم مكان) من جهينة (اسم قبيلة) فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله. فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ، فقال رسول الله : أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟ قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ. رواه البخاري (٤٠٢١)، ومسلم (٩٦)، وهذا لفظ مسلم.

تكون أخبار أخرى لم تصل إلينا، لو أنها وصلت لتغير حكمنا بالمدح أو بالقدح، فالله أعلم بهم وهو وحده أحكم الحاكمين.. وما نفعل الآن إلَّا أن نقرأ التاريخ لنستفيد ونتعلم!

هكذا انتقل العباسيون من «الدعوة» إلى «الدولة»..

نهاية لاهز بن قريظ

وأما نصر بن سيار فقد خرج من دار الإمارة إلى أطراف مرو، وبدا أنه استسلم للهزيمة التي نزلت به، بل وتورد روايات أنه نصح قومه المضرية بأن ينحازوا إلى أبي مسلم؛ فيكون لهم سهم في هذه الدولة الجديدة وهي ما زالت في أولها، لكنَّ أصحابه اختلفوا فمنهم مَنْ وافقه، ومنهم مَنْ أراد استمرار الحرب، وما هو إلَّا أن جاء وفد من أبي مسلم إلى نصر بن سيار على رأسهم لاهز بن قريظ أحد النقباء الاثني عشر وهو من مضر -أيضًا- مثل نصر، يدعوه إلى أن يأتي معه إلى أبي مسلم، وبينما هو في مجلس نصر بن سيار قرأ آيات من سورة القصص؛ منها: ﴿**إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ [القصص: ٢٠]. ففهم نصر بن سيار المقصود، فنادى على غلامه أن يُعِدَّ له الوضوء، واستأذن منهم كأنه يريد أن يتوضأ، ثم خرج من خلف الدار وانطلق هاربًا(١).

بعض التحليلات تقول: إن لاهز بن قريظ انحاز إلى عصبيته المضرية فنصح نصرًا بهذا. غير أن هذا ما لا نراه صحيحًا، فلو أنه ذو عصبية قبلية لما استمرَّ طوال الفترة السابقة في حرب المضرية، وعلى رأسهم نصر؛ بل الأنسب للأحداث ولما نعرفه عن شخصية لاهز بن قريظ أنه لم يوافق على قتل من أُعْطوا الأمان، وعلى رأسهم نصر بن سيار، وكان موقفه قويًّا إلى الحد الذي لم يجد فيه غير هذه الحيلة لإبلاغ نصر، وهي مجازفة كبيرة أمام من معه ممن لا شك سيوصل الخبر إلى أبي مسلم.

وبالفعل، شكَّ أبو مسلم بفراسته في أن ثمة شيئًا قد أخطأ فيه الوفد فخاف منه نصر، فسألهم: «ما الذي ارتاب به منكم؟ قالوا: لا ندري. قال: فهل تكلم أحد منكم؟ قالوا: لاهز تلا هذه الآية: ﴿**إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ**﴾.

قال: هذا الذي دعاه إلى الهرب.

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٣، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٠، ١٣١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢١، ٣٢٣.



ثم قال: يا لاهز أتدغل[(١)] في الدين؟! فضرب عنقه»[(٢)].

هل كان قتل أبي مسلم لأحد النقباء الكبار القدامى لأجل هذه الحادثة وحدها؟ هل اعتبرها خيانة توجب القتل؟ أم أن ثمة مواقف أخرى كانت للاهز؛ مثل معارضته قتل من أُعطوا الأمان من أصحاب نصر اجتمعت إلى هذا الموقف، فرأى أبو مسلم أن يتخلص منه؛ لكي يقضي على أي معارضة قوية في أهل الدعوة؟

ربما كلاهما، وربما كان أبو مسلم عدَّ هذا الموقف وحده خيانة، فسار على سياسته في استعمال السيف كعقوبة أولى. على أية حال، كان هذا القتل هو الأول من نوعه في صفوف أهل الدعوة، ولا شك أنه نزل بمجلس النقباء منزلًا مفاجئًا وسيئًا، ولم ترد فيما رأيناه من مصادر معارضات ظاهرة لهذا الذي فعله أبو مسلم من جانب باقي النقباء، كما لم نرَ ردَّ فعل أو تعليقًا من قِبل الإمام على هذه الواقعة.

لكن الثابت أنها حادثة فارقة في إقرار سلطة أبي مسلم وتفرده بالأمر والنهي، وإعلان مدى قوته وجرأته على الدماء؛ حتى دماء الكبار في أهل الدعوة، فكانت رسالة واضحة وصارمة وقاسية لكلِّ أهل الدعوة، ولعلي بن الكرماني أيضًا.

نحو الشام

كتب أبو مسلم الخراساني بما كان من فتح مرو إلى الإمام إبراهيم بن محمد في الحميمة، وإلى كبير الدعاة في الكوفة أبي سلمة الخلال، وجاء ردُّ الإمام مخاطبًا أهل الدعوة: «إن الله قد قادكم إلى خير ما قاد إليه أمة من نُصرة آل نبيكم والقيام بحقكم والانتقام بكم من أعوان الظالمين، والفوز بالخير الكثير في الدنيا والآخرة»[(٣)].

وكان الذي حمل الرسالة إلى الإمام ثم منه إلى أبي مسلم أحد أشجع قادة العباسيين وأكثرهم موهبة، وهو قحطبة بن شبيب الطائي؛ الذي كان قد ذهب إلى الحج نائبًا عن أبي مسلم لما جاء الأمر برجوع أبي مسلم وإعلان الدعوة، ولما عاد قحطبة بالرسالة من الإمام كان فيها الأمر بأن يتولَّى قحطبة الجيش الذي ينطلق إلى العراق والشام، فأعلن أبو مسلم

(١) أدغل في الأمر: أدخل فيه ما يخالفه ويفسده.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٣.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢١.

الخبر في الناس: «إن الإمام كتب إليَّ أنه قد ولى قحطبة المسير بالجنود إلى العراق لما رجا من كفايته، وعلى علم منه بأن الله كاسرٌ قرنًا من قرون الشيطان على يده؛ فمن أحب أن ينتدب معه فلينتدب»(١).

ويبدو أن الإمام كان متعمدًا إسناد القيادة في هذه الحرب إلى هذا القائد العربي الطائي، فلم يكن من المعقول أن تُقتَحم معاقل العروبة في العراق والشام ومصر بقيادة أعجمية، وإنما بقيادة عربية خالصة(٢).

فخرج الناس مع قحطبة بن شبيب لقتال بني أمية، وتمهل قحطبة في المسير حتى انتهى الشتاء وصلحت الأرض للمسير، وكان أبو مسلم يمده بالجنود بين الفترة والأخرى(٣).

وقحطبة بن شبيب أحد الدعاة الأوائل مؤسسي الدعوة في خراسان، وكان من النفر الأربعة الذين تعرفوا على أبي مسلم -مع سليمان بن كثير ولاهز بن قريظ ومالك بن الهيثم- فأخذوه من الكوفة ليخدم الإمام في الحميمة، كما تقدَّم، وهو أحد النقباء الاثني عشر الذين أداروا أمر الدعوة في خراسان، ولا تحتوي المصادر التي بأيدينا على معلومات عنه بخلاف هذا؛ إلا أنه سيُثْبِت فيما سيأتي قوة وشجاعة ومهارة عسكرية ستكون أحد أهمِّ الأسباب في سقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، وسَيُظْهِر من أخلاق الدعاة والزهد في الدنيا والإقبال على الموت؛ ما يجعله أحد أبرز القادة في تاريخ العباسيين، ولن يموت قبل أن يكون العباسيون في المعركة قبل الأخيرة من معاركهم الفاصلة مع بني أمية، وحين يقتل ستكون الدولة فعليًّا قد قامت في عاصمتها المرصودة «الكوفة».

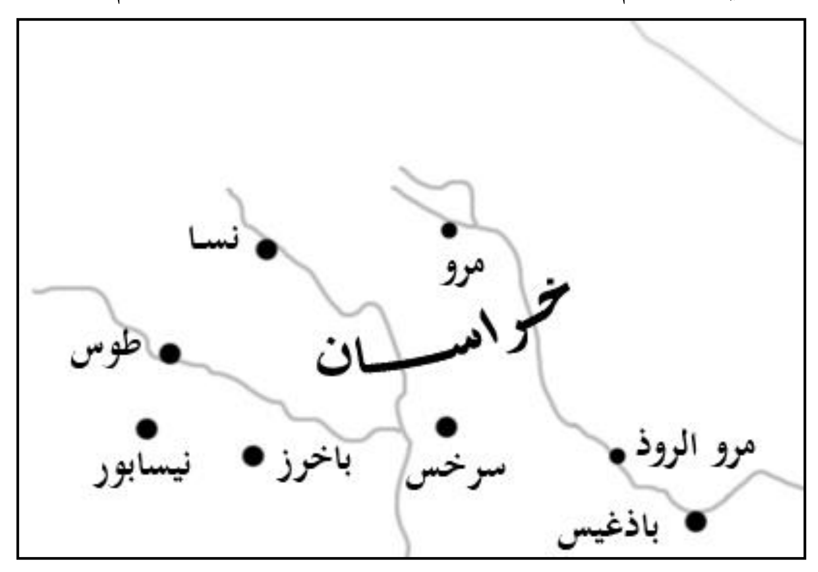
نهاية شيبان الحروري

في سرخس كان قد استقرَّ أمر شيبان الحروري -حليف نصر بن سيار القديم على أبي مسلم- بعد خروجه من مشهد الصراع في خراسان بعد ضعف موقفه وبإغراءات ابن الكرماني بالولاية على هذه المناطق وجمع الضرائب منها.

ولما انقضت مدة العهد والهدنة بين أبي مسلم وشيبان؛ أرسل أبو مسلم إليه يدعوه إلى

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢١.
(٢) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٦٠.
(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢١.

البيعة، كان هذا بالنسبة إلى العباسيين في حكم الضرورة، فسرخس مدينة إلى الجنوب من مرو، وكان طبيعيًّا لقوم يريدون الدولة، فضلًا عن الخلافة، ألا تظل في جوارهم القريب مدينة ليست في سلطانهم فضلًا عن أن يكون متوليها ليس على الولاء لهم.



وكان هذا بالنسبة إلى شيبان في حكم المستحيل؛ إذ إن الخوارج يرون أنهم الأحق بالخلافة لاعتقادهم بأنهم وحدهم على الحق، هذا فضلًا عن أن يبايعوا لخليفة من بني هاشم وهم يعتقدون أن الخلافة لا تنحصر في بيت ولا في أهل بلد، فكيف إذا دُعيَ إلى خليفة مجهول لم يُعرف حتى الآن؟!

فردَّ شيبان: بل أنا أدعوك إلى بيعتي. فأرسل إليه أبو مسلم: إن لم تدخل في أمرنا فارتحل عن منزلك الذي أنت فيه. فأرسل شيبان إلى ابن الكرماني يستنصره فأبى، فحشد شيبان أتباعه في سرخس، وانحاز إليه كثير من قومه من بكر بن وائل بدافع العصبية، فبعث إليه أبو مسلم وفدًا من تسعة من الأزد -والأزد من العرب اليمانية، ولعلَّه أراد بذلك إنهاء كل أمله في التحالف مع ابن الكرماني، وأيضًا ضمانة لئلاَّ يعتدي عليهم باعتبارهم من قوم حليفه القديم- يدعونه إلى الدعوة والمسالمة والكف عن الحشد وإشعال الحرب، لكنَّ شيبان أخذهم فسجنهم(١).

فعند ذلك (١٥ من شعبان عام ١٣٠هـ) أرسل أبو مسلم إلى قحطبة يأمره بأن يفصل

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٤.

كتيبة من جيشه بقيادة بسام بن إبراهيم، ومعه خازم بن خزيمة لتتوجه إلى سرخس؛ حيث يُقيم شيبان الحروري، فانطلقا حتى نزلا في معسكر لجنود شيبان بن سلمة الحروري، لكنه كان قد رحل عنه، ويبدو أن هذه الكتيبة مارست قدرًا من الخداع لشيبان فأعلمته أنها فقط تعبر سرخس في طريقها إلى هراة ولا تقصد قتال شيبان[1]. وأمام هذا الجواب الخادع لا ندري على وجه التحديد هل انخدع به شيبان فوافق على مرورهم، أم إنه توجس خيفة وتشكك، غير أنه اضطر إلى الموافقة؛ لأنه لا يملك أن يبدأ أبا مسلم بالعداوة؟!

على كل حال، انطلق بسام وكأنه في طريقه إلى هراة، لكنه لما اقترب من سرخس، هاجمها، فخرج إليه شيبان في نحو من ثلاثة آلاف رجل، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، قُتل فيه عامة أصحاب شيبان وانسحب الباقون إلى المدينة، وقُتِل شيبان ومن بقي من أصحابه، وبعث برأس شيبان إلى أبي مسلم[2].

كان فتح العباسيين لسرخس خبرًا كبيرًا؛ لأن أهل سرخس لم تتقسمهم العصبية القبلية ولم يكونوا أحزابًا، بل كانوا متوحدين ضد جيش العباسيين؛ لذا ازداد همُّ نصر بن سيار ما إن بلغه الخبر، وقال: «اليوم استحكم الشر على بني مروان»[3].

تساقط المدن الخراسانية

استمرَّ العباسيون في فتح المدن المحيطة بهم، وكان توجههم الثاني إلى طوس[4]، في الجنوب الغربي من مرو، وإلى الغرب من سرخس.

وَجَّه أبو مسلم قائديه قحطبة بن شبيب والقاسم بن مجاشع ليهاجما طوس من جهتين مختلفتين، فاستنجد واليها بنصر بن سيار في نيسابور، وكان نصرٌ قد مرَّ به أثناء هربه إلى نيسابور، وتعاهدا أن يتحدا ضد هذه الدعوة الهاشمية، فأرسل له نصرٌ ابنه تميمًا على رأس مجموعة من فرسان مضر ومَنِ استجاب معهم من أهل نيسابور، وأرسل إليه أنه سيلحق بهم بنفسه[5].

---

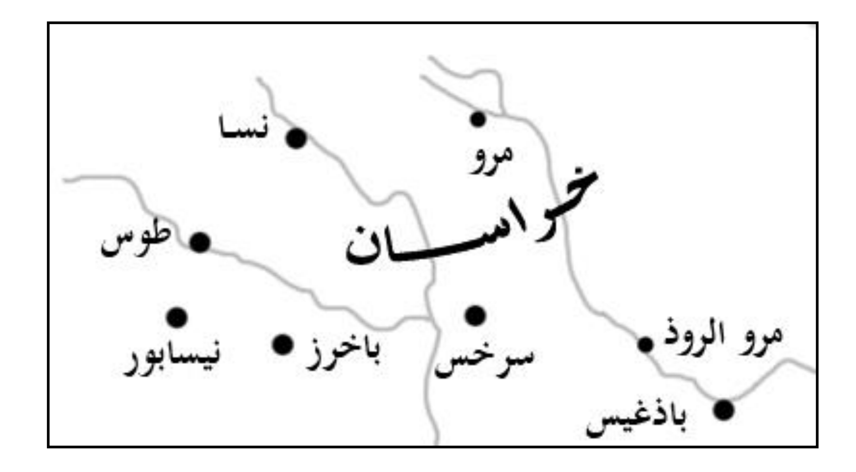
(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢١، ٣٢٢.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٣، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٢، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣١، ١٣٢.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٢.

(٤) طوس: هي الآن واقعة داخل مدينة «مشهد» الإيرانية.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٣، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٥.



وفي هذا الوقت نفسه كانت قد وصلت للمرة الأولى نجدةٌ من قبل والي العراق؛ يقودها فارسٌ قوي هو نباتة بن حنظلة، فتجمَّعت هذه القوة في الرِّيّ، وعزمت على التقدم إلى جرجان؛ حتى تنضم إليهم فلول المنهزمين والمنسحبين من أتباع نصر والأمويين، فكتب نصر إلى ابن هبيرة يطلب منه أن يجعل هذه المجموعة تحت إمرته؛ لأنه الأعلم بحال هذه البلاد، لكنَّ ابن هبيرة رفض قائلًا: ما كنت لأُوَلِّي مثل نصر على نباتة، وإنما نحن في إصلاح ما أفسد نصر[1].

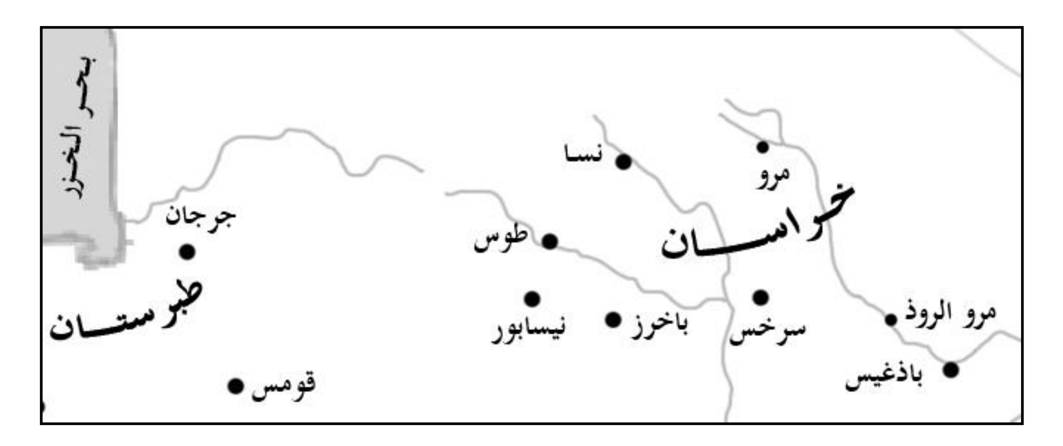
لقد كان ابن هبيرة مثالًا للأمراء الذين تبتلى بهم الدول في أواخر عصورها فتسقط على أيديهم، فما أفلحت بلاد يحرص أمراؤها على مصالحهم الخاصة، ويقدمون حاجات نفوسهم وشفاء أحقادها على مصالح البلاد. قال المؤرِّخون: وكان «فيه حسد»[2].

وأما جيش العباسيين فقد أرسل إلى والي طوس يدعوه إلى الدخول في الدعوة، لكنه أُعجب بكثرته بعدما انضمَّ إليه تميم بن نصر، فشتموا رسول قحطبة، ثم شتموا العباسيين ونادوا عليهم: يا عبدة الرءوس، يا مجوس، يا علوج. وأفرطوا في شتمهم، وقد منع قحطبة جيشه من الردِّ عليهم؛ وقال: «لا تُجيبوهم ولا تُشاتموهم؛ فإن الله ناصركم عليهم لبغيهم وعتوهم». ثم لم يكن بُدٌّ من القتال؛ فقاتلوا قتالًا كبيرًا حتى انتصروا، وقُتِل في المعركة تميم بن

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٣، ٣٢٤.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٥/ ٣٢٨، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ٣١٤.

نصر بن سيار، وانسحب باقي الجيش إلى داخل المدينة مهزومًا، ثم دخل جيش العباسيين إلى المدينة منتصرًا، وكتب قحطبة بالفتح إلى أبي مسلم، وبعث إليه برأسي تميم بن نصر ووالي طوس(١).

وكان نصر بن سيار قد خرج بالفعل على رأس قوة كبيرة من نيسابور قوامها عشرة آلاف، لكن وصل إليه خبر الهزيمة، ثم مقتل ابنه ووالي طوس، فترك نيسابور وانصرف إلى قومس، وهي في إقليم فارس؛ أي أنه انسحب من خراسان كلها، وكتب إلى الخليفة مروان بن محمد بذلك؛ ولهذا لم يكن ثمة صعوبات أمام دخول العباسيين إلى نيسابور، فدخلوها في غير حرب، وأمَّنوا جميع الناس فيها، وكان هذا في آخر يوم من شعبان؛ أي أن سقوط ثلاث مدن كبرى هي سرخس وطوس ونيسابور بيد العباسيين كان في خلال شهر واحد فقط، وظلَّ قحطبة بن شبيب في نيسابور مدة شهرين يأخذ البيعة من أهل نيسابور وأنحائها؛ حتى دخلوا جميعًا في طاعة العباسيين(٢).



دخول العباسيين إلى جرجان

في هذه الأثناء كانت قد وصلت القوة الأموية التي يقودها نباتة بن حنظلة إلى جرجان قادمة من الرِّيِّ، وكان الخليفة مروان بن محمد -حين جاءته رسالة نصر بن سيار التي تخبر عن سقوط طوس ومقتل واليها مع تميم بن نصر- قد كتب إلى نصر بن سيار أن يكون نباتة

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٣، ٣٢٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٦.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٥.



هو الأمير عليه، بخلاف ما كانت رغبة نصر وموافقة لرأي يزيد بن عمر بن هبيرة، وأنه سيأتي من بعد نباتة قوتان أخريان، على أن يتحدوا جميعًا؛ ريثما يصل إليهم الجيش الشامي الكبير، الذي يقوده الفارس الكبير المشهور ابن ضبارة(١). ثم كتب مروان بن محمد -أيضًا- إلى ابن هبيرة يُؤَنِّبه ويُوَبِّخه على تأخره عن نجدةِ نصر بن سيار؛ حتى وصل الحال إلى ما هو عليه، وأمره بأن لا يبخل عليه بالأموال ولا بالفرسان(٢).

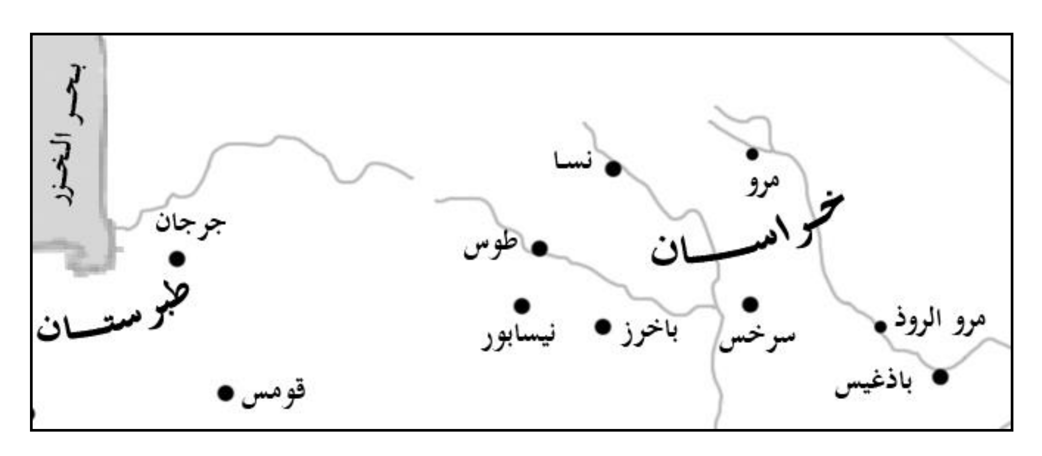
إن لقرار مروان بن محمد بأن يكون الأمير هو نباتة بن حنظلة وجاهة؛ ذلك أن توالي الهزائم على نصر بن سيار لن يجعل حال الجند معنويًّا كحالهم مع نباتة بن حنظلة الآتي من انتصارات حاسمة على الخوارج، كما أن نصر بن سيار كان طرفًا في الصراع في خراسان، وكان أحد الأسباب التي أدَّت إلى هزيمة الأمويين؛ إذ لا تقبله قبائل اليمانية، كما لا تجتمع عليه قبائل المضرية والربعية، وهو وإن كان خبيرًا بالحال في خراسان لكنه لا يصلح أن يكون الوجه الذي يُقَدِّمه الأمويون في هذه الظروف، ولربما كان نصر على استعداد لقبول هذا الواقع مع إخلاصه المعروف للأمويين، وليس من شيء فيما قرأتُ يُشير إلى أن نصر بن سيار كان يرفض التعاون مع نباتة رفضًا مبدئيًّا قاطعًا.

لكنَّ نباتة بن حنظلة قام بفعل أحمق؛ ذلك أنه أمر بقطع الأرزاق (المرتبات) عن نصر بن سيار ومَنْ تابعه من جنود خراسان، ولا شك أن نصر بن سيار شعر بمرارة لا مثيل لها تجاه هذا الفعل؛ على الرغم من إخلاصه وجهاده الطويل في خدمة بني أمية، وتوقَّع أن ذلك تم بتوصية من عدوه على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، فقال: «هذا عن رأي ابن هبيرة، ولئن ظنَّ ابن القرعاء أني أقاتل عنه وأنقاد لنباتة لبئس ما ظن». فلم يشترك في القتال وظلَّ على إقامته في قومس(٣).

وبهذا خسر الأمويون واحدًا من أفضل وأبرع قادتهم في واحدة من أحرج لحظات دولتهم بفعل الحماقات التي لا مبرر لها إلا تصفية الحسابات القديمة.

(١) كان ابن ضبارة قد انتهى لتوه من القضاء على ثورة عبد الله بن معاوية في فارس.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٥، ٣٢٦، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٥.
(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٨.

ومن مرو أرسل أبو مسلم إلى قائد الجيش قحطبة أن يسير إلى نصر بن سيار حتى يقضي عليه، لكنَّ قحطبة كان له رأي آخر؛ إذ رأى أن الأولى بالقتال الآن هو نباتة بن حنظلة، فأرسل إلى أبي مسلم يقول: «ما كنت أمضي إلى نصر وهو فلٌّ[1]، وأدع خلفي نباتة في فرسان أهل الشام وأهل خراسان، ولكني أمضي لجرجان، فإن أظفر الله بنباتة فما أيسر أمر نصر». فكتب إليه أبو مسلم: «الرأي رأيك، امضِ لما رأيتَ»[2].



انضمَّت قوَّة القاسم بن مجاشع إلى قوة قحطبة بن شبيب، وأرسل قحطبة ابنه الحسن على رأس مجموعة استطلاعية، أوقعت ببعض الشرطة التابعة لنباتة بن حنظلة، ثم سار إلى جرجان، وفي الطريق انضمت إليه أعداد أخرى ممن آمن بالدعوة الهاشمية، وفي جرجان التقى الجمعان، ولمرة أخرى يحرص قحطبة على أخلاق الداعية فيبدأ معهم بالدعوة، وكما كان متوقعًا ردُّوا عليه بالدعوة إلى الخليفة مروان بن محمد، وبالتخويف من نباتة بن حنظلة وتاريخه الطويل في الانتصارات، ثم قام قحطبة بفعل ذكي، ذلك أنه وزع على أبواب جرجان من ينادي في الناس: من دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن، فتسبب هذا في انسحاب كثير من أهل جرجان ومعهم أهل الشام، ووقعت المعركة فانتصر قحطبة وقُتل نباتة بعد بسالة وثبات نادريْن، وقُتِل ابنه حية ومجموعة من قادة الجيش، وأرسل قحطبة برءوسهم إلى أبي مسلم، ثم دخل المدينةَ (٣ من ذي الحجة ١٣٠هـ)، وأمَّن أهلَ المدينة وبايعوه، بل انضموا إلى

(١) فل: أي منهزم، وجمعها فلول.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٨.

جيشه فيما بعد حين واصل مسيره نحو الشام[١]، ويُروى أن تمردًا آخر قام به بعض أهل جرجان حين خرج قحطبة عنها فعاد قحطبة وأخمده[٢].

***

على غير توقعات الجميع -فيما عدا الإمام إبراهيم بن محمد- استطاع أبو مسلم الخراساني أن يقود الدعوة العباسية في خراسان من الدعوة السرية إلى الدولة القوية، وفي خلال ثلاث سنوات فحسب انقلبت أحوال خراسان من فتنة بين قبائل العرب طرفاها نصر بن سيار المضري والي بني أمية، وجديع الكرماني زعيم اليمانية إلى القاعدة القوية للدولة العباسية الكبيرة.

كل هذا وأبو مسلم لا يبلغ من العمر إلا واحدًا وثلاثين عامًا فحسب، وكان إلى قبل سنوات معدودة من هذه اللحظة مجرَّد خادم يحمل الأمتعة ويؤدي أعمال الخدمة، فيا لها من مقادير رفعت أبا مسلم من مرتبة الخدمة إلى سرير الإمارة، ومن رجل لا تلتفت إليه الأنظار إلى رجل تتطلع إليه الأبصار!!

***

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٢٨ - ٣٣٠، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٧.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٢.



سقوط الدولة الأموية

خرجت خراسان من سلطة الأمويين، وحتى تلك اللحظة لم تكن الخلافة قد دخلت في هذه المعركة برجالها، وكان يتولَّى ذلك نصر بن سيار، هذا التأخر كان يصب بالكامل في مصلحة العباسيين، الذين أخذوا الفرصة الكاملة لتثبيت أقدامهم في خراسان وما وراءها إلى الشرق، ثم بالانسياح غربًا لمهاجمة باقي المناطق الخاضعة للأمويين في فارس والعراق وحتى الشام.

من «جرجان» وحتى «الرِّيّ»

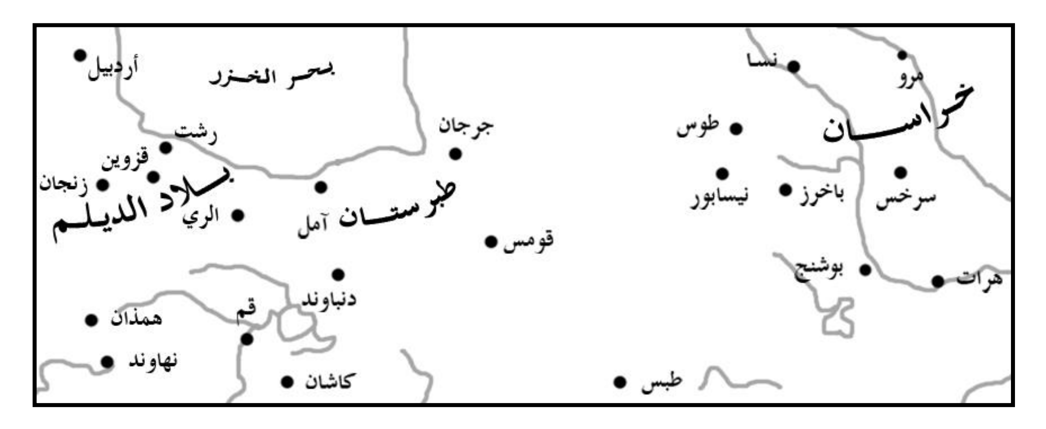
باستيلاء العباسيين على جرجان كانوا قد خرجوا من خراسان التي صارت في قبضتهم بالفعل، وبدءوا في التوجه نحو الشام، كانت جرجان هي المحطة الأولى بعد خراسان، وبعدها تأتي محطة الرِّيّ.

من جرجان أرسل قحطبة ابنه الحسن إلى قومس؛ التي كان فيها نصر بن سيار، وفي الطريق إلى قومس نزلوا في قرية بسطام، وكان فيها جماعة من الزعماء فانضموا إلى العباسيين، فأرسل الحسن بن قحطبة واحدًا منهم -واسمه أبو كامل- على رأس فرقة من الجيش العباسي إلى بلدة سمنان، وهناك نكث أبو كامل بيعته وأرسل سرًّا إلى نصر بن سيار وأخبره بمكانه وحاله ومَنْ معه من الهاشميين، فأرسل نصرٌ قوة كبيرة لم تَجِدْ صعوبة في أسر هذه الفرقة؛ لا سيما بعد أن انسحب قائدهم أبو كامل، غير أن غالبيتهم استطاعت الفرار من الأسر فيما بعد، وبقيت القلة منهم فأرسلهم نصر إلى ابن هبيرة، الذي أرسلهم إلى مروان بن محمد[1].

ولما بلغ الحسن بن قحطبة ما فعله أبو كامل، أرسل قوة أخرى دخلت بلدة سمنان، وهزمت قوة كان أرسلها نصر بن سيار، ثم وصلت إليهم قوة أخرى أرسلها قحطبة نفسه من جرجان، وانسحب نصر إلى الريّ[2].

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣١، ٣٣٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٤.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٤.



ومن جرجان -أيضًا- أرسل قحطبةُ خالدَ بن برمك -الذي سيكون لأسرته فيما بعد شأن عظيم في الدولة العباسية- إلى طبرستان التي أجاب صاحبها إلى الصلح، ودخل في طاعة العباسيين[١].

كانت الخطَّة هكذا؛ يفتح قحطبة المدينةَ، ثم يترك عليها نائبه أسيد بن عبد الله الخزاعي فيظلُّ يدير شئونها حتى يُرسل أبو مسلم واليًا إلى المدينةِ، فيلحق أسيد بقحطبة من جديد، وهكذا[٢].

وهكذا انطلق قحطبة إلى الري، وقبل أن يصلها كان نصر بن سيار انسحب إلى همذان، وعلى الرغم من وجود قوة موالية للأمويين، وبعض القادة الذين طالبوا نصرًا بأن يصمد ولا ينسحب، وعلى الرغم من أن ابن هبيرة أرسل له أن يبقى وأن الأمداد توشك أن تصل إليه، فإنه أبى وانسحب، وبهذا تشتت القوة الموالية للأمويين في الريِّ واختلف أمرهم، فانضموا جميعًا إلى الجيش الشامي الآتي بقيادة الفارس الكبير عامر بن ضبارة، فلم يكن صعبًا على العباسيين أن يدخلوا الري بغير قتال (صفر ١٣١هـ)[٣].

نهاية نصر بن سيار

لا يستطيع أحد أن يلوم نصر بن سيار في هذه اللحظة؛ فلقد بذل في حفظ أمر خراسان أفضل ما يمكن أن يبذله قائد في مكانه؛ لقد كانت رسائله تتوارد إلى العراق والشام فلا يجيبها

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣٣، ٣٣٤، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٦٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٤.

أحد، ولم يخرج من خراسان إلا بعد أن كانت خراسان بالفعل في يد العباسيين، وما كان يمكنه المقاومة، بل كانت انسحاباته كلها فيما بعد انسحاب من يخطط للعودة؛ إذ لم يفر إلى أقصى الغرب؛ بل تحول من مدينة إلى أخرى: من مرو إلى باب سرخس، ومنها إلى نيسابور[1]، ثم إلى قومس ثم إلى الري، ولم يكن يترك إحداها إلا حين تصير على وشك السقوط، وأرسل بابنه تميم مساندًا لوالي طوس فقُتِل، وخرج هو بنفسه لكنه لم يُدرك الحرب، ونادى بأنه على استعداد لمواصلة القتال لصالح الأمويين، وطلب أن يكون الأمير على القوة التي يقودها نباتة بن حنظلة، لكنَّ طلبه لم يُرفض فحسب؛ بل لقد قَطَع عنه نباتة راتبه بالكلية، ثم إنه لم ينسحب -أيضًا- انسحاب الفارِّ؛ بل ظلَّ في قومس وبعث بقوة أوقعت بفرقة من جيش العباسيين أسرى.

لقد كان نصر بن سيار في إحجامه عن البقاء في الري يرى تساقط الدولة وفوات الوقت؛ ولهذا قال لَمَنْ أرادوه على البقاء: «تركتموني حتى صرت جسرًا، قلتم: أقم؟!! شأنكم بالقوم؛ أمَّا أنا فقد أعذرت»[2].

وقد دفع نصر ثمن كذبه وغدره السابق على أهل خراسان، وتحقق بالفعل ما سبق أن حذر منه حين كان في قومس؛ لما أرسل لابن هبيرة يستعجله المدد، ويقول: «فإن أهل خراسان قد كَذَبْتُهم حتى ما رجل منهم يُصَدِّق لي قولًا، فَأَمِدَّني بعشرة آلاف قبل أن تُمِدَّني بمائة ألف، ثم لا تغني شيئًا»[3].

كان نصر بن سيار قد بلغ الخامسة والثمانين من العمر، وخرج من الري إلى همذان، وهو شديد المرض، فلما صار ببلدة «ساوة» -التابعة لهمذان- جاءه الأجل في يوم الأحد (١٢ من ربيع الأول ١٣١هـ)[4].

والحق أن ما نزل بنصر في أيامه الأخيرة لمما تنوء بحمله النفوس؛ فقد انتقل الزعيم المضري من الإمارة التي ما ذاق من حلاوتها إلا القليل؛ حتى تناوشته الفتن والحروب إلى الهزائم، التي أذاقته من المرارات الكثير، وعلى الرغم من بذله كل ما في وسعه من الجهد؛ فإنه

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٢.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣٣.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٢.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٥، وابن قتيبة: المعارف ص٣٧٠.



كان كالذي وُضِع في وجه السيل وحيدًا لا ظهر له، فأمامه خصم قوي الموهبة كأبي مسلم يتقدم دعوة تُثَبِّت أقدامها منذ ثلث قرن؛ حتى صار لها رجال وأنصار متحالفًا مع عدو آخر كجديع الكرماني -وابنه من بعده- يتزعم قبائل كثيرة العدد قوية الشكيمة رجالًا في الحرب، ووراءه حليف لا يرجو له الخير كيزيد بن عمر بن هبيرة، ومن ورائه خليفة لا يملك أن يفعل له شيئًا.

لقد نجا بأعجوبة من مقتلة أبي مسلم بسبب ما فعله لاهز بن قريظ، وبدا وكأنها النجاة التي سيعيد منها ترتيب الصفوف وانتظار النجدات، أو على أقلِّ حال هي النجاة بالنفس والأهل من القتل، إلَّا أنها ما كانت إلا النجاة ليرى مزيدًا من الذل والمصائب؛ بل ليشهد مقتل ابنه تميم في حياته؛ لتجتمع عليه مرارات الهزائم ومرارات الخذلان.. ليقضي أيامه الأخيرة هاربًا؛ كلما دخل أرضًا لفظته إلى غيرها.

وصل نبأ وفاة نصر بن سيار إلى قحطبة بن شبيب وهو في الرِّيِّ، وقد ظلَّ فيها خمسة أشهر، وكتب بالخبر إلى أبي مسلم في مرو، ولا نشك في أن وقع الخبر كان سعيدًا عليهما، مثلما لا نشك في أن الخبر كان له وقع آخر على ابن هبيرة وعلى مروان بن محمد، إذ وصلهما خبر سقوط الري ووفاة نصر في وقت واحد، فلربما صار حالهما كما قال المتنبي فيما بعد:

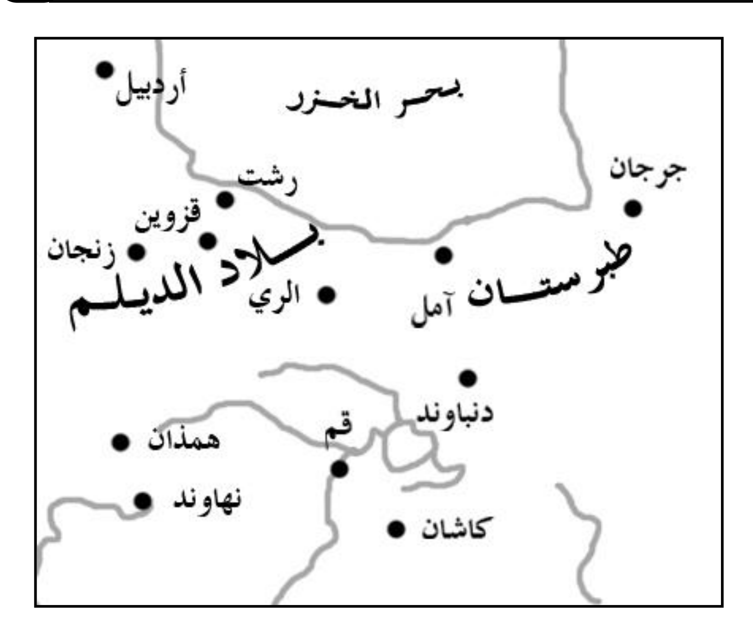
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالأَرْزَاءِ حَتَّى ... فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

فَكُنْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

معركة جابلق

ومن الري وجَّه قحطبة مجموعات من جيشه في سرايا لتفتح المدن حوله، فتم لها فتح أبهر، وفتح همذان، وحصار نهاوند التي لجأت إليها قوة من الأمويين بانتظار مجيء جيش عامر بن ضبارة(١).

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٥، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣٥، ٣٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٥.



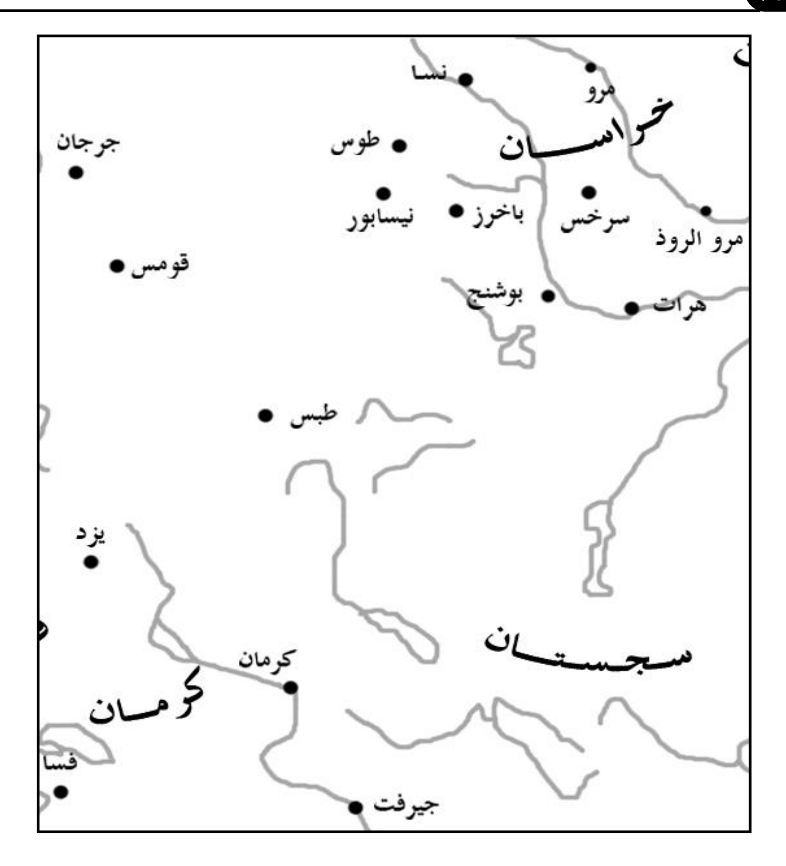
وصلت قوات أهل الشام بقيادة عامر بن ضبارة، وهو أحد أبطال الجيش الأموي الكبار، وقد كانت أكبر إنجازاته القضاء على ثورة عبد الله بن معاوية في فارس بعد سيطرتها على فارس لمدة سنة، وقبلها كان له إنجاز كبير في القضاء على شيبان بن عبد العزيز اليشكري قائد الخوارج[1].

وكانت الخطَّة الأولى كما وضعها يزيد بن عمر بن هبيرة (والي العراق) أن يهاجم جيش ابن ضبارة خراسان من جهة سجستان، وأن يهاجمها جيش نباتة بن حنظلة من جهة قومس (الغرب)، وأن يهاجمها جيش ابن هبيرة نفسه من جهة طبس (الجنوب)؛ ليُحكموا الحصار على الهاشميين[2].

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٥/ ٤٣٠، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٥، والزركلي: الأعلام ٣/ ٢٥٢.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣٧.



وعندما علم أبو سلمة الخلال (كبير الدعاة العباسيين في الكوفة) بهذه الخطَّة، أرسل إلى أبي مسلم أن يقوي جيش قحطبة بالأمداد تباعًا، وكتب إلى قحطبة بن شبيب ألا يتسرع بفتح البلاد، وأن يظلَّ في الري حتى يُؤَمِّن ظهره وتتضح الأمور. كان الطرفان يعلمان أنها معركة مصيرية تلك التي سيتواجهان فيها، وقد رمتهم بنو أمية بخير فرسانها؛ ولهذا ظلَّ قحطبة في الري خمسة أشهر يدير منها فتح المناطق المحيطة. ومن جهته خرج أبو مسلم من مرو على رأس جيش قوامه أربعون ألف رجل إلى نيسابور ليقترب من جيش قحطبة؛ فيكون له غوثًا ومددًا، وأخرج معه علي بن الكرماني (الذي كان لا يزال أبو مسلم يعامله كأنه الأمير، فيصلي وراءه ولا ينفذ أمرًا إلا يعرضه عليه ويرضى به[1])، فوصل الجيش إلى نيسابور (صفر ١٣١هـ)[2].

(١) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٦.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣٧.

لكن خطَّة الجيش الأموي تغيرت بعد مقتل نباتة بن حنظلة وصار الهجوم من ناحية أصبهان، فلما بلغ أبو مسلم تغير خطَّة الهجوم عاد إلى مرو، وتابع قحطبة من الري إرسال الفرق لفتح المناطق المحيطة، ففتحت مجموعةٌ مدينة قُمّ، ثم أرسلها لاستكشاف أمر جيش ابن ضبارة، فاقتربت هذه المجموعة من أصفهان (إلى الجنوب الشرقي من الري وهمدان ونهاوند وقُمّ)، لكنها مُنيت بهزيمة على يد مجموعة أرسلها ابن ضبارة؛ فلهذا سارع قحطبة باستدعاء المزيد من الأمداد والجنود قبل أن يتواجه الجيشان الكبيران(١).



لما اقترب الجيشان أرسل عامر بن ضبارة مَنْ ينادي في العباسيين قائلًا: «يا معشر المسلمين؛ اتقوا الله وراجعوا جماعتكم، ولكم الأمان على ما أحدثتم في هذه الفتنة، ولكم العطاء والرزق الواسع». فأجابوه: «إنا والله ما ننازعكم دنياكم، وما عليها نقاتلكم، ولكنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى الرضا من أهل بيته، فإن قبلتم كنا وأنتم متعاونين على ذلك». وكان الجواب بالطبع رفضًا وسبابًا وفُحْشًا في القول(٢).

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٣٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٥.

كانت المواجهات على ثلاث جولات بين فرق من العباسيين وفرق من جيش ابن ضبارة، وقد انتصر جيش العباسيين في الجولة الأولى وقتلوا سبعمائة من جيش ابن ضبارة، وفي الجولة الثانية انسحب جيش الأمويين ليلًا، وأما الجولة الثالثة والأخيرة فهي التي كانت في جابلق قرب أصفهان؛ حيث جاء الجيش وعلى رأسه ابن ضبارة ومعه داود (ابن والي العراق يزيد بن هبيرة)، وكانت هذه الثنائية في القيادة من السلبيات في هذا الجيش، وعلى الجانب الآخر كان قد وصل والي أبو مسلم الخراساني على جرجان إليها، وهذا ما يعني خروج نائب قحطبة أسيد الخزاعي من جرجان إلى الري؛ فمن ثَمَّ استطاع قحطبة أن يخرج بجيشه من الري إلى جابلق[١].

وفي جابلق (٢٣ من رجب ١٣١هـ) تمَّت المواجهة الأخيرة والعنيفة بين جيش العباسيين وجيش ابن ضبارة، فكان قتالًا شديدًا هُزِم فيه جيش ابن ضبارة، وكان أول من انهزم داود بن يزيد بن هبيرة الذي كان قائد الميسرة، ثم انهار قلب الجيش الأموي، وبقيت ميمنة الجيش الأموي صامدة؛ بل حققت انتصارًا على ميسرة العباسيين؛ لكنَّ العباسيين في القلب والميمنة سرعان ما أعانوا ميسرتهم، ويبدو أن النصر جرى بصورة أسرع من المتوقع؛ إذ دخل العباسيون على ابن ضبارة وهو جالس في خيمة القيادة فقتلوه، وكان قحطبة قد أعلن جائزة لِمَنْ يأتي برأسة مائة درهم، وعندها تمزق جيش ابن ضبارة ووقعت به الهزيمة، وانسحب الباقون متشتتين إلى المدائن حيث يقيم ابن هبيرة، وغنم العباسيون ما كان بالجيش الأموي[٢].

ولما وصل رأس ابن ضبارة إلى قحطبة نظر إليه مسترجعًا تاريخ عدوه الطويل المجيد، وقال معجبًا: «لله بلادك أي مُسَعِّر حرب وكريم كنت! وإن كنت على ضلال، مثلك فَلْتَلِدِ النساء لا كنصر بن سيار منتقلًا من حجر إلى حجر حتى قتله الله غمًّا». ثم أرسل برأسه إلى أبي مسلم الخراساني، وكانت هذه الواقعة هي الفاصلة التي ينتظر الجميع خبرها؛ ولهذا كثرت المراثي في ابن ضبارة عند أهل الشام، وكثرت المدائح في قحطبة عند العباسيين، وكان العراقيون يقولون: «إن ظفر ابن ضبارة ثبت الملك، وإن ظفر قحطبة تم الأمر لبني هاشم»[٣].

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٤٠ – ٣٤٤.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٥، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٤٤ – ٣٤٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٥، ٣٣٦.
(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٤٥ وما بعدها، والطبري: تاريخ الطبري ٣٣٥ وما بعدها.

ومن أهمِّ نتائج هذه المعركة: مبايعة أهل أصفهان ودخولهم في طاعة العباسيين، ودخول جيش العباسيين إلى منطقة العراق، وبالتالي خروجه من سلطة أبي مسلم الخراساني ودخوله في نفوذ أبي سلمة الخلال كبير الدعاة في الكوفة، ومن هنا بدأت مرحلة جديدة في الثورة العباسية؛ ولهذا أخرج أبو مسلم من خراسان ثمانية عشر قائدًا، ونادى في الناس بالخروج إلى الجهاد في العراق[١].

سقوط نهاوند

على خلاف سائر المدن الخراسانية صمد أهل نهاوند صمودًا عجيبًا أمام العباسيين؛ حتى لقد كان فتحها أصعب الفتوح جميعًا، وكانت نهاوند قد انحازت إليها قوة أموية على رأسها سيار بن نصر بن سيار وأبو كامل (الذي تسبب في وقوع فرقة من العباسيين أسرى قبل ذلك)، وكانت المجموعة تنتظر مدد ابن ضبارة ولا تكاد تتوقع أنه ينهزم، وفي أثناء وقوع معركة جابلق كان الطرفان: المحاصِرون والمحاصَرون (بقيادة الحسن بن قحطبة) بانتظار الأخبار على أحر من الجمر، ومارس أهل نهاوند -فوق صمودهم في الحصار- حربًا إعلامية على جيش العباسيين، وكانوا ينادون عليهم بأن ابن ضبارة قد انتصر؛ بل وأرسل رأس قحطبة إلى ابن هبيرة؛ حتى جاءت الأخبار بما قد كان[٢].

وكان متوقعًا أن يستسلموا، لا سيما وقد أقبل عليهم جيش قحطبة نفسه لا مجرَّد فرقة الحسن التي كانت تحاصرهم، وعرض عليهم قحطبة الأمان لهم جميعًا، لكنهم رفضوا وأصروا على موقفهم؛ على الرغم من أن الأمل في المدد قد انتهى، وعلى الرغم من أن الحصار قد أرهقهم حتى أكلوا لحوم الميتة وأكلوا دوابهم، وحاول قحطبة عرض الأمان عليهم غير مرة وفي كل مرة يرفضون، وصار الوضع حرجًا حينما أرسل أبو سلمة الخلال يلوم قحطبة على التأخر أمام نهاوند، ويخبره بأن هذا قد فوَّت عليه فرصة استغلال النصر السابق وأعطى الوقت للجيش الأموي ليعيد استعداداته[٣].

ولم يكن بالإمكان أن يمضي قحطبة دون أن ينهي أمر نهاوند وفيها قوة للأمويين، فأعاد

(١) المصدر السابق نفسه ص٣٥٠، ٣٥١.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥١.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٥، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٤٦.

عرض الأمان لمرات أخرى، وظلَّ في محاولاته ينادي أهل خراسان الذين يتحصنون في نهاوند: «أنتم آمنون، فمن أحب أن يخرج إلينا ويكون معنا فرضنا له وواسيناه، ومن أحب أن ينصرف إلى خراسان توثقت له في أمانه من أبي مسلم، ومن أحب أن يمضي إلى غيرها فموسع عليه». إلَّا أنَّ كل محاولاته باءت بالفشل؛ حتى يئس من أهل خراسان، وتوصل إلى أهل فلسطين الذين بمرو، وبذل مجهودات دءوبة في بذل الأمان لهم لينتهي هذا الأمر؛ حتى نجح بالفعل بعد تعب، فدخل نهاوند (٥ من ذي القعدة ١٣١هـ) وبذل أمانه للجميع، أو هكذا فُهِم منه أو ادُّعي عليه، ولكنه أعلن أن أمانه مبذول لأهل الشام فحسب، فقد خاطبهم هم فقتل مَنْ كان بها من أهل خراسان، وكانوا ثلاثة آلاف على رأسهم أبو كامل (صاحب الخديعة التي أوقعت أسرى من العباسيين بيد الأمويين) وأولاد نصر بن سيار[(١)].

بين أسرتين.. والأيام دول

مَنْ كان يظن قبل سنتين فقط أن الأسرة المالكة في خراسان، أسرة نصر بن سيار، ستنتهي على هذا النحو، وأن تكون النهاية في نهاوند من أرض العراق!!

ولو أن أحدًا كان يمكن أن يتوقع مثل هذه النهاية لما كان في خراسان من الفتن والقتال، فمن الذي كان يتوقع أن تكون النهاية على يد رجل مجهول وهو قحطبة بن شبيب الطائي؟

قبل سنتين: من في خراسان لم يكن يعرف تميم بن نصر بن سيار، الفارس ابن الفارس والي خراسان؟ ومَنْ كان في وقتها يعرف الحسن بن قحطبة أو أخاه حميد بن قحطبة؟!

وحتى في تلك اللحظة مَنْ كان يعرف أن الحسن بن قحطبة سيكون من كبار رجال الدولة، ومن قادتها المُقَدَّمين في أزهى عصورها[(٢)]؟ ومَنْ كان يعرف أن حميد بن قحطبة سيكون واليًا على مصر وعلى أرمينية، ثم سيعود بعد عشرين سنة واليًا على خراسان نفسها[(٣)]؟

صدق الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٥، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥١ وما بعدها، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٦، ٣٣٧.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ١٢/ ١١٩، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ١٣٠.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣/ ١٢١، والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٨٣.

نهاية علي بن الكرماني

يورد صاحب أخبار الدولة العباسية أن أبا مسلم قتل ابني الكرماني عليًّا وعثمان حين وصلته الأخبار بفتح نهاوند[١]، ويورد الطبري أنه قتل عليًّا في الطريق إلى نيسابور، وأمر بقتل أخيه عثمان في اليوم نفسه، وقد كان، وقتل معه جماعة من أقوى أنصاره[٢] (٢٨ من المحرم ١٣٠هـ)[٣].

كان أبو مسلم يُقَدِّم علي بن الكرماني تأليفًا لقومه اليمانية؛ لا سيما ممن لم يدخلوا الدعوة بعد، وكان يستظهر به كذلك على الربعية والمضرية؛ حتى إذا انتهت هذه المهمَّة قتله[٤].

لا تورد المصادر سببًا مباشرًا لقتل أبي مسلم لابني الكرماني، إلَّا سبب الانفراد بالسلطة والتخلص من المنافسين الأقوياء، لكن بعضًا من الغموض يحيط بهذا الحادث، فلئن كان لأبي مسلم حجة في قتله لاهز بن قريظ باعتباره ارتكب خيانة الدعوة، فما هي الحجة التي اتخذها أبو مسلم لقتل ابني الكرماني؟ وكيف استقبل قومه اليمانية مثل هذا الخبر؛ إذ لا نجد ردَّ فعل ظاهرًا على مقتل الزعيمين من أتباعهما!!

لكن نهاية حياة علي بن الكرماني بهذا الشكل تُثير الكثير من التأملات؛ فهذا الرجل الذي نشأ في ظلال أبيه القوي جديع الكرماني، وورث زعامته لليمانية بعد مقتل أبيه، وحادثة مقتل أبيه هذه هي التي أثرت على خريطة خراسان كلها؛ إذ منعته من التفكير في التحالف مع نصر بن سيار مهما قدم له من التنازلات، مفضِّلًا التحالف مع أبي مسلم؛ الذي أظهر طول الوقت أنه داعية بالحق يُريد إقامة العدل وإزالة الجور، كان علي بن الكرماني أحد أهمِّ الشخصيات التي سهلت للعباسيين انتصاراتهم في خراسان، من خلال زعامته لليمانية وعلاقته بشيبان بن سلمة الحروري وعداوته لنصر بن سيار. ربما يصح القول بأنه لم يكن يملك طريقًا آخر غير الذي سلكه، فما كان بالذي يستطيع أن يأمن لنصر بن سيار، وكان في الوقت ذاته مضطرًّا إلى حلف أبي مسلم؛ لكي ينتصر على نصر بن سيار، ويحقق حلم أبيه القديم في ولاية خراسان. لكن يصح -أيضًا- أن نقول: إنه لم يكن في قوة أبيه نفسها، وأنه أعطى كل شيء لأبي مسلم دون أي ضمانات إلا الوعود

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥٤.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٢٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٥٠.

(٤) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٦.

والكلام، وهو الأمر الذي لم يفعله أبدًا سياسي ماهر كنصر بن سيار؛ الذي تعطلت تحالفات أبي مسلم معه على صخرة الضمانات هذه.

إن الدرس الكبير في حياة علي بن الكرماني أنه لا بُدَّ من استمرار اليقظة مع امتلاك القوة، وعدم الارتماء في حلف أحد بلا ضمانات، أو كما يقال: لا تضع كل البيض في سلة واحدة. هذا الدرس الذي غفل عنه ابن الكرماني جعله أميرًا على خراسان بالاسم فحسب؛ لكنه فعليًّا كان في موضع التابع لأبي مسلم، ثم نقله في لحظة واحدة من القصر.. إلى القبر!!

ولم تنتهِ ضحايا أبي مسلم عند هذا الحد؛ بل تخلَّص من عدد آخر من الثوار الذين شاركوا في الثورة العباسية؛ منهم زياد بن صالح الخزاعي، وعيسى بن ماهان.. وغيرهما[1].

تقدم الجيش العباسي إلى العراق



بعد خروج جيش ابن ضبارة، أرسل والي العراق جيشًا آخر من عشرين ألفًا من أهل الشام والعراق بقيادة عبيد الله بن العباس الكندي ليغيث أهل نهاوند، في الطريق جاءت الأخبار بهزيمة ابن ضبارة، وبحصار قحطبة لنهاوند؛ فانسحب الجيش إلى حلوان ثم إلى براز الروز، ومن ناحية أخرى بدأ والي العراق في تجهيز الجيش الذي سيقوده بنفسه، وانضمت إليه الفلول المنهزمة من المعارك السابقة، فاتخذ معسكره في «المدائن»[2].

---

(١) د. فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص٨٢.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥٤، ٣٥٥.

وفي هذه اللحظات بدأ الدور الخطير لأبي سلمة الخلال كبير الدعاة بالكوفة؛ إذ أخذ في إرسال رسائله ومبعوثيه إلى زعماء القبائل في العراق، ولا شك أنه قضى وقتًا طويلًا قبل هذا في تهيئتهم والتواصل معهم، وبالفعل أجابه الزعماء لما أراد؛ إما عن قناعة وإما لما يرون من إقبال دولة الهاشميين، وأفول دولة الأمويين طمعًا في الغنائم وإحراز المكانة، وبهذا انحازت مناطق كثيرة إلى العباسيين؛ فلبسوا السواد وكتبوا إلى قحطبة بالطاعة والولاء، وأرسلوا إليه مبعوثيهم بأنه لم يبقَ في يد ابن هبيرة إلا المدن الكبيرة فحسب، وكان كل هذا يُضيف نصرًا معنويًّا إلى جيش قحطبة، ويفت في عضد ابن هبيرة وجيشه(١).

وبدأ قحطبة من ناحيته -أيضًا- يراسل زعماء المناطق ويدعوهم إلى الدخول في طاعة الهاشميين، فاستجاب له بعضهم، وحاول مروان بن محمد وولاته على هذه المناطق كسب من استجاب لقحطبة بالمال الكثير، فأحيانًا عاد هذا بالفائدة، وأحيانًا لم ينفع؛ مما تسبب في حروب محدودة بين الزعماء، الذين انحازوا للعباسيين وولاة مروان، فخسر الأمويون بهذا أموالًا ورجالًا وأراضي أيضًا(٢).

تقدم جيش قحطبة إلى حلوان، وكانت من المدن التي دخلت في طاعة العباسيين، فدخلها (في ذي الحجة ١٣١هـ)، ودارت معارك محدودة وجانبية بين سرايا من جيش قحطبة وجيش عبيد الله الكندي (الذي كان مقيمًا في براز الروز) وهُزم العباسيون في أحدها(٣).

وأخرج قحطبة فرقة من الجيش بقيادة أبي عون عبد الله بن يزيد الأزدي إلى فتح شهرزور، وكانت سريةٌ وَجَّهَها مروان بن محمد إلى المدينةِ، وتشير بعض الروايات أنها كانت بقيادة ابنه عبد الله بن مروان، فكاد أبو عون ينسحب لما بلغه نبأ القوة الأموية وكثرتها، لكنَّ إشارة زعيم من زعماء هذه البلاد دفعته إلى التراجع عن الانسحاب، وإلى استغلال الروح المعنوية المنكسرة لدى الأمويين والرعب الذي هم فيه، وبينما هم كذلك إذ فاجأهم واحد من زعماء الخوارج واسمه عثمان بن سفيان في جيش قوامه أربعة آلاف رجل، فاضطر العباسيون إلى الدخول في المعركة عن غير ترتيب، لكنهم انتصروا نصرًا مبينًا؛ حتى إنهم قتلوا جيش

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٦، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥٧.

عثمان عن آخره[١]. وهو الخبر الذي اهتزَّ له مروان بن محمد حين بلغه؛ إذ كان دليلًا على قوة العباسيين -الذين بلغ أن إحدى سراياهم تحقق مثل هذا النصر على الخوارج، وهو الذي ما انفك الخوارج يزعجونه ويرهقونه؛ حتى أنهكوا طاقة الدولة كثيرًا.

في هذه المعركة ظهرت شجاعة الموصليين، فاتُّخذ القرار بالتقدم إلى الموصل الذين يحقدون على مروان، وبالفعل ما إن بلغت الدعوة أهل الموصل حتى انحازوا إليها، وصار جيش أبي عون جيشًا كبيرًا يبلغ سبعة آلاف؛ لكنَّه لم يتقدم لما بلغه من التحركات الكبيرة للجيوش الأموية من العراق[٢].

رسائل الأمويين وعمق الأزمة

ما كان أبلغ من تصوير الأزمة التي تعيشها الخلافة الأموية في أيامها الأخيرة؛ إلا هاتين الرسالتين بين الخليفة مروان بن محمد وواليه على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، فكأنما هي معركة محتدمة في سوء السياسات، كل منهم يرمي بالنكبة على صاحبه، بل لقد وصلت لهجة مروان بن محمد إلى التهديد، وهو أمر مستغرب في هذا الوقت بالخصوص، وعلى كل حال فإن هاتين الرسالتين تكشفان عن تدهور الأوضاع في العراق، وعن كثرة المتذمرين من الأمويين في أيامهم الأخيرة.

قال مروان بن محمد في رسالته إلى ابن هبيرة:

«أما بعد: فإن أمير المؤمنين ولاك العراق لما أَمَّل من كفايتك، فأخلفت ظنه في أمور منها:

- إبطاؤك عمن استصرخك من أهل طاعته بخراسان[٣]؛ حتى وهنت قوتهم، وقوي عدوهم عليهم.
- ومنها أخذك أهبة الحصار قبل أوان ذلك حتى أرعبت قلوب من معك، وسهلت عليهم سبل الهزائم، وإنما يكون الحصار بعد طول المنازلة والمحاربة.
- ومنها إغمادك السيف عن آل المهلب المربضين للفتن؛ ألا تكون سفكت دماءهم، وأبحت حريمهم.

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥٨، ٣٥٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٧، ٣٣٨.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٥٩.
(٣) يقصد نصر بن سيار.

- ومنها إهمالك أمر جنودك بلا شدة على أهل الريب منهم، وإقامة الحدود فيهم، ومنها تقصيرك في قطع ألسنة من ينطق فيما يكرهه أمير المؤمنين من أهل الشام، وقد رأيت آثار أمير المؤمنين وتنكيله بهم.
- ومنها اشتمالك على فيء المسلمين يبعثه مزاحم بن زفر يدسسه لك إلى أحبائك بقنسرين، وهذا أعظم قوتك على عدوك.

لعمري يا يزيد! لقد تجافى أمير المؤمنين اليوم وقبل اليوم عن أمور أخلفت فيها ظنه، وتبلتَ بها تَبْلَه[1]، إنه وإن تنفس لنا ولك في البقاء[2] فسيعرفك ما ظننت دونه ستورًا مرخاة[3]، ثم يكلك إلى نفسك في ذلك، ثم لا تجد أمير المؤمنين يشهد الله عليك وكفى بالله شهيدًا.

فإن كانت فلول ابن ضبارة وداود قد تجمعت إليك، وقدم عليك الحوثرة بن سهيل فيمن معه، فانهض بنفسك للقاء هذا العدو الجاهد عليك، الباسط سيفه إليك وإلى إخوانك، ولا تستبقِ شيئًا من جدك، ولا تكن كما قال الأول:

أَلَمْ تَعْلَـمْ بِأَنَّ الْحَـرْبَ غُولٌ　　تُقَلِّبُ فِي تَصَرُّفِهَا الْقُلُـوبُ

وَأَنْتُمْ مَعْشَرٌ فِي السِّـلْمِ حَرْبٌ　　وَسِلْمٌ حِينَ تَسْتَعِرُ الْحُرُوبُ»[4].

وحين وصلت الرسالة إلى ابن هبيرة كتب هذا الردَّ عليها:

«قد فهمت كتاب أمير المؤمنين، وما جهلتُ بلاءه، ولاقصرتُ في نصيحته، ولا حِدْتُ عن جهة الحق وحزم الرأي، فإن أتت الأقدار بخلاف ما تهوى؛ فإن تقدير الله فوق تقدير العباد.

- أما ما ذكر أمير المؤمنين من إبطائي عمن استصرخني بخراسان، فقد علم أمير المؤمنين أني صرت إلى العراق وهي حرب كلها، فكان أقوى ما يحضرني علاج ما قرب مني، وكنت في ذلك قد شغلت جنود أهل الشام جميعًا بالخوارج تارة، وبابن معاوية أخرى، وبسليمان بن حبيب أخرى، ولم أكن لأستعين بأهل العراق، وقد علم أمير المؤمنين ما هم عليه من غشه وغش دولته فيما استصرخني فيه أهل خراسان، ولم آمن، إن فعلت، أن

(١) تبل فلَانًا تبلاً: ثأر منه وتبل الدهر الْقَوْم رماهم بصروفه، وتبل الحب فلَانًا أسقمه.
(٢) أي لو امتد بنا الأجل.
(٣) أي ما ظننت أنك قدرت على إخفائه ولم يعرفه أمير المؤمنين.
(٤) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦٠، ٣٦١.

يظاهروا عدو أمير المؤمنين فيلزمني لائمته في ذلك وتقصيره.

• وأما تأهبي للحصار؛ فإني فعلت ذلك حين رأيتُ ما قدمت من القوة وقد وهنت، ورأيت من قاتل العدو وقد فشلوا وضعفت نياتهم في جهاد عدوهم، فجعلت ذلك عدة حزم إن اضطررت إليها حمدتها، وإن استغنيت عنها لم أذمها.

• وأما إغمادي السيف عن آل المهلب فإني رأيتهم من اليمن بمكان فكرهت لذلك هيجهم، ولم آمن إن فعلت، أن ينابذني أهل العراق منهم ومَنْ معي من أهل الشام، فتألفتهم وتربصت بهم.

• وأما إمساكي عن تأديب أهل الشام، وتركي الشدة عليهم في سوء سيرتهم فإني رأيت سوء السيرة قد شملتهم، فكرهت أن أعنف على جماعتهم، وهم يدي على عدوي، فيفسد ذلك بصائرهم ويقبلوا عليَّ بعداوتهم دون عداوة عدوهم، ولعلَّ إفراط أمير المؤمنين في عقوبته وتنكيله قد أفسد عليه قلوب أهل دولته، وحملهم على التقصير في نصرته.

• وأما ما ذكر أمير المؤمنين من اشتمالي على فيء المسلمين، ولعمري أن في عمالتي وأرزاقي لما يغنيني عن ذلك، ومنزلي من قنسرين بحيث قد علمه أمير المؤمنين، وهو في إطلاله عليه وقربه منه؛ بحيث لا مئونة عليه في تفتيشه والتنقيب عما ذكر له فيه، فليبعث أمير المؤمنين من يثق بدينه وصحته فيبحث عن ذلك ويبالغ في التفتيش عنه، وليس ما استقصر أمير المؤمنين من عملي وأساء ظنًّا بي بمزيلي عن طاعته، ولا مكدر عندي صنيعته.

• وأما ما ذكر من تبكيتي بخطئي، فليس الخطأ بمأمون على بشر، وما أنا بغني عن إيقاظ أمير المؤمنين إياي في عظيم ما حملني من ولايته، ولا بمكتف بما عندي دون إرشاده وتأديبه، وليت الله قد أظهر أمير المؤمنين على عدوه، وأعطاه سؤله وبسط له يده وقوله وفعله، وخمدت نيران الفتن عنه، فيعرف نصيحتي له وقيامي بأمره، وينفذ عليَّ فيما سرني وساءني حكمه.

وقد رأيت أمير المؤمنين قد حمل أكثر أموره على سوء الظن فيما يعامل به من ائتمنه عليها؛ حتى لقد ظننت أنه لم يبقَ أحد من أعوانه وعوام رعيته إلا أوحشه ذلك منه، وخاف بادرته وسطوته، من مقارف ذنب وسليم قلب، والسلام»[1].

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦١، ٣٦٢.

مثل هذه الرسائل القاسية لا تستغرب من مروان بن محمد؛ وهو الشخصية التي يتفوق فيها الجانب العسكري على الجانب السياسي، والأقرب إلى الحكمة ألا تجري مثل هذه الرسائل بين أركان الحكم في هذا الوقت؛ الذي يتهدد فيه كيان الدولة نفسه.

اعتقال الإمام إبراهيم

من العجيب أن تحافظ دعوة بسريتها وكتمانها تلك السنين الطويلة، وفي هذه المراحل المخطط لها تعمل خلايا الدعوة هنا وهناك للتمهيد والتجهيز دون انفعال، فلا تتكشف أوراقها أمام أجهزة مخابرات أموية تبحث في كل مكان وبكل الوسائل، فلا تصل إلى مركز يحرك أو قيادة فاعلة، فإذا ما وصلت مخابرات الأمويين إلى مركز القيادة؛ تكون الدعوة قد انتهت وبدأت مرحلة الثورة(١).

حدث هذا مع نصر بن سيار وكُلٍّ من سليمان بن كثير ثم أبي مسلم الخراساني، وحدث كذلك مع ابن هبيرة وكُلٍّ من بكير بن ماهان ثم أبي سلمة الخلال، وحدث -أيضًا- بين خلفاء الأمويين من عهد هشام بن عبد الملك وحتى مروان بن محمد وكُلٍّ من محمد بن علي العباسي ثم ابنه إبراهيم بن محمد.

وتتعدَّد الروايات في الطريقة التي توصل بها مروان بن محمد إلى الإمام إبراهيم، فمنها ما يقول بأن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رأى إبراهيمَ في الحج (١٢٩هـ)، وكان قحطبة بن شبيب حمل إليه أموال أهل الدعوة من خراسان، فأحب أن يختبر الأمر فطلب منه أربعة آلاف دينار قرضًا، فأعطاه إبراهيم ألف دينار هي التي كانت معه، ثم حاول أن يستزيد من الثقة في الأمر فشاور إبراهيم بأن قد بلغه أن أهل خراسان قد قاموا بدعوة تناصر آل البيت؛ فيَحسُن أن يختار الهاشميون قائدًا لهذه الحركة يتولَّى أمرها، فقال له إبراهيم: نجمع أشياخنا ونرى رأيهم، فجمع عبد الله أشياخ الهاشميين وفاتحهم في الموضوع، فقالوا له: أنت شيخنا ولا نعدو رأيك، فرشح لهم عبد الله ولده محمدًا وكان صغيرًا، وهنا اعترض إبراهيم على ترشيح الفتى الصغير، وقال: «سبحان الله يا أبا محمد! تدع مشايخنا وذوي الأسنان منا وتدعونا إلى فتى كبعضنا، لو دعوتنا إلى نفسك، أو إلى بعض من ترى، ما

---

(١) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١١.

هاهنا أحد من ذوي الأسنان يرضى بهذا في نفسه، وإن أعطاك الرضا في علانيته». فوافقه القوم على هذا الرأي، فمن هنا أحس عبد الله بأن إبراهيم فعلًا هو رئيس هذه الدعوة ولكنه يداري. فلما احتار مروان بن محمد في شيخ الهاشميين الذي يحتمل أن يكون رئيس هذه الدعوة؛ استدعى إليه شيخهم عبد الله هذا في حران، فلما حضر إليه واتهمه بهذه الدعوة تبرأ منها، وحلف له أنه بريء من هذه التهمة، وبايعه ومن ضمن ما صرح به له أن إبراهيم هو صاحبها.. فمن هنا عرفه مروان[1].

ومنها ما يقول: إن رجلًا دخل في دعوة العباسيين وتدرج في المراتب، وحاز الثقة حتى صار رسولًا بين أبي مسلم والإمام إبراهيم، ولما كان في الطريق بين خراسان والشام عدل إلى مروان بن محمد فأخبره خبر الدعوة؛ فمن هنا تمكَّن مروان من معرفة إمام الدعوة[2]. وفي النفس شكٌّ من هذه الرواية؛ فإنها لا تنسجم مع ما سلكته الدعوة العباسية من احتياطات ومحاذير، لا سيما وأن بقيتها تُفيد بأن هذا الواشي ظلَّ في مكانه القيادي؛ بل وتولى قيادة في جيش أبي جعفر، ثم تولى ولاية «دارا» حتى اكتشف أمره بطريقة غير معروفة فقُتِل!

وأسوأ من هذه الرواية وأشد هزلًا تلك التي تقول بأن أمويًّا تطوع أمام مروان بأن يعرف رئيس الدعوة؛ فذهب إلى قحطبة بن شبيب وقال له: أتيت أبايعك؛ ولكن لِمَنْ؟ فقال قحطبة: للرضا من آل محمد. فقال الرجل: هذه بيعة مجهول لا تصح، ولا بد لي أن أعرف؛ فآل محمد كثير. فاضطر قحطبة إلى أن يعلن اسم الإمام خوفًا من أن يُؤَثِّر كلام الرجل في جنده، ومن هنا عاد الرجل بالخبر إلى مروان[3]. إذ لا يُصَدَّق أن شيئًا كهذا يُقال نتيجة استفزاز في مناظرة كلامية، ولا نحسب أن قحطبة أقلَّ حصافة من أبي مسلم الخراساني الذي وُوجه بهذا السؤال من قبل على لسان رسولي نصر بن سيار أول ظهور الدعوة، وعلى ألسنة مجموعة طلبة العلم حين ازداد ظهور الدعوة، ولا شك في أحايين أخرى كثيرة.

وأسوأ من الجميع رواية تذكر أن أبا مسلم الخراساني أرسل إلى الإمام رسالة مع رجل يحسن العربية؛ ولأن إبراهيم كان حريصًا على السرية فإنه كان قد أوصى أبا مسلم بأن يكون

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٨٧ – ٣٨٩.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢١، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٤.

(٣) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٩١.

الرسول ممن لا يحسنون العربية؛ لئلاً يعرف ما في الرسالة، فكان مما ردَّ عليه به أن اقتل هذا الرسول إن جاءك، فقرأ الرسول هذه الرسالة وذهب بها إلى مروان بن محمد(١). وهي رواية ظاهرة التلفيق.

وثمة رواية أخرى وهي الأشهر، مفادها أن نصر بن سيار عَلِم اسم الإمام بطريقة ما، وأرسل بهذا إلى مروان بن محمد، وحين بدأ مروان في القبض على إبراهيم وجد عنده رسول أبي مسلم إليه وجوابه إلى أبي مسلم؛ وفيه: «ألا يدع عربيًّا في خراسان إلا قتله». فمن هنا تمَّت الحكاية(٢). وهذه الرواية -أيضًا- ضعيفة أو على الأقل هذا الجزء الذي يتحدَّث عن قتل العرب؛ كما سبق وأوضحنا من قبل.

وعلى كل حال فتحقيق طريقة الاعتقال ليس مما يهم الناس الآن، وإن كان الأقرب إلى ما نعرفه من معلومات، وما ينسجم معها أن رصدًا لشيوخ الهاشميين قد أسفر عن الإمساك برسول يأتي برسالة أو يذهب برسالة.

قُبِض على الإمام إبراهيم وحُمِل إلى مروان بن محمد، فلما دخل على مروان قال له: ما هذه الجموع التي خرجت بخراسان تطلب لك الخلافة؟ قال له إبراهيم: ما لي بشيء من ذلك علم، فإن كنت إنما تريد التجني علينا فدونك وما تريد. ثم بسط لسانه على مروان، فأمر به، فَحُبِس(٣)، وتذكر روايات أخرى أنه لم يُنكر؛ بل واجهه بشجاعة؛ حتى إن مروان بن محمد سأله: أيَرْجو مثلك أَن ينال الخلافة؟ فَقَالَ: رجوتَها وقُلدّتَها وأنت ابْن طريد رَسُول الله ولعينه، وكيف لا أرجوها وأنا ابْن عمِّه ووليه(٤)!

سقوط جلولاء

جهز يزيد بن هبيرة جيشه من أهل الشام، ونزل به في مدينة جلولاء، وبنى خندقًا حولها وخزن الأسلحة والأطعمة استعدادًا لحرب طويلة، وكان قراره هذا بناء على ما وصلت إليه جيوشه من الحالة المعنوية المتدهورة، فكان تقديره أنه إذا تحصن داخل المدينة بحيث تطول الحرب،

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ٢٠٤.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٩٢، ٣٩٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣١٥.
(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٥٨.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢١.

فإن هذا سيكسر هيبة الهاشميين في نفوس جنوده، كما سيكسر اندفاعة جيشهم فيُؤَثِّر في معنوياتهم. لكنَّ قراره هذا واجه بعض الاعتراضات؛ من أهمِّها ما قاله واحد من قواده وهو الحوثرة بن سهيل: إنما يُخَنْدِق الرجل إذا كان ما وراءه وما حواليه في يده، وأنت قد فسد عليك من على يمينك وشمالك وتحت قدمك، وقد طمع فيك عدوك، والرأي لك المناجزة، فإما لك وإما عليك، وهو ما اتفق معه غالبُ مَنْ كان في جيش ابن هبيرة، لكنه أصرَّ على قراره هذا[١].

وكان رأي الحوثرة نفيسًا بالفعل، وكان عدم الأخذ به من أسباب مزيد من التدهور في العراق؛ وذلك لأن أهل العراق لم يكونوا سندًا ولا ظهرًا للأمويين، وهو ما سيستفيد منه العباسيون.

لم يكن قحطبة على دراية كاملة بالوضع في العراق، فاتخذ قراره بالتوجه إلى حرب ابن هبيرة في جلولاء، لكن رسالة وصلت من أبي سلمة الخلال، وهو الخبير بحكم موقعه بأحوال العراق، جعلته يعدل عن هذا القرار. أرسل إليه أبو سلمة بألا يحاول لقاء ابن هبيرة، بل أن يتجنبه ويتوجه مباشرة إلى الكوفة، لأن أهل الكوفة مستعدون للانضمام إلى هذه الدعوة، وعليه فينبغي أن يسرع ما استطاع في كسب الأراضي، وبالتالي كسب الأقوام وازدياد أعداد الجيوش العباسية. وكان -أيضًا- خبر اعتقال الإمام إبراهيم[٢].

وهنا تغيرت خطَّة قحطبة من حصار جلولاء -حيث جيش ابن هبيرة- إلى الاندفاع نحو العراق، ولكنه أشاع أنه سيسير إلى جلولاء زيادة في خداع ابن هبيرة، وبالفعل لم يشعر ابن هبيرة بالخديعة إلا حين أتته الأخبار بتحرك جيش قحطبة نحو المدائن، فانسحب انسحابًا سريعًا نحو «الدسكرة» تاركًا خلفه في جلولاء كثيرًا من الغنائم والذخائر، وما إن علم قحطبة بهذا الانسحاب حتى رجع إلى جلولاء فدخلها، وأخذ ما بقي فيها من غنائم وذخائر، وأحرق ما لم يستطع أن يأخذه معه، وحاول أن ينفذ عملية مطاردة لفلول جيش ابن هبيرة المنسحب؛ إلَّا أنَّ الجيش المنسحب كان قد ابتعد بالفعل[٣].

وبهذا تكون الخطَّة الفاشلة لابن هبيرة قد أنفقت الوقت والجهد والأموال في عملية

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٨.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦٤.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٦، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦٤، ٣٦٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٨.

فاشلة تمامًا، كان سيدها سوء التقدير وعدم الاستماع للنصيحة.. كما أن جهد أبي سلمة الخلال ورسائله التي تصل في الوقت المناسب كانت ذات الفضل الأكبر في تغير خطَّة قحطبة، التي انتهت إلى دخول جلولاء بأيسر مما كان أحد يتوقع؛ بل وأن يغنم ما خلفه جيش الأمويين أثناء انسحابه المتعجل.

ثم أشاع قحطبة أنه متوجه إلى المدائن، وعلى هذا استعد ابن هبيرة؛ حتى جاءته الأخبار بوجهة قحطبة الحقيقية وهي الكوفة؛ حتى التقى الجيشان أخيرًا -بعد مراوغات ومعارك محدودة لسرايا جيش قحطبة- في منطقة غرب الفرات (٥ من المحرم ١٣٢هـ)[١].

الكوفة تلبس السواد

للأسف الشديد لم تُكْتَب مصادر تكشف دور أبي سلمة الخلال المحوري والمركزي والشديد الأهمِّيَّة في صناعة الثورة ثم الدولة العباسية، أو لعلَّها كُتِبَت ولم تصل إلينا ضمن ما ضاع من تراثنا المفقود؛ لكنَّ أبا سلمة لا يظهر كثيرًا في المصادر التي بين أيدينا، وحتى ظهوره القليل هذا كان دائمًا ظهورًا فارقًا وحاسمًا ومتسببًا في تأثيرات قوية في لحظات شديدة الحرج.

بدا هذا في إدارته لأمر المعارك بالتواصل مع قحطبة قائد الجيش الآتي من خراسان، وهي الإدارة التي نجحت ببراعة في كسب الأرض والمعارك والمدن والأنصار دون خسائر تذكر، غير أن ثمة معركة أخرى لا يكاد يُلتَفَت إليها كان يديرها أبو سلمة داخل الكوفة مع العشائر والزعماء وأنصار آل البيت، وإليك واحد من أهمِّ هذه التحركات:

لما عبر قحطبة نهر الفرات، وصار في أرض العراق، أرسل أبو سلمة الخلال إلى زعيم اليمانية في الكوفة محمد بن خالد القسري رسولًا يقول له: قد كنت تتمنى هذا اليوم، فقد بلغته، فأظهر السواد، واخرج في مواليك وعشيرتك وصنائع أبيك[٢]، فبعث إلى مواليه وقومه وجيرته وصنائع أبيه، فاجتمع إليه منهم نحو من ألف رجل، فأخبرهم برأيه وما أجمع عليه، وأمرهم ألا يبيتوا حتى يكونوا قد لبسوا السواد. ثم بعث أبو سلمة بمثل ذلك إلى زعيم آخر هو طلحة بن إسحاق بن محمد بن الأشعث الكندي فتأهب، ثم سَرَّب أبو سلمة إلى

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦٦، ٣٦٧، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٩، ٣٤٠.

(٢) وأبوه هو الزعيم الكبير خالد القسري، الوالي على الكوفة أيام هشام بن عبد الملك.

جماعة طلحة بن إسحاق أنصار العباسيين في الكوفة، ومن يتبعون رأي أبي سلمة من أهله وجيرانه، فساهم هؤلاء في دفع طلحة بن إسحاق وقومه إلى الخروج على نحو ما فعل محمد بن خالد القسري، وبهذا انقلب حال الكوفة إلى ولاء العباسيين في ذلك الوقت الحرج؛ حتى إن صاحب الشرطة (وزير الداخلية) الأموي لم يجد إلا الهروب واللحاق بابن هبيرة في معسكره، ودخل محمد بن خالد القسري قصر الكوفة، الذي صار خاليًا، وتبعه في هذا طلحة بن إسحاق[١].

وصعد محمد بن خالد القسري منبر الجامع، وخطب قائلًا: «يا أهل الكوفة إن الله قد أكرمكم بهذه الدعوة المباركة، وقد طلبها الأبناء بعد الآباء، فَحُرِموها حتى ساقها الله إليكم، هذه جنود الحق قد أظلتكم، داخلة عليكم أحد اليومين، فقوموا فبايعوا». فاستبق الناس إلى البيعة حتى كادوا يكسرون المنبر من التزاحم، وما تخلف عن البيعة إلا أناس قليل. وأشار أبو سلمة عليه بحيازة ما في بيت المال والخزائن، فكان ما أشار به، ثم أرسل أبو سلمة بكل ما فعل إلى قحطبة، وأمره أن يقرأ رسالته على الجنود، ولا شك في أن أثرها على قحطبة وعليهم لا يكاد يوصف[٢].

إن أبا سلمة الخلال يستحق أن تفرد له دراسة تحلل هذه الموهبة في التخطيط والتنفيذ والإدارة.

وانتبه ابن هبيرة متأخرًا لخطورة خلو الكوفة من الجند، لا سيما بعد أن صار قحطبة في غرب الفرات، فأرسل إليها الحوثرة بن سهيل كإجراء استباقي خوفًا من أن يسبق إليها جيش قحطبة، لكنَّ الحوثرة عندما وصل وجد الكوفة قد خرجت من سلطان ابن هبيرة، وتولى أمرها محمد بن خالد القسري، فلم يستطع أن يدخلها[٣].

وفوق ذلك ساهم خروج الحوثرة في ضعف الجيش الأموي؛ الذي صار الآن في مواجهة جيش قحطبة عند الفرات، فكأنما كانت سيرة الأمويين وولاتهم في هذه الفترة سلسلة من الأخطاء القاسية!

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٩، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦٧، ٣٦٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٤٣.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦٨ وما بعدها.
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٩، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٦٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٦٠.

قائد مقتول وجيش منصور!

تواجه الجيشان بالقرب من «الفلوجة»، ولم يجر بينهما قتال كثير، كان قحطبة مشغولًا بأن يجد مخاضة يمكن عبور الجيش منها إلى الضفة الأخرى؛ حتى وجدها بإرشاد أعرابي خبير من أهل المكان، فاختبرها فوجدها كما قال الأعرابي صالحة لعبور الجيش، وفي هذه الأثناء كان جيش ابن هبيرة على الضفة الأخرى مفتقدًا للتماسك؛ إذ كثرت المسافات بين وحداته، فقيادته على المقدمة قد ابتعدت عن الساقة، فانتهز قحطبة هذا العيب ودفع بسرايا من جيشه عبرت المخاضة، وقاتلت الجيش من خلفه، واستطاعت إلحاق الهزيمة بمجموعة منه، وما إن انتهى هذا حتى كانت مؤخرة جيش الأمويين بقيادة محمد بن نباتة قد لحقت بموضع القتال، فنشب قتالٌ جديد كانت اليد العليا فيه لمحمد بن نباتة؛ الذي حاصر المجموعة العباسية؛ حتى على الرغم مما أتاها من إمدادات أخرى. وفي هذه الأثناء كان رسول أبي سلمة الخلال قد وصل إلى أرض المعركة، وبَشَّر الجيش بأن الكوفة قد دخلت في ولاء العباسيين؛ فكان خبرًا عظيمًا، ارتج له الجيش العباسي بالتكبير، فَكَبَّرت السرايا التي عبرت إلى الضفة الأخرى؛ مما أوقع في نفوس الشاميين أكثر وأكثر وقالوا: قد أتاهم شيء سُرُّوا به. فمن هنا ظهرت الهزيمة في جيش الشام، ولم يأتِ الليل حتى كان قحطبة يعبر المخاضة بجيشه كله، ويحمل وراء كل فارسٍ واحدًا من الرَّجَّالة، ولم تكن معركة كبيرة؛ ولكنه كان نصرًا مؤثِّرًا(١).

إلا أن المعركة أسفرت عن خبر مؤسف للعباسيين؛ إذ فقدوا قائدهم الكبير قحطبة بن شبيب الذي قادهم من نصر إلى نصر، فخرج بهم من خراسان حتى دخل العراق وما بقيت له إلا خطوة إلى عاصمة العراق وعاصمة العباسيين «الكوفة»، وكان من المُرَجَّح أنه قد غرق، وذلك (٨ من المحرم ١٣٢هـ)؛ فكان خبرًا قاسيًا نزل بالجيش العباسي، لكنهم تداركوا الأمر، ولم يتركوا فرصة لدخول الضعف إليهم؛ فاجتمعوا على تولية ابنه حميد على الجيش(٢).

وهكذا انتصر الجيش على الرغم من أن قائده قد قُتِل!!

ولا بُدَّ لنا من وقفة مع هذا البطل الكبير قحطبة بن شبيب الطائي..

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٦، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٧٠، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٩ - ٣٤٢.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٦، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٧١، وابن قتيبة: المعارف ص٣٧١.



لقد كانت ميتة قحطبة بن شبيب هي الأفضل من بين ميتات كل أصحابه نقباء الدعوة من قبل ومن بعد، فهو الوحيد من بينهم الذي كتبت له ميتة الأبطال الكبار بعد مجموعة من الانتصارات العظيمة، فمن مات قبله فإنما مات قتيلًا مستضعفًا كأبي عكرمة السراج وحيان العطار، أو مات قبل أن يرى زمن الفتوح والنصر منذ سلمة بن بجير وحتى بكير بن ماهان.. وأما من عاشوا بعده من النقباء فسنرى كيف عاشوا وماتوا فيما سيأتي من الحوادث إن شاء الله، فلو شاء الله أن يطلع قحطبة على الغيب ما اختار غير هذه القتلة في هذا الوقت!!

قحطبة بن شبيب من السابقين إلى الدعوة، ومن النقباء الاثني عشر في خراسان، ومن الأربعة الذين تعرفوا على أبي مسلم وأخذوه للإمام، أثبت في شهور أنه واحد من أعظم القادة العسكريين ولسنا نعرف الكثير عما إذا كانت له تجارب عسكرية سابقة في الفتوح مثلًا أم لا، فلو أن له تجارب فمن المؤسف أنها لم تصل إلينا، وإن لم تكن له فأي موهبة تلك التي كانت تنتظر المقادير لتفجرها، فلا ينهزم في معركة قطُّ أمام خيرة الفرسان والأبطال وذوي التجارب؟!

يقول الشيخ عبد العزيز الثعالبي[١]:

«من المسائل العويصة التي لم يقف على كنهها الحكماء: هل الحوادث تُكَوِّن الرجال، أم الرجال يُكَوِّنون الحوادث؟ لذلك لا نستطيع أن نبت في أمر قحطبة والحوادث التي جرت بين يديه، فإن كان هو مُوجدها فهو أعظم قائد عسكري على الإطلاق، وإن كانت هي التي أظهرته فأمرها جدير بالعجب»[٢].

جيش ابن هبيرة ينهار ويخرج من المعركة

وعلى الجانب الآخر، حاول ابن هبيرة أن يُعيد تجمع الجيش؛ فنصب خيمته وأوقد نارًا على بعد فرسخ من المعركة حتى ينحاز إليها المنسحبون من الجيش، لكنَّ المعنويات المنهارة

(١) عبد العزيز الثعالبي (١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ = ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م): هو عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي، أديب وكاتب وخطيب وزعيم تونسي، من أبرز مقاومي الاحتلال الفرنسي، عانى السجن والنفي والتشريد في مصر وسوريا والعراق والحجاز والهند وفرنسا. الزركلي: الأعلام ٤/ ١٢، ١٣، وعمر كحالة: معجم المؤلفين ٥/ ٢٤٠.

(٢) عبد العزيز الثعالبي: سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ص١٧٦.

حملت أكثر الناس على تركه؛ حتى اضطر إلى أن يُوقف مناديًا يُنادي أنها خيمة الأمير ابن هبيرة، لكنَّ هذا لم يصنع شيئًا ذا فائدة، ولما قَدِم عليه القائد محمد بن نباتة -وهو قائد المؤخرة- كان الموقف واضحًا بأن الأمر لم يَعُدْ يحتمل العسكرة في هذا المكان، وأشار عليه أن ينطلق إلى الكوفة، وهذا على أساس ظنهم بأن الكوفة ما زالت في سلطة الأمويين ويحكمها الحوثرة بن سهيل -الذي أرجعه ابن هبيرة إليها خشية انفلات جيش قحطبة- لكنَّ أحد المستشارين واسمه طارق بن قدامة القشيري عارض الرأي على أساس أن خبر هزيمة الجيش يوشك أن يصل إلى الكوفة؛ مما سيجعل الأمر صعبًا، فمن ثم اتفقوا على الاعتصام بمدينة واسط[(١)].

ومدينة واسط هي إلى الشرق من الكوفة، والاعتصام بها يعني الخروج من المعركة وانتهاء دور هذا الجيش من هذه المهمَّة في مواجهة العباسيين.

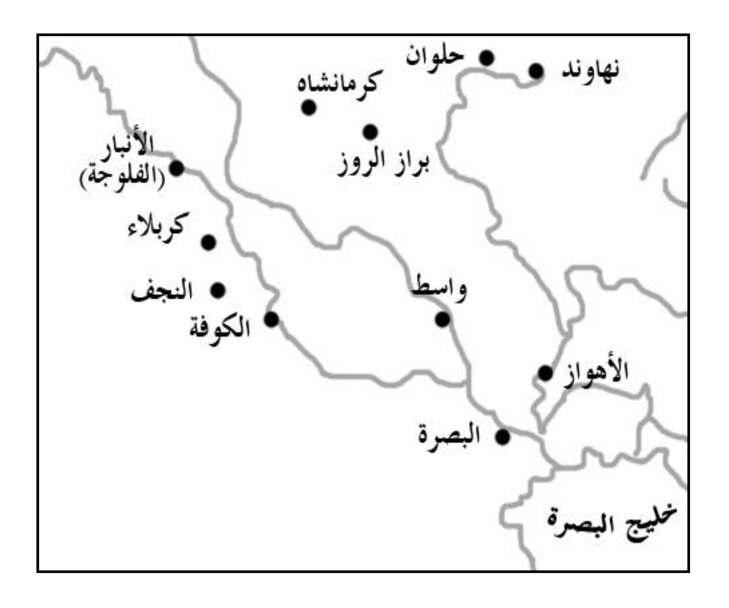
كان يمكن لابن هبيرة أن ينسحب بالجيش وينضم إلى الجيش الرئيسي؛ الذي يقوده مروان بن محمد، وقد قال له يحيى بن حضين: لا شيء تفعله لمروان أحب إليه وأثمن عنده من أن تنضاف إليه هذه الجنود. ولكن العلاقة المتوترة بين ابن هبيرة ومروان بن محمد -كما بدا في الرسائل المتبادلة بينهما- جعلت ابن هبيرة يخشى من مروان، ويفضل الانسحاب إلى واسط؛ على الرغم من أنها لا تُعَدُّ مكانًا جيدًا عسكريًّا؛ بل هي بؤرة حصار[(٢)]، ولكن لعلَّه كان يأمل في الصمود حتى ينتصر جيش مروان على جيش قحطبة.

ثم وصلتهم الأنباء بعدئذٍ بخروج الكوفة من سلطة الأمويين ومقتل قحطبة بن شبيب؛ فما كان من هذه الأخبار إلَّا أن ساهمت في تفرق الجيش الشامي عن ابن هبيرة، فمنهم من انحاز إلى العباسيين، ومنهم من ترك الجيش الشامي إلى وجهة أخرى، ومنهم من اتجه إلى الشام، ثم أرسل ابن هبيرة إلى مروان بن محمد رسالة بما قد كان من الهزائم وانسحاب الناس عنه وسيطرة العباسيين على الكوفة، ويبرر فيها مقامه بمدينة واسط بأنه بهذا يمثل خطًّا متقدمًا للجيش الأموي في الشرق؛ حين يأتي الجيش الأموي من الشام ويستخلص الكوفة من الهاشميين، وهي الرسالة التي أثارت غضب مروان بن محمد؛ لا سيما من أن الجيش

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٧٢، وابن قتيبة: المعارف ص٣٧١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦١.

المنصور قد قُتِل قائده، بينما نجا قائد الجيش المنهزم[١].



العباسيون في الكوفة

وصل جيش العباسيين بقيادة حميد بن قحطبة إلى الكوفة، وقبيل دخولها كان قد وصلهم كتاب أبي سلمة الخلال يأمرهم بدخولها على أفضل هيئة وأبهى منظر، ففعلوا، ووقعت هيبتهم في القلوب، وسار قواد الجيش العباسي إلى أبي سلمة وقبلوا يده، وأعلنوا الولاء له، وبدخول جيش العباسيين إلى الكوفة صار أبو سلمة الخلال هو القائم بأمرها، ومشى والجيش يحف به حتى قام خطيبًا، والناس يسلمون عليه ويقبلون يده، وكان مما خطبه قوله:

«إن الله قد أكرمكم بهذه الدعوة المباركة، التي لم تزل القلوب تتشوق إليها فخصكم الله بها، وجعلكم أهلها، ألا وإنه ليس لأحد فيها شرف إلا بعدكم، ولا منزلة في حباء ولا في مجلس ولا مدخل ولا مخرج عند أئمتكم إلا دونكم، ألا وإنها دولتكم فاقبلوها وأيقنوا بنصر الله إياكم كعادته فيما أبلاكم حتى بلغكم ما أنتم فيه، فاعتبروا ما بقي بما مضى، وتحفظوا من خدع السفهاء وتزيين شياطينهم لكم اتباع أهوائهم؛ فإنهم سيقرعون لكم بالحسد على هذه

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٧٢، ٣٧٣.

النعمة، فاتهموهم ولا تقاربوهم ولا تطعموهم في أنفسكم؛ فيردوكم على أعقابكم، وأبشروا بالخير الكثير في عاجلكم إلى ما قد ذخره الله لكم في آجلكم».

وأجابه الناس بالهتاف والطاعة والعزم على الصبر ومواصلة الجهاد.

وأعلن أبو سلمة أنه سيزيد العطاء (الرواتب) فبدلًا من ثلاثمائة درهم في العام كما كان في عهد بني أمية؛ فإنه سيعطي ثمانين درهمًا في الشهر الواحد (أي ٩٦٠ درهمًا في العام)، وهذا للعامة، وأما الخاصة والمقدمون فهم أعلى من ذلك في العطاء، ومارس أبو سلمة من هذه اللحظة إدارة الأمور بنفسه لا عبر الرسائل، فوجه الجيوش والسرايا إلى واسط وإلى غيرها من الجيوب الأخرى، وولَّى الأعمال والولايات والدواوين، وجبى الخراج من الأقاليم التابعة للكوفة، وبدأ في حشد الأجناد لمواجهة جيش مروان بن محمد القادم من الشام، وراسل أبا مسلم الخراساني ليرسل إليه بالجنود؛ فبعث أبو مسلم لَمَنْ يتبعه من القادة والقبائل، فأخرجوا له أعدادًا من الجنود بعثها إلى أبي سلمة الخلال[١].

إلا أن ثمة حدثًا قد وقع ينبغي الإشارة إليه، ذلك أن أبا سلمة الخلال وهو يرسل الولاة من قِبَلِه إلى الأقاليم، أرسل ولاته إلى منطقة فارس، وكان عليها محمد بن الأشعث واليًا من قِبَل أبي مسلم الخراساني، فلما وصل ولاة أبي سلمة أرسل محمد بن الأشعث إلى أبي مسلم بما حدث، فكان قرار أبي مسلم أن يداريهم ويوافقهم حتى يطمئنوا إليه، فلما اطمأنوا إليه قَيَّدهم، وما هو إلَّا أنَّ أرسل أبو مسلم رجلًا من عنده فقتلهم[٢].

وهذا أول تنافس يظهر على السلطة بين دعاة بني العباس؛ فأبو سلمة أراد أن يجعل فارس تابعة له ولسلطته، وأن يجعل أبا مسلم نفسه واحدًا من ولاته؛ الذين يستطيع أن يوليهم ويعزلهم، فيما أعلن أبو مسلم -عمليًّا، بهذا التصرف- أنه صاحب الأمر في خراسان وفارس، وأنه مستقل عن أبي سلمة؛ بل وأنه على قدر أبي سلمة نفسه، وأن فارس وخراسان على قدر الكوفة نفسها، ولم تعد تابعة لها.. إنها أول إثبات عملي لرغبة أبي مسلم في الانفراد بأمر خراسان.. وهو الأمر الذي سيؤدي إلى كثير من الحوادث التالية.

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٦، ومجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٧٤- ٣٧٨.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٧٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٥.

مقتل الإمام إبراهيم

كما تعددت الروايات في طريقة اعتقال الإمام إبراهيم؛ فإنها تعددت في طريقة موته؛ فرواية تقول: إنه مات في السجن بعد عشرين يومًا من حبسه.

وروايات تقول: مات مسمومًا في لبن أُعْطِي له. وروايات تقول: مات خنقًا. وأخرى تقول: هدم مروان على إبراهيم بيتًا فقتله. وأخرى تقول: قُيِّد بالحديد والأثقال ثم ضُيِّقت عليه الحلقة حتى مات(١).

إلا أنه استطاع قبل موته أن يؤكد الوصية لأخيه أبي العباس عبد الله بن محمد؛ إما شفاهة وإما عبر رسالة استطاع تسريبها بطرق تعددت فيها الروايات كذلك(٢)، وكان عمره يوم مات في حدود الخمسين عامًا(٣).

ولأن إبراهيم كان من رجال الكرم والفضائل فقد كُتِبت فيه مراثي مؤثِّرة، منها قول الشاعر ابن هرمة:

نَاعٍ نَعَى لِي إِبْرَاهِيمَ قُلْتُ لَهُ ... شُلَّتْ يَدَاكَ وَعِشْتَ الدَّهْرَ خَزْيَانَا

وَلا رَجَعْتَ إِلَى مَالٍ وَلا وَلَدٍ ... مَا كُنْتَ حَيًّا وَمَا سُمِّيتَ إِنْسَانَا

تَنْعِي الإِمَامَ وَخَيْرَ النَّاسِ كُلِّهِمُ ... أَخُنْتَ عَلَيْهِ يَدَ الجَعْدِيِّ مَرْوَانَا

فَاسْتَدْرَجَ اللهُ مَرْوَانًا بِقُدْرَتِهِ ... سُبْحَانَ مُسْتَدْرِجِ الجَعْدِيِّ سُبْحَانَا

فَأَصْبَحَ الْقَوْمُ لمْ تُطَلَّلْ دِمَاؤُهُم ... وَكَانَ حِينُ بَنِي مَرْوَانُ قَدْ حَانَا(٤)

كان لغياب الإمام إبراهيم في هذا الظرف الحرج تأثير سلبي على أهل الدعوة؛ إذ حدث انشقاق محدود في نيسابور يقوده رجل يسمى أبو خالد، رأى هو وأتباعه أنه بموت الإمام إبراهيم فإن الوصية تعود إلى آل علي، إلَّا أنَّ أبا مسلم الخراساني لم يدع الفرصة لمثل هذا؛

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٩٥ – ٣٩٧، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٢، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٥٨. وابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ٢٠٤ وما بعدها، وابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٦، والصفدي: الوافي بالوفيات ٦/ ٧٠.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٤٠٠ وما بعدها، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٣، ١٢٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٢، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ٢٠٤.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٦.

فأخذ في قتالهم ومطاردتهم؛ حتى أنهى أمرهم بشكل عملي، ولم يَعُدْ لفلولهم وجود؛ إلَّا مَنِ استطاع منهم الهرب إلى بلاد ما وراء النهر، وإن كان لم يظفر بأبي خالد الذي ظلَّ متخفيًا[١].

سبع سنوات فقط منذ أن تولى الإمام إبراهيم قيادة الدعوة خلفًا لأبيه محمد بن علي، فيها تغيرت قيادات الدعوة فقد مات بكير بن ماهان كبير الدعاة في الكوفة والرجل الثاني في التنظيم، وتولى الأمر صهره أبو سلمة الخلال؛ كذلك تنحى سليمان بن كثير في خراسان؛ ليتولى الأمر الشاب الموهوب أبو مسلم الخراساني.. وجرى الخلف على مجرى السلف بوتيرة أسرع، وساعدتهم الانشقاقات التي أصابت الأمويين في أن تخرج الدعوة من طور الدعوة السرية إلى طور الدولة، كانت وظيفة إبراهيم فيها ليس أكثر من تلقي الأخبار والتقارير، وفحصها لمعرفة شأن الدعوة الداخلي، ومتابعة أحوال الدولة لمعرفة الوضع الخارجي، ثم إصدار الأوامر والتعليمات، وقد كان مُوَفَّقًا في هذا الدور إلى أبعد حدٍّ، وإليه يعود الفضل في اختيار توقيت إعلان الدعوة والخروج بها، وهو وإن لم يشهد بعينيه قيام الدولة؛ فهو بغير شك كان يعرف أنه ترك الدنيا وقد اكتملت المهمَّة وقامت الدولة.

الخطأ القاتل لأبي سلمة الخلال

ما إن وصل خبر مقتل الإمام إبراهيم في سجن مروان بن محمد إلى آل بيته في الحميمة، إلا ونهض أبو العباس أخوه فجمع أهل بيته، وانطلق بهم نحو الكوفة، وذلك إما عن تدبير أبي العباس وإما عن وصية الإمام إبراهيم بحسب الروايات التي تُثْبِت الوصية، وفي الطريق انضم إليه عمه داود بن علي وأهل بيته[٢].

وصل أهل بيت الإمامة أخيرًا إلى الكوفة، عاصمة الدولة المنشودة (صفر ١٣٢هـ)، وكانت قد دخلت بالفعل في سلطان العباسيين، ترى كيف كان يراها أبو العباس عبد الله بن محمد حين دخلها في هذه اللحظة؟ وكيف رآها أخوه أبو جعفر، وأعمامه عبد الله بن علي، وصالح بن علي، وداود بن علي.. لقد تحقق الحلم الكبير أخيرًا.. تحقق بعد أكثر من ثلاثين سنة.. لقد بدأ التخطيط لهذه اللحظة من قبل أن يولد أبو العباس السفاح؛ الذي هو الآن في الثامنة والعشرين من العمر.. وهاهم يرثون مُلْكًا قد وَطَّأَه لهم أبوهم محمد بن علي العباسي، ثم أخوهم إبراهيم بن محمد!!

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٤٠٣، ٤٠٤.

(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٤١٠، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٢٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٤٥، ٣٤٨.

على أن الأمور سارت بشكل غير متوقع؛ فلقد استقبلهم بطبيعة الحال أبو سلمة الخلال كبير الدعاة ومتولي أمر الكوفة، وتوثق من أن أبا العباس عبد الله بن محمد هو الإمام بوصية من الإمام إبراهيم، وأنزلهم دار الوليد بن سعد، وكتم أمرهم تمامًا عن بقية النقباء والدعاة في الكوفة، كما منعهم تمامًا من الظهور بحجة أن الوضع لم يصبح آمنًا بعدُ[١]..

من المهم أن نتذكَّر أن أبا سلمة الخلال كان من أتباع أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بادئ الأمر، وأنه انضم إلى دعوة العباسيين اتِّبَاعًا لسلمة بن بجير -الرجل الثاني بعد أبي هاشم وأقرب أصحابه إليه- حين تحول إلى اتِّباع محمد بن علي العباسي بعد أن علم بوصية أبي هاشم إليه.. فأصل الميل عند أبي سلمة إنما هو للعلويين، ودخوله إلى دعوة العباسيين إنما كانت بدايتها دعوة العلويين، ولعلَّه أدرك في هذه اللحظة أن العباسيين إنما يريدونها لأنفسهم دون العلويين؛ فها هو إبراهيم بن محمد يوصي لأخيه أبي العباس السفاح؛ وهو الذي لم يبلغ الثلاثين بعدُ، على الرغم من وجود مشايخ العلويين؛ فقرر أن يحبط هذا المخطط ويصرفها إلى العلويين، أو لعلَّ هواه العلوي القديم قد راجعه مرة أخرى؛ فرأى أنهم الأحق بها؛ ما دام أن الدولة قد قامت على الدعوة التي كانوا هم بدايتها.

أيًّا ما كان الذي دار في عقل أبي سلمة أو في قلبه، فلقد اتخذ قراره بصرف الخلافة عن أبي العباس السفاح إلى واحد من مشايخ العلويين[٢].

ظلَّ أمر أبي العباس وأهل بيت الإمامة مكتومًا مدة أربعين يومًا في دار الوليد بن سعد، لا أحد يعرف أنهم قدموا، ولا هم يعرفون ما الذي يدور من أخبار الصراع مع الأمويين، ولا يدرون أن الكوفة عاصمتهم قد دخلت في سلطانهم بالفعل، وأبو سلمة يُعلن لأهل الدعوة -لا سيما الخراسانيين- أن الإمام لم يقدم بعد، وفي هذه الأثناء راسل هو ثلاثة من شيوخ العلويين؛ هم: جعفر الصادق، وعبد الله بن الحسن، وعمر الأشرف بن زين العابدين، وعرض عليهم الإمامة، لكنَّ جعفر الصادق أحرق الكتاب كما رفض عمر الأشرف، فيم تردد عبد الله بن الحسن في قبول الأمر، وأراد أن يصرفها إلى ابنه محمد لكبر سنه هو، غير أن جعفر الصادق نصحه بألا يفعل، وقال: «يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٤٥، والتنوخي: الفرج بعد الشدة ٤/ ٢٧٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٤٨، ٣٤٩.

أأنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ أأنت أمرته بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا إلى العراق أأنت كنت سبب قدومهم؟ أو وَجَّهت فيهم؟ وهل تعرف منهم أحدًا؟»[١].

وفي المقابل ارتاب أهل الدعوة، لا سيما أولئك الذين قدموا من خراسان، في أمر أبي سلمة، واستطاع أبو الجهم أن يكتشف مكان أبي العباس الإمام، فأخذ قوة من الخراسانيين وذهب إلى دار الوليد بن سعد، فانكشفت كل الأمور لكلِّ الأطراف، وبايع أبو الجهم ومن تبعه أبا العباس خليفة، وما هو إلَّا أن جاء أبو سلمة الخلال مسرعًا ومبايعًا ومعتذرًا، وأبدى له أبو العباس العفو قائلًا: «عذرناك يا أبا سلمة غير مفند، وحقك لدينا عظيم، وسالفتك في دولتنا مشكورة، وزلتك مغفورة، فامضِ إلى عسكرك لا يدخله خلل»[٢].

وهكذا.. ظهر الإمام علنًا، وبايع الجند والناس، وصار أبو العباس عبد الله بن محمد أول خليفة في الدولة العباسية (ربيع الآخر ١٣٢هـ).

ومن هنا بدأت دولة بني العباس..

* * *

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٢٣٧ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٤٦ وما بعدها، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٢٣.

وقفة في تقييم الثورة العباسية

عماد الثورة العباسية

لوقت طويل سادت الفكرة القائلة بأن الثورة العباسية هي ثورة الموالي ضد الحكم العربي، وهي الفكرة التي أثبت البحث الحديث أنها غير صحيحة، وقد بدأت من عند المستشرق الهولندي فان فلوتن وأيده الألماني فلهاوزن، وتبع هذا التفسير عدد من الباحثين العرب[١]. وعلى الرغم من أن فلهاوزن انتبه إلى العنصر العربي الواضح في الثورة العباسية؛ فإنه أرجع ذلك لعامل العصبية وحده، إلَّا أنَّ بعض المستشرقين -أيضًا- لم يوافقوا على هذه الرؤية؛ ومنهم جِب وبرنارد لويس ودانيال دانيت، وهذا الأخير كان أول من أعلن بوضوح رفضه لما قاله فلوتن وفلهاوزن، وأوضح -من خلال دراسة موسعة عن مروان بن محمد- أن الثورة هي ثورة عرب خراسان لا مواليها. ثم جاء د. عبد الحي شعبان فأثبت من خلال دراسة موسعة لحالة خراسان طوال العصر الأموي، أن العرب الذين استقرُّوا في خراسان واندمجوا بالسكان الإيرانيين، وكانوا أكثر مَنْ عانى من الحالة الاقتصادية والسياسية في خراسان، أولئك هم الذين كانوا جسم الثورة الأساسي لا الموالي، وأن هؤلاء العرب كانوا قد تجاوزوا إلى حدٍّ ما العصبيات القبلية القديمة، وساعدت مستجدات الأوضاع في إنشاء تحالفات ومصاهرات جديدة. ثم توصل د. فاروق عمر في بحثه «الخلافة العباسية» بعد مراجعة الروايات التاريخية ومطالعة ما نُشر بعدئذٍ إلى ما هو أبعد، وذلك هو أن الدعاية التي قام بها العباسيون كانت موجهة بصورة رئيسية للعرب الذين كانوا مصدر القوة والسلطة في البلاد[٢].

فمنذ بداية الحركة حين عهد أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي، سَلَّمه «الصحيفة الصفراء» التي احتوت -ضمن ما احتوت- على علمٍ منه «أي أحياء العرب

---

(١) من أبرزهم: جرجي زيدان، وأحمد أمين، وحسن إبراهيم حسن، وفيليب حتي، وعبد العزيز الدوري، (تراجع عن هذا الرأي فيما بعد)، وصديقي يوسفي.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص١٢ وما بعدها.

أنصارهم»[١]، وكانت قائمة النقباء الاثني عشر للدعوة العباسية تشتمل على أحد عشر نقيبًا من العرب، وواحد فقط هو مولى لقبيلة عربية، ثم إن أسماء العديدين من المسئولين عن الإدارة والجيش في هذه الحقبة كانوا من العرب، وإن انتسبوا إلى المدن التي استوطنوها؛ فيقال: الكرماني، أو الطوسي، أو المروزي، ولربما أوحت هذه النسبة إلى البعض بأنهم لم يكونوا من العرب[٢].

وقد استنكر الجاحظ من لم يقل بفضل العرب، وأنهم عماد الثورة العباسية في قوله: «وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب، ومن صليبة هذا النسب، كأبي عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي، وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي، وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي، وأبي داود خالد بن إبراهيم الذهلي، وكأبي عمرو لاهز بن قريظ المرئي، وأبي عتيبة موسى بن كعب المرئي، وأبي سهل القاسم بن مجاشع المرئي. ومَنْ كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم، مثل مالك بن الطواف المرئي. وبعد، فمن هذا الذي باشر قتل مروان، ومن هزم ابن هبيرة، ومن قتل ابن ضبارة، ومن قتل نباتة بن حنظلة، إلا عرب الدعوة، والصميم من أهل الدولة؟»[٣].

إلا أن استعمال المؤرِّخين لمثل هذه الألفاظ أو قولهم: «أهل خراسان»، إنما كانوا يعنون به العرب الذين استوطنوا هذه البلاد لا أهلها الأصليين من الفرس؛ فهذا البلاذري في أنساب الأشراف لدى حديثه عن قادة جيش عبد الله بن علي الذي قاتل مروان بن محمد، وهم من العرب، يصفهم بقوله: «وجوه قوَّاد خراسان»[٤].

لقد ركزت الثورة العباسية نشاطاتها وفعالياتها (في خراسان) على القرى والمدن الرئيسية، التي فيها عرب مستقرون، أو حاميات عربية عسكرية؛ أمَّا الموالي فقد ضمت الثورة كل مَنْ تستطيع ضمه منهم، لكنَّ دورهم لم يكن من الأهمِّيَّة بحيث يمكن مقارنته بدور العرب[٥].

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٨٥.
(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٦، ٧.
(٣) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٢٢، ٢٣.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ٤/ ١٠٣.
(٥) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٧.

ويروي الأزدي في «تاريخ الموصل» أن المُضريين احتجوا على أبي جعفر المنصور لتفضيله اليمانية وإسناد الولايات إليهم في إفريقية وأرمينية ومصر وفارس والسند وخراسان وغيرها، فكان من رد المنصور قوله: «فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا، وقيامهم بدعوتنا، ونهوضهم بدولتنا»[1]. ومن قبلُ حين حاصر العباسيون واسط خاطب المنصور اليمانية بقوله: «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم»[2]. وأوضح من كل هذا نداء عبد الله بن علي الذي خاطب اليمانية حين خرج أهل دمشق لقتاله بكتاب يقول فيه: «إنكم وإخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا، وأنتم دفعتم إلينا مدينة دمشق، وقتلتم الوليد بن معاوية، وأنتم منا، وبكم قوام أمرنا»[3]. وفي المصادر المتقدِّمة روايات عن فخر أهل اليمن في مجلس الخليفة أبي العباس حتى على الهاشميين[4] ما يدل على مكانة العرب في ذلك العصر.

وقد أوردنا طرفًا من هذا لدى الحديث عن سياسة أبي مسلم الخراساني في خراسان، وأسلوب الدعوة العباسية في اجتذاب الناس.

إن طبيعة الدعوة العباسية وتعقيداتها السياسية والاجتماعية، لا يمكن أن ترتضي لنفسها هذا التفسير العنصري (الفارسي) أو ذاك التفسير الإقليمي، لقد كان عرب خراسان من يمانية وربعية وبعض المضرية العصب الرئيسي للثورة، كما أن شعاراتها جذبت إليها العديد من الموالي الفرس، على الرغم من أن دورهم لا يقارن بدور عرب خراسان[5].

ومنذ البداية كانت الولايات بيد العرب العباسيين، فأبو جعفر -أخو الخليفة- كان واليًا على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وأعمام الخليفة داود بن علي تولى الحجاز واليمن واليمامة، وسليمان بن علي تولى البصرة وما يتبعها من البحرين وعمان، وعبد الله بن علي تولى الشام، وصالح بن علي تولى فلسطين، وعيسى بن علي تولى فارس[6]، وعند ابن قتيبة تفصيل ومزيد حافل[7].

---

(١) الأزدي: تاريخ الموصل ص٢٢٢. وهي رواية طويلة استعرض فيها فضل اليمانية، وفيها مبالغات، ولا سيما أن الأزدي المؤلف يماني، كما أن تحقيرها للمضريين يزيد من أسباب ضعفها، لكنَّ إيرادها كان للاستئناس في أن القبائل العربية لا سيما اليمانية كانت في صلب القائمين بالدعوة، وكان معهم غيرهم لا شك من مضر وغيرها من قبائل العرب.

(٢) ابن قتيبة (منحول له): الإمامة والسياسة ٢/ ٣٠٠.

(٣) الأزدي: تاريخ الموصل ص١٤٤.

(٤) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص١١٢ وما بعدها.

(٥) د. فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص٦٠.

(٦) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ٨٤.

(٧) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٤ وما بعدها، ٣٧٩، ٣٨٠.

وقد استمرَّ تمكن العرب من الدولة العباسية طوال العصر العباسي الأول، وقد شغف أبناء البيت العباسي بالسياسة وكان يجمعهم هدف واحد وهو الحفاظ على السلطة في أيديهم. وعلى الرغم من تواجد بعض العباسيين من ذوي الطموح الواسع، وعلى الرغم من وجود تنافس يظهر أحيانًا ويخفت أحيانًا، فإنهم كانوا يتحدون أمام الأزمات السياسية التي تهدد الخلافة. والواقع أن الخليفة العباسي خلال القرن الثاني الهجري اعتمد بصورة رئيسية على شخصيات عباسية في الإدارة والسياسة والجيش(١)، فالطبري يُشير إلى أن الجيش العباسي في أيام المنصور كان من قبائل العرب؛ حتى إنهم افترقوا على المنصور إلى أربع فرق: «فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة وربيعة فرقة»(٢). ويقول الجاحظ: «... ولا لقي تلك الحروب في عامه تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علي، وصالح بن علي، وداود بن علي، وعبد الصمد بن علي...»(٣).

وكانت الأقاليم المهمَّة بيد عباسيين أو أنصار موثوق بهم؛ وتتضح هذه السياسة في قول المنصور لابنه المهدي: «وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم، وتكثر الإحسان إليهم، وتعظم أمرهم، وتوطئ الناس أعقابهم، وتوليهم المنابر؛ فإن عزك عزهم وذكرهم لك»(٤).

كذلك كان صحبة الخليفة ومستشاروه بصورة رئيسية من قبائل عربية، وفيما عدا المراكز العسكرية احتلَّ العرب المناصب الإدارية والسياسية الحساسة والعالية، وتحفل المصادر بأسماء الولاة العرب الذين أثبتوا إخلاصًا وكفاية عالية مثل آل قحطبة الطائي وآل المهلب وبني شيبان.

بل لقد كان المنصور لا يقبل أن يُعاقَب أحد من العرب بالقتل دون أن يُرجع إليه في هذا، بل لما قُتِل عبد الكريم بن أبي العوجاء على تهمة الزندقة غضب المنصور على ابن عمه محمد بن سليمان بن علي أمير الكوفة، وقال «أيُقْتَل رجل من العرب بغير علمي؟»(٥).

(١) د. فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص٦١ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠١.
(٣) الجاحظ: الرسائل السياسية ص٤٢٥.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٤١.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٩٦.

وحين حدث اشتباك في الشام بين فرقة من الجند الخراسانيين وبين عرب الشام انزعج عبد الملك بن صالح -وهو أمير الجيش، وكان مريضًا- وقال العبارة الدالة الكاشفة: «واذلاَّه! تُسْتَضام العرب في دارها ومحلها وبلادها؟!»(١).

استفادة الثورة العباسية من أخطاء الحركات الفاشلة

استوعبت الثورة العباسية دروس التاريخ القريب، فكم من ثورة قامت ضد الأمويين لم تنجح في الوصول إلى أهدافها! لكنَّ العباسيين تمكَّنوا من تجنب أسباب الفشل في هذه الحركات جميعًا.

١- انحراف الأفكار والعقائد

فقد خلت الدعوة العباسية من الأفكار المنحرفة عن الخط الإسلامي، تلك الأفكار التي كانت تنفر الكثيرين من الانضمام إلى الحركة؛ على ما لها من شعارات جاذبة ودور في مقاومة المظالم القائمة آنذاك، لقد كانت الأفكار المنحرفة من أسباب فشل ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي(٢)؛ الذي نادى بإمامة محمد بن الحنفية بعد الحسن والحسين، وفي سبيل دعوته هذه زعم أنه يعلم الغيب، وأن الوحي يأتيه، وأن جبريل يجالسه، ثم عظَّم كرسيًّا خشبيًّا وزعم «أن فيه سرًّا» وأنه مثل تابوت بني إسرائيل، ثم ختم ضلالاته بادعاء أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه سيظهر مرة أخرى(٣).

٢- التسرع في الخروج

بينما كان العلويون الأكثر في مجال المعارضة السياسية منذ أن قامت الدولة الأموية؛ فإنهم تكشفوا للعيان قبل أن تنضج ثمرة المعارضة، مما مَكَّن سلطة الخلافة الأموية من الإجهاز على كل حركة أو تمرُّد علوي، وكان حصاد ذلك آلاف القتلى وآلاف المعتقلين؛ ممن أُلِّفت بشأنهم المصادر تحت عنوان «مقاتل الطالبيين»؛ حتى قال الإمام الزهري ما يُشبه أن يكون قاعدة مريرة: «أهلك أهل هذا البيت العجلة»(٤). وهذا على خلاف العباسيين الذين آثروا الاختفاء بدعوتهم إلى وقت مناسب(٥).

في سائر الثورات الماضية يكاد لا يوجد وقت بين الرغبة في الخروج وبين الخروج الفعلي، ما

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٣١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٨ وما بعدها.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٩/ ٤٧٥.

(٥) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٢.

إن تنقدح الفكرة في الذهن ويبدو أن ثمة أتباعًا وأنصارا حتى يتم التحرك للثورة.. ولقد اضطرد هذا منذ ثورة الحسين بن علي (رضي الله عنهما) وحتى ثورة حفيده زيد بن علي ﷺ؛ التي تعد آخر الثورات في عهد القوة لبني أمية.. بينما سنجد العباسيين قد أمضوا ثلث قرن في الترتيب والاستعداد المنظم الهادئ، لم تُغْرهم لحظة ضعف عابرة للأمويين فتخرجهم عن خطتهم المنتظمة، ولم تُغرهم ثورة أخرى بدا وكأنها ستنتصر؛ فسارعوا يريدون الإفادة منها والإمساك بزمامها؛ بل ظلُّوا على حالهم من الترقب والاستعداد، فربما تدخَّلُوا ببعض المساندة في ثورة عبد الله بن معاوية؛ لكنهم ظلُّوا بعيدًا عن زعامتها الظاهرة؛ فاستطاعوا النجاة حين فشلت الثورة.

ويلاحظ بعض المؤرِّخين أن الدعوة العباسية عبر نحو ثلاثين سنة (١٠٠ - ١٢٩هـ) كانت تنشط إذا خلا الجو من رؤساء علويين، وتضعف إذا ظهر منهم أحد[١].

لقد كان خروجُ العباسيين خروجَ من استكمل العدة؛ حتى قال يحيى بن نعيم داعيًا إلى التحالف بين اليمانية ونصر بن سيار: «إن هذا الرجل إنما ظهر أمره منذ شهر، وقد صار في عسكره مثل عسكركم».. وبمثل هذا الأسلوب نجحت الثورة العباسية.

٣- اختيار الرجال

لم يكن اختيار كبار الدعاة أو النقباء اختيارًا عشوائيًّا، وإنما كان يتم بين أصحاب القدرات الأخلاقية والثقافية والدبلوماسية، وهي صفات لازمة للحوار والإقناع، ثم كان أغلب هؤلاء يتم اختياره من بين اليمانية وقادتهم ومواليهم من الفرس، واليمانية على خلاف مع بني أمية الذين فَضَّلوا الاعتماد على القيسيين في آخر دولتهم[٢].

والحق أن رجال الدعوة العباسية كانوا على مستوى المهمَّة، منذ سلمة بن بجير، مرورًا ببكير بن ماهان، وأبي سلمة الخلال، وأبي عكرمة السراج، وسليمان بن كثير، وأبي مسلم الخراساني، وقحطبة بن شبيب.. وغيرهم ممن رأى ثمرة الدولة بعد جهاده في الدعوة.. لقد ضربوا أمثلة في الإخلاص للدعوة والصبر والثبات وتحمل المشاق في سبيلها، وأمثلة في الكفاءة والانتباه وحسن الإدارة والتنظيم والتخطيط.

إن كل دعوة تحتاج أمثال هؤلاء الرجال؛ لكي تنهض بهم وعلى أكتافهم، ولو أن أحدًا

(١) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٤.
(٢) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٢٠.



من زعماء الثورات السابقة اطلع على الغيب لما تمنى أكثر من أن يكون في ركابه رجال كهؤلاء، لا سيما أولئك الذين خرجوا وأتباعهم كثير؛ فلما فاجأتهم الخطوب قُتِلوا وما معهم إلا قليل.

٤- تجربة رائدة

لقد كانت تجربة الثورة العباسية في إنشاء التنظيم السري القائم على عقيدة دينية تجربة رائدة، نجحت في إزالة دولة وإقامة دولة؛ ولذا ظلت هذه الطريقة نهجًا متبعًا لكثير من الحركات والتنظيمات فيما بعد، فكثيرون أولئك الذين حاولوا إنشاء الدول بهذه الطريقة؛ سواء أكانوا علويين أو غيرهم، وسواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، ولا نبالغ إن قلنا: إن نحو ثلث الثورات التي واجهها العباسيون كانت لتنظيمات سرية تقوم على مفاهيم دينية، وأشهر من نجحوا في ذلك: الدولة العبيدية (الفاطمية) فيما بعد، كما أن العلويين هم أشهر من فشلت تنظيماتهم، وثمة قوم نجحوا حتى صاروا شوكة هائلة لفترة طويلة كالقرامطة والباطنية؛ غير أنهم لم يصلوا إلى مرحلة الدولة!

وهذه عادة النماذج الناجحة، يأخذ منها كل قوم على حسب فهمهم لها، بينما تظل الريادة والإبداع لَمَنْ فعلها أول مرة، فصنعها على غير مثال سابق، وكان أفهم لواقع عصره ولإمكانياته من معاصريه، حتى نجح في الوصول إلى هدفه.

حديث النبوءات في الثورة العباسية

كنا قد ذكرنا طرفًا من موضوع النبوءة لدى حديثنا في سيرة علي بن عبد الله بن عباس، وبيَّنَّا هناك موقفنا من هذه النبوءات، والذي خلاصته أن لا دليل يقوم على وجود هذه النبوءات قبل وقوع الحدث في الحقيقة، والأقرب أنها من روايات القصاصين والإخباريين؛ لما هو مطبوع في النفس من سماع مثل هذه الأخبار؛ لما تثيره من الدهشة والتعجب، وقد حفل تاريخ الثورة العباسية بعدد من النبوءات.

أكبر تلك النبوءات وأخطرها على الإطلاق ما يعرف بنبأ الصحيفة الصفراء، وقصتها أن ثمة صحيفة صفراء كانت عند علي بن أبي طالب ﵁ فيها علمٌ اخْتُصَّ به آل البيت من دون الناس[1]،

(١) وهذا لا يصح، وقد ورد عن علي ﵁ ما ينفيه، ومن ذلك ما رواه البخاري وغيره عن أبي جحيفة ﵁ قال: قلت لعلي ﵁: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه، إلا فهمًا يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر». البخاري (٢٨٨٢).

فورثها من علي ابناه الحسن والحسين، ثم إن أخاهما (من أبيهما) محمد بن الحنفية؛ ألحَّ عليهما في أن يتشرف بفضلٍ من ميراث أبيه بعد أن سبقه أخواه بكونهما ابني فاطمة بنت رسول الله ، فأعطاه الحسين هذه الصحيفة الصفراء، وهي الصحيفة التي ظلَّت معه حتى موته، وورثها عنه ولده أبو هاشم عبد الله، ثم أعطاها أبو هاشم قبل موته لمحمد بن علي العباسي حين أوصاه بالدعوة.

وهذه الصحيفة احتوت -كما يزعمون- على: علم رايات خراسان السود، متى تكون، وكيف تكون، ومتى تقوم، ومتى زمانها وعلامتها وآياتها، وأي أحياء العرب أنصارهم، وأسماء رجال يقومون بذلك، وكيف صفتهم، وصفة رجالهم وأتباعهم(١).

أي أن الصحيفة لم تحتوِ على علم غيب فحسب؛ بل بالتفاصيل الدقيقة التي شملت أسماء المستجيبين للدعوة وصفاتهم وقبائلهم!! ومن نافلة القول أن هذا الكلام ليس إلا كذبًا وضعه كذاب أراد به أن يقول بأن أهل البيت لديهم علم الغيب، وأنهم معصومون ومسددون بما كشف لهم من الغيب، وما اطلعوا عليه من وراء الحجب.

ويقولون بأنه كانت تُروى أحاديث في أن رايات سودًا ستنسال من المشرق يُكتب لها النصر، فلما لبس العباسيون السواد تبعهم -لأجل هذه النبوءة- كثير من الموالي والعبيد؛ ممن رأى أنها فرصته التاريخية لتحسين وضعه(٢).

ونبوءة أخرى نسبت -أيضًا- لجعفر الصادق أثناء خروج زيد بن عليٍّ على هشام بن عبد الملك، بأن الزمان لم يأتِ بعد لملك آل البيت، فنصح بهذا زيدًا وابنه ومن والاهم، وكان إذا رأى أبا العباس وأبا جعفر وهما صغيران يقول: «إنا لا نخوض في الأمر حتى يتلاعب به هذا وأولاده». ويشير إلى المنصور(٣).

وقبلها نبوءة نسبت لمحمد بن علي العباسي مرة ولأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية مرة أخرى؛ وهي أن عمر بن عبد العزيز لن يطول حكمه، وأنه عند انقضاء مائة سنة هجرية ينبغي أن تبدأ الدعوة بعد موت أشجِّ بني أمية (عمر بن عبد العزيز)(٤).

ومن النبوءات -أيضًا- ما كان يُروَى بأن المُلْك يستولي عليه «ابن الحارثية» أي ابن امرأة

---

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٨٤، ١٨٥.
(٢) تجد ذكر هذه النبوءة في ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٢١٨، ٢١٩، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٩، ٣٨٠.
(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٥٦.
(٤) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص١٩٣، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٢١٩.

من بني الحارث، وأن هذا قد بلغ بالأمويين أن يمنعوا زواج بني هاشم بواحدة من بني الحارث خشية على ملكهم؛ حتى جاء عمر بن عبد العزيز فاستأذنه إبراهيم بن محمد أن يتزوج ابنة خاله ريطة بنت عبد الله بن عبد المدان؛ فأذِن له عمر فتزوجها، فهي التي أنجب منها أبا العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين(١).

ومنها ما رُوِي من أن علي بن عبد الله بن عباس زار عبد الملك بن مروان ومعه ابنه محمد بن علي، وكان عند عبد الملك رجل قائف(٢)، فسأله عبد الملك: أتدري من هذا؟ فقال: لا، ولكن أعرف من أمره واحدة. قال: وما هي؟ قال: إن كان الفتى الذي معه ابنه فإنه يخرج من عقبه فراعنة يملكون الأرض ولا يناويهم مناوٍ(٣) إلا قتلوه. فتغير لون عبد الملك من الغضب وذكر أن راهبًا من القدس رأى محمد بن علي -أيضًا- فقال إنه سيخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكًا. ووصفهم بصفاتهم(٤).

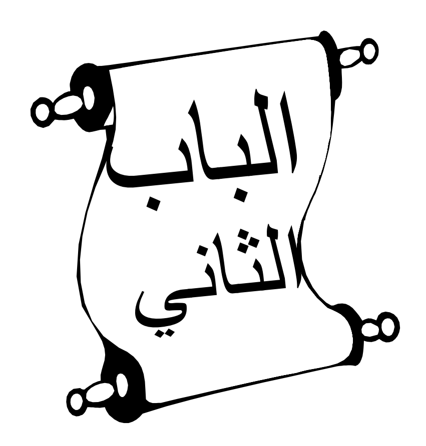
ورُوِيَ أن مولى لأبي الجهم العدوي كان يجلس على بابه، فإذا مَرَّ به إبراهيم بن محمد بن علي قال: هذا الذي يرشح للخلافة، ويزعمون أنه قد بعث فيها مَنْ يطلبها له، فيُكْثِر من هذا. فاغتمَّ إبراهيم لذلك، ورأى أنه يُعَرِّضه للمكروه، فبعث إليه بشيء، وقال لرسوله: فَرَّقْنا شيئًا فذكرناك. فكان بعد إذا مرَّ به يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالاته، هذا والله الذي يستأهل كذا وكذا. فأرسل إليه إبراهيم: يا هذا! لا ذا ولا ذاك(٥).

ومن النبوءات مَنْ ذَكَرَ عددَ الخلفاء وأسماءهم أيضًا(٦)!! وثمة نبوءات أخرى وتفاصيل أخرى لا نرى أنها تستحق الذكر بأكثر من هذا.

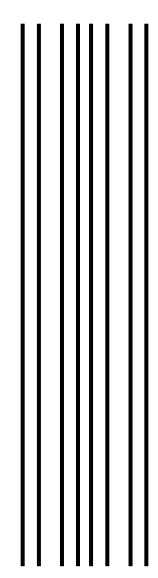
وهكذا جال القصاصون والإخباريون وخاضوا في النبوءات ورووها وطوفوا بها؛ حتى أثبتها المؤرِّخون في كتبهم على النحو الذي أوضحناه من قبل(٧)!

***

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٢٢٠، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٤٧، ١٤٨، والصفدي: الوافي بالوفيات ٦/ ٧٠.
(٢) قائف: هو من يتتبع الأثر ويقتفيه، وتقال فيمن يُزعم له علم ببعض الغيب والمستقبل.
(٣) مناوٍ: أي مناوئ.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٨٦، ١٨٧.
(٥) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٨٤.
(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠/ ١٧١، ١٧٢.
(٧) راجع «حديث النبوءة» وهو المبحث الرابع من فصل: العباسيون منذ فجر الإسلام وحتى الدعوة للدولة.



الخلفاء الأقوياء



الباب الثاني: العباسيون الأقوياء

١) أبو العباس عبد الله السفاح

٢) أبو جعفر عبد الله المنصور

٣) أبو عبد الله محمد المهدي

٤) أبو محمد موسى الهادي

٥) أبو جعفر هارون الرشيد

٦) أبو موسى محمد الأمين

٧) أبو جعفر عبد الله المأمون

٨) أبو إسحاق محمد المعتصم بالله

٩) أبو جعفر هارون الواثق بالله

١٠) أبو الفضل جعفر المتوكل على الله

أبو العباس السفاح

كان أبو العباس طويلًا، أبيض البشرة، أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية، جعد الشعر[١]، وكان سديد الرأي ماضي العزيمة كريم الأخلاق متألفًا للرجال سمحًا بالأموال[٢]، حليمًا جوادًا وصولًا لذوي أرحامه[٣]، كريمًا حليمًا وقورًا عاقلًا، كثير الحياء، حسن الأخلاق[٤].

وفي أمر صلته لرحمه نذكر واحدة من طرائف التاريخ؛ إذ إن أم أبي العباس كانت قبل زواجها من علي بن عبد الله زوجة للحجاج بن عبد الملك بن مروان، وولدت له ولدًا، ثم زوجة لأخيه، وولدت بنتًا، وهذه البنت أدركت ولاية أبي العباس، فكان يُكرمها[٥] (وهي أموية)، فكأنما كانت هي وابنتها الصلة بين العدوَّيْن بني أمية وبني العباس!!

ولا يُعرف لأبي العباس تاريخ قبل الخلافة، لكنَّ اللافت للنظر كون الإمام إبراهيم قَدَّم أبا العباس السفاح في الوصية؛ على الرغم من أنه في السادسة والعشرين من عمره على أخيه أبي جعفر، الذي هو أكبر منه بتسع سنوات، على الرغم من أن أبا جعفر شخصية سياسية من الطراز الأول، كما سيظهر بعدئذٍ، بهذا ندرك كم كان أبو العباس -أيضًا- شخصية ذات مواهب فائقة تفوق أخاه الأكبر؛ إلَّا أنَّ العُمر لم يمهله ليظهر منه مثلما ظهر من أخيه، والمؤكد كما سيظهر في مواقف كثيرة أنه كان أقدر على امتلاك أعصابه والتحكم في غضبه من أخيه أبي جعفر، وورد عنه قوله لأخيه: «من أظهر غضبه ضَعُف كيده»[٦].

ويرى بعض المؤرِّخين أن هذا كان لأن أبا العباس ظلَّ ملازمًا لأخيه إبراهيم، ولم يُعرف

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٤.
(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٩٣.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٩٧.
(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص١٤٨.
(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم ٢/ ١٤٧، ١٤٨.
(٦) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٢٤/ ١٧٧. (وإن كان يغلب على الظن ضعف هذه الرواية وأنها مختلقة بعد عصرهما إلا أن معناها صحيح بمطالعة سيرة الخليفتين، ولأجل صحة المعنى وقوته وُضِعت مثل هذه الرواية).

له تنقل من قبل، على عكس أبي جعفر؛ الذي ذهب إلى الكوفة وفارس لفترة، كما أن أم أبي العباس عربية بخلاف أم أبي جعفر[1].

***

بعد انكشاف أمر أبي سلمة الخلال، خرج أبو العباس السفاح في موكبه متوجهًا إلى دار الإمارة في الكوفة، ثم خرج إلى المسجد الجامع في الكوفة فارتقى المنبر وخطب خطبته الأولى، وكان عمه داود بن علي يقف أسفل المنبر. كان أول ما تكلم به أبو العباس أن قال:

«الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه دينًا، وكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه والقوام به والذابِّين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها، خصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته، ووضعنا بالإسلام وأهله في الموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابًا يتلى عليهم.

فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال: ﴿**قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال: ﴿**مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ...**﴾ [الحشر: ٧].

فأعلمهم ﷻ فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا، وفَضْلَة علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية[2] الضُّلاَّل أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم.

أيها الناس؛ بنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وأتم النقيصة وجمع الفرقة؛ حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دنياهم، وإخوانًا على سرر متقابلين في أخراهم، فتح الله علينا ذلك منة ومنحة بمحمد،

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٥٤.

(٢) نسبة إلى عبد الله بن سبأ، صاحب الفتنة المعروف.

فلما قبضه إليه قام بذلك الأمر بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فَحَوَوْا مواريث الأمم فعدلوا فيها، ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصًا[1] منها.

ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها لأنفسهم، وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينًا ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، فانتزع منهم ما بأيديهم بأيدينا، ورَدَّ الله علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وتولى أمرنا والقيام بنصرنا؛ لِيَمُنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

يا أهل الكوفة؛ أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح[2] الهائج والثائر المبير»[3].

وكان أبو العباس مريضًا، فاشتد عليه المرض في هذه اللحظة فجلس على المنبر، فنهض عمه داود فخطب خطبة قال فيها:

«الحمد لله شكرًا الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من بيتنا.

أيها الناس: الآن انقشعت حنادس[4] الظلمات، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، فطلعت شمس الخلافة من مطلعها، ورجع الحق إلى نصابه؛ إلى أهل نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم، أيها الناس؛ إنا والله ما خرجنا لهذا الأمر لنكنز لُجَيْنًا[5] ولا عقيانًا[6]، ولا لنحفر نهرًا، ولا لنبني قصرًا، ولا لنجمع ذهبًا ولا فضة، وإنما أخرجتنا الأنفة من انتزاع حقنا والغضب لبني عمنا، ولسوء سيرة بني أمية فيكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم، فلكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل بكتاب الله، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله، تبًّا تبًّا لبني أمية وبني مروان؛ آثروا العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام وظلموا الأنام، وارتكبوا

---

(١) خماصًا: أي جياعًا، والمراد أنهم خرجوا دون أن يظلموا أو يجوروا، أو يتنعموا من هذا الملك الواسع والغنائم الكثيرة.

(٢) السفاح: أي الكريم واسع الكرم.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٤٦، ٣٤٧.

(٤) الحنادس جمع الحندس: وهو الظلمة والليل الشَّديد الظلمة، وأسود حندس: شَدِيد السوَاد.

(٥) اللجين: هو الفضة.

(٦) العقيان: ذَهَبٌ متكاثف فِي مناجمه خالص مِمَّا يخْتَلط به من الرمال والحجارة.

المحارم وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد، وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تَسَرْبُل[١] الأوزار، وتجلبب[٢] الآصار، ومرحوا في أَعِنَّة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي؛ جهلًا منهم باستدراج الله، وعميًا عن أخذ الله، وأمنًا لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتًا وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق، فبعدًا للقوم الظالمين.

وأدان الله من مروان، وقد غره بالله الغرور، أرسل عدو الله في عنانه حتى عثر جواده في فضل خطامه، أَظَنَّ عدو الله أن لن يقدر عليه أحد؟ فنادى حزبه وجمع جنده ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله، ومحق ضلاله، وأحل دائرة السوء به، وأحاط به خطيئته، ورد إلينا حقنا وآوانا.

أيها الناس! إن أمير المؤمنين نصره الله نصرًا عزيزًا، إنما عاد إلى المنبر بعد صلاة الجمعة؛ لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان، المتبع للسفلة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، المتوكلَ على الله المقتدي بالأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى، ومناهج التقى.

واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا – وأشار بيده إلى السفاح– واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا؛ حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا»[٣].

ثم نزل أبو العباس وداود ودخلا القصر، وهكذا تولى أبو العباس الخلافة وعمره ست وعشرون سنة[٤].

وفي خطبة أبي العباس السفاح ثم عمه داود[٥] نلمح كثيرًا من الأمور التي أرادوا التأكيد

(١) تسربل الثوب؛ أي لبسه، والمعنى مبالغة في اقتراف الذنوب حتى كأنهم استلذوا لبسها!

(٢) التجلبب: هو لبس الجلباب، وهو المعنى نفسه الذي قبله.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٤٧، ٣٤٨، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٢٤ (أوردها مختصرة جدًّا).

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ٢٠٤.

(٥) في البداية لا بُدَّ من التنبيه بأن الروايات التي تطول فيها الأقوال هي عامة روايات ضعيفة، لا نستطيع الوثوق بكل كلمة جاءت فيها استيثاقًا كاملاً، هذا إذا أعملنا معايير أهل الحديث في مراجعة الأسانيد، ولكن الأمر أهون من هذا في الإطار التاريخي، فهذه الخطبة قبلها عامة المؤرخين وأوردوها في كتبهم وعلقوا عليها؛ إذ لم يرد فيها نكارة إلا على مستوى المعاني أو على مستوى الألفاظ والعبارات، وعلى هذا الأساس يُتَعامل مع النصوص التاريخية بالدراسة والتحليل.

عليها، والتي خَطَّت سياستهم، من أهمِّها:

١- الاعتراف بخلافة الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فضلًا عن علي رضي الله عنه بطبيعة الحال، وذلك ملمح مهم يؤكد لنا طبيعة الدعوة العباسية أو الهاشمية في ذلك الوقت، فهي لا تناصب أولئك الصحابة العداء؛ بل تعترف بفضلهم وسبقهم، وترى أن الخلل إنما دخل على الخلافة من جهة الأمويين، الذين انحرفوا عن منهج الإسلام فجاروا وظلموا.

٢- التأكيد على أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم، إلَّا أنَّ هذا التأكيد كان ضمنيًّا فالظاهر منصرف لآل البيت جميعًا: علويين وعباسيين، ويبدو هذا واضحًا في خطبة السفاح وعمه داود بن علي؛ إذ يتحدَّث السفاح عن «أهل البيت» و«ذوي القربى» ولا يخفى ما لهذه الاصطلاحات من مرونة في المعاني، فهي تجمع العباسيين مع العلويين، كذلك كانت خطبة داود بن علي من حيث مرونتها السياسية ومحاولتها التوفيق بين العلويين والعباسيين، على الرغم من أن نبرتها أكثر عباسية، لا سيما في قوله: «أصار إلينا ميراثنا من نبينا». إلا أنه يعود فيقول: «ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (السفاح)». ثم يقول: «فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا». وهو قول واسع قد يعني العباسيين وقد يعني الهاشميين.

٣- على أنهم لم ينسوا الرعية؛ بل خرجوا كذلك للمطالبة بحقوقهم ونصرة كل مظلوم مستضعف، فلقد حفل الخطاب بالهجوم على بني أمية، وعدهم ظالمين مستبدين؛ أخذوا بغير حق وساروا بكل عسف، وهذا شأن كل حاكم جديد بالنسبة إلى سابقه، يبرر قيامه ويُمَكِّن لنفسه.

٤- الوعد بالحكم بما أنزل الله، واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بالصحابة والسلف الصالح.

٥- إثارة أهل الكوفة لتعضيد الحكم الجديد؛ بما سيصبح لهم من مزايا باعتبار أن بلدهم ستكون عاصمة الخلافة الجديدة[١].

(١) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٤٦، ومحمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ٨١، ود. فاروق عمر: الثورة العباسية ص٤٠.

السفاح.. الخليفة!

لقد أطلق أبو العباس على نفسه وصف «السفاح» في خطبته الأولى في الكوفة، ومعنى السفاح هنا هو الكريم، واسع الكرم.

يرى بعض المؤرِّخين أن الفهم الخاطئ لكلمة السفاح هنا واعتبارها دليلًا على الدموية إنما كان للبس الذي تم بينه وبين عمه عبد الله بن علي الذي كان سفاحًا -بمعنى سفك الدماء- في الشام لدى استئصاله الأمويين، وقد ورد لقب السفاح منسوبًا إلى عبد الله بن علي في مصادر متقدِّمة؛ مثل الإمامة والسياسة المنحول لابن قتيبة وفي تاريخ اليعقوبي، كذلك لا نجد المصادر المتقدمة - كالطبري والجهشياري وابن قتيبة واليعقوبي والدينوري- تنسب لأبي العباس أي لقب، فيما يبدأ تلقيب أبي العباس بالسفاح عند المسعودي، ويبدو أن المتأخرين نقلوا عنه كي يستقيم لهم أن يكون كل الخلفاء العباسيين أصحاب ألقاب[١]!

ولا نرى أبا العباس يقتل إلا قليلًا؛ حتى إن المطهر المقدسي يصفه بالقول: «كان أبو العباس يكره الدماء»[٢]. وكان أكثر هذا القتل منسوبًا إلى آل بيته ممن لا يقدر أبو العباس على ردهم أو عقابهم[٣].

لم تكن مهمَّة أبي العباس سهلة، فالدولة في بدايتها، مروان بن محمد يُعدّ لها جيشًا عظيمًا، وقوة أموية أخرى في واسط، والعلاقات ساءت بينه وبين الرجل الثاني في الدعوة أبي سلمة الخلال، والذي بيده مقاليد الأمور الفعلية في الكوفة! ولكن أبا العباس كان على مستوى المسئولية؛ فقد حملها حتى بدا على ملامحه، فبعدما كان «شابًّا جميلًا تعلوه صفرة[٤]» إذا به بعد أسبوع واحد «كأن وجهه ترس وكأن عنقه إبريق فضة وقد ذهبت الصفرة»[٥].

ترك أبو العباس السفاح الكوفة وعهد بإدارة أمورها إلى عمه داود بن علي، وعاد إلى قيادة العمليات في المعسكر المنصوب بـ «حمام أعين»، ومن هناك بدأ في توجيه العساكر والجنود نحو جيش الشام الذي يقوده مروان بن محمد بنفسه، فعهد إلى عمه عبد الله بن علي

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٥٣.

(٢) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٨٩.

(٣) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٣٦.

(٤) الصُفْرة: أي البياض، تقول العرب للأبيض أصفر، فيسمون الروم مثلا بني الأصفر.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٠، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٢٤.

بقيادة الجيش العباسي المرابط في شهرزور[١] بقيادة أبي العون؛ والذي كان قد بدأ في التقدم نحو مروان بن محمد بأمر من أبي سلمة من قبل، وعهد إلى أخيه أبي جعفر بقيادة فرقة من الجيش كمدد لحصار القوة الأموية في واسط، وبدت سياسته مع عماله في رسالته للحسن بن قحطبة الذي يحاصر واسط وفيها: «إن العسكر عسكرك والقُوَّاد قُوَّادك، وإنما أنفذت أخي مواسيًا لك بنفسه»[٢]. وبعث إلى واسط -أيضًا- ابن أخيه عيسى بن موسى، وأرسل يحيى بن جعفر بن تمام دعمًا لحميد بن قحطبة الذي يدعو لبني العباس في منطقة المدائن ويقاتل فلول الأمويين هناك، وأرسل أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر على رأس قوة عونًا إلى بسام بن إبراهيم بن بشام في الأهواز[٣].

معركة الزاب

عودة إلى مروان بن محمد..

لقد كثرت الأخبار المزعجة لمروان بن محمد، وتوالت عليه الرسائل بالهزائم والنكبات، وكان أشد ما وصله من أخبار في الشهور الأربعة الأخيرة: انهيار خراسان ثم وفاة نصر بن سيار ومقتل قادة الأمويين الكبار أمثال نباتة بن حنظلة وعامر بن ضبارة، ثم هزائم ابن هبيرة المتتالية حتى انسحابه من المعركة واعتصامه بمدينة واسط في الغرب. إلَّا أنَّ خبرًا آخر بدا أن أثره كبير على مروان بن محمد ذلك هو انتصار سرية أبي عون على الخارجي عثمان بن سفيان؛ وهو النصر الذي قُتِل فيه جيش الخارجي عن آخره، فَثَبَت بهذا أن العباسيين قادرون على مواجهة الأمويين والخوارج في الوقت ذاته.

أعلن مروان بن محمد التعبئة العامة في الشام، وأذاع أنه خروج في جهاد الصائفة[٤]، وحشد أهل بيته وقال لهم: «قاتلوا عن ملككم». وترك على ولاية دمشق الوليد بن معاوية،

---

(١) وهو الجيش الذي كان بقيادة أبي العون، والذي وجهه قحطبة لفتح شهرزور ففتحها، ثم أباد جيش الخارجي عثمان بن سفيان، وانحاز إليه أهل الموصل حتى بلغ بهم سبعة آلاف.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٤٥، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٧٠، ٣٧١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٥. وكان بعض الخراسانيين -كما ذكر البلاذري والطبري- قد طلب من الخليفة أن يكون القائد عليهم واحدًا من بيت الإمامة بدلاً من الحسن بن قحطبة.

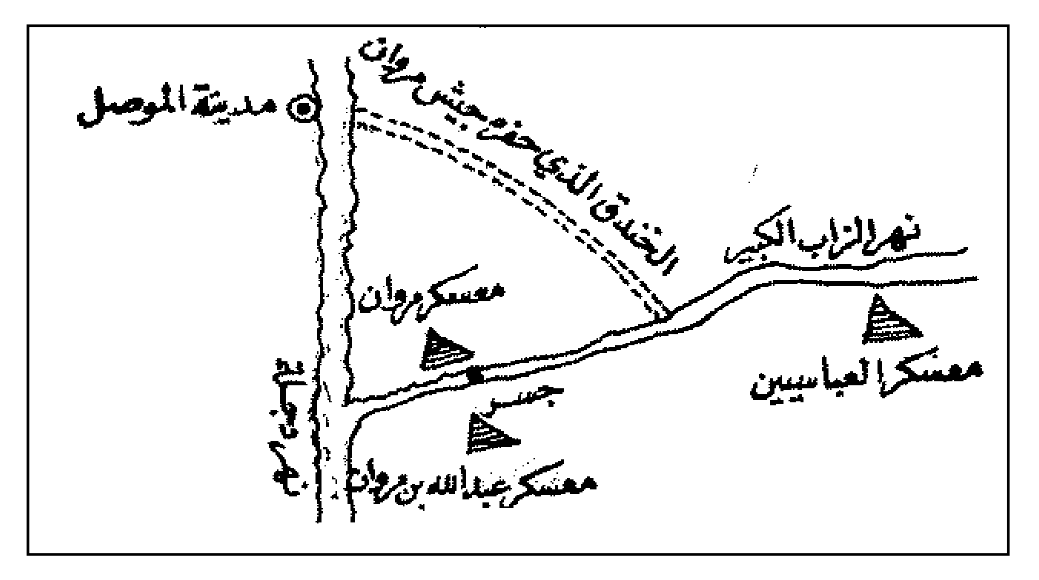
(٣) الطبري: تاريخ الطبري٤/ ٣٥٠، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٢٥.

(٤) الصائفة، وجمعها الصوائف: هي معارك الجيوش الإسلامية للفتح، وكانت تتم عادة في الصيف فلأجل هذا سميت الصائفة.



وأقام معسكره في قرية قرب حران اسمها «سلسمين»[١].

ثم سار الجيش الأموي من سلسمين إلى منطقة تسمى «بلوى»، ثم منها إلى رأس العين، ثم إلى منطقة الزاب على ضفة نهر دجلة قريبًا من الموصل، وهناك التقى الجيشان، وجرت معارك صغيرة سقط فيها أسرى وقتلى من الفريقين[٢]. وكان عدد جيش مروان مائة وعشرين ألفًا، فيما كان جيش العباسيين عشرين ألفًا فقط[٣].



تميز الجيش العباسي عن الجيش الأموي بأمرين: التماسك، والروح المعنوية.

لقد أدرك كلا الفريقين المتحاربين أن المعركة بينهما في جانبها الأهمّ معركة «حماسة»؛ لذا حاول مروان بن محمد أن يُؤَخِّر المعركة ولو يومًا واحدًا؛ لتزول الرهبة القائمة في جيشه من انتصارات العباسيين المتوالية، فيما أدرك عبد الله بن علي أن النصر يكمن في تسريع المواجهة بأقصى قدر ممكن، قال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز (أحد قادته): «إن زالت الشمس يومئذٍ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم[٤]، وإن قاتلونا قبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون». ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله الموادعة، ولكن

(١) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص٣٧٩.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٠، ٣٥١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٤، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٢٦.
(٤) أي ستظل الخلافة فينا حتى نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان!

عبد الله بن علي كان مدركًا لغايته في كسر معنويات الجيش العباسي بتأجيل اندفاعته، وكسر رهبتهم في قلب الجيش الأموي بالبقاء وقتًا متصافين دون قتال، فرفض قائلًا: كذب ابن زريق، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله[١].

ولأن الجيش الأموي افتقد التماسك فقد عصت فرقة منه أوامر مروان بن محمد بعدم البدء بقتال، واندفع قائدها الوليد بن معاوية -زوج ابنة مروان- إلى القتال؛ فانطلقت به شرارة المعركة (١١ من جمادى الآخرة ١٣٢هـ)، واستطاعت هذه الميمنة أن تهزم ميسرة العباسيين بقيادة أبي العون؛ الذي بدأ في الانحياز إلى القلب حيث عبد الله بن علي، ولكن جيش العباسيين صمد للهجمة القوية، فنزل القادة عن خيولهم خوفًا من انجفال الخيول الذي إن حدث فسيسبب الهزيمة، فقَدَّموا الرَّجالة على الفرسان وكَتَّلوهم؛ بحيث لا تصير بينهم فراغات، ومعهم الرماح يشرعونها، ومن ورائهم حملة السهام يرمون بها، ونزل عبد الله بن علي عن فرسه وأخذ يُثير حماستهم صارخًا: يارب حتى متى نُقتل فيك؟ يا أهل خراسان.. يا شارات الإمام.. يا محمد.. يا منصور، ويخطب فيهم ويُثير حماستهم، فانكسرت هجمة الأمويين، وبدأ ينعكس الموقف بتقهقر الأمويين أمام هذا التكتل، ولم يُفلت عبد الله بن علي الفرصة، فبدأ في الهجوم، واشتد القتال جدًّا، وبدا أن العباسيين يحققون النصر[٢].

وهنا أمر مروان بن محمد باقي الفرق في جيشه بالنزول، وبدا كأوضح ما يكون كيف هيمنت العصبية على الجيش الأموي فأفسدته، أرسل مروان إلى قضاعة يأمرهم بالنزول فقالوا: قل لبني سليم فلينزلوا، وأرسل إلى السكاسك أن احملوا. فقالوا: قل لبني عامر أن يحملوا. فأرسل إلى السكون أن احملوا. فقالوا: قل إلى غطفان فليحملوا. فقال لصاحب شرطته: انزل. فقال: لا والله لا أجعل نفسي غرضًا. قال: أما والله لأسوءنك. قال: وددت والله لو قدرت على ذلك[٣].

وما بين جيش متماسك مندفع يقاتل جيشًا مضطربًا متردِّدًا تسكنه العصبية، كان طبيعيًّا أن تئول المعركة الفاصلة إلى النتيجة المحتومة: هُزِم جيش الشام، وفَرَّ الشاميون يتبعهم الجيش

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥١.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣)المصدر السابق نفسه.



العباسي فيأسر ويقتل، ولكي ينجو مروان بنفسه فإنه ما إن عبر حتى قطع الجسر من خلفه فترك كثيرًا من الجنود لم يعبروا فحلت الهزيمة ومعها اليأس أيضًا، واقتحم الجنود النهر يريدون عبوره سباحة فغرق منهم كثيرون؛ حتى لقد غرق من الشاميين أكثر مما قُتِل(١)، ولم تنفع الجيش كثرته إذ سكنته العصبية!

ومن أبلغ ما يُروى في الهزيمة النفسية التي حلت بجيش مروان ما يحكيه جندي منهم عن نفسه، قال: «شهدت وقعة كشاف مع مروان بن محمد، ومعي سيفي، وعليَّ درع قد ورثتها عن أبي وجدي منذ زمن الجاهلية، وتحتي فرس من نتاج قومي، وما ضربتُ شيئًا قطُّ إلا هتكته، فحملت على رجل من أصحاب أبي عون (قائد ميسرة العباسيين) فضربته فما عمل سيفي فيه شيئًا، ثم حمل عليَّ رجل من أصحاب أبي عون فضربني بعصًا كانت في يده فأبلغ - والله- إليَّ(٢)، فانصرفت ووقفت هُنَيَّة، ثم حملت على آخر فضربته على رأسه، فوالله ما عمل سيفي قليلًا ولا كثيرًا، ثم حمل عليَّ رجل فضربني بعصا فكدت -والله- أقع عن فرسي، فقلت: إن أمرهم لُمْقبِل، وإن أمرنا لُمدْبِر، فولَّيْتُ منهزما»(٣). فهذا كلام رجل هُزم في نفسه أولًا؛ حتى تمكنت منها الأوهام والخيالات قبل أن يُهزم في ميدان المعركة.

ظل عبد الله بن علي في موضع المعركة سبعة أيام محتفلًا، ونصب جسرًا على النهر واستخرج جثث من غرق وهو يتلو: ﴿**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾ [البقرة: ٥٠]، وأرسل إلى السفاح في بغداد الذي استغرقه الفرح فصلى ركعتين شكرًا لله وكافأ كل من حضر المعركة ربع المليون لكامل الجيش خلافا للزيادة في المرتب(٤).

أما مروان بن محمد فانسحب من أرض المعركة نحو حران، ومنها إلى قنسرين، ثم إلى حمص(٥).

وكما ذكرنا سابقًا فإن حمص كانت إحدى المدن الثائرة على مروان بن محمد ولم ترض به منذ بداية توليه، وثارت عليه فقاتل أهلها وهزمهم وهدم سورها، ثم ثارت عليه مرة أخرى

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥١، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٢٨ -١٣٠.
(٢) أبلغ إليَّ: المراد أصابني إصابة قوية ومحكمة.
(٣) الأزدي: تاريخ الموصل ص١٣٠.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥١، ٣٥٢، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٢٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٣.

مع سليمان بن هشام فهزمهم مرة أخرى، ففي هذه اللحظة التي عبر فيها مروان بن محمد بحمص مهزوما رأى الحمصيون ما هو فيه من قلة القوة والجند فاتبعوه بعدما خرج منها لقتاله، لكنه توقع ذلك فترك مجموعتين في كمينين من خلفه ثم تقدم، فلما أدركه الحمصيون قاتلوه وحاول أن يحل الأمور وديًّا، ولكنهم رفضوا وأصروا على القتال، فحينها قاتلهم بمن معه ثم هاجمتهم المجموعتان فانهزم الحمصيون، ثم توجه إلى دمشق وتركها في عهدة زوج ابنته الوليد بن معاوية بن مراون، ثم انطلق باتجاه مصر[١].

ويفسر بعض المؤرِّخين هذا بأنه لم يستطع البقاء طويلا في دمشق حيث انقسم أهلها إلى قسمين بين مؤيد للأمويين ومعارض لهم، بل إن بعض القبائل اليمانية أقسمت يمين الولاء لبني هاشم[٢]. ولا يبدو هذا التفسير مقنعا، بل الأقرب للتفسير أنه أراد أن ينفذ نصيحة إسماعيل بن عبد الله القسري، الذي خدعه وأوهمه أن الحل في الانحياز إلى مصر حيث يجتمع له قومه والفارون من الأمويين فيخوض بهم مقاومة جديدة[٣] ولا يبعد -أيضًا- أن يكون مروان بن محمد قد انهار نفسيا ولم يفكر إلا في الهرب والنجاة، ولو أنه فكر في الصمود والقتال ومعاودة الكرَّة لعلم أنه لا مكان على وجه الأرض أفضل له من دمشق في هذه الفترة.

سقوط دمشق عاصمة الأمويين

تساقطت مدن الشام واحدة تلو الأخرى، وقد اتبع عبد الله بن علي طريق هرب مروان بن محمد، ومع تساقط مدن الشام كانت تأتي جيوش عباسية أخرى مددا إلى عبد الله بن علي.

وصل عبد الله بن علي إلى حران فخرج واليها أبان بن يزيد -وهو ابن أخت مروان بن محمد- منحازا إلى العباسيين ولبس السواد واستسلم لهم، وفي حران حرص عبد الله بن علي على هدم الدار التي كان قد سجن فيها الإمام إبراهيم قبل شهور، ثم استسلمت قنسرين، وعندها وصل مدد عباسي قوامه أربعة آلاف يقوده أخوه عبد الصمد بن علي، ثم سار إلى

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٤.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص١٣٣.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٦٥، ٣٦٦.

حمص ثم بعلبك حتى وصل دمشق وهناك وصله مدد آخر من ثمانية آلاف بقيادة أخيه صالح بن علي[١].

فاجتمعت الجيوش العباسية أمام العاصمة الأموية، فوزعها عبد الله بن علي لتكون كل فرقة أمام باب من أبواب دمشق الستة، وفي داخل دمشق كان الوليد بن معاوية قد استعد بنصب المجانيق والأسلحة على الأبراج وترتيب الحراسة والدفاعات على السور، فحاصر الجيش العباسي دمشق لعدة أيام لا تبلغ الشهر ثم استطاع اقتحامها (١٠ من رمضان ١٣٢هـ)، وأباحها عبد الله بن علي لجنوده، فكانت أول مذبحة يرتكبها العباسيون، وهدم عبد الله بن علي سور دمشق حجرا حجرا، وبدأ في تتبع الأمويين في دمشق وقتلهم حتى قتل منهم -في أقلِّ الروايات[٢]- أكثر من ثمانين فردًا بينما قال آخرون[٣] بأن عدد الأمويين الذين قُتِلوا لا يدخل تحت حصر، وبطبيعة الحال فقد كان على رأسهم أمير دمشق الوليد بن معاوية[٤].

وبعد أن مرت ساعات -وقيل أيام- في القتل ذهب فيها الكثير أُعْلِن الأمان العام للناس «إلا خمسة: الوليد بن معاوية، ويزيد بن معاوية، وأبان بن عبد العزيز، وصالح بن محمد، ومحمد بن زكريا»[٥].

هذا الانهيار السريع لدمشق إنما كان لما وقع فيها من انقسام قبلي بين اليمانية والمضرية، فاليمانية بايعوا العباسيين وانحازوا لهم، كما أن عبد الله بن علي كان له دور في تحريضهم على ذلك بقوله: «إنكم وإخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا، فانصرفوا وخلُّوا بيننا وبين مضر» فأبان أنهم إنما قدموا لمحاربة المضرية فحسب وأن اليمانية هم أنصار الدولة، ولا شك أن قولا كهذا في مجتمع انقسم على نفسه قبليا في لحظة حرب لا بُدَّ أن يلهب الأوضاع، فاشتعل القتال بينهم واستحرَّ حتى انتصر اليمانية وقتلوا من المضرية مقتلة عظيمة كان منها والي دمشق الوليد بن معاوية ثم فتحوا الأبواب للعباسيين[٦].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٤، ٣٥٥.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٨.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ٣١٩.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٨، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٠٤ وما بعدها، ٦/ ٣٠٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٥، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٣٤ وما بعدها، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٢٣ وما بعدها.
(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٩٣.
(٦) الأزدي: تاريخ الموصل ١٣٤، ١٣٥.

وتفيد روايات أخرى أن السعي بدأ من أهل دمشق المنقسمين على أنفسهم، إذ يروي المؤرِّخ ابن عساكر عمَّنْ كان شاهد عيان أنهم رأوا بناءً يرتفع داخل دمشق كالمنارة، فظنوا أنها من حِيَل الحرب ومكائدها، ثم إذا بهم يفاجأون أن أحدهم صعد إلى هذه المنارة وأخذ يصيح: «يا أهل دمشق: ويلكم يا بني فلان، عن من تقاتلون؟! عن مروان؟! الذي قتل منكم فلانا -وكان سيدكم- وفلانا، وفعل بكم كذا، وقال فيكم كذا وشتمكم بكذا... يا أهل مدينة كذا -وتسمى المدينة من مدن الشام- ويلكم أنسيتم فعال مروان القبيحة فيكم وما صنع بكم وقتل منكم وهدم سور مدينتكم»، وهكذا أخذ يخاطب الدمشقيين حتى تذكر القوم ثارات الماضي فانسحبوا من الدفاع عن المدينة وانهارت الحراسات على الأسوار، واشتعلت الخلافات بين الدمشقيين، ثم سرب اليمانيون إلى عبد الله بن علي أنهم سيفتحون الباب المواجه لجيش أخيه عبد الصمد بن علي في لحظة بعينها، مشترطين أن يقتل أعداءهم من المضرية، ويخبرونه أنهم سيلبسون عمائم صفراء؛ لكي يتميَّزوا بها عن أعدائهم، فوافق عبد الله وأرسل إلى عبد الصمد أنه إذا اقتحم دمشق من ناحيته فليقتل كل من لا يرتدي العمائم الصفراء، وقد تم ذلك، وكانت بلا شك مذبحة كبيرة(١).

لقد كانت دمشق نفسها كحال جيش مروان في معركة الزاب، منقسمة ومهزومة من داخلها، وقد بلغ فيها الاحتقان القبلي مبلغًا كبيرًا، بل قد ورد ما يفيد بأن الحال قد بلغ أن القوم كانوا لا يصلُّون معًا، فكان في الجامع الأموي قِبْلتيْن ومنبريْن وإماميْن يخطبان الجمعة في الوقت نفسه(٢).

وتفسر رواية أخرى هذا الانهيار السريع لدمشق بمحاولة الدمشقيين طلب الأمان من عبد الله بن علي، وتزعم هذه السفارة يحيى بن يحيى الغساني بتكليف من الأمير الأموي الوليد بن معاوية، فذهب إلى عبد الله بن علي في معسكره خارج دمشق وسأله الأمان فأجابه

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٢٤.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٢٥، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٤٩، ولا يمكن الاطمئنان إلى هذه الرواية أو التسليم بها، فمصدرها، وهو الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبيد الله بن الحسن الأعرج) قال بعد أن انتهى من قصة سقوط دمشق: «هذا منقطع والواقدي ضعيف والمدائني شيعي متهم»، ولم يتضح أي جزء بالتحديد هو الذي عناه بالضعف في الرواية، ثم رأيت الحافظ ابن كثير قد أوردها، وهو من أكثر من قاموا بدور في نفي الروايات غير المقبولة في كتابه البداية والنهاية، فالمظنون أنه صرف هذا الوصف بالضعف إلى جزء من الرواية غير هذا الذي نقلناه، أو لعله أراد بها العظة بما تفعل الفرقة والله أعلم.

وعلى أية حال فإن الرواية وإن ضعفت إلا أن اشتداد الاحتقان القبلي في هذا الوقت ثابت حتى ولو لم يصل إلى هذا الحد.

عبد الله بن علي، وهنا شاع في العسكر وفي الدمشقيين أن طلب الأمان قد أجيب فاضطربت الدفاعات باستسلام القوات الأموية ودخول القوات العباسية، وبدأت هذه الحركة قبل كتابة وثيقة الأمان، فلما رأى عبد الله بن علي هذا وأن جنوده قد اقتحموا المدينة بالفعل أحجم عن كتابة وثيقة الأمان وقال ليحيى: «نَحِّ هذا القرطاس عني، فإني دخلتها قسرا، فقال له يحيى: لا والله، ولكنك دخلتها غدرا، لأنك جعلت لنا أمانا، فخرج عليه من خرج ودخل عليه من دخل، فإن كان كما تقول فاردد رجالك عنها واردنا إلى مدينتنا، فقال له عبد الله بن علي: إنه والله لولا ما أعرف من مودتك إيانا أهل البيت ما استقبلتنى بهذا، فقال له يحيى: إن الله عَزَّوَجَلَّ جعلك من أهل البيت الحق والرحمة والبركة الذين لا يعرف لهم ولا يقبل منهم إلا العمل بتقوى الله وطاعته، واعلم أن قرابتك من رسول الله لم تزد حق الله عليك إلا عِظَمًا ووجوبًا، ولم تزد الناس إلا إنكارًا للمنكر ومعرفة لكلِّ ما وافق الحق». لكن عبد الله بن علي رفض هذا، وكان غاية ما أكرمه به أن حماه من القتل وأعلن أن من دخل دار يحيى بن يحيى فهو آمن، فنجا بذلك عدد كبير من مذبحة دمشق(١).

ثم توجه عبد الله بن علي إلى المسجد الجامع في دمشق فخطب خطبة النصر وذكر بني أمية وجورهم وعداوتهم، وأنهم اتخذوا دين الله هزوًا ولعبًا، ويصف ما استحلوا من المحارم والمظالم والمآثم، وما ساروا به في أُمَّة محمد من تعطيل الأحكام وازدراء الحدود والاستئثار بالفيء، وارتكاب القبيح، وانتقام الله منهم، وتسليط سيف الحق عليهم(٢)، «وهذه الخطبة أشبه بكلام العلويين في الأمويين، والأمويين في العلويين، يُقْصَد بها إثارة النفوس، لينزع منها حب الدولة السالفة، ويفسح مجال الأماني للناس ويرغبوا في الدولة الخالفة»(٣).

مقاتل الأمويين

حانت لحظة الثأر..

وانطلق عبد الله بن علي العباسي يشيع القتل في الأسرة الأموية، وكان لهذه القسوة عدة دوافع؛ **أولها**: إقرار أمر الدولة الجديدة، **وثانيها**: قطع دابر الأمويين لينقطع سبيل الانقلاب

---

(١) أبو الفيض الغساني: أخبار وحكايات ص١٩، ٢٠، والذهبي: تاريخ الإسلام ٨/ ٣٣٩.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٩٣.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام، ١/ ١٤٥.

على الثورة العباسية وينتهي الأمل في محاولات إعادة الحكم الأموي، **وثالثها**: لدفع الناس إلى اختيار جانب العباسيين والبراءة من الأمويين رغبًا ورهبًا.

ولقد أفاضت الكتب في ذكر مقاتل الأمويين وبشاعة ما نزل بهم، إما تعاطفا معهم أو تشفيا منهم أو كراهة في العباسيين؛ حتى لقد ظهر من المؤرِّخين المعاصرين[(١)] من يهون من الأمر كثيرًا ويعتبر الروايات ضعيفة ومضطربة ولا تقوى على إثبات الحقيقة التاريخية للمذابح، ونحسب أن هذا من قبيل رد الفعل المتطرف على تطرف المبالغة في الروايات.

المؤكد لدينا أن ثمة مذبحتين على الأقل وقعتا على يد عبد الله بن علي، الأولى مذبحة دمشق حين اقتحمها وأشاع فيها القتل على الرغم من أنه في شهر رمضان المبارك، والثانية مجزرة نهر أبي فطرس، حيث نادى عبد الله بن علي في الناس بالأمان للأمويين ودعاهم إلى الاجتماع عنده وتناول الطعام، وجهز بالفعل مأدبة كبيرة، واستجاب لهذا الأمان المؤكد نحو ثمانين من البيت الأموي، ثم إنه حين اجتمعوا لديه غدر بهم وقتلهم جميعًا، وهو يقول:

أحسبت أمية أن سترضى هاشم ... عنها ويذهب زيدها وحسينها؟

كلا، ورب محمد وإلهه ... حتى تباح سهولها وحزونها[(٢)]

وقد أفرد البلاذري فصلا في كتابه أنساب الأشراف لِمَنْ قتلهم العباسيون من سادة الأمويين وقد بلغوا نحو أربعين رجلا[(٣)].

وقد حاول العباسيون بكل الإصرار تعقب من لم يقبضوا عليه من الأمويين، لا سيما إن كانوا من بيت الخلافة، فهم الذين يُتوقع منهم قيادة الحركة الأموية المناهضة للعباسيين والتواقة لاسترجاع ملكهم؛ حتى لو كان هذا غلاما في التاسعة عشرة من عمره كعبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك، وظلت مطاردته قائمة أربع سنوات؛ حتى وصل إلى الأندلس وأقام هناك إمارة أموية، في قصة طويلة حافلة بالتفاصيل.

وكاد عبد الله بن علي أن يتعقب الأمويين الذين لجأوا إلى الحجاز لولا أن نصحه عبد

---

(١) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ١/ ٣٧ وما بعدها، العباسيون الأوائل ١/ ١٠٨ وما بعدها.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٦، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٢٢٦، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٣٩.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٩/ ٣٢٩.

الله بن الحسن بن الحسن بن علي قائلًا: «إذا أسرعت بالقتل في أكفائك فمن تباهي بسلطانك؟ فاعف يعف الله عنك»[1].

ودخل في القتل مَنْ كانوا أولياء الأمويين أو من كان لديهم أموال للأمويين، ولو كان من أهل العلم الكبار كسالم الأفطس؛ وهو المحدِّث المفسر والرجل الصالح، وأحد رجال صحيح البخاري[2] وإسماعيل بن أمية «وكان نبيلًا عالمًا»[3]، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك الذي «بذَّ العابدين في زمانه، وسبق المجتهدين في عصره»[4].

وحين استدعى عبد الله بن علي الإمام عبد الرحمن الأوزاعي إمام أهل الشام ذهب إليه الإمام وقد اغتسل ولبس كفنه وأيقن أنه قد حان أجله، فسأله عبد الله بن علي عن حكم ثورتهم، فقال الأوزاعي: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»**. فسأله عن حكم قتل الأمويين فقال الأوزاعي: حرام لأنك أعطيتهم العهد بالأمان، فقال عبد الله: فإن كنت لم أعطهم، فقال الأوزاعي: حرام لقول رسول الله ﷺ: **«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ دِينَهُ، الْمُفَارِقُ للجَمَاعَةَ»**. فقال عبد الله: أليست الخلافة وصية من رسول الله لعلي (وآل البيت)؟ فقال الأوزاعي: لو كانت وصية ما ترك أحدًا يتقدمه إليها، ثم خرج من عنده وهو يتوقع أن تطير رأسه في كل خطوة[5].

هذه الأجواء تعطينا اليقين بأن تعقب الأمويين بالقتل كان سياسة عباسية واضحة، وأن عبد الله بن علي كان قائما على تنفيذها بكل الإصرار، وهو أمر لا يُستغرب -وإن كان يُستنكر أشد الإنكار- في موقف ثوري يزيل دولة ويقيم أخرى، كما قال ابن خلدون: «الحاجة في أول الدولة إلى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة»[6] فكيف إن كان محمَّلًا «بثارات آل البيت» ومختزنًا لروايات «مقاتل الطالبيين» منذ الحسين بن علي رضي الله عنه!.. «وقصارى القول أن فاتح الشام للعباسيين بطش في الأمويين ومن والاهم من أهل هذه الديار بطش

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/ ٦٠.

(٢) خليفة بن خياط: الطبقات ص٣٢٠، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٣٩، ١٤٠.

(٣) أبو العرب التميمي: المحن ص٢٥٢.

(٤) محمد كرد علي: خطط الشام ١/ ١٤٦.

(٥) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ٢١٣، ٢١٤، والذهبي: تاريخ الإسلام ٩/ ٤٩٥، ٤٩٦.

(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٥٧.

الجبارين. وسار من الجور سيرة لم يسرها أحد قبله»[١].

واستصفى العباسيون أموال الأمويين جميعًا بقسوة لا تقل عن قسوة القتل وبإصرار لا يقل عن إصرار المطاردة والتعقب، فحازوا ما كان من مفاخر وقصور وضياع الأمويين، وعلى سبيل المثال فقد ورث سليمان بن علي بلدة بالس وقراها التي كانت لورثة الفاتح الأموي الكبير مسلمة بن عبد الملك[٢]، واستولى صالح بن عليٍّ على دار الصباغين التي بناها سليمان بن عبد الملك في الرملة[٣]، ومن أسوأ ما ورد في هذا أن عبد الله بن علي أراد الزواج من عبدة حفيدة يزيد بن معاوية لما كان لديها من جواهر نادرة وثمينة أو لعلَّه أراد إذلالها وإذلال الأمويين لكنها أبت، فأخذ ما لديها من نفائس قهرا وقسرا ثم تركها، ولما خاف أن يصل أمرها إلى الخليفة أمر بقتلها فذُبِحت[٤].

على أنه يجب التوقف أمام المبالغات في الروايات، والتي قد وصلت حدا بعيدا! إذ وجد الكذابون وضِعاف النفوس ومن لم يصل الإسلام إلى قلوبهم مجالا لرواية الأساطير وما لا يمكن قبوله، منها هذه الرواية[٥] التي تقول بأن عبد الله بن علي سَلَّم عبدة أرملة

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام ١/ ١٤٦.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٧٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٧٠.

(٤) الزبير بن بكار: نسب قريش ص١٣٢، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠١، والبيروني: الجماهر في معرفة الجواهر ص١٥٣.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٢٨/٥٣ (ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي) ونقلها عنه ابن كثير: البداية والنهاية ٤٩/١٠، ولم تقع هذه الرواية بين أيدينا في مصدر أقدم من ابن عساكر، ومن المستغرب جدا أن ينقلها عنه ابن كثير دون تعليق وهو المُحَدِّث الذي لا يغيب عنه أن سند الرواية مجاهيل يروون عن مجاهيل، فلئن كان ابن عساكر معذورًا في إيرادها لأن عمله معجمي يستهدف الإحاطة فما هو عذر المؤرخ المحدث ابن كثير وتاريخه مختصر في هذه الفترة. والحق أنه مما يلاحظ في تأريخ ابن كثير لهذه الفترة قسوته على العباسيين حتى خرجت به عن اتزانه العلمي، ولربما يُعذر في تحامله لما سفكوا من دماء إلا أن يحمله هذا على تجاوز الحد العلمي في الروايات!

على أن هذه الرواية تخالف كل الروايات المتقدمة عن عبدة زوجة هشام في المصادر القديمة، ومما يدل على ضعفها وتهالكها أن ابن عساكر نفسه لم يذكرها في ترجمته لها (تاريخ دمشق ٦٩/ ٢٦٣).

وهذا سندها الساقط الذي لا تنهض به رواية ولا يصح أن يحتج به في شيء:

أبو العباس محمود بن محمد بن الفضل الرافقي: يلقب بالأديب ومن القراء وترجم له ابن الجزري في طبقات القراء ترجمة موجزة، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والذهبي في تاريخ الإسلام وغيرهم، لكن أحدًا لم يذكر عن حاله شيئًا.

محمد بن موسى العمي ويعرف بحبش الصيني: مجهول، لم نجد له ترجمة، ولم نجد له رواية إلا في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي وصفه بالقول «وهو رجل لا يحصل ما يقوله ويرويه».

علي بن محمد بن سليمان النوفلي: مجهول الحال أيضًا، لم نجد له ترجمة، ولم نجد له ذكرًا غير هذه الرواية فيما بين أيدينا من مصادر إلا عند التنوخي (الفرج بعد الشدة ٢/ ١٧٥ – ط دار صادر).

محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي: مجهول الحال، لم يترجم له إلا ابن عساكر في هذه الرواية، ولم نجد له روايات أخرى فيما بين أيدينا من مصادر إلا عند الجاحظ (الحيوان ٣/ ٨ – ط٢ دار الكتب العلمية).

هشام بن عبد الملك إلى مجموعة من الجنود الخراسانيين فجعلوها تسير حافية عارية الرأس ثم ما زالوا يغتصبونها ويتناوبون ذلك حتى قتلوها، وتحكي الرواية -أيضًا- أن عبد الله بن علي جعل جامع دمشق اصطبلا لخيوله وجماله سبعين يومًا، وهو أمر لا يُصَدَّق أبدًا في ذلك العصر، ولو كان قد حدث لفاضت بذكره المصادر المتقدِّمة التي خلت من أي إشارة لهذا الأمر، وتضيف الرواية أن عبد الله بن علي أخرج جثث خلفاء بني أمية من قبورهم وحرق جثثهم ووصف كل جثة وكيف كان حالها، فهي -أيضًا- رواية لا تتفق مع حقائق العلم فهي تحكي عن بقاء جثة هشام بن عبد الملك سبع سنوات لم يتحلل منها إلا جزء من الأنف فقط، وهذا مستحيل علميًّا.

وعلى كل حال فإن المؤرِّخين يتفقون على أن هذه المقاتل والمآسي إنما يحمل ذنبها عبد الله بن علي، والقليل منهم -كاليعقوبي وابن أعثم الكوفي والمجهول صاحب كتاب العيون والحدائق- ادعى أنها تمَّت بأمر من الخليفة أبي العباس السفاح، فأما اليعقوبي وابن أعثم فيقلل من قيمة آرائهما الميل الشيعي العلوي، وأما المجهول فهو مجهول فلا يُحتج بقوله عند الخلاف، وإنه «يصعب علينا أن نتصور بأن الخليفة أبا العباس السفاح المعروف بمروءته وحلمه ورغبته في التوفيق قد أصدر أمرًا كهذا»(١).

ويزيد من تأكيد هذا الرأي شهادة ابن عبد ربه -وهو الأديب الكبير الذي ترعرع في ظِلِّ الأمويين في الأندلس- الذي ذكر بأن العباسيين لم يكونوا كلهم عبد الله بن علي، وهذا إنصاف لم يكن مثله ليُضطرَّ إليه، فيقول: «كان أشدّ الناس على بني أمية عبد الله بن عليّ، وأحنّهم عليهم سليمان بن علي، وهو الذي كان يسميه أبو مسلم: كنف الأمان! وكان يجير كلّ من استجار به. وكتب (سليمان بن علي) إلى أبي العباس: يا أمير المؤمنين، إنا لم نحارب بني أمية على أرحامهم، وإنما حاربناهم على عقوقهم، وقد دفت إليّ منهم دافَّة لم يشهروا سلاحًا ولم يكثروا جمعًا، فأحب أن تكتب لهم منشور أمان، فكتب لهم منشور أمان وأنفذه إليهم، فمات سليمان بن عليّ وعنده بضع وثمانون حرمة لبني أمية»(٢).

ولقد عبر مؤرِّخ الإسلام الإمام الذهبي عن شعوره المتناقض بقوله: فَرِحْنا بمصير الأمر

---

(١) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ١/ ١١١.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٢٢٩.

إليهم (أي لبني العباس لأنهم من آل البيت)، ولكن والله ساءنا ما جرى لما جرى من سيول الدماء، والسبي، والنهب، فإنا لله، وإنا إليه راجعون[(١)].

ويبقى هنا السؤال الكبير:

هل كان يملك عبد الله بن علي أن يفعل غير هذا مع الأمويين؟ ألم تكن ضرورة قيام الدولة تحتم عليه القضاء على كل نقاط القوة ومنافذ الخطر الأموية وإلا تعرضت الدولة الوليدة للثورة المضادة والانقلاب الثاني الذي يفشل حركتها؟ ماذا كان بوسع عبد الله بن علي أن يفعل مع الأمويين إلا هذا ليقطع آخر أمل لأي طموح في استعادة الأوضاع وإرجاع الأيام إلى سابق عهدها؟

في مثل هذه المواقف نتذكر دخول النبي ﷺ إلى مكة فاتحًا منتصرًا، متواضعًا رحيمًا، شعاره «اليوم يوم المرحمة» مناديًا أعداءه: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**». ومعلنًا في الناس «**مَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**».. ومع ذلك فثمة قائمة سوداء مطلوب قتلهم في حدود العشرة لما يمثله هؤلاء من الغدر ونكث العهد فمن هاهنا يُتوقع الخطر!

إن عبد الله بن علي لم يحصل على الهدوء والأمان بما أشاعه من مقاتل، بل سيأتي بعد قليل كيف عانى من ثورات الشام والجزيرة الفراتية التي انتفضت عليه من بعد ما كانت قد استسلمت له، كما أن ما فعله أزال عن الدولة العباسية الآمال والأحلام التي تعلقت بها من نشر العدل وإعادة سيرة الراشدين الصالحين، وكل هذا وفَّر الأجواء الخصبة لثورات وتمردات في كل أنحاء العالم الإسلامي ومن سائر الأطياف: الخوارج والعلويين والطموحين المغامرين وكل مَنْ أراد الإصلاح وتغيير الحال بالثورة.. ستعاني الدولة العباسية طوال عمرها أشكالا شتى من التمردات والثورات التي قامت بدورها لإقرار العدل وتصحيح المسار، ودفعت الدولة ثمنا في غاية الفداحة في كل موقف منها، وقد كان يمكن تجنب القسم الأعظم من كل هذا لو أن الدولة أقرت العدل ولم تسفك الدماء في أول أمرها، واحتاطت على الأمويين الذين يمثلون خطرًا سواء أكانوا من أمراء بيت الخلافة أو من قادتهم العسكريين ومواليهم.

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٨.

إن عبد الله بن علي نفسه اضطر بعد قليل إلى أن يتوقف عن هذا السلوك الدموي المثير للمزيد من الأحقاد والثورات والدماء، وسيقدم العفو ويعطي الأمان حتى تستقر له البلاد التي انتفضت عليه بعدما رأت جبروته فعادت بالرأي والهوى إلى الأمويين تتمنى أيامهم من جديد على النحو الذي سنراه.

إن تحطيم مراكز قوى العهد القديم أمر في غاية الأهمِّيَّة والضرورة لاستقرار الحكم الجديد، لكن المذابح والدماء والجبروت الشديد ليست الطريق الصحيح نحو هذا الهدف!

وغاية المقبول هو أن ينفذ القانون بالحسم والحزم في مثل هذه الظروف وألا يُلجأ إلى الحلم والعفو والصفح، وذلك هو الأقرب لما قاله أبو جعفر المنصور فيما بعد حين سأله عمه عبد الصمد بن علي: «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنّك لم تسمع بالعفو! قال المنصور: لأن بني أمية لم تَبْلُ رممهم، ولأن آل أبي طالب لم تُغْمَد سيوفهم، ونحن بين الناس قوم قد رأونا أمس سُوقة، واليوم خلفاء فليست تمتهن هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة»[1].

نهاية مروان بن محمد

سقطت دمشق حين كان مروان بن محمد في فلسطين، وبالتحديد عند نهر أبي فطرس، فواصل هربه إلى مصر، وبقي عبد الله بن علي أميرًا للشام، وأتى التكليف من أبي العباس أن يستمر صالح بن علي في قيادة مطاردة مروان بن محمد في فلسطين ومن بعدها في مصر، ومعه قوة يقودها أبو العون، وجيش من الموصل يتقدمه عامر بن إسماعيل الموصلي[2].

هذه القوة التي يتكون أغلبها من اليمانية، وهم من الحانقين على الأمويين، وكذلك من أهل الموصل وهم الذين خذلوا مروان بن محمد وكانوا من خصومه، دليل على حسن سياسة أبي العباس، فهو من ناحية يكافئهم ويقوي مركزهم بأن يعهد إليهم بمثل هذه المهمات الكبار، ومن ناحية أخرى يستفيد من الخصومات القديمة في توجيه أكثر الناس عداوة للقيام بالمهمَّة على خير وجوهها.

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٢/ ٣٣١.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٥، والأزدي: تاريخ الموصل ص١٣٥، ١٣٦.

استمرَّ مروان في هربه فتجاوز إلى مصر، فعبر سيناء والصحراء الشرقية ثم عبر نهر النيل إلى الجيزة على الضفة الغربية، وصالحُ بن علي في أثره بكل الإصرار، ووقعت أحيانًا مناوشات بين فرق من العباسيين مع فرق من الأمويين كان النصر فيها للعباسيين، ثم استطاعت سرية يقودها عامر بن إسماعيل أن توقع بمروان بن محمد مع مجموعة من فرسانه فدارت بينهما معركة قُتل فيها مروان بن محمد في قرية «أبوصير»[1] من صعيد مصر، وحُمِلَ رأسه إلى عبد الله بن علي في الشام الذي أرسل به إلى أبي العباس السفاح في العراق، وكان مقتله (٢٧ من ذي الحجة ١٣٢هـ)[2].

وبمقتل مروان بن محمد انتهت الدولة الأموية الكبيرة.. إلى الأبد!

وأما مروان بن محمد نفسه فقد كان الرجل القوي في الأيام الأخيرة، وكثير من المؤرِّخين على أنه لو تولى الدولة في وقت قبل هذا حين كانت أكثر عافية لاستطاع إطالة عمرها ولكن الخرق قد اتَّسع وثوب الدولة قد تهلهل حتى وصلت الانقسامات لبيت الخلافة نفسه فلم يَعُدْ الإصلاح ممكنًا، ولو كان متوليه هو فارس الأمويين وبطلهم العسكري الكبير مروان بن محمد.

قتل مروان بن محمد وعمره ستون سنة قضاها في حروب متصلة، بعد خلافة لم تكمل ست سنوات، بعد ولاية أذربيجان وأرمينية، وقد كان قائدًا لكثير من الفتوحات قاتل فيها الترك والخزر في مناطق آسيا والقوقاز، ووصف بأنه كان لا يُفارق الغزو في سبيل الله، وقد كان عالي الهمة شجاعًا بطلًا مقدامًا حازم الرأي، رزينًا، ذا مهابة، كثير المروءة وكثير العجب، وفيه كِبْر، وكان يحبُّ اللهو والطرب وسماع الأناشيد غير أنه كان منشغلًا عنه بالجهاد، وكان شغوفًا بالأسفار، وكان أديبًا وبليغًا.

كانت أُمُّه أَمَةٌ كردية، ويبدو أنه ورث منها ملامحها، فقد كان أبيض مشربا بحمرة، أزرق العينين، كبير اللحية، ضخم الهامة، وكان ذا قلب عاشق، رُوِيَ أنه في هروبه الأخير كتب شعرًا مؤثِّرًا لجاريته ينبض بحبها وشوقه إليها قال فيه:

---

(١) تتبع مركز الواسطى في محافظة بني سويف.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٨، وابن قتيبة: المعارف ص٣٧٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٥، ٣٥٦.

وَمَا زَالَ يَدْعُونِي إِلَى الصَّبْرِ مَا أَرَى ... فَآبَى وَيُدْنِينِي الَّذِي لَكَ فِي صَدْرِي

وَكَــانَ عَزِيــزًا أَنْ تَبِيتِــي وَبَيْنَنَــا ... حِجَابٌ فَقَدْ أَمْسَيْتِ مِنِّي عَلَى عَشْرِ

وَأَنْكَاهُمَــا وَاللهِ لِلْقَلْــبِ فَــاعْلَمِي ... إِذَا زِدْتُ مِثْلَيْهَا فَصِرْتُ عَلَى شَـهْرِ

وَأَعْظَــمُ مِــنْ هَــذَيْنِ وَاللهِ أَنَّنِــي ... أَخَـافُ بِـأَنْ لَا نَلْتَقِـي آخِـرَ الـدَّهْرِ

سَـأَبْكِيكِ لَا مُسْـتَبْقِيًا فَـيْضَ عَـبْرَةٍ ... وَلَا طَالِبًا بِالصَّـبْرِ عَاقِبَـةَ الصَّـبْرِ[١]

ولُقِّب مروان بالحِمَار أو الحَمَّار، فلقب الحِمَار قال البعض لقلة عقله[٢]، إلَّا أنَّ جماهير المؤرِّخين على أنها تشبيه لشجاعته على قول العرب: فلان أصبر من الحمار في الحرب، وقد كان مروان لا تلين له قناة ولا تفتر له عزيمة في محاربة الخارجين عليه وكان يصبر على مكاره الحرب، أو على عادة العرب أن تسمي كل مائة عام حمار نسبة إلى حمار العزير الوارد في القرآن الكريم، فجاء ذلك في مروان الذي قارب ملك بني أمية أن يكمل به المائة عام[٣]، ثم تعقب محمد بن طاهر البرزنجي هذه الروايات التي تلقبه بهذا وصرح بضعفها جميعًا وأرجع شيوعها إلى أن تدوين هذه الفترة كان في عصر العباسيين فزاد الإخباريون والوضَّاعون في الروايات ما ليس فيها وقد انعكس هذا في مؤلفات المؤرِّخين[٤].

لقد كان عام ١٣٢ هـ، هو عام النهاية لبني أمية، في بدايته كان النصر الكبير لقحطبة الطائي على يزيد بن عمر بن هبيرة وسقوط الكوفة، ولم يمض آخره إلا وقد قُتِل آخر خلفائهم وخيرة فرسانهم وانقضت دولتهم!

ما أبعد الذي كان يرنو إليه مروان بن محمد لدى خروجه قبل خمس سنوات من هذا الذي صار إليه، لقد حشد جنده وتأهب لأن يكون خليفة قويا يعيد للدولة شبابها، وسار من أرمينية إلى دمشق ليعدل ميزان الدولة، وخاض في هذا الحروب وسفك الدماء وقاتل حتى

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٠، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٧/ ٣١٩ وما بعدها، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٧٤ – ٧٧، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٥٠، ٥١.

(٢) ابن حبان: الثقات ٢/ ٣٢٢.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٧٤.

(٤) محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٥/ ١٩، ونحن نسلِّم له نقده في السند شاكرين تتبعه ومجهوده، أما نقده للمتن فلا نوافقه فيه لأسباب ليس هذا محل تفصيلها.

ارتقى كرسي الخلافة، فما هو إلا وكأنه وقع في الفخ! فتهاطلت عليه الهموم والثورات فما يفيق من أحدها إلا ليسقط في أخرى، مع انقسام بين أهل الشام الذين فشت فيهم العصبية، وانقسام في بيت الخلافة نفسه..

هل كان الأمر أكبر من مروان أم أن رجل الحرب لم يكن موفقا في السياسة؟ اختلف المؤرِّخون في إجابة هذا السؤال، على أن اليقين فيه أن مروان لا يتحمل وحده مسئولية انهيار الدولة التي بدا تراجعها مفاجئا ومتسارعا إلى حد مدهش، وحتى هزيمتها الأخيرة بدت محيرة كذلك!

وعن هذه الحيرة يقول المستشرق دانيال دانيت: حينما وقف قسطنطين الحادي عشر على أسوار القسطنطينية في ليلة ٢٨ مارس ١٤٥٣م فإن نهاية الدولة البيزنطية كانت بينة وواضحة ولم يكن هناك وسيلة لإنقاذ المدينة إلا بمعجزة، ولكن لم يكن واضحًا لمروان الثاني وجيشه في صباح يناير ٧٥٠م [موقعة الزاب] بأنهم سيخوضون معركتهم الفاصلة، فلقد كان جيش مروان أكثر عددا وكان هناك وفر في المال والعدة والغذاء، وكان مروان الثاني منتصرًا في كل حروبه السابقة ضد الخوارج، ولم يكن هناك [في هذه اللحظة] تهديد خارجي أو ثورة داخلية، وهكذا فإن الجيش الأموي في معركة الزاب كان قد عبَّأ كل قواه دون أن يكون هناك أي تشتيت لقواته الضاربة. ثم يحتار دنيت في تفسير هزيمة الأمويين ولا يجد إلَّا أن يعزوها لسوء الخطَّة العسكرية لمروان معترفًا بأنه ليس السبب المقنع أيضًا[1].

ونضيف إلى حيرة دانيت عن هزيمة الأمويين حيرة أخرى عن مروان نفسه، ذلك الفارس الذي عاش حياته كلها بين الحرب والضرب والقتل، ثم صمد صمودا مثيرا للدهشة والإعجاب منذ أن تولى الخلافة أمام ثورات الشرق والغرب، وظل يقيم الحج حتى عام (١٣٠هـ)، ولا يشذ مؤرِّخ فيما نعلم عن الشهادة بإقدامه وفروسيته، وهو فارس أرمينية وفاتح الأنحاء الكثيرة في أذربيجان - كيف بمثل هذا الرجل أن ينهار هكذا فجأة بعد معركة الزاب، وقد كان بإمكانه -حسب ما لدينا من معلومات- أن يتحصن في دمشق، ومن غير شك فإنه لو تحصن فيها مع جيشه بدلا من أن يهرب إلى مصر لكان قد حقق نتائج أفضل لا

(١) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص١٦، ١٧.

سيما وأن دمشق صمدت فترة أمام الحصار، ولو ركزنا على رواية انهيارها بعد طلب الأمان لتوقعنا أن صمودها كان سيطول مع الاستعدادات التي وفرها الوليد بن معاوية، ثم إن ما شهده الشام بعد ذلك من ثورات متعددة ضد العباسيين يوحي بأن القوم قد فَتَّ في عزمهم هروب الخليفة، وأنه لو كان بينهم فلربما كانوا خلفه أمام هذه الموجة السوداء التي ستنزع عن الشام مكانتها كعاصمة الإمبراطورية الإسلامية.

وتبقى في النهاية شهادة الخصم أصدق ما يقال في خصمه، لقد شهد له أبو جعفر المنصور بقوله: «لله در مروان ما كان أحزمه وأسوسه وأعفه عن الفيء»[١].

ثورات الشام والجزيرة

لئن كان الأمر في مصر يجري لصالح العباسيين الذين قتلوا مروان بن محمد، فالأمر في الشام كان على عكس ذلك، فلقد ثارت مدن الشام على عبد الله بن علي، وبدا وكأنه في مأزق كبير..

جاء مائة وخمسون فارسا للقبض على أولاد مسلمة بن عبد الملك ونسائه لا لشيء إلا لأنهم أمويون، فأخذت النخوة أبا الورد بن الكوثر[٢] فجمع من تبعه وقتل هؤلاء الفرسان العباسيين، وإذا بهذه الحركة تتحول إلى ثورة في قنسرين بفعل انضمام أهلها إليه[٣].

وكان عبد الله بن علي أمير الشام يقاتل ثورة أخرى في البلقاء والبثينة وحوران بقيادة حبيب بن مرة المزي، فاستطاع عقد هدنة مع حبيب بن مرة ليعود شمالًا لقتال ثورة قنسرين - فهي بحكم الموقع الجغرافي أخطر بكثير من حوران والبلقاء والبثينة- فمر بدمشق ثم تجاوزها إلى قنسرين، وما إن خرج من دمشق ووصل إلى حمص حتى ثار أهل دمشق عليه لغضبهم من أفعال أتباعه فقتلوا نائبه عليها ونهبوا متاعه غير أنهم حافظوا على حريمه فلم يفعلوا ما استنكفوه منه ولم يعاملوه بالمثل[٤].

---

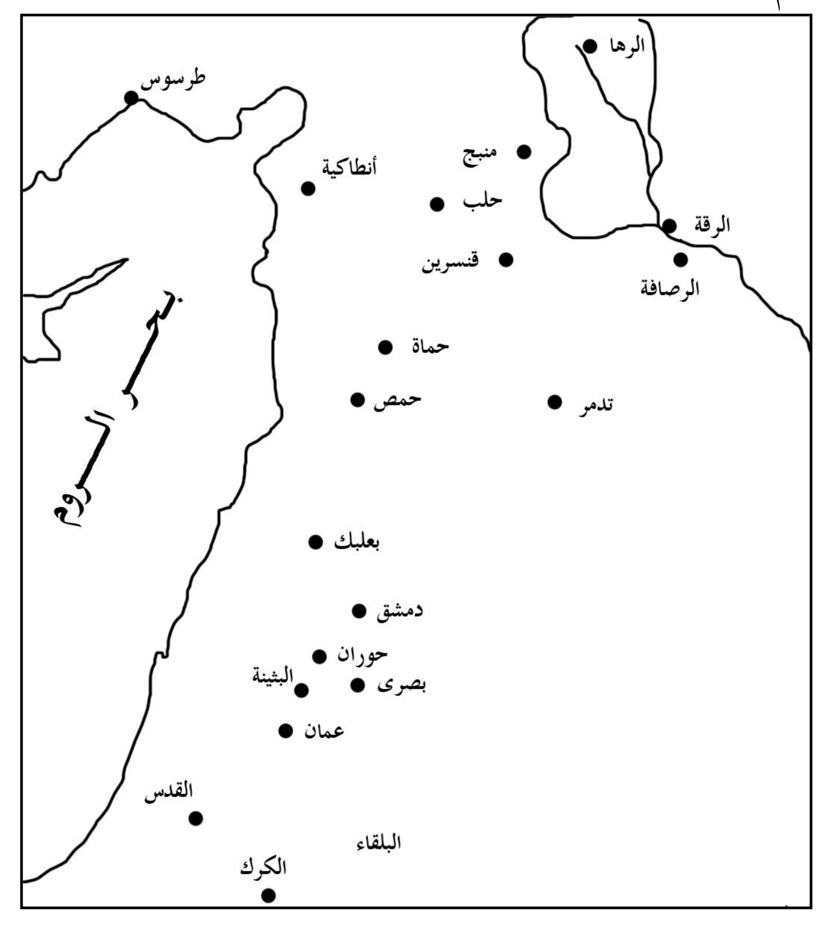
(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٨/ ٥٣٦.

(٢) لعل القارئ لم ينس أن أبا الورد هذا كان من قادة مروان بن محمد، وهو الذي أنهى ثورة يزيد بن خالد القسري في دمشق وثورة ثابت بن نعيم الجذامي في فلسطين.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٦، ٣٥٧.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٩/ ٣٣٧، ٣٣٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٧.

وعلى الجهة الأخرى كان أهل قنسرين قد اتفقوا مع أهل حمص على تقديم واحد من البيت الأموي هو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكانوا نحوا من أربعين ألفًا، واستطاعوا بالفعل هزيمة جيش عباسي بعث به السفاح بقيادة عمه عبد الصمد بن علي، فانسحب الجيش المنهزم متفرقا حتى انضم إلى جيش عبد الله بن علي القادم من الجنوب، ودار قتال شديد كاد أن يهزم فيه الجيش العباسي لولا ثبات وصمود عبد الله بن علي وحميد بن قحطبة اللذيْن قاتلا حتى التف حولهما الجيش من جديد وبدأت كفتهم تزيد، وعلى الجانب الآخر ثبت -أيضًا- أبو الورد بن الكوثر في خمسمائة من فرسانه حتى قُتلوا عن آخرهم وهرب أبو محمد السفياني، وانتهت بذلك قلب ثورة الشام.. وكانت المعركة في آخر ذي الحجة عام ١٣٢ هـ(١).



(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٧٠، ١٧١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٧، ٣٥٨.

فكأن هذا العام أبى أن ينتهي إلا وقد مَكَّن للعباسيين في الشام!

ويبدو أن عبد الله بن علي أدرك خطأه في الأخذ بالشدة والعنف؛ إذ إنه صالح كل المدن التي ثارت عليه وأمنها ولم يعاقب أحدًا عاد إلى البيعة بعد أن كان من الثائرين، فأَمَّن أهل قنسرين، ثم عاد إلى دمشق التي كان الثائرون فيها قد هربوا وتفرقوا فأَمّن أهلها أيضًا، وعاد الشام إلى سلطة العباسيين[١].

إلا أن ثورة الشام كانت قد امتدت إلى خارجه حيث الجزيرة[٢]، إذ ثار أهلها وحاصروا نائب السفاح في حران قرابة الشهرين، وامتدت الثورة إلى قرقيسيا والرقة وحاجر؛ حتى اضطر السفاح إلى أن يبعث بفرقة من الجيش الذي يحاصر مدينة واسط (التي ما زال فيها يزيد بن عمر بن هبيرة مع قوة أموية) لمواجهة هذه الثورة، وقد استطاع الجيش فك الحصار عن حران وأجبر الثوار على الانسحاب إلى الشمال حيث الرها واتحدوا قبل ذلك مع طائفة من الخوارج وقاتلوا العباسيين في عدة وقعات ثم انسحبوا منهزمين حتى تجمعوا في سميساط وقد بلغوا ستين ألفًا، فبعث السفاح إلى عمه عبد الله بن علي الذي كان قد انتهى من أمر الشام أن يسير بجيشه نحو سميساط، فاجتمعت الجيوش العباسية عند سميساط وضربت حولها الحصار. كان قائد ثورة الجزيرة إسحاق بن مسلم العقيلي يستند في ثورته هذه إلى البيعة التي أعطاها لمروان بن محمد، فلما بلغه خبر مقتل مروان بن محمد طلب الأمان، فأعطاه العباسيون هذا الأمان، وانتهت بذلك ثورة الجزيرة[٣].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٧.

(٢) في سياق التأريخ لهذه المنطقة الواقعة شمال العراق، تطلق كلمة «الجزيرة» على ما يُعرف بالجزيرة الفراتية، وهي الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٥٧، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٨، ٣٥٩.

بحر الروم
غزة
أيلة
البتراء
القدس
الكرك
مؤتة
البثنية
عمان
حوران
بصرى
دمشق
البلقاء
بعلبك
حمص
حماة
أنطاكية
طرسوس
قنسرين
حلب
منبج
سميساط
تدمر
الرها
الرصافة
الرقة
بادية الشـــام
دومة الجندل
قرقيسياء
هيت
عين التمر
الموصل
تكريت
اربل
بابل
الحيرة
القادسية
النعمانية
المراغة
بحر البصرة
بحر الخزر



سقوط واسط

ظلت واسط مُحاصَرةً بجيش عباسي يقوده أبو جعفر أخو الخليفة ومعه الحسن بن قحطبة، وقد طال الحصار على واسط لمناعتها ولقوة ومهارة ابن هبيرة، وقد تفاءل ابن هبيرة بالثورات التي اندلعت في الشام والجزيرة كما سعى لمراسلة واحد من العلويين وهو محمد بن عبد الله بن الحسن ومبايعته بالخلافة[(١)]، وقصد من ذلك إلى مضايقة العباسيين بشق صف المحبين لولاية آل البيت إذ هم أشد حبا للعلويين من العباسيين بطبيعة الحال، كما قصد بهذا جمع أهل واسط من اليمانية وراءه.

وكان العباسيون يقظين لهذه المحاولات فقام أبو جعفر -بوصية من السفاح- بالتواصل مع اليمانية وصرح لهم: «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم»[(٢)]، وطمأنهم وأغراهم حتى نجح في شق الصف داخل واسط حتى تجنبت اليمانية القتال، وتجنبته تبعا لذلك القيسية فلم يبقَ في القتال آخر أيام الحصار أحد مع ابن هبيرة إلا الصعاليك والفتيان. ثم كانت القاصمة حين وصل خبر مقتل مروان بن محمد ثم انتهاء الثورات في الشام والجزيرة واستتباب الأمور لبني العباس، فحينها سعى ابن هبيرة في طلب الصلح[(٣)].

يروي أحد المحاصَرين ما حدث قائلًا: «لما جاءنا أبو جعفر نهضوا إلينا بجماعتهم فجعلنا نقاتلهم حتى أتتنا هزيمة مروان، فكنا في القتال شعبان وشهر رمضان وشوالا، فجاءنا الحسن ابن قحطبة في آخر شوال فقال: إلى من تمدون أعناقكم؟ ما بقي أحد إلا وقد دخل في طاعة أمير المؤمنين، لكم عهد الله وميثاقه إنكم آمنون على كل شيء قِبَلَنا. ثم أصبحنا الغد فأتانا خازم بن خزيمة فقال مثل ذلك. ثم جاءنا الحارث بن نوفل الهاشمي ثم جاءنا إسحاق بن سعيد العقيلي فقال: القوم يعطونكم ما تريدون فاكتتبنا بيننا وبينهم كتابًا صلحًا؛ وذلك في أول ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة على ما شئنا على أن ابن هبيرة على رأس أمره مع خمس مائة من أصحابه ينزل خمسين يومًا مدينة الشرقية لا يبايع؛ فإذا تمَّت فإن شاء لحق بمأمنه، وإن شاء دخل فيما دخل فيه الناس، وما كان في أيدينا فهو لنا، ففتحنا الأبواب»[(٤)].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٣، وابن الجوزي: المنتظم ٧/ ٣١٤.
(٢) ابن قتيبة (منحول له): الإمامة والسياسة ٢/ ٣٠٠.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦١ وما بعدها.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٧.

وبعد مراسلات كثيرة بين ابن هبيرة وأبي جعفر تم له الأمان بإذن من السفاح، وظل ابن هبيرة ينظر في وثيقة الأمان[1] المبذولة له مدققا فيما قد يكون من ثغرات يستحل بها

(١) ونص الوثيقة ضعيف متهالك، لم نجده إلا في مصدريْن شيعييْن امتلآ بالروايات الضعيفة والباطلة التي تفتري على الصحابة وأم المؤمنين، ومبالغات في الرواية والتشنيع، وهما: الإمامة والسياسة وهو الكتاب المنحول للإمام ابن قتيبة، وكتاب الفتوح لابن الأعثم الكوفي الشيعي الذي ضعفه المحدثون واتهموه، وقد أردنا أن نسوق للقارئ مثالاً على هذه المبالغات فنقلنا هذا النص لوثيقة الأمان التي أعطاها المنصور لابن هبيرة:

«هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر **ولي أمر المسلمين** ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم في مدينة واسط وأرضها من المسلمين والمعاهدين ومن معهم من وزرائهم: إني أمنتكم بأمان الله الذي لا إله إلا هو الذي يعلم سرائر العباد وضمائر قلوبهم ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وإليه الأمر كله، أمانا صادقا لا يشوبه غش ولا يخالطه باطل، على أنفسكم وذراريكم وأموالكم، وأعطيت يزيد بن عمر بن هبيرة ومن أمنته في أعلى كتابي هذا بالوفاء بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه الذي واثق به الأمم الماضية من خلقه وأخذ عليهم به أمره عهدا خالصا مؤكدا وذمة الله وذمة محمد ومن مضى من خلفائه الصالحين وأسلافه الطيبين التي لا يسع العباد نقضها ولا تعطيب شيء منها ولا الاحتقار بها، وبها قامت السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها تعظيما لها، وبها حقنت الدماء، وذمة روح الله وكلمته عيسى ابن مريم وذمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وذمة جبريل وميكائيل وإسرافيل وأعطيتك ما جعلت له من هذه العهود والمواثيق ولمن معك من المسلمين وأهل الذمة بعد استثماري فيما جعلت لك منه عبد الله بن محمد أمير المؤمنين أعز الله نصره وأمر بإنفاذه لكم ورضي به وجعله لكم وعلى نفسه وتسليم ذلك من قبله من وزرائه وقواده وأنصار الحق من شيعته من أهل خراسان فأنت وهم آمنون بأمان الله ليس عليك حد ولا تؤاخذ بذنب أتيته وكنت عليه في خلاف أو مناوأة أو قتل أو زلة أو جرم أو جناية أو سفك دماء خطأ أو عمدا أو أمر سلف منك أو منهم صغيرا أو كبيرا في سر أو علانية ولا ناقض عليك ما جعلت لك من أماني هذا ولم أخنك فيه ولا ناكث عنه وأذنت لك في المقام في المدينة الشرقية إلى الأجل الذي سألت ثم اسلك حيث بدا لك من الأرض آمنًا مطمئنًا مكلوءًا أنت ومن سألته أن يؤذن له في المسير معك ومن تبعك وأهل بيتك والخمس مئة رجل على ما سألت من دوابهم وسلاحهم ولباس البياض لا يخافون غدرا ولا إخفارا بك حيث أحببت من بر أو بحر وانزل حيث شئت من الأرض إلى أن تنتهي إلى منزلك من أرض الشام فأنت آمن بأمان الله ممن مررت بهم من عُمَّالنا ومسالحنا (أي: شرطتنا) ومراصدنا ليس عليك شيء تكرهه في سر ولا علانية ولك الله الذي لا إله إلا هو لا ينالك من أمر تكرهه في ساعة من ساعات الليل والنهار ولا أدخل لك في أماني الذي ذكرت لك غشا ولا خديعة ولا مكرا ولا يكون مني في ذلك دسيس بشيء مما تخافه على نفسك ولا خديعة في مشرب ولا مطعم ولا لباس ولا أضمر لك عليه نفسي إلى ارتحالك من مدينة واسط إلى دخولك على عسكري والغدو والرواح إذا بدا لك والدخول أي ساعات من ساعات الليل والنهار أحببت فاطمئن إلى ما جعلت لك من الأمان والعهود والمواثيق وثق بالله وبأمير المؤمنين فيما سلم منه ورضي به وجعلته لك ولمن معك على نفسي ولك علي الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذمم أشد ما أخذه الله وحرمه وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد فإنه جعله كتابا مبينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ونورا وحجة على العباد حتى ألقى الله وأنا عليه وأنا أشهد الله وملائكته ورسله ومن قرئ عليه كتابي هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق وإقراري بها على نفسي وتوكيدي فيها وعلى تسليمي لك ما سألت ولا يغادر منها شيء ولا ينكث عليك فيها وأدخلت في أمانك هذا جميع من قبلي من شيعة أمير المؤمنين من أهل خراسان ومن لأمير المؤمنين عليه طاعة من أهل الشام والحرب وأهل الذمة وجعلت لك أن لا ترى مني انقباضا ولا مجانبة ولا ازورارا ولا شيئًا تكرهه في دخولك علي إلى مفارقتك إياي ولا ينال أحدًا معك أمر يكرهه وأذنت لك ولهم في المسير والمقام وجعلت لهم أمانا صحيحا وعهدا وثيقا وإن عبد الله بن محمد **إن نقض ما جعل لكم في أمانكم هذا فنكث أو غدر بكم أو خالف إلى أمر تكرهه أو تابع على خلافه أحدًا من المخلوقين في سر أو علانية أو أضمر لك في نفسه غير ما أظهر لك أو أدخل عليك شيئًا في أمانه وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين أو التماس الخديعة والمكر بك وإدخال المكروه عليك أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء لك به فلا قبل الله منه صرفا ولا عدلا وهو بريء من محمد بن علي وهو يخلع أمير المؤمنين ويتبرأ من طاعته وعليه ثلاثون حجة يمشيها من موضعه الذي هو به من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذي بمكة حافيا راجلا وكل مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حجة بشراء أو هبة أحرار لوجه الله وكل امرأة له طالق ثلاثا وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين وهو يكفر بالله وكتابه المنزل على نبيه والله عليه بما وكد وجل على نفسه في هذه الأيمان راع وكفيل** وكفى بالله شهيدا». الإمامة والسياسة ٢/ ٣٠١ وما بعدها.

العباسيون قتله بعدئذٍ ويشاور العلماء في ذلك، ظل هذا أربعين يومًا حتى اطمأن فاستسلم هو ومن معه[١].

وكان هذا الحصار أول معركة كبيرة يقودها أبو جعفر، وقد أدى فيها أداءً بارعا، شهد له به ابن هبيرة نفسه بقوله: «ما رأيت رجلًا قطُّ في حرب ولا سمعت به في سلم أمكر ولا أبدع ولا أشدَّ تيقُّظًا من المنصور؛ لقد حصرني في مدينتي تسعة أشهر ومعي فرسان العرب فجهدنا كل الجهد أن ننال من عسكره شيئًا نكسره به فما تهيأ ولقد حصرني وما في رأسي (شعرة) بيضاء فخرجت إليه وما في رأسي (شعرة) سوداء»[٢].

ظل ابن هبيرة يَقْدُم على أبي جعفر المنصور في حاشيته وفرسانه فكانوا يبلغون ألفًا وثلاثمائة، وقبل أبو جعفر هذا لفترة ثم أمره ألا يأتي إلا في حاشيته فكان يأتيه في ثلاثين رجلًا، ثم في ثلاثة[٣]، وهذا القدوم على الخليفة هو نوع من الولاء في عرف أهل ذلك الزمان!

لكن أبا مسلم ألح على الخليفة بقتل ابن هبيرة، فهو الرجل القوي والعدو القديم، وكان أبو مسلم ضد سياسة العفو ومنحازا إلى سياسة الاستئصال، يدل على هذا قوله: «إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة»[٤]، كما يدل عليه فعله كذلك، فأمر أبو العباس أخاه أبا جعفر بقتل ابن هبيرة على الرغم من الأمان المبذول، وأصر على هذا حتى هدد أخاه بأنه إن لم يقتله فسيرسل من عنده من يفعل ذلك، فقتله أبو جعفر رغم أنه الذي بذل له الأمان، وقيل إن هذا كان عن مشورة من أبي مسلم، وقيل إن أبا العباس وقع في يده محاولة أخرى من ابن هبيرة لمراسلة العلويين ومبايعتهم على الخلافة فيكون بهذا قد خرق عهد الأمان المبذول به وحل قتله[٥].

وعهد أبو جعفر إلى خازم بن خزيمة التميمي بقتل ابن هبيرة وخاصته[٦] لأنه مضري

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٦.
(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٧٣، ٣٧٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٣.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٣.
(٥) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٣، ود. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٤٨. وتذكر روايات اليعقوبي والبلاذري والطبري أنه قتل لاتصاله بالعلويين ورواية ابن أعثم الكوفي تقول بأنه أراد القضاء على الدولة دون أن يذكر اتصالا بالعلويين، على أن الروايات تتضارب إذا ما كان اتصاله بالعلويين (محمد النفس الزكية) قبل الأمان أو بعده، لا سيما أنه لو بعد الأمان فلماذا تردد أبو جعفر في قتله.
(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١١٧، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٧٤، ٣٧٥.

مثله، خشية من أن تبدأ قصة ثأر أو عصبية جديدة إن قتله رجل من اليمانية؛ حتى إن خازم نفسه قال: «والله ما بدرت إلى قتل ابن هبيرة إلا مخافة أن يدفع إلى رجل من اليمانية فيفخر علينا بقتله»[١].

ولا شك في أن وجود ابن هبيرة كان خطرًا على العباسيين، فلو لم يكن حقا أنهم وجدوا نكثا منه للعهد لكان هذا طبيعيًّا في سياق سياستهم في هذه الفترة والتي قامت على استئصال الأمويين حتى بأسلوب نقض العهد.

نهاية أبي سلمة الخلال

ثم جاء دور أبي سلمة الخلال، وحانت لحظة دفعه ثمن خطئه القاتل!

ولم يتوقف الأمر عند محاولته تنصيب علوي في الخلافة، بل إن باقي الأيام شهدت بعض التوتر بين الخليفة ووزيره أبي سلمة، وثمة روايات تفيد أن أبا سلمة كان يتعالى على الخليفة[٢]، كما أن تولية الخليفة ديواني الجند والخراج[٣] لخالد بن برمك[٤] -وهما أهمُّ دواوين الدولة- دليل على ضعف الثقة في أبي سلمة، لكنه فيما يبدو كان مضطرًا لمداراته وتهدئته؛ حتى لقد غضب أبو سلمة مرة حين بلغه عن الخليفة شيء فأنكر الخليفة ما أغضب أبا سلمة وقال له: «أنت جلدة وجهي كله»[٥].

لكنه حين عزم على قتله أوصاه عمه داود بن علي بأن يشاور في هذا أبا مسلم الخراساني لكيلا يتسرب القلق إليه[٦] فيظن أن العباسيين بدءوا في التخلص من قادتهم غير العباسيين أو على الأقل التخلص من الموالي، وقد كان بين أبي مسلم وبين أبي سلمة علاقة طيبة في ظاهرها[٧] لمواقعهما التنظيمية واتفاق كونهما من الموالي، ولم تكن الدولة في هذا الوقت تحتمل انشقاقا فيها لا سيما في جانبها الأثبت وهو خراسان وفي رجلها الأقوى وهو أبو مسلم، لا سيما وأن ثمة احتمالا قائما بأن يخرج أبو مسلم نفسه على الخلافة مطالبا بدم أبي سلمة الخلال،

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٤٩.
(٢) ابن قتيبة (منحول له): الإمامة والسياسة ٢/ ٢٩٥.
(٣) وهما -بتعبير العصر الحديث- وزارتي الدفاع والمالية.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٥، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٧١.
(٥) ابن الأبار: إعتاب الكتاب ص٦٢.
(٦) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٦٠.
(٧) لا ننسى أن أبا مسلم رفض أي سلطة لأبي سلمة الخلال على فارس، بل وقتل الولاة الذين أرسلهم!!

وثمة احتمال آخر يفيد بأن أبا مسلم قد يكون مشاركا لأبي سلمة في الفكر وميالا إلى العلويين -أيضًا- وأن أبا سلمة لم يفعل ما فعل إلا باستشارة أو تأييد من أبي مسلم فكان لا بُدَّ من استجلاء حقيقة نفس أبي مسلم وميوله.. لهذا كله أرسل السفاح أخاه أبا جعفر ليشاور أبا مسلم في هذا الأمر(١).

إن هذه الخطوة بحد ذاتها دليل على ما وصل إليه أبو مسلم من النفوذ والهيبة في الدولة؛ حتى إن الخليفة يهاب أن يفعل شيئًا يُحتمل أن يسيء إليه!

ذهب أبو جعفر المنصور إلى خراسان، وهو يعلم مدى ما بلغه أبو مسلم من النفوذ والسطوة والسلطان في خراسان، ولا أدل على ذلك من أن أبا جعفر -وهو أخو الخليفة نفسه ثم هو من هو شجاعة وإقداما وقوة شخصية- ذهب إلى خراسان وهو على وجل! وما إن علم أبو مسلم بأن أبا جعفر في الطريق إليه إلا وأرسل إلى والي الرِّيِّ بأن لا يدع أبا جعفر يريح بل يرسل به على الفور، وهو الأمر الذي ازداد له أبو جعفر خوفًا وحذرًا، وكذلك في نيسابور أرسل إلى واليها أن يرسل به على الفور لأن نيسابور بها حركة خوارج يُخشى منها عليه، وهنا اطمأن أبو جعفر، ثم استقبله أبو مسلم خارج مرو ونزل عن فرسه وقَبَّل يده، ثم أنزله دارا وتركه فيها ثلاثة أيام لم يسأله فيم قَدِم ولا ماذا يريد؟ ثم قدم عليه في اليوم الرابع فأفضى له أبو جعفر بالأمر(٢).

بعض المؤرِّخين يقولون بأن أبا مسلم سارع في توصيل أبي جعفر إلى مرو خشية أن يكون مكوثه في بلاد خراسان والتقاؤه بالناس مما يسحب من رصيد سلطان أبي مسلم، وهو السبب ذاته الذي سيحمل أبا مسلم على التخلص من كل الشخصيات الكبيرة المؤسسين للدولة العباسية(٣).

وما كاد أبو جعفر يخبر أبا مسلم بما فعل أبو سلمة من خيانة الإمام ومحاولة صرف الأمر للعلويين إلا سارع أبو مسلم بنفسه لتحمل هذه المهمَّة وقال: أنا أكفيكموه، ودعا أحد جنده -وهو مرار بن أنس الضبي- وكلفه أن يسافر إلى الكوفة من ساعته فإذا وجد أبا سلمة فليقتله، فانطلق مرار بن أنس إلى الكوفة، ودخل سرا إلى الخليفة وأعلمه بمهمته، ولمزيد من

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٥٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٩.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٥٥، ١٥٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٠.
(٣) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٠٣.

الكتمان، أمر أبو العباس أن يُنادى في الناس أن الخليفة راضٍ عن أبي سلمة، وزاد في إكرامه وأعطاه وكساه -والكسوة أو الخُلْعَة من مظاهر التكريم والرضا في ذلك الزمن- ثم لم يلبث أبو سلمة بعد هذا إلا ليلة واحدة وقُتِل على يد مرار بن أنس، وأذاع العباسيون أن الخوارج هم الذين قتلوا أبا سلمة[1].

وهكذا انتهت قصة أبي سلمة، قصة الجهاد الطويل الذي اختتم بالخطأ القاتل!

إلا أن ثمة أسئلة يجب أن يُنظر إليها بعمق بعيدا عن التفسير البسيط الذي يفرضه انتصار العباسيين، «هل كان مخلصا اختلط عليه الأمر فتعثر؟ هل خان الأمانة التي وضعها بنو العباس في يده؟ هل كان مخدوعا مع المخدوعين فظن أن الأمر حقا للرضا من آل محمد فحاول أن يختار هو الرضا من آل محمد؟ هل كان أنانيا فأراد أن يبقى الأمر في يده ويعيِّن خليفة من العلويين يحس دائمًا أنه مدين بمنصبه لأبي سلمة؟»[2].

يمكننا أن نستبعد أن مثله اختلط عليه الأمر فتعثر، فمثل أبي سلمة لا يرتبك في قرار مصيري فارق كهذا وهو رجل الخطط والتدبير والسياسة! ويغلب على الظن أنه كان مخلصا فإن ما أنفقه من أمواله الكثيرة ومن جهده البالغ في إسقاط دولة الأمويين وإقامة دولة آل البيت ربما دفعه ليخشى على الدولة مع أبي العباس الذي لم يكمل الثلاثين من عمره وفكر في أن يأتي بأحد شيوخ العلويين وهم أقرب إلى قلوب الناس ووجدانهم من هذا الشاب من حيث السن والتجربة والخبرة، ومن حيث تاريخ النضال الطويل للعلويين ودماؤهم التي سالت في الثورات الكثيرة، وهذا الخاطر ربما يختلط به ميزة أن يشعر الخليفة العلوي أنه مدين بمنصبه لأبي سلمة.

قبل كل هذا وبعده نقول: الله أعلم بالنوايا والنفوس! ولكن قراءة التاريخ ينبغي أن تكون أكثر عمقا من الحكم بالخيانة لدافع شخصي قوبل بالقتل!

أبو مسلم في خراسان

يمكن تلخيص سياسة أبي مسلم في خراسان في بَنْدَيْن: تأسيس العهد الجديد، وتأسيس

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٠.

(٢) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/ ٤٦.

سلطته المنفردة بلا منافس، وقد سار في كلا الخطين بهمة وسرعة وحسم جعلته يصل إلى هدفه بأسرع ما يمكن؛ حتى لم تمض سنوات معدودة إلا وكان أبو مسلم الخراساني الحاكم بأمره في خراسان وفارس، لا تجرؤ حتى الخلافة على عزله عنهما.. وتفصيل ذلك كالتالي:

كان أبو مسلم أقوى أمراء الدولة، وكانت خراسان تدين له بالولاء، وقد سيطر أبو مسلم على خراسان بالقوة والسيف وحكمها بالرعب، غير أنه -مع هذا- كان محبوبا ومهابا عند أهل خراسان -أيضًا- لما له من طاقات ومواهب الزعامة ولما أنجزه من بطولة في إسقاط دولة بني أمية وإقامة دولة الهاشميين، وقد كان أبو مسلم ذكيا وفطنا وعارفا بأن نسبته إلى الموالي وأصله الفارسي يجعل الكثير من الخراسانيين يطمئنون إليه بعد دولة كانت تتميز عليهم بنسب العروبة!

وقد تلقب بأمير آل محمد وأمين آل محمد وسيف آل محمد، ونقش اسمه على النقود(١).

وكان أول ما بدأ به في خراسان تنفيذ «التطهير» والتخلص من رجال العهد القديم، تحقيقا لعدة أهداف: ترسيخ الحكم وإقرار سلطان وهيبة العهد الجديد، وتقربا من أهل المظالم في العهد السابق، وتخلصا من مراكز الخطر المحتمل.

لقد بدأ بهذا -كما ذكرنا سابقا- مع أتباع نصر بن سيار أول دخوله مرو، ثم بدأ في تعقب ومطاردة قاتلي يحيى بن زيد بن علي، وهو الثائر العلوي الذي حاربه نصر بن سيار حتى هزمه وقتله ثم صلبه، فبقي جسده مصلوبا، فلما استولى أبو مسلم على خراسان أنزل جسده وكفنه وصلى عليه ثم بدأ حملة مطاردة من شارك في قتله، واستخرج أسماءهم من السجلات والدواوين فمَنْ كان حيًّا قتله، ومَنْ كان ميتًا أساء إلى أهله(٢).

وكان أبو مسلم يسيطر على فارس أيضًا، وقد ذكرنا من قبل كيف أنه قتل الولاة الذين أرسلهم أبو سلمة الخلال من قِبَله لتولي مدن فارس، وكان محمد بن الأشعث والي أبي مسلم على فارس لا يرى حقا لأحد عليه إلا أبو مسلم إلى الحد الذي رفض بوضوح قرار الخليفة أبي العباس بتوليه عمه عيسى بن علي على فارس بل همّ بقتل عم الخليفة، فقال له بعض

---

(١) الصابي: رسوم دار الخلافة ص١٣٠، ١٣١.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص١٣٦، والمسعودي: مروج الذهب ٢/ ١٩٦ (ط٢ الدار العالمية للكتاب)، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٤/ ٢٢٨.

أصحابه: إن هذا لا يسوغ لك، فقال: بلى أمرني أبو مسلم ألا يَقْدُم عليَّ أحد يَدَّعي الولاية من غيره إلا ضربت عنقه، غير أنه ارتدع عن ذلك بعد أن خاف العاقبة، وكادت تكون أزمة بليغة لولا أن زَهد عيسى بن علي في الولاية وقرر أن يقضي حياته مجاهدا وأن يبتعد عن صراعات السلطة[١]. إلَّا أنَّ ما حدث كان دليلًا على مدى نفوذ أبي مسلم الذي يمكنه أن يتحدى الخلافة ذاتها!

وبعد أن كان متقربا للعلماء حريصًا على تأليفهم حين كان في مرحلة «الدعوة» جفاهم ولم يحفل بهم بعد أن صارت بيده «الدولة»؛ حتى إن بعضًا من العلماء جاءوه بُعَيْد السيطرة على مرو -عاصمة خراسان- فسألوه في أمر الفقه فقال: «ليس هذا بوقت فُتْيَا، نحن مشاغيل عن هذا ومثله»[٢].

وكان يبدأ بالعقوبة ويقتل بالظن، هكذا قتل لاهز بن قريظ ومحمد بن سليمان بن كثير ثم سليمان بن كثير كما سيأتي بعد قليل وغيرهم، و«كان كلما قتل أحدًا اتهمه بغشه للإمام، وذلك من أجل أن يُرضي العباسيين ويُظهر تأييده البارد لهم، وأنه يعمل لهم، وفي الواقع أنه كان يخطط لمصلحة يراها ويكتم أمرها»[٣].

ولم ينج منه حتى أصحابه المقربون، فهذا صديقه وأنيسه أفلح بن مالك بن خارجة الفزاري الذي كان يلاعبه الشطرنج لما ظهرت منه دلائل الندية لم يتردد أبو مسلم في قتله، فلما سُئل كيف يقتل صديقه المقرب الذي كان يكرمه قال: «رأيته ذا همة وأبهة فقتلته مخافة أن يحدث حدثا، وكان لا يقعد على الأرض إذا قعدت على السرير، ولقد كان عليَّ كريمًا وكنت له محبا»[٤]، كذلك لم ينجُ منه مَنْ كان خادمًا لديهم من قبل وهم العِجليون، فما إن عرف أن عاصم بن يونس بن مسلم -ابن سيده السابق قبل أن يلتحق بالدعوة- لا يوليه قدره من التعظيم حتى قتله بلا تردد[٥]. وكان يوصي قادته بقلة الكلام والحفاظ على الهيبة فيقول: «لا تكلموا الناس إلا رمزًا، ولا تلحظوهم إلا شزرًا: لتمتلئ صدورهم من هيبتكم»[٦].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٥.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٢.
(٣) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٠٤.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٩.
(٥) المقريزي: رسائل المقريزي ص٦٧. (رسالة: التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم).
(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٢٢٤.

هذه السياسة أثارت العلماء في خراسان، فهذا إبراهيم بن ميمون الصائغ يذهب إلى يزيد النحوي قائلًا: ما ترى ما يعمل هذا الطاغية؟ إن الناس معه في سعة غيرنا أهل العلم[١]. فقال فقال يزيد النحوي: لو علمتُ أنه يصنع بي إحدى الخصلتين لفعلت؛ إن أَمَرْتُ ونَهَيْتُ يُقيل منا أو يقتلنا، ولكني أخاف أن يُسَلِّط علينا[٢] وأنا شيخ كبير لا صبر لي على السياط، فقال إبراهيم الصائغ: لكني لا أنتهي عنه، فذهب إبراهيم فدخل على أبي مسلم فوعظه وما زال به حتى قتله أبو مسلم. وكان يزيد الصائغ ممن عاهدهم أبو مسلم قبل أن تستقر له الدولة أن يعمل بالحق، فلما لم يتحقق سعى إبراهيم في مخالفته والتشنيع عليه حتى لم يَعُدْ أبو مسلم يحتمل وجوده[٣].

ومثلما أثارت سياسته العلماء فقد أثارت عليه بعض رجال الدعوة العباسية، فهذا شريك بن شيخ المهري يعترض عليه ويعلن الانتفاضة ضده من بُخارى في بلاد ما وراء النهر (١٣٣هـ) معلنا موقفه «ما على هذا اتبعنا آل محمد على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق» واستجاب له أكثر من ثلاثين ألفًا، فأرسل إليه أبو مسلم جيشًا قويًّا بقيادة زياد بن صالح الخزاعي؛ فقاتله وانتصر عليه وأخمد حركته[٤].

لكن زيادا نفسه سيقود حربا ضد أبي مسلم بعد عامين (١٣٥هـ) بأمر من الخليفة أبي العباس، ففي تلك اللحظة سيكون أبو مسلم قد بلغ من القوة والاستقلال والنفوذ في خراسان ما يمثل خطرًا على الخلافة ذاتها، فبدأ زياد -وهو حينئذٍ الوالي على بلاد ما وراء النهر- حركته ضد أبي مسلم غير أن قادته انحازوا إلى أبي مسلم ففشلت الحركة والتجأ إلى إقطاعي تركي، فما كان من هذا الإقطاعي إلَّا أن قتله وبعث برأسه إلى أبي مسلم رغبة ورهبة، وقتل أبو مسلم سِباع بن النعمان الذي أتى بعهد الولاية من أبي العباس لزياد بن صالح[٥]، وسرعان ما وصلت رسالة من أبي العباس تؤيد ما فعله أبو مسلم وتستنكر ما فعله زياد بن صالح[٦].

---

(١) أي أن الناس يسعهم الخوف والسكوت على المنكر، وهذا ما لا يجوز لأهل العلم.
(٢) أي أن يعذبنا.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤١٦، ٤١٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٤.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٧١، الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٧، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٧٤، ٧٥.
(٥) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ١١٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧١.
(٦) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٦٩.

لقد واجه أبو مسلم الكثير من الانتفاضات في خراسان بعد نجاح الثورة فقضى عليها، وخرج من كل ذلك الزعيم الذي لا منافس له في خراسان، بل إن نفوذه بدأ يتسع خارج خراسان في أقاليم إيران الأخرى(١)، وكان له جهاد ومعارك في أراضي الترك والصين أيضًا(٢).

على أن أبا مسلم -في الوقت ذاته- تقرب إلى سكان البلاد المحليين من أعاجم خراسان بل والأتراك في بلاد ما وراء النهر وكوَّن أتباعا مخلصين له، وهذا ما يفسر بقاء أبي مسلم حتى بعد موته شخصية أسطورية تلهم حركات التمرد ضد الدولة(٣).

نهاية سليمان بن كثير

كان سليمان بن كثير يرى بعينيه قوة أبي مسلم وتعاظم نفوذه، وكانت منزلته تواصل انهيارها أمام نفوذ أبي مسلم وسلطانه، ولا ريب أن الأسى كان يقتله لما صار الحال إليه، فهو الذي قام بأمر الدعوة حال الخوف والكرب والضيق، وعانى في سبيل نشرها ورعاية نموها أشد المعاناة، كما هو حال المؤسسين دائمًا، فكيف سارت الأيام حتى جاء الغلام الصغير أبو مسلم فإذا به يصير الأمير صاحب الدعوة والسلطان ولو أنه أمر بقتل سليمان بن كثير لقُتِل في الحال؟!!

ثم عظم الأمر عليه واشتد أكثر حين قتل أبو مسلم ابنه محمد، فصار يتألم لذلك ويصدر عنه كلام في حق أبي مسلم كقوله: «حفرنا نهرا بأيدينا فجاء غيرنا فأجرى فيه الماء»، وشهد عليه آخرون بأنه قال وهو يمسك عنقود عنب «اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسقني دمه»(٤).

ثم جاءت زيارة أبي جعفر إلى خراسان، وقد اصطحب معه عبيد الله بن الحسين الأعرج، من العلويين، ولربما أراد بهذا أن يثبت لأبي مسلم ولاء العلويين للخليفة، فكان في هذا الذهاب أمر لم يتوقعه أحد.

(١) د. فاروق عمر فوزي: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص٨٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٦، ٣٦٩، وابن الجوزي: المنتظم ٧/ ٣٢٤.
(٣) د. فاروق عمر فوزي: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص٩٠.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٦٨.

حاول سليمان بن كثير أن يُعيد الأيام سيرتها الأولى، وأعماه ما نزل به عن حقيقة أن الأيام لا تعود إلى ما كانت عليه في الجيل الواحد، ففكر في أن يكرر سيرته مع العباسيين ولكن هذه المرة مع العلويين، فانفرد بعبيد الله بن الحسين الأعرج، وقال له: يا هذا إنا كنا نرجو أن يتم أمركم، فإذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون!

ولكن عبيد الله الذي رأى سلطان أبي مسلم ونفوذه ظن أن هذه قد تكون مؤامرة من أبي مسلم لاختبار ولائه للعباسيين، وخاف إن هو كتم هذا الخبر أن يأخذه أبو مسلم بهذا الذنب، وبدافع هذا الخوف أفضى عبيد الله إلى أبي مسلم بما كان من سليمان بن كثير، وهنا فشل تدبير سليمان بن كثير ووقع في المحظور.

فبعث أبو مسلم إلى سليمان بن كثير فقال له: أتحفظ قول الإمام لي من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم. قال: فإني قد اتهمتك. فقال: أنشدك الله! قال: لا تناشدني الله وأنت منطو على غش الإمام. فأمر بضرب عنقه[1].

وبهذا انتهت قصة أحد كبار مؤسسي الدولة العباسية، قصة سليمان بن كثير.. انتهت قصته على يد من أدخله بنفسه إلى هذه الدعوة، وعمل على إقرار أمره وإعلاء شأنه وطاعته!

ويحتار المرء كثيرًا حين يتخيل سليمان بن كثير وهو على وشك القَتْل كيف كان يسترجع صورته مع أبي مسلم الخراساني منذ حين رآه عبدا فأحس منه الخير فاشتراه وأعتقه ثم أعطاه بيده إلى الإمام إبراهيم، وحتى صار هذا الرجل القوي الذي يرهبه ويخشاه ثم ها هو الآن يُقتَل على يديه! هي على الرغم من كل شيء مرارة لا تليق برجل له مثل تاريخه وجهاده.. ولو كان الجزاء في الدنيا فحسب لكان المشهد سيئا رديئا كئيبًا، ولكن الله ادخر العدل الكامل ليكون في الآخرة.

على أن حياة سليمان بن كثير درس آخر يشهد بأن العمل إن لم يكن لله فقد خسر المجتهد المجاهد ثواب الدنيا والآخرة.. وذلك هو الخسران المبين!

ملامح عهد السفاح

كعادة الدول في فترة التأسيس كان عهد أبي العباس السفاح صعبا وبالغ الحرج، فالدولة

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٠.

لم تستقر داخليا، وأعداؤها لا يفلتون مثل هذه الفرص خارجيا.

وكعادة الثورات -أيضًا- تكون فترة ما بعد القضاء على الخصم فترة كاشفة وممحصة، فلابد أولًا من القضاء على مراكز قوى النظام القديم تمامًا كي لا ينقلب من جديد، كذلك فإن ثمة من يستطيع التلون والتعيش مع الوضع الجديد كما كان مع القديم، وثمة مَنْ كان مثاليًّا حالمًا فتصدمه واقعية الحال وصعوبته وضراوته فيتوقف أو ينسحب، وثمة من لا يعجبه ما وصل إليه حال الثورة ويرى أنها تنحرف عن أهدافها وغاياتها فإما أنه ينسحب وإما أن يتمرد عليها مرة أخرى، وثمة من يتصارعون على الغنائم والمكاسب، وثمة من يتنافسون على النفوذ والمقامات.. ولذا تكون فترة ما بعد القضاء على العدو أحرج فترات الثورات وأكثرها أثرا في الأيام التي بعدها.

وقد حدث كل هذا في عهد السفاح، وكان مسئولًا أن يعبر بالثورة إلى الدولة، ومن الدولة غير المستقرَّة إلى الدولة المستقرَّة.

١- عاصمة آمنة

فمن الخطوات المبكرة التي اتخذها أبو العباس خطوة الانتقال من الكوفة إلى مدينة خارجها هي «الهاشمية»، ذلك أنه لم يطمئن إلى أهل الكوفة وهم ذوو المزاج العلوي، والسفاح يعلم أنها أيام وينكشف أنهم يريدونها دولة عباسية لا دولة علوية، وأن كثيرين من آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه سيطالبون بحقهم في الخلافة الذي ما فتئوا يحاولون الوصول إليه طوال عهد الأمويين.

ثم انتقل أبو العباس من الهاشمية إلى الحيرة ثم إلى الأنبار (١٣٤هـ)، وفي الأنبار اتخذ مدينة أخرى سماها «الهاشمية» وعُرِفت بمدينة أبي العباس، اتخذ فيها لنفسه قصرًا ووزع خططها خاصته لا سيما من الخراسانيين رجال الدولة، وظل بها إلى أن مات، وعُرفت المدينة الأولى بـ «هاشمية الكوفة»[(١)].

٢- أعداء الثورة

وهم في العادة نوعان: فلول العهد القديم، وأعداء الدولة الجديدة:

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢١، وابن قتيبة: المعارف ص٣٧٣، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٧٥.

فأما القضاء على بقايا وفلول الأمويين فقد جرى في المشرق والمغرب على حد سواء، بداية من مطاردة مروان بن محمد وحتى قتله وفرار أولاده إلى الحبشة في أقصى الجنوب كما سبق ذكره، ثم المطاردة المثيرة الحافلة بالإصرار والعجائب للغلام الأموي عبد الرحمن بن معاوية الذي أفلت إلى الأندلس في أقصى الغرب وسيأتي ذكره، وكذلك توجيه جيش لقتال منصور بن جمهور والي الأمويين على الهند (١٣٤هـ) واستطاع الجيش هزيمة منصور وفرَّ أولاده إلى بلاد الخزر شمالًا[١].

وأما أعداء الدولة، فكالخوارج مثلا، فأولئك يرون أن الخلافة ليست حقا لأحد سواء كان من أهل البيت أو من قريش، وإنما هي حق عام لكلِّ المسلمين، وقد شهدت منطقة عمان نشاطا للخوارج، وكذلك جزيرة ابن كاوان أو بني كاوان[٢]، وأرسل أبو العباس خازم بن خزيمة إلى هذه الأنحاء فحقق انتصارات كبيرة وقتل قائدي الخوارج في الجزيرة وعُمان: شيبان بن عبد العزيز اليشكري والجلندي (١٣٤هـ)[٣].

٣- انقلاب الرفاق

وأما انقلاب رفاق الثورة ورجالها السابقين فقد تجلت في أكثر من موقف أبرزها انقلاب أبي سلمة الخلال، كما تجلت في أكثر من ثورة، منها ثورة شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم في خراسان التي ذكرناها سابقا، ومنها ثورة بسام بن إبراهيم بن بشام -وهو من فرسان أهل خراسان الذين هم الدعامة الرئيسية للجيش العباسي- حيث انشق بفرقة من الجيش (١٣٤هـ)، لكن أبا العباس أخمد ثورته سريعًا حين وجه إليه خازم بن خزيمة فهزمه وقتل أكثر من معه[٤].

٤- صراع النفوذ

وأما الصراع على النفوذ فمنه على سبيل المثال ما وقع بين خازم بن خزيمة -القائد العسكري الفذ- وقوم من بني الحارث الذين هم أخوال أبي العباس، وذلك حين دب بينهم

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٩، ٣٧٠.

(٢) جزيرة في الخليج بين عمان والبحرين، وتسمى -أيضًا- «لافت». انظر: المسعودي: مروج الذهب ١/ ١١١ (ط٥ دار الفكر)، والاصطخري: المسالك والممالك ص٧٠، وياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ١٣٩.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٩، وابن الجوزي: المنتظم ٧/ ٣٢٤.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٧١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٨.

الخلاف وتصاعد حتى أمر خازم بن خزيمة بقتلهم فقُتِلوا، مما كان له أثر مزلزل في بني الحارث الذين انطلق وفد منهم لأبي العباس يشكون إليه ما حدث، وكاد أبو العباس أن يقتل خازمًا من قسوة ما فعل وتجرئه على أخواله دون ذنب كبير، غير أن عددا من مستشاريه نصحوه بأن هذا قد يُثير اضطرابًا في الجيش، وأن ما أنزله خازم كان له بعض وجاهة، لا سيما وخازم من أهل خراسان الذين ضحوا في سبيل الدعوة بأرواحهم ودمائهم وعادوا أهليهم فقد يُفهم عقاب خازم على أن العصبية العربية قد عادت إلى الخلافة على غرار ما كان أيام بني أمية، ثم أشاروا بأن يضعه في مقاومة العدو، فإن قُتِل كان ذلك بعيدا عنه وإن انتصر كان ذلك قوة جديدة للدولة، واقتنع أبو العباس فأرسله لقتال الخوارج في عُمان[١].

٥- العلاقات الخارجية

كانت الدولة الوليدة الجديدة تقف في وجه تحديين: التحدي الصيني الشرقي، والتحدي البيزنطي الغربي، فأما الأول فبينه وبين المسلمين مساحات تسكنها القبائل التركية في وسط آسيا، وأما الثاني فهو على خطوط التماس مباشرة مع الدولة الإسلامية.

وبالنسبة إلى التحدي الصيني الشرقي فقد كان واضحًا أن خطر الأتراك الشرقيين المتدافع نحو حدود إقليم ما وراء النهر يدفعه خطر أقوى، وهو الخطر الصيني، لقد بسط الصينيون نفوذهم السياسي على الأتراك الغربيين، وأغلب الظن أن السبب الأساسي في هذا هو السيطرة على طريق القوافل التي تعبرها متاجر الشرق الأقصى إلى ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوربا. وكان لا بُدَّ لقهر مقاومة الأتراك الشرقيين أن تُعزل الصين على المعركة وأن يُقضى على أطماعها قضاء تاما، وهذا ما استطاعه العباسيون فعلًا[٢].

لقد صحب ظهور العباسيين انطلاق الخطر الصيني فقد حرضوا الأتراك الشرقيين وبدءوا في الإغارة على أطراف إقليم ما وراء النهر، ودخلوا على خط الصراع بين ملك فرغانة -ويلقب بالإخشيد- وملك الشاش، فهُزِم هذا الأخير أمام التحالف الصيني الفرغاني[٣] واستنجد بالمسلمين، فأنجده أبو العباس بجيش قاده زياد بن صالح -والي بلاد ما وراء

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٨، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٣/ ٣٤٤، ٣٤٥.
(٢) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٧٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٩٠.

النهر، وأحد النقباء الاثنى عشر- وانتصر به (١٣٤هـ)[١] نصرًا هائلًا عظيمًا على الجيش الصيني، الذي قاده كاوهسين شي (kao-Hsien-chih)، وكان لهذه المعركة أثر بعيد، فبها تقرر سيادة الحضارة الإسلامية في هذه المناطق بدل الحضارة الصينية[٢].

ومن أهمِّ نتائج هذه المعركة الحاسمة في التاريخ أن أُبعدت الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين، وبات على هؤلاء أن يعتمدوا على جهودهم ومواردهم وحدها، ومن ثم ضعف عدوان الأتراك على المسلمين ولم يَعُدْ العباسيون يجابهون قوات كبيرة كما فعل الأمويون من قبل[٣]، وسنرى خلال تتبُّعنا لجهاد العباسيين أن جهودهم انصرفت إلى الخطر البيزنطي وأنهم لم يلاقوا كثير عناء على جبهة المشرق.

وأما خطر الروم فيروي خليفة بن خياط أن البيزنطيين بقيادة قسطنطين بن إليون (قسطنطين الخامس بن ليون) هاجموا ملطية (١٣٣هـ) فقاتل المسلمون قتالًا شديدًا حتى عجزوا عن النصر فنزلوا على الأمان، فهدم قسطنطين المدينة ومسجد الجامع ودار الإمارة[٤]، وبهذا يكون قسطنطين الخامس قد «أتى على جهود المسلمين في التحصين، ودمر خط حصون الفرات ثم الخط الممتد من الفرات إلى البحر، وهدد النظام الثغري كله تهديدًا خطيرًا»[٥].

وقد أرسل أبو العباس جيشًا بقيادة محمد بن النضر بن بريم الحميري فأتى طوانة[٦] من أرض الروم[٧]، فيما يمثل ردًّا رمزيًّا كان هو أقصى المتاح في ذلك الوقت.

وتعرض المسلمون لهزيمة أخرى من الروم على يد جيش قاده بطريرك الروم كوشان (جمادى الأولى ١٣٤هـ)، وفَرَّ قائد المسلمين مخلد بن مقاتل بن حكيم العتكي تاركًا الجيش في وضع صعب[٨].

لن يستطيع العباسيون في هذه المرحلة مواجهة الروم وإيقافهم عند حدهم، لكنهم

---

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ ٣/ ٣٥١.
(٢) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٥٢.
(٣) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٧٨.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٠.
(٥) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٦٣.
(٦) طوانة: حصن للروم، وهو الآن في منتصف المسافة تقريبا بين طرسوس وبحيرة الملح.
(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٠.
(٨) المصدر السابق نفسه ص١٢١.

سيفعلون هذا مع بداية استقرار الدولة في عهد الخليفة القادم!

بين أبي مسلم وأبي جعفر

عاد أبو جعفر من خراسان أشد ما يكون نقمة وغضبًا وخوفًا من أبي مسلم، ذلك أنه قد شهد بنفسه استقلال أبي مسلم على الحقيقة بأمر خراسان، وأنه يتمتَّع هناك بالهيبة والنفوذ والسلطان الذي يجعله مستغنيا عن الخليفة والخلافة، كما أن أبا مسلم سارع إلى قتل سليمان بن كثير كبير الدعاة السابق في خراسان والرجل صاحب التاريخ الطويل في الدعوة دون حتى أن يستشير أبا جعفر، كذلك فإن أبا مسلم ترك أبا جعفر ثلاثة أيام لم يقدم عليه -وذكرنا أن القدوم هو نوع من الولاء والاعتراف بالسيادة في عرف ذلك الزمن- وبَرَّر ذلك بأنه يقضي حق الضيف الذي كانت العرب تستضيفه ثلاثة أيام ولا تسأله فيم أتى قبل ذلك، وهذا ملمح خطير أن يُعامَل أبو جعفر معاملة الضيف في أرض يرى أنه سلطان عليها وأن أبا مسلم ليس إلا واحدا من مواليه!

عاد أبو جعفر إلى أبي العباس وكله إصرار على التخلص من أبي مسلم، فلا استقرار ولا سلطة لبني العباس على خراسان، قال لأخيه الخليفة: «لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله؟ قال: وكيف؟ قال: والله ما يصنع إلا ما أراد»، ولكن أبا العباس رفض ذلك وطالبه بالصبر(١)، وطبيعي أن الوقت ما كان يتسع لقتل أبي مسلم بعد قتل أبي سلمة الخلال وسليمان بن كثير فإن هذا يُثير قلق الأنصار والأتباع ويخيفهم.

غير أن أبا مسلم أضاف إلى رصيده كارثة أخرى حين أرسل يخطب أمينة بنت علي عمة الخليفة، وهو الخبر الذي لا ريب في أنه نزل على السفاح وأبي جعفر كالصاعقة، فأي مولى هذا الذي يخطب لنفسه هاشمية من أعلى بيوت العرب نسبا وشرفا؟ ثم هو بيت أسياده العباسيين الذين رفعوه من مرتبة الخدمة حتى وصل مرتبة الإمارة؟

لقد صار واضحًا أن أبا مسلم يرى نفسه كفؤا لبيت الخلافة، وهذا لا يُنبئ عن خير أبدًا!

وكعادته تجاهل أبو العباس السفاح طلب أبي مسلم كأنه لم يكن، فما هو بالقادر على إغضابه أو الرد عليه في هذه المرحلة.. إلَّا أنَّ أبا العباس آمن منذ هذه اللحظة من ضرورة

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٦١، ٣٧٣.



التخلص من أبي مسلم، وبدأ في العمل على ذلك.

شكى الخليفة لخالد بن برمك[1] ما يراه من تعظيم الجنود الخراسانيين لأبي مسلم تعظيما وولاء يفوق الولاء للخلافة، فأوصى خالد بوصية ظاهرها تقوية جيش أبي مسلم وباطنها إضعاف الولاء له بين الخراسانيين، تلك هي أن يأمره الخليفة بإسقاط الخراسانيين من جنده، وما إن بدأ أبو مسلم في تنفيذ أمر الخليفة بفصل أهل خراسان من الجيش حتى سارت حالة من الغضب والتململ بينهم إلى الحد الذي صاح فيه أحدهم: «ابدأ بنفسك فإنك من أهل أصبهان وقد دخلت في أهل خراسان»[2]، ففطن أبو مسلم لضرر هذا القرار على حب الخراسانيين له ومكانته بينهم.

وقد ذكرنا من قبل إرسال زياد بن صالح وتحريضه على الثورة على أبي مسلم، وكيف انتهت ثورته إلى الفشل.

رحلة المصائر!

خرج أبو مسلم من خراسان يريد الحج (١٣٦هـ)، ورغب في أن يتولى إمارة الحج بنفسه، وانطلق من خراسان مصطحبا معه جيشًا من ثمانية آلاف، بالمخالفة لرأي الخليفة أبي العباس الذي طلب منه ألا يحضر في أكثر من ألف، فكانت هذه مخالفة جديدة تُضَاف إلى سجل أبي مسلم لدى الخلافة.

أفضى أبو مسلم إلى الخليفة برغبته في أن يتولى أمر الحج، وأمير الحج هو نائب الخليفة، فالأصل هو أن الخليفة يحج بالناس وينظر في أمورهم ومظالمهم ويراقب عماله، فهو منصب رفيع لم يتوله إلا الخلفاء أو أمراء بيت الخلافة، فكان هذا الطلب بحد ذاته دليلًا على المكان الذي يرى أبو مسلم نفسه فيه، على أن أبا العباس كعادته في التخلص الذكي قال له: «لولا أن أبا جعفر يريد الحج لوليتك يا أبا مسلم فإنك رجل منا أهل البيت»، وقد وقع هذا الرفض المبطن موقعًا سيئًا في نفس أبي مسلم إلى حد أنه سلم على الخليفة حين خرج واستهان بأبي

---

(١) وخالد هو أحد كبار القادة العسكريين الخراسانيين فيما قبل، وقد أقَرَّه الخليفة على جمع الغنائم، وولاه ديوان الخراج وديوان الجند أيضًا، وكان إداريًّا ناجحًا، وهو أول من صنع الدفاتر لتجميع الصحف المتفرقة، وكان من خاصة السفاح المقربين إليه، حتى إن زوجة خالد أرضعت ريطة بنت السفاح كما أرضعت زوجة السفاح أمَّ يحيى بنت خالد. الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٥٩.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٦٣.

جعفر فلم يُسلِّم عليه، وحاول أبو العباس إصلاح الموقف ودعم مكانة أبي جعفر فَنَبَّه أبا مسلم قائلًا: يا أبا مسلم هذا أبو جعفر (أي لم تسلم عليه)، فقال: هذا موضع لا يُؤدَّى فيه إلا حقك[١]، فكان هذا بمثابة إعلان للعداوة بين أبي مسلم وأبي جعفر!! ولم يُخفِ أبو مسلم تبرمه من هذا إذ ورد عنه قوله: «أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا؟!»، ثم زاد الأمرَ سوءا أن أبا مسلم تعمد أن يتعالى في رحلة الحج على أبي جعفر، فكان يكثر من العطاء والهِبَات وإصلاح أحوال القبائل، والحرص على مظاهر الفخر والأبهة لمزيد من الإزراء بأبي جعفر الذي لم يحسب لمثل هذا حسابًا، وظلت هذه سيرة أبي مسلم مع أبي جعفر طوال الحج[٢].

في هذا العام كذلك خرج عبد الله بن علي أمير الشام وعم الخليفة في جهاد الصائفة[٣].

وعلى هذا فالرجال الثلاثة الكبار في الدولة العباسية قد خرجوا من مواطنهم في هذه الفترة من العام، اثنان في الحج وواحد في الصائفة.. غير أن أحدًا منهم لم يكن يعلم أنه يخرج إلى رحلة لن يعود منها إلا ومصيره جدٌّ مختلف!!!

وفاة السفاح

في آخر عهده كتب أبو العباس بولاية العهد إلى أخيه أبي جعفر ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى[٤]، ولا نوافق على رأي بعض المؤرِّخين الذين اعتبروا الولاية بالعهد إعادة لخطأ الأمويين وبداية سنة غير حسنة للعباسيين[٥]، ذلك أن الأمر الذي لم يمكن أن يتم قبل نحو مائة عام من ذلك التوقيت لا يمكن أن يتم الآن وقد تغيرت النفوس واتَّسعت الدولة وفشت العصبية وكثرت حركات التمرد لا سيما والدولة نفسها لم تكد تستقر بعد!

انتشر مرض الجدري في جسم أبي العباس حتى قضى عليه (١٣ من ذي الحجة ١٣٦هـ) بعد عُمْرٍ بَلَغ اثنين وثلاثين عاما، وخلافة بلغت أربع سنوات وشهورا[٦]!

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ٧٦، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤١٧.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٨٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٠، ٣٨١.
(٣) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ١١٧، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٥.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٨٧، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٤.
(٥) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٥٢.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٤.



تُرى لو كان يدري أنه لا يُمتَّع بالخلافة إلا هذه السنوات المليئة بالمتاعب والمصاعب والدماء، هل كان يسعى فيها جاهدا؟! لو كان يدري ما حدث هل كان سيبذل كل هذا الوسع ليُسقط دولة ويقيم أخرى؟ ولو كان يدري ويعلم متى أجله فكيف كانت ستكون سياسته وسيرته؟؟

لسنا نتحدَّث عن أبي العباس، بل عن أنفسنا، فكم من طالب غاية يبذل فيها جهده وماله وطاقته لا يدري إن كان سيبلغها أم لا؟ ولئن بلغها فكم سيتمتَّع بها؟ ثم بعد هذا كله كيف ستكون في ميزانه يوم القيامة؟!!

وقفة مع أبي العباس

لا ريب أن أبا العباس كان من أقدر الخلفاء وأقواهم شخصية لولا أن آثاره لم تظهر لقصر مدته في الخلافة، وعلى الرغم من قصر خلافة أبي العباس فإنه قضى على أكثر خصومه، واستطاع تهدئة قسم من منافسيه مثل العلويين وخاصة آل الحسن الذين أكرمهم غاية الإكرام، وسايرهم باللطف والدهاء حتى طفئ أمر محمد النفس الزكية، وحتى حصل من عبد الله بن الحسن على الوعد التالي: «يا أمير المؤمنين لك عهد الله وميثاقه ألا ترى منهما (أي ولديه: محمد النفس الزكية وإبراهيم) شيئًا تكرهه ما كان (محمد) في الدنيا»، وهكذا اكتفى أبو العباس بهذا مع أنه عرف بمراسلات سرية بين محمد النفس الزكية وبين بعض الناس يدعوهم إلى نفسه. ويظهر أن أبا العباس كان أميل إلى اللين والمساومة من أبي جعفر كما يظهر من معاملته لأبي مسلم والعلويين[1].

خارج سلطة السفاح

ذكرنا أنه بسقوط الدولة الأموية انتهت وحدة الدولة الإسلامية، فمنذ ذلك الحين لم يستطع خليفة أن يوحد الأُمَّة تحت سلطة واحدة قطُّ، وفي عهد السفاح لم يكن سلطانه واصلا إلى بعض المناطق من أهمِّها:

١- الأندلس

ظلت الأندلس فريسة العصبيات القبلية والحروب بين القيسية واليمانية وزعمائهم

(١) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٥٣.

كالصميل بن حاتم ويوسف الفهري وأبي الخطار الكلبي وغيرهم، وكان قيام دولة جديدة مغريا لبعض الطموحين؛ لكي يدخلوا على الخط بشرعية الخلافة الجديدة، وهو ما فعله عامر العبدري الذي وجد في العباسيين فرصة الشرعية ووجد فيه العباسيون فرصة السيطرة على الأندلس البعيدة التي لا تبدو في المدى المنظور إمكانية السيطرة عليها، وكان عامر هذا من كبار رجال الأندلس، فقام بثورته على الصميل بن حاتم وحاصر سرقسطة التي كان واليها، وكاد أن ينجح في الحصار لولا أن موازين القوى بالأندلس لم تكن في صالحه، إذ دخلت على الخط قوى أخرى ففشلت ثورة العبدري، ثم لم يلبث الأمر إلا قليلًا لتخرج الأندلس تمامًا وإلى غير رجعة من سلطة العباسيين في عهد أبي جعفر المنصور كما سنذكر فيما بعد إن شاء الله تعالى[(١)].

٢- السند

وقد كاد عهد السفاح ينتهي وليس له سلطة على بلاد السند، التي كان قد استولى عليها منصور بن جمهور (والي العراق للأمويين) بعد هروب ومعارك، فقد استقرَّ سلطانه بها، وبنى فيها مدينة ملكية سماها «المنصورية»، وانتصر على جيش عباسي بقيادة رجل يسمى «مغلس»، لكن جيشًا آخر للعباسيين بقيادة موسى بن كعب استطاع هزيمة منصور بن جمهور، وانضمت السند إلى سلطان الخلافة العباسية[(٢)].

***

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ١٠١، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٤٤، ٣٤٥.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢١، ١٢٢.



أبو جعفر المنصور

واسمه كاسم أبي العباس، عبد الله، وهو أكبر من أخيه بتسع سنوات؛ ولهذا فقد أدرك جده علي بن عبد الله بن عباس الذي تُوُفِّيَ سنة (١١٨هـ)، كما أدرك جيدًا أباه محمد بن علي.

كان أسمر، طويلًا نحيفا، مهيبا، عريض الجبهة، أقنى الأنف، واسع العينين، حاد النظرات «كأن عينيه لسانان ناطقان، يخالطه أبهة الملك، وتقبله القلوب، وتتبعه العيون، يعرف الشرف في مواضعه، والعنف في صورته، والليث في مشيته، هكذا وصفه بعض من رآه»[1]، وكان فحل بني العباس هيبة وشجاعة ورأيا وحزما ودهاء، وكان حريصًا على الأموال، منصرفا عن اللهو والعب، له علم واسع بالفقه والأدب. وقد تولى إمارة بلد صغير في فارس في أيام الأمويين لكنه ما لبث أن عُزِل عنها[2].

***

قام عيسى بن موسى بأمر الخلافة منذ وفاة أبي عباس السفاح، وهو الذي أرسل إلى أبي جعفر بالخبر، وقد وصل الخبر حين كان أبو جعفر في طريق العودة من الحج، وكان أبو مسلم قد نَفَرَ من الحج قبله فتقدَّم عليه في الطريق إلى العراق[3].

لما بويع بالخلافة دخل عليه أهل بيته وجماعة من القواد فهنأوه، فحمد الله سبحانه وأثنى عليه، ثم قال: «إني والله ما أنا بأرغب الناس فيها، ولا أحرصهم عليها، ولكني أحب أن لا يكون بيني وبين الله ﷻ ستر، وأن أتقرب إليه بالعمل بطاعته وبث سنة رسوله صلى الله عليه وآله، راجيًا العدل وإماتة الجور، والأخذ لفيئكم من حقه، ووضعه في مواضعه التي جرت بها السنة، ونزل بها الكتاب، ومنعه من باطله، ليقربني الله بذلك، ويزيدني فضله لديه، وكرامة عنده مع قرابتي من نبيه، صلى الله عليه وآله، وربنا المستعان على ما تصفون، وأعوذ

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٣٠.

(٢) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٠١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٥، ٣٧٧.

بالله أن أكون ممن خالف قوله فعله، وعظته وعمله»[١].

كانت هموم أبي جعفر تذهب إلى:

١- أبي مسلم الخراساني الذي صار عدوًّا لا بد من التخلص منه.

٢- أبناء عمومته العلويين[٢] الذين سيفكرون في نصيبهم من الحكم في دولة قامت باسمهم ورفعت منزلتهم، ولم تُصَرِّح حتى الآن بغير «الهاشمية» كمصدر للشرعية، والهاشمية تشمل العلويين والعباسيين! لا سيما وأن العلويين كانت لهم تحركات سابقة سعيا في طلب الخلافة أبرزها تحركات محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الملقب بالنفس الزكية.

ما لبث الهمُّ الأول أن انحط عليه واضحًا متحدِّيًا؛ إذ إن أبا مسلم لم ينتظر في الطريق حتى يلحق به الخليفة الجديد كما هو المتوقع، بل مضى إلى العراق مباشرة، ثم إنه أرسل رسالة تعزية في أبي العباس دون أن يرسل بالتهنئة لأبي جعفر بالخلافة بل أخرها يومين أو ثلاثة مما يعني تردده في مبايعة أبي جعفر أو على أفضل الأحوال استهانة به، وكان أبو مسلم في رسالته يبدأ بنفسه على خلاف ما تقضي به الأعراف[٣]!

هكذا أعلن أبو مسلم التحدي لأبي جعفر في أول أيام عهده!

إلا أن الهموم أقبلت من وجه جديد.. من عمه عبد الله بن علي!

خروج عبد الله بن علي العباسي

كان عبد الله بن علي موكلًا بتدبير جيوش الدولة من أهل خراسان والشام والجزيرة والموصل ليغزو بهم الروم، وكان قد خرج في غزو الصائفة كما ذكرنا من قبل. وكان ينتظر أن تئول إليه الخلافة لما كان له من يد طولى في القضاء على ملك بني أمية لا سيما وهو قائد الجيش الذي انتصر على مروان بن محمد، فلما جاء الخبر بخلافة أبي جعفر بوصية من أبي العباس رفض هذا وجمع القادة والجند وأعلن فيهم أن أبا العباس قال لأهل بيته: «حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد دعا بني أبيه فأرادهم على المسير إلى مروان بن محمد وقال من

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٧٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٥.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٥.

انتدب منكم فسار إليه فهو ولي عهدي فلم ينتدب له غيري، فعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت»، وشهد بعض القادة على صحَّة ما يقول، وبهذا خلع عبد الله بن علي ابن أخيه أبا جعفر المنصور وأعلن نفسه خليفة وبايعه الجنود على هذا[1].

يرى عبد الله بن علي أنه الأحق بالخلافة، فهو الذي دك صرح الدولة الأموية، وثبت دعائم البيت العباسي، وإذا كان أبو العباس قد تولى الخلافة بالعهد من أخيه إبراهيم إلا أنه هو الآن أحق الناس بالأمر، وإذا كان إخوته جميعهم أكبر منه باستثناء عبد الصمد إلا أنهم جميعًا دونه في المؤهلات ولم يقم أحد منهم بمثل ما قام به، كذلك فإن أخاه عبد الصمد -الذي هو أسن منه- يقف بجانبه ويرى رأيه، كذلك فإنه إذا كان أبو جعفر أكبر منه سنا إلا أنه -أيضًا- لم يقم بأي دور يؤهله للأمر[2].

لم ينتظر عبد الله بن علي بل بدأ في الاستيلاء على المدن، وكان أول ما فعل أن سار بمن معه إلى حران وكان واليها مقاتل بن حكيم العكي فدعاه إلى البيعة فلم يُجبه مقاتل، فحاصر المدينة مدة ثم استطاع اقتحامها وقتل واليها واتخذها مركزا له وتحصن بها.

اتخذ أبو جعفر المنصور قرارا خطيرا، إذ عهد إلى أبي مسلم الخراساني بأن يواجه هذا الخروج من عمه عبد الله بن علي، وهو قرار فارق، فإما أن ينجح أبو مسلم في القضاء على عبد الله بن علي أو ينجح عبد الله بن علي في القضاء على أبي مسلم، وفي كلتا الحالتين فإن أبا جعفر قد تخلص من أحد الخصمين القويين وسهل له التفرغ للآخر، واتضح هذا في قول أبي أيوب المورياني وزير المنصور: «نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبد الله بن علي إلا أنا نرجو واحدة نعلم أن أهل خراسان لا يحبُّون عبد الله بن علي»[3]. كذلك فإن وجود عدد كبير من الخراسانيين في جيش عبد الله بن علي سيكون عامل ضعف له حين يكون على الطرف الآخر زعيمهم المحبوب أبو مسلم الخراساني[4].

لكن خطورة القرار فيما لو اتفق أبو مسلم مع عبد الله بن علي على خلع أبي جعفر، فهنا ستكون نهاية أبي جعفر المحققة!

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٧٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٧، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٧٦، ٧٧.

(٢) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٠٨.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨١.

(٤) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٧٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٥.

ولا نحسب أن أمرا مثل هذا غاب عن أبي مسلم الذي هو حجر الزاوية في هذه اللحظة، فإما أن ينحاز لأبي جعفر أو لعبد الله بن علي، وتفيد رواية اليعقوبي أنه لم يكن راغبا في حرب أحدهما بل قال لكاتبه: «أمضي إلى خراسان وأخلي بين هذين الكبشين فأيهما غلب كتب إلينا وكتبنا إليه سمعنا وأطعنا» إلَّا أنَّ كاتبه أقنعه بضد ذلك(1) فعزم على حرب عبد الله بن علي، ونظن أن تفكير أبي مسلم جرى على النحو التالي:

أن أبا جعفر أضعف من عمه عبد الله بن علي، وعلى هذا فلو انتصر أبو مسلم على الرجل القوي صاحب الجيش والشوكة، فإن هذا يزيد من قوة أبي مسلم ومكانته في الدولة ويزيد من هيبته في قلب أبي جعفر فلا يجرؤ على معاداته بعدئذ، فيم لو حدث العكس وحاول أبو مسلم الاتفاق مع عبد الله بن علي فإن إزاحة أبي جعفر ستكون سهلة فيما سيتقوى نفوذ عبد الله، وهو الرجل القوي الذي لا يؤمن جانبه، على الأقل، بالقدر الذي يؤمن به جانب أبي جعفر وهو الأضعف منهما.

قَدَّر أبو مسلم أنه قادر على النصر على عبد الله بن علي، فاختار أن يكون في جانب أبي جعفر، وكل منهما يخطط لغايته!

قاد أبو مسلم الخراساني الجيش العباسي، وجله من الخراسانيين، وقيل: كان عبد الله بن علي يخشى من ولاء الخراسانيين في جيشه لأبي مسلم، فقتل ما بجيشه من الجند الخراسانيين، كذلك أفلت منه حميد بن قحطبة وقد كان عبد الله ينوي قتله كذلك(2)، ومع وصول هذا إلى جيش أبي مسلم «دبَّ الحماس في جنده من أهل خراسان، واقتنعوا بأنهم إن استسلموا كان القتل مصيرهم»(3).

يتشابه أبو مسلم مع عبد الله بن علي في سياستهما، فجبار خراسان على وشك أن يحارب جبار الشام، إلَّا أنَّ فارقا مهما مايز بينهما، تلك أن أبا مسلم كان يتبعه الخراسانيون بالرهبة

---

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٠١.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٠٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٨، ٣٨١. ولا تبدو رواية مصدقة أن يقتل عبد الله بن علي الخراسانيين في جيشه لمجرد احتمال أن ينحازوا إلى أبي مسلم، ربما شك في بعض الشخصيات على وجه التحديد كحميد بن قحطبة وغيره فهذا قد يُقبل، أما عامة الجنود الخراسانيين فأمر لا يصدق، لا سيما وهم قوم أهل سلاح ويستحيل أن يكون قتلهم بهذه السهولة من دون معركة أو اشتباك! على أن الجزء الثابت أن عبد الله بن علي خسر كثيرًا من الخراسانيين من جنده.

(3) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٠٩.

وبالحب -أيضًا- بينما لم يتبع أهل الشام عبد الله بن علي إلا قهرا؛ «أخذهم أخذ الجبابرة وحزمهم حزم السلمة»، ولم يكن فيهم صاحب بلاء حسن[1].

ومن جهة أخرى كلف المنصور رجلًا يدعى محمد بن صول بمهمَّة اغتيال عبد الله بن علي، فاندس محمد في جيش عبد الله إلَّا أنَّ هذا الأخير اكتشف الخطَّة فقتله، وفشلت مهمَّة المنصور[2].

كان عبد الله بن علي قد تحصن في موقع ممتاز في نصيبين، فقام أبو مسلم بخدعة حربية ذكية، إذ ادعى أنه لم يأت لحرب ولكنه مُكَلَّفٌ من قِبَل الخليفة بولاية الشام، فهو سائر إلى الشام، وكان طبيعيًّا أن يهتز أهل الشام فزعا لهذا الخبر خشية على أهلهم في الشام من أبي مسلم الذي تُضْرَب بسطوته الأمثال، وسرت رغبة عارمة في جيش عبد الله بن علي باتباع جيش أبي مسلم أجبرته على التحول من موقعه الحصين، فما لبث أن عاد أبو مسلم فاتخذ هذا الموقع لنفسه فرجحت كفته[3].

التقى الجيشان، ودارت معركة شديدة استمرت ستة أشهر وظلت سجالًا لا يستطيع أحد حسمها؛ حتى تفتق ذهن أبي مسلم عن خطَّة تمكن بها من حسم النصر لصالحه: إذ فَرَّغ ميمنته وضمها إلى ميسرته فصارت أكثر قوة مما أجبر جيش الشام على تفريغ ميسرته وضمها إلى الميمنة لمواجهة ثقل الميسرة في جيش أبي مسلم، وما إن حدث هذا التخلخل حتى هجم أبو مسلم من القلب مع العدد القليل الذي تبقى في الميمنة على ميسرة جيش الشام وقلبهم فزاد تخلخلهم وتشتتهم وأذهلتهم المفاجأة العسكرية فزاد تخلخلهم وتشتتهم وانتهى الأمر بانهزامهم، وانتصر أبو مسلم نصرًا جديدًا مؤزرًا، وأما عبد الله بن علي فإنه فَرَّ إلى البصرة حيث أخوه سليمان بن علي أمير البصرة[4].

وظل متخفيا حتى حبسه المنصور (١٣٩هـ) ثم مات بعدها بثمانية أعوام في حبسه (١٤٧هـ).

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٠٥، ومحمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٢٧.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٠٥، ١٠٦.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٠٧، ١٠٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٨.
(٤) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ١١٩، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٠٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٩.

نهاية أبي مسلم الخراساني

بالإضافة للتاريخ المضطرب بين أبي مسلم وأبي جعفر، أثار أبو مسلم غضب أبي جعفر حين طلب -قبل أن يتوجه لقتال عبد الله بن علي- منه حبس عبد الجبار بن عبد الرحمن وصالح بن الهيثم لأنهما ينالان من أبي مسلم بالكلام غيبة، فقال أبو جعفر: «عبد الجبار على شُرَطي[١] وكان قبل على شُرَط أبي العباس، وصالح بن الهيثم أخو أمير المؤمنين من الرضاعة فلم أكن لأحبسهما لظنك بهما» وجادل أبو مسلم حتى غضب أبو جعفر فتراجع أبو مسلم[٢]. غير أنه كان مؤشرًا على نوايا أبي مسلم في التحكم بالخليفة وإقصاء رجال الدولة المقربين ويلوح في الموقف معنى المساومة إذ كان هذا عند تكليفه بحرب عبد الله بن علي.

ثم زاد أبو مسلم لسجل التاريخ المضطرب بينه وبين الخليفة صفحة أخرى اكتشفها الحسن بن قحطبة، وكان أبو جعفر المنصور قد أرسل الحسن بن قحطبة -وهو والي الجزيرة- ليلحق بأبي مسلم في حربه مع عبد الله بن علي، فكان مما أرسل به للخليفة أن أبا مسلم إذا جاءه كتاب من الخليفة «يلوى شدقه» ويسخر منه[٣].

ولا ريب في أن انتصار أبي مسلم على عبد الله بن علي قد زاد من سطوته وهيبته واعتداده بنفسه على حساب الخليفة، ولم يكن هذا بالذي يفوت على مثل أبي جعفر، فأرسل رسولًا ليُحصي الأموال والغنائم التي حازها أبو مسلم، فثار غضب أبو مسلم وقال: «أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال» ثم أساء إلى الخليفة وتطور الأمر حتى كاد يقتل الرسول لولا أن منعه من هذا بعض أصحابه[٤]!

ما كان أبو جعفر بالقادر على أن يعلن حربا على أبي مسلم في هذا التوقيت، فأبو مسلم زعيم الخراسانيين، وها هو جيش الشام قد تشتت وانهزم مع عبد الله بن علي، كذلك ما كان وضع أبو مسلم بالذي يمكن السكوت عليه كما هو، فرأى أبو جعفر أن يولي أبا مسلم الشام ومصر بدلا من خراسان، فبهذا يضعف نفوذ أبي مسلم حين يخرج من مركزه وعصبته في خراسان، ولن يكون أمره في الشام كما كان في خراسان، ذلك أن أبا مسلم الذي عرفه

---

(١) أي: قائد الشرطة.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٠، وابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٥.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨١.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٢.

الخراسانيون داعية محبوبا أول الأمر ثم زعيما قويا آخر الأمر لا يراه الشاميون إلا الرجل الطاغية سفاك الدماء.

وكما هو العادة في صراع الأذكياء لم تكن هذه الأغراض بالتي تخفي على مثل أبي مسلم، فرفض قرار الولاية هذا قائلًا: «يوليني الشام ومصر، وخراسان لي؟!» وعزم على العودة إلى خراسان حيث حصنه ومركزه، وسار نحو خراسان[١].

يعرف أبو جعفر جيدًا أن وصول أبي مسلم إلى خراسان يعني بقاء مشكلة أبي مسلم كما هي، وهو الأمر الذي لا يسمح به أي ملك قوي فضلًا عن أن يكون من طراز أبي جعفر؛ ولهذا أرسل أبو جعفر إليه أن يقدم لزيارته لمشاورته في بعض أمور الدولة، إلَّا أنَّ أبا مسلم شعر بخطورة ما يدبر له، فعزم على عدم الاستجابة والاستمرار نحو خراسان، وأرسل برسالة من أحلى وأذكى وأفصح ما كُتب في الرسائل السياسية، كتب يقول:

«إنه لم يبقَ لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكت الدهماء، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك فإن أبيت إلَّا أنَّ تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسي»[٢].

ويظهر من هذه الرسالة لهجة خضوع للخلافة تظهر للمرة الأولى من أبي مسلم، ولهجة خوف صريح، والحق أن موقف أبي جعفر في هذه اللحظة هو الأعلى فلم تظهر منه عداوة سابقة، كما أنه ابتلع إهانة المخالفة بولاية الشام ومصر، والآن يطلبه إلى الزيارة وهي من السلطات الطبيعية للخليفة على عماله، فلهذا كان أبو مسلم مضطرًّا للتصريح بالخوف وحريصًا على التأكيد على خضوعه وولائه للخليفة، غير أن أبا جعفر زاد في حرج موقف أبي مسلم برسالة أخرى قال فيها:

«قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة[٣] ملوكهم الذين

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨١، ٣٨٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٢، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٧٨، ٧٩.
(٣) الغَشَشَة: جمع غاشّ.

يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة[١]، فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به؟!! وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة، وحَمَّل إليك أميرُ المؤمنين عيسى بن موسى رسالةً لتسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك، فإنه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد[٢] عنده وأقرب من طبه[٣] من الباب الذي فتحه عليك»[٤].

لا ريب أن أبا جعفر، بما نعرفه عن شخصيته، قد أتى أمرا عظيما على نفسه بكتابة رسالة تحمل كل هذا التودد الذي اقترب من الرجاء والتنازل، وهو الخليفة الذي يخاطب واحدا من ولاته، ولا ريب أن كرامته الجريحة البادية في هذه الرسالة واضطراره إلى هذا النزول قد أضاف إلى كراهية أبي مسلم كراهية جديدة!

على الجهة الأخرى فإن مثل هذه الرسالة من الخليفة قد سَدَّت عليه طرق الخروج، ولم يَعُدْ أمامه إلَّا أن ينصاع ويذهب إليه مع احتمال الخطر، أو أن تدخل العداوة المستترة بينهما مرحلة العلن، وقد اختار أبو مسلم أن يكمل في الطريق إلى خراسان! بل وأرسل رسالة شديدة اللهجة لأبي جعفر أساء فيها لأخيه الإمام إبراهيم، قال فيها:

«أما بعد فإني اتخذت رجلًا إمامًا ودليلًا على ما افترضه الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلًا وفي قرابته من رسول الله قريبًا فاستجهلني بالقرآن، فحرفه عن مواضعه طمعًا في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه، فكان كالذي دلي بغرور، وأمرني أن أجرد السيف، وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقيل العثرة، ففعلت توطيدًا لسلطانكم؛ حتى عَرَّفَكم الله مَنْ كان جهلكم، ثم استنقذني الله بالتوبة، فإن يعف عني فقدمًا عرف به ونسب إليه، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي، وما الله بظلام للعبيد»[٥].

وبذا وصل الأمر مرحلة توتر خطيرة بين الرجلين، فرد على إساءته لأخيه برسالة أشد

(١) انتشار نظام الجماعة: أي تشتت وتبعثر نظام الدولة.
(٢) أوكد: أي أكثر تأكيدا وفاعلية.
(٣) من طبه: أي من غرضه.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٢، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٧٩.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٣، ٢٠٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٢.

لهجة لَوَّح فيها بالتهديد قائلًا: «أما بعد، أيها المجرم العاصي، فإن أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من الله، فأوضح الله لك السبيل، وحملك فيها على المنهج، فلو بأخي اقتديت ما كنت عن الحق حائدًا، وعن الشيطان وأمره صادرًا، ولكنه لم ينسخ لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركًا ولأغواهما موافقًا، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبارين، وتحكم بالجور حكم المفسدين، ثم إن من خبري أيها الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان، وأمرته بالمقام بنيسابور، فإن أردت خراسان لقيك دونها بمن معه من قُوَّادي وشيعتي، وأنا موجه للقائك أقرانك، فاجمع كيدك، وأمرك غير مسدد ولا موفق، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل»[١].

إلا أنه لم يتخلَّ عن سبيل السياسة معه، فبعض المصادر تورد الرسالة الأخيرة على هذه الشاكلة: «قد فهمت كتابك وللمدل على أهله بطاعته ونصيحته ونصرته ومحاماته وجميل بلائه مقال، ولم يرك الله في طاعتنا إلا ما تحب، فراجع أحسن نيتك وعملك ولا يدعونك ما أنكرته إلى التجني؛ فإن المغيظ ربما تعدى في القول فأخبر بما لا يعلم، والله ولي توفيقك وتسديدك. فأقبل رحمك الله مبسوط اليد في أمرنا محكمًا فيما هويت الحكم فيه ولا تشمت الأعداء بك وبنا»[٢]. ثم سلك المنصور سبيل السياسة من طريق آخر؛ إذ أمر أبو جعفر من حضره من بني هاشم أن يكتبوا «إلى أبي مسلم، فكتبوا إليه يعظمون أمره، ويشكرون له ما كان منه، ويسألونه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة، ويحذرونه عاقبة الغدر، ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين، وأن يلتمس رضاه»، وبعث بالكتاب أبو جعفر مع أبي حميد المروروذي، وقال له: «كَلِّم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحدًا، ومَنِّهِ، وأَعْلِمْه أني رافعه وصانع به ما لم يصنعه أحد، إن هو صلح وراجع ما أحب...»[٣]. وحَمَّلَه رسالة تهديد في حالة رفضه القدوم!

وقام الرسول بالمهمَّة خير قيام، فبعد أن سلمه رسائل الخليفة ووجوه بني هاشم قال: إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله وخلاف ما عليه رأيه فيك حسدًا وبغيًا، يريدون إزالة النعمة وتغييرها، فلا تُفْسِد ما كان منك وكلمه.. يا أبا مسلم إنك لم تزل أمين آل محمد، يعرفك بذلك الناس، وما ذخر الله لك من الأجر عنده في ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك،

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤٢٠، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٧٤.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٢.

فلا تُحْبِط أجرك ولا يستهوينك الشيطان.

فقال له أبو مسلم: متى كنت تكلمني بهذا الكلام؟

قال: إنك دعوتنا إلى هذا وإلى طاعة أهل بيت النبي بني العباس، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك فدعوتنا من أرضين متفرقة، وأسباب مختلفة، فجمعنا الله على طاعتهم، وألف بين قلوبنا بمحبتهم، وأعزنا بنصرنا لهم، ولم نلقَ منهم رجلًا إلا بما قذف الله في قلوبنا حتى أتيناهم في بلادهم ببصائر نافذة، وطاعة خالصة، أفتريد حين بلغنا غاية منانا، ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا، وتفرق كلمتنا، وقد قلت لنا: من خالفكم فاقتلوه، وإن خالفتكم فاقتلوني[١].

ويبدو أن أبا مسلم اهتز لهذا الكلام فشاور مالك بن الهيثم (الذي كان من النقباء الاثني عشر في خراسان من قديم) الذي نصحه بألا يذهب إليه فلقد بلغ الأمر بينهما مرحلة اللاعودة، وقال: «لا تسمع كلامه، ولا يَهُولَنَّك هذا منه... لَمَا بعد هذا أشد منه، فامض لأمرك ولا ترجع، فوالله لئن أتيته ليقتلنك و**لقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك أبدًا**»[٢]. كما نصحه بذلك واحد من عقلاء قومه اسمه نيزك -أو بانويه- قائلًا: «لا أرى أن تأتيه وأرى أن تأتي الري فتقيم بها، فيصير ما بين خراسان والري لك، وهم جندك ما يخالفك أحد، فإن استقام لك واستقمت له، وإن أبى كنت في جندك، وكانت خراسان من ورائك»[٣]. فعزم أبو مسلم على عدم الذهاب وأفضى بهذا إلى رسول أبي جعفر، وانتهى الترغيب إلى الفشل.

عند ذلك أدى الرسول رسالة الترهيب «يقول لك أمير المؤمنين: لست للعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقًّا ولم تأتني، إن وكلت أمرك إلى أحد سواي، وإن لم ألِ طلبك وقتالك بنفسي، ولو خضت البحر لخضته، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها؛ حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك»[٤].

كانت هذه الكلمات هي السيف الذي نزل في قلب أبي مسلم فتزلزل له ودخله الخوف.

وكان أبو جعفر قد راسل أبا داود (خليفة أبي مسلم على خراسان) ووعده بأن يظل أميرًا

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٣.

(٢) المعنى: أنه حمل عليك في نفسه من الغضب والسخط ما لا يمكن إصلاحه.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٣، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٨٠.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٢، ٢٠٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٢، ٣٨٣.

على خراسان حتى آخر العمر إذا هو كان مع الخليفة على أبي مسلم، فأرسل أبو داود إلى أبي مسلم يقول: «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه»(١).

فوصل الكتاب في هذه اللحظة الحرجة فازدادت الأزمة عند أبي مسلم، وصار محاصرًا من الجهتين، ففكر أن يُرسل أحد ثقاته أولًا إلى الخليفة ليستوثق من نواياه، واسمه أبو إسحاق، وبعث إلى رسول أبي جعفر وقال له: إني قد كنت معتزمًا على المضي إلى خراسان، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه، فإنه ممن أثق به، فلما ذهب أبو إسحاق تلقاه بنو هاشم بكل ما يحبُّ، وأغراه أبو جعفر أنه إن استطاع إثناء أبي مسلم عن التوجه إلى خراسان فسيكافئه على هذا بولاية خراسان ذاتها، فوقع الإغراء في نفس أبي إسحاق؛ فلما رجع إلى أبي مسلم قال له: ما أنكرت شيئًا، رأيتهم مُعَظِّمِين لحقك يرون لك ما يرون لأنفسهم، وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان منه(٢).

وهنا عزم أبو مسلم على الذهاب إلى الخليفة، وحاول صاحبه الحكيم نيزك أن يرده عن الذهاب إليه فلم يستطع فتمثل بقول الشاعر:

مَا لِلرِّجَالِ مَعَ الْقَضَاءِ مَحَالَةٌ ذَهَبَ الْقَضَاءُ بِحِيلَةِ الْأَقْوَامِ

ثم نصحه نصيحة أخيرة، تلك هي أن يقتل أبا جعفر بمجرَّد أن يراه، ثم يبايع لأحد من آل بيته؛ فإنه لن يجرؤ أحد على مخالفته حينها(٣). إلَّا أنَّ أبا مسلم لم يقتنع بهذا، وكتب إلى أبي جعفر أنه قادم إليه.

يدخل على خط القصة هنا كاتب الرسائل لأبي جعفر المنصور وهو أبو أيوب المورياني الذي دخل على المنصور فوجد رسالة أبي مسلم عنده، وصَرَّح له أبو جعفر بنيته في قتل أبي مسلم، ولم يكن الوضع آمنًا فإن أبا مسلم سيقدم ومعه جيشه فيما الحال أن أبا جعفر موجود في المدائن وليس معه جيش، ولربما أدت نية أبي جعفر هذه إلى معركة ومقتلة يذهب بها أمر الدولة الوليدة! فأدَّى أبو أيوب دورًا دقيقًا في إتمام هذا القتل بأقل قدر من الخسائر والحروب على الدولة.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٣.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٣، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٨٠.

ظل أبو أيوب ليلة لا ينام؛ حتى استقرَّ على أن أصلح الأحوال أن يأتي أبو مسلم وهو آمن تمامًا؛ لأنه إن أتى وهو حذر فلن ينتهي الأمر قبل حرب ومقتلة يذهب فيها أحد الرجلين وكثير من الناس، فوضع خطَّة متقنة:

أرسل إلى سلمة بن سعيد بن جابر واقترح عليه صفقة مغرية؛ تلك هي أن يوصله إلى منصب الولاية في مدينة كبرى أموالها كثيرة كأموال العراق مقابل أن يُشرِك معه في هذه الولاية حاتم بن أبي سليمان أخا أبي أيوب ويجعل له نصف هذه الأموال، فوافق سلمة، فأخبره أبو أيوب بأن مدينة كسكر كان خراجها في العام الماضي كخراج العراق وأنه سيتضاعف في هذا العام، فسأل أبو سلمة: ولكن كيف؟ فأخبره أبو أيوب: بأن الخليفة قرر أن يجعل أبا مسلم وزيره الأول في أمور الدولة، وأن أبا مسلم قادم لاستلام هذه المهمَّة فعليه أن يذهب إليه بالبشرى ويطلب منه ولاية كسكر، ويبدو أن أبا أيوب كان يعلم من طباع سلمة بن سعيد أنه سيقص على أبي مسلم كل ما جرى، وهو ما كان فعلًا، ثم أفضى أبو أيوب بخطته هذه لأبي جعفر فوافق عليها، وأذن لسلمة بن سعيد أن يقابل أبا مسلم، وأوصاه أن يخبره بشوقه إليه وانتظاره إياه، فانطلق سلمة بن سعيد؛ فاستقبل أبا مسلم قبل دخوله إلى المدائن وأخبره وبشره، ففرح أبو مسلم وأصبح آمنًا بعد أن كان متوجسًا[(١)].

ثم ألح أبو أيوب على أبي جعفر ألا يقتل أبا مسلم أول دخوله عليه، ذلك أنه سيدخل مع أصحابه وبعض خواصه، وهم ما زالوا يترقبون، فلو دخل ولم يخرج فلربما ثارت فتنة، وظل يُلح على الخليفة حتى وافقه على هذا، فلما دخل أبو مسلم وسَلَّم على الخليفة، قابله أبو جعفر بخير وقال له: انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام فإن للسفر قشفا ثم اغد عليَّ[(٢)]. فانصرف أبو مسلم وانصرف الناس[(٣)].

إلا أن أبا جعفر ندم ندمًا شديدًا على أنه فَوَّت هذه الفرصة النادرة، وظل طوال ليلته لا ينام من الغضب، وعَنَّف أبا أيوب على نصيحته التي أفلتت منه هذا الموقف حتى خشي أبو أيوب على نفسه، ثم دعا أبو جعفر قائد حرسه عثمان بن نهيك وأربعة من أشداء جنود

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٤، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٣/ ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) اغْدُ عليَّ: أي ائتني غدًا، مأخوذة من وقت الغداة.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٤.

الحراسة وأمرهم أن يظلوا في زاوية حتى إذا سمعوا صفيقه خرجوا معًا فقتلوا أبا مسلم! ثم خرج أبو أيوب يحاول استطلاع رأي أصحاب أبي مسلم، هل هم آمنون؟ أم ما زالوا متوجسين كي ينقل هذا الرصد للخليفة فيقتل أبا مسلم أو يمسك عن قتله(١).

دخل أبو مسلم على الخليفة، وكان لقاء عاصفا بطبيعة الحال، عَدَّد فيه أبو جعفر بعض ما فعله أبو مسلم مواجها إياه به، وأبو مسلم يعتذر عن ذلك ويبرر لنفسه بعض ما فعل:

- قال أبو جعفر: أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن الموات(٢) أردت أن تعلمنا الدين؟!
- قال أبو مسلم: ظننتُ أخذه لا يحل فكتب إليَّ (أبو العباس) فلما أتاني كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم.
- قال: فأخبرني عن تقدمك إياي في الطريق؟
- قال: كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك التماس الرفق.
- قال: فقولك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس لَمَنْ أشار عليك أن تنصرف إليَّ: نَقْدُم فنرى من رأينا ومَضَيْتَ فلا أنت أقمت حتى ألحقك ولا أنت رجعت إلي؟
- قال: منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس، وقلتُ: نقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف.
- قال: فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها؟
- قال: لا، ولكني خفت أن تضيع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها.
- قال: فمراغمتك وخروجك إلى خراسان.
- قال: خفت أن يكون قد دخلك مني شيء فقلت: آتي خراسان فأكتب إليك بعذري وإلى ذلك ما قد ذهب ما في نفسك عليَّ(٣).

هذه رواية فيها حوار، وهي أمور تحتمل الأخذ والرد، ولكن ثمة روايات أخرى كان

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٣/ ٣٨٤، ٣٨٥.
(٢) الأرض الموات هي التي لم تستصلح بعد، فهي أرض خراب.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٥، ٣٨٦.

فيها ما لا يملك فيه أبو مسلم ردًّا، ولذا كانت هجومًا من أبي جعفر ولا ردود من أبي مسلم:

قال أبو جعفر: ألست الكاتب إليَّ تبدأ بنفسك؟ والكاتب إليَّ تخطب أمينة بنت علي؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس[١]؟ ما دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا وهو أحد نقبائنا قبل أن ندخلك في شيء من هذا الأمر؟ قال: أراد الخلاف وعصاني فقتلته، فقال أبو جعفر: وحاله عندنا حاله فقتلته وتعصيني وأنت مخالف عليَّ قتلني الله إن لم أقتلك[٢].

وصفق بيديه فخرج الحراس الخمسة وانهالوا على أبي مسلم الذي لم يمهله الوقت كثير رجاء، قال: استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك؟ قال: وأي عدو أعدى لي منك.

وهكذا قُتِل أبو مسلم الخراساني.. الرجل الذي ملأ الأسماع والأبصار، وفاضت بذكره الكتب والأخبار، وأقوى رجال الثورة العباسية!

لم يأخذ هذا الحوار كثير وقت؛ إذ كان أبو مسلم قبل مجيئه عند عيسى بن موسى بن علي، وقد خرج إلى الخليفة على أن يلحق به عيسى بن موسى إلا أنه تأخر للوضوء، فما وصل إلى الخليفة إلا وجد أبا مسلم مقتولًا، وقد سأل قبل أن يعرف بما دار: أين أبو مسلم؟ فقال أبو جعفر: قد كان هاهنا آنفًا، فقال عيسى: يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى الإمام إبراهيم كان فيه، فقال: يا أنوك[٣] والله ما أعلم في الأرض عدوًّا أعدى لك منه، ها هو ذاك في البساط (مقتولًا)، فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون، وكان لعيسى رأي حَسَنٌ في أبي مسلم، فقال له أبو جعفر: خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم[٤]؟!

يرى المؤرِّخون أن هذه واحدة من غدرات أبي جعفر المنصور إذ كيف يقتله بعدما مَنَّاه وأمنه؟ فيما يراه آخرون معذورًا مضطرًا وقد بلغ أبو مسلم هذا المبلغ من الكبر والتعاظم والاستعلاء على بيت الخلافة وعلى الخليفة.

---

(١) تفيد هذه الرواية أن أبا مسلم ادعى أنه من العباسيين، من أحفاد سليط بن عبد الله بن عباس!
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٤، ٣٨٦، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٨١.
(٣) أنوك: أي أحمق.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٠٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٧.

روى ابن خلكان أن المنصور لما أراد قتل أبي مسلم تحير في أمره هل يستشير أحدًا في ذلك أو ينفرد بالأمر؛ لكي لا تنتشر نيته هذه، فاستشار سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي، فقال له: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فقال أبو جعفر: حسبك يا ابن قتيبة، لقد أودعتها أذنًا واعية[1]، وقد استشار أبو جعفر قائده العسكري يزيد بن أسيد فلم يكن في حكمة سلم بن قتيبة إذ ما إن سأله المنصور في قتل أبي مسلم حتى اندفع قائلًا: أرى يا أمير المؤمنين أن تقتله، وتتقرب إلى الله بدمه، فوالله لا يصفو ملكك ولا تهنأ بعيش ما بقي، فأظهر المنصور غضبًا شديدًا وقال: قطع الله لسانك، وأشمت بك عدوك، أتشير عليَّ بقتل أنصح الناس لنا، وأثقله على عدونا؛ أمَّا والله لولا حفظي ما سلف منك، وإني أعدها هفوة من رأيك لضربت عنقك، قم لا أقام الله رجليك، فانزعج يزيد بن أسيد، ثم لما قتله المنصور استدعاه مرة أخرى وقال: «والله لكان ذلك رأيي، وما لا أشك فيه، ولكنني خشيت أن يظهر منك فتفسد عليَّ مكيدتي»[2].

إن قصة أبي مسلم الخراساني إحدى قصص التاريخ البليغة التي ينبغي أن تبقى للإنسان عبرة ومثلا، يحتويها بعقله وقلبه ليتشرب معانيها ودروسها:

فهي قصة الفتى الموهوب ذي الإمكانات المدهشة؛ حتى لقد كان كومضة البرق الساطع الذي غير التاريخ ثم اختفى، فهذا الفتى الذي وُلد في حكم اليتيم ونشأ في عمل الخادم، وعمل في إصلاح السروج، ما تلبث أن تنزل به فرصة اللقاء بقادة الدعوة فإذا بمواهبه تدهش من يراه حتى يصير في سنين معدودة القائم بأمر الدعوة في معقلها الرئيسي، ثم يكتب بنفسه سقوط الدولة الأموية العظيمة المتمددة على أرض المشرق والمغرب، إن ما فعله أبو مسلم في هذه السن المبكرة من أعمال كبرى تبعث على الإعجاب به وبمواهبه إيما إعجاب، وتجعله أحد الشخصيات البارزة في التاريخ، يقول الذهبي: كان من أكبر الملوك في الاسلام، وكان ذا شأن عجيب ونبأ غريب؛ من رجل يذهب على حمار بإكاف من الشام حتى يدخل خراسان، ثم يملك خراسان بعد تسعة أعوام، ويعود بكتائب أمثال الجبال، ويقلب دولة، ويقيم دولة أخرى!![3] ويقول الزركلي: «عاش أبو مسلم سبعًا وثلاثين سنة بلغ بها منزلة

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٥٣.

(٢) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص١٢٧.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٨.

عظماء العالم»[1]. إلَّا أنَّ غروره يدفعه إلى مناطحة بيت الخلافة، فإذا به فجأة ميتا في وقت لا يتوقع أحد أن تكون هذه نهاية الرجل القوي الكبير صاحب خراسان، وصدق الشاعر:

إِذَا لم يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

وهي قصة جبار سفاك للدماء يموت على يد من خدمهم، ووطَّأ لهم الدولة، وهيأ لهم البلاد، ولئن كان هو قد استفاد مما فعل نفوذًا وجاهًا وسلطانًا؛ إلا أنه -بعد كل هذا- يصنع لغيره بالمقام الأول؛ فلولا دعوة الرضا من آل البيت ما بلغ أن يصنع ولا أن يفعل ولا أن يتبعه أحد ولو كان له كل تلك المواهب.. إنه أحد من يصدق فيهم قول النبي ﷺ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»[2].

ولو أن أبا مسلم عاش في زمن إدبار الدولة لكان مجددًا لها أو ممسكًا بمسار انهيارها، أو حتى باعث نهضتها من جديد، كما سيفعل بعده كثير ممن أتوا في أزمنة الضعف فيحفظون الدولة أو يجددونها أو يؤجلون انهيارها، لكنه عاش في زمن إقبالها وقوتها وعنفوانها؛ حيث يكون المؤسسون والسلاطين الأقوياء ممن لا مجال لأن ينافسهم أحد في حكمهم وسلطانهم، صحيح أن أمثال هؤلاء يسمحون بوجود الأقوياء في جوارهم، أو قد يحرصون على أن يكون رجالهم من الأقوياء، لكنَّ ذلك مشروط بألا يجاوز أحدهم حده فيهدد السلطان نفسه، وهذا ما تجرأ عليه أبو مسلم فلم يكن من نهايته بدٌّ لحفظ الدولة.

ولو أن أبا مسلم كان في زمن إقبال الدولة، غير أن خصمه لم يكن على مستوى أبي جعفر المنصور، فلربما توقعنا أن يطول بقاؤه ونفوذه، لكنَّ المنصور كان هو الآخر شخصية فذة، وفي الطبقة الأولى من الحكام والسلاطين، قدرة وعزمًا وإرادة وسياسة، فكان دخول الرجلين في مواجهة كهذه محسومًا لصالح المنصور الذي يتميز -فوق قدراته وشخصيته- بنسبه العباسي الهاشمي، وهو نسب في الصدر من العرب وفي الصدر من الإسلام، وفي ذلك العصر ما كان لأحد أن يستوفي هذا الشرط أو يدخل في هذه المنافسة، فكما قال الجاحظ: «ألا ترى أن أبعد الناس همة في نفسه وأشدهم تلفتًا إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب المراتب؛ لأن ذلك

(١) الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٣٧.

(٢) رواه ابن حبان (٢٧٦) وغيره، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣١١).



يحتاج إلى نسب أو إلى أمر قد وُطِّئ له بسبب»[١].

وهي قبل كل هذا وبعده قصة متكررة في التاريخ، قصة الرجل المجهول الذي يعيش في أغمار الناس ولا يكاد يُلتفت إليه ولا يحسب له أحد حسابًا، ثم يسفر الزمان عن فرصة تجعله الرعب الذي تخشاه الملوك والسادة والزعامات.. ومن يدري: كم بيننا الآن في الناس من مواهب تنتظر الفرصة التي تقلب وجه التاريخ؟!!.. ولهذا تحديدًا فإن الأمل في تغير الحال لا يزول أبدًا، فكم تحت الطين من بذور لا يدري إلا الله كيف تكون إذ تستغلظ وتستوي على سوقها؟!

على أي حال، انتهت قصة أبي مسلم الخراساني على هذا النحو المفاجئ، لتكون حياته كلها مفاجأة: مفاجأة في الابتداء ومفاجأة في الانتهاء.

وقد ترك لنا أبياتًا من الشعر لخص فيها حياته، وأودع فيها خلاصة رأيه في الدنيا قائلًا:

قَدْ نِلْتُ بِالْحَزْمِ وَالْكِتْمَانِ مَا عَجَزَتْ — عَنْهُ مُلُوكُ بَنِي مَرْوَانَ إِذْ حَشَدُوا

مَا زِلْتُ أَضْرِبُهُمْ بِالسَّيْفِ فَانْتَبَهُوا — مِنْ رَقْدَةٍ لَمْ يَنَمْهَا قَبْلَهُمْ أَحَدُ

طَفِقْتُ أَسْعَى عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ — وَالْقَوْمُ فِي مُلْكِهِمْ بِالشَّامِ قَدْ رَقَدُوا

وَمَنْ رَعَى غَنَمًا فِي أَرْضٍ مَسْبَعَةٍ[٢] — وَنَامَ عَنْهَا تَوَلَّى رَعْيَهَا الْأَسَدُ[٣]

وقد سُئِل يومًا: من أشجع الناس؟ قال: كل قوم في إقبال دولتهم، وقيل له: بم بلغت ما بلغت؟ فقال: ما أخرت أمر يومي إلى غد قطُّ[٤]. وقد مات أبو مسلم وليس له دار ولا عقار ولا عبد ولا أَمَة ولا دينار[٥].

تَذَكَّرَه المأمون بعد قرابة المائة عام فقال: «أَجَلُّ ملوك الأرض ثلاثة، وهم الذين قاموا بنقل الدول وتحويلها: الإسكندر، وأزدشير، وأبو مسلم الخراساني».

وردت بعض عبارات يُفهم منها أنه تغير وتاب في آخر حياته، منها الرسالة الثانية التي

(١) الجاحظ: الحيوان ٢/ ٣٠٥.

(٢) أرض مسبعة: أي أرض ذات سباع وهي الأسود.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤١٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٣.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٤٨، ١٤٩.

(٥) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٩٣.

أساء فيها للإمام إبراهيم لدى مجادلاته مع أبي جعفر المنصور، والتي ذكرناها من قبل، كذلك ما أورده ابن عساكر أنه سئل في أواخر عمره: كيف أنت إذا حوسبت على إنفاقك المال في غير حقه؟ فقال: لولا ذنوبي في إقامة دولة بني العباس لطمعت في خفة المحاسبة على تبذير من المال(١).

وسُئِل عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم: أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد، ولكن كان الحجاج شرًا منه(٢). فيما قال الذهبي: كان أبو مسلم سفاكًا للدماء، يزيدُ على الحجاج في ذلك(٣).

فَرَّق أبو جعفر أصحابَ أبي مسلم وأنصاره بما وزعه عليهم من المال الكثير، كما هدَّد أبا إسحاق -قائد الحراسة الخاصة لأبي مسلم- تهديدًا شديدًا قائلًا: «أقسم بالله لئن قطعوا طنبًا من أطنابي(٤) لأضربن عنقك ثم لأجاهدنهم». فخرج إليهم أبو إسحاق وصرفهم، كذلك عفا عن أصحاب أبي مسلم ممَّنْ كانوا يلحون عليه بالانصراف إلى خراسان وعدم القدوم على أبي جعفر؛ مثل: أبو نصر مالك بن الهيثم(٥).

وبهذا أفلت المنصور من لحظة في غاية الحرج بأعجوبة، وقد اعترف فيما بعد أن من أخطائه أن يقتل أبا مسلم وهو في جماعة قليلة(٦).

ثم خطب أبو جعفر في الناس خطبة أوضح فيها دوافعه لما فعل بأبي مسلم قال فيها:

«أيها الناس؛ لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة، فإنه لم يُسِرّ أحد قطُّ منكرة إلا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانه وأبداها الله لإمامه بإعزاز دينه وإعلاء حقه، إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه عليكم، إنه من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبي هذا الغمد(٧)، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤١٠.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٤٢٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٤٨، والذهبي: لسان الميزان ٥/ ٢٩.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٥١.
(٤) الطنب هو ما تشد به الخيمة إلى الأرض.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٧.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١١٠/ ٨٢.
(٧) المراد أن من نازعنا جازيناه بالسيف.

من إقامة الحق عليه»[١].

خراسان المضطربة

إلا أن الأمر لم ينته بأبي مسلم، بل ظل حاضرًا في معظم حركات التمرد على الخلافة العباسية في خراسان، سواء ما كان منها ملتزمًا بالإسلام أو ما كان داعيًا إلى ملة أخرى؛ فسيظهر منذ هذا الوقت حركات تحمل الشعور القومي الفارسي «في خراسان وولايات إيران الشمالية في شكل ثورات لم تكن موجهة ضد العرب فحسب بل ضد الإسلام أيضًا»[٢]، كما سيظهر الطموحون ذوو المطامع، فأبو مسلم لم يكن آخر والٍ يُغريه ابتعاد خراسان عن عاصمة الخلافة وقوتها وسعة مواردها في الاستقلال بها، لذا جرب الطموحون حظوظهم ما شاءوا لكن الخلافة كانت في أوج قوتها فذهبت آمالهم أدراج الرياح.

١- تمرُّد سنباذ

كان مصرع أبي مسلم على يد المنصور من أكبر الصدمات التي عانتها القومية الإيرانية، وقد انتهز المزدكيون هذه الفرصة، وتحت عَلَم الثأر لأبي مسلم رفعوا راية العصيان[٣]، فكان أول من خرج هو سنباذ، ثار يطالب بدم أبي مسلم، وكان مجوسيًا، واستولى على حواضر مهمَّة مثل قومس وأصبهان والريّ، واستولى على أموال وغنائم أبي مسلم التي تركها هناك من حرب عبد الله بن علي، فبعث إليه أبو جعفر المنصور جيشًا من عشرة آلاف فارس بقيادة جمهور بن مرار العجلي، فانتصر على سنباذ نصرًا كبيرًا حتى يقال: قُتل من أنصار سنباذ ستين ألفًا، وهكذا انتهت هذه الثورة بعدما عاشت سبعين يومًا، وبرز في هذا التمرد اسم عمرو بن العلاء الذي كان جزارًا من أهل الري فقاد رجالهم لمقاتلة سنباذ فأبلى بلاء حسنًا جعله من القادة فيما بعد[٤].

٢- تمرُّد جمهور بن مرار العجلي

على أن جمهور بن مرار العجلي، بعدما حقق هذا النصر الكبير، وصارت بيده الأموال الكثيرة التي حازها من إرث أبي مسلم، داخله الغرور وظن أنه يستطيع أن يفعل ما عجز عنه

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٥.
(٢) هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام ص٨٣.
(٣) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٨٦، ٨٧.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٤١٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٨.

أبو مسلم وما عجز عنه سنباذ، فأعلن الاستقلال بخراسان وخرج عن طاعة الخلافة (١٣٧هـ) واستعان بالفرس العجم، ما استدعى أن يوجه له المنصور جيشًا آخر بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي؛ الذي انتصر عليه بعد قتال شديد (١٣٨هـ)، فانتهت حال جمهور إلى نفس ما انتهت إليه حال سنباذ.. والشقي من وُعظ بنفسه، والسعيد من وُعِظ بغيره!

٣- تمرُّد عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي

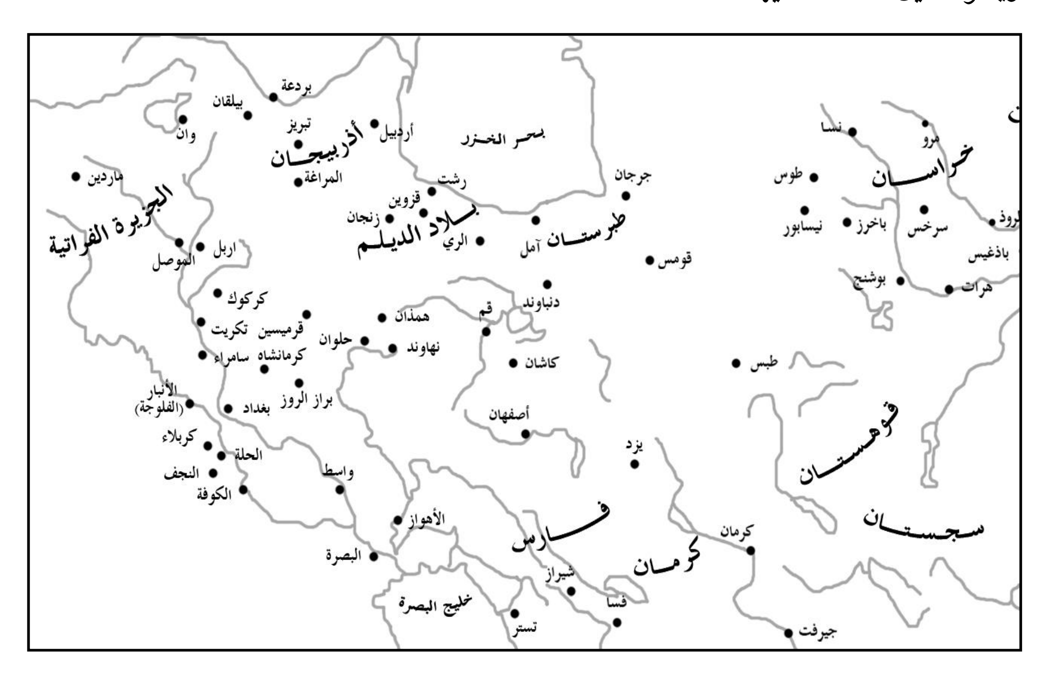
هدأت خراسان عامين فحسب، ثم حدثت حركة احتجاج عسكرية من بعض الجند الخراسانية على نائبها أبي داود خالد بن إبراهيم ، وذلك بتحريض من المنصور حيث كان أبو داود من مناوئي المنصور وممن خرج على الطاعة بعد مقتل أبي مسلم وإن لم يكن تمرده ظاهرًا أو مترجمًا إلى فعل كبير، وحاول أبو داود أن يصعد على رأس القلعة التي حوصر فيها لينادي على أتباعه من الجنود، فإذا به -لضعف بصره، أو لاستناده على حجر هشٍّ- يسقط من فوقها ويموت، ثم يُرسل المنصور عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي (١٤٠هـ)، فينهي هذه الحركة ثم يُخمد دعوة علوية أخرى في مهدها[١].

ثم لا يلبث عبد الجبار إلَّا أن يفكر -أيضًا- في الاستقلال بها (١٤١هـ)، وزاد نفوذه حتى تخلص من مجموعة تدين بالولاء للخليفة، وكان لا بُدَّ من علاج عاجل، ومعه فَكَّر المنصور في وسيلة جديدة تكون علاجًا دائمًا للسيطرة على خراسان التي تغوي بالاستقلال، فحاول المنصور أن يُنهي استقلال عبد الجبار بالحيلة والسياسة، وهنا يظهر لنا مرة أخرى كاتب الرسائل أبو أيوب المورياني الذي نصح الخليفة أن يرسل إليه يطلب جيشًا من خراسان لغزو الروم؛ لتخلو خراسان من جنوده فتكون حربه أسهل، إلَّا أنَّ عبد الجبار فهم الحيلة وأرسل يقول: بلاد خراسان قد عاثت بها الأتراك، ومتى خرج منها جيش خيف عليها وفسد أمرها، فنصح أبو أيوب الخليفة بأن يكتب إليه بأن الخلافة ترسل إليه جيشًا يساعده على مواجهة الترك، غير أن عبد الجبار كتب يقول: إن بلاد خراسان ضيقة في هذا العام أقواتها، ومتى دخلها جيش أفسدها. فلم يكن من سبيل إلا الحرب الصريحة، ومعها هذا العلاج الدائم، فقرَّر المنصور أن يجعل الريَّ مركزا وسيطا بين الخلافة في العراق وبين خراسان، وأن يولي عليها ولده محمدًا (الذي تلقب بالمهدي فيما بعد) فيكون على مقربة من أحوال خراسان

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٤، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٨٣.

ويكون عين الخلافة عليها[١].



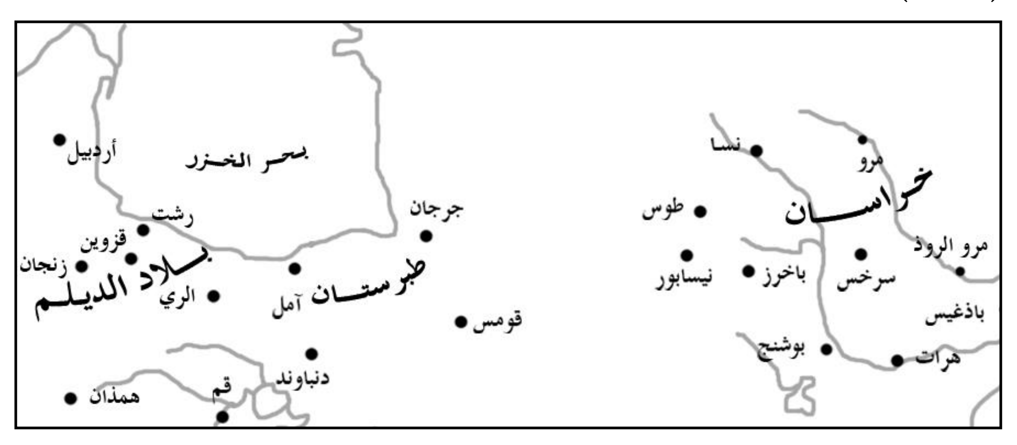
أرسل المنصور ابنه محمدًا إلى الريِّ على رأس جيش قوي، ومن هناك وَجَّه محمدٌ الفارسَ الكبير خازم بن خزيمة على مقدمة هذا الجيش إلى عبد الجبار، فما زال به يخدعه ومن معه؛ حتى هرب أتباعه، وقُبِض عليه، وأُرسل إلى المنصور فلما وصل إليه قال: يا أمير المؤمنين قتلة كريمة. فقال المنصور: تركتها وراءك يابن اللخناء، فصلبه[٢].

٤- المهدي يعيد الهدوء إلى المشرق ثم يغزو

واستقرَّ محمد بن المنصور نائبًا على خراسان، وقد وَفَّر هذا الوضع الجديد لمدينة الري ولمحمد أن تكون قاعدة للفتوح أيضًا، فجاء أمر المنصور إلى ابنه أن يغزو طبرستان، وأن يحارب الأصبهبذ[٣] بمن معه من الجنود، ثم أمده بجيش آخر يقوده الخبير بالمنطقة عمر بن العلاء، فحاصروا الأصبهبذ في قلعته الحصينة فصالحهم على ما في القلعة من أموال، وعلى

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٢٧ وما بعدها، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٧.
(٢) البغدادي: المحبر ص٤٨٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٧، ٥٣٢.
(٣) الأصبهبذ: كلمة فارسية أصلها «سباه بذ»، وتعني القائد الأعلى للجيش أو الأمير، وهي لقب يطلق على حاكم منطقة طبرستان، وليست اسما لحاكم بعينه. انظر: الزبيدي: تاج العروس ٩/ ٤٣٤، ٤٣٥، ود. فتحي سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٦٢ (الحاشية ٤).

الدخول في سلطان المسلمين، ذلك أن المؤرِّخين يصفون هذه المعركة بفتح طبرستان الأول، إذ كانت هذه من المناطق التي استعصت على الدولة الأموية صاحبة الفتوحات، كما حقق الجيش انتصارات على ملك الترك المعروف بـ «المصمغان»، وكان كل هذا في عام (١٤١هـ)[1].



ولم يكن ممكنا إقرار أمر خراسان، وبدء الفتوح في طبرستان إلا لأن قلب الدولة في هذه الأثناء كان مطمئنًا في عمومه وقد خلا من الثورات الداخلية، وهذا مَكَّن الجيوش الإسلامية من الرباط ومتابعة الفتح، فحتى عندما نكث الأصبهبذ عهده مع المسلمين؛ وقتل بعضًا من المسلمين ممَّنْ كان هناك (١٤٢هـ)، استطاعت الجيوش إعادة فتح طبرستان مرة أخرى، كذلك حين قتل ملك الديلم بعض المسلمين نادى المنصور في أهل البصرة والكوفة بالجهاد (١٤٣هـ) فخرج لذلك عدد كبير متوجهين للجهاد[2].

ظلت حالة الاطمئنان والهدوء في قلب الدولة الإسلامية منذ (١٣٩هـ) وحتى (١٤٥هـ)، اللهم إلا حادثة واحدة هي ثورة الراوندية (١٤١هـ) ولم تَطُل؛ مما جعلها غير مؤثِّرة على السياق العام للأحداث. وقد مَكَّن هذا الهدوء الدولةَ من تأسيس بذور النهضة التي ستزهر فيما بعد، كما مَكَّنها من الحفاظ على المسلمين في أطراف البلاد والبلاد الأخرى.

ثم ينقلب الحال؛ إذ تحدث ثورتان كبيرتان في قلب الدولة، ويصرف لهما المنصور كل طاقته وجهده، وتمر عليه أيام شديدة الصعوبة والكرب، ولولا هذا النظام الإداري الجديد

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٨.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١.

الذي استحدثه في الري والذي كان من عوامل إقرار الهدوء في خراسان والمشرق لكان يُكتب الآن تاريخ آخر.

٥- تمرُّد الأستاذ سيس

استقرَّ أمر خراسان ثمانية أعوام غالية منذ (١٤٢هـ)، ولم تحدث أزمة كبيرة إلَّا في عام (١٥٠هـ)، إذ ثار في خراسان أحد زعماء الفرس المجوس، وعرف بـ«الأستاذ سيس»، والأستاذ عند الفرس تعني المُعلم[(١)]، وقاد حركة من أبرز حركات الشعوبية الفارسية اجتمع معه نحو من ثلاثمائة ألف، وقتلوا من المسلمين خلقا كثيرًا، كما هزموا الجيوش المحلية في المدن التي استولوا عليها، وساء الوضع في خراسان وازداد أمرهم تفاقما، وفي هذه اللحظة بدا -لمرة أخرى- نجاح رؤية المنصور بجعل الريِّ مركزا متقدما لإدارة خراسان وجعل ابنه محمد واليًا عليها، فمن هناك عمل محمد على إعداد العدة وتهيئة الأمور لحرب الأستاذ سيس، فلما أرسل له المنصور خازم بن خزيمة كان المهدي قد مهد له كثيرًا من الأمور والجيوش، فقاد خازم نحو أربعين ألفًا من الجنود، فما زال يراوغهم ويماكرهم ويعمل الخديعة فيهم حتى فاجأهم بالحرب، وواجههم بالطعن والضرب، فقتل منهم نحوا من سبعين ألفًا، وأسر منهم أربعة عشر ألفًا، وفي النهاية أُسَر الأستاذ سيس ثم قتل[(٢)].

حركة الراوندية

وتبدو أقلَّ من ثورة، إلَّا أنها كانت سريعة ومفاجئة وقوية، كان ذلك في عام ١٤١ هـ، والراوندية في الأصل خراسانيون، تعلقوا بأبي مسلم الخراساني، وكانوا يعتقدون بتناسخ الأرواح فاعتنقوا أن روح آدم ظلت تحل في الناس؛ حتى استقرَّت في أبي مسلم الخراساني، فلما قُتل انتقلت روحه إلى قاتله عثمان بن نهيك قائد حرس المنصور، وعلى هذا اعتقدوا بأن المنصور هو ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم، فسجن المنصور بعض قياداتهم فانقلبوا عليه، واقتحموا سجن الكوفة وأخرجوا زعماءهم ثم هجموا على قصر المنصور نفسه في مفاجأة كادت تُهلك المنصور ذاته الذي لم يجد إلَّا أن يقاتلهم بنفسه وهو راجل، وأبدى بسالة وشجاعة كبيرة حتى انحاز إليه الناس وجاءت الجنود وقتلوهم عن آخرهم. وقد اعترف المنصور أنه أخطأ بتعرضه للخطر في هذا اليوم

---

(١) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٤٨.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٩٥ وما بعدها.

إذ لو أصابه سهم لاضطربت الأمور وذهبت الخلافة[1].

وقعت هذه الأحداث في هاشمية الكوفة، وكانت البداية لتفكير المنصور في اتخاذ مدينة غير الكوفة تكون عاصمة الخلافة.

بناء بغداد

يحتاج المؤرِّخ أن يبحث عن الكلمات كثيرًا قبل أن يسطر كلامه عن بغداد، تلك المدينة التي خَلَّدَت أبا جعفر المنصور كواحد من أعظم ملوك الدنيا في كل التاريخ الإنساني، ذلك أن بغداد لم تكن فقط عاصمة العباسيين، ولا حتى عاصمة الإسلام، بل كانت بغداد ولفترة طويلة من الزمن عاصمة الدنيا كلها، ولم يكن على وجه الأرض مدينة مثل بغداد، إن الحديث عن بغداد هو حديث عن المدينة التي تكثفت فيها الحضارة الإسلامية في أزهى عصورها قاطبة، إذ كانت بغداد في وقتها قلب الأرض، مجمع المآثر والمفاخر، وملتقى العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة، ومهوى أفئدة طلاب العلم في كل فن ونوع، ومركز التجارة العالمي الذي يلتقي فيه الشرق بالغرب.

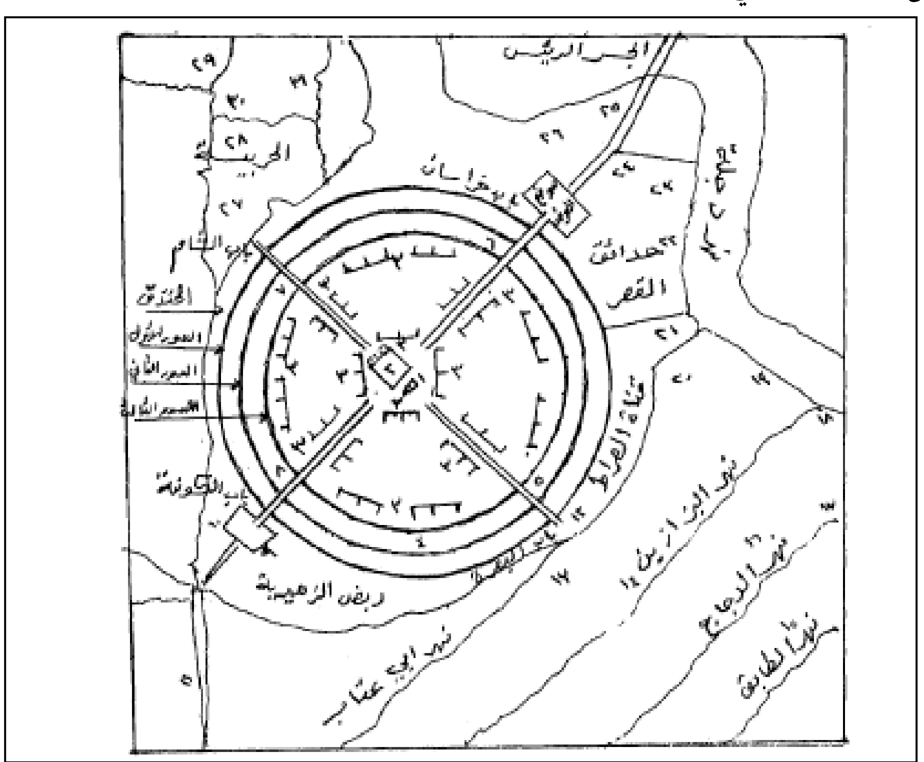
إن المنصور صنع للدنيا صنيعا خالدا بمجهوده في بناء بغداد وتوليها بالرعاية والعناية وجلب العلماء إليها، ولو شئنا أن نترك القلم يجنح بنا لقلنا إن بناء المنصور بغداد وما صنعه لرفعتها لهو عمل يغفر له ما يُؤْخذ عليه من أخطاء السياسة، إذ مهما كانت أخطاء المنصور ذات أثر، فإن محاسن بنائه بغداد فاقت كل أثر آخر.

كان سبب التفكير في بناء جديد على حسب بعض الروايات هو الظرف الأمني، إذ لم يشعر المنصور بعد حركة الراوندية بأن بقاءه في مدينته الهاشمية القريبة من الكوفة بات آمنًا، فأرسل مجموعة يستكشفون له الأماكن المناسبة ثم ذهب بنفسه ليختبر هو -أيضًا- المواضع التي يمكن أن يبني فيها مدينته الجديدة، ثم جاءه أصحابه بمكان طيب الجو يصلح أن يكون مدينة، فلما عاينه أبو جعفر ثبت له صحَّة رأيهم واقتنع بأن هذا الموقع مناسب ليكون مدينة ملكية، إلا أنه رآه بعيدًا عن طرق الناس في البر والبحر مما يُعيق سهولة النشاط الاقتصادي، فهو يصلح للخلافة لكنه لا يصلح لمعيشة الناس، قال: «إنما أريد موضعا يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ولا تشتد فيه المئونة فإني إن أقمت في موضع لا يجلب

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٥ وما بعدها.

إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار وقلت المادة واشتدت المئونة وشق ذلك على الناس»، واستقرَّ رأيه على الموضع الذي مرَّ هو به في أثناء استكشافه، ورآه أنسب الأماكن لما به من ميزات: «هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك». ثم إن المنصور جاءته نصيحة من دهقان مقيم بهذا الموضع فزاد على رؤية المنصور بأن للموقع ميزات حربية وإدارية، قال: «وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل إليك عدوك وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله وأنت قريب من البر والبحر والجبل»[(١)].

وهذا مخطط[(٢)] تقريبي للمدينة يبين موقعها من نهر دجلة والقنوات التي تمر حولها مما يجعل موقعها الطبيعي ممتازًا.



(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٥٧ وما بعدها.
(٢) د. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي ص٤٧.

كانت خيارات المكان واختياره محدودة أيضًا، ولم تكن تحتمل توجهًا جديدًا كبيرًا كالذي اتخذه علي بن أبي طالب رضي الله عنه من قبل حين انتقل من المدينة إلى الكوفة، لقد كان المنصور يبحث عن مكان في العراق -أيضًا- فهو المتوسط بين الأقاليم الشرقية كفارس وخراسان والغربية كالشام والجنوبية كالحجاز، وهو مركز قوة العباسيين وأنصارهم، وهو قريب من الحجاز ومن الشام، إذ ليس بالإمكان -مثلا- العودة إلى الحجاز فتلك أقطار فقيرة الموارد، ولا التوجه نحو الغرب حيث دمشق عاصمة الأمويين ومركز العرب ذوي الهوى الأموي(١).

كانت بغداد مزرعة لستين شخصا فعَوَّضهم المنصور عنها وأرضاهم، ثم استدعى المهندسين والبنائين والحفارين والحدادين والنجارين والصناع وغيرهم، وأرسل إلى البلاد باستدعاء من يفهم شيئًا من أمر البناء حتى اجتمع له ألوف كثيرة، واختار معهم قوما من ذوي الفضل والأمانة كي يقوموا على أمر البناء، وكان منهم الإمام أبو حنيفة والحجاج بن أرطاة، وأمر بأن يرى نموذجًا لها قبل البناء، فَرُسمت على الأرض بالرماد، وصار يسير في طرقاتها ويدخل أبوابها ورحابها وهي على هذه الحال، ثم أراد أن يتضح معالمها بصورة أدق، فوضع على هذه الخطوط حبَّ القطن ثم وضع عليه النفط ثم أشعل النار، فصارت النار ترسم حدود المدينة ومعالمها فاتضحت له تمامًا فأمر بالبدء في حفر الأساسات على حسب هذا التخطيط(٢).

وكان بناء بغداد يتم تحت إشراف أربعة، يتولى كل واحد منهم متابعة البناء في قسم من الأقسام الأربعة(٣). وبنى لها أربعة أبواب وعمل عليها الخنادق، وعمل لها سورين، وفصيلين(٤)، بين كل بابين فصيلان والسور الداخل أطول من الخارج وأمر أن لا يسكن تحت السور الطويل الداخل أحد ولا يبنى منزلا، وأمر أن يُبْنى الفصيل الثاني مع السور النازل لأنه أحصن للسور، ثم بنى القصر والمسجد الجامع(٥). وكان مقياس حجر البناء مربعا، ذراعا في ذراع ووزنها ١١٧ رطلا(٦)، وصممت طرقاتها بحيث تكون متسعة أربعين ذراعا في أربعين

---

(١) د. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي ص٤٤.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٥٩، ٤٦٠، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٦٦، ٦٧.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٩.

(٤) الفصيل: هو حائط قصير أقل من سور المدينة. انظر: ابن منظور: لسان العرب ١١/ ٥٢١.

(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٧٣.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٩.

ذراعا، ويُمنع الناس من البناء في هذه المساحة[١].

وأنفق في بناء بغداد ثمانية عشر مليون دينار[٢]، مع التشديد التام في الإنفاق إلى حد أنه حبس أحد المشرفين على البناء لعجز في الميزانية بلغ خمسة عشر درهمًا، وهو مبلغ تافه بالنسبة إلى هذا العمل[٣].

وسماها «مدينة السلام»، ووضع بنفسه أول أحجارها وهو يقول: بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ابنوا على بركة الله[٤].

وكان تصميم بغداد جديدًا على المدن الإسلامية؛ إذ كان دائريًّا على هذا النمط[٥] في الشكل التالي:

وقيل في سبب بنائها على الشكل الدائري أن «المدورة لها معان سوى المربعة وذلك أن المربعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض، والمدور من حيث قسم كان مستويا لا يزيد هذا على هذا ولا هذا على هذا»[٦]، وهذا النمط الدائري هو تراث آشوري منذ ما قبل الميلاد[٧].

وكان على كل باب من أبواب بغداد الأربعة قُبَّة فسيحة قطرها خمسون ذراعا، يجلس فيها المنصور إذا أراد النظر أو الاستمتاع أو المراقبة، وكانت قبة باب خراسان -ويسمى «باب الدولة» لأن الدولة العباسية بدأت من خراسان[٨]- تكشف الأنهار والجداول وطريق خراسان، بينما كانت قبة باب الشام تكشف الأرباض وامتداد الأنحاء خارج بغداد، وكانت قبة باب البصرة تكشف منطقة الكرخ والأسواق الجنوبية، وأخيرًا كانت قبة باب الكوفة تكشف البساتين والضياع[٩].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٠٤.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٦٩.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٩.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٥٨.

(٥) خير الله سعيد: وصف بغداد في العصر العباسي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، عدد ١٧، المحرم ١٤١٨ هـ/ مايو ١٩٩٧م، ص٤٧.

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٧٢.

(٧) م. يانسن: تخطيط المدن في المشرق؛ بغداد نموذجا، ترجمة: خليل الشيخ، مجلة التسامح، عُمان، العدد (٤)، خريف ١٤٢٤ = ٢٠٠٠م. ص٢٤٥، ٢٤٦.

(٨) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٢٧٢ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).

(٩) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٧٥.

مخطط لمدينة بغداد المدورة
عند انشائها من قبل الخليفة أبو جعفر المنصور

وقد تم بناء بغداد (١٤٦هـ)، وكان لموقع بغداد العبقري أكبر الأثر في اتِّساعها المتسارع غير المتوقع؛ إذ إن وقوعها بين دجلة والفرات بحريًّا وبين الطرق التجارية بريًّا جعل التجارات تأتيها برًّا وبحرًا «بأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة، وسائر البلدان؛ حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها، ويكون مع ذلك أوجد وأمكن؛ حتى كأنما سيقت إليها خيرات الأرض، وجمعت فيها ذخائر الدنيا، وتكاملت بها بركات العالم»(١).

ولا يمكن نسيان النصيب الذي ساهم به المهيمنون على توجيه سياسة بغداد وتنظيم إدارتها، ومهما كانت كثرة الوجهاء فيها وتميز النخبة من أبنائها فإن الدور الأكبر ظل للخلفاء وكبار رجال الحكم والإدارة، بما كانت لهم من مكانة متميزة وثروة كبيرة فكانوا من دعائم الاستقرار ومراكز الإشعاع(٢).

ولهذا النمو السريع قُدِّمت إلى المنصور نصائح أمنية جعلته ينقل الأسواق من داخل المدينة إلى خارجها -جنوبًا- حيث بنى منطقة الكرخ لتكون سوقًا للمدينة، وذلك كي لا يبيت الغرباء داخل مدينة بغداد مما يحتمل أن يكون فيهم من الجواسيس، كما أن أي اضطراب واشتباك يقع في الأسواق سيكون قريب الخطر على بلاط الخلافة، ومع توسع الأسواق صار الكرخ فعليًّا جزءًا من بغداد(٣).

وصارت بغداد عاصمة الدنيا وجوهرة الأرض وقبلة العالمين، يقول عنها اليعقوبي: «المدينة العظمى، التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرًا، وعمارة وكثرة مياه، وصحَّة، وهواء، ولأنه سكنها من أصناف الناس، وأهل الأمصار، والكُوَر، وانتقلوا إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم، فليس من أهل البلد إلا ولهم فيها محلة، ومتجر، ومتصرّف، فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا»(٤).

ووصفها مؤرِّخها الخطيب البغدادي بقوله: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة

---

(١) اليعقوبي: البلدان ص١٢ وما بعدها.
(٢) د. صالح العلي: معالم بغداد الإدارية والعمرانية ص٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٨٠.
(٤) اليعقوبي: البلدان ص١١.

قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشعوبها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرزها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحَّة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من عدة سكانها»[1].

وكان أهل بغداد أرفع الناس رقيًّا وحضارة وتهذبا وسلوكا؛ حتى قيل: إذا كان علم الرجل حجازيا وخلقه عراقيا وصلاته شامية فقد كَمُل[2]، ومن هذا قول ابن علية: وقال ابن علية: ما رأيت أعقل في طلب الحديث من أهل بغداد، ولا أحسن دعة منهم[3]، ويُفهم هذا -أيضًا- من كلمة الشافعي: ما دخلت بلدًا قطُّ إلا عددته سفرًا، إلا بغداد فإني حين دخلتها عددتها وطنًا[4].

ومن أهمِّ ما ترتب على وجود بغداد في موقعها هذا ازدهار البحرية الإسلامية وتوسع النشاط الملاحي العربي الإسلامي في الخليج العربي والمحيط الهندي، إذ أصبحت السفن الإسلامية بأنواعها المختلفة وأعدادها الكبيرة تصول وتجول في البحار والمحيطات تبعا لارتباط العاصمة مائيًا بواسطة نهري دجلة والفرات بمراكز الملاحة البحرية في الخليج العربي كالإبلة وصحار ودارين. فازدهرت الملاحة البحرية في الخليج العربي، خاصة في القرنين الثالث والرابع[5].

لذلك كله فإن بغداد ظلت حية نابضة قائمة حتى بعدما انتقلت العاصمة إلى بغداد منذ عهد المعتصم وحتى عهد المعتمد، لأن أهلها «لم يجدوا منها عوضا ولأنه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى (سامراء) في البر والبحر أعني في (نهر) دجلة وفي جانبي دجلة»[6].

ثورة محمد النفس الزكية

بدا واضحًا للعلويين أن العباسيين قد أخذوا الخلافة لأنفسهم، عباسية وليست هاشمية، فها هو أبو العباس يموت ويعهد من بعده لأخيه ثم لابن أخيه، كذا فإن الصراع

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ١١٩.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٠٩.
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٤٤.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٤٦.
(٥) د. خالد إسماعيل نايف الحمداني: البحرية الإسلامية في الخليج العربي والمحيط الهندي خلال العصور الإسلامية، مجلة التاريخ العربي، الرباط. ٦/ ٦٠.
(٦) اليعقوبي: البلدان ص٥٢.



نشب بين أبي جعفر وعمه عبد الله بن علي، أي أن القوم لا يقبلون بأحد خارج العباسيين خليفة عليهم!

وقد رُصِدت دعوة تدعو إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الملقب بالنفس الزكية، وكان هذا منذ عهد أبي العباس الذي أتى بوالده فتعهد له بألا يرى من ابنيه محمدًا أو إبراهيم شرًّا؛ ما دام في الخلافة كما ذكرنا سابقا.

فلما تولى المنصور وتخلص من الأخطار العاجلة كعمه عبد الله بن علي ثم أبي مسلم الخراساني واستقرَّت له أمور الدولة إلى حدٍّ كبير وَجَّه همته لتتبع هذه الدعوة التي هي بطبيعة الحال قد استفادت من فترات الاضطراب السابقة فتوسعت، فاهتم برصدها فزرع جاسوسًا من عنده هو عقبة بن مسلم فثبت لديه أنها تعمل في سرية وأن نشاطها يعمل في خراسان أيضًا، وعلم أن قائديْها هما محمد بن عبد الله بن الحسن «النفس الزكية» وأخوه إبراهيم(١).

كان مما يزيد القلق أن محمدًا كانت له تجربة ثورية قبل انتهاء الدولة الأموية إذ بايعه بعض الهاشميين للثورة على مروان بن محمد، وبعض الروايات(٢) تقول بأن أبا جعفر نفسه كان من ضِمن من بايعوا، ولا يبدو ذلك مقنعا، فالرسائل والخطب التي كتبها محمد النفس الزكية لم تُشِر إلى بيعة سابقة من أبي جعفر له(٣)، فلو كان قد حدث مثل هذا لاستفاد منه محمد أيما استفادة، ثم إن أبا جعفر لم يكن بالذي يحتاج أن يبايع وهو يعلم أن دعوة أخيه في خراسان قد استقرَّت؛ بل إن ثمارها قد أينعت.

زادت شكوك المنصور عندما ذهب إلى الحج (١٤٠هـ) فلم يَقْدُم عليه محمد ولا إبراهيم، ولما سأل المنصور والدهما عبد الله بن الحسن قال له: والله لا أعلم أين مكانهما من الأرض، غير أن إلحاح أبي جعفر استفز عبد الله الذي واجه المنصور بقوله: والله لو كانا تحت قدميّ ما أخبرتك، فقبض أبو جعفر على عبد الله بن الحسن وسجنه، وصادر أمواله. وقد اكتشف أبو جعفر محاولة لاغتياله من طرف أتباعهما، وقد استخلص هذا الاعتراف من خالد بن حسان الذي كان من أتباع محمد النفس الزكية، وكادت المحاولة أن تنجح في الحج حين السعي بين

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٠٢.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٥٣. وانظر: محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٩/ ٩٢٤، ٩٢٥ (قسم الضعيف والمسكوت عنه).

(٣) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٦٤.

الصفا والمروة لولا أن عبد الله بن حسن (والد محمد) نهاهم عن ذلك لحرمة المكان، فلعلَّ هذا مما جعل أبا جعفر لا يصدق أن عبد الله بن حسن لا يعرف مكان ابنيه، المهم أن أبا جعفر عهد إلى ولاته على الحجاز بأن يكون البحث عن محمد في صلب أولوياتها، وقد عزل من رآه متهاونا في هذا أو متسامحا فيه[1].

على أن أبا جعفر لم يصل إلى شيء، فما كان منه إلَّا أن سجن بني الحسن جميعًا (١٤٤هـ) في المدينة أولًا، ثم نقلهم إلى الحبس في العراق، ليضطر محمد إلى الظهور أو حتى الخروج، فليس ثمة حاكم يمكنه أن يطمئن وكل الأمور تجري في الخفاء لا يمكنه الإمساك به، ولا ننسى أن أبا جعفر نفسه خبير وقريب عهد بدعوة سرية قلبت دولة وأقامت دولة!

وقد ورد أن محمدًا كاد بالفعل أن ينهي أمر دعوته إنقاذا لأهله من السجن، وزار أمه سرًّا وأخبرها بهذا وقال: «إني قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلي عنهم»، وحين زارت أمه أباه في السجن وعرضت عليه ما قاله محمد، فقال: كلا بل نصبر فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيرًا، قولي له فليدع إلى أمره وليجِدَّ فيه فإن فرجنا بيد الله»، وثمة روايات أخرى غير هذه تفيد بأن عبد الله بن الحسن كان مصرا على إتمام الحركة ويوصي أولاده بالثبات والإعداد الحسن للخروج[2].

لقد وردت كثير من الروايات في أن المنصور ارتكب الفظائع مع بني الحسن الذين سجنهم، وأفاضت الروايات في أساليب من التعذيب والإذلال، إلَّا أن كل هذه الروايات مكذوبة لا تصح، ولا هي حتى من نطاق الحسن ولا خفيفة الضعف، بل أقلُّ ما يقال عن أسانيدها أنها منقطعة أو مسلسلة بالمجاهيل ونحو ذلك -بل الصحيح أنه سجنهم ومات منهم من مات في سجنه رضي الله عنهم أجمعين[3]، على أننا لا ننكر بالمطلق أن ظلمًا قد وقع بهم، فكفى بالسجن دون جريمة ظلمًا، كذلك لا ندعي أنهم كانوا في إكرام وتعظيم بل لا بُدَّ وقع من الإساءة ما وقع، إلَّا أنَّ من الجريمة التاريخية أن نكتب عن تعذيب وإذلال قد وقع بهم دون أن نجد على ذلك ولو رواية واحدة أتت من طريق شبه صحيح، فنسير وراء رواة مجهولين أو كذابين، فما هذا من طلب الحق ولا الحرص عليه!

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٠٥ وما بعدها.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤١٤، ٤١٥.

(٣) محمد طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٥/ ٧٧، ٧٨.



نعود إلى أبي جعفر الذي خطَّط لإظهار محمد بطرق أخرى، فَدَسَّ بعضا من الموالين له في صفوف الدعوة، قاموا بدور التحريض على الخروج والإعلان، والإيهام بأن صفوف الدعوة في ازدياد وقوة، وسَرَّب المنصور رسائل على لسان قُوَّاده تدعو محمدًا إلى الخروج[1]، وقد تم المطلوب بالفعل.

ومن ذكائه أنه حين وقع بيده رجل يحمل رسائل من محمد وأخيه إبراهيم إلى بعض أتباعهم في الكوفة أمر بقتله، فصرخ الرجل أنه محتاج إلى المال وأنه مضطر ومجبر على هذا فقبل هذا منه وعفا عنه، بل وسمح له بتوصيل الرسائل إلى أصحابها[2]، ولا ريب أنه فعل هذا؛ لكي يراقبه فيكشف خيوط هذا التنظيم.

كان محمد قد اتفق على أن يثور في المدينة في الوقت نفسه الذي يثور فيه أخوه إبراهيم في البصرة، غير أن هذا الإيهام بأن الدعوة قد اشتدت ولا تنتظر إلا الإعلان قد غَرَّ محمدًا، فخرج قبل الموعد المتفق عليه للثورة مع إبراهيم فثار (غرة رجب ١٤٥هـ)؛ لكنه الوقت الذي صادف أن يكون إبراهيم مريضًا في البصرة؛ فلم يتحقق المطلوب من الاتفاق، وأعلنت الثورة من المدينة فحسب[3]، وكانت مفاجأة صاعقة أن يبحث أبو جعفر عن محمد في شرق الأرض وغربها، وأن يكون وُلاة المدينة مستَنْفَرين يبحثون عنه بكل ما أوتوا من قوة، ولا يستطيعون الوصول إلى معلومة عنه، ثم هو يظهر في النهاية في المدينة نفسها!

وكان محمد من رجال آل البيت المحبوبين ذوي المكانة في الحجاز، فالتف حوله من أحبه، ومن أحب آل البيت من العلويين، ومن كره أن تخرج الخلافة من العلويين إلى العباسيين، ومن كره شيئًا من سياسة العباسيين، ومن أبرز من نسب إليه التحريض على الثورة الإمام مالك رضي الله عنه وقد كان تحديثه بقول النبي ﷺ: «**رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[4]، بمثابة الفتوى، وكان لهذه الفتوى تأثيرها القوي؛ إذ إن الخلفاء كانوا يأخذون البيعة من الناس بالسمع والطاعة لهم ويوثقون ذلك بالأَيْمان، ومن المعروف أن أكثر أيمان البيعة تقع

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٦.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٣/ ١١٩.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٢ وما بعدها.

(٤) ابن ماجة (٢٠٤٥)، وابن حبان (٧٢١٩)، والحاكم في المستدرك (٢٨٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في التعليق على ابن ماجة، وقال شعيب الأرنؤوط في التعليق على ابن حبان: قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

تحت حكم المكره[١]، فكان من تأثير هذه الفتوى أنها تبيح الخروج على الدولة لكلِّ من بايع باعتبار أنه كان مضطرًّا وأن يمينه لا يقع. بل ورد أنه صرح لَمَنْ أراد المشاركة في ثورة محمد النفس الزكية بذلك بقوله: «إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين، فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته»[٢]، كما أن مالكًا نفسه لما علم بحال عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس قال: «ليت الله زين حرمنا بمثله»، فنقم العباسيون عليه[٣].

ويبدو أن ابن كثير كان يشير إلى مالك في قوله عن ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم «وقد حكي عن جماعة من العلماء والأئمة أنهم مالوا إلى ظهورهما»[٤]، وقد نقل ما أورده الطبري عن موقف مالك من هذه الثورة، وحيث إن ابن كثير كان من أبرز من نقدوا روايات الطبري[٥] فإثباته لهذه الرواية يعني إقراره لها تاريخيا[٦].

استولى محمد النفس الزكية على بيت المال في المدينة وفتح السجن وحبس والي العباسيين على المدينة، وأصبحت المدينة في سلطانه، وخطب في أهل المدينة «خطبة الثورة» (غرة رجب ١٤٥هـ)، فكان مما قاله فيها[٧]: «... وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين... أيها الناس إني والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ولكني اخترتكم لنفسي والله ما جئت هذه وفي الأرض مِصْرٌ يعبد الله فيه إلا وقد أُخِذ لي فيه البيعة»[٨].

وقد بدا من العبارة الأخيرة نجاح خطَّة أبي جعفر في إظهار محمد الذي اعتقد بالفعل أن

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٠٩.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٧.
(٣) ابن نباتة: سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون... ص١٨٠.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٠٢.
(٥) قدَّر محمد بن طاهر البرزنجي –في مقدمة كتابه صحيح وضعيف تاريخ الطبري– نقد ابن كثير لروايات الطبري بحوالي ٢٠٪ واعتبره من أبرز المؤرخين الذين حذفوا ما لم يصح من روايات الطبري.
(٦) لكن الأمانة العلمية تقتضي أن نذكر أن في السند مجاهيل، إذ يرويه سعيد بن عبد الحميد بن جعفر عن «غير واحد»، وهذا ما دعا –فيما يبدو– محمد بن طاهر البرزنجي إلى وضع هذه الرواية في قسم الضعيف من كتابه: صحيح وضعيف تاريخ الطبري (٩/ ٨٨١).
(٧) جاءت نصوص الخطب والرسائل المتبادلة بين أبي جعفر ومحمد بن عبد الله من طرق ضعيفة كما أوردها الطبري، وفوق ضعف السند فإن المتن امتلأ بالصبغة الشيعية في الرواية، حيث تكثر الألفاظ الخارجة والقاسية والشتائم حتى لتطغى على الفكرة نفسها، ولهذا لم نثبت النصوص بكاملها، واكتفينا بعرض ما يمثل الفكرة الرئيسية لدى كل طرف، باعتباره الجزء المتيقن من صحته تاريخيا.
انظر في أمر الأسانيد وضعفها: محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٩/ ٨٧٩، وما بعدها (قسم الضعيف والمسكوت عنه).
(٨) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٥، ٤٢٦.



أمره قد قوي وذاع وانتشر في البلاد.

ما إن وصل نبأ خروج محمد في المدينة إلا وسارع المنصور بالنزول في الكوفة -المدينة الأكثر حبًّا وميلًا إلى العلويين- ليمنع وصول الثورة إليها، وزاد فيها الشرطة والعيون والسلاح وأتى بالأجناد أرسالًا وعلى دفعات ليزيد من ترهيب الكوفيين[١]، واستطاع بالفعل أن يكبلها فلم يُسمع لها في هذه الثورة صوتًا على الرغم من مكانة العلويين فيها.

بدأت حرب مراسلات بين أبي جعفر وبين محمد، كل طرف يثبت أحقيته في الخلافة دون الطرف الآخر، وهي المراسلات التي اهتمَّت بالدعاية أكثر من اهتمامها بإقناع الطرف الآخر، كان شيعة محمد وأنصاره هم أهل المدينة، فيما كان شيعة أبي جعفر وأنصاره هم أهل خراسان بطبيعة الحال، فهم الذين يشكلون عصب جيشه[٢].

فلما ظهر محمد بالمدينة أرسل أبو جعفر إليه قائلًا:

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

ولك عليَّ عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله ؛ إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك؛ أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك، ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم ومال، وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك، أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحدًا منهم بشيء كان منه أبدًا، فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إليَّ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به»[٣].

والرسالة قصيرة واضحة؛ تثبت أن محمدًا قد ارتكب جريمة يستحق عليها القتل، لكن

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٦٦، والمسعودي: التنبيه والإشراف ص٣١٢

(٢) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٦٣.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٠.

بإمكانه التوبة والرجوع مع وعد بالعفو عنه وعن أهله وكل مَنِ اتبعه، بل ووعد بالإكرام والعطاء!

الظاهر أن أبا جعفر حاول إنهاء الأمر سلميا كما يفعل أي رجل له أدنى نصيب من الحكمة والسياسة، فما الداعي لتجييش الجيوش وإنشاب الحروب في أمر قد ينتهي بما دون ذلك، فيما رأى بعض المؤرِّخين[1] أن أبا جعفر إنما بدأ بالرسائل لكسب الوقت وتهيئة الجيوش خديعة منه، وليضع مسئولية الحرب على عاتق خصمه، ونحن نميل إلى الرأي الأول ولا نرى قرينة أو دليلًا استند إليه أهل الرأي الثاني، لا سيما وأن أبا جعفر يكفيه أن يبايع محمد فينتهي الأمر، ولا حاجة له بقتله ولا بإثارة العلويين عليه بكل ما يستتبع ذلك من مشكلات.

إلا أن محمدًا عاد وأرسل رسالة أشد لهجة وأقوى تحديا، وفيها من الفخر بنفسه والمعايرة للخليفة ما فيها، كتب يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد..

﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١ - ٦]

وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت عليَّ، فإن الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا عليًّا كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يَمُتُّ أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل، وإنَّا بنو أم رسول الله فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم، إن الله اختارنا واختار لنا؛ فوالدنا من النبيين محمد ، ومن السلف أولهم إسلاما عليّ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة

(١) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٦٣.

الطاهرة وأول من صلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإن هاشمًا ولد عليًّا مرتين[١]، وإن عبد المطلب ولد حَسَنًا مرتين[٢]، وإن رسول الله ولدني مرتين من قِبَل حسن وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسبًا، وأصرحهم أبًا، لم تعرّق فيَّ العجم[٣]، ولم تنازع في أمهات الأولاد، فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في النار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة وأهونهم عذابًا في النار[٤]، وأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار، ولك الله عليَّ إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته، إلا حَدًّا من حدود الله، أو حقًّا لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالًا قبلي، فأي الأمانات تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم؟!»[٥].

ولا تتوقف أهمِّيَّة هذه الرسالة عند ما فيها من الرفض ولهجة التحدي، بما يعني عزمه على الثورة وبدء دخول الخلافة في حرب، بل إن أهمَّ ما فيها هو مناقشة شرعية الخلافة التي تصرفها إلى العلويين، وإلى محمد بعينه، لما له من نصيب في النسب الشريف، وهو الأمر الذي كان لا بُدَّ لأبي جعفر من الردِّ عليه دفاعًا عن شرعية العباسيين، فأرسل هذه الرسالة المُفَصَّلة:

«... أما بعد فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أبًا، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدُّنْيا، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحما وأعظمهن حقا، وأول من يدخل الجنة غدا، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم.

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها فإن الله لم يرزق أحدًا من ولدها

---

(١) يقصد: نسب علي من جهة الأب والأم فكلاهما ينتهي إلى هاشم.
(٢) يقصد نسب الحسن بن علي بن أبي طالب من جهة الأب والأم فكلاهما ينتهي إلى عبد المطلب.
(٣) يشير إلى نسبه الشريف في بني هاشم مُعَرِّضًا بالمنصور الذي كانت أمُّه أمَةً.
(٤) يقصد جده أبا طالب عم النبي ﷺ.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣١.

الإسلام لا بنتا ولا ابنا، ولو أن أحدًا رُزِق الإسلام بالقرابة رُزِقَه عبد الله (أبو النبي) أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [القصص: ٥٦]، ولقد بعث الله محمدًا ﷺ وله عمومة أربعة فأنزل الله ﷻ: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤] فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبي، وأَبَى اثنان أحدهما أبوك[1] فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما إلًا ولا ذمة ولا ميراثًا، وزعمتَ أنك ابن أخف أهل النار عذابًا وابن خير الأشرار، وليس في الكفر بالله صغير ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار، وينبغي لمؤمن يؤمن بالله ألا يفخر بالنار، وسَتَرِد فتعلم ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وأما ما فخرت به من فاطمة أم علي وأن هاشمًا ولده مرتين، ومن فاطمة أم حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين، وأن النبي ولدك مرتين فخير الأولين والآخرين رسول الله ولم يلده هاشم إلا مرة ولا عبد المطلب إلا مرة.

وزَعَمْتَ أنك أوسط بني هاشم نسبًا وأصرحهم أمًّا وأبًا، وأنه لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فَخِرْتَ على بني هاشم طُرًّا، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا؟ فإنك قد تعديت طورك وفخرت على من هو خير منك نفسًا وأبًا وأولًا وآخرًا: إبراهيم بن رسول الله ، وعلى والد ولده، وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد وما وُلِد فيكم بعد وفاة رسول الله أفضل من علي بن حسين، وهو لأم ولد ولهو خير من جدك حسن بن حسن، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ولهو خير منك.

وأما قولك إنكم بنو رسول الله فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة ولكنها لا تحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الإمامة فكيف تورث بها؟!... ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون... [وعدَّد محاولات العلويين

---

(١) يقصد ممن آمن «العباس بن عبد المطلب»، وممن أبى «أبو طالب بن عبد المطلب».

الحصول على الخلافة وفشلهم في ذلك[1]] حتى خرجنا عليهم (بني أمية) فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه فاتخذت ذلك علينا حجة...

ولقد علمت أن مَكْرُمَتَنَا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم فصارت للعباس من بين إخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام، ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل عمر إلى ربه ولم يتقرب إليه إلا بأبينا؛ حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به، ولقد علمت أنه لم يبقَ أحد من بني عبد المطلب بعد النبي غيره، فكان وارثه من عمومته، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده، فالسقاية سقايته، وميراث النبي له، والخلافة في ولده، فلم يبقَ شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه.

أما ما ذكرت من بدر فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التي أصابته، ولولا أن العباس أُخْرِج إلى بدر كارهًا لمات طالب وعقيل جوعًا، ولَلَحَسَا جِفَان عتبة وشيبة[2]، ولكنه كان من المُطْعِمِين، فأذهب عنكم العار والسبة، وكفاكم النفقة والمئونة، ثم فدى عقيلًا يوم بدر، فكيف تفخر علينا وقد عِلْنَاكم في الكفر، وفديناكم في الأسر، وحُزْنَا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا لأنفسكم والسلام عليك ورحمة الله»[3].

ونلاحظ في هذه الرسالة أنها رَدٌّ مفصل قوي على الشرعية التي افترض محمد أنها تجعله الأحق بالخلافة، غير أنها تجنبت الرد على آخر ما أشار إليه محمد بن عبد الله من أنه لا يثق في أمان أبي جعفر لأنه أمان كاذب كالذي انخدع به أبو مسلم الخراساني، وعبد الله بن علي! ولهذا تجنب أبو جعفر الرد، على أن هذا يُعتبر من الدوافع القوية لمحمد بن عبد الله في عدم قبوله الأمان المبذول!

---

(١) في النص الأصلي عند الطبري، عدد أبو جعفر تجارب فشل العلويين في الخلافة، مع طعن وسب في العلويين منذ علي بن أبي طالب مرورا بالحسن والحسين وانتهاء بزيد بن علي.. وقد جرينا على المنهج الذي أقررناه في حاشية سابقة من عرض الجزء الذي يمثل الفكرة الرئيسية من النصوص الضعيفة سندا ومتنا.

(٢) المراد: تسولا واحتاجا إلى الكفار.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣١ – ٤٣٣.

ولكن: هل كان محمد يرى نفسه الأحق بالخلافة أولًا، فهذا كان سبب الخروج الأول ولم يَعُدْ له بعد الثورة إلا استكمالها لعدم وثوقه في أمان أبي جعفر؟ أم أن عدم وثوقه في أمان أبي جعفر جعله يرى أن لا حلَّ إلا إشعال ثورة واستمداد شرعية تجعله الأحق بالخلافة؟.. هذا ما لا ندريه على وجه اليقين، والله أعلم بالنفوس والسرائر، وفي التفاصيل المجهولة للتاريخ يكمن الكثير من التفسير!

وفيما يخص مسألة الشرعية، فإن هذه الرسالة بُنِيت على أساس خاطئ كأساس رسالة محمد، ذلك هو اعتمادها على الميراث كأساس للشرعية، والأفضلية في الدين والمرتبة ليست مما يُورَّث، والخلافة لا علاقة لها بالنسب إلى النبي، بل هي في قريش كما جاء في الحديث **«الأئمة في قريش»**، على أن بعض العلماء قد رأى أن الحديث لا ينصرف إلى قريش بعينها بل إلى أصحاب الشوكة والقوة في القوم؛ ولهذا تولَّى أبو بكر ثم عمر ثم عثمان الخلافة، وكلهم لا نسب له إلى الرسول في محضر الصحابة وببيعتهم ورضاهم، وكذلك تنازل الحسن بن علي لمعاوية رضي الله عنه وهو -أيضًا- لا نسب له إلى الرسول ، وهذا الأمر مفصل في الكتب الفقهية التي تناولت الخلافة وشروطها[1]، إلا أننا لسنا في مقام التفنيد، وإنما في مقام عرض التاريخ كما جرى، وقد وجد العلويون والعباسيون في هذه الشرعية سببًا لطلب الخلافة أو للتمسك بها!

لم يَعُدْ من طريق إلا الحرب، وكانت تحتاج فوق الحشد المادي حشدًا معنويًّا، فقام أبو جعفر خطيبًا في جيشه الذي كان جله من الخراسانيين، وقال:

«يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير (فما استطاعوا أن ينالوها[2]) ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا، وأذهبوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان لهم ذلك كله إلا فيهم، وبسبب خروجهم عليهم، فنفونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف، ومرة بالشأم ومرة بالشراة؛ حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان،

---

(١) انظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٧٤ وما بعدها، وقد عرض لاختلاف الناس في أمر الخلافة عرضا بديعا بأسلوبه الفقهي السجالي الفلسفي الرائع.

(٢) في النص الأصلي عند الطبري، عدَّد المنصور تجارب فشل العلويين في الخلافة مرة أخرى على نفس المنوال الذي أوضحناه في حاشية سابقة.

ودمغ بحقكم أهل الباطل، وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ، فَقَرَّ الحق مقره، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرَّت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلمًا وحسدًا منهم لنا، وبغيًا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه :

جهلًا عليَّ وجبنًا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة؛ بلغني عنهم بعض السقم والتعرم، وقد دسست لهم رجالًا فقلت: قم يا فلان، قم يا فلان فخذ معك من المال كذا، وحذوت لهم مثالًا يعملون عليه؛ فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم، وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج عليَّ؛ فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين»[1].

وهكذا استحيا محمد في نفوس أهل المدينة تاريخ الأنصار في نصرة النبي، كما استحيا أبو جعفر في نفوس الخراسانيين سابقتهم في نصرة الدولة، وفيما تحدَّث محمد عن حقِّ العلويين بالخلافة تحدَّث أبو جعفر عن حقِّ العباسيين في الخلافة، إضافة إلى الحديث الصريح الواضح عن فشل العلويين في الحصول على الخلافة دائمًا بل وإن فشلهم هذا قد عاد حتى على العباسيين بالضرر إذ تشتتوا في البلاد نتيجة خوف الخلفاء الأمويين منهم، وبهذا حسم أبو جعفر شرعية الخلافة على أنها عباسية على وجه الخصوص وليست هاشمية أو طالبية.

لقد كان هذا الحسم هو أدق وأخطر ما في الموضوع، فالخراسانيون الذين ثاروا إنما كانت ثورتهم لأهل البيت عموما لا للعباسيين، بل إن أغلب الظن أنهم توقعوا إمامًا علويًّا لا عباسيًّا يقود ثورتهم، ثم إنهم ثاروا على بني أمية وهم من غير آل البيت وقد وقعت منهم مظالم؛ أمَّا الآن فإن الخصم علوي من أحفاد علي وفاطمة ومن صميم آل البيت النبوي، كذلك فإنه لم يظهر منه شر ولا ظلم سابق.. كان لا بد من اجتهاد عباسي قوي ومقنع يجعل حقهم في الخلافة أثبت من حق العلويين، مع التركيز على أن العلويين هم من بدءوا بنكث

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٤، ٤٣٥.

البيعة والخروج على الخلافة. ومن هنا تحولت الشرعية لدى العباسيين من وصية أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي، إلى كونهم الأولى بوراثة النبي ، باعتبار أن العباس هو أولى أهل بيت النبي بوراثته لأنه عمه.

بعد استيلاء محمد على المدينة، أرسل سرية إلى مكة يقودها الحسن بن معاوية لأخذها، فخرج إليه زعيم أهل مكة السري بن عبد الله، فأخبرهم الحسن بن معاوية أن أبا جعفر قد مات، فأخبره السري أن ينتظر أربعة أيام حتى يتأكد الخبر فإن صحَّ ترك له مكة بل وتكلف بنفقة سريته في هذه الأيام، فرفض الحسن، ثم رفض كذلك ألا يُقاتِل في الحرم، وعزم أن تكون مكة في سلطته هذه الليلة، وبالفعل انتهك حرمة مكة ودخلها بعد قتال، فهكذا دخلت مكة في سلطة محمد بن عبد الله، وأرسل محمد إلى أهل الشام رسولًا يدعوهم للبيعة فلم يستجيبوا له[١].

والحق أن موقف محمد لم يكن بالحسن، فإن أهل المدينة أنفسهم لم يجتمعوا عليه وظل في داخل المدينة من رفض أن يبايعه، ومنهم من لزم بيته طوال فترة المواجهة، ومنهم من صارحه بأن وجوده في المدينة خطأ كبير إذ ليست المدينة ذات مال يُنفق في الحروب[٢].

وفي هذه الأثناء وصل إلى محمد كتاب من أخيه إبراهيم يخبره أنه قد ثار في البصرة - أيضًا- (رمضان ١٤٥هـ)، فزاد هذا في قوة محمد وأنصاره في المدينة، كما زاد هذا من تأزم وضع أبي جعفر في العراق[٣].. وسنأتي على هذا بتفصيل بعد قليل.

على الجهة الأخرى، وقبل ثورة إبراهيم في البصرة، أرسل أبو جعفر المنصور جيشًا بقيادة ولي العهد عيسى بن موسى وفيه صفوة من الأمراء منهم حميد بن قحطبة ومحمد بن أبي العباس السفاح، وكانت الخطَّة أن يمنعوا عن المدينة ما يأتيها من الأقوات من مصر والشام، وأن يُفَرِّقوا الناس ما استطاعوا عن محمد بن عبد الله بالأمان لَمَنْ تجنب القتال ولمن دخل داره ولمن انحاز للعباسيين[٤].

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٣/ ٩٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٣، ٤٣٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٧، ٤٣٨، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٩٣.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٦.
(٤) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤١.

وتورد الروايات ما يُستغرب من محمد في خطته لمواجهة الجيش القادم، فقد فَضَّل أن يقاتله داخل المدينة باعتبار أن النبي لما خرج من المدينة في غزوة أحد هُزِم جيشه وكان يفضل البقاء فيها!! ولمزيد من اتباع السنة (!!) فإنه قد حفر حول المدينة خندقًا! وقد كان هذا الذي فعله سببًا في إنجاح الحصار الذي فُرِض عليه بالإضافة إلى ما كان عنده من قلة المال، ثم إنه خطب في أنصاره من أهل المدينة -وكانوا مائة ألف- أنه يُحُلُّهم من بيعته فمن أراد أن ينسحب من القتال فله هذا، فسرت الهزيمة النفسية في الناس، وانسحب كثير منهم خارج المدينة مبتعدين عن القتال(١)! وساهم في مزيد من الانكسار عملية دبرتها أسماء بنت عبد الله بن عبيد الله بن العباس إذ أرسلت مواليها ينادون «الهزيمة.. الهزيمة»(٢).

لا نصدق أن هذا هو مبلغ فهم محمد بن عبد الله للاقتداء بالنبي ﷺ، وما نميل إليه هو أنه إنما فعل هذا كخطأ حربي حين ظن أن تخندقه في المدينة يُعْجِز الجيش العباسي عن دخولها، فيوفر هذا فرصة أفضل لثورة أخيه في البصرة، وقد جاءت في وقت عصيب على المنصور إذ لم يكن معه جيش آخر كما سيأتي بيانه؛ أمَّا أن يكون فعلها اقتداء فهذا ما لا يَكاد يُصَدَّق، فهل ظن مثلا أن الله سيرسل ريحا تقتلع خيام القوم وتكفأ قدورهم كما كان في غزوة الأحزاب؟!!

وفشلت جميع المحاولات التي بذلها عيسى بن موسى لدعوة محمد بن عبد الله إلى العودة للطاعة، وبذل له الأمان، وظلت الرسل بينهما ثلاثة أيام؛ هذا يدعو هذا إلى الطاعة وهذا يدعوه إلى الطاعة أيضًا، وفي النهاية استطاع العباسيون اقتحام الخندق بصناعة أحبال وجسور من الخشب عبروا عليها، ولم تنفع محمدًا بسالته أو شجاعته فانتهى قتيلا على يد حميد بن قحطبة، وحُمِلَ رأسه إلى المنصور (١٢ من رمضان ١٤٥هـ)(٣).

وعلى الرغم من الحرب فقد أَسِف عيسى بن موسى على مقتل محمد بن عبد الله، إذ لما وُضِع رأس محمد أمامه قال عيسى لَمَنْ حوله: ما تقولون فيه؟ فنال منه أقوام وتكلموا فيه، فقال رجل: كذبتم والله! لقد كان صوَّامًا قوَّامًا، ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصا المسلمين فقتلناه على ذلك، فسكتوا(٤).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٩.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١١١، ١١٢.
(٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٤٠ وما بعدها.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٤٧.

لم تكن المدينة موضعا مناسبا لتكون مركز الثورة وقاعدة القتال[1]، ولم يكن محمد -على مقامه وجلالته وبسالته وبطولته- شخصية زعامية، فقد ورد أنه كان يتلجلج في الكلام حتى ينطقه بعد صعوبة[2]، كما أنه اغتر حين ظن أن قادة العباسيين معه وأن أنصاره كُثُر فأعلن الثورة في حين لم يعلنها معه بلد آخر اللهم إلا أخوه بالبصرة، ثم إنه حصر نفسه في المدينة حتى تفرق الناس من حوله.

هكذا انتهت ثورة محمد بن عبد الله في المدينة، في صورة شابهت نهاية عبد الله بن الزبير في مكة، وبهذا كان المنصور -كما يقول السيوطي- «أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا قبل شيئًا واحدًا، وآذى المنصور خلقا من العلماء ممن خرج معهما أو أمر بالخروج قتلًا وضربًا وغير ذلك: منهم أبو حنيفة وعبد الحميد بن جعفر وابن عجلان وممن أفتى بجواز الخروج مع محمد على المنصور مالك بن أنس رحمه الله»[3].

إلا أن عيسى بن موسى لم يكد ينتهي حتى جاءته رسالة من أبي جعفر تأمره أن يحضر بجيشه فورا إلى العراق!

ثورة إبراهيم بن عبد الله في البصرة

كان إبراهيم مرافقًا لأخيه محمد قبل أن يثورا، غير أن إبراهيم استقرَّ في البصرة في آخر سنة (١٤٣هـ)، أو في (١٤٤هـ)، بعد رحلة اختفاء ومطاردة طويلة من المنصور، وفي البصرة بدأ دعوته ضد العباسيين فاجتمع له عدد من أهل البصرة ومن شيوخها، وساعدوه في الدعوة حتى اشتدت وقويت، ثم ما لبث أن وصله خبر ثورة أخيه في المدينة مما حثه على تعجيل إعلان الثورة من البصرة (غرة رمضان ١٤٥هـ)، وخشي إن هو تأخر أن يتسرب خبره إلى المنصور فيؤخذ على حين غفلة[4].

والبصرة تحديدا كانت أنسب الأماكن لثورة علوية، وهذا ما يشرحه مستشار المنصور جعفر بن حنظلة البهراني في قوله بأن أهل المدينة «ليسوا بأهل حرب، بحسبهم أن يقيموا

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٤.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٨، والأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص٢١٤.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص١٩٤.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٣/ ١٢٢، ١٢٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٦١ وما بعدها.

شأن أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك[١]، وأهل الشام أعداء آل أبي طالب[٢] فلم يبقَ إلا البصرة»[٣].

ثم أشار المستشارون على المنصور بأن يعبئ ما بقي من جنده في منطقة الأهواز التي تمثل المفتاح إلى البصرة وعمقها الاستراتيجي برِّيًّا، وحاصرها المنصور بحريا كذلك عبر الهجوم على القواقل التي يتوقع أنها منحدرة من الموصل إلى البصرة[٤].

(١) أي تحت سيطرة الخليفة، وقد ذكرنا من قبل أن المنصور قد سارع بالنزول في الكوفة ليمنع امتداد ثورة محمد النفس الزكية إليها.
(٢) منذ الخلاف بين علي ومعاوية (رضي الله عنهما) وأهل الشام أقرب إلى الأمويين وأميل إليهم من العلويين.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٦٥، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٣/ ٥٦٨.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٦٥، ٤٦٧.

كان أكثر ما ساعد إبراهيمَ أن والي البصرة نفسه وهو سفيان بن معاوية كان من المنحازين لدعوة إبراهيم، فكان يغض الطرف عنه ويُهَوِّن من أمره كلما جاءه خبر بخصوص إبراهيم ودعوته، واستمرت الوفود تأتي من المناطق لمبايعة إبراهيم فيزداد أمره قوة، ثم كانت المفاجأة حين وصل إلى سفيان بن معاوية سريتان من قِبل المنصور لمواجهة الثورة، فأفضى سفيان بخبرهما إلى إبراهيم فهاجمهما ليلا عن غير استعداد فحصل على ما كان فيهما من عُدَد وأقوات، ثم أعلن الثورة (أول رمضان ١٤٥هـ)، وحاصر قصر الإمارة؛ حتى طلب سفيان بن معاوية الأمان فأعطاه له ثم سجنه لإخفاء ما كان بينهما من تعاون على العباسيين. وحصل على كل ما كان في بيت المال فزاد بذلك قوة[١]!

جاءت هذه الثورة في وقت عصيب على المنصور، إذ لم يكن عنده جيش يمكنه أن يوجهه إلى البصرة، فجيوشه موزعة بين الريّ لدى ابنه المهدي لمواجهة أحوال خراسان المضطربة، وبين الشمال الإفريقي لدى محمد بن الأشعث لمواجهة اضطرابات المغرب التي سيأتي الحديث عنها، وبين الحجاز مع عيسى بن موسى لمواجهة ثورة محمد النفس الزكية، ولم يبقَ مع المنصور سوى ألفي فارس، وما إن انتهى أمر محمد في المدينة حتى أمر المنصور ولي عهده عيسى بن موسى بالقدوم فورا إلى العراق.. لكنه تعلم درسا قويا وعزم ألا يُخلي العاصمة من جيش كبير أبدًا[٢].

استعمل المنصور أبلغ درجات الشدة والحزم في إنهاء هذه الثورة، فما كان يسمع عن رجل في الكوفة على الولاء لإبراهيم حتى يرسل إليه من يغتاله في بيته[٣]؛ ولهذا فشلت محاولات أنصار إبراهيم من الثورة في الكوفة، كما وضع المنصور كمائن على طريق البصرة تترصد كل من يأتي لمبايعة إبراهيم فيقتلهم وينصب رءوسهم بالكوفة ليتعظ بها الناس!

كان نزول المنصور بالكوفة خطوة جريئة ومغامرة أيضًا، فهي إن نجحت ومنعت أهل الكوفة من الثورة كانت موقعًا ممتازًا لإخماد الثورة وتحريك الجيوش منها والبقاء على مقربة من أرض القتال؛ أمَّا إن فشلت واستطاع إبراهيم اقتحام الكوفة في ظلِّ عدم وجود جيوش

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٤، والبلاذري: أنساب الأشراف ٣/ ١٢٣، ١٢٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٦٧ وما بعدها.

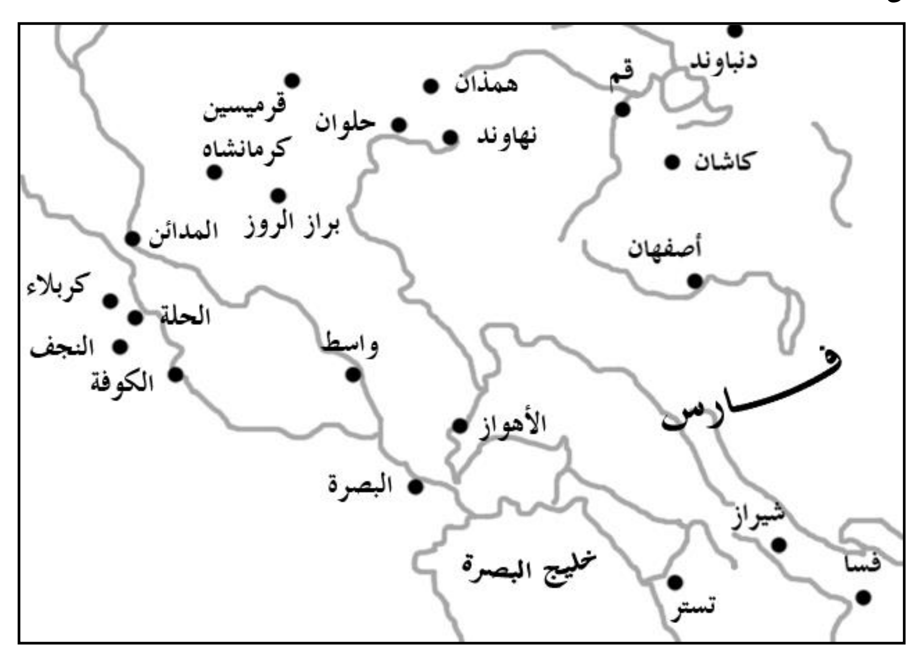
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧١، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٣/ ٤٢١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٦٦، والأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص٢٧٦.

عباسية إلى جوار المنصور أو ثار أهل الكوفة وكانوا مقدمة لجيش إبراهيم فلن يجد المنصور أمامه إلَّا أن ينسحب منها بأسرع ما يمكنه وإلا سيُقتل! فهو بين قتل ينهي دولة العباسيين وينقلها إلى العلويين أو انسحاب سيكون هزيمة فارقة!

وقد نُصِح إبراهيم أن يُسرب إلى الكوفة من يدعو إليه سرا ثم يجهر ليثور معه الكوفيون لكنه خشي على أهل الكوفة من مقتلة يوقعها بهم المنصور فلم يأخذ بهذا الرأي[1].. فبقيت الكوفة ساكنة والمنصور مستقرا فيها.

وفي البصرة انتصر إبراهيم على من بقي من أتباع المنصور وأهله، وأرسل جيشًا إلى الأهواز فانتصر على والي المنصور فيها واستولى عليها، ثم استولى على فارس وواسط والمدائن[2].



بقي المنصور في هذا الكرب منشغلا به حتى اتسخت الثياب التي يلبسها وهجر زوجاته؛ حتى قيل له: إن نساءك قد خبثت نفسهن لغيبتك عنهن، فانتهر القائل وقال: ويحك ليست هذه أيام نساء؛ حتى أرى رأس إبراهيم بين يدي، أو يحمل رأسي إليه، وكان من شدة

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٤.

(٢) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ١٢٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٦٩، والمسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٩٥.

الهم يتعثر حتى في الكلام، إلَّا أنَّ هذا لم يمنعه من متابعة التصرف والإعداد والمثابرة على معالجة الأمور(١).

استدعى المنصور سرية مرابطة في الجزيرة الفراتية لمواجهة الخوارج بقيادة حرب الراوندي، فتصدى لها في الطريق بعض أنصار إبراهيم وجرت بينهم معركة انتصر فيها حرب، فكان أول خبر سعيد أتى للمنصور في هذه الثورة.

ثم لم يلبث أن جاء الخبر بانتصار عيسى بن موسى ومقتل محمد بن عبد الله، وهو الخبر الكبير الذي ساهم كثيرًا في انقلاب الأحوال في العراق، إذ كان زلزالا قويا نزل بإبراهيم حتى روى عمن رآه أنه قال: «نظرت إلى الموت في وجه إبراهيم»، ثم تحرك إبراهيم بجيش كبير من البصرة بعد تأخر ضيَّع لحظات ثمينة فارقة وصل فيها جيش عيسى بن موسى قادما من المدينة، فوجهه المنصور لحرب إبراهيم، كما أرسل المنصور إلى ابنه أن يُوَجِّه جيشًا بقيادة خازم بن خزيمة إلى الأهواز؛ فأعادها إلى سلطة العباسيين، ووجه السرايا إلى المدن التي بايعت إبراهيم لاستردادها(٢).

وعلى مقربة من الكوفة عسكر جيش إبراهيم، ثم كَرَّر سيرة أخيه في الأخطاء العسكرية، فقد اقترح عليه بعض أصحابه أن يقسم جيشه الكبير إلى قسمين، فقسم منهم يواجه جيش عيسى وقسم ينطلق إلى المنصور الذي ليس معه جنود يدافعون عنه، إلا أنه انحاز لرأي يقول بأن نفرغ أولًا من جيش عيسى وساعتها سيكون المنصور في حكم المنتهي، كذلك رفض اقتراحا بأن يجعل الجيش كتائب تلي بعضها بعضا فإن هزمت كتيبة وثانية وثالثة فلا يكاد جيش عيسى يتمكن من مواصلة القتال مع الباقي، وفَضَّل على ذلك القتال في صفوف امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾ [الصف: ٤](٣).

ونكرر لمرة أخرى أن هذه أخطاء حربية، ولا نصدق أن هذا الفهم الضيق الحرفي للقرآن والسنة هو مبلغ رجال من كبار آل البيت كمحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم.

ثم التقى الجيشان، ودار قتال شديد، انهزمت فيه مقدمة جيش العباسيين التي قادها حميد بن

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٣/ ١١٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧١، ٤٧٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٤.

قحطبة، ثم انهزم فيه الجيش العباسي نفسه، لولا أن صمود وبسالة عيسى بن موسى وثباته في المعركة مع مائة رجل من أهله، قد كسر اندفاعة جيش إبراهيم؛ بل ووفَّر الفرصة لِمَنِ انسحب أن يعود مرة أخرى، ثم انقلبت الأحوال لصالح جيش موسى بن عيسى، ولم تنفع إبراهيم بسالته ولا ثباته مع الخمسمائة الذين معه فقاتلوا حتى قُتِلوا (في ذي القعدة أو ذي الحجة ١٤٥هـ)(١).

وانفرج الكرب عن أبي جعفر المنصور الذي ما إن وصل إليه رأس إبراهيم حتى تمثل بقول الشاعر:

فألقت عصاها واستقرَّ بها النوى ... كما قَرَّ عينا بالإياب المسافر(٢)

على أن فرحه لنفسه لم يمنعه من الحزن على ابن عمه، بل إنه بكاه وسالت دموعه وهو يقول: والله لقد كنت لهذا كارهًا، ولكنك ابتليت بي وابتليت بك. وكان حاله مع إبراهيم كما كان حال عيسى مع محمد من قبل؛ إذ لما أقبل الناس يهنئونه وينالون من إبراهيم صار لا يرد عليهم ولا يلتفت حتى دخل عليه جعفر بن حنظلة البهراني فقال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فَرَّط فيه من حقك، فأقبل عليه المنصور وقال: يا أبا خالد مرحبا وأهلا، ههنا فاجلس. فعلم الناس أن ذلك وقع منه موقعًا جيدًا، فكان الناس بعدها يقولون كما قال جعفر بن حنظلة، وفيما بعد شتم رجلٌ إبراهيم في حضرة المنصور فشتمه المنصور وأساء إليه(٣).

ولاية العهد ونهاية عبد الله بن علي

لا تذكر الروايات المتقدِّمة الموثوقة شيئًا عن تفاصيل نهاية عبد الله بن علي، والرواية المتداولة في هذا الشأن رواية في غاية الضعف ذكرها الطبري بإسناد منقطع وفيه مجهول، وخلاصتها أن أبا جعفر عزم على الحج (١٤٧هـ) فعهد إلى ولي عهده عيسى بن موسى أن يقتل عمه عبد الله بن علي وأَكَّد عليه في ذلك، إلَّا أنَّ بعض ناصحي عيسى فطن لحيلة المنصور من أنه يريد من وراء ذلك أن يتخلص من ولي عهده بالقصاص، فَنَصح عيسى بأن يُظهر أنه قتل عبد الله فعلًا، وحين عاد المنصور من الحج وتأكد من مقتل عبد الله بن علي سعى في أن يتشفع آل بيته في عمه عبد الله بن علي حتى أظهر أنه رَقَّ له وعفا عنه، ومن ثَمَّ طالب به عيسى بن موسى الذي قال في مشهد من

---

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ١٢٩، وابن قتيبة: المعارف ص٣٧٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٤ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٦، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٨٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٦، ٤٧٧، ٥٨٧.

عمومته وأهل بيته بأن أبا جعفر أمره بقتله، فأنكر أبو جعفر، وأقسم على أنه لم يأمره بالقتل، ثم قرر أن يقتص منه، فعند ذلك أظهر عيسى عمه عبد الله بن علي فبطل تدبير المنصور. إلا أنه أخذ عبد الله بن علي فسجنه في بيت أساسه من الملح ثم أطلق الماء على هذا الأساس فذاب الملح فسقط البيت على عبد الله فمات[1]!

وقد كان يكفي أن تُرَدَّ هذه الرواية لإسنادها المتهالك، فكيف إذا جمعت إليه هذا المتن الغريب لا سيما قصة هذا البيت الذي أساسه من الملح؟!!

لكن الجزء المعقول منه، وهو الأقرب للصحَّة، أن أبا جعفر قتل عمه عبد الله بن علي بهدم البيت الذي كان فيه، ومن أطرف ما يروى في هذا أن «المنصور قال لابن عياش المنتوف- وكان له انبساط على المنصور- على طريق المزاح: تعرف ثلاثة أول أسمائهم عين، قتلوا ثلاثة أوائل أسمائهم عين؟ قال: نعم، عبد الرحمن قتل علي بن أبي طالب، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير، ووقع البيت على عمك عبد الله»[2]، وهو تصريح بأن المنصور قتله وفي حضرة المنصور.

أما لماذا أَخَّر قتله إلى هذه السنة بعد عشر سنوات من حكمه؟ فربما أراد بذلك الحفاظ على وحدة آل بيته في أول عهده حتى إذا استقرَّت له الأمور وتوحدت الخلافة كان سهلا أن ينفذ هذا الجزاء الآن.. والله أعلم بالأحوال والنوايا والتفاصيل، على أن قتل عبد الله بن علي كان في حد ذاته دليلًا على أن الدولة لا تتسامح في أي خروج عليها من أحد مهما كان نسبه وسابقته.

لكن العظة والعبرة في حياة عبد الله بن علي، ذلك الرجل الذي هو مثال للمظلوم الذي يستبطن نفسية الظالم؛ حتى إذا جاءته الفرصة كان مثله أو أشد! لقد كانت حياة الرجل كلها خوفًا ومطاردة وتربصًا واستخفاء من الأمويين، فما إن انتقل إلى السلطان حتى كان طاغية سفاحا أذل الشاميين ونفذ مذابح للأمويين بعد أن أَمَّنهم ثم غدر بهم، فما هي إلا أربع سنوات فحسب حتى نزلت به عاقبة ظلمه وراح ضحية الصراع على السلطة وانتقل من السلطة إلى المطاردة مرة أخرى، ولكن هذه المرة هو مطارد من ابن أخيه.. من السلطة التي كان من مؤسسيها ورجالها، وبقي محبوسا ما بقي له من عمره حتى قُتِل..

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٨٢.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١١٢، وابن الجوزي: المنتظم ٨/ ١٠٨.

ألا إن التاريخ ينادي.. هل من معتبر؟!

ثم طلب المنصور (١٤٧هـ) من ولي عهده عيسى بن موسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد لمحمد (المهدي) بن المنصور، وقد نزل عيسى بن موسى عن ولاية العهد، وأعلن أبو جعفر هذا وبايع الناس لمحمد وليا للعهد في ربيع الأول من هذه السنة، «وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقًا وغربًا، وبعدًا وقربًا»[١]، وصار عيسى بن موسى ولي العهد من بعد محمد بن المنصور.

وقد ذكر الطبري أخبارا طويلة ومختلفة في سبب هذه البيعة وذلك الخلع، ولم يصح منها خبر، ولم نجد ما يؤيد تلك الأخبار عند الأئمة الثقات من المؤرِّخين الذين سبقوا الطبري أو عاصروه[٢]، وهذه الروايات إما أنها تتهم أبا جعفر بالغدر والنكث والمؤامرة على عيسى بن موسى وإكراهه على التنازل عن ولاية العهد حتى حصل على ما أراد، أو أنها تتهم عيسى بأنه لقلة علمه بقدر الخلافة وافق على التنازل عن ولاية العهد مقابل عشرة ملايين درهم، وكلاهما أمر لا نقبله من روايات لم يتوفر لها الحد الأدنى من الصحَّة!

على أن التدبر في الأمر بما نعرف عن شخصيات هذا العهد لا تجعل عيسى بن موسى ممن لا يعرف قدر الخلافة وهو ولي العهد والفارس المحارب والملازم للمنصور، كما لا يمكن أن نستبعد دافع حب الوالد لابنه لدى المنصور، إلَّا أنَّ مجرَّد الحبِّ والرغبة لا يبدو كافيًا إزاء شخصية المنصور القوية؛ التي أنفقت العمر كله، ولاقت الأهوال، وتعرَّضت للمنايا في سبيل تحويل الحلم إلى دولة، والدولة إلى دولة قوية مستقرَّة، فما نظن أن المنصور فكر في صرف ولاية العهد إلى ولده إلا لأنه رآه أهلا لذلك، وربما أكثر من عيسى بن موسى.

ووجهة النظر هذه تستأنس -بغير اعتماد ولا قبول- بالروايات الضعيفة المتهالكة الواردة في خلع عيسى بن موسى، إذ لم يُبْدِ مقاومة صلبة في التمسك بحقه، بل كان غاية ما فعله مع المنصور ثم مع المهدي هو الصبر على الأذى وتحمل الإهانة وتجنب اللقاء والمواجهة، وليس ثمة من يدعمه من البيت العباسي أو يقف معه، وهو لم يحاول الخروج أو الثورة.. إن هذا يوحي بأنه لم يكن شخصية مُبَادِرة أو خبيرة بإدارة المعركة السياسية، أو على الأقل لم يكن

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١١١.
(٢) محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٥/ ٩٦ (قسم الصحيح)، ١١/ ٥ -١٩ (قسم الضعيف والمسكوت عنه).

ذا شعبية أو أنصار في داخل البيت العباسي على الأقل فضلًا عن أنصار العباسيين(١)، مما جعل جعل المصلحة لدى المنصور تقتضي أن يؤخره لصالح ابنه المهدي الذي هو أقدر منه وأكفأ.. ولمرة أخرى نؤكد على أن ضعف شخصية عيسى بن موسى هو ما يُستفاد من الروايات الضعيفة وأنه استنتاج لا يقف على أرض صلبة، ولربما يكون قد تنازل طوعا أو بعد قليل مقاومة إيثارا لمصلحة المسلمين ولوحدة البيت العباسي وحفاظا على الخلافة.. فالله أعلم!

ولا ريب في أن المنصور لم ينس كيف انفلت عقد بني أمية حين خرجت الخلافة من بيت إلى بيت آخر، حدث ذلك عند انتقال الخلافة من بيت عبد الملك بن مروان إلى بيت عبد العزيز بن مروان حين انتقلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز الذي وإن كان قد أمسك الخلافة بعزم ورشد إلا أنه لم يسلم من تآمر الكارهين من الأمويين حتى وُضِع له السمُّ، وذلك في وقت كان بنو أمية ما يزالون في أوج قوتهم، فلما تكرر هذا بعد ربع قرن وانتقلت الخلافة إلى مروان بن محمد جاءت النهاية التي كان انشقاق البيت الأموي من أهمِّ أسبابها.

لهذا نتوقع أن المنصور كان من أهدافه الحفاظ على وحدة البيت العباسي من خلال إقرار الخلافة في ولده، إلَّا أنَّ المنصور فتح بهذه الطريقة باب خلع ولي العهد والذي جَرَّ على الدولة أضرارا فيما بعد وإن كان قد حفظها لبعض الوقت في مرحلة مهمَّة من تاريخها.

حركات التمرد

مؤسسو الدول أكثر الناس مواجهة للثورات والتمردات والحركات المناوئة، وعظمتهم بالأساس نابعة من قدرتهم على مواجهة هذه الأعباء باقتدار والخروج منها أقوى مما كان حالهم حين الدخول فيها، ولذا تكون محصلة حياتهم تغيير الخريطة القائمة كلها وإنتاج وضع جديد!

وفي مثل هذه الظروف يكون التحقيق التاريخي للمواقف في غاية الصعوبة، فالذي يؤسس الدولة يختلط لديه مصلحة الأُمَّة بمصلحة الدولة بمصلحته الشخصية فتكون النتيجة العملية واحدة، وكذلك حركات التمرد فمنها ما يكون طلبًا للحق والإصلاح ومنها

---

(١) بل تورد هذه الروايات رفضهم له وكراهيتهم لبقائه وليا للعهد، الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٣، ومحمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ١١/ ٩١ (قسم الضعيف والمسكوت عنه).
ويزيد في تأكيد هذا ما سيقوله المأمون –أو وزيره الفضل بن سهل– بعد حوالي نصف قرن من هذه الواقعة من أن عيسى بن موسى كان كالأسير لا أنصار له، أو أنه كان مكروها. انظر: الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٤٤.

ما يكون دفاعًا عن الوضع القديم وتمسُّكًا بالمصالح النافذة؛ ولكنه يلبس في الغالب ثوب طلب الحق والإصلاح، وفي غالب هذه الأحوال تفشل السياسة في حل المشكلة؛ إذ إن طرفي الصراع يعلمون أن المعركة بينهما صِفْرية، بمعنى أن بقاء أحدهما يعني نهاية الآخر، فتبدو الدولة في أشد حالاتها صرامة وقسوة، وتظهر الحركات الثائرة أقصى ما لديها من البسالة والصمود.

وهذه الحركات التي نناقشها في هذا المبحث هي حركات تمرُّد في الأطراف واجهها المنصور من موقعه في الدولة كخليفة يستقر به الحال، فهي لم تشكل تهديدًا حقيقيًّا على الدولة كما كان الحال مع أبي مسلم أو ثورة محمد النفس الزكية أو حركة الراوندية، فإن هذه الثورات لو نجحت لقلبت الأوضاع تمامًا ولصنعت تاريخًا جديدًا، بينما كان أقصى ما تستطيع أن تفعله حركات التمرد التي نناقشها الآن أن تثير التوتر في ناحيتها وأن يطول بها الأمر ثم ستجد في النهاية مصيرها المحتوم، ذلك أنها لم تطرح مشروع دولة، ولم يكن لها من القادة والأنصار والإمكانات ما يهيئها لأن تكون بديلا عن الدولة القائمة، وبعضها حركات احتجاج وقتية تطورت لظرف أو آخر ليس أكثر.

واجه المنصور أربعة أنواع من الخصوم: العلويين، الفرس، الخوارج، حركات احتجاجية صغيرة. فأما العلويون فقد عرضنا لأمرهم من قبل في ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم المحض، وأما الفرس فقد عرضنا لأمرهم فيما بعد مقتل أبي مسلم الخراساني لترابط الموضوع، وأما الخوارج والاحتجاجات الأخرى فهي ما نعرض له في السطور القادمة.

١- حركات الخوارج

أولاً: تمرُّد الملبد بن حرملة الشيباني

في العام (١٣٧هـ) دخلت ثورة أخرى على الخط، كان مركزها في الجزيرة الفراتية، قادها أحد الخوارج وهو ملبد بن حرملة الشيباني، هذه الثورة لم يكفها جيش واحد على الرغم من أن الثائرين لا يزيدون عن ألف فقط، وكلما جاءهم جيش عباسي انهزم أمامهم؛ حتى اضطر حميد بن قحطبة نائب الجزيرة إلى أن يقاتلهم بنفسه غير أنه هُزِم أيضًا، وانسحب إلى بعض الحصون وظلَّ مُحاصرًا يبحث عن وسيلة، فلم يستطع أن يفعل شيئًا إلَّا أن يدفع مائة ألف لملبد نظير فك الحصار وهو ما كان. ثم أرسل المنصور جيشًا بقيادة الفارس الكبير خازم بن

خزيمة قوامه ثمانية آلاف، خاضوا المعركة الفاصلة مع ملبد فتم لهم النصر، وقُتل الملبد (١٣٨هـ)[١]، وانتهت بذلك ثورة عجيبة، جاءت في وقت غير متوقع، وحققت انتصارات غير متوقعة، وظلت كالشوكة في خاصرة الخلافة!

ثانيًا: تمرُّد عطية بن بعثر التغلبي

وقد بدأ تمرده من الموصل بمائة رجل فقط، وخرج يريد أن يستحوذ على أموال للخلافة يتجمع في السوس، فوقع اشتباك بين رجل من الخوارج ورجل من أهل السوس فنفذ عطية مقتلة في أهل السوس، ثم هزم واليها وقتل من أصحابه أكثر من مائتين، فأرسل المنصور جيشًا بقيادة أبي حميد المروزذي فسحقهم جميعًا[٢].

ثالثًا: تمرُّد حسان بن غسان الهمداني

وقد بدأ هذا الخارجي تمرده بقتل قوم في الطريق إلى مكة، وسريعًا أرسل المنصور جيشًا من سبعة آلاف يقودهم جميل بن عبيد الله الضبي فظل يطاردهم وهم ينسحبون أمامه حتى دخلوا بلاد أذربيجان، واستنكر المنصور على واليه سعيد الحرشي مرور حسان في أراضيه دون أن يحاربه، وظلت المطاردة حتى أدرك جميلٌ الخوارج فهزموهم وهرب حسان منسحبا وقاتل في انسحابه الوالي سعيد الحرشي وقتله، ثم اتجه إلى نصيبين[٣]، وهناك أرسل إليه المنصور أربعة آلاف آخرين يقودهم أبو قرة فانسحب من أمامهم أيضًا، ثم انتهى أمره وتمرده[٤].

رابعًا: خوارج فارس وكرمان وسجستان

كان العرب أغلب الخوارج في فارس وسجستان منذ نهاية العصر الأموي، ذلك أن المطاردات الأموية قد أنهكتهم وحولت مواقعهم من العراق والجزيرة الفراتية إلى الشرق في فارس وما بعدها، وعلى الرغم من أنهم غرباء عن السكان المحليين؛ فإن مقاومتهم للأمويين ومن بعدهم للعباسيين جعلت منهم عنصرًا محبوبًا من قِبَل المعارضين لحكم العرب أنفسهم، لا سيما وأن فكر الخوارج قائم على أن الخلافة لا تنحصر في بيت معين ولا حتى في العرب، فكانت هذه الأفكار تفسح لهم مجال الانتشار وتفتح لهم قلوب الناس، وتعطي الفرصة لكلِّ

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٨٨.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٥٠، ٢٥١.
(٣) قرية تركية، وهي بحذاء بلدة القامشلي السورية حتى كأنهما متصلتان، ليس بينهما إلا خط الحدود الفاصل.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٥١.

معارض للتنفيس عما في صدره من آمال وآلام مكبوتة أو صعبة التحقيق لسبب أو لآخر[1].

وحين استفحل الأمر أرسل المنصور إلى معن بن زائدة الشيباني -والي اليمن- ليوليه على خراسان (١٥١هـ)، وعلى الرغم من أن معن بن زائدة كان شيخًا كبيرًا في ذلك الوقت؛ فإنه نفذ حملات عسكرية في غاية القوة والقسوة حتى ليمكن القول بأنه أباد الخوارج تمامًا في فارس وخراسان وسجستان، وأساء السيرة «ونال الناس منه كل بلاء»[2]، وأيقن الخوارج أنه لا جدوي من مواجهة حملاته العسكرية فدبروا لاغتياله ونجحوا في هذا وقتلوه[3].

فخلفه في الولاية ابن أخيه يزيد بن مزيد الشيباني الذي هو نسخة أخرى في البأس والقوة من عمه، وشنَّ الحملات العسكرية على الخوارج بأشد وأقوى وأقسى من حملات عمه «فقتل من الخوارج خلقًا عظيمًا حتى جرت دماؤهم كالنهر»[4]، وكعمه -أيضًا- لم يصلح معه القتال فدبروا حيلة عليه بأن زوروا رسالة بخطه إلى المنصور يتضجر فيها من كون المهدي -نائب الشرق وابن الخليفة- رئيسًا عليه، ونجحت هذه الخطَّة في استثارة غضب المنصور والمهدي فهي توحي ببوادر العصيان والاستقلال، فعزله المنصور وحبسه ولم يزل في الحبس لفترة[5].

ولئن كان نشاط الخوارج قد تأثر كثيرًا واختفى لبعض الوقت؛ إلَّا أنَّ سجستان ظلَّت معقلًا من معاقل الخوارج لمدة طويلة فيما بعد.

٢- حركات احتجاجية

أولاً: حركة العبيد بعد ثورة النفس الزكية

بعد القضاء على ثورة محمد النفس الزكية، تولى المدينة عبد الله بن الربيع فوصلها (٢٥ من شوال ١٤٥هـ)، وفيما يبدو فقد وصلها ممتلئًا بالاستعلاء والكِبْر، وأراد تنفيذ حملة تأديبية لمعاقبة أهل المدينة على خروجهم على الخليفة، أراد بها كسر نفوس أهل المدينة.

لهذا فقد أخذ جنوده يفسدون في المدينة ويعتدون على أهلها، فهذا أحدهم اشترى شيئًا

(١) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ١/ ١٠٤.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص١١٣.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٣٨، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١١٨، ١١٩.
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١١٨.
(٥) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٤٩٥.

دون أن يدفع ثمنه وسلَّ سيفه في وجه التاجر، فذهب وفد من أهل المدينة يشكون هذا إلى الوالي ابن الربيع فنهرهم وشتمهم ولم ينظر في شكواهم، فزاد بهذا فساد الجنود، فما هو إلا قليل حتى نهب الجند المزيد من بضائع السوق، ثم اعتدى أحدهم على أموال رجل من الصرافين لكن الأخير استغاث بالناس فضربوهم حتى استخلصوا منهم ما نهبوه من أموال، واشترى أحدهم لحما من جزار ثم أبى أن يدفع ثمنه فطعنه الجزار ثم انقض عليه الجزارون فقتلوه[1].

فسرت أزمة تذمر في المدينة قادها طرف جديد تمامًا لم يظهر من قبل على مسرح الأحداث، أولئك هم العبيد الأفارقة الذين تعصبوا لمواليهم، فانتفضوا (في ذي الحجة ١٤٥هـ) ونفذوا عمليات اغتيال وقتل واسعة لجنود عبد الله بن الربيع وصاروا يترصدونهم في الطرقات، وتدل الروايات على أنهم كانوا طبقة متماسكة بينهم وسائل تفاهم خاصة مثل البوق، فما كان الرجل منهم يسمع صوت البوق حتى ينطلق حاملا معه ما استطاع من سلاح أو عصا نحو صوت البوق ليشارك في هذا الكفاح، وسبب هذا أزمة بالغة للوالي الجديد عبد الله بن الربيع الذي لم يتوقع شيئًا كهذا، ثم أدى به جنونه ذات يوم إلى أن يقتل خمسة مساكين فقراء كانوا يسألون الناس على طريق المسجد، وقتل ناسا ظنا منه أنهم مشاركون في هذا التمرد بعد أن أعطاهم الأمان، فاشتدت حركة رفضه واشتعلت، وكان أولئك العبيد يتفانون -على الرغم من أنهم تقريبًا عُزَّل- في قتال الجند وقتلهم حتى وصفوا بأنهم «سحرة أو شياطين»! ثم لم يجد ابن الربيع إلا الهرب من المدينة فانطلق خارجا منها ونزل في «بطن نخل» على بعد ليلتين من المدينة[2].

وصارت المدينة بلا والٍ، ونهب الأفارقة ما وجدوه من بضائع تابعة للخليفة فباعوها في المدينة، وأخرجوا أبا بكر بن أبي سبرة من السجن -وكان قد حُبِس لأنه ساعد محمد النفس الزكية في ثورته- ليكون واليًا على المدينة، فتولى الأمر بشكل مؤقت ولكنه أدار مع أعيان المدينة وأشرافها خطَّة لتهدئة العبيد لأن اشتعال ثورتين من المدينة قد يكون فيه الخطر الشديد عليها من قِبَل العباسيين، فكلم أهل المدينة العبيد وسعوا في تهدئتهم فقالوا: «يا مرحبا بكم يا

(١) الزبير بن بكار: نسب قريش ص٤٢٦، والبلاذري: أنساب الأشراف ٣/ ١٢٠، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٥٤، ٤٥٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٥٥.

موالينا والله ما قمنا إلا أنفة لكم مما عمل بكم، فأيدينا مع أيديكم وأمرنا إليكم فأقبلوا بهم إلى المسجد» وهناك خطب فيهم أبو بكر بن أبي سبرة على التهدئة والسكون وإنهاء هذه الحركة، فتم الأمر، وعادت المدينة إلى سلطة العباسيين[١].

ثانيًا: بوادر تمرُّد في اليمن

واليمن -لبعدها الجغرافي- لها خصوصية في حركات التمرد، فحركات التمرد من هناك لا خطر منها إلا حين تستفحل وتبدأ في مهاجمة مكة والمدينة، فيكون أمام الخليفة وقت لمعالجة الموضوع لكن كل وقت يمضي كان يعني استفحال التمرد أكثر.

علم المنصور أن والي اليمن يهم بالعصيان، وظل أمر اليمن يشغل بال المنصور وليس يجد له رجلًا أهلًا له حتى صار معن بن زائدة الشيباني من رجاله بعد أن كان سابقا من رجال بني أمية، وقد أبلى معن بلاء حسنًا مع المنصور في مواجهة الراوندية، فاستدعاه المنصور وقال: «يا معن إن لي باليمن هنَّات... إن صاحب اليمن قد هم بمعصيتي وإني أريد أن آخذه أسيرًا ولا يفوتني شيء من ماله فما ترى؟ فقال معن: يا أمير المؤمنين ولني اليمن وأظهر أنك ضممتني إليه ومر الربيع يزيح علتي في كل ما أحتاج إليه[٢] ويخرجني من يومي هذا لئلا ينتشر الخبر»، وبسرعة نفذ المنصور طلبه وأمر بتسهيل الأحوال له، فخرج معن (١٤٢هـ) حتى أتى صاحب اليمن ثم قبض عليه وأرسله أسيرًا[٣]، فتحقق هدف المنصور في منع استقلال اليمن دون أن يخسر مالا أو يتكلف حربا.

ثم توترت العلاقة بين المنصور ومعن بن زائدة، فإن معن كان جوادا كريمًا من مشاهير الناس في العطاء[٤]، وقد أنفق كثيرًا من الأموال في استرضاء أهل اليمن وتثبيت أمرها، وهذا على عكس سياسة المنصور المالية المتقشِّفة، غير أن معنًا أرسل وفدًا إلى المنصور يشرح له حقيقة الأوضاع، وإنه لم يكُ مسرفًا، ولم يُنفق إلا في مصلحة، وكان الوفد على مستوى المهمَّة فقبل المنصور أعذاره وأقره على عمله[٥].

---

(١) الزبير بن بكار: نسب قريش ص٤٢٦، والبلاذري: أنساب الأشراف ٣/ ١٢٠، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٥٥ وما بعدها.
(٢) أي تسهيل الأحوال وإزالة العقبات في كل ما يحتاجه.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١٩.
(٤) ابن قتيبة: المعارف ص٤١٣.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١٩، ٥٢٠.

جبهة المغرب

شهدت الجبهة المغربية على عهد المنصور عدة ثورات للخوارج الإباضيين[١] والصفريين[٢]، على موجتين، وعادة ما كان يتولى والي مصر أمر هذه الثورات، فإن قُتِل أو أخفق استبدله المنصور بغيره.

١- تمرُّد الخوارج وهزيمتهم

وكانت البداية حين استطاع عاصم بن جميل الخارجي هزيمة حبيب بن عبد الرحمن الفهري والي القيروان (١٣٩هـ)[٣]، واستطاع بهذه الهزيمة دخول القيروان وتنصيب والٍ عليها من قِبَله وهو عبد الملك بن أبي الجعد، وعلى الرغم من أن استمرار القتال أدى إلى نصر حبيب ومقتل عاصم بن جميل؛ فإن حبيب بن عبد الرحمن لم يستطع دخول القيروان مرة أخرى؛ بل هُزِم وقُتِل على يد عبد الملك بن أبي الجعد، وبهذا صارت منطقة المغرب في يد الخوارج الصفرية.

ثم ثار الإباضيون (١٤٠هـ) وبايعوا شيخًا كبيرًا من شيوخ المذهب الإباضي وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح في ليبيا وقد دانت له طرابلس وقابس ثم استولى على القيروان وبرقة وفزان بعد معارك مع الخوارج الصفرية انتهت بانتصار الإباضيين وقُتِل فيها عبد الملك بن أبي الجعد (١٤١هـ)، وتولى أمر طرابلس عبد الرحمن بن رستم نائبًا عن أبي الخطاب عبد الأعلى.

وهنا جاءت جيوش الخلافة العباسية، إلَّا أنَّ الإباضيين انتصروا على الجيش الذي بعث به أمير مصر أبو عون في طرابلس (١٤٢هـ)، ثم على جيش آخر أرسل به والي مصر الجديد محمد بن الأشعث في برقة (١٤٣هـ)، فقاد أمير مصر محمد بن الأشعث جيشًا بنفسه هزم به الإباضيين ودخل معقلهم القيروان (١٤٤هـ)، فعادت السيادة على المغرب الأدنى إلى العباسيين[٤].

---

(١) الإباضيون: فرقة من الخوارج تنسب إلى مؤسسها عبد الله بن إباض التميمي، وهم ليسوا من غلاة الخوارج.

(٢) الصفريون: فرقة من الخوارج تنتسب إلى مؤسسها زياد بن أصفر.

(٣) وهو في الأصل من ذرية عقبة بن نافع فاتح المغرب، وقد استقر أمر العائلة في القيروان، وبايعوا للعباسيين مع سيطرتهم الفعلية على هذه المناطق من المغرب، فهو لم يكن واليًا للعباسيين بالمعنى الكامل الذي يستطيع به الخليفة العزل والتولية، وإنما كانوا مستقلين على الحقيقة معترفين ومعلنين الولاء للخلافة. وحبيب هذا تولى القيروان بعد مقتل أبيه عبد الرحمن بن حبيب الفهري على يد عمه إلياس بن حبيب، فقاتل حبيب عمه حتى انتصر عليه وقتله، ودانت له البلاد مرة أخرى.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٣.

وأما الخوارج الصفريون الذين أزاحهم الإباضيون عن القيروان فقد اتجهوا غربًا، وأسس زعيمهم أبو قرة اليفرني الزناتي دولة عند تلمسان[1]، واتخذ أبو قرة لقب الخلافة وظل يُنادَى بأمير المؤمنين، فأرسل محمد بن الأشعث جيشًا يقوده الأغلب بن سالم التميمي لقتال أبي قرة، غير أن مقتل محمد بن الأشعث المفاجئ في مصر عَطَّل تقدم الجيش حتى وصل تكليف من المنصور للأغلب بولاية إفريقية، غير أن الأغلب نفسه قُتِل أثناء المسير إلى أبي قرة بمؤامرة ناجحة للخوارج اشترك فيها بعض جنوده (١٥٠هـ)[2]، وفي نفس هذا العام كان خارجي إباضي آخر، واسمه أبو حاتم يعقوب بن حبيب الكندي، قد تمكن من الاستيلاء على طرابلس.

هذا المشهد المغربي المزعج حمل أبا جعفر على أن يرسل عمرو بن حفص المهلبي واليًا على إفريقية، وقد كان من قبل هذا واليًا على السند في أقصى الشرق (١٥١هـ)[3]، فسار عمرو حتى دخل المغرب فاسترد طرابلس من أبي حاتم ثم سار غربًا؛ حتى دخل القيروان، ثم سار نحو أبي قرة؛ حتى إذا وصل طبنة اجتمعت عليه الخوارج جميعًا، الإباضية بقيادة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم الذين لحقوه من الخلف، والصفرية بقيادة أبي قرة، وحاصروه في طبنة، إلَّا أنَّ انقسامًا وقع بين الخوارج جعل أبا قرة ينسحب من الحصار فعندها تمكن عمرو بن حفص من هزيمة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم، ثم ذهب إلى القيروان فكانت جولة أخرى من الصراع حيث حاصرت الإباضية بقيادة أبي حاتم القيروان وفيها عمرو بن حفص الذي قُتِل في الحصار (١٥٣هـ)، ودخل أبو حاتم القيروان[4]!

كان عدد الخوارج في بعض التقديرات نحوا من أربعمائة ألف، ويصف ابن كثير هذه الفترة من ثورتهم بقوله: «وأكثرت الخوارج الفساد في البلاد، وقتلوا الحريم والأولاد»[5].

---

(١) وبعض المؤرخين لا يرون بأن دولة أبي قرة، أو دولة غيره من البربر الذين ظلوا محتفظين بتماسكهم في وحدات قبلية مستقلة عن العرب الذين سكنوا المغرب أو قدموها من جهة الخلافة- لا يرون بأنهم خوارج بالمعنى المذهبي المعروف، بل يقتربون من كونهم خوارج بالمعنى السياسي الاستقلالي بالأصل الذي يتخذ من مذهب الخوارج صيغة شرعية. انظر: د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص٧٧.

(٢) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/ ١٨٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ١١٢.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٨٩.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١١٨.

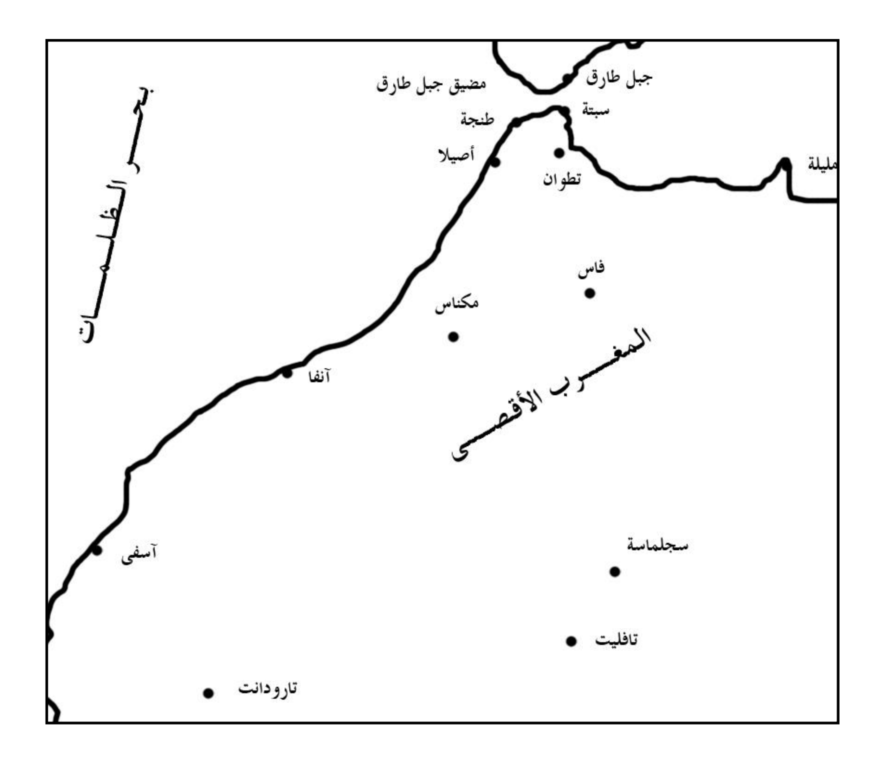
بعد مقتل عمرو بن حفص وسيطرة الخوارج على المغرب، أرسل المنصور (١٥٤هـ) يزيد بن حاتم واليًا على إفريقية في جيش كبير أنفق عليه المنصور نحوا من ثلاثة وستين ألف درهم، وقد وصل الجيش إلى إفريقية (١٥٥هـ) فأنهى هذه الثورة بكل حزم وشدة وقسوة، فقتل أمراء الخوارج وأسر كبارهم وأذل أشرافهم، وكان ممن قتلهم أبو حاتم الخارجي، وسار في المغرب بالقوة والقهر حتى استقرَّت أمورها، ثم أعاد إليها الهدوء وبدأ في نشر الأمن وإقرار السلم وإعادة العمران[1]، ومثلما قضى يزيد على الإباضية فإنه حقق انتصارات كبيرة على الصفرية، واستقرَّ به أمر المغرب، وظل واليًا عليه حتى (١٧٠هـ)، وشاء الله ألا يموت المنصور إلا وأمر الدولة الإسلامية مستقر في الشرق وفي الغرب أيضًا[2].

٢- دولة بني مدرار

وأما المغرب الأقصى فمنذ عام (١٤٠هـ) قامت دولة للخوارج الصفرية في المغرب الأقصى في منطقة تافيلت المحصنة طبيعيًّا، فهي على هامش الصحراء، وفيها المياه، أسسها أبو القاسم سَمَكو بن واسول الذي كان راعيا، وكانت له مواهب الزعامة فتوافق مع غيره من الرعاة على بيعة عيسى بن يزيد بن الأسود، ثم دعا أبو القاسم قومه أهل مكناسة إلى مبايعة عيسى وطاعته، وبُنِيَت قاعدة هذه الدولة وهي مدينة سجلماسة، واختير لها موقع على نهر زير فاستطاعوا ممارسة الزراعة، وأقبل على المدينة كل مَنْ كان على مذهب الخوارج الصفرية من العرب والسودان والبربر والأندلسيين، ثم نُحِّيَ عيسى بن يزيد عن الإمامة، ونُصِّب المؤسس أبو القاسم سمكو، ثم قُتِل عيسى (١٥٥هـ)، وبقي أبو القاسم إمامًا حتى (١٦٨هـ)، وأصبحت الإمامة بعده في أسرته على خلاف مذهب الخوارج.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠٦، ٥٠٧، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٢٠.
(٢) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٣٥، ١٣٦.



وقد دخلت هذه الدولة، التي عرفت باسم دولة بني مدرار، في تبعية الخلافة العباسية وولاتها في القيروان، وكان يُدعى على منابرها للمنصور، ومن بعده للمهدي، وهو ما جعلها تنعم بالاستمرار والاستقرار[1]، كما أن ثورات الخوارج في المغرب الأدنى والأوسط قد أتاحت لها الفرصة، ويبدو أن أبا القاسم سمكو كان حصيفا فاعتبر بما انتهت إليه تلك الثورات من اضطراب فآثر الهدوء والطاعة.

حركة الجهاد

لم تستفق الخلافة لمواجهة أخطار الخارج إلا بعد انتهاء المشكلات الداخلية الكبرى وقد استغرق هذا ثلاث سنوات على الأقل حتى تمهد الأمر للمنصور، كذلك توقفت حركة الجهاد والفتوح في الأوقات التي اشتعلت فيها الثورات الكبرى كثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم وثورات الخوارج في المغرب.

(١) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٣٠، ١٣١.

وكانت الجبهات المفتوحة أمام المنصور اثنتين: جبهة الروم البيزنطيين في الغرب، وجبهة الأتراك والديالمة في المشرق، فأما المشرق فقد كان أهون وأقل شأنا من الروم لكنه لا يمكن السكوت عليه لكثير من الظروف منها أنه منبع الثورة العباسية ومنها أنه حافل بالأفكار الشعوبية والمذاهب المخالفة لدين الدولة، وهو في النهاية أرض قوم ظنوا أن الدولة ستكون دولتهم وبعضهم شمخ في طموحه فظن أنه يعيد دولة الفرس بثياب عباسية فوجدها دولة عربية أخرى.

وأما الروم فقد كانوا الأقوى ولكنهم ليسوا الأخطر، كما أن التغير الجغرافي الحاصل بنقل العاصمة من الشام إلى العراق ترتب عليه كثير من الأمور، منها «إهمال الأسطول في البحر الأبيض المتوسط، كما أنه أبعد المركز عن الحدود البيزنطية وأصبحت فكرة الاستيلاء على القسطنطينية حلما بعيدا لا هدفا تُوَجَّه إليه القوى والجهود بصورة منظمة ومستمرة كما كانت الحالة في العصر الأموي»[١].

ولذا كانت خطَّة المنصور في بناء الحصون والمعاقل وتقويتها على الثغور[٢]، وفي عهده بنيت كثير من المدن والحصون والمراكز المتقدِّمة لحماية حدود الدولة الإسلامية من ناحية الروم البيزنطيين، ولشن الغارات منها عليهم كلما استدعى الموقف.

لقد كانت الحروب بين البيزنطيين والمسلمين بلا أهداف حاسمة طوال العصر العباسي الأول، وكان الهدف لدى العباسيين كما هو الظاهر إثبات هيبة الدولة وردع الروم واستنزافها عسكريًّا من خلال هدم الحصون الحربية والقلاع وإضعافها اقتصاديًّا، لا سيما وأن النظام الإقطاعي السائد في الدولة البيزنطية كان يجعل تكاليف الحروب الإسلامية واقعا بالأمراء أصحاب الإقطاعيات المتاخمة للبلاد الإسلامية، فإضعاف هذه الإقطاعيات عسكريًّا واقتصاديًّا هو ضغط نوعي لئلا يتجرأ الروم على أراضي المسلمين.

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٧٣.

(٢) مناطق الثغور تقع كلها في الشام، لكنها منقسمة إداريا بحسب المجاهدين على نحو ما يقوله الاصطخري: «جُمِعت الثغور إلى الشام، وبعض الثغور تعرف بثغور الشام، وبعضها تعرف بثغور الجزيرة، وكلاهما من الشام، وذلك أن كل ما وراء الفرات من الشام، وإنما سمي من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة، لأن أهل الجزيرة (الفراتية) بها يرابطون وبها يغزون، لا لأنها من الجزيرة. وكور الشام إنما هي جند فلسطين وجند الأردن وجند حمص وجند دمشق وجند قنسرين والعواصم والثغور». الاصطخري: المسالك والممالك ص٥٥، ٥٦.

ولا يخلو من قائمة الأهداف -أيضًا- إقامة الجهاد الذي هو بركة على الأُمَّة كلها، به يدخل الناس في دين الله أفواجا، وبه تنشغل الطبقة العسكرية وتتألق، تلك الطبقة التي إن لم تخض الجهاد عاد ذلك على الأُمَّة كلها بالوبال إذ تنشغل بالثروة والسياسة فتفسد بها الدولة ونظام الحكم كله كما هو واضح عبر التاريخ الإسلامي، وبالجهاد تنمو ثروات الأُمَّة من الغنائم والموارد الجديدة.

والخلاصة أن الحروب الإسلامية البيزنطية في تلك الفترة أشبه بحرب الاستنزاف بين الدولتين الكبيرتين دون نية من إحداهما لخوض معركة مصيرية حاسمة.

وعلى هذا يمكننا أن نقرأ حركة الجهاد في عهد المنصور من خلال ثلاثة عناصر: بناء المدن والحصون، والجهاد على جبهة الروم، والجهاد في الجناح الشرقي وأرمينية.

١- بناء المدن والحصون

في فترات انهيار الدولة الأموية ثم بداية الدولة العباسية كان تركيز الروم على هدم الحصون والمعاقل على الثغور والتي تمثل الدفاعات المتقدِّمة في بلاد المسلمين، ولذا كان تحصين هذه القواعد عملا مهما وجوهريا في العلاقة مع الروم وفي منظومة الأمن للدولة الإسلامية، بدأه المنصور ثم استمرَّ الخلفاء العباسيون فيه حتى بلغ كماله في عهد المعتصم.

وكان البناء يعمل على جبهتي الاشتباك، مع الروم، ومع الخزر في جبهة أرمينية، يقول البلاذري: «لما ولي أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها، وفعل مثل ذلك بمدن الثغور»[١].

فمن ناحية الروم بنى المسلمون:

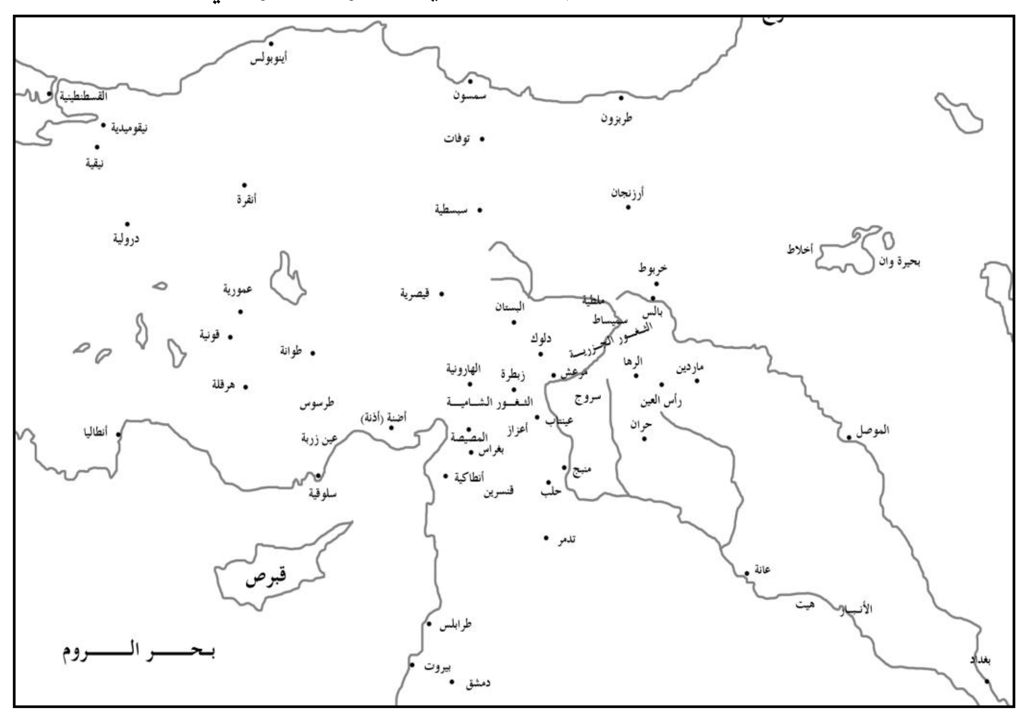
- حصنًا في سميساط ونقلوا منها من اتهموهم بالتآمر مع الروم إلى فلسطين.
- وكذلك فعلوا في مرعش.
- وأعاد صالح بن علي بناء قلعة ملطية (١٣٩هـ) وكانت قد تهدمت في غزو سابق للروم[٢]، ثم تم بناؤها كقاعدة عسكرية متميزة حين تولى عبد الوهاب بن إبراهيم ولاية

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٩٣.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٠.

الثغور (١٤٠هـ) وكان معه جيش كبير بقيادة الحسن بن قحطبة فاشتعل العمل بالجد والعزم حتى اكتمل البناء في ستة أشهر فحسب، ثم وضعت نقطة حراسة برية على بعد ثلاثين ميلا ونقطة حراسة بحرية على نهر يصب في الفرات، وأصبحت قوتها أربعة آلاف مقاتل، وبني حصن آخر أصغر عرف بـ «حصن قلوذية»[١].

- وبنى جبرائيل بن يحيى القائد الخراساني «المُصَيْصة» (١٤١هـ)[٢].
- كما بنى المنصور مدينة الرافقة (١٥٥هـ) «لتكون مركزه العسكري في غزواته الشمالية»[٣]، وسيأتي مزيد تفصيل عنها بعد قليل.

وأما في جبهة الخزر فقد بنى المنصور «مدينة كمخ[٤] ومدينة المحمدية ومدينة باب واق وعدة مدن جعلها ردءًا للمسلمين»[٥]. وبهذه المدن تغيرت خريطة القوى في تلك المنطقة.



---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٢٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٧.

(٣) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٧٤.

(٤) كمخ: تقع الآن في أقصى الجنوب الشرقي من جمهورية أرمينية على الحدود بينها وبين أذربيجان، وهي تقريبا في منتصف المسافة بين بحر قزوين والبحر الأسود.

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٠٧.

إن دراسة الحدود الشامية الجزرية عند جبال طوروس تظهر الجهد العظيم الذي بذله المنصور بما بنى من حصون[١].

وهذه الحصون كانت هي التعبير الواقعي عن الرؤية العباسية لحركة الجهاد وعلاقتها بالدولة البيزنطية، فلقد تجمدت العلاقات حول نطاق الثغور، التي صارت منطلقا لغزوات خاطفة أو دورية أو حتى توغلات كبيرة، لكن كل هذا لم يكن مؤثِّرًا في المسار العام أو المستوى الاستراتيجي الذي افتقد إلى هدف فتح القسطنطينية أو إنهاء الدولة البيزنطية، وظلت الاشتباكات تراوح منطقة الثغور طوال العهد العباسي.

٢- الغزوات مع الروم

بدأ الاشتباك مع الروم (١٣٩هـ)، بعد انتهاء أزمات عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني وسنباذ المجوسي وجمهور العجلي وملبد بن حرملة الشيباني الخارجي، وهي الأزمات التي لم تفلتها الدولة البيزنطية فهاجمت فيها أطراف البلاد الإسلامية.

وآخر هذه الهجمات هجوم قسطنطين ملك الروم على ملطية (١٣٨هـ) واقتحامها وهدم أسوارها ولكنه لم يتعرَّض بالقتل للمسلمين فيها[٢]. إذ كان الهدف تحطيم الدفاعات الإسلامية وهي القواعد الحصينة المنتشرة على الثغور.

بدأت العلاقة بين المنصور والدولة البيزنطية بافتداء الأسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي الروم في تلك المعارك (١٣٩هـ)، وفي العام ذاته استعاد صالح بن علي مدينة ملطية وأعاد بناء قلعتها التي تهدمت من أثر هجوم سابق استولى فيه الروم عليها[٣]، وبدأ صالح في غزو الروم من ناحيته (١٤٠هـ)، فيما كانت الصائفة في هذا العام بقيادة ابن أخي الخليفة عبد الوهاب بن إبراهيم بن علي[٤].

ثم توقفت الصوائف لما وقع من ثورات المدينة والبصرة وقلاقل المشرق، فلما انتهى ذلك عادت الصائفة (١٤٦هـ) بقيادة جعفر بن حنظلة البهراني، واستعد صالح بن علي للغزو

---

(١) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٣٧.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٠.
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٠.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ١١٩.

واتخذ معسكره في دابق (١٤٨هـ) إلا أنه لم يغزُ لسبب لا تفصح عنه المصادر، ثم انطلقت صائفة عام (١٤٩هـ) إلى بلاد الروم وكان قائدها العباس بن محمد ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث، ومات محمد بن الأشعث في الطريق[١].

واستمرت الصوائف أعوام (١٥١هـ) بقيادة العباس بن محمد أو عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد العباسي، و(١٥٢هـ) بقيادة عبد الوهاب بن إبراهيم أو محمد بن إبراهيم، و(١٥٣هـ) بقيادة معيوف بن يحيى الحجوري وفي هذه الصائفة غنم المسلمون غنائم كثيرة وأسروا ستة آلاف أسير، واقتحموا حصنًا من حصون الروم، وفي العام التالي (١٥٤هـ) غزوة بقيادة زفر بن عاصم الهلالي[٢]، ثم يزيد بن أسيد السلمي (١٥٥هـ)، وقد حققت هذه الصوائف خسائر متراكمة في جانب الروم حتى طلب إمبراطور الروم الصلح من المنصور على أن يدفع له جزية سنوية[٣] فرفض المنصور[٤]، وفي العام التالي (١٥٦هـ) صائفة بقيادة زفر بن عاصم الهلالي، ثم صائفة أخرى بقيادة يزيد بن أسيد السلمي -وقيل زفر بن عاصم الهلالي- في العام التالي (١٥٧هـ)، ثم صائفة أخرى بقيادة معيوف بن يحيى (١٥٨هـ) خرج فيها من «درب الحدث[٥]» والتقى مع الروم واقتتلوا ثم تحاجزوا[٦].

وفي العام ذاته الذي تُوُفِّيَ فيه المنصور (١٥٨هـ) مات إمبراطور الروم.

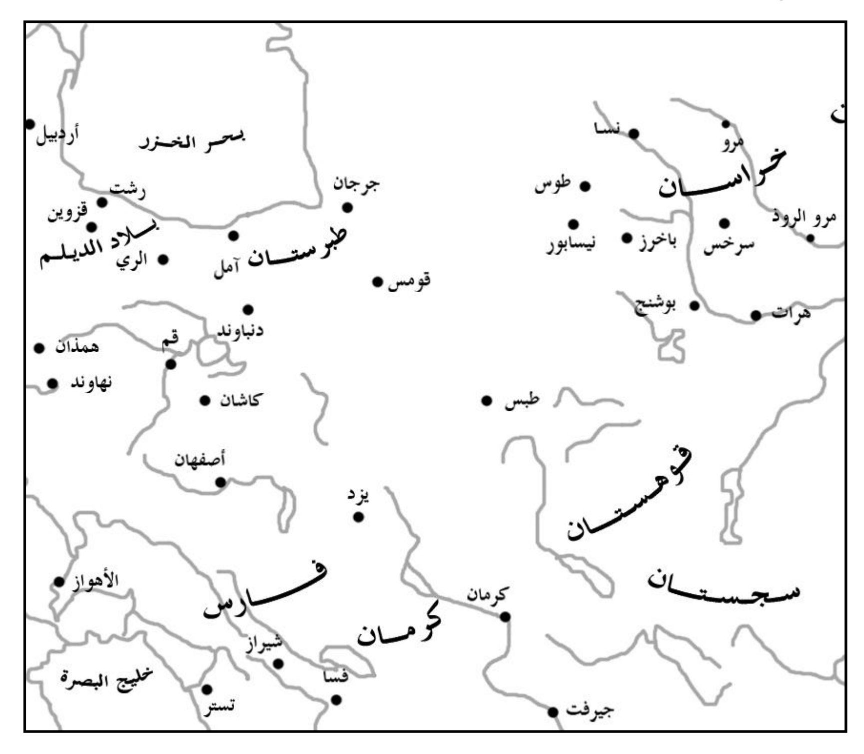
٣- غزوات المشرق

لم يلبث الشرق مضطربًا منذ راح أبو مسلم، وقد تعددت فيه حركات التمرد الفارسية والخارجية وحركات استقلال لبعض الولاة، فدعا كل هذا المنصورَ إلى التفكير في خطَّة حاسمة لعلاج الوضع المضطرب فلم يَعُدْ من النافع إرسال جيش يُواجه التمرُّد في كل مرَّة،

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٨١، ٤٩٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠١، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠٧.
(٤) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٧٤، وهو ينقل عن: تاريخ كمبريدج للعصور الوسطى ٤/ ١٢١.
(٥) درب الحدث: طريق حيوي على خط الجهاد بين المسلمين والروم البيزنطيين وسيُبنى في هذا المكان فيما بعد ثغر من أهم ثغور الشام «الحدث»، سيبنيه الخليفة المهدي ليكون ثغرا في نحر العدو على بعد ٧٨ ميلا من أنطاكية، يقول اليعقوبي: «كان فيه دفع للعدو وتسديد، ولما بُنِي عظم ارتفاق أهل الثغور به». انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٢٩.
وقد سُمِّي الحدث لأن المسلمين أصيبوا منه في موقعة فسمي هكذا في رأي البعض، أو لأنه قاتلهم الروم بقيادة شاب صغير فيه فسمي «درب الحَدَث». البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٢٦.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١١، ٥١٥.

وما بين المرَّة والأخرى عام أو بعض عام، واهتدى المنصور إلى إنشاء قاعدة تابعة للخلافة في الري تكون بمثابة عاصمة الشرق كله، ويتولاها ابنه المهدي، فيكون قريبًا من أرض المشرق وبصيرًا بما فيه من أمور وتطورات.



وقد نجحت هذه الخطَّة في تغيير الوضع في المشرق، من حيث مواجهة التمردات، ثم من حيث التصدي لغارات الترك والديلم في الأراضي المتاخمة للدولة الإسلامية وفي غزوها إن اقتضى الأمر.

وفي سياق حديثنا عن حركة الجهاد في المشرق سنرى أن المهدي قد تمكن (١٤١هـ) أن يغزو طبرستان حتى تمكن من فتحها بعد حروب طويلة على أيدي القادة الكبار: خازم بن خزيمة وأبي الخصيب وعمر بن العلاء وهذا البطل الأخير كان خبيرًا بطبرستان، وفيه قال الشاعر بشار بن برد:

فَقُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي الْمُتَّهَمِ

إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَا نَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ

وانتهى أمر الأصبهبذ[1] ملك طبرستان إلى أن حوصر في قلعته حتى طلب الأمان مقابل تسليم كل شيء، وقد تم له هذا[2]، وفيما يبدو فإن الاتفاق انتهى إلى بقائه في ملكه مع ترك حامية عسكرية إسلامية متعهدا بدفع جزية سنوية.

لكنه نقض العهد وغدر بالمسلمين في بلاده (١٤٢هـ) بعد أن رتب وأحكم التدبير واستعد لحصار طويل، فخرج إليه جيش بقيادة خازم بن خزيمة وأبي الخصيب وروح بن أبي حاتم، وطال الحصار جدًّا حول القلعة الحصينة فلم يُفِد هذا شيئًا، ثم تفتق ذهن أبي الخصيب عن ادعاء انشقاقه عن المسلمين، ولجوئه إلى الأصبهبذ حتى صار من رجاله وخاصته ووثق فيه، وفي ليلة بعينها حدد أبو الخصيب ساعة الصفر حيث كان يتولى حراسة الأبواب للأصبهبذ، فراسل المسلمين وتواعدوا على اقتحام القلعة في هذه الليلة التي سيفتح فيها الأبواب، وعندئذٍ لم يجد الأصبهبذ إلَّا أن ينتحر مسمومًا؛ لكي لا يقع في أيدي المسلمين[3].

بعد هذا النصر هدأت أحوال المشرق، كما انشغلت الخلافة بثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، وهنا اقتنص الأتراك وقبائل الخزر[4] فهاجموا مدينة باب الأبواب[5] وغيرها من أرمينية (١٤٥هـ) فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرًا[6].

لم يتصد أحد لهذا الهجوم ولم يخرج جيش لردع هؤلاء لانشغال الخلافة في أمور أخرى، فلهذا جاءت حملة أخرى هذه المرة من ملك قبائل الخوارزميين -وهي -أيضًا- إحدى قبائل الجنس التركي- فهاجموا المسلمين في أرمينية (١٤٧هـ) فقَتلوا من المسلمين وأهل الذمة خلقا كثيرًا واقتحموا عاصمة أرمينية مدينة «تفليس»، فعندئذٍ ولي المنصورُ جبريلَ بن يحيى على جيش لمواجهتهم، وأمر فرقة عسكرية مقيمة بالموصل لمواجهة الخوارج قوامها نحو ألفين بقيادة حرب بن عبد الله الراوندي بدعم جيش جبرائيل، غير أن الجيش تلقى هزيمة بشعة

---

(١) كان لقب ملك الديلم «الاصبهبذ» مثلما يقال لملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٨.
(٣) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ١٢٥، والبلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٤١٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٩، ٤٠٠.
(٤) كان بحر قزوين يسمى قديما بحر الخزر، وقبائل الخزر هم من الجنس التركي ويسكنون شمال وغرب بحر قزوين، وكان الاشتباك بينهم وبين المسلمين منحصرا في الجزء الجنوبي منهم وهم الذين يعيشون بين بحر قزوين والبحر الأسود.
(٥) باب الأبواب هي الآن مدينة دربند في جمهورية داغستان المسلمة والتي تحتلها روسيا.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٧٧.



حتى لقد قتل حرب بن عبد الله وأصيب قائده جبريل بن يحيى[١].

فعندئذٍ عمل المنصور على مستويين: قريب وبعيد؛ أما القريب فقد أرسل المنصور القائد الكبير حميد بن قحطبة (١٤٨هـ) لغزو بلاد الترك، ولكن الوضع كان صعبًا جدًّا فأرسل الحسن يريد المزيد من الأمداد؛ فأرسل المنصور جيشًا من عشرين ألفًا بقيادة عامر بن إسماعيل الحارثي؛ فدارت حروب في غاية العنف والشدة استمرت أيامًا، ثم أنزل الله نصره على المسلمين؛ حتى لقد قُتِل من عدوهم في يوم واحد ستة عشر ألف إنسان، واستعاد المسلمون مدينة تفليس[٢].

وأما البعيد فهو بناء معاقل وحصون على المدن الحدودية، فأخرج «سبعة آلاف من أهل السجون، وبَعَثَ فجَمَعَ من كل بلد خلقًا عظيمًا ووَجَّه بهم وبفَعَلَة وبنائين، فبنى مدينة كمخ ومدينة المحمدية ومدينة باب واق وعدة مدن جعلها ردءًا للمسلمين، وأنزلها المقاتلة فردوا الحرب فحاربهم قومهم وقوي المسلمون بتلك المدن»[٣].

ثم يتوقف الغزو في الجناح الشرقي ثلاث سنوات حتى يعود على يد حميد بن قحطبة الذي ولاه المنصور خراسان (١٥١هـ) حيث فتح كابُل (عاصمة أفغانستان الآن) في العام التالي (١٥٢هـ)[٤].

---

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ١٣٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٨٢.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٤٩٣.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٠٧.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠٣.

النهضة العمرانية والعلمية

وإلى جانب ما بناه المنصور من مدن فقد حصن -أيضًا- البصرة والكوفة وبنى لكلٍّ منهما خندقا وسورا وكانت تكاليف البناء موزعة على أهل المدينتين(١).

وأما ما بناه المنصور فهو:

١- مدينة الرصافة

فَكَّر المنصور منذ تمرُّد الراوندية في أن جند الخلافة لو أرادوا الاتحاد على انقلاب عسكري لتم لهم الأمر، فتحسبا لهذا أنشأ مدينة الرصافة لابنه المهدي على الضفة الشرقية لنهر دجلة، فكانت تسمى بغداد الشرقية وأصبحت بمرور الأيام امتدادا طبيعيًّا لبغداد، غير أن الأهمَّ في تلك اللحظة هو أن المهدي صار بجيشه الخراساني في الرصافة بينما المنصور في بغداد مع جيشه الذي يغلب عليه العرب، فإن نشب شغب أو تمرُّد في إحدى المدينتين استعانت

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠٧، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٨٧.

الخلافة بالمدينة الأخرى، وقد ربطت بين المدينتين ثلاثة جسور على نهر دجلة[١].

ونمت الرصافة نموًّا سريعًا لأسباب يُجملها اليعقوبي بقوله: «تنافس الناس في النزول على المهدي، لمحبتهم له، ولاتساعه عليهم بالأموال والعطايا، ولأنه كان أوسع الجانبين أرضًا، لأن الناس سبقوا إلى الجانب الغربي، وهو جزيرة بين دجلة والفرات؛ فبنوا فيه، وصار فيه الأسواق والتجارات»[٢].

«وتمَّت الرّصافة وصار الخلفاء بعد ذلك يدفنون موتاهم بها وبنوا بها التّرَب الجليلة وحملوا إليها من الفرش العظيم والآلات الجليلة ما يتجاوز الحصر ووقفوا عليها من النّواحي والأقرحة[٣] والعقارات جملة كثيرة وكانت في أيّامهم حرما إذا لجأ إليها الخائف أمن»[٤].

٢- مدينة الرافقة

كلف المنصور ابنه المهدي (١٥٥هـ) ببناء مدينة الرافقة على نفس طراز بغداد «في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها»[٥]، وقد حصَّنها المهدي بسوريْن على شكل نعل الفرس، أساسهما من الحجر وقوامهما من اللبن المحمي بالفخار، بينهما فصيل عرضه ٢٠,٨ متر وسمك السور الخارجي ٤,٥ م وحوله خندق عرضه من الأعلى ١٥,٩م وعرضه من الأسفل ٩,٥م، والسور الداخلي أكثر ارتفاعًا من السور الخارجي لئلا يصيب المرابطون عليه جماعاتهم المرابطة على السور الخارجي عند الرمي، وأما من جهة نهر الفرات فلا عدو يصل المدينة قبل عبور النهر، فاستعيض عن السور الخارجي ببرجين ضخمين قطر كل منهما ١٥,٦ م -ما زال أحدهما ماثلًا عند باب بغداد- وبين هذين البرجين تنتشر بقية أبراج المراقبة والرماية، وتعج بالحرس والعساكر وعلى مسافة طول السور بارتفاع لا يقل عن ٣٠م للبرج الواحد ويفصل بين كل برج وآخر ٣٥م. وللسورين أبواب محروسة، تُفتح وتُغلق بيسرٍ وسرعةٍ عند الحاجة وأشهرها:

- باب بغداد من جهة الشرق، ويمتد منه طريق بري إلى بغداد وهو الباب الرسمي

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠٠، ٥٠١.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص٤٥.
(٣) الأقرحة: الآبار.
(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص١٧١.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٠٧.

الذي يدخل منه الخليفة ويخرج، يدل على هذا كثرة الزخارف فيه وتصميمه المعماري. وقد وُجِدَت عليه كتابة تقول: «أمر بعمارته أمير المؤمنين هارون الرشيد -أطال الله بقاءه- بتولي الفضل بن الربيع مولاه».

- باب الرها من جهة الشمال، ويمتد منه طريق إلى الرها وحرّان.
- باب الجنان من جهة الغرب، ويمتد منه طريق إلى البساتين والجنان غرب الرقة.

وتؤكد حفريات مديرية الآثار في سورية التي جرت في تلال وسهول الرقة أنّ جميع القصور المكتشفة كانت محاطة بأسوارٍ ذات أبراج عالية «وتكتنفها الحدائق، فهي حصون وقلاع إن هاجت الحرب. ومواطن راحة وسلوى إنّ حل السلم»(١).

وسكن المدينة فرقة حربية من جند خراسان(٢).

٣- قصر الخلد

وبدأ المنصور بناء قصر الخلد على شاطئ دجلة (١٥٧هـ)(٣)، وقد «كان في وسع من يقيم في هذين القصرين أن يرى من نوافذهما مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحمالها التي جاءت بها من نصف العالم المعروف»(٤).

وللمنصور إصلاحات عمرانية أخرى منها أمره بتوسيع الحرم (١٣٩هـ)(٥).

٤- بداية الثورة العلمية الإسلامية

وإلى جانب النهضة العمرانية وضع المنصور بذور نهضة علمية كبرى، فهو أول خليفة اهتم بالعلوم، «وكان مع براعته في الفقه كَلِفا في علم الفلسفة وخاصة علم النجوم»(٦)، وهو «أوّل خليفة تُرْجِمت له الكُتُب السُّرْيانيَّة والأعجميَّة ككتاب «كليلة ودِمْنَة»، وكتاب أرسطاطاليس في المنطق، وإقليدس، وكُتُب اليونان»(٧).

---

(١) د. عمر الحمود: الرقة في عهد الرشيد، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد (٨٥) شوال ١٤٢٢ هـ = يناير ٢٠٠٢م.
(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١١، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٨٠.
(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٦٢.
(٥) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٧.
(٦) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٥.
(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٤/ ١٨.

واجتذب المنصور الأطباء والناسطرة إلى مدينة بغداد، وترجمت له كتب في الطب والنجوم والهندسة والآداب، وأُلِّفت له كتب الحديث والتاريخ، وقد ترجم جرجيس بن بختيشوع مؤلفات كثيرة في الطب من اليونانية إلى العربية فخصص المنصور خزانات لهذه الترجمات وغيرها من المخطوطات القيمة، وحتى آخر عهده كانت مخطوطات التراث ودفاتر العلم تحفظ في قصر الخلافة في بغداد حتى ضاق عنها على سعته(١)، وكانت هذه الكنوز هي التمهيد لأكبر مشروع علمي في التاريخ الإسلامي.. مشروع بيت الحكمة!

الرخاء في عهد المنصور

عاشت بغداد في زمنه رخاءً كبيرًا، يروي ابن الجوزي عن داود بن صقر البخاري قوله: «رأيت في زمن أبي جعفر المنصور كَبْشًا بدرهم، وحملًا بأربعة دوانيق(٢)، والتمر ستون رطلا بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم، والرجل يعمل بالروزجار(٣) كل يوم بخمس حبات. وقال الحسن بن سلام: كان يُنادى على لحم البقر في جبانة(٤) كندة تسعون رطلا بدرهم، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم، والعسل عشرة أرطال بدرهم»(٥).

ويمكن أن نلمس ثلاثة عوامل رئيسية تفسر هذا الرخاء:

١- سياسة المال

حينما تولى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، كانت سياسته المالية متقشِّفة إلى أقصى حدٍّ، فلم يكن يخرج دينارًا ولا درهمًا من بيت مال المسلمين إلا وكان يعلمه، حرصًا منه على الأموال، ونتيجة لهذه السياسة المتشددة، تأثر الناس بها تأثرًا شديدًا؛ حتى اتهم المنصور بالبخل، فلما تولى ابنه المهدي الخلافة، عدل عن سياسة أبيه، ورأى أن التيسير على الرعية بالإنفاق عليهم أوجب من الإمساك والبخل؛ ولذلك فقد أمر عند بداية خلافته باستخراج «حواصل أبيه من الذهب والفضة، التي كانت لا تُحَدُّ ولا توصف كثرة، ففرَّقها في الناس، ولم

---

(١) د. خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٨، ٢٩.
(٢) الدانق هو سدس الدرهم، أي أن الحمل كان بثلثي درهم.
(٣) الرجل يعمل بالروزجار: أي الفاعل، أو البَنَّاء.
(٤) جبانة: هي الصحراء أو المقبرة أو الضريح، وهذا كان مكانا معروفا في بغداد.
(٥) ابن الجوزي: مناقب بغداد ص٢٥، نقلا عن: خير الله سعيد: وصف بغداد في العصر العباسي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، عدد ١٧، المحرم ١٤١٨ هـ/ مايو ١٩٩٧م، ص٥١.

يُعْطِ أهله ومواليه منها شيئًا، بل أجرى لهم أرزاقًا بحسب كفايتهم من بيت المال، لكلِّ واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات، وقد كان أبوه حريصًا على توفير بيت المال، وإنما كان ينفق في السنة ألفي درهم من مال السُّرَاة[1]»[2]!

وقد جرى بين المنصور وابنه المهدي عدة مواقف تدل على تضادهما في سياسة المال، منها ما روته خالصة جارية المهدي المحببة إليه قالت: دخلت يومًا على المنصور وهو يشتكي ضرسه ويداه على صدغيه فقال لي: كم عندك من المال يا خالصة؟ فقلت: ألف درهم. فقال: ضعي يدك على رأسي واحلفي، فقلت: عندي عشرة آلاف دينار. قال: اذهبي فاحمليها إليَّ. قالت: فذهبت حتى دخلت على سيدي المهدي وهو مع زوجته الخيزران فشكوت ذلك إليه فوكزني برجله وقال: ويحك! إنه ليس له وجع ولكني سألته بالأمس مالا فتمارض، وإنه لا يسعك إلا ما أمرك به. فذهبت إليه خالصة ومعها عشرة آلاف دينار، فاستدعى بالمهدي فقال له: تشكو الحاجة وهذا كله عند خالصة؟![3]

وذات يوم قال المنصور لخازنه: إذا علمت بمجيء المهدي فائتني بخلقان الثياب[4] قبل أن يجيء، فجاء بها فوضعها بين يديه ودخل المهدي والمنصور يقلبها، فجعل المهدي يضحك، فقال: يا بني من ليس له خلق ليس له جديد، وقد حضر الشتاء فنحتاج نعين العيال والولد، فقال المهدي: عَلَيَّ كسوة أمير المؤمنين وعياله. فقال: دونك فافعل[5].

فقبل أن يتحمل ولده نفقته ونفقة عياله لما يعلم عنده من المال ولتوفير هذه النفقة في غيرها من الأمور.

وذهب شاعر إلى المهدي -حين كان أميرًا على الري- فمدحه بأبيات رائقة بديعة فأعطاه المهدي عشرين ألف درهم، فلما بلغ هذا إلى المنصور أرسل إلى ابنه يلومه على هذا الإسراف ثم سعى في القبض على الشاعر حتى حصل عليه، فسمع منه الأبيات وأعجبته ثم قال: «والله لقد أحسنت ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم»، فأعطاه أربعة آلاف وأخذ الباقي!

---

(١) السراة: الأشراف، ابن منظور: لسان العرب ١٤/ ٣٧٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٦٣.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٣.

(٤) خلقان الثياب: أي الثياب البالية القديمة.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٣.

فلما تُوُفِّيَ المنصور وتولى المهدي الخلافة رفع الشاعر إليه هذه القصة في الشكاوى والمظالم فضحك المهدي منها كثيرًا وأمر برد الأموال إليه مرة أخرى(١).

وأخبار المنصور في حفظ المال والحرص عليه كثيرة.

على أن الصورة لم تكن قاتمة تمامًا، بل كان المنصور خليفة قديرًا يعرف متى يعطي ويمنح كما يعرف متى يُمسك ويمنع، وقد وردت روايات كثيرة تفيد كثرة إنفاقه وكرمه، من ذلك إكرامه لبنات واحد من رجاله ممن لهم عطاء في الدولة، وكُنَّ ستًّا فأعطى كل واحدة ثلاثين ألف دينار وزوجهن وجعل لهن موارد رزق، وكان هذا من خاص ماله. وأنفق في يوم واحد عشرة آلاف درهم على أهل بيته حتى قال الطبري: «ولا يعلم خليفة فرق مثل هذا في يوم واحد». وأورد أنه أعطى لأعمامه مليون درهم لكلٍّ منهم، وهذه أول مرة يفرق خليفة مبلغا يصل إلى المليون(٢).

وحين سمع المنصور قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ**﴾ [النساء: ٣٧] قال: والله لولا أن المال حصن للسلطان ودعامة للدين والدنيا وعزهما ما بت ليلة واحدة وأنا أحرز منه دينارا ولا درهما لما أجد لبذل المال من اللذة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة(٣)، وقال أيضًا: سمعت أبي يقول: سمعت أبي (علي بن عبد الله بن عباس) يقول: سادة الدنيا الأسخياء، وسادة الآخرة الأنبياء(٤).

ولما عزم المنصور على الحج في هذه السنة دعا ولده المهدي فأوصاه في خاصة نفسه وبأهل بيته وبسائر المسلمين خيرا، وعلمه كيف تفعل الأشياء وتسد الثغور، وأوصاه بوصايا يطول بسطها وحرج عليه أن لا يفتح شيئًا من خزائن المسلمين حتى يتحقق وفاته فإن بها من الأموال ما يكفي المسلمين لو لم يجب إليهم من الخراج درهم عشر سنين، وعهد إليه أن يقضي ما عليه من الدين هو ثلاثمائة ألف درهم، فإنه لم ير قضاءها من بيت المال(٥).

ولعلَّ ما يجمع بين الصورتين ما قاله المسعودي: «كان يعطي الجزيل والخطير ما كان

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٤.
(٢) المصدر السابق نفسه ٤/ ٥٣٠.
(٣)المصدر السابق نفسه ٤/ ٥٣٢.
(٤)المصدر السابق نفسه ٤/ ٥٣٦.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٤١.

عطاؤه حزمًا، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعًا»[1].

ثم أدخل المنصور مؤخرًا نظامًا جديدًا في جمع الخراج يقوم على المقاسمة في المحصول ليتجنب بذلك عيوب النظام القائم قديما على دفع الخراج[2].

وكان المنصور مهتما بمتابعة الأحوال الاقتصادية في الولايات، فكان موظفو البريد «يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث، وكانوا إذا صلوا المغرب يكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء منها عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه بذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئًا عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه»[3].

٢- الرقابة على الولاة

كان المنصور خليفة بصيرًا قائمًا على العمال والولاة ومراقبا لهم ولا يقبل منهم إلا القيام بمهامهم على خير وجه ولا يتسامح في تهاون في هذا الشأن، وكان ينظر في الأعمال بنفسه حتى في التفاصيل، وربما عاتبه البعض في هذا[4].. وهذا ما جعله من عهود الفخار والازدهار وأعطى الدولة الوليدة استقرارها ورسوخها.

وأول ما يُذكر في هذا الشأن وصيته لقائد الشرطة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي حين كلفه بولاية خراسان، فقال له: «قد وليتك خراسان فأطع الله في معصيتي ولا تطعني في معصية الله ولن للمحسن وكن خشنا على المسيء»[5].

ومن العبارات المأثورة عنه قوله: «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعفَّ منهم. قيل له: يا أمير المؤمنين، مَنْ هم؟ قال: هم أركان الملك، ولا

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٢٩٢ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٣٣٤، والماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٦٢.
(٣) الطبري تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٦، ٥٣٧.
(٤) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٨٢.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٢٢٧.

يصلح الملك إلَّا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلَّا بأربع قوائم إن نقصت واحدة وَهِيَ (أي ضَعُف): أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية؛ فإني عن ظلمها غني، والرابع - ثم عضَّ على أصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول في كل مرة: آه آه. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحَّة»[١].

وحين تمرَّد بعض الجند على والي أرمينية أرسل الوالي إلى المنصور: «إن الجند قد شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال وأخذوا ما فيه فوقع في كتابه اعتزل عملنا مذموما فلو عقلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينتهبوا»، ووصلت إليه شكوى رجل في أحد الولاة فكتب المنصور إلى الوالي على رقعة الشكوى: «إن آثرت العدل صحبتك السلامة فأنصف هذا المتظلم من هذه الظلامة»، وحين تظلم إليه أحدهم من أحد الولاة أعطى له المنصور الإذن -إن كان صادقا- أن يأتي به مقيدا إليه[٢].

٣- نمو التجارة البحرية

ولقد كان من أهمِّ عوامل النماء السريع هو نمو البحرية العربية في المحيط الهندي لتؤدي الدور نفسه الذي أدته البحرية الأموية في البحر المتوسط، وبدأت السفن العربية والبحارة العرب يدخلون مياه جزر الهند الشرقية وجنوب الصين، وأصبحت البصرة من أهمِّ الموانى العالمية، تتجمع فيها المراكب القادمة من الشرق الأقصى، فأفاد الكثيرون من المسلمين في العراق وإيران من هذا التطور الجديد بتكوينهم ثروات طائلة[٣].

هذه العوامل الثلاثة رافقتها عوامل أخرى مثل حفر وتوسيع الأنهار كنهر أبي الأسد وهو من رجال المنصور[٤].

إن تأسيس الدول وتنميتها لم يكن أبدًا أمرًا سهلًا، بل هو حصاد جهد كبير لنفس جادة تملؤها العزيمة، لم تُبْنَ دولة إلا وكان بانيها مثالًا في الجد والهمة والتدبير، وهكذا كان المنصور.. كان برنامجه اليومي يبدأ بعد صلاة الصبح بمباشرة الأمور وإدارة أحوال البلاد

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٧.
(٣) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٦٩.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٣٥٩.

حتى صلاة العصر، ثم يجلس لمتابعة أحوال بيته وأسرته ومن أحب أن يجلس معه من خاصته حتى صلاة العشاء، ثم يتابع الرسائل الواردة إليه من البلاد والأنحاء حتى انقضاء ثلث الليل، ثم ينام الثلث الأوسط، ثم يقوم في الثلث الأخير فيصلي قيام الليل حتى طلوع الفجر، ثم يصلي بالناس ويبدأ في مباشرة الأموال وإدارة أحوال البلاد[1].

وفاة المنصور

منذ (١٥٥هـ) وحتى (١٥٨هـ) عاشت الدولة في هدوء على المستوى السياسي والعسكري، ولا نكاد نجد أحداثا كبيرة الشأن في هذه الأعوام، وقد عزم المنصور على الحج (١٥٨هـ) فخرج إلى مكة، ومات في الطريق إليها، عند منطقة تسمى بئر ميمون، وقد كتم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من قادة بنى هاشم ثم دُفِن، وكان آخر ما تكلم به المنصور أن قال: «اللهم بارك لي في لقائك»[2].

وقفة مع المنصور

لا ريب أن المنصور هو المؤسس الفعلي للدولة العباسية، ولا ريب -أيضًا- في أنه كان رجل المرحلة التاريخية الذي تَسَلَّم الدولة تتناوشها الرياح وتتلاعب بها الأعاصير فتركها ثابتة الأركان راسخة الوجود، مهابة في الداخل والخارج، أو بعبارة ابن الطقطقي: «أصّل الدّولة، وضبط المملكة، ورتّب القواعد وأقام النّاموس»[3].

لكن ثمة جوانب تغفلها صفحات التاريخ السياسي التي تقص سيرة الدولة، بينما تبرز في صفحات التاريخ الاجتماعي والأدبي وفي صفحات كتب التراجم والرجال، وبعض ما لم تسمح أيام السياسة بذكره آثرنا أن نضعه هنا لنقرأ ملامح الشخصية بدرجة أعمق، ولكي لا تكون غمامة السياسة حاجبة لمواقف صغيرة تمَّت هنا وهناك هي بطبيعتها تلقي الضوء على الشخصية التي صنعت السياسة؛ فتكشف البعد الأعمق والصورة الأدق لها.

١- التوازن والحكمة

لئن بدا المنصور في تاريخه السياسي مسارعا إلى القتل، فإن هذا غير صحيح حين نتطلع

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٢.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٨، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١٦، ٥١٧.

(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص١٥٦.

إلى نظرة متأملة، فهو لم يسارع إلا لقتل من خرج على الدولة أو دعم هذا الخروج، بينما لم يسمح بأخذ من سكن وكفَّ يده ولو كان عدوًّا سابقًا، وحين بلغه أن عيسى بن موسى قتل رجلًا من ولد نصر بن سيار كان مستخفيًا بالكوفة فدل عليه فضرب عنقه فأنكر ذلك وأعظمه وهم في عيسى بأمر كان فيه هلاكه ثم قطعه عن ذلك جهل عيسى بما فعل فكتب إليه: «أما بعد فإنه لولا نظر أمير المؤمنين واستبقاؤه لم يؤخرك عقوبة قتل ابن نصر بن سيار واستبدادك به بما يقطع أطماع العمال في مثله فأمسك عمن ولاك أمير المؤمنين أمره من عربي وأعجمي وأحمر وأسود، ولا تستبدن على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبة في أحد قبله تباعة فإنه لا يرى أن يأخذ أحدًا بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة ولا بحدث كان منه في حرب أعقبه الله منها سلما ستر به عن ذي غلة وحجر به عن محنة ما في الصدور وليس ييأس أمير المؤمنين لأحد ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر كما أنه لا يأمن إدبار مقبل إن شاء الله والسلام»[١]. بل وورد أن الأموي كان يمشي مختالا في عهد المنصور[٢].

وكان المنصور يقرب مواليهم ويكرمهم ويؤاكلهم ويجلسهم معه على سبيل التبسط والأنس، لا يحط من قدر أحد للونه أو قبحه أو بساطة عمله، ويوصي أولاده بحفظهم ورعايتهم، ويصلي على موتاهم بجنازة يحضرها كبار رجال الدولة والبيت الهاشمي[٣]، وكان من وصيته لابنه المهدي: «وانظر إلى مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك»[٤].

وكان المنصور يفهم طبائع الرجال، ويقدرهم في إكرامهم وفي عقوبتهم، فمن إكرامهم أنه أعطى لمحمد بن سليمان عشرين ألف درهم ولجعفر أخيه عشرة آلاف درهم فقال جعفر: يا أمير المؤمنين تُفَضِّله علي وأنا أَسَنُّ منه؟ قال: وأنت مثله؟! إنا لا نلفت إلى ناحية إلا وجدنا من أثر محمد فيها شيئًا وفي منزلنا من هداياه بقية وأنت لم تفعل من هذا شيئًا[٥].

ومن عقوبتهم قوله: «عقوبة الحليم التعريض وعقوبة السفيه التصريح»[٦] فكان يعفو

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١٧، ٥١٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٩.
(٣) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٢٤،٢٣.
(٤) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٦٥.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٥.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٢.

أحيانًا ويعاقب أحيانًا بحسب الرجل والموقف، وعلى الرغم من كثرة ما ورد في عفوه؛ فإن هذا لم يشمل كل الناس ولو كان حسن اللسان والمنطق(١)، وهذا أحد ولاته حين عزله وأمر باستصفاء الأموال التي استولى عليها ظلمًا صاح به: عبدك يا أمير المؤمنين. قال: بئس العبد أنت. قال: لكنك يا أمير المؤمنين نعم المولى. قال: أما لك فلا(٢).

وكان مثالًا في الجد والابتعاد عن اللهو والعبث حال كونه خليفة حتى قيل: «لم يُرَ في دار المنصور لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث»، ولكنه حين يدخل إلى بيته وخاصته يكون رقيقا حنونا بل «أشد احتمالا لما يكون من عبث الصبيان»(٣).

وبالجملة فالمنصور -كما يصفه المسعودي- كان «من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف»(٤).

٢- تأثره بالموعظة

دعا المنصور يومًا إمام أهل الشام الأوزاعي، فَلَبَّى دعوته، فدار بينهما هذا الحوار المؤثِّر..

سأله أبو جعفر: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟

- وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟

---

(١) حسن المنطق وسرعة البديهة وإتقان الجواب.. كثيرًا ما يبدو وكأنها تستطيع إنقاذ المجرم من العقوبة بل وتأتيه بالمكافأة، هكذا تبدو الصورة للوهلة الأولى أمام القارئ غير المتعمق في كتب تاريخنا وتراثنا الإسلامي، والشيء الذي ينبغي لفت النظر إليه أن القادة الكبار فضلا عن مؤسسي الدول والممالك لم ولن يكونوا بالسذاجة التي تجعل كلمة تحول مواقفهم من ذات اليمين إلى ذات الشمال، كما أن حسن المنطق وسرعة البديهة في كثير من الروايات لا تعبر عن نفاق ساذج أجوف كالذي نعرفه في حياتنا المعاصرة، بل عن ملكات شخصية تشير إلى تمكن في العلم أو اللغة أو المنطق، ما يجعلها تكشف عن شخصية يرى فيها الخليفة القوي الذكي مكسبا ولو بعد حين، فهو يعفو إما خروجا من سمعة البطش بخيار الرجال، أو استمالة له ليكون في صفه بعد أن كان عدوه، أو ليكون عفوه عنه من محاسنه عند العامة والخاصة والأتباع أو لغير ذلك مما يقدره رجل السياسة.. وكل هذا إن لم يكن في الرد الحسن ما يدفع إلى التفكير الجاد وتغير الرأي عن قناعة.

على أن الإنصاف والأمانة العلمية تجعلنا نقر ونعترف بأن النفاق موجود في كل عصر، وتتأثر به كل نفس بشرية، والملوك الضعفاء هم الأكثر عرضة للتأثر به والطرب له، ولكننا أردنا إزاحة تصور يأتي من قراءة سطحية لتراثنا التاريخي والأدبي، وهو أن الخلفاء كانوا في عمومهم رجالا بلا شخصية يكفي أن يقف أمامهم فصيح اللسان ليخرج من العقوبة أو ليستخلص من أموال المسلمين ثروة طائلة.

وأما الشعراء فلهم شأن آخر، ويكفي لتقريب الصورة أن نقول إن الإنفاق على شاعر يشبه في أيامنا هذه الإنفاق على الإعلام والصحافة والقنوات الفضائية، ومعروف بالبديهة أن الإعلام من أركان الحكم ومن أهم وسائله.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١٨.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٢٩٢ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).

- أريد الأخذ منكم والاقتباس عنكم.

- فانظر يا أمير المؤمنين ولا تجهل شيئًا مما أقول.

- وكيف أجهله وأنا أسألك عنه، وقد وجهت فيه إليك؟

- أن تسمعه ولا تعمل به.

وهنا ارتاع حاجبه الربيع بن يونس وتحركت يده إلى السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة.. فطابت نفس الأوزاعي وانبسط في الحديث فقال:

- **يا أمير المؤمنين،** حدثني مكحول عن ابن بسر، أن رسول الله ﷺ قال: **«أَيُّمَا عَبْدٍ جَاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ مِنَ اللهِ فِي دِينِهِ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ سِيقَتْ إِلَيْهِ فَإِنْ قَبِلَهَا بِشُكْرٍ وَإِلَّا كَانَتْ حُجَّةً مِنَ اللهِ عَلَيْهِ لِيَزْدَادَ بِهَا إِثْمًا، وَيَزْدَادَ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطًا»**.

- **يا أمير المؤمنين:** حدثني مكحول عن ابن بسر أن رسول الله ﷺ قال: **«أَيُّمَا وَالٍ بَاتَ غَاشًّا لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»**.

- **يا أمير المؤمنين:** من كره الحق فقد كره الله لأن الله هو الحق المبين.

- **يا أمير المؤمنين:** قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم وأسودهم، ومسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيبه من العدل، فكيف إذا تبعك منهم وفد وراء وفد، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه؟

- **يا أمير المؤمنين:** لقد كان النبي بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، مواسيًا بنفسه لهم في ذات يده، وكان فيهم بالقسط قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، لم تغلق عليه دونهم أبواب، ولم يقم عليه دونهم الحجاب، يبتهج بالنعمة عندهم ويبتئس بما أصابهم..

- **يا أمير المؤمنين:** حدثني مكحول عن زياد بن جارية عن حبيب بن مسلمة أن رسول الله دعا إلى القصاص من نفسه في خدشة خدشها أعرابيًّا لم يتعمدها، فأتاه جبريل فقال: يا محمد! إن الله لم يبعثك جبارًا ولا متكبرًا، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: **اقْتَصَّ مِنِّي**. فقال الأعرابي: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيت على نفسي. فدعا له الرسول بخير. فكيف بمن شقَّق أبشار الناس، وسفك دماءهم، وخرب ديارهم وأجلاهم

عن بلادهم، وغيبهم الخوف منه؟!

▪ **يا أمير المؤمنين:** رُض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض قال فيها رسول الله ﷺ: **«لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»**. يا أمير المؤمنين الملك لو بقي لِمَنْ قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقي لك كما لم يبقَ لغيرك.

▪ **يا أمير المؤمنين:** أتدري ما جاء عن جدك في تأويل هذه الآية: ﴿**مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾ [الكهف: ٤٩]؟ قال: الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك.. فكيف بما حدثته الألسن وعملته الأيدي؟!

▪ **يا أمير المؤمنين:** بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن يسألني الله عنها... فكيف بمن حُرِم عدلك وهو على بساطك؟!

▪ **يا أمير المؤمنين:** إنك قد بليت بأمر عظيم، لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه. حدثني يزيد عن جابر عن عبد الرحمن عن أبي عمرة الأنصاري أن عمر بن الخطاب استعمل رجلًا من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيمًا، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله؟ قال: لا. قال عمر: وكيف ذاك؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: **«مَا مِنْ وَالٍ يَلِي مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا إِلَّا أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ عَلَى جِسْرٍ مِنْ نَارٍ فَيَنْتَفِضُ بِهِ الْجِسْرُ انْتِفَاضًا يُزِيلُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ، ثُمَّ يُعَادُ فَيحَاسَبُ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَجَا بِإِحْسَانِهِ وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا انْخَرَقَ بِهِ ذَلِكَ الْجِسْرُ فَهَوَى بِهِ فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»**. فقال له عمر: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبي ذر وسلمان. فأرسل إليهما عمر، فسألهما فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ فقال عمر: واعمراه، من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر: من أسلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض.

فأخذ أبو جعفر المنديل، ووضعه على وجهه فبكي وانتحب حتى أبكى الأوزاعي... ثم مضى الأوزاعي ودمعه ينهمر.

▪ **يا أمير المؤمنين:** قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة على مكة والطائف فقال له: **«يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ النَّبِيِّ، نَفْسٌ تُحْيِيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا»**. وهي نصيحة منه لعمه، وشفقة

منه عليه، لأنه لا يغني عنه من الله شيئًا، ولما أوحى الله تعالى إليه: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «**يَا عَبَّاسُ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ النَّبِيِّ إِنِّي لَسْتُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِلَّا لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ**». وقد قال عمر ﷺ: لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، أريب العقدة، لا يطلع منه على عورة[١]، ولا يحنو على حوَّية[٢]، ولا تأخذه في الله لومة لائم. وقال: السلطان أربعة أمراء: فأمير قوي ظلف نفسه وعماله فذاك المجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه الرحمة. وأمير ضعيف ظلف نفسه وأرتع عماله فضعف، فهو على شفا هلاك إلَّا أن يرحمه الله، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «**شَرُّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ**». فهو الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعًا.

- **وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب قال:** اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على مَنْ كان الحق من قريب أو بعيد، فلا تمهلني طرفة عين. يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى.. إنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه.

هذه نصيحتي والسلام عليك.. ثم نهض..

فقال أبو جعفر: إلى أين؟

قال: إلى البلد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله.

قال أبو جعفر: قد أذنت وشكرت لله نصيحتك، والله الموفق للخير والمعين عليه، فلا تحرمني من مطالعتك إياي بمثلها فإنك المقبول غير المتهم في النصيحة.

فقال الأوزاعي: أفعل إن شاء الله.

ثم أمر المنصور للأوزاعي بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله الأوزاعي، وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها [٣].

ومرَّ المنصور يومًا في سفره إلى مكة بموضع فتذكر فيه أنه نزل ضيفا فيه قبل سنين، وكان صاحب البيت قد ذبح شاة ولكنه جاءهم في العشاء بلبن، فدهش المنصور لبخله وقال:

---

(١) لا يطلع منه على عورة: أي لا تظهر منه عيوب.

(٢) ولا يحنو على حوية: اى لا يدارى على مثلبة ولا يتكتم على فساد.

(٣) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٦/ ١٣٦ وما بعدها.

أتعزينا بلبن وقد ذبحت اليوم شاة؟ فكان الرد: أتأكلون اللحم في اليوم مرتين؟!.. فيقول الراوي عيسى بن موسى -وكان رفيقه في المرتين- قال المنصور: فإني ذكرتها وأنا أنظر إلى حالي، فأرسلت إليك لتحمد الله وتشكره على ما نحن فيه، قال: فما زلنا نحمده وندعوه عَشِيَّتنا[١].

ودخل المنصور يومًا إلى قصر الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة فقال له وقد غضب عليه: لم لم تقم؟ قال: خفت أن يسألني الله عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك، وقد كره رسول الله القيام للناس. فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه.

وهو على الرغم من حرصه على عظمة الملك وفخامة السلطان وجمال أهل بيته في عيون الرعية؛ فإنه كان زاهدا في نفسه وبيته وملبسه[٢].

٣- الحلم والرفق

قال المنصور لابنه المهدي: «لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ولا تعمر البلاد بمثل العدل ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال ولا تقدم في الحياطة بمثل نقل الأخبار وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة وأعجز الناس من ظلم من هو دونه واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره»[٣].

وقال أيضًا: يا بني استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتأليف، والنصر بالتواضع والرحمة للناس، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله[٤].

وحضر عنده مبارك بن فضالة يومًا وقد أمر برجل أن يضرب عنقه وأحضر النطع والسيف، فقال له مبارك: سمعت الحسين يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ لِيَقُمْ مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى الله فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا**». فأمر بالعفو عن ذلك الرجل. ثم أخذ يعدد على جلسائه عظيم جرائم ذلك الرجل وما صنعه[٥].

وقال الأصمعي: أتي المنصور برجل ليعاقبه فقال: يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والعفو

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص١٠٧، ١٠٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٨، ٥٣٨.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٣.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٢.
(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٣/ ٢١٢.

فضل، وتعوذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين، وأدنى القسمين، دون أرفع الدرجتين. قال: فعفا عنه. وذات يوم قال المنصور لرجل من أهل الشام: احمد الله يا أعرابي الذي دفع عنكم الطاعون بولايتنا. فقال: إن الله لا يجمع علينا حشفا وسوء كيل، ولايتكم والطاعون[١] فلم يعاقبه.

والحكايات في ذكر حلمه وعفوه كثيرة.

ومن أقواله: يا بني ليس العاقل من يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه؛ حتى لا يقع فيه[٢].

وكان المنصور كثيرًا ما يقول: من فعل بغير تدبير، وقال عن غير تقدير لم يعدم من الناس هازئًا أو لاحيًا[٣].

٤- العلم

كان المنصور في شبابه يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه فنال جانبا جيدًا وطرفًا صالحا، وقد قيل له يومًا: يا أمير المؤمنين هل بقى شيء من اللذات لم تنله؟ قال: شيء واحد، قالوا: وما هو؟ قال: قول المحدِّث للشيخ: من ذكرت رحمك الله. فاجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا: ليُملِ علينا أمير المؤمنين شيئًا من الحديث، فقال: لستم بهم، إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، رواد الآفاق وقطَّاع المسافات، تارة بالعراق وتارة بالحجاز، وتارة بالشام، وتارة باليمن. فهؤلاء نقلة الحديث[٤].

ومما يدل على علمه الواسع طلبه من الإمام مالك أن يضع كتابًا جامعًا على أن يتجنب فيه «شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود»[٥].

غير أن العلم عند رجل الحكم غير العلم عند الفقيه، فالمنصور أراد من وراء الكتاب توحيد القضاء وتعميم مذهب للدولة على قضاة الولايات والأنحاء، بينما لم يقبل الإمام مالك بهذا لأن الفقيه أعلم الناس أن اختلاف العلماء رحمة وأن حمل الأُمَّة على مذهب واحد

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٣١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٣.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٢.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٣٤.
(٥) مالك بن أنس: الموطأ ١/ ٦ (مقدمة التحقيق).

تضييق عليها وأن دخول السلطان على خط العلماء فيه إفساد للعلم والعلماء والأُمَّة كلها، وأن نصرة السلطة لمذهب بعينه بداية حرب أهلية.

قال المنصور: «إني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي قد وضعت يعني الموطأ فتنسخ نسخا ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها إلى غيرها ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم» فردَّ مالك بقوله: «يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم وإن ردهم عما اعتقدوه شديد فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم»(١).

خارج سلطة المنصور

١- الأندلس

في عام ١٣٧هـ، وهي السنة الأولى من خلافة المنصور، استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أن يستقل بالأندلس!

فبعد قصة هروب طويلة وعجيبة ومليئة بالأحداث استطاع عبد الرحمن بن معاوية، الفتى الأموي، حفيد هشام بن عبد الملك، والذي كان عمره وقت قيام الدولة العباسية تسع عشرة سنة فحسب، أن يواصل هروبه من العراق إلى الشام إلى مصر ويعبر الشمال الإفريقي إلى المغرب ثم يدخل إلى الأندلس ثم يحوزها بمساعدة موالي بني أمية فيها.

وأنشأ عبد الرحمن، الذي عُرِف فيما بعد بـ«عبد الرحمن الداخل»، في الأندلس دولة قوية رائدة، أنقذ بها الوجود الإسلامي في الأندلس، كما أنقذ وجوده الشخصي ووجود من بقي من الأمويين الذين انحازوا إليه في أقصى المغرب، وأصبح الداخل مجدد الدولة الأموية في المغرب بعد أن زالت من المشرق، وتأسست في الأندلس عوامل حضارة إسلامية زاهرة جعلتها من البقاع التي غيرت وجه التاريخ الإنساني كله، وظلت الدولة الأموية في الأندلس ثلاثة قرون أخرى!

---

(١) ابن عبد البر: الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ص٤١.

على أن عبد الرحمن الداخل وإن لم يخضع للخلافة العباسية في بغداد، إلا أنه لم يناوئها واتخذ لقب «الأمير» ولم يتخذ لقب الخليفة أو الملك، وتوجهت جهوده في تثبيت أمر الأندلس، ومواجهة التهديد الصليبي في الشمال والشمال الشرقي.

ولم يكن المنصور بالذي يترك جزءًا من الأرض الإسلامية منفصلا عن الدولة، كما لم يكن بالإمكان أن يحرك الجيوش من العراق إلى الأندلس لإعادتها إلى الخلافة، فما كان منه إلَّا أن راسل أحد رجال الأندلس أصحاب الزعامات فيها وهو العلاء بن مغيث الحضرمي يعهد إليه بولاية الأندلس إن هو استخلصها من عبد الرحمن وانضوى تحت الخلافة العباسية، وفي رواية أن البداية كانت من عند العلاء الذي اتصل برجال المنصور حين كان العلاء بإفريقية.

أرسل أبو جعفر المنصور إلى العلاء بن مغيث الحضرمي لواء أسود دعما له، وثار العلاء فعلًا على عبد الرحمن الداخل (عام ١٤٦هـ)، وكانت واحدة من أقوى الثورات التي اشتعلت ضد حكم عبد الرحمن الداخل بالأندلس، وقامت حرب انتصر فيها عبد الرحمن الداخل نصرًا كبيرًا، وقُتِل فيها العلاء بن مغيث، ولزيادة قوة الرسالة أرسل عبد الرحمن سرا إلى مكة من وضع رأس العلاء بن مغيث واللواء العباسي وكتاب المنصور بتولية العلاء في صندوق بالقرب من خيمة أبي جعفر المنصور الذي كان يحج في سنة (١٤٧هـ)، فلما وصلت إلى أبي جعفر نظر آسفا إلى رأس العلاء وقال: قَتَلْنَا هذا البائس (العلاء بن مغيث)، ما لنا في هذا الفتى (عبد الرحمن) من مطمع، الحمدُ لله الذي جعل بيننا وبينه البحر.

وكانت تصل أنباء الدولة التي بناها عبد الرحمن في الأندلس إلى مسامع الخليفة في بغداد، وكان لا يُخفي إعجابه به، بل إن المنصور هو الذي لَقَّب عبد الرحمن باللقب الذي عُرف به في التاريخ.. صقر قريش!

روي أن المنصور قال يومًا لبعض جلسائه: أخبروني: مَنْ صقر قريش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضَ الملوك، وسكَّن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء.

قال: ما قلتم شيئًا!

قالوا: فمعاوية؟ قال: لا.

قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال: ما قلتم شيئًا.

قالوا: يا أمير المؤمنين؛ فمَنْ هو؟

قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًّا، منفردًا بنفسه؛ فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدَّة شكيمته، إنَّ معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذلَّلا له صعبه؛ وعبدُ الملك ببيعة أُبْرِمَ عقدها؛ وأمير المؤمنين بطلب عِتْرَته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفردٌ بنفسه، مؤيَّدٌ برأيه، مستصحبٌ لعزمه، وطَّد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلَّ الجبابرة الثائرين.

فقال الجميع: صدقتَ والله! يا أمير المؤمنين[1].

***

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٩٣، وابن عذارى: البيان المغرب ٢/ ٥١، ٥٢، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢٢، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٣٢، ٣/ ٣٦، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٤٥، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١/ ١٦١ وما بعدها.



المهــــــدي

واسمه محمد، ولد (١٢٧هـ) بالحميمة، التي شهدت مهد الدعوة العباسية، وكان جميلا، أسمر طويلا جعد الشعر، على إحدى عينيه نكتة بيضاء، وقد تعهده أبوه المنصور بالعناية والإعداد لمنصب الخلافة، ولقبه بالمهدي رجاء أن يكون هو المهدي الموعود الوارد ذكره في أحاديث آخر الزمان[1]، وهناك من يقول بأنه إنما لقبه بهذا في إطار الصراع الذي كان دائرا مع محمد النفس الزكية، ليعطي شرعية لخلافة العباسيين[2].

تولى في عهد أبيه الإشراف على أمر خراسان من موقعه في «الري» كما ذكرنا سابقا، وقاد جيوشا لإنهاء ثورة الأستاذ سيس المجوسي، وفتح طبرستان وحقق انتصارات على الترك والديلم، وكان يحضر مجالس أبيه التي تُدار فيها أمور الدولة فأخذ خلاصة التجربة السياسية لأبيه، ووصلت إليه الخلافة وعمره ٣٢ عاما.

***

صعد المهدي إلى المنبر (٦ من ذي الحجة ١٥٨هـ) وخطب قائلًا:

«أيها الناس: إن أمير المؤمنين عبدٌ دُعِي فأجاب، وأُمِر فأطاع» واغرورقت عيناه، فقال: «قد بكى رسول الله عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيما، وقُلِّدْت جسيما، فعند الله أحتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين..

أيها الناس: أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تهنكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لَمَنْ ينشر معدلته فيكم، ويطوي ثوب الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة ولين المعيشة من حيث أراه الله، مقدما ذلك على فعل من تقدمه، والله لأعفين عمري من عقوبتكم، ولأحملن نفسي على الإحسان إليكم».

فأشرقت وجوه الناس من حسن كلامه، ثم استخرج حواصل أبيه من الذهب والفضة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٦٢.

(٢) د. فاروق عمر: الثورة العباسية ص ٤٢.

التي كانت لا تحد ولا توصف كثرة، ففرقها في الناس، ولم يعط أهله ومواليه منها شيئًا، بل أجرى لهم أرزاقا بحسب كفايتهم من بيت المال، لكلِّ واحد خمسمائة درهم في الشهر غير الأعطيات[١].

بدأ المهدي ولايته بنشاط كبير؛ فعلى مستوى الإصلاح الداخلي استفتح المهدي عهده بإعادة الأموال المصادرة إلى أصحابها، وإطلاق السجناء المعارضين وتعويضهم[٢]، وكان منهم يعقوب بن داود[٣]، والحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن (وهو ابن إبراهيم صاحب ثورة البصرة في عهد المنصور)، وقد أفضى يعقوب بن داود إلى المهدي بأن الحسن بن إبراهيم كان قد عزم على الهروب من السجن من قبل، فخشي المهدي أن يكون عازما على ثورة جديدة فأخرجه من السجن ولكن وضعه قيد الإقامة الجبرية في دار أحد خادميه وهو نصير الخادم وأمره بأن يحتاط عليه، إلَّا أنَّ الحسن بن المهدي تمكن من الهرب وانطلق إلى الحجاز[٤].

وبأثر من هذه النصيحة أصبح يعقوب مقربا من المهدي ثم اقترح على المهدي أن يجعله أحد رجاله لينقل إليه نبض الناس وحال الرعية والدولة بعيدا عن الطرق الرسمية، فوافق المهدي وسمح له بالدخول عليه في أي وقت، وبالفعل قدم يعقوب خدمات جليلة للمهدي على هذا السبيل؛ فكان يشير عليه بحاجة الحصون وتقوية الجنود وفداء الأسرى، وإعطاء المعسرين وتزويج الشباب وفك الديون عن المدينين، فارتفعت منزلة المهدي وأحبه الناس، فبلغ يعقوب عنده منزلة أثيرة وكان أحد رجال دولته الكبار، وأعلن المهدي أنه اتخذه «أخا في الله»، وبعض المؤرِّخين يتشكك أنه إنما فعل ذلك؛ لكي يطمئن الحسن فيتجنب ثورته أو يظفر به[٥]، وقد بلغ المهدي مراده فقد استأمن يعقوب للحسن فأتى المهدي في حجه (١٦٠هـ)

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٥/ ٣٩٣، وابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٢٦.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٢٧.

(٣) يعقوب بن داود بن طهمان: كان أبوه داود بن طهمان كاتبا لنصر بن سيار -والي الأمويين على خراسان- ولكنه كان متعاطفا مع ثورة يحيى بن زيد العلوي فكان يبعث إليه بأخبار نصر، وكان هذا هو السبب في نجاته من أبي مسلم الخراساني الذي تعقب من شاركوا في قتل يحيى بعدئذ، فاكتفى أبو مسلم بمصادرة أمواله ولم يحبسه أو يقتله، ثم نشأ أولاده أهل علم وأدب لا مطمع لهم في السياسة، واعتنقوا مذهب الزيدية، وكانوا من رجال إبراهيم بن عبد الله بن الحسن الذي قام بثورة البصرة بالتزامن مع أخيه محمد النفس الزكية، فلما قُتِل إبراهيم حبسه المنصور فلم يزل محبوسا حتى أخرجه المهدي! سترتفع مكانته حينا ثم سيعود إلى السجن مرة أخرى! وما أكثر ما تتقلب الأيام! انظر: الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٤، ٥٧٥.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٤٩.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٠، ٥٧٥.



طائعًا فأحسن المهدي إليه وكافأه[1]، وبقيت مكانة يعقوب كما هي بل زادت فيما بعد حتى لقد كان من صلاحياته (١٦١هـ) إنفاذ توجيهات الخليفة للولاة[2].

كذلك عزل المهدي كثيرًا من الولاة وأصحاب الأعمال عن ولاياتهم وعَيَّن غيرهم[3]، ولم نعرف أسباب موجة العزل هذه إلا أن عبارة للمسعودي توحي بأن سياسة المهدي كانت كثرة العزل والتولية لغير سبب[4]، فلربما أراد أن يتجنب ظهور مراكز قوى في الولايات لا سيما وسياسته ألين وأرفق من المنصور ومن شأن هذا أن يُطمِع فيه.

وأرسل جيشًا كبيرًا إلى الروم، وآخر إلى الهند، وسنأتي على ذكرهما حين الحديث عن الجهاد والفتوحات في عهد المهدي، وفي هذا العام بنى المهدي مسجد مدينة الرصافة، كما بنى خندقا حولها وسيأتي ذكر ذلك بعد قليل إن شاء الله.

كذلك حسم المهدي أمر ولاية العهد، وعزم على خلع عيسى بن موسى من ولاية عهده لصالح ابنه موسى الهادي الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، بينما كان عيسى في السابعة والخمسين، ولمرة أخرى لا نجد من بين الروايات الصحيحة ما يورد كيف ولماذا خلع عيسى بن موسى نفسه وبايع لموسى بن المهدي بينما تطيل في ذلك الروايات الضعيفة[5]، وقد ذكرنا من قبل في خلع المنصور لعيسى بن موسى ما رجحناه من أسباب هذا الخلع، فليُراجَع هناك.

كل هذه الأمور أنجزها المهدي في السنة الأولى من خلافته (١٥٩هـ)، على خلاف في مسألة ولاية العهد هل كانت في هذا العام أم في العام الذي يليه (١٦٠هـ).

وفي حجة المهدي (١٦٠هـ) تقرب من أهل المدينة سواء بالمال أو برفع المكانة، بل وتعبيرا عن ثقته فيهم اصطفى منهم خمسمائة رجل يصحبونه إلى العراق فيكونون من حرسه الخاص، وأجرى على هؤلاء الخمسمائة مكافآت زائدة عن رواتبهم كما أقطعهم منطقة في بغداد،

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٨.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٤٨ وما بعدها.

(٤) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٩٧.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٣ - ٥٥٥، ومحمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٥/ ١٣٨ - ١٤٠ (قسم الصحيح)، ١١/ ٨٩ - ٩٤ (قسم الضعيف والمسكوت عنه).

فامتص بذلك آثار التوتر بين أهل المدينة والعباسيين المشتعل منذ ثورة محمد النفس الزكية، وأعاد إليهم (١٦٠هـ) الممتلكات المصادَرة في عهد المنصور[1].

حركات التمرد

كانت فترة المهدي بشكل عام فترة هادئة من ناحية الثورات، فلم تكن كثيرة كما أنها لم تستمر كثيرًا، وكان جيش الخلافة قادرا على إنهائها في حسم وسرعة.. اللهم إلا ثورة واحدة في صعيد مصر!

وكانت حركات التمرد من خصوم الخلافة الرئيسيين: الخوارج، الحركات الفارسية، بالإضافة إلى تمرُّد أموي فريد، وتمرد أعرابي شارد!

١- الخوارج

وكانت البداية من الأرض المضطربة.. خراسان، وفي العام التالي من خلافة المهدي (١٦٠هـ)!

أولاً: تمرُّد يوسف البرم

وأغلب الظن أنه من الخوارج، وتغلب على مدينة بوشنج الخراسانية حتى لقد هرب واليها مصعب بن زريق، وتوسع بشكل مفاجئ فسيطر على مرو الروز والطالقان والجوزجان، فوجه إليه المهدي جيشًا بقيادة الفارس القوي يزيد بن مزيد الشيباني، الذي كان محبوسًا منذ مؤامرة الخوارج في خراسان[2]، فأخرجه وكلفه بمواجهة يوسف هذا، فقاتله يزيدٌ وجها لوجه فاستطاع أسره، وأُسِر كذلك جماعة من أنصاره، وأُرسِلوا إلى المهدي في بغداد، فأمر الخليفة هرثمة بن أعين أن يقطع يَدَيْ يوسف ورجليْه، ثم تُضْرَب عنقه وأعناق من معه، وذلك أن يوسف هذا قتل أخًا لهرثمة في خراسان، ثم علق جثثهم على جسر دجلة[3].

وكانت هذه أول ثورة في عهد المهدي وكان لا بُدَّ من إظهار الشدة والحزم في إخمادها وفي عقوبة زعمائها ليتعظ بهم.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٨.
(٢) راجع حركات تمرد الخوارج في عهد المنصور.
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٣، ومحمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٥/ ١٣٩ (قسم الصحيح).



ثانيًا: تمرُّد عبد السلام اليشكري

في (١٦٢هـ) -أي في أثناء ثورة المقنع في خراسان- خرج عبد السلام بن هاشم اليشكري، وهو من الخوارج، بدأ تمرده من قنسرين واتبعه خلق كثير، وقويت شوكته، ولم تستطع الجيوش التي أرسلها الخليفة أن تقضي عليه؛ حتى تولى أمر قتاله شبيب بن واج المروروذي فهُزِم أول الأمر، ثم أمده المهدي بألف فارس مع مليون درهم، فخاض بهم شبيب المعركة الحاسمة فقاتله حتى هرب منه عبد السلام إلى قنسرين لكنه أدركه وقتله فانتهى أمره(١).

ثالثًا: تمرُّد ياسين التميمي

وفيها خرج بأرض الموصل خارجي اسمه ياسين من بني تميم فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة وكان يميل إلى مقالة صالح بن مسرح الخارجي فوجَّه إليه المهدي أبا هريرة محمد بن فروخ القائد وهرثمة بن أعين مولى بني ضبة فحارباه فصبر لهما حتى قتل وعدة من أصحابه وانهزم الباقون.

٢- الحركات الفارسية

أولاً: تمرُّد المقنع الخراساني

وبدأت (١٦١هـ) في خراسان، إذ ظهر رجل اسمه عطاء، وكان أبرص وأعور وذا شكلٍ قبيحٍ ويلبس من أجل هذا قناعا من الذهب، فلهذا عُرف بـ «المُقَنَّع الخراساني»، وقد استمد أصول أفكاره من مذاهب شتى: فارسية وإسلامية وهندية، وصاغ في النهاية مذهبًا يدعو إلى الإباحية المطلقة في النساء والأموال بحيث لا يمنع أحد مما يريد، فتبعه على هذا خلق من الفقراء والرعاع والمنحلين أخلاقيا ومعهم -أيضًا- من اقتنعوا بفكرة الشيوعية هذه التي ترفض وجود فوارق كبيرة بين الأغنياء والفقراء، واعتنق مذهب تناسخ الأرواح، وصاغها بما يجعل له مكانة عُليا، فادعى أن روح الله تجسدت في آدم فلهذا سجدت له الملائكة، ثم انتقلت إلى نوح ثم إلى سائر الأنبياء حتى انتهت إلى محمد، ثم انتهت بعدئذٍ إلى أبي مسلم الخراساني، ثم إليه، فادعى الألوهية لنفسه(٢)!

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٤.

(٢) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٤٣، ٢٤٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٣٠، وابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص١٧٧.

وراجت هذه الأفكار في بيئة طالما شهدت أجيالا تقدس الملوك وترى فيهم روح الإله وتعتقد فيهم المعجزات، وورد أنه كان يُري الناس قمرا في السماء من مسيرة شهرين ثم يُغَيِّبه عنهم، ويبدو أنه استعمل بعض المرايا الكبيرة ووضعها في بعض الآبار أو ما شابه ثم تلاعب بعكسها لضوء القمر، وأحيانًا وضعها لعكس ضوء الشمس؛ في حيلة يغر بها أتباعه؛ ويوهمهم أن هذا نوره إذا خلع القناع أو نور مسخر له(١)، فاشتد إيمان أتباعه به، واعتقدوا أكثر في ألوهيته وحملوا السلاح دفاعًا عنه(٢)!

وقد تحالف معه كل ذي عداء للعباسيين في خراسان وما وراء النهر وإن لم يكونوا على مذهبه، فكان معه قسم من الأتراك فيما وراء النهر بجانب من اتبعه في خراسان ممن على مذهبه في الضلال أو على مذهبه في السياسة(٣).

حاربه أمير خراسان معاذ بن مسلم، وأمدته الخلافة بجيوش أخرى، واستمرَّ الحال حتى حاصره جيش سعيد الحرشي في قلعته «سنام» بناحية «كش» فيما وراء النهر، وشدد عليه الحصار، فلما وجد المقنع أن لا مهرب له جمع أهله فسقاهم سُمًّا وشرب معهم فمات، وقيل بأنه أشعل نارا كبيرة في القلعة ونادى في أصحابه «من أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار»، وألقى نفسه وأهله لئلا يحصل المسلمون ولو على جثته، ووضع في النار كل ما أمكنه من المال والذخائر، وبهذا انتهى أمره بعد نحو عامين من ظهوره الأول (١٦٣هـ)، واستحوذ المسلمون على حواصله وأمواله(٤).

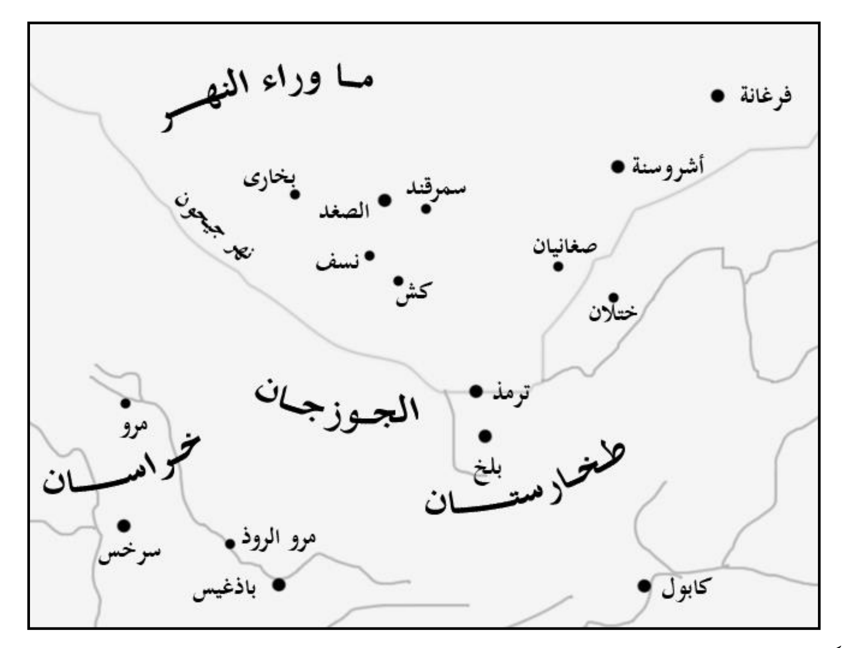
---

(١) الإسفراييني: التبصير في الدين ص١٣١، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢٦٤، والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص٤٦٦.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٠.

(٣) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٣٠.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٠، ٥٦٦، وعبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٤٤.



ولعلَّ هذه هي البداية الحقيقية التي كانت وراء حملة المهدي على الزنادقة، إذ صار مؤكدا أن الأمر ليس مجرَّد انحراف فكري فحسب، بل هو يقود إلى حركات تمرُّد مسلحة وكبيرة.

ثانيًا: تمرُّد المحمرة

وفي العام نفسه (١٦٢هـ) ظهرت طائفة جديدة في جرجان فلبسوا الثياب الحمراء - ولهذا سُمُّوا المحمرة- يقودهم زعيم يدعى عبد القهار، فتوجه إليه جيش يقوده عمرو بن العلاء من طبرستان فقهر عبد القهار وقتله وأصحابه(١).

٣- تمرُّد دحية بن مصعب الأموي

وأما الثورة التي استعصت عليه في عهده، فقد كانت في صعيد مصر، وبدأت بالتحديد من قرية بويط(٢)، حيث ثار هناك دحية بن مصعب حفيد عبد العزيز بن مروان(٣) (٦٥هـ)، وقد فشل والي مصر إبراهيم بن صالح بن علي في القضاء على ثورته فعزله المهدي وولى مكانه موسى بن مصعب الخثعمي (١٦٧هـ) الذي فشل هو الآخر وكانت قسوته في البطش أحد أسباب مقتله حين أسلمه بعض الجند إلى الثائرين، ثم جاء بعد موسى عَسَّامة بن عمرو

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٤.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٥١٣.

(٣) عبد العزيز بن مروان: كان واليًا على مصر في عهد أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان وهو والد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز.

المعافري ولم يكن خيرا من سابقيه، وظلت الثورة قائمة لمدة أربع سنوات حتى جاء الفضل بن صالح بن علي واليًا على مصر في جيش عظيم فاستطاع القضاء على هذه الثورة وقتل دحية بن مصعب (جمادى الآخرة ١٦٩هـ)(١).

٤- تمرُّد أعراب بادية البصرة

وفيها (١٦٧هـ) أفسد العرب في بادية البصرة بين اليمامة والبحرين وقطعوا الطريق وانتهكوا المحارم وتركوا الصلاة؛ فأرسل المهدي إليهم جيشًا فقاتلهم، واشتدَّ القتال، وصبر العرب فظفروا وقتلوا عامة العسكر المنفذ إليهم، فقويت شوكتهم وزاد شرهم، وأغلب الظن أن هذا كان بعد اغتيال عقبة بن مسلم في بغداد (١٦٧هـ) فلقد كان واليًا على البحرين وأكثر فيها من القتل وكان قاسيًا(٢).

النهضة والرخاء

لئن كان المنصور قد أسس الدولة ورسخ جذورها فإن عهد المهدي كان بمثابة من حصد الغرس واجتنى الثمر، لقد كانت خلافة المهدي مرفهة على الناس؛ حتى لقد أقرت الدولة لأول مرة (١٦٢هـ) رواتب ثابتة لمرضى الجذام الذين يتجنبهم الناس، وللمساجين والعميان والضعفاء في سائر أنحاء الدولة الإسلامية(٣)، وهو ما علق عليه ابن كثير بقوله: «وهذه مثوبة عظيمة ومكرمة جسيمة»(٤).

لقد كانت نهضة الدولة في عهد المهدي شاملة؛ شملت عمارة المدن والمساجد والطرقات ونهضة إدارية في الطرق والبريد وغيرها.

١- عمارة المدن والقصور والطرقات

أول ما بدأ العمران في عهد المهدي كان في العام التالي لخلافته (١٥٩هـ) حيث بنى سور مدينة الرصافة وبنى خندقها ومسجدها(٥).

ولم يمض ثلاث سنوات من خلافته حتى كان المهدي يبدأ أهمَّ إنجازاته: تعمير طريق

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص٩٤ وما بعدها، والمقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ٣٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٥٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٤، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ٩٦.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٤٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٤٨.

مكة (١٦١هـ) حيث كَلَّف يقطين بن موسى بهذا الملف وأمره بحفر الركايا[1] وعمل المصانع[2] وبناء القصور[3] في طريق مكة وأمر بزيادة القصور التي بنيت منذ عهد عمه أبي العباس السفاح، واستمرَّ العمل في هذا المشروع عشر سنوات حتى انتهى (١٧١هـ) فصارت طريق الحجاز من العراق من أرفق الطرقات وآمنها وأطيبها[4].

وفي (٣٠ من ذي القعدة ١٦٤هـ) أسس المهدي قصرًا بعيسا باذ، وكان من اللَّبِن؛ حتى بنى قصر السلامة فيما بعد (١٦٦هـ)[5]، وفي ذات هذا العام أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يفعل أحد هذا قبل هذه السنة[6].

وشمل اهتمامه مسالك التجارة وتأمين طرقها[7].

٢- عمارة المساجد

حين حجَّ المهدي (١٦٠هـ) كسا الكعبة على عادة الخلفاء من قبله، ولكن شكوى القائمين على أمرها وخشيتهم أن تهدم مما عليها من كثرة الكساء، جعلته يأمر بها فتجرد تمامًا، ثم طلاها بطلاء يقويها، ووضع كساء الخلفاء قبله ما عدا كسوة هشام بن عبد الملك التي كانت من ديباج ثخين جدًّا، ثم كساها كسوته وكانت غاية في الحسن، وقد فَكَّر المهدي في هدم الكعبة وبنائها على ما كانت عليه من بناية ابن الزبير، فقال مالك: دعها فإني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة، فتراجع عن هذه الفكرة[8].

وكانت تجديدات المهدي في الحرم بالغة الروعة والكلفة، وهذا اليعقوبي يسردها فيقول: «فجرد الكعبة وكساها القباطي والخز والديباج وطلى جدرانها بالمسك والعنبر من أعلاها إلى أسفلها وكانت الكعبة في جانب المسجد لم تكن متوسطة فهدم حيطان المسجد الحرام وزاد فيه زيادات واشترى من الناس دورهم ومنازلهم وأحضر الصناع والمهندسين من كل بلد وكتب

(١) الركايا: الآبار.
(٢) المصانع: جمعة مصنعة، وهي الأحواض التي تخزن فيها مياه الأمطار. ابن منظور: لسان العرب ٨/ ٢٠٨.
(٣) القصور: الاستراحات على الطريق، فكلمة القصر تطلق على البيت الواسع. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٧٣٩.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٠، ٥٦١.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٠.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٨.
(٧) د. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي ص٥٢.
(٨) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٧، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٨.

إلى واضح مولاه وعامله على مصر في حمل الأموال إلى مكة واتخاذ الآلات وما يحتاج إليه من الذهب والفسيفساء وسلاسل القناديل والخروج بها حتى يسلمها إلى يقطين بن موسى ومحمد بن عبد الرحمن وصير الكعبة في الوسط وزاد مما يلي الكعبة إلى باب الصفا تسعين ذراعا ومن الكعبة إلى باب بني شيبة ستين ذراعا وصير ذرعه مكسرا مائة ألف ذراع وعشرين ألف ذراع وطول المسجد من باب بني جمح إلى باب بني هاشم إلى العلم الأخضر أربعمائة ذراع وأربع أذرع وفيه من الأساطين مما حمل في البحر من مصر أربعمائة وأربع وثمانون أسطوانة طول كل أسطوانة عشر أذرع وصير فيه أربع مائة طاق وثمانية وتسعين طاقًا وجعل في المسجد الأبواب ثلاثة وعشرين بابًا فكان المهدي آخر من زاد في المسجد الحرام وبنى العلمين اللذين يسعى بينهما وبين الصفا والمروة وبينهما من الذرع مائة واثنتا عشرة ذراعًا فصار بين الصفا والمروة لما أخرج المسجد إلى الموضع الذي هو فيه الساعة سبعمائة وأربع وخمسون ذراعًا ووسع المسجد الذي لرسول الله وزاد فيه مثل ما كان عليه وحمل إليه عمد الرخام والفسيفساء والذهب ورفع سقفه وألبس خارج القبر الرخام»[1].

كذلك وَسَّع المسجد النبوي حين زار المدينة، وفَكَّر -أيضًا- في أن يُعيد المنبر النبوي إلى ما كان عليه في عهد النبي بعد إزالة الدرجات التي أضافها معاوية ﷺ، فنصحه مالك ألا يفعل لكيلا يتأثر الخشب العتيق بهذه الإزالة، فتراجع أيضًا[2]!

وقد جعل المهدي خراج نهر الصلة الذي استحدثه في واصل مخصصًا لنفقات الحرمين[3].

ووسع المهدي (١٦١هـ) جامع البصرة من جهتي الغرب والجنوب (القبلة)[4].

وبعد ست سنوات (١٦٧هـ) قرر المهدي توسيع المسجد الحرام، وكانت زيادة كثيرة شملت كثيرًا من الديار المحيطة بالمسجد، وكان مدير المشروع يقطين بن موسى المُوَكَّل بأمر الحرمين، وظل المشروع في طور التنفيذ أكثر من سنتين حتى مات المهدي ولم يكتمل[5].

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٢٨، ١٢٩.
(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٣٧٧، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٨.
(٣) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص١٧٠.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦١.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٠، ٥٨١.

٣- إصلاحات أخرى

أنشأ المهدي (١٦٢هـ) دواوين الأَزِمَّة[١] -جمع زِمام- وهو «من أهمِّ دواوين الدولة، ويشبه ديوان المحاسبة اليوم، وكانت مهنة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق أغنى أقاليم الدولة العباسية وتقديم حساب الضرائب في الأقاليم الأخرى. ومن اختصاصاته -أيضًا- جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن وكانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان -وقد جمعها عمر بن بزيع- فيتخذ دواوين الأَزِمَّة ويولي على كل منها رجلًا»[٢].

وأكمل المهدي سياسة المنصور المالية في أخذ الخراج بالمقاسمة، ووضع لها نظامًا مفصلًا يجعل تقدير الخراج في المساحات المزروعة قائمًا على نوعية الزرع لا على المساحة كما كان في عهد المنصور[٣].

وأمر المهدي بحفر نهر في واسط، سماه نهر الصلة، وجعل نفقة أراضيه مخصصة للإنفاق على الحرمين، ويُفهم من كلام قدامة بن جعفر أنه أتاح للمزارعين في هذه الأرض ملكيتها بعد خمسين سنة[٤].

٤- الكرم والإسراف

كان المهدي معروفًا بالكرم كثير الإنفاق، وقد عمَّ كرمه حتى أبعد الناس عن دولته، وهم الأمويون، ففي خروجه لتوديع الجيش الكبير الذي غزا الروم (١٦٣هـ) مرَّ على قصر قديم لمسلمة بن عبد الملك -الأمير الأموي والفارس الفاتح لبلاد أرمينية- فقال له عمه العباس بن محمد: «إن لمسلمة في أعناقنا مِنَّة؛ كان محمد بن علي مرَّ به فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال له إذا نفذت فلا تحتشمنا[٥]»، فأرسل المهدي في طلب أولاد مسلمة ومواليه فأعطاهم عشرين ألف دينار، وأمر بأن يكون لهم راتب ثابت[٦].

وكان المهدي يُكرم العلماء، فقد طلب من المفضل الضبي أن يجمع أمثال العرب في

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٤.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٦١ (حاشية المحقق).
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٣٣٤، والماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٦٢.
(٤) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص١٧٠.
(٥) المعنى: لا تخجل أن تطلب غيرها.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٦.

كتاب، فأخرج موسوعة «أمثال العرب» فكافأه ووصله[١].

بل كان أقرب الطرق إلى المهدي في العطايا أن يُذَكَّر بعطائه السابق، ومنهجه في هذا قوله: «ما توسل إليَّ أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يدا سلفت مني إليه أتبعها أختها فأحسن ربها؛[٢] لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل»[٣].

وهذا الرخاء خالطه بعض الإسراف والبذخ، فلقد أنفق المهدي أحيانا عشرة ملايين درهم في عشرة أيام[٤]، وأنفق في حجته (١٦٠هـ) ثلاثين مليون درهم ومائة ألف ثوب، بخلاف نصف مليون دينار جاءته من مصر واليمن، فأنفق كل هذا في أهل مكة والمدينة[٥]. وذات يوم قال له وزيره يعقوب بن داود حين سمع بخطته في أمر ما «هذا والله السرف. فقال (المهدي): ويلك وهل يَحْسُن السرف إلا بأهل الشرف؟! ويلك يا يعقوب لولا السرف لم يُعْرَف المكثرون من المقترين»[٦].

ومن ألطف ما يروى في هذا أن رجلًا دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن المنصور شتمني وقذف أمي، فإما أمرتني أن أحله، وإلاَّ عوضتني، واستغفرت الله له. قال: ولم شتمك؟ قال: شتمت عدوه بحضرته فغضب. قال: ومَنْ عدوه الذي غضب لشتمه؟ قال: إبراهيم بن عبد الله بن حسن. قال: إن إبراهيم أمس به رحمًا، وأوجب عليه حقًّا؛ فإن كان شتمك كما زعمت فعن رحمه ذبَّ، وعن عرضه دفع، وما أساء مَنِ انتصر لابن عمه. قال: إنه كان عدوًّا له. قال: فلم ينتصر للعداوة؛ وإنما انتصر للرحم. فأسكت الرجل، فلما ذهب ليولي قال: لعلك أردت أمرًا فلم تجد له ذريعة عندك أبلغ من هذه الدعوى؟ قال: نعم. قال: فتبسم، وأمر له بخمسة آلاف درهم[٧].

على أن هذه السياسة أذهبت من الخزانة –ذات يوم- كل ما قضى المنصور عمره في جمعه، وهي ستة عشر مليون درهم، وأربعة عشر مليون دينار، ومعها كل ما ورد عليها في أيام

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٩.
(٢) أحسن ربها: أى أحسن رعايتها وأوصل تكرارها.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٠.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٢٩٨ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٥٨.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٦.
(٧) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٧.

المهدي[1]، ولعل هذا ما دعا إلى رفع نسبة المقاسمة (نظام جباية الأراضي) وإلى فرض ضريبة جديدة على الأسواق[2].

المهدي والزنادقة

كلمة «زنديق» و«زندقة» ومشتقاتها فارسية الأصل دخلت في اللغة العربية، ويتفق أهل اللغة في معاجمهم على هذا، ثم يختلفون بعد هذا على المعنى الدقيق المراد لها، فبعضهم يقول: إنهم أتباع ماني -صاحب المذهب الفارسي المعروف- وبعضهم يذكر أنها تعني الملحد أو الدهري الذي لا يؤمن بالله ولا بالآخرة، وبعضهم على أنها تعني الإيمان بدين المجوس الفرس الذي يجعل للكون إلهين: للخير والشر والنور والظلمة، وبعضهم على أن معناها الإشراك بالله، وبعضهم على أنها إظهار الإيمان وإبطان الكفر، وأقر الزبيدي بأن التفريق بينه وبين المنافق -على هذا المعنى الأخير- مشكلٌ جدًّا[3]. وجعلها «معجم لغة الفقهاء» مقابلة للفظة الإنجليزية (Unbeliever) ومعناها «من لا يدين بدين»[4].

وقد تُوُسِّع في المعنى حتى أطلق «زنديق» على كل «شاك أو ضال أو ملحد»[5]؛ حتى لقد قيل: «من تمنطق تزندق» أي أن من تعلم المنطق والفلسفة سيقع في الشك والضلال ومن ثم في الزندقة، ثم توسع المعنى توسعا آخر حتى أُطْلِق على كل من تشبه بالفرس في عاداتهم وأسرف على نفسه في المجون واللهو والعبث والشهوات.

لكن معنى الزندقة كما هو مستفاد من الروايات التاريخية إنما كان يشير إلى قوم لهم أهداف ضد الإسلام وضد الدولة الإسلامية، إما بنشرهم الأفكار الفارسية المناقضة للإسلام أو بالطعن في الدين وفي النبي ﷺ أو بوضع وتأليف الأحاديث ونسبتها إلى النبي ﷺ، يقول الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور: «كان مما يصير به المرء معرضًا إلى تهمة الزندقة أن يكون فارسي الأصل، أو أن يؤثر عنه بُغْض العرب، أو أن يكون من أهل الخلاعة والمجون، أو في

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٢٩٨ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٣٢.

(٣) الخليل بن أحمد: العين ٥/ ٢٥٥، الأزهري: تهذيب اللغة ٩/ ٢٩٧ وما بعدها، والجوهري: الصحاح ٤/ ١٤٨٩، ابن منظور: لسان العرب ١٠/ ١٤٧، والفيروزآبادي: القاموس المحيط ص١١٥١، والزبيدي: تاج العروس ٢٥/ ٤١٨.

(٤) د. محمد رواس قلعجي ود. حامد قنيبي: معجم لغة الفقهاء ص٢٣٤.

(٥) المعجم الوسيط ١/ ٤٠٣.

المزح في الأمور الراجعة إلى العبادات، أو أن يكون مُنْكِرًا لشيء من أصول أشياع العباسية، أو أن يكون لا يحفظ من القرآن شيئًا»(١)، فعن هؤلاء تحديدًا يدور الحديث، فهم الذين شنت عليهم الدولة العباسية حربها!

يقول المستشرق الإنجليزي المعروف هاملتون جب: «كانت أخطار الحركة الشعوبية لا تكمن فقط في دعواها الوقحة ضد العرب (على الرغم من أنها لا تزال تغذي العداء القائم للعرب بين الطبقات الدنيا في العراق وفارس) بقدر ما كانت تكمن في التشكيك الذي ولدته في نفوس الطبقات المتعلمة... ولم يتضح فحسب في استمرار وجود الأفكار الثنوية في الدين، بل تجلى بصورة أوضح في الاستهتار والاستخفاف بجميع المذاهب الخُلُقِية»(٢).

يُرْجِع البعض بذور الزندقة إلى العصر الأموي، على خلاف في هذا بين المؤرِّخين، لكن اليقين أن الدولة لم تدخل في حرب ضد حركة الزندقة إلا في العصر العباسي، ويقول بعض المؤرِّخين بأن كثرة الرجال ذوي الأصول الفارسية في البلاط العباسي وتوليهم المناصب الكبيرة مثل الوزراء وكتاب الدواوين وما إلى ذلك هو ما قَوَّى فكر الشعوبية الفارسية والذي كانت حركة الزندقة فرعا منه.

وبحث الشعوبية كحركة يطول ويخرج بنا عن سياق التاريخ، لكن المقريزي اختصر ذلك كله في قوله: «السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلوّ اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر في أنفسها؛ بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدّون سائر الناس عبيدا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب عند الفرس أقَلَّ الأمم خطرًا، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يظهر الله تعالى الحق... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، واستبشاع ظلم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى، فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلًا ينتظر يدعى المهديّ، عنده حقيقة الدين إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار، إذ نسبوا

(١) بشار بن برد: ديوان بشار بن برد، (دراسة محمد الطاهر بن عاشور عن بشار بن برد في مقدمة الديوان) ١/ ٢٩.
(٢) هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام ص٨٦، ٨٧.

أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر، وقوم خرجوا إلى القول بدعاء النبوَّة لقوم سموهم به، وقوم سلكوا بهم إلى القول بالحلول وسقوط الشرائع، وآخرون تلاعبوا بهم فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وآخرون قالوا بل هي سبع عشرة صلاة في كل صلاة خمس عشرة ركعة...»[(١)]. وبهذا لم يكن جوهر النزاع مسألة سطحية، إنما كان جوهره يتناول الوجهة الثقافية للمجتمع الإسلامي[(٢)].

ولم يكن عسيرا أن تفهم الدولة العباسية أن حركة الزندقة تمثل تهديدًا حقيقيًّا لها، سواء من حيث أهدافها الشعوبية التي تبغي زوال دولة العرب وإعادة مجد الفرس أو من حيث وسائلهم في دس الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ وهو الأمر الذي يمثل تخريبًا لمصدر الشرعية ومنبع الدين، الذي تقوم باسمه الدولة ذاتها ومن مهماتها حراسته، أو بتعبير الماوردي: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[(٣)].

ولذا فإن تتبُّع الزنادقة لم يبدأ في عهد المهدي، بل إن محمد بن سليمان بن علي أمير الكوفة قتل عبد الكريم بن أبي العوجاء في عهد أبي جعفر المنصور، وقد كان على مذهب ماني، ومن زعماء من روجوا له وشككوا في التوحيد[(٤)]، وقد كان يزدري المصحف ولا ينكر أنه يصلي لأنها «عادة الجسد وسُنَّة البلد وإرضاء الأهل والولد»[(٥)]، وكان أكثر اهتمامه بإفساد أفكار الفتيان والشباب على وجه الخصوص[(٦)]، ولما كان على وشك القتل قال: «أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فِيهَا الحلال، وأحلل فِيهَا الحرام، ولقد فطرتكم فِي يوم صومكم وصومتكم فِي يوم فطركم»[(٧)].

كما استمرَّ تتبعهم من بعد المهدي، فهذا هارون الرشيد يأمر بقتل زنديق فيقول: لم تضرب عنقي يا أمير المؤمنين؟ قال: أريح العباد منك، قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله كلها ما فيها حرف نطق به رسول الله ، قال: فأين أنت يا عدو الله من

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ١٩٨.
(٢) هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام ص٨٣.
(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٥.
(٤) البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة ص١٩٦.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ٩٦.
(٦) ابن حجر: لسان الميزان ٤/ ٥١.
(٧) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ١٨٥.

أبي إسحاق الفزاري، وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفًا حرفًا»[١].

غير أن المهدي كان هو الأقوى في مقاومة الزنادقة؛ حتى لقد أنشأ ديوانًا (وزارة) لمتابعة هذا الملف في سائر أنحاء الدولة الإسلامية (١٦٧هـ)، وكَلَّف به عمر الكَلْوذاني الذي عرف باسم «صاحب الزنادقة»، واستطاع بهذا إجهاض وإنهاء العديد من المفاسد الذائعة بالترويج لدين الفرس ولوضع الأحاديث، ولما تُوُفِّيَ الكلوذاني (١٦٨هـ) تولاها محمد بن عيسى بن حمدويه[٢]، وحين خرج المهدي في غزوة إلى الروم ونزل بحلب استدعى من بهذه الأنحاء من الزنادقة فقتل منهم كثيرًا ومزق كتبهم[٣]، وصارت مواجهة الزنادقة من مناقب المهدي في التاريخ.

لقد دس هؤلاء الزنادقة آلافا من الأحاديث في العقائد والأخلاق والطب والحلال والحرام[٤]، وأشاعوا المجون والإباحية في شعر فاضح فاض بالغزل في الخمر والنساء، وعلى الرغم من هذا فلم يكن المهدي يسارع إلى قتل الزنادقة بل كان يستتيبهم، فإن تاب الزنديق تركه، إلَّا أن يقوم لديه دليل على أنه سيعود إلى ما كان عليه، وذكر المؤرِّخون ممن استتابهم فتابوا: داود بن روح بن حاتم -ابن والي البصرة روح بن حاتم- وإسماعيل بن مجالد ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفور[٥].

ومن أشهر من قتلهم المهدي صالح بن عبد القدوس الذي كان يروج لأديان فارس وأفكارهم عبر ما يقصه من الحكايات والأخبار والتاريخ وقد كان غزير المعرفة وله شعر بديع مشهور[٦]، وقد بلغ أمره المهدي فحاول القبض عليه لكنه هرب واختفى في دمشق

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ١٢٧.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٢، وابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٩٧.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٨.

(٤) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص١٠٢.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٥٣.

(٦) من أشهر الأبيات لصالح بن عبد القدوس:

ما يبلغ العدو من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

وله أيضًا:

إِذا كنت فِي حَاجَة مُرْسلا ... فارسل حكيما وَلَا توصه

وَإِن بَاب أَمر عَلَيْك التوى ... فَشَاور حَلِيمًا وَلَا تعصه

وله أيضًا:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

حتى اكتشف أمره فقبض عليه، وكان له -فوق ترويج دين الفرس- شعر تطعن في عرض النبي ﷺ (1)، وألف كتابًا سمَّاه «الشكوك» ووصفه بأنه «كتاب وَضَعْتُه من قرأه يشكُّ فيما قد كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان»(2)، ويجعله ابن قتيبة وابن دريد -وهما من المتقدمين- ضمن الدهريين وممن يضعون الحديث(3)، ويصفه الذهبي بـ«صاحب الفلسفة والزندقة»(4)، ويضعه ابن حجر ضمن مجموعة «مشهورين بالزندقة والتهاون بأمر الدين»(5) في ذلك الزمن.

ومنهم بشار بن برد الشاعر المشهور، وهو صديق صالح بن عبد القدوس وكانت لهم مجالس مع آخرين من مختلفي الأديان والمذاهب المنحرفة، وكانوا يتبادلون قول الشعر والأخبار، وكان بشار هذا يعلق أحيانًا بقوله: «أبياتك هذه يا فلان أحسن من سورة كذا وكذا»(6)، وفي شعره كثير من الزندقة بمعناها الديني وكثير -أيضًا- من المجون والفجور والإباحية، فمن هذا ما نُسِب إليه(7) في تعظيم النار معبودة المجوس:

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الفجار

النارُ عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النارِ

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ ... والنارُ معبودةٌ مذ كانت النار(8)

وورد عنه القول بتكفير الصحابة لأنهم لم يبايعوا عليًّا، وتكفير علي لأنه لم يقاتلهم على

وله أيضًا:

إذا وَتَرْتَ امرأً فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لا يحصد به عِنَبا

وكثير من أصحاب الكتب يبدو من كلامهم عنه تعاطفٌ معه ويودون أنه يكون مظلوما ولعل ذلك لما امتلأ به شعره من الحكمة والزهد والمعاني الرائقة وتشيع في كتب الرجال رواية عن ابن المعتز (طبقات الشعراء ص92) عن رؤيته في منام ضاحكا مستبشرا وقد غفر الله له وبرأه مما رمي به من الزندقة.

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص89، 90.

(2) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص39، وابن خلكان: وفيات الأعيان 4/ 266.

(3) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث ص404، وابن دريد: الاشتقاق ص511.

(4) الذهبي: ميزان الاعتدال 3/ 407.

(5) ابن حجر: لسان الميزان 3/ 173.

(6) الصفدي: الوافي بالوفيات 13/ 89.

(7) ولا يُقِرَّ الأستاذ العلامة محمد الطاهر بن عاشور الذي جمع ديوان بشار وأفاض فيه شرحا وتحقيقا وتعليقا أن يكون هذا الشعر صحيح النسبة إليه وقال: «ولا إخاله صحيح النسبة إليه، وإنما وضعه أعداؤه ليشيع بين العامة، والعامة لا يتبصرون في البحث والتبين» (ديوان بشار بن برد 4/ 78)، وفي العموم فالأستاذ لا يقر أن بشارا كان زنديقا (ديوان بشار بن برد 1/ 24 وما بعدها).

(8) بشار بن برد: ديوان بشار بن برد 4/ 78.

أن لم يبايعوه، والقول بعودة الأموات إلى الحياة[1]. كما أورد أبو الفرج الأصفهاني في «الأغاني» أخبارًا في أنه لم يكن يصلي الجماعة ويعتذر عن ذلك بالقول:

وإنني في الصلاة أحضرها ... ضحكة أهل الصلاة إن شهدوا

أقعدُ في الصلاة إذا ركعوا ... وارفع الرأس إن هم ســـجدوا

ولســـتُ أدري إذا إمامهم ... سلم كم كان ذلك العـــــددُ[2]

ثم أورد أنه لم يكن يصلي ولا في البيت، فذكر عن بعض أصحابه قولهم «كنا نكون عنده، فإذا حضرت الصلاة قمنا إليها، وجعلنا على ثيابه ترابًا حتى ننظر هل يقوم يصلي، فكنا نعود والتراب بحاله وما صلى»[3]، بل وذكر أن صديقه وشبيهه في المجون حماد عجرد قال عنه: «أعلم بالزندقة من ماني»[4]، على أن أخبار الأغاني -كما هو معروف- لا يحتج بها ولا يُعتمد عليها في التحقيق التاريخي، على أن الثابت في شعر بشار التطرف في الإباحية والفجور.

ورواية قتله -المشهورة[5]- تفيد أنه كان سكرانا فمر به المهدي فأراد أن يتخفى منه فصدح بالأذان، ولم يكن هذا وقت صلاة، فسأل المهدي عن هذا الذي يؤذن في غير وقت الصلاة، فجيء به فأمر بعقابه وجلده -وكان قبل ذلك قد نهاه كثيرًا وأغلظ له أن ينتهي عن إباحية شعره فلم ينتهِ- فمات من ضرب السياط (١٦٨هـ)[6].

ولم يَنْجُ من القتل حتى من ثبت عليه هذا من رجال الدولة، وهذا من دلائل صدق المهدي في حملته على الزندقة، فقد قتل ابن وزيره محمد بن عبيد الله[7]. ولولا أن المهدي كان قد أقسم ألا يقتل هاشميا في إطار إصلاح علاقاته مع العلويين لقتل من رُمِي بالزندقة منهم إلا أنه حبس من ثبت عليه هذا ثم أوصى ولده الهادي بقتلهم، فمات أحد أولاد داود بن علي

(١) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٣٩.
(٢) بشار بن برد: ديوان بشار بن برد ٤/ ٤٧.
(٣) الأصفهاني: الأغاني ٣/ ١٨١.
(٤) الأصفهاني: الأغاني ١٤/ ٣٢٠.
(٥) قلنا «المشهورة» لأن ثمة رواية أخرى تفيد أن الأمر كان مؤامرة على بشار من يعقوب بن داود العباسي وغيره من أهل البصرة الذين لم يسلم أحد منهم من لسان بشار، فكذبوا عليه وادعوا عند المهدي أنه يسب أمير المؤمنين وقالوا على لسانه شعرا فاحشا في زوجة المهدي، فلهذا قتله.
(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٤٢٧، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٠/ ٨٧.
(٧) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٩، وابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٤٩.

في السجن وبقي يعقوب بن الفضل -من سلالة الحارث بن عبد المطلب- حتى تولى الهادي فقتله إنفاذا لوصية أبيه[١].

وخلاصة تجربة المهدي مع الزنادقة هي ما أودعه في وصيته لابنه الهادي إذ جيء بزنديق، فاستتابه المهدي فلم يتب: «يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة -يعني أصحاب ماني- فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له»[٢].

بعض الباحثين يجعل حملة السلطة على الزنادقة إنما لأنهم خطر على الحكم والدولة لا لمعنى الحرص على الدين، منهم د. مصطفى السباعي الذي يقول: «وإذا كنا نذكر لهم فضل تعقبهم للزنادقة الذين أفسدوا دين الإسلام، فإننا لا ننكر أن من الدوافع التي حملتهم على تعقبهم بالقتل، هو أنهم كانوا خارجين على حكمهم بدليل أننا لم نرهم فعلوا بالكذابين والوضاعين الذين تقربوا إليهم بالكذب على رسول الله إرضاءً لأهوائهم، عُشر ما فعلوه مع الخارجين على حكمهم»[٣]، وربما كان بعض هذا حق إلا أنه لا يُسَلَّم بهذا؛ فكثير من الروايات التي بين أيدينا تفيد بأن الدافع الديني وحده كان سببًا كافيًا لمطاردة السلطة، فبشار بن برد ومحمد بن الوزير أبي عبيد الله وصالح بن عبد القدوس وغيرهم نماذج لقوم لم يكونوا خطرًا على السلطة.

حركة الجهاد

سار المهدي على منهج أبيه في تحصين المدن والثغور الحدودية البرية والبحرية، يقول البلاذري: «لما ولي أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها، وفعل مثل ذلك بمدن الثغور، ثم لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٥، وابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣٠٩.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٢.
(٣) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص١١٦.

من المدن والحصون وزاد في شحنها»[1].

كان الجهاد متجها بصورة عامة إلى بلاد الروم، حيث ما تنفك الصوائف تنطلق من الثغور، على أنه وإن لم تحدث فتوح واسعة أو تُضَمَّ مدن كبيرة إلى بلاد الإسلام بصورة دائمة إلَّا أنَّ الانتصارات كانت كبيرة كثرت فيها الغنائم والأسرى، وكانت الثغور هي نفسها عند جبال طوروس[2].

وأكبر ما يظهر من تتبع حركة الجهاد في عهد المهدي هو إصراره على هيبة المسلمين في قلوب الروم، فكان صاحب أكبر الحشود وأقواها، وهو أول من وصلت جيوشه من العباسيين إلى خليج القسطنطينية.

وقد بدأت حركة الجهاد منذ العام الثاني لخلافة المهدي (١٥٩هـ) حيث جهز المهدي جيشًا بقيادة العباس بن محمد، وجعل في الجيش مجموعة من القادة الخراسانيين، ووصل توغل الجيش الإسلامي في أرض الروم حتى أنقرة، وفتحوا مدينة أو أكثر ثم عادوا سالمين لم يُصب منهم أحد[3]. ولعلَّها كانت رسالة قوية مع بداية عهد المهدي لكيلا يظن الروم أن الرجل القوي قد مات ولم يخلفه مثله.

كذلك وفي العام ذاته (١٥٩هـ) أرسل جيشًا كبيرًا عبر الخليج والمحيط الهندي إلى الهند فتح مدينة باربد (١٦٠هـ) بعد حصار يومين وجهاد أيام لم تَطُل، وعلى الرغم من أن المسلمين لم يخسروا في القتال سوى بضعة وعشرين؛ فإن الأجواء لم تسمح بعودة سالمة إذ ظل البحر عاصفًا؛ مما أجبرهم على البقاء في أرض الهند، ثم انتشر بينهم وباء فمات منهم ألف، ثم لما هدأ البحر وبدءوا في العودة تعرضوا لعاصفة أخرى فقدوا بسببها كثيرًا منهم قبل أن يعود باقيهم إلى البصرة[4].

ونفذ المسلمون غزوتين في العام التالي (١٦٠هـ) إحداهما برية وهي الصائفة بقيادة ثمامة بن الوليد العبسي ولكنه أساء التقدير في استطلاع أحوال العدو فكان هجومه على الروم

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٩٣.

(٢) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٤٢.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٤٨.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٤٨، ٥٥٥.

سيئا أصيب فيه عدد من المسلمين، والأخرى بحرية بقيادة الغمر بن العباس الخثعمي في البحر المتوسط، ولم تقع مواجهات(١).

المواجهة الأولى الكبيرة بين المسلمين والروم كانت عام (١٦١هـ) حيث استعد الروم لقتال المسلمين في الصائفة التالية فلم يستطع ثمامة بن الوليد الوصول إلى هدفه دابق لما كان عليه الروم من الاستعداد، ولم يكتف الروم بهذا بل إن البطريرك ميخائيل كان على رأس جيش عزم على مبادلة هجوم المسلمين فهاجم بلدة عقبة حرثنا، وأوقع بأهلها، ثم فعل مثل هذا في قرية عنزران فقتل وسبى وحرقها بالنار، ثم هاجم مرعش التي كان فيها فرقة من جيش المسلمين فجرى قتال انتهى بتعادل إذ لم يستطع أحد الطرفين هزيمة الآخر، فبدأ ميخائيل في الانسحاب والعودة إلى أرض الروم، وفي ذلك الوقت كان قائد الصائفة ثمامة بن الوليد قد وصلته هذه الأخبار فأخرج فرقة من جيشه لتطادر ميخائيل بقيادة ملالة بن حكمة إلَّا أنَّ هذا الأخير هزم وأصيب في القتال، فعاد ميخائيل منتصرًا إلى دياره وإن لم يكن حقق نتائج حربية ذات بال(٢).

مِثْلُ هذا الهجوم استدعى حشدا قويا بجيش كبير، فخرج المسلمون (١٦٢هـ) في ثلاثين ألف مقاتل بخلاف المتطوعين يقودهم أحد كبار القادة وهو الحسن بن قحطبة، ومثل هذا الجيش لم يكن للروم أن يقفوا أمامه فشن حملة تأديبية على بلاد الروم دمر فيها كثيرًا من معاقل الروم وخرب مواردهم الاقتصادية، وأسر عددًا كبيرًا منهم، ووصلت إحدى سراياه إلى عمورية، وهي أهمُّ حصون الروم ومعاقلهم، وكانت غزوة كبيرة هائلة حتى إن الروم رسموا صور الحسن بن قحطبة على جدران كنائسهم -كما يصرح البلاذري(٣)- ثم إن جيش الحسن لم يكن هو الجيش الوحيد فثمة جيش آخر دخل بلاد الروم من جهة أخرى يقوده يزيد بن أسيد السلمي فغنم وسلم وفتح ثلاثة حصون وأسر كثيرًا من الروم(٤).

ثم حشد المهدي في العام التالي (١٦٣هـ) حشده الأكبر وأرسل يستدعي الجنود من

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٠، ٥٦٣.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٩.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٢٦.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٤.

خراسان وغيرها لغزوة صائفة كبيرة، وضع على قيادتها ابنه هارون الرشيد -وهي قيادة رسمية شكلية، فالرشيد وقتها كان في نحو الخامسة عشرة من عمره- ويعاونه في هذا القادة الكبار ورجال الدولة مثل القائد العسكري الفذ الحسن بن قحطبة وحاجب المهدي الربيع بن يونس ورجل الدولة المقرب خالد بن برمك وابنه يحيى بن خالد الذي تولى ميزانية الجيش، ووجوه البيت العباسي مثل عيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح بن علي، وخرج المهدي بنفسه مع الجيش حتى حلب، فودعهم هناك[1].

وكانت الغزوة من أكبر الغزوات وأنجحها، فتحت فيها حصون كثيرة ومعاقل قوية للروم، أبرزها قلعة «سمالو» (أو صمالو) بعد حصار ثمانية وثلاثين يومًا حتى استسلم أهلها، وكانت الغنائم غزيرة وأموالها جزيلة، وبرز في هذه الغزوة اسم خالد بن برمك لما كان له من دور جليل ومهارة، ثم عاد الجيش ظافرا، وزار المهدي في تلك الفترة بيت المقدس[2].

ومنذ هذه الغزوة عهد المهدي لابنه هارون الرشيد بولاية الجناح الغربي من الدولة: المغرب كله وأذربيجان وأرمينية وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك[3]، وهذا نوع من التدريب على الحكم ومعرفة رجال الدولة والتمرس على الإدارة، فعمليًّا لم يكن الرشيد يدير أمور هذه المناطق بنفسه.

انقلب الوضع في العام التالي إذ استعد الروم لمواجهة الغزوة القادمة دون أن يفكروا هم في التوغل في أرض المسلمين، وكان عبد الكبير بن عبد الحميد يستعد لغزو الروم (١٦٤هـ) فوجد نفسه أمام جيش رومي عرمرم في نحو تسعين ألفًا، يقودهم اثنان من البطاركة، فتراجع ابن عبد الحميد ولم يقاتل، وعاد عن الغزو، وهو ما أغضب المهدي غضبًا شديدا؛ حتى كاد أن يقتله عقوبة له على هذا الانسحاب، ثم رُوجع في هذا القرار فاكتفى بحبسه في سجن المطبق[4].

فكرر المهدي حشد العدد الكبير والخروج بجيش عظيم إلى الروم (جمادى الآخرة ١٦٥هـ) لئلا يظن الروم أن بهم ضعفا أو أنهم سيتوقفون عن الغزو، أخرج جيشًا أعظم من

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٧.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٠٢، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٨، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٥٥.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦٨.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٩، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٠.

السابق، تعداده أكثر من خمسة وتسعين ألفًا، وحددته بعض الروايات بـ (٩٥٧٩٣) جنديًا، وكانت الميزانية المرصودة (١٩٣٤٥٠ = مائة وثلاثة تسعون ألفًا وأربعمائة وخمسين) دينارا، بالإضافة إلى (٢١٤٠٠٨٠٠ = واحد وعشرين مليونًا وأربعمائة ألف وثمانمائة) درهم[١].

وتوغل الجيش في بلاد الروم ولم يقف له شيء، فانهزم أمام المسلمين جيش الروم الذي قاده نقيظا «قومس[٢] القوامسة» بعد مبارزة له مع قائد الجيش المسلم يزيد بن مزيد الشيباني أُثْخِن فيها بالجراح، ثم تقدم الجيش وفتح في بلاد الروم، وهزم من التقاهم من الجيوش، وتوغل حتى وصل إلى خليج القسطنطينية (بحر مرمرة)، وهو توغل خطير غير مسبوق منذ بدأت الدولة العباسية، فارتاع البيزنطيون وسارعت إمبراطورة الروم إيريني (أغسطة)، والتي كانت وصية على ولدها بعد رحيل أبيه ليون، سارعت فبذلت الصلح، وجرى الاتفاق على شروط هي:

- أن تتولى عودة الجيش بأمان -لأن الجيش كان قد توغل في طرق غير مأهولة، ربما ليحقق المفاجأة أو لضرورات أخرى- فتمدهم بأدلاء الطريق وتوفر الكفاء الاقتصادي له أثناء العودة.
- دفع سبعين ألف دينار سنويًّا.
- دفع مقادير أخرى من الذهب والفضة وغيرها.
- إطلاق الأسرى المسلمين لدى الروم.

وذهب رسول من الروم مع الرشيد إلى المهدي لتوقيع اتفاق الهدنة لثلاث سنوات بهذه الشروط، وعاد الجيش (المحرم ١٦٦هـ) فدخل بغداد في أبهة عظيمة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره، بخلاف أكثر من خمسة آلاف وستمائة أسير، وغنائم هائلة بلغت أكثر من ١٢٠ ألف رأس من الدواب والماشية والأغنام والأبقار، مما كان له أثر في ازدهار الاقتصاد وانخفاض الأسعار حتى بيع البغل بأقل من عشرة دراهم والدرع بأقل من درهم، وبيع عشرون سيفًا بدرهم. وسجل الشاعر مروان بن أبي حفصة هذا النصر في مدح للرشيد قال فيه:

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٢.
(٢) القومس: قائد مجموعة تتكون من مائتي جندي. انظر: تقسيم الجيش البيزنطي في الملحقات.

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا   إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكهـــا   بجزيتها والحرب تغـــلي قدورهـــا

وبعد هذه الغزوة لقب هارون بـ «الرشيد»، وأخذ له والده البيعة من بعد أخيه موسى الهادي (١٦٦هـ)[1].

وكانت هذه الحملة هي «خاتمة الحملات العربية على البسفور»[2]، ولم يصل جهاد في هذه المناطق إلا ما كان بعد قرون على أيدي الأتراك رجال الدولة العثمانية.

وطبقا للاتفاق توقفت غزوات الروم (١٦٦هـ) و(١٦٧هـ) وكان في هذا العام الأخير فداء ثانٍ للأسرى بين المسلمين والروم وتولاه عبد الحميد بن الضحاك[3].

ثم نقض الروم الاتفاق الذي كان بينهم وبين المسلمين (رمضان ١٦٨هـ) بعد سنتين وثلاثة أشهر، ويرى بعض المؤرِّخين أن سوء الأحوال الاقتصادية لدى البيزنطيين واحتياج الإمبراطورة إيريني لاكتساب شعبية دفعها إلى رفع الكثير من الضرائب عن الناس ومنح امتيازات كبيرة للأديرة والرهبان، وكان تعويض هذا النقص من الامتناع عن دفع الجزية، ولعلَّها قدرت أن المسلمين لن يردوا بما يُتخوَّف منه[4]، فكان الرد الإسلامي أن خرجت فرقة من الجزيرة الفراتية جالت وصالت في أرض الروم «فغنموا وظفروا»[5].

ولا ريب أن وفاة المهدي (١٦٩هـ) مع الهزيمة السابقة كانتا دافعا لتحرك جيش الروم وكان نحو عشرة آلاف فدخل إلى بلاد المسلمين من درب الحدث، وكانت مفاجأة بحيث هرب من أمامهم الوالي والجند وأهل الأسواق، فتحركت الصائفة بقيادة معيوف بن يحيى، وتوغل في أرض الروم حتى بلغوا مدينة أشنة وخرجوا بغنائم وافرة وأسرى كثيرين[6].

ولقد كانت الدولة البيزنطية في هذا الوقت في حال بـائس، فـالإمبراطورة إيريني فضـلًا

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٢، ٥٧٤.
(٢) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٦٥.
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٢٩.
(٤) د. محمد ناصر الملحم: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية، مجلة جامعة أم القرى، العدد (٢٠). ٢/ ٦١٣ وما بعدها، وهو ينقل عن: الباز العريني: الدولة البيزنطية ص٢٢٨.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٢.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٣.

عما تواجهه من المسلمين، تجرأ عليها -أيضًا- البلغار، وتمكنوا من الانتصار على جيوشها دون أن تستطيع القيام بعمل إيجابي ضدّهم، فلقد كانت إيريني -إلى جانب الخطر الإسلامي- تعاني من الاضطرابات الداخلية، فقد بدأ ابنها (قسطنطين السادس) بعد أن بلغ سنّ الرشد يطالب بالعرش ودخل معها في صراع رهيب، وساندته بعض العناصر الكارهة لأمه، كما كان عليها أيضًا أن تواجه أطماع شارلمان (أكبر ملوك أوربا) في الغرب[(١)].

بقي في أمر الجهاد في زمن المهدي جهاده في الجناح الشرقي من الدولة، وكان الجناح هادئا بالمقارنة بالوضع على جبهة الروم، فلم يغز المهدي إلا مرة واحدة حيث وجه ابنه موسى الهادي (١٦٧هـ) على رأس جيش كثيف وُصِف أنه «لم يُرَ مثله»، لقتال الديلم في طبرستان ويتزعمهم ونداد هرمز وشروين، وكلف الهادي القائد الكبير يزيد بن مزيد الشيباني بقيادة الحصار[(٢)]، ثم في العام التالي (١٦٨هـ) أرسل جيشًا من أربعين ألفًا يقوده سعيد الحرشي إلى طبرستان.

وقفة مع المهدي

تُوُفِّيَ المهدي (المحرم ١٦٩هـ)، وهو في الثالثة والأربعين من عمره، بعد خلافة دامت عشر سنوات وشهرا، وكانت وفاته في ماسبذان[(٣)] حين كان متوجهًا إلى جرجان ليخلع ابنه الهادي من ولاية العهد ويوليه للرشيد.

وقد اختلفت الروايات في موته، فبعضها يشير إلى إصابته إصابة قاتلة أثناء صيده لغزال، وبعضها يشير إلى أنه أكل لبنًا أو فاكهة مسمومة وكان المقصود بها إحدى جواريه، وبعضها يصرح أن الوفاة طبيعية[(٤)].

كان المهدي فوق لين أبي العباس وتحت حزم المنصور[(٥)]، أو بعبارة المسعودي: «كريما حبيبا، بذولا للأموال، حسن العفو، كريم الظفر، لا يدخله غفلة عند مخوفة، ولا يتكل في الأمور على غير ثقة، وصولا لأرحامه، برا بأهله، فيه لين جانب»[(٦)].

---

(١) د. محمود عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص١١٤، ١١٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٠.
(٣) وهي إلى الشرق من بغداد.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٣، ٥٨٤.
(٥) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٣٨.
(٦) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٩٧.

وكانت أبرز صفاته:

١- تأليف القلوب

لقد تمتَّع المهدي بما كان مَهَّده له أبوه المنصور، ففي عهد المنصور تجاوزت الدولة مرحلة القلق والاضطراب ودخلت في مرحلة القوة والتمكن والرسوخ، ولئن كان المنصور قد وصل إلى هذا عبر كثير من الخصومات والمعارك والعداوات فإن المهدي ورث الثمرة ناضجة، وكان من حسن سياسته أن سعى في إصلاح الخصومات والعداوات الماضية، فبدأ عهده بإطلاق من في السجون، وفي العام التالي حين حجَّ «تزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية، واستخلص لنفسه حرسًا خاصًّا منهم وأكرمهم[١].

وتألف بالإنفاق الكثير قلوب الأصدقاء والأعداء جميعًا، بل كان يتألف قلوب العامة ويسترضيهم، وله في هذا مواقف عديدة من أشهرها أن رجلًا دخل عليه ومعه نعل فقال: هذه نعل رسول الله قد أهديتها لك فقال: هاتها فناوله إياها، فقبَّلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما انصرف، قال المهدي: والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ لم ير هذا النعل، فضلًا عن أن يلبسها ولكن لو رددته لذهب يقول للناس: أهديت إليه نعل رسول الله فردَّها عليَّ، فتُصدقه الناس، لأن العامة تميل إلى أمثالها، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوى وإن كان ظالمًا، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح وأصلح..

٢- العفو والحلم

وكان كثير العفو والحلم، وورد عنه في ذلك روايات كثيرة؛ حتى لقد كان يعفو عن المذنب بل ويكافئه بجزيل المكافأة شرط أن يتوب، وورد من سماحته أن أعرابيا أدركه وقد أوشك على أن يصلي بالناس فقال له: يا أمير المؤمنين مُر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ -يعني المؤذنين- فأمرهم بانتظاره، ووقف المهدي في المحراب لم يُكَبِّر حتى قيل له هذا الأعرابي قد جاء. فكَبَّر، فتعجب الناس من سماحة أخلاقه.

وحين غضب المهدي على أحد قادته، ولم يكن هذا أول عتاب بينهما، قال له: إلى متى تذنب إليَّ وأعفو قال: إلى أبد نسيء ويبقيك الله فتعفو عنا فكررها عليه مرات فاستحيا منه

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٤١.

ورضي عنه[١].

وروى حاجبه الربيع بن يونس قال: رأيت المهدي يصلي في بهو له في ليلة مقمرة فما أدري أهو أحسن أم البهو أم القمر أم ثيابه؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٢٢] قال: فتم صلاته والتفت إليَّ، فقال: يا ربيع. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: عليَّ بموسى. وقام إلى صلاته. قال: فقلت: من موسى؟ ابنه موسى؟ أو موسى بن جعفر؟ وكان محبوسًا عندي، قال: فجعلت أفكر، قال: فقلت: ما هو إلا موسى بن جعفر، قال: فأحضرته، قال: فقطع صلاته وقال: يا موسى إني قرأت هذه الآية: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٢٢] فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوَثِّق لي أنك لا تخرج عليَّ، قال: فقال: نعم فوثق له وخلاه[٢].

٣- العدل

قال ابن تيمية: كان المهدي من خيار خلفاء بني العباس وأحسنهم إيمانًا وعدلًا وجودًا[٣].

لقد كان المهدي يجلس للمظالم بنفسه[٤]، وكان يستدعي القضاة للجلوس معه لتكون هيبتهم في نفسه وحياؤه منهم من دوافع ورعه ودقته في الحكم[٥]، ولم يكن يمتنع عنه من أراد التظلم منه هو نفسه أو من وكلائه، ومن أمثلة هذا ذلك الرجل الذي اشتكى وكيلًا للمهدي غضبه ضيعته، يقول: «فأتيتُ سلامًا صاحب المظالم فتظلمت منه، وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصل الرقعة إلى المهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضي قال: فقال له المهدي: ادنه. فدنوت فقال: ما تقول؟ قلت: ظلمتني. قال: فترضى بأحد هذين؟ قال: قلت: نعم. قال: فادن مني. فدنوت منه حتى التزقت بالفراش. قال: تكلم. قلت: أصلح الله القاضي إنه ظلمني في ضيعتي هذا. فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتي وفي يدي. قال: قلت: أصلح الله القاضي سله صارت الضيعة إليه قبل الخلافة أو بعدها؟ قال:

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٨.
(٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٢٠.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٥.
(٥) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص١٧٦.

فسأله: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: صارت إليَّ بعد الخلافة. قال: فأطلقها له. قال: قد فعلت. فقال العباس بن محمد: والله يا أمير المؤمنين لذا المجلس أحب إليَّ من عشرين ألف ألف درهم(١).

ومن عدله توليته الأكفأ للولاية وتقديمه على من هو أعلى منه نسبًا أو جاهًا، ولقد عاتبه مرة عم جده عبد الصمد بن علي في إكثاره من تولية الموالي في الولايات والمناصب حتى لقد خشي عبد الصمد أن يكون هذا دافعًا لتغير قلوب أهل الدعوة العباسية من الخراسانيين، فقال المهدي: «يا أبا محمد إن الموالي يستحقون ذلك، وليس أحد يجتمع لي فيه أن أجلس للعامة فأدعو به فأرفعه حتى تحك ركبته ركبتي، ثم يقول من ذلك المجلس فأستكفيه سياسة دابتي، فيكفيها لا يرفع نفسه عن ذلك إلا موالي هؤلاء فإنهم لا يتعاظمهم ذلك، ولو أردت هذا من غيرهم لقال: ابن دولتك والمتقدم في دعوتك، وابن من سبق إلى بيعتك لا أدفعه عن ذلك»(٢).

٤- تأثره بالموعظة

استدعى المهدي يومًا صالح بن بشير المري(٣)، فجاء إليه راكبًا على حمار فدنا من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنيه - ولييي العهد من بعده موسى الهادي وهارون الرشيد - أن يقوما إليه لينزلاه عن دابته، فابتدراه فأنزلاه، فأقبل صالح على نفسه فقال: لقد خبت وخسرت إن أنا داهنت ولم أصدع بالحق في هذا اليوم، وفي هذا المقام.

ثم جلس إلى المهدي فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه، ثم قال له: اعلم أن رسول الله خصم من خالفه في أمته، ومَنْ كان محمد خصمه كان الله خصمه، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججًا تضمن لك النجاة، وإلاَّ فاستسلم للهلكة، واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى بدعته، واعلم أن الله قاهر فوق عباده، وأن أثبت الناس قدمًا آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله، وكلام طويل.

فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه.

وروى وصيفه الحسن قال: «أصابتنا ريح في أيام المهدي حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٧.
(٣) من العباد والزهاد والبكائين، وكان يحضر مجلسه الإمام سفيان الثوري.

فخرجت أطلب أمير المؤمنين فوجدته واضعا خده على الأرض يقول: اللهم احفظ محمدًا في أمته. اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم. اللهم إن كنت أخذت هذا العام بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك. قال: فما لبثنا إلا يسيرا حتى انكشفت الريح وانجلى ما كنا فيه(١).

ولقد كان المهدي حريصًا على السنة، وقد مرَّ بنا أنه كتب إلى البلاد (١٦١هـ)، أن لا تبقى مقصورة في مسجد جماعة، وأن تقصر المنابر إلى مقدار منبر رسول الله ، ففعل ذلك في المدائن كلها، ولم يقبل في حاشيته من يقع في أبي بكر وعمر ولو كان ابن سابق في الدعوة وتأسيس الدولة مثل أبي عون عبد الملك بن يزيد(٢).

ولا ريب أن المهدي لم يكن على المستوى الذي يتحقق به أنه الخليفة الصالح كعمر بن عبد العزيز أو المهتدي بالله من بعده أو أمثالهما، فلقد كانت له مجالس سمر، وورد ما يفيد أن بطانته جرأته على شرب النبيذ الذي لم يكن يحبُّه وعلى السماع، وأن هذا التغير آذى وزيره يعقوب بن داود بن طهمان وأنه عاتبه في هذا «أَبَعْدَ الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ وتسمع السماع؟!!» ثم استقال من عمله(٣).

خارج سلطة المهدي

١- الأندلس

ظلت الأندلس خارج سلطة المهدي كما كانت منذ عهد أبيه، وازداد فيها استقرار عبد الرحمن الداخل الأمير الأموي الهارب من العباسيين، وحاول المهدي ضم الأندلس إلى سلطانه، مثلما حاول أبوه المنصور من قبل، ومثلما وجد المنصور ضالته في العلاء بن مغيث وجد المهدي ضالته في عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بـ «الصقلبي» لأنه كان طويلا أزرق العينين أشقر الشعر، وكلفه بالقيام بأمر انتزاع الأندلس من يد عبد الرحمن الداخل وإدخالها في الخلافة العباسية.

عبر الصقلبي إلى الأندلس (١٦١هـ) وتراسل مع سليمان بن يقظان والي برشلونة لكن الأخير رفض التعاون معه، فانطلق الصقلبي ومعه جموع البربر الذين يتزعمهم لقتال سليمان

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٧.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٦١، ٥٨٩.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٧٧.

فهُزِم، فعاد إلى مدينته تدمير، فسار إليه عبد الرحمن الداخل بجيشه واستطاع أن يحرق سفنه فاشتدت أزمته ثم وضع الداخل مكافأة ألف دينار لَمَنْ يأتى برأسه فأغرت تلك الألف بربريا من أتباعه فاغتاله (١٦٢هـ) وبهذا فشلت المحاولة الثانية للعباسيين[١].

ولم يفكر العباسيون من بعدها في تهديد الإمارة الأموية، جانب من هذا كان بسبب فشل المحاولتين وما ظهر من قوة عبد الرحمن الداخل، وجانب آخر تمثل في انشغال العباسيين بخلافاتهم الواسعة بكل ما تلده من تبعات متزايدة.

لكن..

هل تآمر المهدي مع شارلمان ضد عبد الرحمن الداخل؟[٢]

ثمة رأي ساد عند بعض الباحثين[٣] مفاده أنه تم تدبير مؤامرة دولية كبرى أعضاؤها الرماحس الكتاني والي الجزيرة، وسليمان بن يقظان الأعرابي والحسين بن يحيى الأنصاري في سرقسطة، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي، وشارلمان ملك الإفرنجة، والمهدي بهدف القضاء على الإمارة الأموية في الأندلس وضمها إلى الخلافة العباسية. وقد استند هؤلاء الباحثون إلى:

١- المراسلات والسفارات المتبادلة بين المهدي وشارلمان ملك الإفرنجة والتي كانت موجهة ضد الأمويين في الأندلس وبتأثيرها تحرك شارلمان بجيشه إلى سرقسطة مساعدًا الأعرابي والأنصاري في حركتهما ضد عبد الرحمن الداخل.

٢- هروب الرماحس الكتاني بعد فشل حركته إلى بغداد لاجئًا عند الخليفة المهدي.

٣- المراسلات المتبادلة بين الداخل والخليفة المهدي والتي بدأها الداخل -بعد معرفته بالمؤامرة- برسالة شديدة اللهجة رد عليها المهدي بالمثل.

---

(١) د. عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص٢٢٦.

(٢) منقول باختصار عن: د. خالد إسماعيل نايف الحمداني: العلاقة بين أمويي الأندلس والخلافة العباسية، مجلة التاريخ العربي، الرباط، ٥٦/٦، ٥٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٢، ١٩٧٥، بغداد، ص. ١٤٦؛ الدكتور أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي ص. ٣١٠؛ الدكتور عبد الجليل عبد الرضا الراشد: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس، الرياض، ١٩٦٩، ص. ٩٥؛ الدكتور إبراهيم ياس الدوري: عبد الرحمن الداخل في الأندلس، ص. ١٦١؛ الدكتور حسن زعين العاني: سياسة المنصور، ص. ٤٠٢.

لا نميل إلى الرأي القائل بأن مؤامرة دولية كبرى كانت قد تمَّت ضد الإمارة الأموية، مستندين في قولنا إلى ما يلي:

١- عدم وجود روايات تاريخية تذكر هذه المؤامرة، فالرأي القائل بها لا يستند ولو إلى مصدر واحد.

٢- لا يوجد دليل تاريخي ينص على أن مراسلات سياسية تمَّت بين المهدي وشارلمان، وإنما قال الباحثون بذلك نتيجة استقراء الواقع. فوجدوا أن علاقات تجارية وبعض السفارات كانت موجودة بين العباسيين والإفرنجة من جهة وبين الأمويين والبيزنطيين من جهة أخرى مع وجود عداء تقليدي بينهم.

٣- هروب الرماحس الكتاني إلى بغداد بعد فشله ليس دليلًا، إذ من الطبيعي جدًا أن يهرب إلى المهدي باعتباره عدوًا للداخل في سبيل تأمين حياته.

٤- الخلاف بين أطراف المؤامرة (الصقلبي والأعرابي) وعدم مساعدة الأخير للأول يفند وجود اتفاق مسبق بين الأطراف الخارجية.

٥- ليس من المعقول أن يقدم الخليفة المهدي الخليفة المسلم ويطلب المساعدة من ملك نصراني، ويستعين به ضد المسلمين في الأندلس. ثم ما موقف المسلمين في الخلافة العباسية من هذا العمل؟ وما موقف المهدي من رعاياه المسلمين؟ ولو قيل إن الاتفاق كان سريًا، نتساءل: ما فائدة الخليفة المهدي من عمله المذكور. فحتى لو تم القضاء على الإمارة الأموية في الأندلس، فمن يضمن له تسليم شارلمان الأندلس بعد استيلائه عليها؟

٦- ولو كان هناك اتفاقٌ دوليٌّ متعدد الأطراف، فلماذا اختلفت توقيتات التمرد، لا سيما وأن هذا الاختلاف هو ما سهل مهمَّة الداخل في القضاء عليها، لقد كانت حركة الصقلبي منفردة وقضى عليها الداخل (١٦٢هـ)، وأما الرماحس فلم تمض عشرة أيام على تمرده حتى فاجأه جيش الأمير ففر هاربا، وأما الأعرابي والأنصاري في سرقسطة فهما من طلبا دعم شارلمان (١٦١هـ) ثم فشل التحالف وانسحب شارلمان، وانتقض ما بين الأعرابي والأنصاري من تعاون.

٢- ظهور الدولة الرستمية

ومؤسسها عبد الرحمن بن رستم، من كبار شيوخ المذهب الإباضي، وهو الذي تولى طرابلس إبان ثورة شيخه أبو الخطاب عبد الأعلى، وكذلك القيروان حين استولى عليها الإباضية من الصفرية، ثم قاتل عمرو بن حفص عند القيروان، وقد استطاع الإفلات من معارك المغرب التي قادها يزيد بن حاتم وأقر بها أمر المغرب، اتجه عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط واستقرَّ في تاهرت.

وجد عبد الرحمن هو بهرام، وكان مولى لسيدنا عثمان بن عفان، لكنه نزل المغرب منذ القرن الأول للهجرة.

وابتدأت الدولة الرستمية في سنة ١٦١ هـ، واعتمدت المذهب الإباضي، وعاشت هذه الدولة نحوا من قرن ونصف (حتى ٢٩٦هـ)، وكان الحكم فيها وراثيا على خلاف مذهب الخوارج ومثلما كان الحال في دولة بني مدرار في المغرب الأقصى.

وتُعدّ الدولة الرستمية أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية تقوم في بلاد المغرب.

***

الهـــــادي

وُلِد موسى الهادي في الرِّيِّ (١٤٧هـ)، وكان شابًّا حسنًا وقورًا مهيبًا، وكان طويلًا جميلًا، أبيض على خلاف أبيه وجده، بشفته العليا تقلص، وكان قوي البأس يثب على الدابة وعليه درعان، وكان أبوه يسميه ريحانتي[١]، وهو يوصف بالشجاعة والقوة والجرأة التي لا تخلو من شراسة وقسوة، وهو مع ذلك يحب الأدب ويطرب له مع كرم وجود وسخاء[٢].

وكانت قوة الشخصية وثبات القلب بارزة فيه منذ صغره، فقد حضر وفاة جده المنصور التي أفزعت الناس وأثارت فيهم الاضطراب، فيما كان هو جالس ثابت غير مضطرب ولا مفزوع[٣].

تولى الحكم وعمره ثلاث وعشرون سنة، ولم يَلِ الخلافة أحد أصغر منه سنا[٤].

***

كان المهدي قد عزم قبل موته على تقديم أخيه الرشيد عليه في ولاية العهد، وطلب هذا من الهادي -المقيم في جرجان- لكنه امتنع ورفض بل وضرب رسول أبيه[٥]، فخرج المهدي إلى جرجان بنفسه لينفذ هذا الأمر لكنه مات في الطريق في ماسبذان[٦].

وهنا نرى للمرة الأولى جند الخلافة العباسية وقد صاروا قوة يتخوف منها أهل الحكم والخلافة، وهي قوة لا تسكن حتى تُعطى من الأموال ما يرضيها وإلا أثارت الاضطراب والقلاقل والفوضى، وهي المظاهر التي ستتطور فيما بعد حتى تدخل في طور جديد في عهد الخليفة المعتصم بعد نحو نصف قرن من هذه اللحظة.

جرت مشاورات بين هارون الرشيد ورجال الحكم في ماسبذان حول أفضل الطرق التي يُدار بها الأمر بحيث لا يعلم الجند وفاة المهدي فيشغبون طلبًا للأرزاق، وكان ثمة رأي يشير

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٢.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٩٧، ومروج الذهب ٢/ ٣١٠.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٤٥.

(٤) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٧٥.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٨٣.

(٦) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٠.

بأن تعلن العودة إلى بغداد، غير أن يحيى بن خالد البرمكي أشار بأن يدفن المهدي في ماسبذان تخوفًا من أن يتعطل الدفن بشغب الجنود إن لم يأخذوا ما يرضيهم وعلموا بوفاة المهدي، وأشار أن يخرج رسول البريد من فوره إلى الهادي في جرجان بالخبر ليسرع بالعودة إلى بغداد، فيما تُطلق مكافأة عاجلة للجنود فيكون همهم الرجوع لأهلهم في بغداد، فيشغلهم هذا عن متابعة التفاصيل ويصرفهم عن عدم ظهور المهدي حتى الوصول إلى بغداد، واستقرَّ الرأي على هذه المشورة، وفي بغداد علم الجنود أن المهدي قد مات ودفن بماسبذان، ولم يخيبوا الظن فيهم، فما إن علموا حتى ساروا محتجين إلى الربيع بن يونس -حاجب الخليفة- يطالبون بالأموال، وأحرقوا بعض الأبواب وأخرجوا من في السجون، ولم يسكنوا حتى أعطيت لهم رواتب عامين، وكان الذي يدير بغداد في ذلك الوقت الخيزران -زوجة المهدي- مع الربيع بن يونس حاجب الخليفة ويحيى بن خالد البرمكي[١].

ولما استقرَّ الأمر ببغداد أرسل الرشيد إلى الولايات والأنحاء بوفاة المهدي والبيعة للهادي خليفة وله وليا للعهد، وكان الهادي قد انطلق مسرعا منذ بلغه الخبر راجعًا إلى بغداد؛ حتى لقد قطع المسافة بينهما في عشرين يومًا فقط فوصل بغداد (٢٠ من صفر ١٦٩هـ)[٢]، ولا ريب أن الهادي كان يسابق الزمن لئلا يستطيع أحد من رجال القصر نقل الخلافة إلى الرشيد على ما كانت رغبة المهدي الأخيرة، وقد استطاع أن يصل في الوقت المناسب، ولا ريب أن ما صنعه الجند من اضطراب في بغداد كان في صالحه بالمجمل فقد انشغل به رجال الدولة عن أمر المنافسة بين الهادي والرشيد.

قام المهدى في الناس خطيبا، وأخذ البيعة منهم فبايعوه (المحرم ١٦٩هـ)، وتغيب الربيع الحاجب فطلبه الهادي حتى حضر بين يديه، فعفا عنه وأحسن إليه وأقره على حجو بيته، وزاده الوزارة وولايات أخرى.

وقد بدأ عهده بالإنفاق وتأليف القلوب على مثل سيرة أبيه، فرُوِيَ أن مروان بن أبي حفصة أنشد الهادي قصيدة له منها قوله:

تشابه يومًا بأسه ونواله ... فما أحد يدري لأيهما الفضل

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٣، ٥٩٤.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٤، ٥٩٥.

فقال له الهادي: أيما أحب إليك؟ ثلاثون ألفًا معجلة أو مائة ألف تدور في الدواوين؟ فقال: يا أمير المؤمنين أو أحسن من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: ثلاثون ألفًا معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين. فقال الهادي: أو أحسن من ذلك، نعجل الجميع لك. فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفًا معجلة[1].

الزنادقة

اقتدى الهادي بأبيه وعمل بوصيته في أمر الزنادقة، فأخذ في تتبعهم من الآفاق وقتل منهم طائفة كثيرة، وكأبيه -أيضًا- لم يستثن مقدَّما من رجال الدولة أو غيره، فقد قتل يزيدان بن باذان كاتب يقطين بن موسى، وكذلك ابنه علي بن يقطين، وكان قد بلغه استهزاؤه بالحج حتى لقد شَبَّه الكعبة بمخزن الغلال الذي تدور حوله الأبقار الذين هم الحُجَّاج، كما قتل يعقوب بن الفضل الهاشمي والذي كان سجينا منذ عهد المهدي لأن الأخير كان قد أقسم ألا يقتل هاشميا[2].

روى المطلب بن عكاشة المزني، وهو شاهد عيان لإحدى قصص الهادي مع الزنادقة، قال: قدمنا على أمير المؤمنين الهادي شهودا على رجل منا شتم قريشًا، وتخطى إلى ذكر رسول الله ﷺ، فجلس لنا مجلسًا أحضر فيه فقهاء أهل زمانه، ومَنْ كان بالحضرة على بابه، وأحضر الرجل وأحضرنا، فشهدنا عليه بما سمعنا منه، فتغير وجه الهادي ثم نكس رأسه ثم رفعه فقال: إني سمعت أبي يُحدِّث عن أبيه المنصور، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن عباس قال: من أراد هوان قريش أهانه الله. وأنت يا عدو الله لم ترض بأن أردت ذلك من قريش حتى تخطيت إلى ذكر رسول الله ﷺ، اضربوا عنقه، فما برحنا حتى قتل[3].

تمردٌ علويٌّ في المدينة

طلب والي المدينة إسحاق بن عيسى بن علي أن يكون في بغداد وأن يستقيل من ولاية المدينة، فأجابه الهادي إلى ذلك وجعل مكانه عمر بن عبد العزيز وهو من نسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه[4].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٧٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٥، وابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٢١.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣٠٧.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٦.

ابتكر الوالي الجديد نظاما لمراقبة العلويين، لقد كانت الدولة ترى في اختفاء أحدهم عن الأنظار مشروعا لدعوة سرية تطلب الخلافة لهم، وذلك منذ ثورة محمد النفس الزكية في عهد المنصور؛ ولهذا جعل الوالي بعض العلويين كفلاء لبعضهم بحيث إذا افتقد أحدهم أو أراد القبض عليه لأي سبب فلم يستطع فإن كفيله مسئول أمامه(١)، وبهذا جعل التفكير في الثورة أو التمرد عملا خطيرا يقف ضده قسم من العلويين أنفسهم.

وبدأت القصة بأن أنزل الوالي عقوبة شرب الخمر على مجموعة منهم الحسن بن محمد (من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب) ثم طاف بهم مهانين في طرقات المدينة، فذهب الحسين بن علي (من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب) معترضا على الوالي لأمرين: الأول أنه عاقبهم في شرب الخمر بينما هذا الشراب الذي كان لهم يجيزه أهل العراق وإن حرمه أهل المدينة ففيه خلاف في استحقاقه حكم الخمر، ثم إن الحد هو الجلد فحسب لا الإهانة، فامتنع الوالي عن الطواف بهم ثم حبسهم يومًا وليلة، ولكي يحتاط منهم فقد أمر بأن يحضروا يوميًّا أمام السلطة(٢).

ثم تغيب الحسن بن محمد عن الحضور ثلاثة أيام فبدأ الشك يساور الوالي، فاستدعى كفيليْه ووليّه الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن وسألهما عن الحسن فأغلظ عليهما وتهددهما، ولم يكن الوالي يعرف أنه بهذا التهديد قد أربك خطَّة الثورة الجديدة واضطرهما إلى إشعالها قبل الموعد المتفق عليه والذي كان في موسم الحج القادم(٣).

لقد خرج العلويان من عند الوالي وقد اضطرا إلى تقديم موعد التمرد لأنهما إن تأخرا فقد يحبسهما هو فتنتهي الثورة كلها قبل أن تبدأ، وبالفعل جاء الليل وقد بدأت الثورة وخرج مَنْ كانوا في الدعوة إلى باب الوالي الذي كان يقظا فلم يجدوه لا في دار الولاية ولا في بيته، فكانت صلاة الفجر أول إعلان للثورة حيث ارتدى الحسين بن علي عمامة بيضاء (شعار مخالفة العباسيين أصحاب الثياب السوداء) وجلس على المنبر (وبهذا وضع نفسه موضع الإمام والوالي)، واستيقظ أهل المدينة على هذا المشهد، فكانوا يرجعون وينفضون عنهم، ثم

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٧.

زاد انضمام الناس إليهم في صلاة الظهر، وأعلن في الناس أنها دعوة علوية للرضا من آل البيت[١].

أما اليعقوبي فلديه رواية أخرى، هي «أن موسى ألح في طلب الطالبيين وأخافهم خوفا شديدا وقطع ما كان المهدي يجريه لهم من الأرزاق والأعطية وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم فلما اشتد خوفهم وكثر من يطلبهم ويحث عليهم عزم الشيعة وغيرهم إلى الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي وكان له مذهب جميل وكمال ومجد وقالوا له: أنت رجل أهل بيتك وقد ترى ما أنت وأهلك وشيعتك فيه من الخوف والمكروه. فقال: وإني وأهل بيتي لا نجد ناصرين فننتصر فبايعه خلق كثير ممن حضر الموسم»[٢].

اشتعلت الحرب أيامًا بين أنصار العباسيين وأنصار العلويين في المدينة، وكلا الفريقين يصيب من الآخر؛ لكن لا أحد يستطيع الحسم، واستطاع العلويون السيطرة على بيت المال وأخذ ما فيه، وعلى الرغم من أن والي المدينة هرب؛ فإن أنصار العباسيين تجمعوا تحت زعامة حماد البربري، وعلى الرغم من أن حماد قد قُتِل إلَّا أنَّ العلويين لم ينتصروا نصرًا حاسمًا كذلك، وكان أشق شيء عليهم هو أن أهل المدينة انفضوا عن هذه الحركة ولم يؤيدوها؛ ولهذا اتخذوا من المسجد مركزًا للحركة خشية أن يُغتالوا خارجه، ثم منعوا الناس أن يصلوا فيه خشية تسلل مناوئيهم داخله، فازداد أهل المدينة نفورًا من الحركة، واضطر العلويون إلى الخروج من المدينة إلى مكة (٢٤ من ذي القعدة ١٦٩هـ) بعد أحد عشر يومًا فقط وقد صار يقينه أن المدينة لن تكون المركز المناسب للثورة.

كانت مكة هي مركز الثورة في الخطَّة الموضوعة أصلًا، وكان اجتماع أصحاب الدعوة فيها أيسر تحت غطاء الحج، لكن المكيين -أيضًا- لم ينضموا إلى الحركة وانفضوا عنها، ثم أرسل الهادي إلى الأمير العباسي محمد بن سليمان بن علي -وكان قد أحرم للعمرة- يكلفه بقتال الحسين بن علي مع من اجتمع في مكة من أنصار العباسيين فاستعمل محمد بن سليمان كل من قدر عليه من الرجال والسلاح الذي كان قد أتى به لحراسة القافلة، ودارت معركة بين العباسيين والعلويين سميت معركة «فخ» (٨ من ذي الحجة ١٦٩هـ) أسفرت عن هزيمة

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٧.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٣٦، ١٣٧.

العلويين ومقتل زعيم الثورة الحسين بن علي، وتفرق أصحابه بين الحجاج، وبهذا انتهى أمره بعد تسعة أشهر منذ بداية خروجه[١].

وقد أفلت من هذه المعركة اثنان من كبار العلويين: إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي اتجه إلى مصر ومنها إلى المغرب حيث أَسَّس هناك دولة الأدارسة، ويحيى بن عبد الله بن الحسن الذي استقرَّ به الحال شرقًا، وكانت له ثورة أخرى في عهد الرشيد[٢]!

وقد تكررت القصة الدائمة التي لا تزال تتكرر منذ ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب ﵁.. فكثير من شيعة العلويين ينفضون عمن انضموا إليه واغتر بهم في لحظات الجد الفاصلة، وقد قال الحسين بن علي قبيل موقعة فخ شعرا في هؤلاء الذين لم يخرجوا معه على الرغم من الوعد:

مَــنْ عَاذَ بِالسَّيْفِ لاقَى فُرْصَةً عَجَبًا مَوْتًا عَلَى عَجَلٍ أَوْ عَــاشَ مُنْتَصِفَا
لا تَقْرَبُوا السَّهْلَ إِنَّ السَّهْلَ يُفْسِدُكُمْ لَنْ تُدْرِكُوا المَجْدَ حَتَّى تَضْرِبُوا عُنُقَا[٣]

ونجح الهادي في القضاء على ثورة مصعب بن دحية والتي كانت في صعيد مصر، فقد وَلَّى على مصر الفضل بن صالح بن علي، فاستطاع هزيمة مصعب وقتله، وقد كان الفضل من أمراء العمران، وبنى في مصر مدينة العسكر.

العلاقات الخارجية

كانت خلافة الهادي قصيرة، نجد فيها علاقة سلمية واحدة حيث استسلم وقدم عليه ونداد هرمز صاحب طبرستان بالأمان (١٦٩هـ) فأحسن صلته ورده إلى طبرستان[٤]، كذلك نجد غزوة واحدة للروم قادها معيوف بن يحيى من درب الراهب، وقد كانت الروم أقبلت مع البطريق إلى الحدث فهرب الوالي والجند وأهل الأسواق فدخلها العدو ودخل أرض العدو معيوف بن يحيى فبلغ بلدة أشنة فأصابوا سبايا وأسارى وغنموا[٥].

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٢، وابن قتيبة: المعارف ص٣٨١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٨، ٥٩٩.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٠.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٢.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٦.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٣.



الهادي والرشيد والخيزران

كان الهادي شديد الغيرة على حُرَمِه، وكان هذا مشهورا عنه حتى إن يحيى بن خالد البرمكي لم يجرؤ على الدخول إلى الخيزران في وقت الأزمة واضطراب الجند أول خلافة الهادي وقبل وصوله بغداد، بينما كان يدخل إليها الربيع بن يونس، وقبل وصول الهادي إلى بغداد وصلت رسائله إلى يحيى بالشكر وإلى الربيع يتهدده بالقتل[1]! وحين حاول شاعر مدح الهادي بقوله:

يا خيزران هَناكِ ثم هَناكِ   إن العباد يسوسهم ابناك

نصحه جليسه ألا يذكر أم الخليفة لا بخير ولا بشر[2].

وكانت الخيزران جارية عند المهدي فأعتقها وتزوجها، وكانت عزيزة عنده، مما جعل لها نفوذًا في بلاط الخلافة، فتتوسط في بعض الأمور فيُستجاب لها؛ حتى صارت مقصودة، يقصدها أصحاب الحاجات.

ولم يكن الهادي يرضى بهذا، ولم يعجبه أن أمه قد صار لها كل هذا النفوذ، فيقصدها كبار رجال الدولة في أمر أو أن يكون لها أمر عليهم وهم ينفذون، ووقع بينهما الغضب حين طلبت من الهادى طلبًا فلم يُجِب إليه، فأعلنت أنه لا بُدَّ من قضاء هذه الحاجة لأنها قد تعهدت بقضائها بالفعل، فاشتاط الهادى غضبًا؛ وقال: «والله لا قضيتها لك. قالت: إذًا والله لا أسألك حاجة أبدًا. قال: إذا والله لا أبالي. وحمي وغضب فقامت مغضبة، فقال: مكانك تستوعي كلامي والله وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله؛ فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؛ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك، إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملي أو لذمي فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها!»[3].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٤، وثمة رواية تفيد أن نهاية الربيع كانت بالفعل في وشاية استغلت غيرة الهادي، فقيل له إن الربيع تغزل في جارية له (الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٧)، على أن هذه الروايات لا تحقق الحد الأدنى من الثبوت التاريخي، ونحن نذكر مثل هذا أحيانا –ولو أنه خارج سياق الكتاب– تنبيها للقارئ من بعض المغرضين الذين ينشرون هذه الروايات المعتمدة على ظل من الصحة لتنسج به بناء من الأكاذيب والتشويه لتاريخنا الإسلامي.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٤.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٤.

ثم إنه جمع من يقصدها في طلب الحاجة من الأمراء ورجال الدولة فقال لهم: «أيما خير: أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين. قال: فأيما خير أمي أو أمهاتكم؟ قالوا: بل أمك يا أمير المؤمنين. قال: فأيكم يحبُّ أن يتحدَّث الرجال بخبر أمه فيقولوا فعلت أم فلان وصنعت أم فلان وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحدٌ منا يحبُّ ذلك. قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدَّثون بحديثها؟! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة»(١).

فذهب بهذا نفوذ الخيزران، ولم يَعُدْ يجرؤ أحد أن يقصدها في أمر، وقد أقسمت هي ألا تكلمه بعد اليوم وانتقلت إلى منزل بعيد عنه.

وفضلًا عن موضوع الغيرة، فقد بلغ نفوذ الخيزران أن وقفت أمام الهادي في عزمه على على خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد لابنه جعفر بن الهادي، وقد كانت الخيزران تميل إلى الرشيد أكثر من الهادي، وبذهاب نفوذ الخيزران صفا الأمر للهادي حتى إن الرشيد نفسه لم يُظْهِر منازعة ولا معارضة بل أجاب، وقد وضع بعض الأمراء وكبار الدولة قوتهم في خدمة هذا الغرض أيضًا(٢).

على أن الهادي بدا وكأنه اقتنع بالرجوع عن هذا العزم حين استشار يحيى بن خالد بن برمك، وهو من كبار الأمراء وأبوه من رجال الدعوة العباسية، فقال يحيى: إني أخشى أن تهون الأَيْمان على الناس (أي كثرة المبايعات والخلع، وقد تكرر هذا الأمر مرتين من قبل مع عيسى بن موسى)، ولكن المصلحة تقتضي أن تجعل جعفرًا ولي العهد من بعد هارون، وأيضًا فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس. فسكت الهادي وأخذ يقلب الأمر في رأسه ثم أمر بسجن يحيى بن خالد، ولربما ظَنَّ أنه فعل هذا لولائه للرشيد، غير أنه عاد وأطلقه(٣)!

ولا ريب أن حداثة سن جعفر كانت هي المعضلة الأكبر، وهي التي منعت أن يوطئ له الهادي ذلك الأمر بصورة يطمئن إليها، كذلك فإن انقياد الرشيد وإجابته ساهمت في طمأنة الهادي للوضع القائم.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٦، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٢٨، ١٢٩.



ومما يُروى في ذلك أن الرشيد دخل على مجلس الهادي يومًا بعيدا، فجعل الهادي ينظر إليه مليا ثم قال: يا هارون! تطمع أن تكون وليًّا للعهد حقًّا؟ فقال: إي والله، ولئن كان ذلك لأَصِلَنَّ من قطعت، ولأُنْصِفَنَّ من ظلمت، ولأُزَوِّجن بنيك من بناتي. فقال: ذاك الظن بك. فرضي الهادي عن الرشيد، واطمأن إليه[1].

وإن كنا نميل إلى أن هذا إنما كان إمهالا وتأجيلا للأمر، ولو أن العمر طال بالهادي حتى بلغ ابنه سن الرجولة لكان قد ولاَّه العهد وخلع الرشيد، ولعلَّ الهادي أراد بذلك إقرار الأمور بينه وبين أخيه، ومن وراء أخيه سائر من هم على رأيه كالخيزران وباقي الأمراء ممن لم يرض ببيعة جعفر بن الهادي، وفي ذلك حفاظ على استقرار البلاد وعلى حياة ابنه جعفر أيضًا!

وفاة الهادي

وإن في سيرة الملوك لعبرة..

فهذا الهادي الذي كان يفكر ويخطط لولاية ابنه الخلافة، لم يكمل هو في الخلافة إلا شهورا، عاما وثلاثة أشهر فحسب، ومات بعيساباذ (١٥ من ربيع الأول ١٧٠هـ) في قصر الأبيض الذي بناه.

وموته المفاجئ هذا دفع إلى التخمين بأن أمه الخيزران لها يد في قتله وأنها عهدت بهذا إلى بعض الجواري اللاتي قتلنه إما سمًّا وإما خنقًا، ومثل هذه الجرائم مما لا يأخذ فيها المؤرِّخ المسلم بوقائع لا تملك الحد الأدنى من الثبات، هذا مع العلم بأن أسرار القصور والملوك في القديم والحديث مما لن يُكشف أمره على الحقيقة إلا يوم القيامة!

وهذه الليلة (١٥ من ربيع الأول ١٧٠هـ) أشهر ليلة في التاريخ العباسي، ففيها تُوُفِّيَ خليفة وهو الهادي، وتولى خليفة وهو الرشيد، ووُلِد خليفة وهو المأمون بن الرشيد.

وقفة مع الهادي

ربما يتلخص الكلام عن شخصية الهادي في قول ابن كثير: «كان موسى الهادي من أفكه الناس مع أصحابه في الخلوة، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه، لما

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٠٨.

يعلوه من المهابة والرياسة»[١]، فيُروى عن أخيه من الرضاعة الحسين بن معاذ بن مسلم قوله: «لقد رأيتني أخلو مع موسى فلا أجد له هيبة في قلبي عند الخلوة لما كان يبسطني وربما صارعني فأصرعه غير هائب له وأضرب به الأرض فإذا تلبس لبسة الخلافة ثم جلس مجلس الأمر والنهي قمت على رأسه فوالله ما أملك نفسي من الرعدة والهيبة له»[٢].

فلهذا يجتمع في شخصية الهادي حبه للغناء والسمر والشراب ثم يجتمع مع ذلك حزم وعزم وهيبة في سياسة الملك وتدبير أمور الحكم.

ومن أبرز دلائل خبرته بأحوال الملك حرصه على القرب من الناس ودقة التقارير، وبهذا أوصى حاجبه الفضل بن الربيع «لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة، ولا تُلْقِ إليّ أمرًا إذا كَشَفْتُه أَصَبْتُه باطلًا، فإن ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية»[٣].

وذات يوم ذهب يزور أمه الخيزران فذَكَّره عمر بن بزيع -أحد رجال الدولة وصاحب ديوان الأزمة- أنه لم يجلس للنظر في مظالم الناس منذ ثلاثة أيام وأن هذا خير من زيارته لأمه، فتغيرت وجهته إلى دار المظالم وأرسل إلى أمه من يعتذر إليها قائلًا: «إن عمر بن بزيع أخبرنا من حق الله بما هو أوجب علينا من حقك فملنا إليه ونحن عائدون إليك في غد إن شاء الله»[٤].

ومن كلامه الذي يعبر عن منهجه في إدارة الملك «ما أصلحَ الملكَ بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات ليقل الطمع عن الملك»[٥].

وكان الهادى سريع البديهة، روى أحد رفاقه أنه «كان واقفًا بين يديه وهو على حمارٍ له ببستانه المعروف به ببغداد إذ قيل له: قد ظفر برجل من الخوارج، فأمر بإدْخَاله، فلما قرب منه الخارجي أخذ سيفًا من بعض الحرس، فأقبل يريد موسى، فتنحيت وكلُّ مَنْ معي عنه، وأنه لواقف على حماره ما يتحلحل، فلما أن قرب منه الخارجي صاح موسى: اضربا عنقه، وليس وراءه أحد، فأوهمه، فالتفت الخارجي لينظر، وجمع موسى نفسه ثم ظهر عليه فصرعه، فأخذ

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٦٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١١، ٦١٢.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١١.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٠.
(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٣/ ٢٣.



السيف من يده، فضرب عنقه، قال: فكان خوفنا منه أكثر من الخارجي، فوالله ما أنكر علينا تنحينا، ولا عَذَلنَا على ذلك، ولم يركب حمارا بعد ذلك اليوم، ولا فارقه سيفه»[١].

ولعلَّ هذه الحادثة أو مثلها كانت بداية ظاهرة جديدة بدأت في عهد الهادي، وقد «كانت من أخطر الظواهر على الدولة العباسية، إذ أكثر من الجند، وكَثُر في عهده السلاح، وكان إذا سار حفت به المواكب العسكرية ومشت الرجال بالسيوف والقِسِي[٢]، وقَلَّده في هذا أصحاب الولايات»[٣].

هذا عن أخبار الحكم والسياسة فأما حديث الأدب والسمر واللهو فمنه مثلا إنفاقه الجزيل على أهل الأدب والشعر، ومنهم عيسى بن دأب الذي كان «أكثر أهل الحجاز أدبًا وأعذبهم ألفاظًا، وكان قد حظي عند الهادي حظوة لم تكن عنده لأحد، وكان يدعو له بمتكأ وما كان يفعل ذلك بأحد غيره في مجلسه، وكان يقول: ما استطلت بك يومًا ولا ليلة ولا غبت عن عيني إلا تمنيت ألا أرى غيرك. وكان لذيذ المفاكهة، طيب المسامرة، كثير النادرة، جيد الشعر حسن الانتزاع له، قال: فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار فلما أصبح ابن دأب وجه قهرمانه إلى باب موسى، وقال له: الق الحاجب وقل له يوجه إلينا بهذا المال. فلقي الحاجب فأبلغه رسالته فتبسم وقال: هذا ليس إليَّ، فانطلقْ إلى صاحب التوقيع ليخرج له كتابًا إلى الديوان فتدبره هنا ثم تفعل فيه كذا وكذا. فرجع إلى ابن دأب فأخبره فقال: دعها ولا تعرض لها ولا تسأل عنها. قال: فبينا موسى في مستشرف له ببغداد إذ نظر إلى ابن دأب قد أقبل وليس معه إلا غلام واحد، فقال لإبراهيم الحراني: أما ترى ابن دأب ما غير من حاله ولا تزين لنا وقد بررناه بالأمس ليرى أثرنا عليه. فقال له إبراهيم: فإن أمرني أمير المؤمنين عرضت له بشيء من هذا؟ قال: لا هو أعلم بأمره. ودخل ابن دأب فأخذ في حديثه إلى أن عرض له موسى بشيء من أمره فقال: أرى ثوبك غسيلًا وهذا شتاء يحتاج فيه إلى الجديد اللين. فقال: يا أمير المؤمنين باعي قصير عما أحتاج إليه. قال: كيف وقد صرفنا إليك من برنا ما ظننا أن فيه صلاح شأنك؟ قال: ما وصل إليَّ ولا قبضته. فدعا صاحب بيت مال الخاصة

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣١٠، ٣١١. (ط٢ الشركة العالمية للكتاب، بيروت).

(٢) القسي: جمع قوس.

(٣) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٥١.

فقال: عجل له الساعة ثلاثين ألف دينار. فأحضرت وحملت بين يديه[١]، وأُمر له بثلاثين ألفًا أخرى حين أتى بأبيات شعر استطابها الهادي[٢].

وكان في مجلس الهادي المغني الأشهر في التاريخ الإسلامي إبراهيم الموصلي، وكان يُجزل له العطاء حتى لقد أباح له مرة أن يدخل بيت المال فيأخذ ما شاء[٣]، وأعطى ثلاثمائة ألف درهم على بيت قاله الشاعر سلام الخاسر هو:

لولا هداكم وفضل أولكم ... لم تَدْرِ ما أصل دينها العربُ[٤]

وكان مجلسه هذا يسع من لم يكن على مذهب الدولة مثل الإباضييْن: سعيد العلاف وأبان القارئ[٥].

***

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٢، ٦١٣.
(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٣٠، ١٣١.
(٣) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٧٥.
(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٣١.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٧.



هارون الرشيد

اختلف المؤرخون في مولد الرشيد، فمنهم من ذكره في (١٤٥هـ) وقيل (١٤٦هـ) وقيل (المحرم ١٤٩هـ)، أي أنه تولى الخلافة وهو فوق العشرين، وكان أبيض طويلًا سمينًا جميلًا، وكان ذا سمعة طيبة في الناس لما كان من جهاده للروم في عهد أبيه المهدي، ثم أكمل في حياته مسيرة الجهاد هذه حتى إنه اتخذ قلنسوة مكتوبًا عليها: «غازٍ وحاجّ».

***

ما إن مات الهادي حتى تحرك الأمراء لتنصيب الرشيد في الخلافة، وانتهت عمليًّا فكرة تنصيب جعفر بن الهادي وليا للعهد، ويذكر المؤرِّخون أسماء هرثمة بن أعين ويحيى بن خالد البرمكي وخازم بن خزيمة فهم الذين أسرعوا بالخبر إلى الرشيد وتولوا مهمَّة إقرار الأمر قبل انتشار خبر وفاة الهادي[١].

لقد استيقظ الرشيد فزعا على يد يحيى بن خالد البرمكي الذي ناداه «قم يا أمير المؤمنين» فارتاع الرشيد ونبهه «كم تروعني إعجابا منك بخلافتي فكيف يكون حالي مع الهادي إن بلغه هذا؟» فأخبره يحيى بموت الهادي، وبينما يلبس الرشيد ثيابه جاءه الخبر السعيد الثاني فلقد وُلِد له مولود[٢]، ولم يكن أحد يدري في ذلك الوقت أن هذا المولود سيكون «الخليفة المأمون».

صلى هارون على أخيه الهادي في عيساباذ، وبدأ خلافته بالتخلص من مناوئه أبي عصمة الذي كان أشد الناس حماسة لخلع هارون من ولاية العهد ليتولاها جعفر بن الهادي حتى لقد كان يهين هارون ويمنعه من مجرَّد التقدُّم في المشي على جعفر[٣].

ثم سارع الرشيد بالعودة إلى بغداد، فما إن أشرق الصباح حتى كان قد دفن الهادي بعيساباذ، وعزم ألا يصلي الظهر إلا ببغداد، وكان أول أعماله من بغداد أن حرص على إكمال

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٨.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٨، ٦١٩.

بناء مدينة طرسوس على ساحل البحر المتوسط والتي تعد من أهمِّ الثغور من جهة الروم، وأعلن الأمان العام لَمَنْ كان هاربًا أو خائفًا إلا الزنادقة(١).

أحوال الخلافة

نستطيع تقسيم خلافة الرشيد سياسيًّا إلى ثلاث مراحل متمايزة؛ المرحلة الأولى: استمرت أربع سنوات وكانت أمه الخيزران صاحبة نفوذ واسع وكلمة مسموعة بل وهي الأقوى بين مراكز القوى، المرحلة الثانية: واستمرت ثلاثة عشر عامًا، وفيها كان الرشيد هو الخليفة القوي؛ لكنه أعطى صلاحيات واسعة لوزيره البرمكي ولرجال الدولة من الأسرة البرمكية، المرحلة الثالثة: واستمرت ست سنوات وفيها كان الرشيد يدير الأمور كلها بنفسه بعد أن تخلص من البرامكة في النكبة الشهيرة بعد اتِّساع نفوذهم إلى حد الخطر.

١- المرحلة الأولى (١٧٠ - ١٧٤ هـ)

منذ عهد المهدي والخيزران كانت ذات نفوذ في الدولة، ثم عظم نفوذها أكثر حين مات المهدي وصار ولدها الهادي في الخلافة، لكن الهادي أقصاها ومنع دخول الوزراء والأمراء عليها فذهب نفوذها وغضبت منه غضبًا شديدًا، ثم عادت مكانتها أفضل وأعظم مما كانت بعد وفاة الهادي وتولي الرشيد، وصارت صاحبة الكلمة المسموعة في بلاط الخلافة؛ حتى لقد قال الرشيد لحاجبه الفضل بن الربيع بعد وفاتها: «وحق المهدي -وكان لا يحلف بها إلا إذا اجتهد- إني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمي فأطيع أمرها»(٢).

وقد عيَّن الرشيد يحيى بن خالد البرمكي في منصب الوزير، وأعطاه صلاحيات واسعة فيما يُعرف بـ«وزارة التفويض» قائلًا له: «قد قلدتك أمر الرعية فاحكم فيها بما ترى من الصواب واعزل من رأيت واستعمل من رأيت»(٣)، فكان يحيى وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوسا عاما في كل يوم إلى انتصاف النهار، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم لا يُحجب أحد ولا يُلقى لهم ستر، ويلقاهم بالترحاب والبشاشة والسرور(٤).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٨ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٠، ٦٢٣.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٩.
(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٣٤، ١٣٥.

ولا يعد هذا مستغربا إذا علمنا أن يحيى البرمكي هو مؤدب الرشيد ومربيه ومعلمه، وأن الرشيد رضع في صغره من زوجته فهو أبوه من الرضاعة، وكان الرشيد يناديه «يا أبي»، ومنذ كان الرشيد في الرابعة عشرة من عمره ويحيى يلازمه ويعمل كاتبا له بأمر المهدي[1]، وكان يرافقه في غزواته، وفي تلك السنة كان يحيى في الخمسين من عمره قضاها كلها في خدمة الدولة، فهو صاحب تجربة واسعة ولا مطعن في ولائه واقتداره، بينما كان الرشيد -كما ذكرنا- فوق العشرين بقليل!

ولأول مرة كانت قرارات ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى بن خالد وكانت من قبل تكون باسم الخليفة[2]، وعلى الرغم من أن مؤرِّخ الحضارة ول ديورانت يرى في هذا التفويض الواسع «إفراطًا خطيرًا في ثقته بالوزير» إلا أنه يعود فيقول: «أثبت يحيى أنه أقدر الحكام في تاريخ العالم كله. لقد كان رجلًا بشوشًا، دمث الأخلاق، جوادًا حكيمًا، مجدًا لا يمل من العمل؛ رفع دولاب الحكومة إلى أعلى درجات الكفاية، وثبت دعائم النظام، وأقر الأمن، ونشر لواء العدالة، وأنشأ الطرق، والجسور، والخانات، واحتفر قنوات الري، فعم الرخاء جميع ولايات الدولة»[3].

وهذا الوزير المفوض كان يستشير الخيزران ويَصْدُر عن أمرها ورأيها[4]، وظل هذا الوضع قائما حتى وفاة الخيزران (١٧٤هـ).

٢- المرحلة الثانية (١٧٤ - ١٨٧ هـ)

وهي التي انفرد فيها الرشيد بالحكم مع استمرار الصلاحيات الواسعة ليحيى بن خالد البرمكي، ومع وجود الأسرة البرمكية في مناصب الدولة العليا، على أن الرشيد منذ تُوُفِّيَت أمه الخيزران أخذ خاتَمَه -الذي توقع به القرارات والرسائل- من جعفر بن يحيى البرمكي، وعهد به إلى الفضل بن الربيع (ابن وزير المنصور الربيع بن يونس) وهو عربي بخلاف البرامكة ذوي الأصول الفارسية، فهذا كان أول انتقاص من سلطة البرامكة فبعض المؤرِّخين يرون أن هذه علامة مبكرة لشعور الرشيد بخطر استيلاء الفارسيين على أهمِّ مناصب الدولة،

---

(١) الزركلي: الأعلام ٨/ ١٤٤.
(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٣٥.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٩٢، ٩٣.
(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٣٤.

وبعضهم يقلل من شأنها ويراها كأي خطوة إدارية عادية في ذلك الوقت، ويرجح قول الفريق الثاني أن الرشيد جدد تفويض أمور الدولة إلى يحيى بن خالد (١٧٨هـ) كما أنه أرجع خاتم الخليفة إليه (١٨٠هـ) بعد أن كان مع جعفر بن عيسى.

وقد كان يحيى بن خالد رجل دولة من الطراز الأول، كفاءة وخبرة وحسن تدبير، وكان أبناؤه في المناصب العليا وقد كانوا -أيضًا- مثالًا لرجال الدولة والإدارة، ولهم من حميد السجايا والصفات ما جعلهم موضع حب الناس واحترامهم.

فقام يحيى بأمره خير قيام، ودبر أموره أحسن تدبير، كما تولى أولاد يحيى البرمكي المناصب الكبيرة في الدولة، وصاروا موضع ثقة الخليفة حتى نكبهم فجأة (١٨٧هـ)

٣- المرحلة الثالثة (١٨٧ - ١٩٣ هـ)

حيث تولى الرشيد كل الأمور بنفسه، ولم يَعُدْ يخرج فقط للحج أو الغزو، بل صار يخرج إلى البلاد يتفقد أحوالها بنفسه، كما عزم على الخروج بنفسه على رأس جيش للتصدي لثورة في أقصى الشرق في سمرقند من بلاد ما وراء النهر.

لقد خرج الرشيد (جمادى الأولى ١٩٠هـ) إلى الري، وهي منذ عهد المنصور في مقام عاصمة بلاد المشرق، وقد كانت خراسان وما وراءها من بلاد النهر وما تاخمها من طبرستان وبلاد الديلم تضطرب في هذا الوقت مما سنعرض له لاحقا بتفصيل إن شاء الله، وكان من أهمِّ أسباب خروجه بنفسه تعقب أمر خراسان التي وصلت رسائل كبرائها وأعيانها يشكون ظلم الوالي علي بن عيسى بن ماهان وسوء سيرته فيهم، وثمة رسائل قالت بأنه يعتزم العصيان والاستقلال بخراسان، فذهب الرشيد إلى الري وأقام هناك أربعة أشهر تفقد فيها الوضع، وجاءه علي بن عيسى الذي أكثر من الهدايا والجواهر للرشيد ومن معه من الكُتَّاب والقُوَّاد، ورأى الرشيد غير ما ظنّه وأبقى علي بن عيسى في ولايته على خراسان، وأغلب الظن أنه أبقاه اضطرارًا لما يواجهه من ثورة في سمرقند من بلاد ما وراء النهر[١].

وفي سفره هذا أقرَّ الرشيد أمر طبرستان التي تضطرب أحوالها وأخرج جيشًا قاده حسين الخادم إلى هناك ومعه عهد أمان لزعماء طبرستان وقبائل الديلم: شروين أبي قارن، وونداد

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٤، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٨٠.

هرمز، والمرزبان بن جستان، وجاء إليه جستان وونداد في الري فأكرمهما وتعاهدا على السمع والطاعة وأداء الخراج[١].

واستغرق هذا السفر سبعة أشهر ثم عاد الرشيد إلى بغداد (ذي الحجة ١٩٠هـ).

لم يلبث بعد عودته هذه إلا شهورا حتى اكتشف الرشيد كذب علي بن عيسى بن ماهان عليه، ولقد زعم أن ثورة سمرقند قد استنزفت أمواله حتى لقد باع فيها حلي نسائه بينما تكشف أن لابنه ثروة قدرها ثلاثون مليونا، كما أن علي بن عيسى انسحب من بلخ إلى مرو (إلى الغرب) وكان قرارا رآه الرشيد انسحابا بلا مبرر ويمثل خطرًا على مسار مواجهة التمرد، لا سيما وقد ترك مثل هذه الثروة التي إن وقعت في يد المتمردين زادت بها قوتهم، فقرر الرشيد (١٩١هـ) عزل علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان، فقد انتقى سبب الاضطرار الذي أبقى به عليه وهو مواجهة الثورة حين فشل في إدارة أموره فيها، ولم يَعُدْ لوجوده معنى مع ظلمه لأهل خراسان وأعيانهم واستهانته برجالهم وكبارهم وكراهية القوم له[٢]، وعين مكانه البطل الكبير هرثمة بن أعين، وقد كان تعيينه سرا وإرساله مع الجيش تمويها وكأنه دعم لحرب التمرد في سمرقند، فلما تمكن هرثمة من الأمر (١٩٢هـ) قبض على علي بن عيسى وصادر أمواله فإذا بها في بعض التقديرات ثمانون مليونا، وأرسله إلى بغداد[٣].

ويورد الطبري رسالة من هرثمة إلى الرشيد فيها تقرير مفصل عما قام به في هذا السفر منذ كان في الطريق وحتى لحظة إرسال هذه الرسالة، وقيمة هذا التقرير المفصل في أنه دليل

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٤.

(٢) من وقائع استهانته بأعيان أهل خراسان: «أنه دخل عليه يوما الحسين بن مصعب والد طاهر بن الحسين وهشام بن فرخسرو فسلما عليه فقال للحسين: لا سلم الله عليك يا ملحد ابن الملحد والله إني لأعرف ما أنت عليه من عداوة الإسلام والطعن في الدين ولم أنتظر بقتلك إلا أمر الخليفة ألست المرجف بي في منزلي هذا بعد أن ثملت من الخمر وزعمت أنك جاءتك كتب من بغداد بعزلي؟ أخرج إلى سخط الله لعنك الله فعن قريب ما يكون منها فاعتذر إليه فلم يقبل عذره وأمر بإخراجه فأخرج وقال لهشام بن فرخسرو: صارت دارك دار الندوة يجتمع إليك السفهاء تطعن على الولاة سفك الله دمي إن لم أسفك دمك فاعتذر إليه فلم يعذره فأخرجه. فأما الحسين فسار إلى الرشيد فاستجار به وشكا إليه فأجاره وأما هشام فإنه قال لبنت له إني أخاف الأمير على مدي وأنا مفض إليك بأمر إن أنت أظهرته قتلت وإن أنت كتمته سلمت، قالت: وما هو؟ قال: قد عزمت على أن أظهر أن الفالج قد أصابني فإذا كان في السحر فاجمعي جواريك واقصدي فراشي وحركيني فإذا رأيت حركتي ثقلت فصيحي أنت وجواريك واجمعي إخوتك فأعلميهم علتي، ففعلت ما أمرها وكانت عاقلة فأقام مطروحا على فراشه حينا لا يتحرك إلى أن جاء هرثمة واليًا فركب إلى لقائه فرآه علي بن عيسى بن ماهان فقال: إلى أين؟ فقال: أتلقى الأمير أبا حاتم قال: ألم تكن عليلا فقال: وهب الله العافية وعزل الطاغية في ليلة واحدة» ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٤٧، وأصل الخبر عند الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤، ٥.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤ وما بعدها.

على إمساك الرشيد كافة خيوط المتابعة والإشراف على الوضع بنفسه، ثم ردَّ عليه الرشيد برسالة يخبره أنه تابع كل التفاصيل المرسلة ويأمره أن يزداد اجتهادا في رفع مظالم الناس واستصفاء أموال علي بن عيسى ثم مواجهة تمرُّد سمرقند(١).

ثم خرج الرشيد مرة أخرى (١٩٢هـ) من مقر إقامته في الرقة متوجهًا إلى خراسان ليقود بنفسه إخماد تمرُّد سمرقند(٢)، ولكنه مات في الطريق في طوس قبل أن يبلغ غايته.

٤- الرقة.. عاصمة جديدة

هذا العنصر ينبغي أن يضاف إلى ملامح المرحلة الثالثة، ولكن لما له من أهمِّيَّة أفردناه في الحديث..

لقد أدت كثير من الظروف السياسية والعسكرية إلى أن يتخذ الرشيد مقرًّا جديدًا لإدارة الدولة منه (١٨٠هـ)، ووقع اختياره على مدينة الرقة، لكنه لم ينتقل إليها بأهله وأزواجه، بل لم يزل مضطرًّا ومتأسفًا على تركه بغداد وانتقاله إلى غيرها(٣).

تتلخص هذه الظروف في(٤):

١- قرب الرقة جغرافيا من الجزيرة الفراتية التي كانت حافلة بالثورات وحركات التمرد المرهقة.

٢- قربها جغرافيا من الشام الذي ما زال على حب الأمويين والذي حفل -أيضًا- بتوترات قبلية.

٣- ابتعاد الرقة عن نفوذ البرامكة الهائل في بغداد، ففي الرقة يعتمد الرشيد على العنصر العربي الذي يحن لأيام الأمويين، ليكون دعمًا لسلطته، وقد شعر يحيى بن خالد البرمكي بشيء من هذا وتناوشته الظنون من نائبةٍ يخفيها القدر، فقد تحدَّث يحيى بن خالد عن احتمال وقوع كارثة البرامكة، ونصح أولاده بعدم صحبة الرشيد إلى الرقة،

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٨ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٤، ٦٧٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٣٩.
(٤) د. عمر الحمود: الرقة في عهد الرشيد، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد (٨٥). ولم نضع من الأسباب ما رأينا فيه تكلفا وكان لدينا ما ينقضه.



فلم يأخذوا قوله مأخذ الجد[١].

٤- وهي بعد ذلك مدينة طيبة السكن كثيرة الخيرات حافلة بالمياه والخصب، وللشعراء في وصف جمالها مدائح رائقة، وخراج إقليمها لا يفوقه إلا خراج مصر، فلن تضيق بإقامة الخليفة وحاشيته.

٥- والرقة أقرب إلى ثغور الروم مما يجعلها أفضل في إدارة العمليات الحربية في عهد الرشيد الذي سيزخر بالجهاد ضد الروم.

وقد عمرت الرقة بمن انتقل إليها من كبار رجال الدولة وأهل العلم والحكمة في حاشية الرشيد، وعمرت أسواقها، ونهضت عمرانا بما بني فيها من منازل وقصور وبساتين وأسواق ومساجد وأسوار وأبواب، ومستشفيات، ومخازن للسلاح والعتاد.

***

هذا مجمل الأحوال السياسية للخلافة العباسية، ثم نبدأ الآن في استعراض عهد الرشيد: جهاده والمشكلات التي واجهته، ونكبته للبرامكة، ومسألة ولاية العهد بين أبنائه الأمين والمأمون والقاسم، وما أثمر عنه عهد الرشيد من رخاء ونهضة وأيام زاهرة!

حركة الجهاد

كان الرشيد لا يهدأ، نزل بهم الثلج مرة وهم في إحدى الغزوات فقال أحد حاشيته: «أما ترى يا أمير المؤمنين ما نحن فيه من الجهد والرعية وادعة؟! فقال: اسكت. على الرعية المنام وعلينا القيام! ولا بد للراعي من حراسة رعيته»[٢].

وبمثل هذا عرف الرشيد – كما ذكر القلقشندي- بلقب «جبار بني العباس»، ووضعه ضمن من «اشتهر عند أهل الأثر بلقبه»، وذلك لأنه «أغزى ابنه القاسم الروم فقتل منهم خمسين ألفًا، وأخذ منهم خمسة آلاف دابَّة بالسّروج واللّجم الفضَّة، وأغزى عليّ بن عيسى بن ماهان بلاد التّرك فقتل منهم أربعين ألفًا، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هرقلة، وأخذ الجزية من ملك الروم»[٣].

(١) وهو ينقل هنا عن: الجهشياري: الوزراء والكتاب، ولم أهتدِ لموضع النقل من الكتاب المذكور.
(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٨٠.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٥١٦.

هذا الذي اختصره القلقشندي بهذا القول نستعرضه هنا من خلال عناصر ثلاثة: الاهتمام بأمر الجهاد إعدادا وتنظيما، ثم معاركه في جبهة الروم وهي القسم الأعظم من الجهاد في عهد الرشيد، ثم معارك الجهاد في الجبهات الأخرى.

١- الاهتمام بأمر الجهاد

وشمل هذا الاهتمام بالثغور وشحنها بالجند، وبتقوية المدن والحصون والمعاقل، وتنظيم الجهاد إداريًّا ليكون أكثر فعالية.

وقد ذكرنا أن أول أعمال الرشيد في خلافته إكماله بناء طرسوس التي تعد من أهمِّ ثغور المسلمين أمام الروم، وكانت فكرة بنائها قد بدأت منذ ثماني سنوات حيث أوصى الحسن بن قحطبة المهدي ببنائها واتخاذها ثغرا، ولكن المهدي رأى بناء حصن الحدث أولًا[١].

كلَّف الرشيد مولاه التركي فرج الخادم (١٧٠هـ) بالإشراف على هذا المشروع[٢]، وقد أسرع في ذلك لما تناهى إلى مسامعه عزم الروم على غزو طرسوس وبنائها كحصن لهم، ولو تم ذلك فسيكون ضربة قوية لموقع وحصانة وأهمِّيَّة طرسوس في الخريطة العسكرية بين المسلمين والروم، فكان من مهمات هرثمة بن أعين قائد صائفة (١٧١هـ) أن يشرف على بناء طرسوس، فأشرف هرثمة على عمل فرج الخادم، وقد قام فرج بالعمل على خير وجه واستقدم مواد البناء والفعلة والبنائين وسائر ما يحتاجه المشروع ثم بدأ في شحن الجنود الخراسانيين من بغداد ومن المصيصة ومن أنطاكية ليكونوا حراسة لعمل البناء ثم ليكونوا سكان المدينة بعدئذ، وقد تم إنجاز العمل وبدأ السكن في طرسوس (ربيع الآخر ١٧٢هـ)، وقد زاد الرشيد في أعطيات من سكنوا طرسوس عشرة دنانير تشجيعا للناس على المقام بها[٣].

وعمّر الرشيد بعض مدن الثغور، وأحاط كثيرًا منها بالقلاع والحصون والأسوار والأبواب الحديدية، مثل: قلطية، وسميساط، ومرعش، وكان الروم قد هدموها وأحرقوها فأعاد الرشيد بناءها، وأقام بها حامية كبيرة، وأنشأ الرشيد مدينة جديدة عرفت باسم «الهارونية» على الثغور[٤].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٢٦.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٠.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٠٠، ٢٠١.

(٤) أحمد تمام: هارون الرشيد والعصر الذهبي للدولة العباسية، إسلام أون لاين نت.



ولذا فقد صارت خريطة الثغور في عهد الرشيد على هذا النحو:

١- الثغور الجزرية، وهي التي يرابط بها أهل الجزيرة الفراتية، وتشمل: ملطية، زبطرة، مرعش، الحدث، والمصيصة.

٢- الثغور الشامية، وهي التي يرابط بها أهل الشام، وتشمل: طرسوس، أذنه، عين زربة، والهارونية.

وقد فاق الرشيد في ترتيب أمور الجهاد أباه المهدي وجده المنصور حتى قال فيه معاوية بن عمرو: «رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد أمرا عظيما؛ أقام من الصناعة ما لم يُقِم قبله، وقَسَّم الأموال في الثغور والسواحل، وأشجى الروم وقمعهم»[١].

وقام الرشيد بتغييرات إدارية، إذ عزل منطقة الثغور عن ولايتي الجزيرة الفراتية وقنسرين -وكانت من قبل تابعة لهما- وجعلها وحدة إدارية مستقلة وسماها «العواصم»[٢] (١٧٠هـ)، وجعل عاصمتها «أنطاكية»[٣]، ووضع خطَّة لإسكان الناس فيها فتكون عصبية على الروم ومركزا متقدما للعمليات العسكرية.. وتعمير البلاد بالسكان هو أفضل ما يعرقل الغزو كما هو معروف[٤]، ولأهمِّيَّتها كان لا يولي عليها إلا كبار القادة أو أقرب الأقربين إليه، مثل «عبد الملك بن صالح» ابن عم أبي جعفر المنصور أو ابنه «المعتصم»[٥].

ومما عمله الرشيد إقامة «ديوان العرض» مُلحقا بديوان الحرب، ومن وظائفه استعراض الجند، ومعرفة كفاءاتهم، من قِبَل مشرفين متخصِّصين، وألَّف بعضهم كرَّاسات في الهندسة الحربية كالتعبئة وطرق الاستيلاء على الحصون وتشييد القلاع وفي الفروسية وفي الحصار[٦]. وُوجِدت مصطلحات وتعابير عسكرية مثل: النفير النفير (وتعني استعدوا للهجوم)، الأرض الأرض (وتعني ترجّلوا)، الخيل الخيل (وتعني اركبوا الجياد لأمرٍ خطير)، ونَقَلَ المصنفات العلمية والعسكرية التي وُجِدت في حصون العدو وتعريبها[٧].

ولقد اهتم الرشيد بديوان الجند، ومهمَّة هذا الديوان إحصاء الجند ورواتبهم وأسلحتهم ودوابهم وما يلزمهم من نفقات، وما يأخذونه من غنائم. وقد وصل راتب الجندي العادي إلى عشرين درهمًا عدَا الغنائم العينية -في زمن كان فيه الكبش يباع بدرهم- ولا تتجاوز مدة

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٩٣.
(٢) «وإنما سمي كل واحد منهما عاصما لأنه يعصم الثغر ويمده في أوقات النفير». قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص١٨٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٠.
(٤) لقد ظلت سيناء وساحل البحر المتوسط فارغة من السكان ويتجاهل السادات ثم مبارك تعمير هذه المناطق لتوفير الأمان للكيان الصهيوني الذي باستطاعته اجتياح سيناء بسهولة، كما باستطاعته أن يسرح في مياه البحر الأحمر وينفذ عمليات إنزال بسهولة، وبحت الأصوات والحناجر وهي تنادي بتعمير سيناء والساحل الشرقي وتعدد فوائده الاقتصادية والعسكرية، ولكن لا مجيب!
(٥) أحمد تمام: هارون الرشيد والعصر الذهبي للدولة العباسية، إسلام أون لاين نت.
(٦) د. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد ص١٣١.
(٧) عمر الحمود: الرقة في عهد الرشيد، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد (٨٥).

غياب الجندي عن أسرته أكثر من أربعة أشهر عدا غزوات الجهاد التي تطول أكثر من هذه المدة[١].

وكانت موارد قنسرين والعواصم والثغور تنفق على المراقب والحرس وتأمين الاستقرار للحدود، وتروي المصادر أن مجموع جند فرقه العسكرية النظامية الدائمة المرابطة في خراسان والعراق والعواصم وشمال إفريقية وغيرها يزيد على مليون جندي، ما عدا المتطوعة الذين يتبرعون بالجهاد مع العسكر من أجل الكسب أو تقربًا من الله وأكثرهم من البدو وسكان الأرياف[٢].

هذا العدد الهائل من الجنود يدل على «أن الجيش العباسي في عهد هارون الرشيد تكامل قدرة ونظاما وتدريبا وكفاية»[٣].

وأمَّن الرشيد للجيش كل صنوف الأسلحة المعروفة عصرئذ[٤].

بمثل هذه الاستعدادت كان الجيش الإسلامي في عهد الرشيد ماردا عملاقا قادرا على حفظ الدولة؛ ولهذا انتهى عهد الرشيد «وقد احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة»[٥].

٢- جبهة الروم

بدأت علاقة الرشيد مع الروم بطلب الروم افتداء الأسرى (١٧٠هـ)[٦]، ثم انطلقت الصوائف تترى، وسنرى اختلافا في المصادر حول قواد الصوائف في كل عام، وبعض ذلك راجع لكثرة الصوائف ولأن الجيش الذي كان يذهب للصائفة قد ينقسم إلى أكثر من فرقة فبعض الفرق تشتبك مع الروم وبعضها لا يشتبك تبعا لظروف المعركة أو لظروف الخطَّة الموضوعة؛ ومما يُثير الدهشة اختلاف خليفة بن خياط عن الطبري، وخليفة مؤرِّخ ثقة متقدم بينما الطبري متأخر عنه بسبعين سنة، وقد تابع عامة المؤرِّخين الطبري في ما قاله فأصبح خليفة في موقع المنفرد الشاذ بروايته، وعلى الرغم من أن الطبري لا يبخل بإيراد الروايات المتعارضة؛ فإنه لم يأت في ذلك الموضوع بشيء يعضد كلام خليفة، وأحيانًا ما ينفرد الدينوري

(١) عمر الحمود: الرقة في عهد الرشيد، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد (٨٥).
(٢) عمر الحمود: الرقة في عهد الرشيد، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد (٨٥).
(٣) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٦٧.
(٤) عمر الحمود: الرقة في عهد الرشيد، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد (٨٥).
(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٩٢.
(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٢.

-وهو مؤرِّخ متقدِّم أيضًا- بما لا يوجد عند غيره، وقد نحا بعض الباحثين إلى الجمع بين كل هذه الحوادث وهو أسلوب لا نرتضيه في مقام التحقيق العلمي، وعلى كل حال فليس التحقيق في هذه التفاصيل مجال كتابنا هذا، ومكانه في دراسة متخصِّصة متعمِّقة، إلا أننا أخذنا في السطور القادمة بما تبدى لنا من سياقات الأحداث والروايات وأسندنا التفاصيل إلى مصادرها دون أن نبين في كل مرة ما الذي حملنا على الترجيح أو ذكر الحادثة أو استبعاد أخرى، فهذا مما يخرج بالكتاب عن هدفه العام.

ولا تشرح المصادر كثيرًا من تفاصيل الصوائف، بل لا نكاد نعرف عن الصائفة إلا عامها واسم قائدها وأنه «دخل بلاد الروم فغنم وسلم»، ومن المؤسف أن بعض قادة هؤلاء الصوائف لا نعرف عنهم شيئًا تقريبًا مثل سليمان بن عبد الله البكائي (أو سليمان الأصم) قائد صائفة (١٧٠هـ)[١] و(١٧١هـ)[٢] وعبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي قائد صائفة (١٧٧هـ)[٣] وسليمان بن راشد الثقفي قائد الشاتية في العام ذاته وفي الذي بعده، ويسار بن سقلاب الذي توغل في بلاد الروم (١٧٧هـ) حتى حصن طوانة[٤]، ومعاوية بن زفر بن عاصم قائد الصائفة (١٧٨هـ) و(١٨٠هـ)[٥].

ولم يكن رجال البيت العباسي بمعزل عن الجهاد، بل قاد إسحاق بن سليمان بن علي صائفة (١٧٢هـ)[٦]، وعبد الملك بن صالح بن علي صوائف (١٧٤هـ)[٧] و(١٧٥هـ) والتي خرج معه فيها جند «الثغور جميعًا فأصاب تسعة عشر ألف رأس» و(١٧٨هـ) التي بلغت غنائمها مائة وثلاثة وخمسين ألف دينار[٨]، و(١٨١هـ) التي توغل فيها في بلاد الروم حتى بلغ أنقرة وفتح مطمورة[٩]، وكذلك ابنه عبد الرحمن حيث قاد صائفة (١٧٦هـ) وفتح فيها

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٠.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٦.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٠.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٠، ٦٤٤.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٢.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٥. وخليفة لا يعتبرها صائفة بل جولة عسكرية توغلت وأصابت سبيا، وباقي المؤرخين على خلافه ويصرحون بأنها صائفة.. ومثل هذه الخلافات لا نتوقف عندها كثيرًا كما بينا في منهج الكتاب.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣.

(٩) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٥، والمطمورة نقطة حصينة وهي أقل من الحِصن.



حصنًا للروم[١]، وأخيه عبد الله بن صالح قاد صائفة (١٧٧هـ)[٢].

وكيف لا يكون الأمراء العباسيون على قيادة الجيوش والرشيد نفسه قاد غير واحد منها، فقد خرج (١٨٠هـ) غازيا وفتح مدينة رومية تسمى معصوف[٣]، كما خرج في العام التالي (١٨١هـ) ليغزو بلاد الروم وفتح حصنًا يسمى «الصفصاف» فخلد ذكراه الشاعر مروان بن أبي حفصة بقوله:

إن أمير المؤمنين المصطفى ترك الصفصاف قاعا صفصفا[٤]

وفي قصيدة أخرى:

وَسُدَّتْ بِهَارُونَ الثُّغُورُ فَأُحْكِمَتْ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ الْمَرائِرُ
وما انْفَكَّ مَعْقُودًا بِنَصْرٍ لِوَاؤُهُ لهُ عسكرٌ عنهُ تشظى العساكرُ
وكُلُّ مُلُوكِ الرُّومِ أعْطَاهُ جِزْيَةً على الرغمِ قسرًا عنْ يدٍ وهوصاغرُ
لقد تركَ الصفصافَ هارون صفصفًا كأنْ لَمْ يُدَمِّنْهُ مِنَ النَّاسِ حَاضِرُ[٥]

ولم تتوقف الصوائف على الرغم من انشغال الرشيد ذلك الوقت بمشكلات داخلية على رأسها مسألة ولاية العهد، فقد اخترق عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح أرض الروم (١٨٢هـ) حتى بلغ مدينة أفسوس أو دفسوس[٦] على ساحل بحر إيجة في الغرب[٧]، وهو أقصى توغل حتى الآن في عهد الرشيد.

ونستطيع أن نقول إن هذا التوغل كان خاتمة مرحلة من ثلاث مراحل مرت بها العلاقات بين الرشيد والبيزنطيين وهم: مرحلة الإنهاك (١٧٠ - ١٨٢هـ) ثم مرحلة الهدنة (١٨٢ - ١٨٦هـ)، ثم مرحلة تفجر الأوضاع مرة أخرى (١٨٧ - ١٩٣هـ).

لقد سارعت الإمبراطورة بعقد اتفاق هدنة مع الرشيد مقابل مبلغ سنوي بلغ تسعين ألف دينار!

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٥.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣.
(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٩٠.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٥.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦.
(٦) أفسوس: هي الآن مدينة Efes التركية، والتابعة لـ Selçuk.
(٧) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٦.

في المرحلتين الأولى والثانية كانت الإمبراطورة إيريني (أو أغسطة، كما ترد في مصادرنا العربية) هي التي تحكم الروم، وفي الثالثة خُلِعت الملكة وجاء نقفور الذي سيكون بينه وبين الرشيد حادث وحديث.

ولابد أن نتوقف قليلًا مع أحوال الإمبراطورية البيزنطية[1] تحت حكم الملكة إيريني فبها تكتمل الصورة التاريخية لهذه الانتصارات الإسلامية المتتالية.

بعد وفاة ليو الرابع كان مقدرا للإمبراطورية البيزنطية أن تحكمها امرأة انفردت من بين نساء العالم الشهيرات بتجردها من كل معاني الأمومة والإنسانية من أجل الشهرة والعرش، وقد قيل عنها: لقد قدر للإمبراطورية أن تحكمها امرأة من أمهر وأذكى النساء الشهيرات في التاريخ وأكثرهن تمتُّعًا وميلًا إلى الشرِّ.

ترك زوجها العرش لابن قاصر هو قسطنطين، فكانت هي الوصية على العرش إلى حين بلوغ ابنها سن الرشد، وكانت إيريني قوية ومقربة من الشعب إلى الحد الذي تمكنت فيه من التخلص من خصومها من رجال القصر وإخوة القيصر السابق وغيرهم وبعض أجنحة الجيش وكبار الموظفين، وأحلت مكانهم عناصر مؤيدة لها.

كان عليها أن تواجه ثلاث جبهات: الدولة الإسلامية التي تعيش عصرها الذهبي، وشارلمان ملك أوربا القوي بكل ما بين روما وبيزنطة من عداء تاريخي، ثم جبهة البلغار التي ظهرت على الساحة كقوة جديدة، غير أن إيريني لم تكن على مستوى المرحلة!

أما الجبهة الإسلامية فقد ظلت تعاني منها التوغلات القوية والحروب الدورية ولم تستطع إزاءها إلَّا أن توقع الاتفاقات التي تقضي بدفع الجزية مرة ثم ثانية حتى وصلت إلى الصلح؛ أمَّا الجبهة البلغارية فقد تلقت عدة هزائم أمامها ولم تتمكن من أي عمل حاسم إزاءها، لكن المشكلة الأهمَّ بين كل هذا هو بلوغ ابنها قسطنطين سن الرشد ومطالبته بعودة العرش إليه!

كان كثير من رجال الدولة مع قسطنطين وضد إيريني، وحاولت هي أن تسيطر على الحكم خالصًا لنفسها فلم تستطع، وحاول ابنها خلعها بمؤامرة لكنها اكتشفتها فعاقبته

(١) د. محمود عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص١١٢ وما بعدها.



بالضرب وتحديد الإقامة وكانت فرصة لها لانتزاع قسم من الجيش ألا يعترف بقسطنطين إمبراطورًا في حياتها، وظلت الحالة في شد وجذب بين إيريني وجناحها وقسطنطين وجناحه -وهو الأقوى- حتى تولى قسطنطين العرش فعليًّا، فسعت هي بالمؤامرات لخلعه والحط من شأنه، لا سيما لدى رجال الدين، فدبرت له علاقة غير شرعية مع وصيفة حتى تزوجها، فثار رجال الدين على هذا الزواج، وتفاعل الغضب بين الإمبراطور والرهبان حتى عذبهم ونفاهم فثار الشعب عليه، وإيريني تعمل من وراء المشهد نحو إشعال الصراع فأوقعت بينه وبين قائد الأرمن فسَمَل عينيه، ثم بينه وبين أكبر أعمامه فسمل عينيه، فخسر بهذا الجناح الأرمني في الجيش ثم خسر أعمامه وكبار رجال الدولة فكان سهلا أن توقع به، فأمرت بالقبض عليه وسملت عينيه، واعتلت العرش من جديد مع مباركة أعداء الإمبراطور لا سيما رجال الدين الذين طربوا بالقصاص العادل للإمبراطور الآثم.

لم تلبث في الحكم إلا أربع سنوات (١٨٢-١٨٦ هـ= ٧٩٨-٨٠٢م) حتى انقلب عليها وزير المالية «نقفور» بعد خطَّة محكمة، ثم نفاها، وتولى العرش في هدوء، إذ لم يكن لها بعد هذه الرحلة من أنصار، وانتهى بهذا حكم الأسرة الأيورية وبدأ حكم الأسرة الإيسورية.

وماتت إيريني بعد خمسة أشهر من خلعها!

والآن نعود إلى المشهد الإسلامي..

لقد ظلت الهدنة سارية منذ (١٨٢هـ) حتى (١٨٦هـ) بعد التوغل الأخير والخطير الذي وصل إلى أفسوس، ولا نجد ذكرًا لحروب أخرى إلا ما ينفرد به خليفة بن خياط من غزوة قادها أحمد بن هارون الشيباني مُكَلَّفًا من عبد الله بن صالح بن علي (١٨٤هـ) فأغار على بلاد الروم «فغنم وسلم»(١). ولعلَّها كانت ردًّا على اختراق صغير للهدنة من أمراء أحد الأطراف.

وأبرز ما تم في عهد الملكة إيريني بخلاف ما سبق هو استخلاص المسلمين أسراهم على اختلاف بين المؤرِّخين في العام الذي كان فيه هذا، وكان عدد الأسرى ٣٧٠٠ أسير أو أكثر، فأرسل الرشيد صالح بن بيهس الكلابي سفيرًا فتمَّت له الموافقة(٢)، وتمَّت عملية الفداء تحت إشراف القاسم بن الرشيد في حراسة جيش من ثلاثين ألف جندي عند

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، وعنده أن هذه السفارة كانت (١٨٤ هـ).

بلدة لامس القريبة من طرسوس[١].

وحين خُلِعت إيريني امتنع نقفور عن دفع الجزية -فقد كان يقوم بإصلاحات اقتصادية واسعة في ذلك الوقت- وانتقض بذلك العهد، فكان لا بُدَّ من رسالة واضحة لنقفور، فخرج القاسم بن الرشيد إلى بلاد الروم فدخلها (شعبان ١٨٧هـ) فحاصر حصني قرة وسنان حتى عرض الروم الإفراج عن ٣٢٠ أسيرًا من المسلمين مقابل العودة فوافق القاسم على هذا ورجع عنهم[٢]، فما كان نقفور مستعدًّا في هذه المرحلة لمواجهة المسلمين وهو ما زال يحاول إقرار عرشه.

وما إن استقرَّ نقفور في الملك وجلس على عرش الإمبراطورية حتى بدأت مرحلة جديدة في العلاقات بين الدولة الإسلامية والبيزنطية، بدأها نقفور برسالته التي أرسلها إلى الرشيد:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب..

أما بعد؛

فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافها إليها، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلاَّ فالسيف بيننا وبينك».

وقد وقعت الرسالة على الرشيد كالصاعقة، وانفجر الغضب في وجهه حتى لم يستطع أحد من جلسائه أن ينظر إليه ثم قاموا عنه، ثم قلب الرسالة وكتب على ظهرها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم..

قد قرأت كتابك يابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه»[٣].

وبدأ منذ هذه اللحظة في التجهيز للحرب، وانطلق قاصدا مدينة هرقلة بجيش فاق المائة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٥. وعنده أن الفداء كان (١٨١ هـ).

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٨.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٨، ٦٦٩.

ألف وهو يقتحم الحصون ويدمرها وينسف الاستعدادت الحربية التي يلقاها بطريقه، وقد حاول نقفور تعطيله عن المسير بقطع الأشجار وإشعال النار فيها لكن انطلاقة الجيش الإسلامي لم يكن يقف أمامها مثل هذا، وبالفعل تم الهدف واقتحم الجيش مدينة هرقلة الهائلة التحصين فغنم أموالًا هائلة وأسر كثيرين منهم ابنة أمير المدينة، ومادت الأرض من تحت نقفور الذي كان يواجه ثورة أخرى من قائد منافس، فعرض دفع الجزية السنوية مقابل أن يعود الرشيد عن دياره[١].

وبذلك حققت الحملة هدفها وأعادت إخضاع نقفور وتثبيت العلاقات إلى ما كانت عليه!

عاد الرشيد إلى الرقة، وما إن بلغها حتى كان نقفور قد أعلن نقض العهد مرة أخرى، وقد ظن أن المسلمين لن يعودوا إلى الغزو بعد أن رجعوا إلى ديارهم لا سيما في وقت الشتاء، لكن خاب ظنه، فما إن علم الرشيد بنقض العهد حتى أعاد تجهيز الجيش مرة أخرى فكان ثمانين ألفًا، وتحرك بهم (شوال ١٨٧هـ) في وقت الشتاء القارس، وعلى الرغم مما عاناه الجيش الإسلامي؛ فإنه وصل إلى هرقلة وحاصرها مرة أخرى حتى استسلم أهلها وأقام الرشيد في بلاد الروم «حتى شفي واشتفى وبلغ ما أراد»[٢].

وفي العام التالي (١٨٨هـ) قاد الصائفة إبراهيم بن جبريل ودخل بلاد الروم وتصدى له جيش الروم بقيادة نقفور نفسه، لكن الجيش الإسلامي سحق الجيش البيزنطي تمامًا حتى أصيب نقفور، وقتل منهم ما بلغت به بعض الروايات أربعين ألفًا، وغنم المسلمون أكثر من أربعة آلاف دابة. ثم ظل القاسم بن الرشيد مرابطا بالجيش في مرج دابق[٣].

كانت حصيلة ما خرج به نقفور من هذه المعارك مؤسفة، لقد دفع الجزية كما كانت مقررة ولكن بعد ثمن فادح من أرواح وممتلكات البيزنطيين، فسعى نقفور لمبادلة الأسرى امتصاصا لغضب البيزنطيين، فتم مبادلة الأسرى (١٨٩هـ) حتى «لم يبقَ بأرض الروم مسلم»[٤].

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٩، ٦٧٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٣٤.
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٢.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٣٩.

وفي العام ذاته (رجب ١٨٩هـ) نقض نقفور الهدنة لا بقطع الجزية، بل لقد هاجم الثغور الإسلامية فأغار على عين زربة وعلى الكنيسة السوداء وأذنة، وأخذ أسرى من المسلمين، لكن أهل المصيصة استطاعوا تتبع نقفور في طريق عودته وحاربوه حتى استنقذوا منه الأسرى[1].

أعدَّ الرشيد جيشًا من مائة وخمسة وثلاثين ألفًا، بخلاف من انضم إليه من المتطوعين للجهاد، وانطلق به (٢٠ من رجب ١٩٠هـ) إلى أرض الروم، مستعدا لتكون غزوة كبيرة حاسمة، ولبس الرشيد على رأسه قلنسوة تحمل شعاره في الحياة «غاز وحاج» فقال فيه الشاعر أبو المعلا الكلابي:

فمـــن يطلـــب لقـــاءك أو يـــرده ... فبـــالحرمين أو أقصى الثغـــور

ففـــي أرض العـــدو عـــلى طمـــر ... وفي أرض الترفـــه فـــوق كـــور

ومـــا حـــاز الثغـــور ســـواك خلـــق ... مـــن المتخلفـــين عـــلى الأمـــور

قسم الرشيد جيشه إلى فرق انطلقت في جهات مختلفة، ففرقة بقيادة عبد الله بن مالك انطلقت ناحية ذي الكلاع فحاصرها وفتح حصنها وعاد سالما غانما، وفرقة من سبعين ألفًا بقيادة داود بن عيسى بن موسى فتحت كثيرًا من البلاد وهدمت كثيرًا من المعاقل والحصون، وفرقة أخرى بقيادة شراحبيل بن معن بن زائدة فتحت حصني الصقالبة ودبسة، وفرقة بقيادة يزيد بن مخلد فتحت حصني الصفصاف وملقونية، وكان أهل قبرص قد نقضوا العهد مع المسلمين فأرسل الرشيد حميد بن معيوف فاقتحمها وهدم من معاقلها وحصونها وأسر منهم ١٦ ألفًا[2].

حققت هذه الفرق أقصى الإنهاكات الحربية والاقتصادية للروم قبل أن يتحرك الجيش الرئيسي صوب هرقلة، تلك المدينة الرومية المنيعة، فحاصرها الجيش الإسلامي شهرًا، وعملت المجانيق والقاذفات أثرها في أسوارها فكادت تنهار فأذعن أهلها وطلبوا الأمان فأُعْطوه، وبفتحها انهار نقفور وأرسل للرشيد يطلب الصلح ويدفع الجزية خمسين ألف دينار عن سائر أهل القسطنطينية بما فيهم هو نفسه، فدفع عن نفسه جزية أربعة دنانير وعن ابنه وكبار رجال الدولة دينارين، فاشترط الرشيد أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار -أغلب الظن أنها

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٦.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٧.

مجموع ما لم يدفعه من الجزية السنوية[1]- واشترط عليه ألا يُعمِّر هرقلة ويعيد ترميم أسوارها وحصونها فأذعن نقفور، وكان الرشيد قد هدم تحصيناتها وأسوارها لئلا تصلح لتكون معقلًا حربيًّا بعد ذلك، كما طلب نقفور في المقابل الإبقاء على حصون ذي الكلاع وسنان وصملة فوافق الرشيد[2].

وبعد هرقلة عاد الرشيد شرقًا إلى حصن طوانة الذي بدت من أهله تحركات ضد الجيش الإسلامي، فحاصره حتى أذعن أهله، وترك هناك فرقة عسكرية بقيادة عقبة بن جعفر.

ثم بعث نقفور رسالة إلى الرشيد تختلف لهجتها تمامًا عن رسالته الأولى يقول فيها:

«لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم..

سلام عليكم..

أما بعد؛

أيها الملك، فإن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هنية يسيرة: أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنتُ قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلتَ.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[3].

وطلب منه مع الرسالة طِيبًا وقطعة من سرادقاته، فأهداه الرشيد كل هذا، وأرسل إليه الفتاة -وكانت ابنة واحد من كبار قادتهم[4]- وقد زُيِّنت وطُيِّبَت وأرسل معها أنواعا من التحف، فردَّ نقفور بهدية خمسين ألف درهم ومائة ثوب من ديباج واثني عشر صقرا وأربعة من كلاب الصيد المدربة، وثلاثة خيول[5].

بعد تسعة أشهر عاد نقفور إلى نقض العهد، وامتنع عن دفع الجزية (جمادى الآخرة ١٩١هـ)، فخرج جيش من عشرة آلاف يقوده يزيد بن مخلد الهبيري، ولا تعطينا المصادر تفاصيل عن الجيش ومساره وما تم له، إلَّا أنَّ المتاح هو أن جيشًا ضخمًا للروم كان مستعدًا

(١) د. محمد بن ناصر الملحم: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية، مجلة جامعة أم القرى، العدد (٢٠).
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٧.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٧.
(٤) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٢.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٧.

لمثل هذا الهجوم، وأنهم أوقعوا بيزيد بن مخلد فقتلوه مع خمسين رجلًا في مضيق على مقربة من طرسوس[١]، وهذا يفيد أنه كان منفردا بفرقة صغيرة أو حتى بحراساته الشخصية وأنه كان آمنًا، ولقد عاد الجيش بعد مقتل قائده دون معلومات عن اشتباك كبير، فغاية ما نفهم من هذا أنه كان كمينًا مفاجئًا وأن اشتباكًا لم يحدث بين الجيشين.

ومن درب الحدث رتب الرشيد أمر الغزو، فولَّى عبد الله بن مالك على درب الحدث، وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس، وولَّى سعيد بن سلم بن قتيبة على مرعش، وكل هذا تم في (رمضان ١٩١هـ)، غير أن الروم قاموا بإغارة ناجحة على مرعش أصابوا فيها من المسلمين قبل أن يتحرك إليها سعيد بن سلم، على أن الجديد في غارات الروم هذا العام على مرعش وطرسوس والمصيصة وأنطاكية وغيرها، أنها تمَّت بمعاونة من أهل الذمة، فأمر الرشيد بهدم الكنائس في منطقة الثغور الحدودية بين المسلمين والروم، وأمر أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم[٢].

هذه الإجراءات الأمنية استهدفت ألا تتكرر الكارثة مرة أخرى فتتخذ الكنائس كجيوب داخلية ونقاط اتصال ومعاونة لصالح الروم، وأن تنقص إلى الحد الأدنى من اتخاذ الجواسيس والعيون من أهل الذمة على المسلمين بالتفريق في هيئة الملابس والركوب[٣].

وتدارك المسلمون الموقف فأرسل الرشيد جيشًا بقيادة محمد بن يزيد بن مزيد الشيباني

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/٣٤٨.

(٣) بعض من يهوون تشويه التاريخ الإسلامي ومغازلة الأقليات غير المسلمة الآن يذكر هذه الإجراءات مجردة من سياقها لكي يوحي بأنها كانت تمييزا واضطهادا لا غير، وللإنصاف نقول: إنه قد دعمهم في هذه الفكرة استنادُ بعض الفقهاء لمثل هذه الإجراءات وبالاستناد إلى نصوص أخرى ضعيفة -كالعهد المنسوب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه- معتبرين أن هذه الإجراءات إنما هي من أحكام الشريعة الإسلامية! والمناقشة الفقهية ليس هذا موضعها.

على أنه يجب التأكيد سريعا على أن أهل الذمة في عهد الرشيد كانوا في عصرهم الذهبي من التسامح والمكانة الرفيعة، وأن هذه الإجراءات إنما شملت مناطق الثغور حيث يستطيع الروم تجنيد بعض النصارى والاتصال بهم، أما في بغداد فقد كان كثير من رجال الدولة من النصارى، وكان الطبيب النصراني جبرائيل بن بختيشوع من أقرب المقربين إلى الرشيد حتى قال الرشيد: من كانت له حاجة إليَّ فليأت بها إلى جبريل فإني لا أرد له طلبا، كذلك تولى كثير من النصارى أمر الإشراف على المستشفيات والمدارس وترجمة الأعمال الطبية والعلمية، وأشهرهم في هذا يوحنا بن ماسويه، بل ذكر المستشرق فتال (Fattal) توسع بناء الكنائس والأديرة في عهد الرشيد، وأن زوجته زبيدة تبرعت لأسقف البصرة لبناء كنائس فيها، وسمح الرشيد للنساطرة بناء الصوامع الآيلة للسقوط، وكانت زبيدة تهدي إليهم الهدايا من الصلبان الفضية والذهبية. انظر: د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص١٦٦، ١٦٧. وهي تنقل عن Fattal: Le statut des Non Musulmens, P. 188.

يتبع الروم الذين أغاروا على مرعش فأدركهم في طرسوس وأوقع بهم الهزيمة[١].

واستمرَّ المسلمون في غزوة الصوائف، وقادها أمير الثغور الجديد ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي (١٩٢هـ) فاقتحم مطمورة، وعلى يده جرى فداء آخر للأسرى في بلدة البذندون القريبة من طرسوس، وفيه استنقذ المسلمون ألفين وخمسمائة أسير[٢].

وكان هذا هو خاتمة حركة الجهاد البري في جبهة الروم في عهد الرشيد، الذي تُوُفِّيَ في العام التالي (جمادى الآخرة ١٩٣هـ).

إن الرشيد بعث روحًا جديدة في الحرب الإسلامية – البيزنطية، ولكن الذي يؤخذ عليه هو عدم السير على خطَّة منظمة في عملياته الحربية وعدم متابعته الضغط على الروم واستغلاله مشاكلهم الداخلية لتأكيد تفوقه العسكري وتحسين حدود الخلافة البرية والبحرية، بل إنه كان يجنح للسلم حالما يطلب الإمبراطور الصلح –على الرغم من أنه كان ينقضه في كل مرة– ولهذا وعلى الرغم من أن الجهاد من مآثر عصر الرشيد البارزة فإن الحدود لم تتغير في صالح المسلمين[٣].

هكذا كانت خلاصة وحصيلة الجهاد البري بين المسلمين والدولة البيزنطية، وبقي أن نلقي نظرة على الجانب البحري لهذا الجهاد.

لقد ضاعف الرشيد الاهتمام بالأسطول البحري واهتمّ بصناعة السفن، وللأسطول ديوان خاص يهتم بشئون بحّارته[٤]، وتعتبر معاركه البحرية دليلا على أنه كان الأكثر اهتماما بالأسطول من بين أسلافه[٥].

وقد فكّر في ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط عبر شبه جزيرة سيناء لولا أن نهاه عن هذا يحيى بن خالد البرمكي تخوفًا من لحظات ضعف وانكسار يستطيع بها الروم اختراق هذا الربط وتهديد الحرمين، فتراجع عن هذه الفكرة.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١١، ١٢، وابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٩٧.

(٣) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ١/ ١٩٠، ١٩١.

(٤) عمر الحمود: الرقة في عهد الرشيد، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد (٨٥).

(٥) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١١٤.

وتدل غزوة حميد بن معيوف -الذي تولى سواحل الشام (١٩١هـ)- لجزيرة قبرص على مدى القوة التي وصل إليها الأسطول الإسلامي والتي مكنته من نصر ساحق كان عدد الأسرى فيه ١٦ ألف أسير.

٣- الجبهات الأخرى

لقد كانت جبهة الروم الأقوى والأكثر أهمِّيَّة بغير شكٍّ، وهي التي توجه إليها اهتمام الخلافة كله تقريبًا، إلَّا أنَّ المشرق لم يكن هادئًا تمامًا بل كانت مواجهات أخرى قائمة مع القبائل التركية في وسط آسيا وقبائل الجِيَل والديلم في طبرستان ومع حكام الهند في الشرق ثم مع الخزر والأرمن في الشمال.

وقد افتتح العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث مدينة كابُل[١] وسنهار وعاد غانما، وذلك في ولاية أبيه محمد على خراسان والتي بدأت (١٧١هـ)[٢]، وغزا حماد بن نمير بلاد سرست في بلاد السند وافتتح مدينة البردان (١٧٤هـ)[٣]، وبعدها بأربع سنوات غزا أمير خراسان الفضل بن يحيى البرمكي ما وراء النهر (١٧٨هـ) وفتح بلادا كثيرة، منها كابل وما وراء النهر، وقهر ملك الترك وكان ممتنعا[٤].

وفي الشمال اشتعلت جبهة الخزر حين ماتت ابنة الخاقان ملك الخزر (١٨٢هـ) وهي في طريقها إلى الفضل بن يحيى فوصل إليه الخبر على أنها قُتِلت غدرا، فعزم على حرب المسلمين[٥]، وانطلق من مدينة باب الأبواب، واقتحم بلاد المسلمين (١٨٣هـ) من ثغرة غير متوقعة في أرمينية فكانت مفاجأة قاتلة انهزم أمامها سعيد بن سلم أمير أرمينية، وكان أسرى المسلمين وأهل الذمة نحو مائة ألف أسير، وكانت لهم شناعات وبشائع وصفها ابن الأثير بقوله: «انتهكوا أمرا عظيما لم يُسْمَع بمثله في الأرض»[٦]، فأضاف الرشيد أرمينية إلى أمير أذربيجان يزيد بن مزيد الشيباني، وأمده بجيش كبير على رأسه القائد الفذ خزيمة بن خازم،

(١) العاصمة الأفغانية الآن.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٨٢.
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٧.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٧.
(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٩.

واستمرَّت العملية العسكرية في أرمينية سبعين يومًا؛ حتى استقرَّ الحال وأُصْلِحت الثغرة(١).

وكان للأسطول الإسلامي وجود -أيضًا- في شرق الدولة الإسلامية، نعرف هذا من ثلاث غزوات في بحر البصرة(٢)؛ الأولى قادها عمرو العربي (١٧٧هـ) على بلاد بحر البصرة فظفر ببارجة في رأس الجمحة(٣)، وغزا مسلم بن زياد الأصم بحر البصرة (١٧٨هـ) وظفر بإحدى عشرة بارجة(٤)، وغزا عيسى بن جعفر بن سليمان جزيرة بني كاوان (ذي الحجة ١٨٩هـ) وافتتح حصنًا وحاصر آخر لكنه أُسِر(٥).

العلاقات الخارجية

شاع في كثير من الكتابات وجود علاقة بين الرشيد وشارلمان ملك الفرنجة، وأنه كانت بينهما سفارات وتبادل للهدايا وعلاقات ودية، بل ذهب الكلام إلى أبعد من هذا، قالوا: إن الرشيد تعاون مع شارلمان للقضاء على الأمويين بالأندلس وقد أعطاه بالمقابل حق السيادة على مسيحيي الشرق وكنائسهم، وفي أثناء هذه العلاقات يتحدَّثون عن الساعة الشهيرة التي يقال: إن هارون الرشيد أهداها لملك الفرنجة، وأنها حين وصلتهم ارتاعوا لما رأوه من التقنية العالية فظنوا أن الشياطين تسكنها.

وقد تتبَّع المؤرِّخان العراقيان البارزان د. عبد العزيز الدوري(٦) ثم د. فاروق عمر فوزي(٧) هذه المسألة، وانتهيا إلى نتيجة خلاصتها كالآتي:

١- تخلو المصادر العربية والمسيحية الشرقية من الإشارة إلى أي صلة بين الرشيد وشارلمان، ولا يظهر هذا إلا في المصادر اللاتينية.

٢- في هذه المصادر اللاتينية يشيع الغموض والاضطراب بين المصادر الثلاثة التي

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٧.
(٢) الاسم القديم لبحر العرب الذي يشمل الخليج العربي وجنوبي إيران والمتصل بالمحيط الهندي شرقا.
(٣) رأس الجمحة: وصفه ياقوت الحموي بقوله «سنّ خارج في البحر بأقصى عمان بينها وبين عدن، يسمّيه البحريون رأس الجمحة، له عندهم ذكر كثير، فإنه مما يستدلّ به راكب البحر إلى الهند والآتي منه». ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ١٦١، وقال اليعقوبي إنه «آخر بحر فارس».. ولكني لم أستدل على موقعه الحديث بدقة!
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٤.
(٦) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١١٦ وما بعدها.
(٧) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ١/ ٣٤٨ وما بعدها.

ذكرت علاقة بين الرشيد وشارلمان وهي: حياة شارلمان لإينهارد، والأخبار الملكية، ورواية الراهب سانت كول.

وإينهارد لا يوثق بكلامه فقد كان من رجال شارلمان وهمه تفخيم سيده بتعبير هالفن محقق كتابه، وهو صاحب معلومة إعطاء الرشيد السيادة على الأماكن المقدسة لشارلمان. وكتاب الأخبار الملكية شحيح المعلومات؛ أمَّا الراهب سانت كول فهو من كتاب الأساطير!

٣- العداء بين العباسيين والأمويين من جهة، وبينهم وبين البيزنطيين من جهة، دفع الطرفين (الرشيد وشارلمان) للتحالف ضدهما.

٤- وبين قليل من المعلومات وكثير من الخيال والظنون أخذ المؤرِّخون في توقع وتخيل شكل العلاقة بين الملكين والسفارات المتبادلة بينهما.

وإذا كان هذا هو حال المصادر التي تناولت هذه العلاقة، في ظلِّ سكوت المصادر العربية والمصادر المسيحية الشرقية، كان الراجح أنه لم تقم علاقات سياسية بين الرشيد وشارلمان، وحتى المبررات العقلية حول العداء للأمويين والبيزنطيين لا يقوم وحده كحجة، لا سيما والأمويون في تلك الفترة لم يكونوا يمثلون خطرًا على الخلافة العباسية، هذا فضلًا عن المشكلة الأخلاقية بالتحالف مع الكفار ضد المسلمين، وفي جبهة البيزنطيين كان العباسيون هم اليد العليا طوال عهد الرشيد. فإن كان ثمة علاقات فهي لن تتعدى العلاقات الهامشية التي قام فيها التجار بأدوار تبادل الهدايا لا أكثر.

وهذه العلاقات التجارية هي نفسها التي كانت الصلة بين الدولة الإسلامية وبين الصين والهند، «تشير التواريخ الصينية إلى ذهاب عدة سفارات عربية إلى البلاط الصيني في القرن السابع والثامن للميلاد مرسلة من (Han- Mi Mo- Mini) إلى أمير المؤمنين أبي العباس (A- bu- lo- ba) وإلى أبي جعفر المنصور (A- Pu Ch'a- fo) وإلى هارون الرشيد (A- Lun)، ولكني أرى أن هذه الوفود كان يرسلها تجار العرب مع هدايا طريفة إلى البلاط لرفع مكانتهم»[١].

(١) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١١٦، وانظر: د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٧١، ٧٢.



المشكلات الداخلية

كان عهد الرشيد من أطول عهود بني العباس، وقد واجه فيه كثيرًا من التمردات التي تنوَّعت بين الخوارج والحركات الفارسية الشعوبية وحركات الزعماء الطامحين وغيرها، وقد رأينا أن تقسيم هذه المشكلات الداخلية والتمردات التي واجهها الرشيد جغرافيًّا -أي من حيث المناطق التي اشتعلت فيها- هو ما يحقِّق أكبر قدر من الوضوح وانسجام العرض التاريخي.

١- بلاد المشرق

أولاً: تمرُّد حصين الخارجي

كان تمرده أولى الحركات في الجناح الشرقي من الدولة، جاء بعد أربع سنوات من خلافة الرشيد، وبدأ حركته (١٧٥هـ) في نواحي سجستان، وهزم جيش سجستان الذي أرسله الوالي عثمان بن عمارة، ثم سار يهاجم مدن خراسان باذغيس وبوشنج وهراة وغيرها، فكلف الرشيد الغطريف بمواجهته لكنه هُزِم أمام الحصين على الرغم من عِظَم جيشه، وظل يؤرق منطقة خراسان إلى أن قُتِل (١٧٧هـ)[١].

ثانيًا: تمرُّد يحيى بن عبد الله العلوي

بدأ الرشيد عهده بالتقرب إلى العلويين وبذل الأمان لهم[٢]، وقد كان هذا وصلا لسياسة أبيه المهدي من بعد الجفاء القصير الذي كان في عهد أخيه الهادي، ورفع الإقامة الجبرية عمن كان منهم في بغداد وأعادهم إلى المدينة[٣].. إلا أن هذا الوئام لم يدم سوى أقل من خمس سنوات.. ثم جاءت العاصفة!

في (١٧٦هـ) ظهرت ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ببلاد الديلم، وهو الذي كان قد نجا من معركة «فخ» (١٦٩هـ) التي حارب فيها إلى جوار الحسين بن علي في عهد الهادي، وقد قام يحيى بمحاولة أخرى للثورة في الحجاز ثم في اليمن وتنقل في البلاد فذهب إلى مصر والمغرب، ولم يجد في كل هذه أتباعا يشعلون ثورة، فذهب إلى

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٨٩.
(٢) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ١٠١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢١.

المشرق فعبر العراق إلى خراسان ثم إلى بلاد الترك والديلم، ومن هناك أشعل ثورته التي ظهرت في عام (١٧٦هـ)، وهناك اتبعه «خلق كثير وجم غفير، وقويت شوكته، وارتحل إليه الناس من الكور والأمصار»[١]، فَوَجَّه إليه الرشيد جيشًا قوامه خمسون ألفًا يقوده الفضل بن يحيى البرمكي، وجعله واليًا على كُوَر الجبل والري وجرجان وطبرستان وقومس وغير ذلك[٢].

سار الفضل إلى مهمته وحرص على إظهار فخامة جيشه وعظمته، وكان الرشيد يمده في كل مرحلة بالمزيد من الأموال والنفائس، وأما يحيى بن عبد الله فقد التجأ إلى ملك الديلم وتحصن في بلاده، فبدأ الفضل بالسياسة إذ راسل ملك الديلم ووعده بمليون درهم إن هو سَهَّل خروج يحيى إليهم، كما كتب إلى يحيى -أيضًا- يَعِدُه ويُمَنِّيه ويُؤَمِّله ويُرَجِّيه، وأنه إن استسلم وخرج إليهم أن يتولى بنفسه الوساطة له عند الرشيد، إلَّا أنَّ يحيى اشترط أن يكتب له الرشيد كتاب أمان بيده، فكتب الفضل إلى الرشيد بذلك فاستجاب الرشيد وكتب الأمان بيده وأشهد عليه القضاة والفقهاء ومشيخة بني هاشم، وبعث الأمان ومعه جوائز وتحف كثيرة، فانتهت الثورة بهذا وخرج يحيى إلى الجيش ودخل بغداد فتلقاه الرشيد وأكرمه وأجزل له في العطاء، ثم أنزله في منزل حسن وأجرى عليه أرزاقا، وكان يتولى أمره بنفسه، وأمر الناس بتعظيمه والسلام عليه[٣].

وكان مدح الشعراء للفضل بن يحيى يركز على إنجازه في التوفيق بين البيت الهاشمي: العباسي والعلوي، وذلك دليل على مدى فرح الرشيد بالسلام مع يحيى العلوي ومدى إحسانه إليه، يقول مروان بن أبي حفصة:

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم

فأصبحت قد فازت يداك بخطَّة ... من المجد باق ذكرها في المواسم

ومثل هذا المعنى أنشده أبو ثمامة الخطيب فقال:

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ١٧٨.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٨.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٨، ٦٢٩.

سَـــدَّ الثغــور ورد ألفـــة هاشـــم بعـــد الشـــتات فشـــعبها متـــدان

عصـــمت حكومتـــه جماعـــة هاشـــم مـــن أن يجـــرد بينهـــا ســـيفان[1]

لكن لم يمض كثير وقت حتى تغير الرشيد وأمر بحبسه، بل والتمس من الفقهاء من يجد ثغرة في عهد الأمان الذي أعطاه له وأراد قتله[2]، ولا مجال للظن بأن هذا تم بغير سبب، بل إن الثائر الذي انتقل بثورته من الحجاز إلى اليمن إلى مصر إلى المغرب ثم إلى أقصى الشرق ليشعل ثورة يستحيل على مثله أن يهدأ فجأة ويتوب، فتوبته بالأساس نقض لكلِّ حياته وتاريخه، وهو ما يصعب على مثله، فلا ريب أن الرشيد وصل إليه ما يتخوفه منه وإن لم يكن ظاهرًا واضحًا، بدليل أنه لم يجد تهمة ظاهرة يأخذه بها ففتش عن ثغرة في عهد الأمان.

وثمة احتمال آخر بأن يكون تغير الرشيد بأثر من الوشايات والسعايات من أهل الإفساد في كل العصور، وتفصح الروايات عن اسم بكار بن مصعب -من نسل الزبير بن العوام- أنه كان يوغر صدر الرشيد ويتمنى موت يحيى لئلا ينكشف أنه كان من الثائرين معه قديما، ثم رأى الرشيد أن يحيى مريض فتركه فمات في السجن بعد شهر واحد[3].

ثالثًا: تمرُّد حمزة بن أترك الخارجي

بدأ حمزة تمرده (١٧٩هـ)[4] ولكن بروز أمره كان في العام التالي (١٨٠هـ) حيث تصدى له والي خراسان علي بن عيسى بن ماهان، وكعادة التمرد في بدايته يكون قويا مشتعلا حتى تتنبه له الدولة وتعطيه حجمه وترميه بخير أبنائها فيتغيَّر الميزان حتى يخفت ويخمد، لقد انتصر حمزة على والي هراة عمرويه بن يزيد الأزدي ثم على عيسى بن علي -ابن والي خراسان- ثم انهزم منه في معركة ثانية عند نيسابور فقد فيها كثيرًا من رجاله، وهرب إلى حيث لا يدري أحد فلقد طارده علي بن عيسى حتى وصل إلى كابل وقندهار، فشَنَّ علي بن عيسى بن ماهان حملة قاسية على الخوارج في المناطق التي اتبعت حمزة وأنزل العقاب والإحراق والتخريب بالقرى التي كانت تساند هذا التمرد، لا سيما قرية زرنج[5]، وهنا ظهر

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٩.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٩ وما بعدها.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤١.
(٥) زرنج: هي الآن مدينة في الجنوب الغربي لأفغانستان على الحدود مع إيران، وتقابل تقريبا مدينة زابل الإيرانية.

حمزة فتصدى له واليها الجديد فانهزم حمزة وهرب داخل الزروع بعد أن فقد كثيرًا ممن بقي معه من رجاله، فصار لا ينزل بقرية إلا أكثر فيها القتل والنهب ليتقوى بمواردها حتى لقد قتل ثلاثين غلاما يتعلمون القرآن في كُتَّابهم مع شيخهم، فتفتق ذهن طاهر بن الحسين -الذي كان والي بوشنج حينئذ- عن حملة قاسية على الخوارج الذين لا يقاتلون فأبلغ في قتلهم بوسائل بشعة حتى يضطرهم إلى إجبار حمزة الخارجي على الكفِّ، فأمروه بأن يكف وينهي هذا الأمر، فاستجاب لهم وسكن الأمر وأمن الناس في بيوتهم وإن كان الأمر لم يخل من اشتباكات كثيرة متفرقة بينه وبين والي خراسان(١).

ثم تجدد تمرده بقوة (١٨٥هـ) فوقع اشتباك هائل قُتِل فيه غالب جيش حمزة على يد عيسى بن علي -ابن والي خراسان- فهرب حمزة إلى خارج خراسان كلها شرقًا، وانتهى تمرده مؤقتًا(٢).

ظهر حمزة بن أترك مرة أخرى بعد سبع سنوات، فحينئذٍ كان الوالي على خراسان مشغولًا بثورة في سمرقند، سيأتي بعد قليل ذكرها، واضطر إلى أن يستعين بالقادة الأبطال فيها، ففرغت خراسان من الأقوياء فكانت الفرصة مواتية لحمزة الذي عاث فسادا وقتلا ونهبا لأموال هراة وسجستان فبرز زعيم محلي هو عبد الرحمن النيسابوري فاجتمع معه عشرون ألفًا، فقاتل حمزة ببسالة وصمود كبير حتى أوقف دائرة فساده واضطره إلى الانسحاب نحو هراة (١٩٤هـ)(٣).

رابعًا: تمرُّد المحمرة

عادوا إلى ساحة التمرد بعد ثمانية عشر عامًا من تمردهم الأول في عهد المهدي (١٦٢هـ)، هذه المرة (١٨٠هـ) كان الذي حرضهم وأثارهم عمرو بن محمد العكي وهو متهم بالزندقة، فأرسل الرشيد يأمر بقتله فقُتِل وأطفأ الله نارهم في ذلك الوقت(٤). وفيها (١٨١هـ) تغلبت المحمرة على جرجان.

خامسًا: تمرُّد أبي الخصيب النسائي

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٠٩، ٣١٠.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٥١.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٤.

ثار في خراسان أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي، بدأ ثورته من بلدته «نسا» (١٨٣هـ)، ثم غُلِب وطلب الأمان من والي خراسان علي بن عيسى بن ماهان فاستُجِيب له (١٨٤هـ)، لكنه لم يلبث أن ثار مرة أخرى ثورة أشد من الأولى في (١٨٥هـ) فاستولى على أبيورد وطوس ونيسابور ووصل من القوة حد أن حاصر مرو -عاصمة خراسان- وقوي أمره، فقاتله علي بن عيسى بن ماهان في نسا، فانتصر عليه وقتله فخمدت هذه الفتنة واستقام أمر خراسان[١].

سادسًا: تمرُّد رافع بن ليث

وهو التمرد الأكبر والأوسع والأقوى في المشرق، وكان في بلاد ما وراء النهر، بل كان رافع بن ليث هو أمير سمرقند، وبدأ هذا التمرد (١٩٠هـ) بسبب اختلط فيه ما هو شخصي بما هو عام، ذلك أن رافع كان قد تزوج بالحيلة من امرأة غنية، وحُكِي في هذا أن زوجها طالت غيبته عنها فاشتكت إليه فنصحها بأن ترتد لينفسخ زواجها ثم تسلم مرة أخرى فتكون بلا زوج، ثم تزوجها هو، فوصل الخبر إلى الزوج في بغداد فرفع شكواه إلى الرشيد، فأمر الرشيد بالتفريق بينهما وبعقوبة رافع، وهي العقوبة التي نفذها نائب خراسان علي بن عيسى بن ماهان بمزيد من الإهانة، إذ جلد رافعًا وطاف به في الأسواق مهانا ثم سجنه، وقد تمكن رافع من الهرب من السجن وطلب الأمان من علي بن عيسى بن ماهان فلم يعطه إياه، فثار رافع في سمرقند، واتبعه كثير من الناس لا سيما من العرب، إذ كان عيسى (وأصله فارسي) يتحامل على العرب في خراسان، وكان ظالمًا جائرًا في سيرته، فاستفحل أمر رافع وقويت ثورته، ثم قويت أكثر حينما أرسل إليه علي بن عيسى جيشًا بقيادة ابنه عيسى فانتصر عليه رافع وقتل قائد جيشه عيسى بن علي، وقد لقي رافع بن ليث دعما من الأتراك فيما وراء النهر ما جعل أمره يزداد قوة[٢].

واستطاع أهل نسف[٣] تمهيد الأمر لرافع بن ليث فراسلوه ليبعث إليهم فرقة خاصة يسهلون لها اغتيال عيسى ابن والي خراسان علي بن عيسى بن ماهان، فتم هذا (ذي القعدة

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٧ وما بعدها.
(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٩١، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٦.
(٣) فيما وراء النهر، تقع جنوبي شرقي مدينة بخارى، وهي الآن تابعة لجمهورية أوزبكستان.

١٩١هـ)[١].

ويشاء الله أن ينزل بعلي بن عيسى ما أنزله برافع قبل شهور، إذ عزله الرشيد عن خراسان لأسباب سبق أن ذكرناها في استعراضنا لأحوال الخلافة، فجاء نائبها الجديد الفارس الكبير هرثمة بن أعين (١٩١هـ) فقبض على علي بن عيسى وصادر أمواله، ثم أرسله إلى بغداد وهناك وُضِع قيد الإقامة الجبرية[٢].

وأصلح هرثمة ما فسد من أمر خراسان وخطب في الناس فأعلن فيهم ما قرره الرشيد في علي بن عيسى، ورفع عنهم مظالمه ومفاسده، فكان خبرا سعيدا نزل على أهل خراسان منذ أعوام، ثم ردَّ إليهم حقوقهم وأموالهم من علي وأبنائه، ثم بدأ هرثمة في إقرار أمر النواحي والبلاد التابعة لخراسان ثم مراسلة أمراء قبائل الترك فيما وراء النهر ليقطع دعمهم لتمرد رافع بن الليث[٣].

ومنذ هذه اللحظات بدأ تفكك تمرُّد رافع بن الليث، لا سيما أولئك الذين انضموا للثورة بغضا لعلي بن عيسى، ففارقه عدد من القادة (١٩٢هـ)، وتقدم هرثمة إلى سمرقند وحاصرها، واستدعى القائد طاهر بن الحسين -الوالي على بوشنج- ليكون معه، وقد أدى هذا الاهتمام برافع إلى فراغ خراسان من القادة فعاد إليها حمزة بن أترك الخارجي على نحو ما سبق عرضه، وقد حقق هرثمة بعض الانتصارات المهمَّة حيث دخل بخارى -أحد أهمِّ معاقل الثورة- وأسر بشير بن ليث أخي رافع (١٩٣هـ)، وكان الرشيد قد عزم أن يتوجه إلى حرب رافع بنفسه، فخرج من عاصمته «الرقة» إلى بغداد ثم سار إلى جرجان ثم إلى طوس، وهناك جاءه مرضه الأخير كما جاءه بشير بن الليث أسيرًا، وحاول بشير أن يعتذر إلى الرشيد فلم يقبل منه، بل قال: والله لو لم يبقَ من عمري إلَّا أن أحرك شفتي بقتلك لقتلتك[٤].

وقد عاش بعد هذا إلى أيام ثم أدركه الأجل، ثم استطاع هرثمة بن أعين القضاء على رافع بن ليث بعد نحو عامين من وفاة الرشيد (١٩٥هـ).

٢- الشام

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٤٨.
(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٧ وما بعدها.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٧، ٨.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢، ١٣.

عانت الشام في عهد الرشيد من فتنة قبلية عمياء أعادت أيام الجاهلية من جديد! لقد اشتبكت القبيلتان الكبيرتان: القيسية واليمنية، وظهر هذا لأول مرة (١٧٤هـ)[١] ثم تجددت بأقوى وأبشع بعد عامين (١٧٦هـ) وقتل من الفريقين خلق كثير، وفيما يعرض الطبري[٢] رواية الأمر بحياد تأتي رواية ابن الأثير[٣] لتحمل السلطة العباسية وحلفاءها اليمنيين مسئولية الاقتتال وتجدده ومحاولات الغدر المتكررة بزعيم القيسية أبو الهيذام؛ وهي المحاولات التي تفشل دائمًا وتزيد من اشتعال الأوضاع والتهابها، فيما يبدو آخرون مثل ابن كثير[٤] منحازين ضد القيسية وزعيمهم أبي الهيذام، وقد فشل والي الشام موسى بن عيسى في إيقاف هذه الاضطرابات كما هدم والي دمشق سندي بن سهل سور دمشق خوفًا من أن يستولي عليها القيسيون، فأرسل الرشيد موسى بن يحيى بن خالد البرمكي ومعه كوكبة من القادة وأهل الحكمة لإصلاح الأمر، فاستطاعوا تهدئة الأمور والإصلاح بينهم، وقبضوا على جماعة من زعماء الفتنة وأخذوهم إلى بغداد، وهناك جعل الرشيد يحيى بن خالد مفوضًا في الحكم عليهم فرأى العفو عنهم وإطلاقهم.

وعُدَّ إيقاف هذه الفتنة في سجل مفاخر وفضائل البرامكة! فقيل فيهم المدح والثناء والأشعار[٥]!

أثمر هذا المجهود سكون الحال أربع سنوات فقط ثم عاد مجددًا إلى الاشتعال (١٨٠هـ)، وبلغ الأمر من الخطورة أن الرشيد عزم على أن يخرج لها أقرب رجال الدولة إليه جعفر بن يحيى البرمكي؛ وإلا خرج بنفسه، فتكفل جعفر بالأمر وخرج مع مجموعة من القادة والأجناد، فلقد كان التشكيل العسكري غالبا هذه المرة على عكس المرة السابقة التي كان يغلب عليها أهل العلم والحكمة، واستطاع جعفر إخماد الفتنة بأن سحب من الجميع أسلحتهم وخيولهم، فلم يترك لديهم فرسا ولا سيفا ولا رمحا وأوقع القتل في اللصوص والمفسدين ممن ينشطون في جو الفتن والاضطراب، وعاد الأمن مرة أخرى.. وأيضًا إلى

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٩٢ وما بعدها.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٨٠.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٣، ٦٣٤.

حين! وأيضًا كانت منقبة أخرى من مناقب البرامكة طارت بها الأشعار[(١)].

وتجددت العصبية مرة أخرى بعد سبع سنوات -في عام نكبة البرامكة- (١٨٧هـ) فأرسل الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم[(٢)].

ثم ظهر في الشام تحركات صغيرة للخوارج، أحدها كانت بقيادة سيف بن بكر (١٩٠هـ) فأرسل الرشيد محمد بن يزيد بن مزيد فقتله[(٣)]، والثانية كانت بقيادة أبي النداء (١٩١هـ) فأرسل الرشيد يحيى بن معاذ نائبًا على الشام (١٩١هـ) فتصدى لهذه الحركة وقتل زعيمها (١٩٢هـ)[(٤)].

٣- مصر

بلغ الرشيدَ أن موسى بن عيسى والي مصر يفكر في العصيان على الرشيد، وبسرعة غير متوقعة أرسل الرشيد (١٧٦هـ) عمر بن مهران واليًا على مصر تحت إشراف جعفر بن يحيى البرمكي نائب الخليفة على مصر، وكان عمر بن مهران قبيح الشكل، أحول، زمن الكفّ، وكان مظهره بسيطا عاديا، يركب البغلة ويمسك العصا ويجعل خادمه رديفه على البغلة لكنه مع هذا كان قوي النفس حديد العزم صلب المراس، وقد اشترط على الرشيد إذا تولى مصر أن يكون أمره بيده فيعتزل متى شاء، فأجابه الرشيد إلى هذا، وبثبات وهدوء عجيب مضى عمر إلى مصر، ودخل على واليها كأي إنسان عادي له مظلمة، وانتظر حتى انتهى الناس من حوائجهم، ثم أعطاه قرار العزل والولاية، وفي سياق الرواية يبدو عمر بن مهران شخصية هائلة الثقة بالنفس، غاية في الهدوء والعزم والحزم، واستطاع أن يجمع خراج مصر وأن يعدل أمرها، فلما استوفى عمله ورأى أنه أصلح أمر البلاد اعتزل ولاية مصر[(٥)].

تولى إسحاق بن سليمان أمر مصر، وأمر بزيادة الخراج عما هو مقرر، فلعلَّه لم يستطع أن يغني غناء عمر بن مهران وأراد ألا يبدو أقلَّ حالًا منه، وهو ما أثار عليه تمردًا آخر (١٧٨هـ) تزعمه قادة قيس وقضاعة الذين أرهقهم الزيادة، وقاتلوا إسحاق بن سليمان حتى عجز

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٧.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣، ١٢.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٤، ٦٣٥.



عنهم، فأرسل الرشيد قائده هرثمة بن أعين -وكان في ذلك الوقت واليًا على فلسطين- فعزل إسحاق بن سليمان وقضى على تمرُّد قيس وقضاعة، وبقي هرثمة واليًا على مصر حتى جاء واليها الجديد عبد الملك بن صالح[١].

٤- إفريقية والمغرب

في العام الذي تولى فيه الرشيد الخلافة (١٧٠هـ) تُوُفِّيَ والي إفريقية يزيد بن حاتم المهلبي، الذي استطاع إقرار أمر المغرب لستة عشر عامًا غالية بعد ثورات الخوارج الطاحنة التي أرهقت الخلافة وأذهبت عددا من خيرة رجالها.

وحين تُوُفِّيَ يزيد خلفه في منصبه ابنه داود، وظن الخوارج الإباضية أن الفرصة قد جاءت لإعادة إنتاج ثوراتهم، فانتفضوا في جبال باجة (١٧٠هـ)، فأرسل إليهم داود بن يزيد جيشًا فهزموه، فأرسل جيشًا آخر أقوى فهزمهم وتتبعهم وأكثر فيهم القتل فانتهى أمرهم.

وبقي داود بن يزيد في منصبه تسعة أشهر، وهي الزمن الذي بلغت فيه وفاة يزيد إلى الخليفة الرشيد، ثم قرار الرشيد تولية أخيه روح بن حاتم المهلبي -عم داود- الذي كان واليًا على فلسطين ومن قبلها واليًا على السند في أقصى الشرق، ثم وصول روح إلى القيروان (رجب ١٧١هـ)، وأراد الرشيد تولية روح بن حاتم ليكمل مسيرة أخيه الذي دانت له البلاد وصار له موالٍ وأتباع بدلا من المخاطرة بوالٍ جديد ليس له عصبية في أرض تمور بالخوارج. وأغلب الظن أنه لم يقر داود لما بدر منه من سوء السيرة[٢].

وكما توقع الرشيد استقرَّت بلاد المغرب بروح بن حاتم المهلبي، وظلت كذلك حتى تُوُفِّيَ روح (رمضان ١٧٤هـ) بعد ثلاث سنوات من ولايته، فولاها الرشيد نصر بن حبيب المهلبي، وهو من العائلة ذاتها التي استقرَّ على يدها أمر المغرب منذ نحو ربع قرن.

بعدها بثلاث سنوات ذهب الفضل بن روح بن حاتم -ابن الوالي السابق- إلى الرشيد في بغداد وطلب منه ولاية إفريقية، وقد كان معه من الأسباب والدوافع ما جعل الرشيد يجيبه إلى هذا، فعاد إليها واليًا (المحرم ١٧٧هـ)، لكن الفضل لم يكن على وفاق مع الجيش

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٧، والكندي: الولاة والقضاة ص١٠٤، ١٠٥.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٤٢.

الخراساني الذي كانت قياداته تميل إلى الوالي السابق نصر بن حبيب، فأساء الفضل في سيرته معهم، ثم أعان ابن أخيه -الوالي على تونس- في ظلمه لهؤلاء الجند الخراسانيين، فأثاروا تمردًا عليه قاده عبد الله بن الجارود المعروف بـ«عبدويه الأنباري»، وبدأت حركتهم من تونس فعزلوا واليها المغيرة بن بشر بن روح (ابن أخي الفضل بن روح) وأرسلوا إلى الفضل أنهم ما زالوا على الطاعة ولم يشقوا عصا الجماعة، ولكن المغيرة أساء السيرة، ويطالبون بتولية من يكون أهلا لها ومن أهل العدل والاستقامة، فأرسل إليهم ابن عمه عبد الله بن يزيد بن حاتم، لكنهم رأوها خديعة من الفضل؛ لكي ينتقم منهم بعدئذٍ فقتلوا الوالي الجديد ولم يَعُدْ أمامهم سبيل إلَّا إزالة الفضل نفسه، وتراسلوا مع الأجناد والولاة في سائر الأنحاء حتى أخرجوهم من طاعة الفضل، ثم أرسل إليهم الفضل جيشًا فهزموه شر هزيمة، ثم اتبعوه إلى عاصمته القيروان فحاصروها، ومما يدل على سوء سيرة الفضل أن أهل القيروان أنفسهم هم من فتحوا الأبواب لابن الجارود وجنوده (جمادى الآخرة ١٧٨هـ) ثم قُتِل الفضل بن روح لينتهي بذلك حكم أسرة بني المهلب بن أبي صفرة في المغرب بعد ربع قرن[١].

استطاع ابن الجارود -زعيم التمرد العسكري الخراساني- أن يسيطر على الاضطرابات التي أعقبت مقتل الفضل بن روح بن حاتم، وأن يهزم الجناح العسكري الموالي للفضل والذي تزعمه العلاء بن سعيد وهو الجناح الذي يخطط الآن لمهاجمة القيروان مرة أخرى بعد هزيمته الأخيرة[٢].

في هذه الأثناء كانت الأخبار قد وصلت إلى الرشيد فأرسل إلى المغرب قائده هرثمة بن أعين ومعه يحيى بن موسى وهو من ذوي القدر والمكانة عند الخراسانيين، واستطاع يحيى بن موسى أن يحتوي تمرُّد الخراسانيين، وأن يُفشل خطَّة ابن الجارود، الذي كان يخطط للاستيلاء بنفسه على ولاية إفريقية، وهو ما كان له أكبر الأثر في تهدئة الأوضاع، وانسحب ابن الجارود من القيروان (غرة صفر ١٧٩هـ) بعد سبعة أشهر من السيطرة عليها، ثم دخل هرثمة بن أعين القيروان (ربيع الأول ١٧٩هـ) فأَمَّن الناس وسَكَّن الفتنة، وبدأ في إصلاح أحوال المغرب فبنى سور طرابلس من جهة البحر، وبدأ في ولايته يبزغ اسم إبراهيم بن الأغلب

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٤٣، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٩٧، ٢٩٨.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٩٨.

الذي سيكون فيما بعد مؤسس دولة الأغالبة[١]!

واستطاع هرثمة إخماد تمرُّد قاده جمع من البربر ومعهم بعض من بني كلب، ثم أرسل هرثمة إلى الرشيد يطلب الاستقالة من ولاية المغرب فقبل الرشيد فترك المغرب (رمضان ١٨١هـ) بعد سنتين ونصف من ولايته عليها[٢].

تولى المغرب محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، لكنه لم يكن من أهل العدل والحكمة بل أساء السيرة وكرهه الناس وتمنوا زوال حكمه، فثار عليه مخلد بن مرة الأزدي الذي انضم إليه كثير من الجند والبربر وغيرهم لكن محمدًا أرسل من عنده جيشًا استطاع إخماد ثورة مخلد وقتله. لكن الأمور لم تهدأ فما هو إلا قليل حتى ثار تمام بن تميم التميمي في تونس وانضم إليه كثيرون -أيضًا- وانطلق بهم إلى القيروان (رمضان ١٨٣هـ) فتلقاهم جيش محمد بن مقاتل لكنهم هزموه وانسحب محمد بن مقاتل إلى القيروان، وطارده تمام بن تميم ودخل القيروان وأعلن أن محمد بن مقاتل آمن إذا ترك إفريقية، فخرج محمد إلى طرابلس[٣].

وهنا ظهر مرة أخرى القائد الطموح إبراهيم بن الأغلب التميمي؛ إذ استنكر تمرُّد تمام على الخلافة الشرعية، وجمع جيشه واقتحم به القيروان وسيطر عليها واستدعى محمد بن مقاتل ليعود إلى حكمه ومقر عمله مرة أخرى، فعاد محمد بن مقاتل على سيوف جيش إبراهيم بن الأغلب ودخل القيروان على الرغم من كراهية الناس له ولحكمه وتوقهم للخلاص منه[٤].

ولا ريب في أن إبراهيم بن الأغلب كان يعلم هذا تمام العلم، ولكنه سلك الطريق الذكي؛ لكي يكون الوالي على إفريقية من قِبَل الخلافة.

عندما عاد محمد بن مقاتل إلى القيروان كان تمام بن تميم قد أعاد ترتيب من بقي من جيشه وهاجم القيروان مرة أخرى، وهنا تصدى له إبراهيم بن الأغلب فانتصر إبراهيم فانسحب تمام إلى

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٩٩، ٣٠٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٠٠.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٢.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٢.

تونس وطارده إبراهيم حتى حاصر تونس حتى طلب تمام الأمان فأُجِيب إليه[(١)].

كان المشهد أمام الخليفة كالآتي: الناس يكرهون ولاية محمد بن مقاتل، وهذا الرجل إبراهيم بن الأغلب قد أثبت أنه الأقوى في هذه المنطقة وأنه -أيضًا- مدافع عن الخلافة وشرعيتها وقد خاض حربا لأجل ذلك ليعيد واليها إلى عمله، والناس يطلبون ولايته كراهية محمد بن مقاتل، فاستشار الرشيد في هذا الأمر فأثنى هرثمة بن أعين على إبراهيم بن الأغلب الذي عرفه أيام ولايته لإفريقية فرأى منه العقل والذكاء والحكمة، فأرسل الرشيد يوليه أمر إفريقية (المحرم ١٨٤هـ)، وكان إبراهيم قد قدَّم عرضا مثيرا: أنه يستغني عن أموال الخلافة التي تُرسل إعانة لإفريقية (مائة ألف دينار سنويا) بل ويتعهد هو بدفع أربعين ألف دينار للخلافة، على أن تكون الولاية فيه وفي أبنائه من بعده، وتم له ما أراد[(٢)].

ومنذ هذه اللحظة بدأ حكم الأغالبة، وصارت تلك المنطقة تتمتَّع بما قد نسميه الحكم الذاتي؛ حيث هي توالي الخلافة وتدفع لها الأموال السنوية المقرَّرة، والخلافة تفوض شئون الإدارة والسياسة فيها.

وقد استقرَّ أمر إفريقية تحت حكم إبراهيم بن الأغلب وصار متكفلا بمواجهة الصعوبات دون العودة إلى الخلافة.

٥- العراق والجزيرة الفراتية

لم تزل أرض الجزيرة الفراتية معقل الخوارج الأقوى والأول، غير أن ثورات الخوارج في عهد الرشيد لم تَطُل ولم تكن عظيمة، بل كان يُقضى عليها سريعًا، وإن بصعوبة في بعض الأحيان، وقد كانت البداية منذ العام الثاني لخلافة الرشيد.

أولاً: تمرُّد الصحصح الخارجي

ظهر (١٧١هـ) وانطلق فجأة.. هزم الجيش الذي أرسله أبو هريرة والي الجزيرة، ثم سار إلى الموصل فقتل كثيرًا من جنودهم ثم عاد إلى الجزيرة الفراتية فسيطر على ديار ربيعة..

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٢.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٣.

فأرسلت الخلافة جيشًا من عندها هزمه وقتله في أول واقعة، وعزل الرشيد والي الجزيرة[١].

ثانيًا: الفضل بن سعيد الخارجي

بدأ الفضل ثورته (١٧١هـ) بعشرين فارسًا فقط، ثم أخذ في مهاجمة القرى والمدن، وكان هو وفرسانه من البسالة والقوة بحيث كانت البلاد تفضل أن تدفع إليهم أموالًا على أن تأمن منهم، فأخذ من «بلد» مائة ألف ثم بانعمان -التي تبعد عن نصيبين خمسة فراسخ- فوقع اشتباك صغير قَتَل فيه اثنا عشر رجلًا من بني تغلب، ثم زاد الذين معه إلى خمسمائة عند أبواب نصيبين، ثم قصد «دارا» فأعطوه خمسة آلاف، ثم «آمد» فأعطوه عشرين ألفًا، ثم «ميافارقين» فأعطوه عشرة آلاف، ثم «أرزن» فأعطوه عشرين ألفًا، ثم «خلاط» ثم عاد إلى نصيبين، ثم إلى الموصل، ثم اشتبك بعد هذا مع جيش من اثني عشر ألفًا فهزمهم في جولة أولى ثم عاد القتال بينهم فهزموه وقتلوه[٢].

ثالثًا: تمرُّد العطاف بن سفيان الأزدي

ثم سكن حال الجزيرة والموصل ست سنوات أخرى؛ حتى تمرَّد العطاف بن سفيان الأزدي (١٧٧هـ) وكان من فرسان أهل الموصل، وقد تبعه أربعة آلاف، وبهم صار القوة الأكبر، فجبى الخراج لسنتين ولم يستطع مقاومته أحد[٣]. وقد ساعده على هذا تمرُّد الوليد بن طريف (١٧٨هـ) -وسيأتي الكلام عنه بعد قليل- إذ كان تمرُّد الوليد أقوى وأخطر وشمل منطقة أوسع، فانشغلت الخلافة به عن تمرُّد العطاف الذي ظلَّ ساكنًا في الموصل لا يخرج منها، فلما انتهى أمر الوليد وتمرده تحرك الرشيد بنفسه (١٨٠هـ) إلى الموصل على رأس جيش وقد بلغ به الغضب أن عزم على إقامة مقتلة في الموصل التي يبدو أهلها قوة لكلِّ ثورة ودعما لكلِّ تمرُّد، فمنعه من هذا القاضي أبو يوسف[٤]، فأمر الرشيد بهدم سور الموصل لئلا تكون حصنًا لأي متمرد فيما بعد، واتخذ مقر حكمه في الرقة[٥].

رابعًا: تمرُّد الوليد بن طريف

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٨١.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٤، ١٣٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٠٠.

(٤) وهو قاضي قضاة الرشيد، وتلميذ الإمام أبي حنيفة وصاحبه والرجل الثاني في المذهب الحنفي بعد الإمام.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٤.

ثم هدأت الجزيرة هدوءًا قلقًا مضطربًا لسبع سنوات؛ حتى ثار فيها الوليد بن طريف (١٧٨هـ) الذي حكمها لمدة وقتل كثيرًا من أهلها، ولكنه كان حريصًا على المال فكان أهل كل مدينة يفدون أنفسهم بآلاف الدينارات مقابل إجلائه عنها، وهكذا سار من رأس العين إلى نصيبين إلى ميافارقين إلى خلاط إلى نواحي أذربيجان ثم إلى حلوان ثم جولايا ثم السودقانية ثم عبر إلى غربي دجلة فأتى «بَلَدْ» ثم إلى نصيبين مرة أخرى، فحَصَّل من كل مدينة ما أمكنه فاستكثر من الرجال والأتباع وأصبح يمثل خطرًا بليغًا بحلول عام (١٧٩هـ) فبعث إليه الرشيد الفارس الكبير يزيد بن مزيد الشيباني فراوَغَه وأرهقه وطال في حربه حتى غضب الرشيد -ووشى به البرامكة أنه يُطاول الوليد لما بينهما من الرحم فكلاهما من بني وائل، فأرسل الرشيد إلى يزيد يتهدده[١]- فصدق يزيد في مطاردته حتى كانت الوقعة الفاصلة فقتله وتفرق أصحابه، وانتهت هذه الثورة التي كان قربها من مركز الخلافة يجعلها أخطر وإن لم تكن أقوى[٢].

وقد اعتمر الرشيد شكرا لله في هذه السنة (١٨٠هـ) بعد أن خمدت ثورات خراسان والجزيرة ومصر وإفريقية وظل في المدينة حتى موسم الحج وأدى المناسك كلها ماشيا[٣]. واستناب على بغداد ابنه الأمين وولاَّه العراقين.

كما ولَّى على الموصل يحيى بن سعيد الحرشي وقد أساء هذا الوالي السيرة في الموصل وظلم الناس وطالبهم بخراج أكثر من سنة ماضية، ولعلَّه أراد بهذا كسر الموصليين واستلاب أموالهم كي لا يكون بهم قوة لإثارة تمرُّد أو لدعم متمرد، ولعلَّه أراد -أيضًا- التقرب من الرشيد بهذا لما يعلمه من تغيظ الرشيد عليهم، لكن الظلم انقلب على رأسه ورأس الدولة نفسها إذ اضطرَّ كثير من أهل البلد إلى الجلاء عنها مما كان له أسوأ الأثر على الموصل واقتصادها.

خامسًا: تمرُّد جراشة الشيباني

وكانت ثورته في الجزء الشرقي والشمالي من بغداد، بدأها (١٧٩هـ) من أرض السواد، ثم البندجين[٤] ثم الدينور[١] ثم حلوان، وهزم عددا من ولاة هذه المناطق، ثم عاث في البلاد

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٠٢.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٣، ١٣٤، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٧، ٦٤١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤١.

(٤) البندجين: هي الآن مدينة «مندلي» العراقية التي تقع شرق محافظة ديالي، وتكاد تكون على الحدود مع إيران.



فحاصر شهرزور حتى دفعوا له أموالًا، وجمع خراج نهاوند وهمذان، فأرسل الفضل بن يحيى البرمكي جيشًا من ألفين بقيادة إبراهيم بن جبريل (غرة شوال ١٨٠هـ)، فهزموه وأصيب جراشة إصابة بالغة، وظل ينسحب إلى شهرزور ثم إلى الأنبار ثم إلى القادسية وهو في أسوأ حال وقد خسر رجاله وهلكت كثير من دوابه، وإبراهيم يطارده ويأتيه جيش آخر من ألفين بقيادة خالد بن يزيد بن حاتم، وطالت المطاردة والانسحاب حتى وقع رسول جراشة في يد مسلم بن بكار العقيلي؛ فلما أيقن الرسول بالهلاك جعل نجاته في أن يدلهم على جراشة، فأدركه ليلًا فقاتله فقتله، وانتهى بذلك أمره(٢).

سادسًا: تمردات أخرى صغيرة

سكنت الأحوال أربع سنوات حتى جاءت ثورة أبي عمرو الشاري (١٨٤هـ) فقضى عليها زهير القصاب إذ قتله في شهرزور، ثم قتل عبد الرحمن الأنباري أبان بن قحطبة الخارجي (١٨٥هـ) بمرج القلعة(٣)، وبعدها بعامين ثار عبد السلام الخارجي في آمد(٤) فقتله يحيى بن سعيد العقيلي.

ثم يسكن أمر العراق سبع سنوات أخرى حتى يظهر في أرض السواد ثروان بن سيف (١٩١هـ) الذي بدأ تمرده من بلدة الحولايا القريبة من حمص، فتكون نهايته على يد طوق بن مالك الذي هزم جيشه وقتل أصحابه، وفرَّ ثروان جريحًا (١٩٢هـ)(٥).

٦- أرمينية وأذربيجان

ولقد اشتعلت هذه الجبهة مرتين، مرة عام (١٨٤هـ) في وادي الرس وقد أخمدها يزيد بن مزيد الشيباني، ومرة في أواخر عهد الرشيد، ثارت هناك طائفة الخرمية (١٩٢هـ)، فأرسل الرشيد عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس، فهزمهم وقتل منهم وأسر، ولقد كان الرشيد غاية في الصرامة معهم فأمر بقتل الرجال وبيع الأسرى(٦).

---

(١) الدينور: بلدة قريبة من مدينة همذان الإيرانية.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٤، ١٣٥، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٨، ٦٤٩.
(٤) مدينة آمد الآن عاصمة محافظة «ديار بكر» التركية.
(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥.

٧- قصة علوية!

كان الرشيد في المدينة المنورة (١٧٩هـ) وحين ذهب إلى حيث قبر النبي ﷺ سَلَّم عليه بقوله: «السلام عليك يا رسول الله يا بن عم». وكان إلى جواره موسى الكاظم فإذا به يقول: «السلام عليك يا أبت». فقال الرشيد: هذا هو الفخر يا أبا الحسن! لكن الكلمة بقيت تحيك في نفسه، ويبدو أنه توقع فيها نية الخروج فهي تحمل معنى استحقاق الخلافة، فحبسه الرشيد وأطال سجنه، فكتب إليه موسى رسالة يقول فيها: أما بعد يا أمير المؤمنين إنه لم ينقض عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء؛ حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون.. ومات موسى في سجنه (١٨٣هـ)[١].

وقيل بأن السبب هو أن الرشيد «كان يراقب العلويين في الحجاز، فدس إليه بعض جواسيسه أن الناس يعتقدون بإمامة موسى بن جعفر، وأنهم يحملون إليه خُمس أموالهم، فاضطرب الرشيد، ولما حجَّ لاحظ احتفاء الناس بموسى، فجاء به إلى العراق وسجنه»[٢].

لكن المؤرخين الميالين إلى العلويين لا يشكون في قتله[٣]، وأورده الأصفهاني في «مقاتل الطالبيين» حتى إن اليعقوبي أورد أنه قُتِل مع أنه ساق أن «مسرورًا الخادم وأحضر القواد والكتاب والهاشميين والقضاة ومن حضر ببغداد من الطالبيين، ثم كشف عن وجهه، فقال لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا: نعرفه حق معرفته، هذا موسى بن جعفر. فقال هارون: أترون أن به أثرا وما يدل على اغتيال؟ قالوا: لا»[٤].

نكبة البرامكة

عاد الرشيد من الحج (١٨٦هـ) فوصل إلى الأنبار (المحرم ١٨٧هـ) فأمر (غرة صفر ١٨٧هـ)[٥] بقتل جعفر بن يحيى البرمكي، والقبض على أبيه يحيى بن خالد وأخيه الفضل بن يحيى، وأرسل إلى الولايات بمصادرة أموال البرامكة وحبس أتباعهم وأوليائهم.. فكانت ليلة واحدة أحالت القوم من سعة الدنيا إلى ضيقها ومن البساتين والقصور إلى الزنازين والقبور..

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٩٧.
(٢) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١١١.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٣٧، ٣٣٨ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٤٥.
(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، وابن قتيبة: المعارف ص٣٨٢.

لا تزال نكبة البرامكة تمثل لغزا تاريخيا احتار فيه المؤرِّخون والباحثون، وكل منهم أخذ في تقليب الروايات واستنطاق الأحداث ليحاول استخراج السبب الذي أدى إلى هذه النكبة المفاجئة لرجال كان ظاهرهم طوال الوقت الولاء للخلافة والإخلاص للرشيد وإدارة الدولة بمهارة وكفاءة والرفق بالناس والإحسان لهم.

وفي محاولة استنطاق الروايات والأحاديث كُتب الكثير مما يمثل ضغطا على العبارات والأحداث حتى تَدلّ على ما لا تدل عليه، فيُضَخَّم الأمر الهين البسيط، ويبالغ في الإجراء العادي حتى يكون سببًا تفسيريًّا لهذه النكبة!

ونحن لا ندعي أننا سنأتي في السطور القادمة بما لم تستطعه الأوائل، بل نزعم أننا نقدم صورة منظمة عن الروايات الكثيرة المتضاربة لا أكثر.

١- من هم البرامكة

البرامكة المعنيون بهذا المبحث هم أربع شخصيات أساسية: خالد بن برمك، وابنه يحيى بن خالد، ثم الأحفاد: الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى..

أولاً: خالد بن برمك

«برمك» هو لقب كبير سدنة معبد النوبهار، وهو في بلخ، وتشير بعض الروايات(١) إلى أنه بيت من بيوت النار التي يعبدها المجوس، بينما تشير روايات أخرى(٢) إلى أنه بيت من بيوت الأصنام مما حدا بالبعض أن يتوقع ويرجح أنه معبد بوذي(٣).

ويذكر المسعودي أن الذي كان يتولى سدانة هذا المعبد «تعظمه الملوك في ذلك الصقع وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه، وتحمل إليه الأموال، وكانت عليه وقوف»(٤)، وكان هذا البيت كالكعبة عند العرب يأتي إليه حجاج من الهند والصين وتركستان في كل عام ويقضون فيه سبعة أيام(٥).

وكان خالد بن برمك هو من نسل كبير السدنة هذا، وكان خالد من السابقين إلى دعوة

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٩، والأتليدي: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ص٢٣٧.
(٢) ابن الفقيه: البلدان ص٦١٧، والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص٣٣١.
(٣) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١٢١، ١٢٢.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٢٣٨ (ط دار الفكر).
(٥) ابن الفقيه: البلدان ص٦١٧، والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص٣٣١، وياقوت الحموي: معجم البلدن ٥/ ٣٠٧.

العباسيين، ومن أكبر دعاتها، ثم كان من كبار رجال جيش العباسيين الذي أزال الدولة الأموية فكان المشرف على الغنائم وتقسيمها، ثم تولى الخراج في خراسان، ثم تولى ديوان الخراج وديوان الجند للخليفة أبي العباس السفاح وصار في مقام الوزير بعد مقتل أبي سلمة الخلال، وظل يتقلب في الولايات والمناصب في عهد السفاح ثم المنصور ثم المهدي، وفي عهد الأخير كان خالد مشرفا على تربية هارون الرشيد ومتولي أمر النفقات والجيش في المعارك التي خرجت لقتال الروم.

كان أميرًا قويًّا مهيبًا ممدوح الولاية حتى قال أحد معاصريه: «ما هِبْنا أميرًا هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية ولكن هيبة كانت له في صدورنا»(١). حتى مات (١٦٣هـ)(٢).

ثانيًا: يحيى بن خالد

وكان ابنه يحيى بن خالد بن برمك من أرفع الناس أدبًا، وفضلًا، ونبلًا حتى قال فيه المنصور إعجابا: «ولد الناس ابنا وولد خالد أبا»(٣)، وقد تولى المناصب منذ (١٥٨هـ)، وهو الذي رَبَّى هارون الرشيد الذي كان يناديه بـ «يا أبي»، وكان يحيى كاتب الرشيد الذي جعل له أبوه ولاية القسم الغربي من الدولة، وظل على منصبه هذا في عهد الهادي.

وليحيى فضلٌ في صرف الهادي عن خلع الرشيد من ولاية العهد، وكان من أنصاره ورجاله في البلاط أيضًا، وهو صاحب البشرى بتوليته الخلافة بعد الموت المفاجئ للهادي، وقد ذكرنا من قبل أن الرشيد كان يثق بيحيى بن خالد ثقة تامة لطول ما بينهما من تاريخ وصحبة.

والثناء عليه كثير طويل شَغَل المؤرِّخين وفاضت به كتبهم، نلتقط من أقوالهم ذلك القول الجامع لابن الطقطقي: «نهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتمّ نهوض، وسدّ الثغور وتدارك الخلل، وجبى الأموال وعمّر الأطراف، وأظهر رونق الخلافة، وتصدَّى لمهمّات المملكة، وكان كاتبًا بليغًا، لبيبًا أديبًا سديدًا، صائب الآراء حسن التدبير ضابطًا لما تحت يده قويّا على الأمور، جوادًا يباري الريح كرمًا وجودًا، ممدّحًا بكلّ لسان، حليمًا عفيفًا وقورًا مهيبًا، وله يقول

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١٤.
(٢) الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٩٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥١٤.

القائل:

لا تــــراني مصــــافحا كــــفّ يحيــــى إنّنــــي إن فعلــــت ضــــيّعت مــــالي

لــــو يمــــسّ البخيــــل راحــــة يحيــــى لســــخت نفســــه ببــــذل النّــــوال»[١]

ومن أعماله التي نلتقطها عرضًا من بين السطور في العمارة والتنمية حفره لنهر القاطول وآخر أسماه أبا الحيل[٢] وثالث أسماه سيحان في العراق[٣]، وقد ذكرنا من قبل كيف فوضه الرشيد منذ تولى في إدارة شئون الخلافة وكيف كانت له صلاحيات واسعة.

وكان ليحيى ابنان شهيران هما: الفضل وجعفر، كانا ساعديه في إدارة الدولة.

ثالثًا: الفضل بن يحيى

وهو أخو الرشيد من الرضاعة، وقرينه في العمر فقد ولد قبله بسبعة أيام فقط، وقد رضع الرشيد من أمه أم الفضل زوجة يحيى، كما رضع الفضل من الخيزران أم الرشيد، وكان الفضل بن يحيى من رجال الدولة الماهرين، تولى مناصب خطيرة، وقضى على ثورات وتمردات مهمَّة، وتولى خراسان وهي أهمُّ الولايات فضبط أمرها وأصلح أحوالها ورفع عن الناس الجور والظلم وأسقط عنهم ما بقي عليهم من الضرائب المستحقة ورفع الرواتب فسحر القلوب وملكها[٤]، وكان معروفا بالجود والكرم والحلم -كسائر البرامكة- حتى ملك القلوب، وقد كان من سياسة الفضل أنه إن غضب على أحد وكان يستطيع إنفاذ غضبه لم ينتقم ولم يبطش بل يزيده عطاء ومكافأة فيملك بهذا قلبه[٥]، وكان له في كل موطن يد كريمة على الناس وصدحت بمدحه ألسنة الناس والشعراء لا سيما بعد كل انتصار أو إنجاز؛ حتى وصفه ابن الأثير بالقول: «وكان من محاسن الدنيا، لم يُرَ في العالم مثله»[٦].

رابعًا: جعفر بن يحيى

ولئن كان الفضل رجل الدولة فلقد كان جعفر رجل المجلس، فالأول أكثر اهتمامًا

---

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص١٩٧.
(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٣٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٤.
(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٤٧.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٣٨، ٦٣٩.
(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٥٢.

بالحكم والتدبير والقيادة والثاني أكثر ظرفا ولطفا وأمتع صحبة وأُنْسًا وإن لم يخل من الكفاية والمهارة كذلك، قال فيه الخطيب البغدادي: «كان من علو القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند هارون الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، فأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر وأبين من أن يظهر وكان -أيضًا- من ذوي الفصاحة والمذكورين باللسن والبلاغة»(١).

وهو الذي أنهى الفتنة القبلية في الشام، فرجع تسبقه قصائد الشعراء بالمدح والثناء. وكان هارون الرشيد يحبُّ جعفر حبًّا جمًّا، فكان هو أقرب البرامكة إليه وأعزهم عليه، وتفيض الروايات بوصف ما كان بينهما من الألفة والعلاقة حتى تأتي بمبالغات منكرة وأخرى لا تكاد تصدق.

وقد خشي يحيى بن خالد من متانة العلاقة بين الرشيد وابنه جعفر، وكأنما أحس أنها ستؤدي إلى نكبتهم، فلقد كانت كل الفوارق زائلة بين الرجلين، وقد حذر يحيى ابنه جعفر من هذا فقال: «إني إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك، وإن كنت أخشى أن تكون التي لا شروى لها»، ثم لما كبر الهاجس في نفسه قال للرشيد: «يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتي وآمن لك عليّ. قال الرشيد: يا أبت ليس بك هذا»(٢).

لقد كان يحيى يفقه معنى أن المُلك عقيم، وكان يقول: «لا أرحام بين الملوك وبين أحد»(٣).

وإذا حاولنا أن نراجع مسيرة الولايات التي كانت ليحيى وابنيه في عهد الرشيد فسنرى المشهد هكذا:

٢- مسار البرامكة في دولة الرشيد

وسنأخذ هذا المسار من تاريخ الطبري باعتباره أوسع كتب التاريخ القريبة تفصيلا وباعتباره تاريخًا حوليًّا يُؤَرِّخ الأحداث بالسنوات مما يمكن من خلاله تتبع التطور في

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٧/ ١٥٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٠، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٧٧، ١٧٨.
(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٥٥.

المناصب والولايات.

- فوض الرشيد أمور الخلافة إلى يحيى بن خالد أول أمره فكان يدير الدولة وكان يكثر العودة واستشارة الخيزران أم الرشيد.

- ثم أعطى الرشيد خاتم الخلافة إلى يحيى بن خالد (١٧١هـ) فاجتمعت له «الوزارتان».

- ثم نفاجأ بعد ذلك بعامين وفي يوم وفاة الخيزران أن الرشيد يأخذ الخاتم من جعفر بن يحيى ويعطيه إلى الفضل بن الربيع مما يفيد أن يحيى أعطى الخاتم لابنه جعفر أو أن الرشيد نقله من يحيى إلى ابنه.

- ثم يظهر الفضل بن يحيى في المشهد (١٧٥هـ) واليًا على خراسان -وهي أهمُّ ولايات الدولة العباسية- وهناك يجمع آراء الناس على البيعة لمحمد بن الرشيد على الرغم من صغر سنه قطعا لآمال الطموحين للخلافة من البيت العباسي لأن الرشيد لم يكن له ولي عهد إلى ذلك الوقت، وينبغي أن نلاحظ هنا أنه بايع لمحمد لا لعبد الله على الرغم من أن الأخير هو الأكبر سنًّا ونصفه فارسي -فأمه جارية فارسية- وبين معقل الدعوة الخراسانيين، فهذا يبرئه من الهوى الفارسي والتعصب الشعوبي، ويثبت ولاءه للرشيد الذي لم يستطع أن يُحَصِّل هذه الموافقة في بغداد بين العرب! بل هو لم يقدم على إعلان البيعة له إلا حين تأكدت في المشرق بفعل الفضل بن يحيى.

- ثم أوكل الرشيد (١٧٦هـ) إلى الفضل بن يحيى مهمَّة إخماد الثورة التي أشعلها يحيى بن عبد الله العلوي في بلاد الديلم، وقد قام الفضل بهذه المهمَّة خير قيام، فاستطاع إقناع ملك الديلم وإقناع الثائر العلوي بالاستسلام مقابل ما يشاءون، وانتهت ثورة رجل ما كان يُظَنُّ أن يتوقف عن ثورته أبدًا -فلقد كان يحضر لها سنين ويسعى فيها بين البلاد- دون سفك دماء، ولهجت ألسن الشعراء تحتفي بفعل الفضل وكيف أنه استطاع أن يجنب عهد الرشيد صراعا علويا عباسيا يقسم البيت الهاشمي.

- وفي العام ذاته (١٧٦هـ) الذي كان الفضل يمهد أمر الشرق، كلف الرشيد أخاه موسى بن يحيى أن ينطلق إلى الشام التي هاجت فيها العصبية القبلية، واستطاع موسى إصلاح الأمر وتهدئة الأجواء، وحتى رءوس الفتنة الذين قبض عليهم موسى وحملهم إلى

بغداد وكل الرشيد الحكم فيهم إلى أبيه يحيى البرمكي فعفا عنهم.. فأي عصبية فارسية شعوبية في موقف كهذا لو أنه أمر بقتلهم ما عاتبه أحد؟!

▪ وفي العام ذاته (١٧٦هـ) كان أخوهما الثالث يمهد أمر مصر، فلقد وصل للرشيد عزم والي مصر على إعلان العصيان فأسند المهمَّة إلى جعفر بن يحيى الذي أسندها إلى عمر بن مهران وعلى يده كان إصلاح حال مصر وتمهيد أمرها، بل إن عمر بن مهران كان أكفأ من جبى خراج مصر.

▪ وأما عزل جعفر بن يحيى عن ولاية مصر (١٧٧هـ) فهو أقرب لأن يكون عزلا شكليا، فلقد ظل جعفر في بغداد بالفعل وكلف عمر بن مهران، ثم لما استقال عمر بن مهران بعد استقرار الحال في مصر كلف بها الرشيد إسحاق بن سليمان.

▪ ويزيد في تأكيد هذا أنه في ذات هذا العام (١٧٧هـ) وَسَّع الرشيد ولاية الفضل بن يحيى، فبعدما كان يتولى الأقاليم ما بين الري إلى سجستان أضاف إليه الرشيد ولاية خراسان وعزل عنها حمزة بن مالك.

▪ وكان يحيى بن خالد -وهو الوزير- مشرفا بنفسه على تمرُّد المغرب (١٧٨هـ) حتى انتهى.

▪ وفي هذا العام (١٧٨هـ) نرى هذه العبارة للمرة الثانية «وفي هذه السنة فوض الرشيد أموره كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك».. وأقل ما يدل عليه هذا أن العلاقات حتى هذه اللحظة كانت بلا شوائب بين الرشيد والبرامكة.

▪ ويزيد في التأكيد على هذا أن الفضل بن يحيى كان يعمر خراسان ويبني فيها المساجد والرباطات(١)، كما كان -أيضًا- يغزو أحد ملوك الترك الذين تمردوا على الصلح مع الخلافة وينتصر عليه، بل اصطنع الفضل لنفسه قوة عسكرية خراسانية تقدر بنصف مليون جندي - وهو رقم مبالغ فيه جدًّا ولا يُصدَّق- وسماهم «العباسية»، وسيقدم منهم إلى بغداد عشرون ألفًا، وكان رد فعل الشعراء مدحا آخر لهذه الخطوة التي تزيد قوة الدولة وغناءها ولسنا نجد مما قرأنا تخوفًا منها أو احتسابها كأنها قوة للبرامكة وحدهم.

▪ وحين قدم الفضل إلى بغداد راجعًا من خراسان (١٧٨هـ) كان في استقباله جمع غفير من القادة والأمراء والبيت العباسي ووجوه الناس والشعراء والعامة، وكان على رأسهم

---

(١) الرباطات: معسكرات المجاهدين.



الخليفة الرشيد نفسه، وقد أنفق أموالًا هائلة في الناس الذين استقبلوه حتى فاضت في مدحه الألسنة.. لكن الذي يهمنا التأكيد عليه هنا أن استقبال الرشيد ووجوه القادة له يثبت أن الرشيد لم يتوجس خيفة من تشكيله للفرقة العسكرية الجديدة، ولا بأنه اصطحب منها عشرين ألفًا.

- وفي (١٧٩هـ) يعزل الرشيد محمد بن خالد البرمكي عن الحجابة ويوليها بدلًا منه الفضل بن الربيع.. وهو عزل لا تصرح المصادر بتفاصيل عنه، ويبدو كأي إجراء إداري لم تقف عليه أسباب المؤرِّخين.

- وفي العام التالي (١٨٠هـ) تجددت العصبية القبلية في الشام، فعرض الرشيد على جعفر أن يخرج هو أو العكس، فتكفل جعفر بالأمر، وكانت هذه -فيما نعلم- أول مرة يفارق فيها جعفر بغداد والرشيد، وقد نجح في مهمته خير نجاح، وعاد إلى بغداد، وقال للرشيد كلامًا عذبًا في معنى تألمه لمفارقته وغيابه عنه، ويعلق الطبري بقوله: «فازداد الرشيد له إكرامًا».

- وفي هذا العام (١٨٠هـ) أخذ الرشيد الخاتم من جعفر بن يحيى وأعطاه لأبيه يحيى بن خالد، أي أن خاتم الرشيد كان مع جعفر لمدة، ثم هو لما خرج من يد جعفر لم يذهب إلا لأبيه!

- وفي العام نفسه (١٨٠هـ) وَلَّى الرشيد جعفرا على خراسان وسجستان، ثم عاد عن هذا القرار، وجعل جعفر واليًا على الحرس الخاص له، فكلف جعفر بهذه المهمَّة القائد العسكري هرثمة بن أعين.

- وكذلك عزل الرشيد الفضل بن يحيى عن ولاية طبرستان (١٨٠هـ) ولا تقدم المصادر سببًا بل تسوقه كإجراء إداري عادي.

- وبعد أن أنهى الرشيد حجته (١٨١هـ) استأذنه الوزير يحيى بن خالد في الاستقالة من الوزارة والبقاء في مكة لفترة فأذن الرشيد له حتى عاد في العام التالي.

- وحين أخذ الرشيد البيعة للمأمون وليًّا للعهد (١٨٢هـ) كلف جعفر بن يحيى بالإشراف عليه وتعليمه ورعايته بما يؤهله لإدارة أمور الحكم.

- ثم يختفي ذكر البرامكة ثلاث سنوات، ونجد (١٨٥هـ) خبرا عن أن يحيى بن خالد استأذن مرة أخرى للعمرة في رمضان والبقاء حتى وقت الحج، فأذن له الرشيد، ثم يختفي ذكرهم

مرة أخرى حتى تأتي نكبتهم[1]، ولكن الجهشياري يصرح بأن الرشيد غضب على الفضل بن يحيى (١٨٣هـ) لكن الأخير ذهب إليه في الرقة ومعه أمه -وهي أم الرشيد من الرضاعة- فتشفعت فيه وصلح ما بينهما، وأبقاه على رعاية ابنه الأمين لكنه لم يُعِدْه إلى مناصبه[2].

ومن المهم للغاية أن نتذكر بأن كل إنجاز يصنعه برمكي للدولة كان إضافة لسجل الأسرة من هذه الإنجازات، فكانت الأشعار لا تمدح موسى أو جعفر أو الفضل أو يحيى، بل تأتي على كل هؤلاء بالمدح والثناء.. وكانت حقا أشعارا غاية في الكثرة والإجلال، ويعرف فيها متذوق الشعر طعم الصدق والحب الأصيل غير المتكلف أو المصطنع، ولم يكن هذا مجرَّد نفاق أو تملق بل كان إكرام البرامكة للعامة والخاصة يجعل من هذه الصورة رأيا عاما عميقا في الوجدان الشعبي!

وحتى لو حَمَلَنا الشك على الشعراء وضعف الثقة فيهم على أن نصدق ما قالوه، فكيف بقول رجل مثل سفيان بن عيينة -وهو الإمام الكبير العَلَم- الذي لما أتاه خبر قتل جعفر بن يحيى وما نزل بالبرامكة توجه إلى القبلة قائلًا: «اللهم إنه كان قد كفاني مئونة الدنيا فاكفه مئونة الآخرة»[3].

٣- متى بدأ اضطراب العلاقة بين البرامكة والرشيد؟

هذا الاستعراض التاريخي السابق يؤكد أن اضطراب العلاقة بين الرشيد والبرامكة قد يكون بدأ (١٨٢هـ) أي قبل نكبتهم بأربع سنوات (غرة صفر ١٨٧هـ)، فمنذ هذه السنة يختفي ذكرهم في الأعمال والولايات وتكليفهم بالمهام، ولا نجد إلا أخبارا يستأذن فيها يحيى بن خالد في مفارقة الرشيد والبقاء بمكة، وهو أمر يوحي بالتوجس والخيفة[4].

لكن هذا التحليل يرهقه ويشغب عليه بعض أمور: أن يحيى بن خالد كان يعود إلى بغداد ولم يلبث كثيرًا في مكة، وأن الفضل بن يحيى ظل هو القائم على رعاية الأمين وأن

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٦، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٩.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٧٩.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٧/ ١٥٩.

(٤) وتفيض بعض المصادر -لاسيما الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب- بروايات تفيد تغير الحال بين الرشيد والبرامكة، بعضها يؤكد حرص الرشيد على السر وعدم خروجه مطلقا، وبعضها يفيد أنه لم يتحرج في أن يسمع بها من حوله، وبعضها وصل إلى التلميح المتبادل بينه وبين يحيى بن خالد.

جعفر بن يحيى ظل هو القائم على رعاية المأمون ولي العهد، وظلت كل الأمور على حالها لم يتغيَّر فيها شيء في سعة نفوذ البرامكة وجاههم ومكانهم من الدولة؛ حتى جاءت هذه النكبة فجأة لم يتوقعها أحد حتى لهي تصدق قول القائل:

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

ثمة روايات ترجع ببداية تفكير الرشيد في نكبتهم لهذا السبب إلى ما قبل نكبتهم بست سنين[1]، وأخرى بأربع سنوات[2]، وأخرى أمر فيها الرشيد صاحب الشرطة السندي بن شاهك أن يستعد للقبض على البرامكة قبلها بسنة[3].

والرواية الأولى مستبعدة لأنها تسبق تكليف الرشيد لجعفر بن يحيى برعاية المأمون ثم هي من أندلسي بعيد عن العراق، بخلاف الروايتين الأخريين فهما لمؤرِّخان عراقيان: اليعقوبي والجهشياري، وهما متقدمان، كما أنهما لا يتعارضان، فبداية التفكير قبل أربع سنوات والعزم على النكبة قبلها بسنة، وهما يتفقان مع استعراضنا التاريخي الذي يقول باختفاء ذكر البرامكة من المناصب والولايات منذ أربع سنوات.

وخلاصة القول في تحديد الوقت هو أننا «لا نعلم بالضبط والتأكد كيف فكر الرشيد بقتل جعفر؟ وكيف انتهى به الأمر إلى ذلك؟ إن هناك صعوبة ولا ريب في كشف الأمر، فهارون قد استمرَّ بقية حياته وهو غير نادم على نكبتهم، فهو لم يطلق سراحهم حتى بعد أن قتل جعفر بزمن بعيد»[4].

٤- اضطراب المؤرِّخين في أسباب النكبة

كان الغموض الذي أحاط بنكبة البرامكة دافعا لاجتهاد الأذهان في التفسير، وكعادة الناس: فمنهم من اجتهد بما أطاق ومنهم من اجتهد ليخدم دوافعه وميوله واتجاهه ومذهبه.

وإذا جمعنا ما فاضت به جعبة المؤرِّخين والباحثين في هذا فتلك هي أسبابهم ودلائلهم عليها:

أولاً: الشعوبية والتعصب للفرس

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٢٤، ٣٢٥.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٥٢، ١٥٣.
(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٨٨.
(٤) د. يوسف العش: تأريخ عصر الخلافة العباسية ص٧٠.

وأقوى ما ورد في هذه التهمة ما ذكره ابن قتيبة «كانوا (البرامكة) يرمون بالزندقة إلا من عصم الله تعالى منهم»، وذكر في ذلك قول الأصمعي:

إذا ذكـــــر الشرــــــك في مجلـــــس ... أضـــاءت وجـــوه بنـــي برمـــك

ولــــو تليــــت بيـــــنهم آيـــــة ... أتـــوا بالأحاديـــث مـــن مـــزدك[1]

وباقي ما ورد فيها لا يقوم بالتهمة، بل هو ضغط من الباحثين على الروايات لتؤدي هذا المعنى، فقد استدلوا بتقديم يحيى بن خالد الفضلَ بن سهل للمأمون، والفضل رجل لا مطعن في كفاءته الإدارية، أو بكراهة محمد بن الليث «لأن فيه ميلا عن العجم»[2] فهو رد فعل تلقائي طبيعي والمستغرب هو العكس، أو اتهامهم يزيد بن مزيد الشيباني بالتقصير في حرب الخارجي الوليد بن طريف[3] فليس ثمة ما يدل على أنه بدافع شعوبي، بل قد يكون حقا، وقد يكون سوء تقدير، وقد يكونون أرادوا النصيحة للرشيد، فالوليد ويزيد من ذات الرحم، ومثل هذا في العادة يُتهم ويظن به السوء.

وفي النفس شيء من قول الأصمعي هذا، فإذا سلمنا بصحَّة الرواية - وقد رواها ابن قتيبة بغير إسناد- فهو منفرد بها، كما أن هذه الأبيات منسوبة -أيضًا- من سند متصل إلى أبي الهول، فقد رواها أبو القاسم الزَجَّاجي[4] عن المبرد قال: «شعراء ثلاثة احترفت أشعارهم وكلهم من حمير، المسند ويحيى بن نوفل وأبو الهول. فجلس الفضل بن يحيى البرمكي بالنهروان مجلسًا غانيًا للشعر فتقدم إليه أبو الهول ينشده فقال: لست أسمع منك شيئًا من المديح أو تنشدني مما هجوتنا به، فأبى عليه فأقسم عليه ليفعلن فأنشأ يقول...، وأنشد الأبيات المذكورة ثم أنشد بعدها أبياتًا في المدح[5]. فهذا فعل شاعر لا يؤخذ من قوله ولا يعتد به.

ويستحيل أن يكون هذا سلوك البرامكة في المجالس ثم لا يكون مشهورا، بل نلتمسه في الألفاظ المنزوية بين الروايات ثم نلوي أعناقها لتؤدي إلى التهمة، وكيف يكون هذا سلوكهم في المجالس بعد عصر المهدي والهادي حيث الحرب على الزنادقة والمزدكية؟! ثم أين تنديد

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ١١٣، والمعارف ص٣٨٢، ومزدك: صاحب الديانة المزدكية عندهم قبل الإسلام.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص١٥٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٠٢.

(٤) وهو من أعلام اللغة، وبغدادي، ويرفض الذهبي تهمة تشيعه في سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٧٦.

(٥) أبو القاسم الزجاجي: أخبار أبي القاسم الزجاجي ص١٤١.



العلماء بهذا إذا كانت هذه الأسرة تتولى الحكم؟!

كما أن سلوك البرامكة طوال عهد الرشيد ينفي هذه التهمة، فيحيى بن خالد الذي يكفي إمامًا في قامة ومقام سفيان بن عيينة حاجة الدنيا؟ حتى ليدعو له سفيان حين جاءه الكرب، ثم إن الفضل هو من مهد بيعة الأمين -وهو عربي- وقدمه على المأمون -ونصفه فارسي- وعفا يحيى بن خالد عن رءوس الفتنة القبلية في الشام وهم عرب ولو شاء لقتلهم بلا معاتب.

وعند الجهشياري -وهو مؤرِّخ عراقي متقدم- عدد من الروايات تصف سلوك يحيى وتدينه، فيما قبل المحنة أو بعدها، منها فيما قبل المحنة أنه كان في الطواف «فجعل يتعلق بأستار الكعبة ويردد هذا الدعاء: اللهم إن ذنوبي جمة لا يحصيها غيرك، ولا يعرفها سواك، اللهم إن كنت معاقبي فاجعل عقوبتي في هذه الدنيا وإن أحاط ذاك بسمعي وبصري ومالي وولدي حتى تبلغ مني رضاك»[1].

وروى الخطيب البغدادي فيما بعد المحنة سؤال جعفر بن يحيى[2] لأبيه وهم في القيود والحبس: «يا أبتِ بعد الأمر والنهى والأموال العظيمة أصارنا الدهر إلى القيود ولبس الصوف والحبس؟ قال يحيى: يا بنى دعوة مظلوم سرت بليل غفلنا عنها ولم يغفل الله عنها»[3].

وقد ارتاع الفضل بن يحيى لما شكَّ في أن رجلًا قد يكون ظُلِم من أحد رجاله دون أن يدري، وهذا فيما بعد الحبس والمحنة، روى الجهشياري أن «الفضل بن يحيى نقل من محبس كان فيه إلى محبس آخر، فوقف له بعض العامة، فدعا عليه، وأنه اضطرب من ذلك اضطرابًا لم ير مضطربًا قبله مثله في شيء من حوادث النكبة، وأنه قال لبعض مَنْ كان معه: أحب أن تلقى هذا الرجل، وتسأله عما دعاه إلى ما كان منه؟ وهل لحقه من بعض أسبابنا، على غير علم منا، ظلم فنتلافى ما خلا؟ فصار رسوله إليه، وسأله عما دعاه إلى ما كان منه، وهل لحقه ما يوجبه؟ قال: فقال: لا والله، ما لحقني ما أوجب ذلك، ولكن قيل لي: إن هؤلاء كلهم زنادقة. فلما عاد الرسول إليه بذلك قال: قد والله سريت عني، وفرجت ما بي، وأزلت ما لحقني»[4].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٠، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٧٥.

(٢) المظنون أنه يقصد الفضل بن يحيى لا جعفر، فجعفر قُتل، أما الفضل فهو من حبس مع أبيه.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ١٣١.

(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٠٨.

وأخيرًا فإن الرشيد استثنى محمد بن خالد وأهله من نكبته لأبيه وأخويه، ولو كان الأمر تهمة الفارسية أو الشعوبية ما كان استثناه منه.

إن هذه التهمة تكاد تزول من كتب التاريخ المتأخرة التي عنيت بجمع الروايات المتناسقة لا حشدها -كما هو سلوك المؤرِّخين الرواد- ولم تتجدد إلا في كتب المؤرِّخين القوميين العراقيين ثم اشتعلت في أجواء الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ - ١٩٨٨م)، ثم دخلت إلى بحوث ومؤلفات الإسلاميين مع الصراع المعاصر بين السنة والشيعة الذين تمثلهم إيران، فأعاد هؤلاء جميعًا استخدام هذه الروايات في معرض بحث جذور الصراع (العربي - الفارسي) أو (السني - الشيعي).

ثانيًا: سعة النفوذ والجاه

فلقد صار البرامكة أوسع من الخليفة وأهل بيته أموالًا وبيوتًا وقصورًا وثروة، ولا ريب أن مثل هذا يؤدي إلى الطغيان لأهله كما يُثير ضدهم الحسد والحقد ويشعل قلوب الواشين الذين لا يجتمعون في مكان كما يجتمعون في بلاط الملوك.

يلخص ابن خلدون هذا بقوله:

«إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجافهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسًا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم، وفكوا العاني، ومدحوا بما لم يمدح به

خليفتهم، وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة، وأغصوا أهل الولاية؛ فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم، ولا وزعتهم أواصر القرابة، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة، وكان الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن»[1].

وتفيض الروايات بمدى الأموال التي حازها البرامكة وكيف أن الرشيد نفسه لم يكن يجد في بعض الأحيان ما يطلبه من الأموال، أو ما يقرره كعطاء لزائر أو شاعر أو نحو ذلك فلا ينفذ رأيه، وفي بعض هذه الروايات مبالغات لا تصدق.

وقيل إنّ جعفرًا والفضل ابني يحيى بن خالد، ظهر منهما من الإدلال ما لا تحتمله نفوس الملوك، فنكبهم الرشيد لذلك[2].

ويبدو هذا أقرب الأسباب إلى الواقع، فالغنى وسعة النفوذ يؤديان إلى الاستكثار من الأموال والديار والقصور والبساتين، وهذا يزيد في تقرب الناس منهم وتزلفهم إليه، فإذا كانوا أصحاب جاه وسلطان وقرب من الخليفة يجعلهم أصحاب تفويض وتصرف في الدولة فإنهم يقضون الحاجات فيزدادون علوا ومكانة، وهكذا.

وهذه الدائرة تولد دائرة أخرى لدى الخصوم والأعداء والحاسدين، فما من قوم إلا ولهم عدو وحاسد، ثم إن هؤلاء يعملون على السعي بهم لدى الخليفة الذي يرى بنفسه أن الأمر يكاد يفلت من يده، وإذا كان أمر المُلك مما يقتل فيه الرجل ابنه وأباه وأخاه فكيف بمواليه ورجال دولته وصنائعه؟!

وفي مثل هذا المعنى يقول اليافعي: «ما كان من البرامكة جناية توجب غضب الرشيد ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول. ولقد استطال الناس الذي هم خير الناس أيام

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ١٥، ١٦.
(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٠٨.

عمر بن الخطاب وما رأوا مثلها عدلًا وأمانًا وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان فقتلوهما ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم وآمالهم فيهم ونظرهم إليهم دونه أو كما قيل وللملوك تنافس بأقل من هذا فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الإدلال خصوصًا جعفر والفضل دون يحيى»[1].

وأبرز ما يُروى دليلًا على هذا التطور الهادئ ما ذكره طبيب الرشيد بختيشوع، قال: دخلت يومًا على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد من مدينة السّلام، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة، قال: فنظر الرّشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد، فقال: جزى الله يحيى خيرا! تصدَّى للأمور وأراحني من الكدّ، ووفّر أوقاتي على اللّذة، ثم دخلت إليه بعد أوقات وقد شرع يتغيَّر عليهم، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال: استبدّ يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلاّ اسمها؟ قال: فعلمت أنّه سينكبهم ثمّ نكبهم عقيب ذلك»[2].

ثالثًا: الميل إلى العلويين

وذلك لأن جعفر بن يحيى أخرج من السجن العلوي الثائر يحيى بن عبد الله الذي كان أخوه الفضل قد أخمد ثورته سلما في بلاد الديلم ثم استقبله الرشيد ثم تغير عليه فحبسه، وهذه الرواية ينسبها الطبري إلى أبي محمد اليزيدي الذي «كان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم، قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه». وخلاصة الرواية أن يحيى بن عبد الله ترجاه أن يطلقه وقال له: «اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمد فوالله ما أحدثت حدثًا ولا أويت محدثًا». فتعاطف معه جعفر فأخرجه من السجن سرًّا وأوصله في حراسة خاصة إلى مأمنه، وتسرب الخبر إلى الفضل بن الربيع حاجب الرشيد فأفضى به إلى الرشيد الذي اصطنع أنه قد أمر بهذا، ثم استدعى الرشيد جعفرًا فقال له: «ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال. قال: بحياتي؟ فأحجم جعفر -وكان من أدق الخلق ذهنًا وأصحهم فكرًا- وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره فقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان ١/ ٤١٠.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٠٧.

وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. فقال الرشيد: نِعْم ما فعلت، ما عَدَوْتَ ما كان في نفسي. فلما خرج (جعفر) أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك»(١).

وهذه الرواية لا تفيد الميل إلى العلويين بقدر ما تفيد سعة الجاه والنفوذ والتصرف في الدولة بغير الرجوع إلى الرشيد، فهي إلى السبب السابق أقرب.

رابعًا: تحريض الخراسانيين

وهذا السبب استند إلى رواية تنفي بنفسها أن يكون سببًا، لكن بعض الذين جمعوا كل الأسباب حشدوها مع ما حشدوا وكأنما تصلح أن تكون سببًا.

يروي الطبري أن علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان، وكان من خصوم البرامكة، أرسل إلى الرشيد أنه اكتشف مخططا يقوده موسى بن يحيى البرمكي لتحريض الخراسانيين على العصيان وأنه يرتب لوقت سيهرب فيه من بغداد ليقود الثورة الخراسانية، فأوجس الرشيد خيفة من هذا لا سيما وأن موسى أحد الفرسان الشجعان، ثم اتفق هذا مع اختفاء موسى من قوم لهم عليه ديون فاشتد شك الرشيد، فلما علم موسى بهذا لحق بالرشيد في الحج الذي بايع فيه للأمين والمأمون، فأمر الرشيد بحبسه ثم ما لبث أن أطلقه بعد شفاعة أمه وكفالة أبيه ورضي عنه وخلع عليه(٢).

خامسًا: قصة العباسة

وهي قصة منهارة متهافتة، خلاصتها أن الرشيد كان يحبُّ مجالسة جعفر كما يحبُّ مجالسة أخته العباسة، فكانت العباسة تجلس في مجلسه من وراء ستار، فلا هو مرتاح باحتجابها ولا هي كذلك، ولكي تكتمل للرشيد لذته أخبر جعفر بأنه سيزوجه إياها ليحل لها الجلوس معهم بغير حجاب على ألا يتعدى علاقته بها النظر فحسب، لكن العباسة وقعت في حب جعفر أو سَكِرت معه فحملت منه، فولدت غلاما، فأرسلته إلى مكة خوفًا من الرشيد، ثم إن إحدى جواريها أذاعت السر إلى زبيدة التي نقلته إلى الرشيد فاشتاط غضبًا، وظل يتعقب أثر

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٥٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٠.

الغلام حتى تأكد من صحَّة القصة، ثم تأكد بنفسه حين كان في الحج، فما إن رجع حتى قتل جعفر وبطش بالبرامكة!

وتنهار هذه القصة أمام استحضار روح العصر، كما يقول ابن خلدون الذي كان أشد من هاجم الرواية وعدَّها من أوهام المؤرِّخين واحتقرها، فلا هارون يمكن أن يسمح بزواج كهذا طرفاه مولى فارسي لواحدة من صميم النسل الهاشمي، ولا العباسة في مثل شرفها وعزتها في النسب والملك بالتي يمكن أن تفعل مثل هذا، ويستحيل أن تتملك لذة هارون على نفسه حتى يخترع هذا الحل العجيب الظلوم لهما، ثم هو إن كان فعل فيستحيل أن يتركهما في خلوة، يقول ابن خلدون: «وهيهات ذلك من منصب العبّاسة في دينها وأبويها وجلالها وأنّها بنت عبد الله بن عبّاس ليس بينها وبينه إلاّ أربعة رجال هم أشراف الدّين وعظماء الملَّة من بعده... ابنة خليفة، أخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النّبويَّة وصحبة الرّسول وعمومته وإقامة الملَّة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبيَّة وسذاجة[1] الدّين البعيدة عن عوائد التّرف ومراتع الفواحش، فأين يطلب الصّون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطّهارة والزكاء إذا فُقِدا من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنّس شرفها العربيّ بمولى من موالي العجم؟.. ولو نظر المتأمّل في ذلك نظر المنصف وقاس العبّاسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولجّ في تكذيبه وأين قدر العبّاسة والرّشيد من الناس»[2].

ثم إن القصة تنهار مرة أخرى أمام حقيقة أن العباسة كانت متزوجة من محمد بن سليمان، فمات عنها فتزوّجها إبراهيم بن صالح بن عليّ[3].

٥- التحليل والترجيح

الباحثون والمؤرِّخون بين ثلاثة أنواع: أحدهم جمع كل ما وقع تحت يده من أسباب ودعمها بكل ما وقع تحت يده من روايات توحي ولو من بعيد بسبب، ثم وضعها كلها إلى جوار بعض فكان كحاطب ليل جمع الغث والسمين والصالح والتالف، والثاني: تحركت فيه

(١) سذاجة: المراد بها نقاء.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ١٥.

(٣) ابن قتيبة: المعارف ١/ ٣٨٠.

ميوله المذهبية أو الفكرية أو القومية فأخذ من الأسباب والروايات ما يدعمها؛ فمَنْ كان همه المتعة والظرف أو الإساءة والتشويه أمسك بقصة العباسة وجعفر وبالروايات المثيرة وضاعت معه الحقيقة[١]، ومَنْ كان همُّه الانتصار للشيعة أو السنة في إطار الصراع المعاصر اتخذها ليثبت إخلاص البرامكة للفرس فينعي على الرشيد قسوته أو يراه بطلا بحسب الموقف والمذهب، ومثله فعل مَنْ كان يرى الصراع قوميًّا عرقيًّا بين العرب والفرس، والثالث: اجتهد لكي يحقِّق ويتحقق وقليل ما هم فخرجوا بما هو نافع مصفى يؤخذ منه ويرد مع التقدير الوافر لمجهودهم المبذول.

ومن خلال العرض الذي قمنا به[٢]، نستطيع أن نستبعد نهائيًّا كلًا من: قصة العباسية، وتهمة الزندقة، وأن نستبعد إلى حدٍّ كبير تهمة تحريض الخراسانيين، فلا يبقى من سبب واقعي يتفق مع عرض التاريخ ويجمع بين الكم الكبير من الروايات إلا سبب اتِّساع الجاه والنفوذ وهو مما أشعل الحساد والأعداء فسعوا به عند الخليفة الذي رأى ما لا تحتمله نفوس الملوك بتعبير ابن الطقطقي!

وعند أي تحليل لا بُدَّ من مطالعة الروايات سندا ومتنا، وقد كانت التعليقات السابقة من قبيل نقد المتن إما نقدًا داخليًّا للرواية أو بمقارنة الروايات بعضها ببعض، وكان الدافع لهذا أن كل الروايات تقريبًا لا تتصل سندًا وفيها انقطاع طويل ومجاهيل مما يجعل السند ساقطًا غير معتد به.

ثم ذهبنا إلى كتاب (صحيح وضعيف تاريخ الطبري) للأستاذ المحقق محمد بن طاهر البرزنجي والذي قام بجهد خالد - إن شاء الله - في تنقية روايات الطبري من خلال فحص السند وبالضوابط المتساهلة التي لا يشترطها المحدِّثون للحديث الشريف، فوجدناه يقول:

«لقد أورد الطبري أخبارًا عدة فيها يتعلق بالأسباب المباشرة وغير المباشرة لنكبة البرامكة وقتل جعفر إلَّا أنها مسلسلة بالمجاهيل فضلًا عن الانقطاع أو الإعضال، والمعروف عن

---

(١) مثل جرجي زيدان الذي اتخذ من هذه القصة رواية وضعها في سلسلته «روايات تاريخ الإسلام» بعنوان: «العباسة أخت الرشيد»، وكان كعادته سيئا مغرضا قاصدا لتشويه التاريخ الإسلامي. وأفرد لها نصراني آخر هو الأب أنطون رباط اليسوعي رواية بعنوان «الرشيد والبرامكة»، وهذه الأخيرة لم أقع عليها واستفدتها من د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١٢٨.

(٢) ونحسب أن هذا العرض هو أفضل ما يمكن القيام به في إطار كتاب لا يبغي التخصص ولا الخوض في التفاصيل بل تقديم الصورة الواضحة للقارئ غير المتخصص، كما بينا هذا في «منهجنا في الكتاب».

الروايات التاريخية أنها إذا جاءت بهذه الأسانيد ففي متونها غرائب ومبالغات كثيرة... إلَّا أنَّ الروايات التاريخية (بمجموعها) الواردة في الباب تؤكد أن جعفرا أصبح منافسا للخليفة لما له من المكانة في قلوب الناس، بل أخذ يزاحمه في الإنفاق وإدارة الأمور حتى كاد يغلبه، ولقد أجاد العلامة ابن خلدون في إجمال تلك الأسباب» ثم أتى بروايات الخطيب البغدادي التي هي «أقرب إلى الصحَّة بكثير من أسانيد الطبري» وكلها دائرة حول اتِّساع الجاه والنفوذ وكثرة الأموال، ثم عاد ليقول: «ومع الأسف الشديد لم يذكر الطبري رواية مسندة موصولة ولو من مظان الحسن»، ثم انتهى إلى القول بما سبق وقلناه[1].

٦- حزن الناس والكُتاب على البرامكة

لقد خسرت الدولة بلا شك رجالا من طراز فريد، والمؤرِّخون بين من يبالغ في خسارة الدولة وانهيارها ويسمي البرامكة «زهرة الخلافة العباسية»، وبين من لا يرى أن الدولة خسرت كثيرًا ويعتبر أن تلك الأخبار من مبالغات الكُتَّاب الذين أرخوا لهذه الفترة وهم في العموم يتعصبون للبرامكة.

لكن الخسارة تبدو واضحة وجلية في خراسان على سبيل المثال، فخراسان التي تولاها علي بن عيسى بن ماهان من بعد الفضل بن يحيى عادت إلى اضطرابها وثورتها، إذ كان هم عيسى إرضاء الرشيد بالأموال ولو على حساب ظلم الناس والأعيان ووجوه القوم على عكس ما كانت سياسة الفضل التي تألف بها قلوب الناس[2]، وعلى الرغم من أن الرشيد لم يصدق أول الأمر مثل هذا؛ فإن اشتعال الثورات بعدئذٍ جعله يقول: «صدقني والله يحيى (بن خالد البرمكي) ونصح لي فلم أقبل منه»[3].

كما تبدت في إهمال أمور البريد والأخبار الواردة من الأنحاء، حتى ليُروى أن الرشيد مات وفي بيت البريد أربعة آلاف وثيقة لم تُقرأ[4]! ورغم أن الرقم يبدو مبالغا فيه غير قابل للتصديق إلا أن انهيار أسرة محترفة في الإدارة والتدبير يجعل انهيار بعض الإدارات واردا بقوة.

---

(١) محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٥/ ١٩٣ وما بعدها (قسم الصحيح).

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٣، ٦٧٤، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٨٠.

(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٨٠، ١٨١.

(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢١٤.



لكنها بكل تأكيد خسارة لم تقترب من انهيار الدولة، بل ظل الرشيد من بعدهم يغزو ويحج ويقيم أمر الدولة حتى مات بعد نكبتهم بسبع سنوات!

لكن نكبة البرامكة كان لها أثر بعيد عند الناس، وسالت الروايات والأشعار تحكي تفجعهم فيهم وحزنهم عليهم، فهذا الرقاشي يقول عن يوم النكبة: السبت الأول من صفر:

أيا سبتُ يا شر السُّبوت صبيحة ... ويا صَفَرُ المشئوم ما جئتَ أشأما

أتى السبت بالأمر الذي هدَّ ركننا ... وفي صفر جاء البلاء مصمَّمًا[١]

وقيل أيضًا:

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي[٢]

فقل للمطايا قد أمنت من السرى ... وطي الفيافي فدفدا بعد فدفد[٣]

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفري من بعده بمسود

وقل للعطايا بعد فضل تعطلي ... وقل للرزايا كل يوم تجددي

ودونك سيفًا برمكيا مهندا ... أصيب بسيف هاشمي مهند

بل تمنى بعض الشعراء أن لو طاف بقبره لولا مخافته أن يبلغ الخليفة بهذا فقال:

أما والله لولا قول واش ... وعين للخليفة لا تنام

لَطُفْنَا حول جذعك واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلام

على الدنيا وساكنها جميعًا ... ودولة آل برمك السلام[٤]

ولقد كان هذا حتى في رجال القصر، فهذا إبراهيم بن عثمان بن نهيك كان يكثر البكاء وإظهار الحزن على البرامكة، ولا سيما على جعفر، ثم تطور به الحال إلى تمني الأخذ بثأرهم، فوصل الخبر إلى الرشيد، فأحب أن يتوثق مما بلغه، فهيأ له مجلس سمر وطعام ثم قال له:

– يا إبراهيم كيف أنت وموضع السر منك؟

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٤.

(٢) أي: الآن لن يخرج أحد على دابة أو في سفر لينال شيئًا من كرم البرامكة.

(٣) أي: لتسترح الدواب من السفر والخروج وطي الصحاري لتقدم على البرامكة.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٤، ٦٦٥.

– قال: يا سيدي إنما أنا كأخص عبيدك وأطوع خدمك.

– قال: إن في نفسي أمرا أريد أن أودعكه وقد ضاق صدري به وأسهرت به ليلي.

– قال: يا سيدي إذا لا يرجع عني إليك أبدًا، وأخفيه عن جنبي أن يعلمه ونفسي أن تذيعه.

– قال: ويحك إني ندمت على قتل جعفر بن يحيى ندامة ما أُحْسِن أن أصفها، فوددت أني خرجت من ملكي وأنه كان بقي لي، فما وجدت طعم النوم منذ فارقته ولا لذة العيش منذ قتلته.

فلما سمعها إبراهيم أسبل دمعه وأذرى عبرته وقال:

– رحم الله أبا الفضل وتجاوز عنه والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله وأوطأت العشوة(١) في أمره وأين يوجد في الدنيا مثله وقد كان منقطع القرين في الناس أجمعين.

– فقال الرشيد: قم عليك لعنة الله يابن اللخناء فقام ما يعقل ما يطأ، ثم قتله(٢).

ومما يُثير التأمل حقًّا أن الرشيد على الرغم من طول المدة لم يرق ولم يحسن من أحوالهم، بل على العكس، فإنه لما بلغته وشاية أن ابن عم أبيه عبد الملك بن صالح يدبر لنفسه ليكون خليفة حبسه، ولما حبسه ضيق على يحيى وابنه الفضل من بعد ما كان سجنهما فيه سعة ومعهم بعض الخدم، ثم حاول بالترهيب انتزاع أي معلومة تكشف مؤامرة عبد الملك بن صالح إلَّا أنَّ يحيى نفى علمه بهذا تمامًا حتى بعد أن هدد بقتل ابنه الفضل، وكانت تأتيهم منه رسائل فظة نسبها الطبري إلى فعل الوشاة والحاسدين(٣)؛ حتى إن يحيى لما كتب رسالة يذكر فيها سوابقه في خدمة الخليفة والدولة أجاب الرشيد بقوله: «إنما مثلك يا يحيى ما قال الله ﷻ: **﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** [النحل: ١١٢](٤).

وبقي الفضل بن يحيى في السجن حتى مرض ومات (المحرم ١٩٣هـ)(٥).

النهضة والرخاء في عهد الرشيد

(١) العشوة: هو الإسراع وارتكاب الفعل بدون تبيُّن. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٦٠٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٠، ٦٧١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٧، ٦٦٨.
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٥٣، ١٥٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣.

اكتسب الرشيد سمعته التاريخية ورويت عنه الأساطير لما بلغه ذلك العهد من رفاه ورخاء! وقد كتب في هذا الشأن مؤلفات متخصِّصة ما بين بحوث علمية جادة وأقاصيص خيالية جامحة، وها هو الزعيم الهندي المعروف جواهر لال نهرو يرسم صورة سريعة لعهد الرشيد بعد اثني عشر قرنًا لقومه الهنود، يقول: «إن المدينة التي ازدهرت في أيام الخلفاء العباسيين هي مدينة ألف ليلة وليلة، كانت مدينة فسيحة تزخر بالقصور، والمحلات العامة، والمدارس والكليات، والأسواق، والمتنزهات، والحدائق الغنَّاء، وكان تجارها يتعاملون مع بلدان الشرق والغرب، وكان لها جيش عرمرم من الموظفين، الذين يُراقبون جميع أطراف الإمبراطورية، وكلما تعقَّدت شئون الإدارة قسمت إلى إدارات عديدة، وربطت جميع أنحاء الإمبراطورية بالعاصمة بنظام البريد، وانتشرت المستشفيات، وأمَّها الزوار من مختلف أقطار العالم، وخصوصًا العلماء وطلاب العلم والفنانين»(١).

ونحن نشير إلى هذه النهضة بما يسمح به المقام عبر ثلاث نقاط: كثرة الأموال، كفاءة الرجال، تألق بغداد.

١- كثرة الأموال

ربما يكفي للدلالة على مبلغ النهضة والرخاء في عهد الرشيد أن نراجع روايات البرامكة وحدهم، فإنها تتحدَّث عن إنفاق هائل غزير كأنما يغرفون من بحر لا ينضب فهم ينفقون إنفاق من لا يخشى الفقر! على أننا لن نتحدَّث عن إنفاقهم في السطور القادمة فقد ألمحنا إليه قبل قليل بل سنركز على إنفاق الرشيد وحده.

لقد كان دخل البرامكة سنويًّا عشرين مليون درهم، وكان الذي حازه الرشيد من أموالهم عند نكبتهم ٣٠٦٧٦٠٠٠ (ثلاثين مليونًا وستمائة وستة وسبعين ألف درهم)، بخلاف الضياع والقصور والتحف والأملاك(٢).

لكن الجهشياري أمدنا بقائمة للواردات في عهد الرشيد ثم حسبها لنا فإذا هي (٥٣٠٣١٢٠٠٠ = خمسمائة وثلاثون مليونا وثلاثمائة واثنا عشر ألف درهم)(٣)، وهو مبلغ

(١) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم ص٣٤.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٢٧ وما بعدها.

ضخم!!

وقد كان عهد الرشيد ميمونا منذ بدايته، فقد أمر في أول عهده (١٧٠هـ) بإجراء القمح على أهل الحرمين، وحمله من مصر إليهم، وأجرى على المهاجرين والأنصار، وعلى وجوه أهل الأمصار، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات، واتخذ كتاتيب لليتامى[١]، وأسقط عن أهل العراق ضريبة العشر التي كانت تؤخذ منهم بعد النصف (١٧٢هـ)[٢]، وفي حجته (١٧٤هـ) فرق على الناس أموالًا كثيرة لا سيما أهل المدينة، وفي حجة (١٨٦هـ) وزع الأموال ثلاث مرات؛ مرة منه ومرة من ابنه الأمين ومرة من ابنه المأمون، وبدأ بالمدينة ثم سار إلى مكة فكان ما أنفقه فيها مليونا وخمسين ألف دينار، والمسار ذاته تكرر في حجة (١٨٨هـ) إذ سار إلى المدينة فأعطاهم نصف العطاء وأنفق أموالًا طائلة[٣].

وأضاف الرشيد إلى آثار الخلفاء قصرا في بلدة قردي وبازبدي[٤]، وهي مصيف تابعة لديار ربيعة في الجزيرة الفراتية (١٧٤هـ)، وبنى بعض المنازل في الحيرة (١٨٠هـ) وكان ينوي أن يسكنها هو ورجال الدولة لكن الكوفة وأهلها لم يكونوا مصدر أمان فتوقف إعمار هذه المنطقة ثم استقرَّ أمره على الرقة فيما بعد، وقد ذكرنا سابقا طرفا من بناء الرقة وعمارتها[٥].

٢- كفاءة الرجال

لقد كان رجال دولة الرشيد من الطراز الأول لرجال الدولة، كفاءة واقتدارا!

فهذا القاضي عافية بن يزيد بن قيس قاضي الجهة الشرقية من بغداد في عهد المهدي والرشيد شكاه بعضهم إلى الرشيد فاستدعاه إلى مجلسه، قال الأصمعي: «كان في المجلس جمع كثير فجعل أمير المؤمنين يخاطبه ويوقفه على ما رفع إليه، وطال المجلس، ثم إن أمير المؤمنين عطس فشمته مَنْ كان بالحضرة ممن قرب منه سواه؛ فإنه لم يشمته، فقال له الرشيد: ما بالك لم تشمتني كما فعل القوم؟ فقال له عافية: لأنك يا أمير المؤمنين لم تحمد الله؛ فلذلك لم أشمتك،

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٣٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٢.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٥، ٦٥٠، ٦٧٢.
(٤) قردي وبازبدي قريتان بينهما نهر دجلة، الأولى في شرقه والثانية في غربه، وهي قريبة من قرية الجودي التي يقال إنها التي رست عليها سفينة نوح عليه السلام، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٣٢١، وابن الجوزي: المنتظم ١/ ٤١٠، وهي الآن في محافظة شرناق في الجنوب الشرقي لتركيا.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٥، ٦٤٤.

هذا النبي عطس عنده رجلان فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال: يا رسول الله؛ ما لك شمت ذلك ولم تشمتني؟! قال: «**لِأَنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ فَشَمَّتْنَاهُ، وَأَنْتَ فَلَمْ تَحْمَدْهُ فَلَمْ أُشَمِّتْكَ**». فقال له الرشيد: ارجع إلى عملك، أنت لم تسامح في عطسة تسامح في غيرها؟! وصرفه منصرفًا جميلًا وزَبَر[1] القوم الذين كانوا رفعوا عليه»[2].

وأما قاضي القضاة فهو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم التلميذ الأول للإمام أبي حنيفة والرجل الثاني في المذهب الحنفي، وهو الذي وضع كتاب «الخراج» ليكون قانون الدولة في إدارة الأموال وجبايتها، فانضبط بهذا أمر جمع المال وإدارته، مما أورث البلاد ثروات هائلة.

ولما تُوُفِّيَ تولَّى المنصب محمد بن الحسن الشيباني وهو تلميذ أبي حنيفة والرجل الثالث في المذهب الحنفي ومن تلاميذ الإمام مالك -أيضًا- وصاحب الإمام الشافعي.

ونجد في مجالس الرشيد من العلماء والأدباء أفذاذ الدنيا كالأصمعي لسان العرب ونادرة الزمان في الحفظ وعلم اللغة، والكسائي، والمفضل الضبي.

وأما الوزراء فقد كانوا الأسرة البرمكية أول الأمر وهم ممن شهد لهم الجميع بالكفاءة وحسن السياسة والإدارة، وممن أغرقوا الناس عامتهم وخاصتهم بكرمهم.

وكذلك كان قادته العسكريون أبطالا أفذاذا لا يشق لهم غبار، قاتلوا في الغرب والشرق، وفي البر والبحر فلم يكادوا يرون الهزيمة إلا نادرا ثم سرعان ما كانوا يردونها بنصر عزيز مؤزر، فخضعت له بذلك دولة الروم غربًا وأمراء الترك الديلم شرقًا وملوك الخزر شمالًا، وحتى البحار جنوبًا!

وطبيعي أن تكون النتيجة نهضة ورخاء يعم البلاد، إن لم يكن بالحكمة في المشورة، فبالتنافس في الخيرات، يقول مؤرِّخ الحضارة ول ديورانت: «لسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوي العقول الراجحة النابهين. وكان يعاصره في غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة في القسطنطينية، والملك شارلمان في فرنسا، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung، ولكن هارون الرشيد بزهم جميعًا في

(١) زبر: أي انتهر وزجر. المعجم الوسيط ١/ ٣٨٨.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٢/ ٣٠٩، وابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٥٣.

الثراء، والسلطان، وأبهة الملك، والتقدم الثقافي الذي ازدان به حكمه، غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك. فقد كان يشترك اشتراكًا فعليًا في تصريف شئون الحكم، ونال شهرة واسعة بعدله في قضائه، وترك الخزانة عند وفاته عامرة بالمال فيها ٤٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار-على الرغم من أبهة الملك التي لم يسبق لها مثيل»[١].

٣- تألق بغداد

وقد بلغت بغداد أوج تألقها في عهده كما يقول الخطيب البغدادي عنها: «وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد إذ الدنيا قارَّة المضاجع، دارَّة المراضع، خصيبة المراتع، مورودة المشارع»[٢]. حتى إن الشافعي -وقد عاش زمن الرشيد- سأل يونس بن عبد الأعلى: دخلت بغداد؟ فقال: لا، فقال: ما رأيتَ الدنيا ولا الناس[٣]، بل إن أميرًا من بني العباس أنفسهم، وهو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، اندهش من كثرة الناس في بغداد وقال: «ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة إلا ظننت أن الناس قد نودي فيهم»[٤].

وعلى الرغم مما كتبه المؤرِّخون المسلمون في بغداد الزاهرة؛ فإننا آثرنا نقل بعض ما كتبه الباحثون والمؤرِّخون والمستشرقون من غير المسلمين:

يقول مؤرِّخ الحضارة ول ديورانت: «يمكن القول بوجه عام: إن المجتمع الإسلامي كان مجتمعًا ذا أدبٍ راقٍ إلى أقصى حدود الرقي... كان من المظاهر التي تَشْرُف بها الحياة في بغداد أن الفنون والعلوم التي لا يُحَرِّمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يُشَجِّعها ويأخذ بناصرها، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة في جميع الأنحاء، وأن الهواء كان يُرَدِّدُ أصداء الشعراء»[٥].

ويقول المستشرق الأمريكي -لبناني الأصل- فيليب حتي: «في أيام هارون الرشيد أصبحت بغداد مركزًا للغنى الباذخ والأهمِّيَّة العالمية، ولم يكن مضى على تأسيسها نصف قرن، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطة، وكان مجدها متناسبًا مع الإمبراطورية التي كانت هي

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٩٢.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ١١٩.
(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٤٦٣.
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٤٦٢.
(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٦٥.

عاصمتها حتى قيل: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير»[١].

ويقول المستشرق الفرنسي دومينيك سورديل: «كانت العاصمة الخليفية (بغداد) خلال حقبة قصيرة المركز الوحيد[٢] للثقافة؛ إليها توافد الشعراء حتى من الأقاليم البعيدة يقدمون المدائح، وهنا تجمع الفنانون والحرفيون للعمل في البناء أو في الزينة للصروح الضخمة وكذلك لصنع التحف والملابس، وهنا -أيضًا- التقى العلماء والكُتَّاب الأكثر شهرة»[٣].

ويبدو المستشرق الفرنسي جاك ريسلر عاجزا وهو يعلن: «من الصعب جدًّا أن نذكر، بكلمات، روعة البلاط الملكي وفخامة الخلفاء؛ حتى إن جلال وبهاء البلاطات الفارسية والبيزنطية كانا يعجزان عن إعطاء فكرة عن تلك الفخامة»[٤].

بيت الحكمة

أصبحت بغداد في عهد الرشيد كعبة العلم والأدب ومركز التجارة والصناعة، وظهر في أيامه شعراء عظام من أمثال أبي العتاهية والعباس بن الأحنف ومروان بن أبي حفصة، ومؤرِّخون من أمثال الأصمعي والواقدي وغيرهم كثير، فاتجه الرشيد إلى إخراج الكتب والمخطوطات التي كانت تحفظ في جدران قصر الخلافة بعد أن تضخم رصيدها من التراث المدون، والمخطوطات المؤلفة والمترجمة، لتكون مكتبة عامة مفتوحة الأبواب للدارسين وطلاب العلم، وبدأ فأسس دارا رحبة فخمة نقل إليها كل الذخائر وسماها «بيت الحكمة»[٥].

وبالنظر إلى بيت الحكمة من خلال أنشطته اللغوية ومجالاته العلمية المختلفة يتبيَّن لنا أن هذه المؤسسة تمثل بحقّ أول مجمع للغة العربية، وفق المفهوم المعاصر للمجامع اللغوية، مع مراعاة الاختلاف في الظروف والأحوال. فقد كان بيت الحكمة يضم علماء من تخصصات مختلفة، منهم الطبيب والمهندس، ومنهم الفلكيّ واللغوي. وكانت اللغة العربية آنذاك تتعامل مع حصيلة ما وصل إليه الفكر الإنساني في جميع مجالات المعرفة، عن طريق اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والهندية القديمة، وكذلك اللاتينية، ولا سيما في بلاد الأندلس، ولعلّ تأسيس المجامع

(١) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز ص١١٦.
(٢) هي بالقطع لم تكن المركز الوحيد، ولكن ربما زل لسانه بالمبالغة.
(٣) دومينيك سورديل: الإسلام ص١٩٥.
(٤) جاك ريسلر: الحضارة العربية ص١٤٢.
(٥) د. خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٩.



اللغوية في أوربا ابتداء من عصر النهضة هناك، قد تأثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة بتلك المؤسَّسات العلمية واللغوية التي ازدهرت في بلاد الأندلس وإفريقية (تونس) وصقليَّة[١].

وسيكون لبيت الحكمة هذا أثر بعيد على العقل العربي وعلى العقل الإنساني جميعًا؛ فأما العقل العربي فقد أصبح -كما يقول عنه د. شوقي ضيف- «عقلًا متفلسفًا، كما أصبح عقلًا علميًّا، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضًا من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علومًا لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية»[٢].

وأما العقل الإنساني فإن المؤرِّخ الإنجليزي هـ. ج. ويلز يبدو منبهرا وهو يتحدَّث عن الأثر الكبير «في العقل الإنساني وفي المصائر العامة لجنسنا البشري؛ لقد قذفت المقادير بالذكاء العربي في طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليوناني قبل ذلك بألف سنة خلت، لذا عظمت إلى أقصى حد الاستثارة الفكرية التي أحدثها وجودها للعالم أجمع غربي بلاد الصين، كما اشتد تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة... كان العلم يثب على قدميه وثبا في كل موضع وطئته قدم الفاتح العربي»[٣].

ومات الرشيد وبيت الحكمة زينة بغداد عاصمة الإسلام[٤].

ولاية العهـــــــد

لم يكن للرشيد حين تولى الخلافة ولي عهد، بل لم يكن له أبناء، ذلك أن ابنه عبد الله المأمون -أكبرهم- وُلِد في ليلة توليه الخلافة، وبعدها بأيام وُلِد ابنه محمد الأمين من زوجته العربية الحرة زبيدة.

لذلك تطلع الكثيرون من أمراء البيت العباسي إلى أن يكون لهم ولاية العهد[٥]، وبالمقابل حرص الرشيد على أن يولي العهد إلى أحد أبنائه كي يقطع هذا الأمل الذي إن اشتد فإنه سيؤدي إلى أجنحة وصراعات داخل البيت العباسي، ثم نبت داخل قصر الرشيد خلاف آخر فهل يا ترى سيبايع لابنه الأكبر المأمون أم سيفضل عليه ابنه محمد الأمين وهو العربي أبًا

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «المجامع اللغوية»
(٢) د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول ص١١٧.
(٣) هـ. ج. ويلز: موجز تاريخ العالم ص٢٠٦.
(٤) د. خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٣١.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٦.



وأمًّا، وابن زوجته ......إلخ».

حين بلغ محمد خمس سنين (١٧٥هـ) أخذ له الرشيد ولاية العهد من بعده، وسماه الأمين، «وقد لقي الرشيد نقدًا من هذه البيعة لفتى صغير، ولكن يبدو أن ضغطا خضع له من زوجه زبيدة صاحبة الحظوة عنده، فهي ابنة عمه، وصاحبة دين وعقل، ومن العباسيين الذين يرون في هذا الغلام صلة لهم، فهو عباسي من ناحية الأب والأم، وكانت السرعة في هذه البيعة خوفًا من نزول حادث مفاجئ بالرشيد، ومن منازعة أخيه الأكبر (عبد الله المأمون) فإن البيعة وهما صغيران تحل المشكلة»[١].

وقد كان أول من اتخذ بيعته على الناس هو الفضل بن يحيى البرمكي حين كان في خراسان، ففي تلك الزيارة التي أنفق فيها الكثير من الأموال على الناس والجند وعمر فيها كثيرًا من المساجد والرباطات، نادى فيهم ببيعة الأمين فأجابوا وبايعوا الأمين، وكان هذا بمثابة التجربة لاستطلاع رأي الجناح الأهمّ في أهل الدعوة وهم الخراسانيون، فما إن بايعوا حتى كتب الرشيد إلى سائر الأمصار بالبيعة لمحمد[٢].

على أن الزمن كشف عن رأي آخر إذ توسم الرشيد النجابة والرجاحة في عبد الله المأمون، وكان يقول: إني لأتعرف في عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي، فلو أشاء أن أنسبه إلى الرابعة فيَّ لنسبته (لعلَّه قصد الكرم)، وإني لأرضى سيرته، وأحمد طريقته، واستحسن سياسته، وأرى قوته وذهنه، وآمن ضعفه ووهنه، وإني لأقدم محمدًا عليه، وأعلم أنه منقاد لهواه، متصرف في طريقه، مبذر لما حوته يده، مشارك للنساء والإماء في رأيه، ولولا أم جعفر وميل بني هاشم إليه لقدمت عبد الله عليه، ثم أنشأ يقول:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني ... غُلِبْتُ على الأمر الذي كان أحزما

وكيف يُرَدُّ الدر في الضرع بعدما ... تَوَزَّع حتى صار نهبا مقسما

أخاف التواء الأمر بعد استوائه ... وأن يُنْقَض الأمر الذي كان أُبْرِما[٣]

---

(١) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٨١.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٢٦.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٨٩، والمسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٣٥ (ط٢. الشركة العالمية للكتاب)، وابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٩، ١٠، والإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٨٧.

ولذا أخذ الرشيد البيعة لعبد الله المأمون عندما بلغ الثالثة عشرة (١٨٢هـ) ليكون وليًّا للعهد من بعد الأمين، وسَمَّاه المأمون، وكان ذلك بالرقة بعد عودته من الحج، ثم أرسله في صحبة رجال الدولة إلى بغداد لتؤخذ له البيعة بولاية العهد بعد أخيه، وولاَّه على الجناح الشرقي للدولة من همذان وإلى ما وراءها[١]، وقد عارضت زبيدة أن يكون رجال الدولة الأقوياء تابعين للمأمون وقالت للرشيد: «ما أنصفت ابنك محمدًا حيث وَلّيْته العراق وأعْرَيته عن العمد والقواد، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه، فقال لها: وما أنت وتميز الأعمال واختبار الرجال؟ إني وَلّيت ابنك السِّلْم، وعبد الله الحرب، وصاحب الحرب أحْوَجُ إلى الرجال من المسالم، ومع هذا فإنا نتخوف ابنك على عبد الله، ولا نتخوف عبد الله على ابنك إن بويع»[٢].

كان يقف خلف الأمين رجال العرب والعباسيين وأمه زبيدة زوجة الرشيد الحظية عنده، وكان يقف خلف المأمون رجال الفرس (لأن أم المأمون جارية فارسية) وأبرزهم البرامكة، وكان الرشيد قد ولَّى الأمين بلاد الشام والعراق، كما ولي المأمون بلاد خراسان من همذان حتى آخر المشرق، وهي ولايات أقرب ما تكون إلى الشرفية والتدريب على ممارسة الملك لأنهما كانا في الثالثة عشرة في ذلك الوقت.

وقد انتقل المأمون إلى بغداد وعاش في كنف جعفر بن يحيى البرمكي.

وبعد هذا بأربع سنوات وفي حج عام (١٨٦هـ)، بايع الرشيد لولده القاسم من بعد ولديه، ولقبه بالمؤتمن، وولاَّه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان هذا بفعل نصيحة من عبد الملك بن صالح الذي نشأ القاسم في رعايته، فقد أرسل عبد الملك يقول:

يا أيها الملك الذي	لو كان نجما كان سعدا
اعقدْ لقاسم بيعة	واقدحْ له في الملك زندا
الله فـــرد واحد	فاجعلْ ولاة العهد فردا[٣].

ولما قضى الرشيد حجه (١٨٦هـ) أحضر من معه من الأمراء ورجال الدولة وكبار البيت

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٤٦.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٣٦ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٦، والطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٥٠، ٦٥١.

العباسي، وأحضر وليي العهد محمدًا الأمين وعبد الله المأمون، وكتب بمضمون ذلك صحيفة متقنة اجتهد الفقهاء في صياغتها وضبطها وإحكامها بحيث لا يكون سبيل إلى ثغرة تُمكن أحد الأطراف -لا سيما محمد الأمين- من نقضها، ووقع عليها الأمراء ورجال الدولة[1].

ويبدو أن الرشيد قد خاف من صراعٍ بين الأخوين، والكتلتين العربية والفارسية من ورائهما، فأبرم بينهما عهودا مغلظة، وشهرها عند الكعبة في حج (١٨٨هـ)، كما كلّف ولده القاسم مع عبد الملك بن صالح بحماية الثغور، وأخذ البيعة للقاسم المؤتمن من بعد المأمون، وأعطى الخيار للمأمون عند تولّيه الخلافة إن شاء أقرّه، وإن شاء خلعه وولاه الجزيرة والثغور والعواصم.

يقول ابن الأثير: «وهذا من العجائب فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجده المنصور بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هو بعد ذلك يبايع للمأمون بعد الأمين وحبك الشيء يعمي ويصم»[2].

ثم أعاد تأكيد الأمر للمأمون مرة أخرى حين خرج إلى خراسان (١٨٩هـ) وكان معه المأمون، ثم إنه عند بلدة قرماسين[3] أشهد من معه من الأمراء والقضاة والفقهاء أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع[4] وغير ذلك للمأمون وجدد له البيعة عليهم وأرسل إلى بغداد فجدد البيعة على محمد الأمين[5].

هذا التأكيد المتكرر يحمل التخوف ويوحي به، ولعلَّ نكبة البرامكة كانت عاملا في تأكيده، إذ خسر المأمون بنكبتهم سندا قويا كان من دعاماته في الدولة.

إلا أن الحال لم يَسِر على نحو ما أراد الرشيد، ففي خروجه الأخير من بغداد طلب منه المأمون أن يصحبه في السفر خوفًا من غدر الأمين فأذن له، بل رُوي عنه قبل موته أنه شكا الرشيد إلى بعض خواصه جفاء بنيه الثلاثة الذين جعلهم ولاة العهد من بعده[6].

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٥١ وما بعدها.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣١٧.
(٣) قرماسين: تابعة للدينور، وهي بلدة قريبة من مدينة همذان الإيرانية.
(٤) الكراع: السلاح، وقيل هو اسم يجمع الخيل والسلاح. ابن منظور: لسان العرب ٨/ ٣٠٦.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٥٦، ٦٧٤.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١١.

وقفة مع الرشيد

إن الصفة الظاهرة في شخصية الرشيد هي الرقة واللين، وهذا يبدو متناقضا للوهلة الأولى مع خليفة في جلالة الرشيد واتِّساع سلطانه وقوة دولته وفي عصر سمي العصر الذهبي للدولة العباسية، فالرقة واللين لا تتناقض مع الحزم والحسم، فلكل منهما موقفه وموطنه الذي هو فيه أجمل وأليق.

وعلى الرغم من أنه كان يحبُّ التماس سيرة جده المنصور؛ فإنه خالفه في أمر المال فكان في غاية الكرم والإنفاق، ويبدو في عموم حياته أبعد عن شدة المنصور وأقرب بكثير إلى الرفق والتأثر بالموعظة.. وهذه بعض أخباره التي تضيع في زحام التاريخ السياسي.

١- الحياء

وأظهر ما يبدو هذا الحياء في فترات غضبه على البرامكة، فالغضب لم ينزع منه هذا الطبع، فلقد عفا عن الفضل بن يحيى بشفاعة أمه -التي هي أم الرشيد من الرضاعة- وكذلك عن أخيه موسى بن يحيى[(١)].

ويبدو هذا واضحًا في ذلك الموقف الذي رواه الطبيب الخاص للرشيد جبرائيل بن بختيشوع، قال: «إني لقاعد في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه ردًّا ضعيفًا فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير، قال (جبرائيل) ثم أقبل عليَّ الرشيد فقال: يا جبرائيل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك؟ فقلت: لا ولا يطمع في ذلك. قال: فما بالنا يدخل علينا بلا إذن؟ فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين؛ قدمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري؛ حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرَّدًا حينًا، وحينًا في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحبُّ؛ وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا. قال: وكان من أرق الخلفاء وجهًا، وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه. ثم قال: ما أردتُ ما تكره، ولكن الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه، فأجاب بهذا القول. ثم

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٧٩.



أمسك عنه وخرج يحيى»[١].

بل إنه حين أمر بقتل جعفر بن يحيى البرمكي لم يسمح له أن يراه قائلًا: «إن وقعت عيني عليه لم أقتله»[٢].

٢- الدين والعبادة

كان الرشيد كثير الصلاة والصدقة، روي أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا؛ إلَّا أن تعرض له علة، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة، ولم يُرَ خليفة قبله كان أعطى منه للمال، كان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه، وكان يميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين، ويقول: هو شيء لا نتيجة له وبالحري إلا يكون فيه ثواب[٣].

قال الرشيد: «بلغني أن بشرًا (المريسي)[٤] يقول القرآن مخلوق، عليّ أن أظفرني الله به أن أقتله»[٥].

وأحب أحدهم أن ينافقه ذات مرة بحسن السيرة فقال له: «أَنْسَيْتَهم والله يا أمير المؤمنين سيرة العمرين» فاستشاط الرشيد غضبًا ورماه بما في يده؛ وقال: «يابن اللخناء[٦] العمرين؟! العمرين؟! العمرين؟! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز، نحتملها لعمر بن الخطاب؟!!»[٧].

وروى بعض حجابه أنه دخل الكعبة فظل يدعو:

«يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين فإن لكلِّ مسألة منك ردًّا حاضرًا وجوابًا عتيدًا، ولكل صامت منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة،

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٥٧.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٦٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦.
(٤) بشر المريسي: من مشاهير أهل الضلال ووصفه الإمام أبو زرعة الرازي بالزندقة.
(٥) ابن حجر: لسان الميزان ٢/ ٣٠.
(٦) لَخَن السقاء أي أنتن، ولخن الرجل أي قبح كلامه، فيسمى الرجل ألخن والمرأة لخناء. المعجم الوسيط ٢/ ٨٢١.
(٧) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠.

ورحمتك الواسعة، صل على محمد وعلى آل محمد واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا..

يا من لا تضره الذنوب ولا تخفى عليه الغيوب ولا تنقصه مغفرة الخطايا..

يا من كبس الأرض على الماء، وسد الهواء بالسماء، واختار لنفسه أحسن الأسماء، صل على محمد وعلى آل محمد وخر لي في جميع أموري..

يا من خضعت له الأصوات بأنواع اللغات يسألونه الحاجات، إن من حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي إذا توفيتني وصيرت في لحدي، وتفرق عني أهلي وولدي..

اللهم لك الحمد حمدًا يفضل كل حمد كفضلك على جميع الخلق. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، صلاة تكون له رضا، وصل عليه صلاة تكون له ذخرًا، وأجزه عنا الجزاء الأوفى.. اللهم أحينا سعداء وتوفنا شهداء واجعلنا سعداء مرزوقين ولا تجعلنا أشقياء مرجومين»[1].

٣- تأثره بالموعظة

قال أبو معاوية الضرير: ما ذكرت النبي ﷺ بين يدي الرشيد إلا قال: صلى الله على سيدي وحدثه بحديثه صلى الله عليه وآله وسلم: **«وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيا فأقتل»**. فبكى حتى انتحب[2].

وروى الإمام الفضيل بن عياض عن نفسه قال: لما قدم هارون الرشيد إلى مكة قعد في الحِجْر[3] هو وولده، وقوم من الهاشميين، وأحضروا المشايخ، فبعثوا إليَّ فأردت أن لا أذهب، فاستشرت جاري، فقال: اذهب لعلَّه يريد أن تعظه. فدخلت المسجد، فلما صرت إلى الحجر، قلتُ لأدناهم: أيكم أمير المؤمنين؟ فأشار إليه، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فردَّ عليَّ. وقال: اقعد. ثم قال: إنما دعوناك لتحدَّثنا بشيء، وتعظنا. فأقبلت عليه فقلت: يا حسن الوجه، حساب الخلق كلهم عليك. فجعل يبكي ويشهق، فرددت عليه، وهو يبكي؛ حتى جاء الخادم فحملوني وأخرجوني، وقال: اذهب بسلام»[4].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠، ٢١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٣/ ٧.

(٣) هو حِجر إسماعيل.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٤٠.

ووقف الرشيد مرة إلى جوار عبد الله بن عبد العزيز العمري الزاهد العابد، وذلك على جبل الصفا، فقال عبد الله: أتنظر كم حولها (الكعبة) من الناس؟ فقال: كثير. فقال: كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه، وأنت تسأل عنهم كلهم. فبكى الرشيد بكاء كثيرًا، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل ينشف به دموعه، ثم قال له: يا هارون إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن يسرف في أموال المسلمين كلهم؟ ثم تركهم وانصرف والرشيد يبكي(١).

وقال ابن الجوزي: قال الرشيد لشيبان: عظني. قال: لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن؛ خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف. فقال الرشيد: فَسِّرْ لي هذا. قال: من يقول لك: أنت مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم. فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله(٢).

ورُوِي أن ابن السماك دخل على الرشيد يومًا فاستسقى فأتى بكوز فلما أخذه قال: على رسلك يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها قال: بنصف ملكي. قال: اشرب هنأك الله تعالى فلما شربها، قال: أسألك لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشترى خروجها؟ قال: بجميع ملكي. قال: إن ملكًا قيمته شربة ماء وبوله لجدير أن لا ينافس فيه. فبكى هارون الرشيد بكاء شديدًا(٣).

بل كان الرشيد يبعث في طلب من يعظه، وذات يوم أمر حاجبه الفضل بن الربيع أن يحضر ابن السماك فلما حضر قال له: عظني. فقال ابن السماك: يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غدًا بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما: جنة أو نار. قال: فبكى هارون حتى اخضلت لحيته، فأقبل الفضل على ابن السماك فقال: سبحان الله! وهل يتخالج أحدًا شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة -إن شاء الله- لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله؟! قال: فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٠.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٢٥٠.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٢، والذهبي: تاريخ الإسلام ١٣/ ١٥، ١٦.

يلتفت إليه، وأقبل على أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن هذا يعني -الفضل بن الربيع- ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم، فاتق الله وانظر لنفسك. قال: فبكى هارون حتى أشفقنا عليه، وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف[1].

وذات يوم جلس الرشيد مجلسًا فاخرًا، حفل بالزينة والطعام، وطلب من أبي العتاهية أن يصفه في شعر فقال أبو العتاهية:

عـــش مـــا بـــدا لـــك ســـالمًا في ظـــلّ شـــاهقة القصـــور

فقال الرشيد: أحسنت ثم ماذا؟ فقال:

يُسْـــعَى إليـــك بـــما اشـــتهيت لـــدى الـــرواح وفي البكـــور

فقال: حسن، ثم ماذا؟ فقال:

فـــإذا النفـــوس تقعقعـــت في ظـــلِّ حشرـــجة الصـــدور

فهنـــاك تعلـــم موقنًـــا مـــا كنـــت إلا في غـــرور

فبكى الرشيد أمام هذه المفاجأة، فقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته؟! فقال الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى[2].

بل كان الرشيد أحيانًا يُغشى عليه من تأثره بالموعظة، قال ذات مرة لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز، فقال:

لا تـأمن المـوت في طـرف ولا نفـس ولـو تمتعـت بالحُجَّـاب والحـرس

واعلـم بـأن سـهام المـوت صـائبة لكـلِّ مُـدَّرِع[3] منهـا ومُـتَّرِس[4]

ترجـو النجـاة ولم تسـلك مسـالكها إن السـفينة لا تجـري عـلى اليـبس

فخر الرشيد مغشيًّا عليه[5].

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٢.
(٢) الحميدي: الذهب المسبوك في وعظ الملوك ص٢١٨.
(٣) المدرع: لابس الدرع.
(٤) المترس: لابس الترس، وهو كالدرع.
(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧٣/ ٣٠٤.

ويبدو أن الرشيد سجن أبا العتاهية في تهمة أو شبهة، فكلَّف أحد الحرس أن يكون رقيبه في السجن، فجاءه ذات مرة بأن أبا العتاهية كتب على حائط السجن:

أمـــا والله إن الظلــــم لــــؤم وما زال المسيء هو الظلوم

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

فتأثر الرشيد وبكى وأحضره، وطلب منه العفو وأعطاه ألف دينار[1].

٤- العلم والتواضع لأهله

والحديث عن علم الرشيد ومحبته لأهله وتواضعه لهم كثير، نلتقط منه بعض أخباره:

قال القاضي الفاضل في بعض رسائله: ما أعلم أن لملك رحلة قطُّ في طلب العلم إلا للرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله[2].

وقال أبو معاوية الضرير: وأكلت عنده يومًا ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء عليَّ وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية أتدري من يصب عليك الماء؟ قلت: لا. قال: يصب عليك أمير المؤمنين. قال أبو معاوية: فدعوت له، فقال: إنما أردت تعظيم العلم[3].

وفي زيارة للإمام مالك سأله هارون الرشيد -وهو في منزله ومعه بنوه- أن يقرأ عليهم، فقال: ما قرأت على أحد منذ زمان وإنما يُقرأ عليَّ، فقال هارون: أخرج الناس عنى حتى أنا أقرأ عليك؟ فقال: إذا منع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص، فأمر معن بن عيسى فقرأ عليه[4]، وكان الرشيد يقول: ما رأيت في العلماء أهيب من مالك ولا أورع من الفضيل[5].

ولما بلغه موت عبد الله بن المبارك حزن عليه وجلس للعزاء فعزاه الأكابر[6].

ولا نجد في ختام هذا المبحث خيرًا من قول ابن كثير: «فضائل الرشيد ومكارمه كثيرة جدًّا، قد ذكر الأئمة من ذلك شيئًا كثيرًا»[7].

(١) الحميدي: الذهب المسبوك في وعظ الملوك ص٢١٦.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢١٧.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٣٣.
(٤) الهروي: ذم الكلام وأهله ٥/ ٨٩.
(٥) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٨/ ٢٦٦.
(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٨٨.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٣٩.

وفاة الرشيد

في طريقه إلى خراسان لقمع تمرُّد رافع بن الليث في سمرقند، ظهر على الرشيد المرض (صفر ١٩٣هـ) وهو في جرجان، ثم أكمل مسيره حتى وصل إلى طوس ولم يستطع إكمال المسير بعد ذلك، وهناك أدركه الأجل.

ورُوي أنه رأى رؤيا قبل خروجه من الرقة تفيد أنه سيموت في طوس، فلما وصل إلى هناك عليلا لا يقوى على المسير رأى ما تحققت به رؤيته، فظل ثلاثة أيام بعد ذلك ثم مات، وروي أنه حين أيقن بالموت أمر بحفر قبره ثم طلب أن يُختم فيه القرآن وهو يتابع القراءة والختم على محفتة فوق حافة القبر ويقول: «يا ابن آدم تصير إلى هذا»(١).

ولما حضره الأجل قال تلك الكلمة المؤثِّرة البديعة «يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه»، وفارق الدنيا (٣ من جمادى الآخرة ١٩٣هـ) بعد ثلاثة وعشرين سنة في الخلافة.

ترى كيف كان يرى سنوات الخلافة الزاهرة عند لحظة الموت؟!.. ترى هل تمنى لو أنه كان رجلًا من العامة في أرض منقطعة يعبد الله ويسعى على غنمه؟!.. وكيف تكون تلك اللحظة التي تجعل الملوك يتمنون حياة العامة الفقراء وينسون رغد العيش اللذيذ طوال السنين؟!

وقد حزن العلماء لموت الرشيد حتى كان الفضيل بن عياض يقول: «ما من نفس أشد عليَّ موتا من هارون الرشيد لوددت أن الله زاد من عمري في عمره»، فَعَظُم ذلك على أصحابه، فلما مات وظهرت الفتن وكان من المأمون ما حمل الناس عليه من القول بخلق القرآن قالوا الشيخ أعلم بما تكلم به(٢).

خارج سلطة الرشيد

حين تولى الرشيد الخلافة كانت عدد من المناطق خارج نطاق سلطته، ففي الأندلس استقرَّ حكم الأمويين الذي أسسه عبد الرحمن الداخل، وفي المغرب الأقصى استقرَّت دولة بني مدرار وعاصمتها سجلماسة والتي هادنت حكام القيروان الموالين للخلافة العباسية، وفي

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣، ١٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٥٨.

المغرب الأوسط استقرَّت دولة الرستميين وعاصمتها تاهرت.. وأما في عهده فقد ظهرت دولتان أخريان في المغرب:

١- ظهور دولة الأدارسة

ذكرنا أن إدريس بن عبد الله العلوي استطاع النجاة من موقعة «فخ» التي كانت في عهد الهادي، وأنه سار إلى المغرب، وقد استطاع إدريس تأسيس دولة الأدارسة عام (١٧٢هـ) وقد كان الرشيد في بداية خلافته يحسن إلى العلويين حتى نشأت هذه الدولة فتغير عليهم، وعلى من شعر منه بالولاء لهم، وهذه الدولة هي أول دولة علوية بالمغرب، بل هي أول نجاح للعلويين في تأسيس دولة، وقد ساعد إدريسا في تأسيس الدولة إسحاق بن محمود زعيم قبيلة أوربة البربرية، وبنى إدريس مدينة فاس واتخذها عاصمة لدولته، وكان وزراؤه من قبيلة أوربة، واتخذ له جيشًا من وجوه القبائل البربرية كزناتة وصنهاجة وهوارة، وامتدت منطقة نفوذه حتى استولى على تلمسان، وبها استقام له المغرب.

على أن إدريسًا تُوُفِّيَ (١٧٧هـ) بعد خمس سنوات فحسب من تأسيس دولته، وقد رمى البعض هارون الرشيد بأن دس له السم مع رجل يسمى الشماخ، وهو ما لا دليل عليه يُطمأنُّ إليه، على أن هذه الوفاة لم تذهب بالدولة الوليدة لا سيما وأن إدريسا لم يكن له ولد، بل كانت جاريته «كنزة» حُبلى، فاختير هذا الجنين ليكون إمام الدولة، ولما وُلِد سُمِّي بإدريس أيضًا، وقام بأمر الدولة موالي أبيه، فتولى الوصاية على إدريس رجل يسمى راشد فكان نعم الكفء والمدبر للدولة، ثم بويع لإدريس الثاني بعدما بلغ عشر سنوات (١٨٦هـ)، ثم اغتيل راشد وتولى أمر الوصاية يزيد بن إلياس العبدي (١٨٧هـ)؛ حتى بلغ إدريس الصغير سبعة عشر عامًا وبدأ يحكم مستقلًا منذ (١٩٢هـ).

بلغت مدينة فاس على يدي إدريس مبلغا عظيما، وغدت قبلة للمشارقة والمغاربة والأندلسيين، وقد عاشت دولة الأدارسة قريبًا من قرنين ونصف حتى غارت نجومها على يد الأمويين الأندلسيين وانتهت تمامًا على يد العبيديين (الفاطميين)، ولم تكن دولة متسعة أو قوية بقدر ما كان تفوقها حضاريًا ثقافيًا، وقد كان لها دورها البالغ الأهمِّيَّة في تعريب المغرب، وفي نشر العقيدة السنية والمذهب المالكي من بعد ما كان المغرب تحت سيادة مذهب الخوارج، ومن أهمِّ آثارهم مسجد القرويين الذي يعد أقدم جامعة في الإسلام وقد أنشأته فاطمة بنت

محمد الفهري (٢٤٣هـ)، وهو من المساجد الشهيرة في تاريخ الإسلام.

٢- ظهور دولة الأغالبة

كان إبراهيم بن الأغلب التميمي أحد القادة البارزين الذين عملوا في خدمة الخلافة العباسية ضد ثورات المغرب، وبعد كثير من التقلبات ولاَّه الرشيد ولاية إفريقية، ومقرها القيروان (١٨٤هـ)، وعمل إبراهيم منذ توليها على التأسيس لدولة له ولأبنائه من بعده، ولم تخف هذه الطموحات على الرشيد، ولكنه وافق على هذا ورضي به، بل ودعمه، ولعلَّه قَدَّر أن يجعلها دولة تابعة للخلافة خيرا من أن تكون خارجة عليها، وأن تكون -بهذا- حاجزا بين الدول المستقلة في المغرب الأقصى والأوسط (بني مدرار، والرستميين، والأدارسة) خيرا من أن تكون واحدة منها، لا سيما والشرق أمره عظيم ولا يخلو من المشكلات، وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من إقرار الأمر له وإخماد الثورات التي قامت ضده.

وقد عاشت دولة الأغالبة أكثر من القرن بعشر سنوات (١٨٤ - ٢٩٦هـ)، وكانت معترفة بالخلافة العباسية، ومن فضائل هذه الدولة أن فُتِحت جزيرة صقلية على يدها، وكذلك الجهاد في إيطاليا وقد وصل على يديها حتى مدينة روما، ومن آثارهم جامع الزيتونة الذي يُعد من أعظم مساجد الإسلام.

***



الأمين

وُلد الأمين (١٧٠هـ)، وكان طويلا سمينا أبيض أقنى الأنف صغير العينين، عريض المنكبين، وكان فصيحا شاعرا، وقد تأدب على يد الكسائي العلامة الشهير وأحد أعلام اللغة، وقد تولى الحكم وعمره ٢٣ عاما.

وقد رماه بعضهم بكثرة اللعب والشرب وقلة الصلاة، وأورد الطبري أخبارا عن إكثاره من اقتناء السودان والخصيان، وإعطائه الأموال والجواهر، وأَمْرِه بإحضار الملاهي والمغنين من سائر البلاد، وأنه أمر بعمل خمس حراقات[1] على صورة الفيل والأسد والعقاب والحية والفرس، وأنفق على ذلك أموالًا جزيلة جدًّا، واعتنى الأمين ببنايات هائلة للنزهة وغيرها، وأنفق في ذلك أموالًا كثيرة جدًّا. فكثر النكير عليه بسبب ذلك[2]، إلَّا أنَّ ما أشيع عنه من شرب الخمر غير ثابت، بل إن الأمين وجد أبا نواس مسجونا مع الزنادقة بأمر الرشيد، فلما أمر بإخراجه علم بشربه الخمر فأعاده ثانية إلى السجن[3].

وليس له تاريخ بارز قبل الخلافة إلا ولايته على العراقين منذ أن اتخذ أباه الرشيد عاصمته في مدينة «الرقة».

***

وصل خبر وفاة الرشيد يوم الخميس (١٥ من جمادى الآخرة ١٩٣هـ)، فخطب الأمين في الناس يوم الجمعة وأذاع فيهم خبر الرشيد، وأخذ بيعته من الأمراء ووجوه بني هاشم وأخذها له عمه سليمان بن جعفر من العامة، وفي خطبته -كما هي عادة الخطب الأولى للملوك والرؤساء- بَسَط آمال الناس ووعدهم الخير[4]، وأعطى للأجناد راتب عامين لكيلا

(١) الحَرَّاقات: جمع حَرَّاقة، وهي تطلق على السفن التي فيها مَرامِي نِيران وتستخدم في الحرب، كما تطلق على القوارب الصغيرة الخفيفة، وهذه الأخيرة هي المقصودة في السياق. ابن منظور: لسان العرب ١٠/ ٤١، المعجم الوسيط ١/ ١٦٨.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١١١، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٦٣.

(٣) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٩٢.

(٤) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٤، والدينوري: الأخبار الطوال ص٣٩٢.

يتكرر مثل الذي حدث أول خلافة أبيه الرشيد، ثم كان أول ما فعله الأمين صباح السبت كان الأمر ببناء مَيْدَانيْن للصيد[١]!

وفي خراسان وصل الخبر إلى المأمون فقام وخطب في الناس، وجدد البيعة لأخيه محمد ثم لنفسه، وأعطى الأجناد مكافأة عام[٢]، وستصير هذه عادة عند تولي كل خليفة!

وأفرج الأمين (ذي القعدة ١٩٣هـ) عن بعض من حبسهم الرشيد ومنهم عبد الملك بن صالح الذي كان الرشيد قد حبسه لاتهامه بالسعي للخلافة لنفسه، وقد حمل عبد الملك هذا الجميل وأقسم للأمين أنه لو وقع ثمة نزاع بينه وبين المأمون فسيكون في صفه ولن يبايع للمأمون أبدًا!![٣]

الصراع بين الأمين والمأمون

وقد بدأت المشكلات مبكرا بين الأمين والمأمون، وإذا كان الأمين قد خرج مع الرشيد إلى خراسان خوفًا من غدرة أخيه فإن الفضل بن الربيع -حاجب الرشيد وأحد أقوى مناصري الأمين- لم يَعُدْ من خراسان إلَّا وقد أسّس للخلاف بينهما، ذلك أن الرشيد كان قد أوصى قبل موته بأن يسير الجيش الذي معه -بما فيه من الحواصل والدواب والسلاح- ليكون في طاعة المأمون وأخذ منهم البيعة له، إلَّا أنَّ الفضل بن الربيع عاد بالجنود إلى بغداد ولم يسمح لهم بالذهاب إلى المأمون[٤]، وكان الفضل مستندا في تصرفه هذا على ترتيب بدأ في بغداد منذ فترة.

كان الأمين قد أرسل بكر بن المعتمر، وهو أمير من الموالين له، برسائل سرية إلى أمراء الجيش في حال موت الرشيد، وفيها البيعة للأمين، ومنها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة وتجديد البيعة له في خراسان، ومنها كتاب إلى صالح بن الرشيد يأمره بأخذ البيعة للأمين منهم، ويحدد لهم ترتيب الجند والقيادات، ويأمره ألا يفعل شيئًا إلا بمشاورة الفضل بن الربيع، ففعل صالح، ورجع الجيش إلى الأمين في بغداد على خلاف ما أوصى الرشيد! وكانت رغبة الجنود أن يعودوا إلى بغداد حيث أهاليهم ومستقرهم فهذا في كل الأحوال أفضل من محاربة تمرُّد في ما وراء النهر[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧، ٣١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٠.
(٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٤، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢.
(٤) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧ وما بعدها.

كان طبيعيًّا أن يغضب المأمون مما حدث، ومثلما كان الفضل بن الربيع في بلاط الأمين فقد كان غيره في بلاط المأمون من يزين له أن هذه البيعة إنما هي بيعة بالخلافة لا بمجرَّد السمع والطاعة، فهذا الجيش هو جيش الخلافة الرئيسي الذي كان على رأسه الخليفة نفسه، فإن لم يكن هذا فإن أقلَّ ما يكون أن يكون هؤلاء الجند في طاعته ولا يحل لهم السير إلى الأمين بعد وصية الرشيد وأخذ البيعة للمأمون منهم!

شاور المأمون من حضر عنده من قواد أبيه، وطرح بعضهم فكرة أن يبعث إليهم فرقة عسكرية تردهم، فاعترض الفضل بن سهل -ذو الرياستين- وقال بأن هذا نذير حرب وأنه سيبعدهم ويوحشهم أكثر من المأمون، واقترح أن يرسل إليهم رسولًا يحمل رسالة ناصح أمين، فلما وصل الرسول هناك تصدى له أحدهم بالرمح مهددًا، وقال له: قل لصاحبك (المأمون) والله لو كنت حاضرًا لوضعت الرمح في فيك، هذا جوابي[1].

على أن المأمون نزع فتيل الأزمة، ولم يتمسك بإثارة الموضوع، واقتنع برأي الفضل بن سهل أن التهدئة أولى، وبدأ المأمون -برعاية الفضل بن سهل- في تقدير زعماء خراسان وإجلالهم وأظهر الدين والتقوى وجلس للمظالم بنفسه وأكرم وجوه القوم، وقام بكل ما من شأنه كسب ولاء الخراسانيين وما حولهم له، وقد زاده محبة أن أمه فارسية فكان القوم يقولون: «ابن أختنا وابن عم النبي »[2].

بل كتب إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم، وبعث إليه من هدايا خراسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك، معترفا بأنه نائبه عليها، وكذلك فعل الأمين إذ أقرَّ أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والري وغير ذلك، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم[3].

ومنذ هذه اللحظة سيصير أمامنا مشهدان، مشهد في بغداد، ومشهد في مرو، على أن المأمون كان أحكم وأعقل وأفضل سياسة وكانت مناطقه هادئة، فيما عاني الأمين من قلاقل واضطرابات زاد من أثرها سياسته غير الحكيمة، كما أن المأمون قد رُزِق بقادة أقوياء بارعين

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٠، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٢٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٢٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١.

مخلصين له على عكس رجال الأمين!

وفي مشهد خراسان كان هرثمة بن أعين ما زال في قتال رافع بن ليث حتى حاصره في سمرقند، فاستغاث رافع بحلفائه الأتراك الذين جاءوا لنجدته فحاصروا هرثمة من خلفه، ثم حدث أن انسحب الأتراك من المعركة فضعف موقف رافع بن ليث (١٩٣هـ)؛ حتى إذا أيقن بالهزيمة طلب الأمان وراسل المأمون بهذا فأجابه المأمون إلى الأمان فاستسلم رافع وقدم على المأمون (١٩٤هـ) فأكرمه وعَظَّمه، وبهذا كسب المأمون استقرار ما في حوزته من البلاد، ثم استقبل المأمون جيش هرثمة بن أعين فكسب إلى صفه جيشًا وقائدًا فذًّا كهرثمة، وقد ولاَّه المأمون قيادة حرسه الخاص تكريمًا وكسبا لولائه[1].

في هذا التوقيت كان المشهد مغايرا عند الأمين، إذ ثار أهل حمص وخلعوا نائبهم، فعزله عنهم الأمين وولَّى عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي الذي بدأ عهده بقتل طائفة من وجوه أهل حمص وحرق نواحيها (١٩٣هـ)، فسكنت الثورة قليلًا ثم لم تلبث أن هاجت (١٩٤هـ) فأخمدها بالقسوة ذاتها[2].

ثم اتخذ الأمين قرارَيْن آخرَيْن أشعلا الموقف، إذ عزل أخاه القاسم عن الجزيرة والثغور، وولى على ذلك خزيمة بن خازم، وأمر أخاه بالبقاء عنده وتحت عينه في بغداد، ثم أمر بالدعاء لولده موسى على المنابر في سائر الأمصار، وبالإمرة من بعده، وسمَّاه «الناطق بالحق»، ثم يُدعى من بعده للمأمون والقاسم (ربيع الأول ١٩٤هـ)، ويرجع هذا القرار إلى إلحاح الفضل بن الربيع -حاجب الرشيد ثم حاجب الأمين من بعده- فهو الذي زيَّن له خلع أخويه وهَوَّن له الأمر وأنهما لا يستطيعان عصيانه، واستعان في هذا بعلي بن عيسى بن ماهان -نائب خراسان السابق- وبقائد الشرطة السندي بن شاهك حتى أقنعوه فاستجاب لهم، فلما بلغ الخبر المأمون اتخذ من جانبة إجراءات الاستقلال والعصيان فقطع الرسائل التي يرسلها النائب إلى الخليفة، وحذف اسمه من العملة المتداولة ومن سائر المظاهر السلطانية، وبدأت بينهما العداوة[3].

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٩، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٦٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢، ٤٠.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢.

وأول ذلك رسالة رقيقة من الأمين إلى أخيه يطلب منه التنازل عن بلدة تابعة لخراسان ليولي عليها الأمين رجلًا من عنده، وأن يكون للأمين رجل في حاشية المأمون يكتب إليه بأخبار البلاط عنده، فاستشار المأمون رجاله وخاصته ثم استقرَّ أمرهم على الرفض، فبعثه المأمون في رسالة رقيقة مهذبة ويجعل حجته في عهد الرشيد الذي هو ملزم به وبالأحوال في خراسان والتي لا تسمح بمثل هذا(١).

ومنذ تلك اللحظة أعد المأمون عدته في مراقبة أطراف خراسان فوضع رجالا مهمتهم ألا يتركوا جاسوسا يدخل خراسان ويكلم أهلها، فإن كان رسولًا من الأمين حملوه حتى أوصلوه إلى المأمون من غير فرصة يختلط فيها بالناس، وإن كان غير ذلك تصرفوا معه بمقتضى الحال، ولا يرفعون رقابتهم هذه إلا عن الثقات من التجار والراحلين وأمثالهم، وقد أفشلت هذه الخطَّة خطَّة الأمين في التواصل مع أهل خراسان لمعرفة الأخبار أولًا ثم لتحريضهم على المأمون وإغرائهم بالعطايا والولايات وما إلى ذلك، وعلى الجانب الآخر كان للمأمون من يأتيه بالأخبار من بغداد وقد كان بعضهم في جيش الأمين وهذا اختراق عسكري مؤثِّر(٢).

وثاني ذلك ما يمكن أن نسميه حرب الرسائل بين الأخوين، فقد رَدَّ الأمين على رسالة المأمون ورَدَّ عليها المأمون مرة أخرى، وكل يتحجج بما توافر لديه من معاذير تؤيد مطالبه، وبدت نبرتها تحتد وتلتهب، لتعبر عن عمق الأزمة بينهما؛ حتى إن المأمون أرسل في طلب ماله الذي تركه في بغداد والرقة وفي طلب أهله أن يسافروا إليه في خراسان فرفض الأمين وقال بأنه يحتاج إلى المال في مصالح المسلمين وأنه خير من يرعى أهل أخيه، وبالعموم فقد كانت رسائل المأمون أرق وأكثر تهذبا، وكان يتحاشى أن يكون البادئ بالفرقة(٣).

وثالث ذلك أن رافع بن ليث الثائر في سمرقند لما سمع بعدل المأمون وحسن سياسته أرسل إلى هرثمة الذي يتولى حربه بالاستسلام والأمان والرغبة في القدوم على المأمون فاستجاب هرثمة ثم استجاب المأمون، فاتخذ الأمين ذلك ذريعة ليشنع بها على أخيه(٤).

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٩٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤، ٣٥، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٣٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥، ٣٨، ٣٩.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥ وما بعدها، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٣٧.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣.

ورابع ذلك أن الأمين أرسل إلى العباس بن عبد الله بن مالك والي الري -وهو تابع للمأمون- أن يرسل إليه ببذور غرائب المزروعات في الري، فأرسلها إليه دون أن يستشير المأمون أو يخبره، فعزله المأمون[١].

وخامس ذلك رسالة كتبها الأمين وأرسلها مع ثلاثة من أكابر الأمراء يطلب فيها من المأمون أن يكون من حاشيته وأن يترك خراسان ويقدم إلى بغداد لأنه يحتاج كفاءته ومناصحته وإخلاصه وما إلى ذلك من الكلام المعسول، فأكرم المأمون هذا الوفد، ووعدهم بالتفكير والتشاور في الأمر وأبدى لهم أن ظروف خراسان -أيضًا- تستدعي بقاءه قريبًا منها فهي أرض الثورات والتمردات.[٢] وكان طبيعيًّا أن تنتهي المشاورة إلى الرفض المهذب الرقيق بسبب ما يواجهه من القلاقل في خراسان[٣]، وتذكر روايات أخرى أن الطلب لم يكن القدوم -أو لم يكن هذا هو الطلب الوحيد- بل -أيضًا- الخضوع لأمر الخليفة بتولية ولده موسى الناطق بالحق، وحاول الأمراء إقناع المأمون بالهدوء والسياسة والملاطفة، فكان رفض المأمون قاطعا؛ حتى إن العباس بن موسى بن عيسى -وكان من الأمراء الثلاثة- ذَكَّره بأن جده عيسى بن موسى خلع نفسه مرتين من ولاية العهد حفاظا على مصلحة الأُمَّة، فقال المأمون: «إن أباك كان امرءا مكروها»، وهذا دليل على حب الخراسانيين وأمرائهم للمأمون والتفافهم حوله[٤].

وسادس ذلك أن المأمون تلقب بالإمام مع بداية اضطراب العلاقات مع أخيه، وهو لقب يحمل معنى المنازعة على الخلافة، فلما استنكره العباس بن موسى -موفد المأمون- قال له الفضل بن سهل: «قد يكون إمام المسجد والقبيلة، فإن وفيتم (أي بعهد الرشيد) لم يضركم، وإن غدرتم فهو ذاك (أي الخليفة)»، وكان من ذكاء المأمون أنه شرع -عبر رجله الأول الفضل بن سهل- في كسب العباس بن موسى في صفه، وقد استطاع هذا فعلًا، فإذا الذي أتى يريد منه خلع نفسه يبايعه مرة أخرى على الطاعة ثم يكون عينه في بغداد، فكان

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣.

(٢) في هذا الوقت كان المأمون يواجه تمردا محليا قاده رجل يسمى جغبويه، ويستعد كذلك لمواجهات مع ملك كابُل، ومع الخاقان ملك التبت، وامتنع ملك آخر عن دفع الضريبة المقررة عليه للمسلمين.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨، ٤٩.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢، ٤٨.

يراسله بما يكون من حال الأمين ويشير عليه بالرأي[1].

وحين عادت الرسل إلى بغداد برفض المأمون كان الأمين قد استقرَّ على خلع المأمون بل ورفض أي نصائح ترفض خلع المأمون أو حتى تشير بالتدرج والتخطيط البطيء في هذا[2]، وأعلن الأمين أنه قد عزل أخاه عن خراسان، وأخذ في البيعة لابنه موسى في الأمصار، وجعل حضانته ورعايته من مهمات رجله الثاني علي بن عيسى بن ماهان (باعتبار أن الفضل بن الربيع كان الرجل الأول)، ونشطت حركة إعلامية تُشَهِّر بالمأمون وتذيع مساوئه، وتذيع أن هذا العصيان إنما هو نقض لما أُبْرم في وثيقة مكة فبعث الأمين في طلبها ومزَّقها، وصدرت الأوامر بقطع الدعاء للمأمون والقاسم بعد الأمين وبالدعاء لموسى بن الأمين في الخطبة[3].

ثم اتخذ الأمين إجراءات أخرى؛ إذ أرسل إلى زوجة المأمون في بغداد أن تؤدي إليه ما لديها من الجواهر فامتنعت عنه، فأرسل من يقتحم بيتها حتى استلب منها ما يريد عنوة، وعندئذٍ جمع المأمون قادته في مرو وأعلن فيهم: «قد علمتم ما كان أبي شرط عليَّ وعلى محمد وقد نكث ونقض العهود وأوجد السبيل إلى خلعه بنكثه ونقضه وتعرضه لأموالي وأسبابي وأعمالي، وتحريقه الشروط والعهود التي عليه، واستخفافه بحق الله فيما نكث من ذلك، واشتغاله بالخصيان»، فاتفق رأيهم على مراسلته، فإن رجع، وإلاَّ خلعوه. وعلى الطرف الآخر جمع الأمين قادته وأعلن فيهم نيته حرب المأمون[4].

وفي نهاية عام (١٩٤هـ) كان الحال قد انتهى إلى أن صارت البلاد الإسلامية على قسمين بين الأمين والمأمون، وكل منهما يهيئ الجيوش ويتقرب إلى الرعية ويحصن البلاد! لكن كتلة المأمون كانت أثبت وأمسك لما ظهر من عدل المأمون الذي ازداد تألقا لأنه أتى بعد عهد الوالي الظالم علي بن عيسى بن ماهان.

ولما بلغت الأمور ذورتها، كلف الفضل بن سهل -وزير المأمون ومستشاره الأول والمدبر الفعلي للدولة- البطل الكبير طاهر بن الحسين أن يجتمع بالأجناد وأن يكون مركزهم في الري، وكان من حكمته أنه وجه كل ما استطاع من إمدادات للإنفاق على هذا الجيش

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٩٤، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٨، ٤٧، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٣٨.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٦٦.

الذي لا تحتمله موارد الري، فكفى هذا حاجة الجيش فلم يفسدوا في الأرض أو يتغلبوا على أموال وموارد أهل الري. وعلى الناحية الأخرى كلف الأمين عصمة بن حماد بن سالم بأن يقيم في همذان وأن تكون طلائعه في ساوة، وكان الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان يدقان طبول الحرب في أذن الأمين ويحرضانه عليها[١]!

وفي (صفر ١٩٥هـ) أمر الأمين بإبطال التعامل بالعملة التي نُقِش عليها اسم أخيه من قبل، وأمر بإبطال الدعاء له، والاقتصار على الدعاء للأمين وولده موسى «الناطق بالحق»، وعلى الجانب الآخر اتخذ المأمون لقب «إمام الهدى» أو «إمام المؤمنين»[٢].

ومن أبرز ما يدل على الفارق بين المشهدين، مشهد بغداد ومشهد خراسان، قول شاعر خراسان عن طاهر بن الحسين وخروجه إلى الري:

رمـــى أهـــلَ العـــراق ومـــن عليهـــا ... إمـــامُ العـــدل والمَلِـــكُ الرشـــيد

بـــأحزم مـــن مشـــى رأيـــا وحزمـــا ... وكيـــــدا نافـــــذا فـــــيما يكيـــــد

بداهيـــــــة نـــــــآدٍ[٣] خنفقيـــــــق[٤] ... يشـيب لهـول صـولتها الوليـد[٥]

ثم قول شاعر بغداد عن سياسة الأمين:

أضـــاع الخلافـــة غـــش الـــوزير ... وفســـق الأمـــير وجهـــل المشـــير

ففضـــل وزيـــر وبكـــر مشـــير ... يريـدان مـا فيـه حتـف الأمـير[٦]

لقد كان في حاشية الأمين من نهاه عن خلع المأمون منهم عبد الله بن خازم إذ قال له: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف بيمينه ورد رأي الخليفة قبله»، وخزيمة بن خازم وقد حذره من تداعيات هذا على طبقة الجيش «يا أمير المؤمنين لم ينصحك من كذبك ولم يغشك من صدقك لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإن الغادر مخذول والناكث

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٩، ٥٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤١.
(٣) نآدٍ: أي داهية. ابن منظور: لسان العرب ٣/ ٤١٣.
(٤) خنفقيق: أي داهية. الجوهري: الصحاح ٤/ ١٤٧٠، أو معناها: السريع. الخليل بن أحمد: كتاب العين ٤/ ١٥٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٩.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤١.

مفلول»[١]. ومنهم -أيضًا- يحيى بن سليم -وفي بعض الروايات[٢]: إسماعيل بن صبيح- الذي قال: «كيف بذلك لك مع ما قد وكد الرشيد من بيعته وتوثق بها من عهده والأخذ للإيمان والشرائط في الكتاب الذي كتبه؟» ثم لما عرف عزمه على خلعه أشار بالتدرج والتمهل وإحكام الأمر فقال: «أما إذا كان رأي أمير المؤمنين خلعه فلا يجاهره مجاهرة فيستنكرها الناس ويستشنعها العامة ولكن تستدعي الجند بعد الجند والقائد بعد القائد وتؤنسه بالألطاف والهدايا وتفرق ثقاته ومن معه وترغبهم بالأموال وتستميلهم بالأطماع فإذا أوهنت قوته واستفرغت رجاله أمرته بالقدوم عليك فإن قدم صار إلى الذي تريد منه وإن أبى كنت قد تناولته وقد كلَّ حده وهيض جناحه وضعف ركنه وانقطع عزه»[٣]. لكن سيطرة الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان كانت الأقوى! وكان الأمين كالذي تملكته رغبة فطفق يريد أن يسمعها من مشاوريه لا أنه يشاورهم على الحقيقة.

ولم يمض شهران على قطع الخطبة للمأمون والبيعة لموسى حتى أُعِدَّ في بغداد جيش عظيم (ربيع الآخر ١٩٥هـ) يقوده الوالي السابق لخراسان علي بن عيسى بن ماهان، إذ ولاَّه الأمين على طبرستان وهمذان وأصبهان وقم وتلك البلاد، وأمره بحرب المأمون، وقد بلغ الجيش أربعين ألف مقاتل وقد أنفقت عليه أموال هائلة، وصاحب خروج الجيش خُطَبٌ عصماء من رجال الأمين تذكر حقه في الخلافة وأسبقيته في البيعة وتذكر نكوث المأمون وتلقبه بالإمامة وغير ذلك، وفرقت الأموال على الأجناد عامة ثم على الخراسانيين خاصة ليُضمن ولاءهم للأمين بثلاثة ملايين درهم، وكان تعداد الجيش وميزانيته ضخمة حتى لم يَعُدْ من شَكٍّ في أنه سيهزم المأمون ومن معه[٤].

وكان أخطر ما في هذا الجيش قرار الأمين بأن يكون علي بن عيسى بن ماهان هو قائد الجيش، وقد أفضى عليّ إلى الأمين أن الجنود الخراسانيين في جيشه اشترطوا أن يكون هو قائدهم، لقد كان عيسى يحمل ثأرا قديما من أهل خراسان الذين هم جيش المأمون فقد كانوا خصومه ومن أسباب عزله أيام الرشيد، وأحب أن يكون له شرف قهرهم، ولقد كان واثقا من النصر حتى لقد

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٧.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٩٣، ٣٩٤، والجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٣٨.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٨.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤١، ٤٢.

أخذ معه قيدا من فضة ليأتي فيه بالمأمون[١]، وروي أن هذا القيد أعطته إياه زبيدة أم الأمين وقد أوصته أن يرعى مقام المأمون وأن يكرمه وأن يحتمل منه إن شتمه أو آذاه أو سفهه، وأن يرعى فيه حرمة أبيه وأخيه، وأن ما بين الأخوين منافسة سلطانية لا تسقط فيها المقامات[٢]، فكان هذا القيد تكريمًا للمأمون، وهذا يدل -أيضًا- على أن انتصار علي بن عيسى لم يكن محل شك!

لا ريب أن الأمين حاول الاستفادة من خبرة علي بن عيسى بن ماهان السابقة بخراسان وأرضها إلا أنه غفل عن تأثير هذا في تكتل الخراسانيين خلف المأمون واشتدادهم في حرب الذي كرهوه.

ومن أبلغ ما يُروى في خطأ هذا القرار إنما كان بتسريب من جواسيس المأمون في عسكر الأمين، فقد وصلهم من الفضل بن سهل توجيه بمحاولة جعل علي بن عيسى قائد الجيش لأنه يعلم أثر ذلك في أهل خراسان وفي تكتلهم وراء المأمون كراهة في عيسى[٣].

خرج الجيش من بغداد (١٥ من جمادى الآخرة ١٩٥هـ) وودعه الأمين حتى خارج بغداد، وأمر ولاة الأنحاء والعسكر الموجودين بالمناطق بالانضمام لجيش علي بن عيسى بن ماهان، وصار الجيش الهائل في مواجهة أربعة آلاف فقط يقودهم طاهر بن الحسين، وقد زلزل هذا بعض النفوس، فانسحب ثلاثة من جيش المأمون إلى جيش علي بن عيسى، لكن الأخير لم يحفل بهم على عادة مثل هذه المواقف بل على العكس ضرب أحدهم مائتي سوط لسبب قديم واستخف بالآخريْن، فكان هذا من عوامل إحجام من فكر في الانضمام إليه ثم من عوامل صمودهم وثباتهم مع جيش المأمون[٤].

وقد راسل علي بن عيسى ملوك المناطق المتاخمة للدولة الإسلامية، ملوك الديلم وجبال طبرستان وما والاها «يعدهم الصلات والجوائز وأهدى إليهم التيجان والأسورة والسيوف المحلاة بالذهب وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان ويمنعوا من أراد الوصول إلى طاهر من المدد فأجابوه إلى ذلك»[٥].

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١.

أدار علي بن عيسى أمر المعركة بلا مبالاة تثير العجب، وتشير الروايات أنه كان واثقا في نفسه وفي جيشه إلى حد مدهش؛ حتى إنه حين علم بأن قائد الجيش هو طاهر بن الحسين قال هازئًا ضاحكًا: «وما طاهر، فوالله ما هو إلا شوكة في أغصاني، أو شرارة من ناري، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب ثم التفت إلى أصحابه فقال: والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف إلَّا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان فإن السخال لا تقوى على النطاح والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد»[1]، بل إنه لم يبال أن يتخذ له معسكرا آمنًا، ولا أن يُرتب وضع الجواسيس والعيون؛ قيل له: «لو كنتَ -أبقى الله الأمير- أذكيتَ العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعا تعسكر فيه وتتخذ خندقا لأصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ في الرأي وآنس للجند. قال: لا ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ. إن حال طاهر تئول إلى أحد أمرين إما أن يتحصن بالري فيبيته أهلها فيكفوننا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعًا؛ لو قربت خيولنا وعساكرنا منه وأتاه يحيى بن علي فقال: اجمع متفرق العسكر، واحذر على جندك البيات، ولا تسرح الخيل إلا ومعها كنف من القوم؛ فإن العساكر لا تساس بالتواني، والحروب لا تدبر بالاغترار، والثقة أن تحترز ولا تقل: إن المحارب لي طاهر. فالشرارة الخفية ربما صارت ضراما والثملة من السيل ربما اغتر بها وتهون فصارت بحرا عظيما وقد قربت عساكرنا من طاهر فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا. قال: اسكت فإن طاهرا ليس في هذا الموضع الذي ترى وإنما تتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها وتستعد إذا كان المناوئ لها أكفاءها ونظراءها»[2].

وعند بداية اللقاء أشار بعض القواد على طاهر بن الحسين أن يُذَكِّر علي بن عيسى بالعهد الذي قطعه هو للمأمون بالبيعة على أهل خراسان، فأخذ طاهر نسخة «البيعة فعلقها على رمح وقام بين الصفين وطلب الأمان فأمنه علي بن عيسى فقال له: ألا تتقي الله ﷻ؟ هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت خاصة. اتق الله فقد بلغت باب قبرك» فوضع علي بن عيسى مكافأة لِمَنْ خرج يبارزه ويقتله ألف درهم، فخرج له أحدهم فصرعه طاهر وبهذا بدأت الحرب[3].

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١، ٥٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٧٤.

وعلى الرغم من الفارق الهائل بين الجيشين؛ فإن الجيش الباسل بقيادة طاهر بن الحسين تمكن بالعزم والصبر والذكاء والخطَّة الحربية أن يهزموا جيش علي بن عيسى بن ماهان الذي كثرت أخطاؤه، فانقلب هذا عليه فأسفرت المعركة (رمضان ١٩٥هـ) عن مقتله هو وهزيمة جيشه، وحمل رأسه وجثته إلى المأمون في مرو(١).

كان وقع النصر هائلا في بلاط المأمون، وعلى وزيره الأول الفضل بن سهل، وقد كانوا يستعدون لإرسال مدد آخر بقيادة هرثمة بن أعين، وحينئذٍ رتب الفضل بن سهل بيعة أخرى للمأمون بالخلافة، بينما كان وقعه كالصاعقة في بغداد التي وصلها الخبر في (شوال ١٩٥هـ)، ليس فقط في بلاط الخلافة بل -أيضًا- لدى الجند الذين سرت بينهم حركة تذمر تطالب بالمزيد من الأموال ولم تهدأ حتى أخذوا رواتب أربعة أشهر وزيادات أخرى(٢).

ولا ريب -أيضًا- أن الصاعقة سرت لدى أهل بغداد الذين علموا أنها بداية حرب بين الأخوين لم يحدث مثلها منذ ستين سنة، فآخر النزاع بين بيت الملك ذلك الذي كان قديما بين أبي جعفر المنصور وعمه عبد الله بن علي.

وكان أول ما فعله الأمين أن صادر أموال وضياع المأمون في بغداد، ثم أعدَّ جيشًا آخر يقوده عبد الرحمن بن جبلة الأنباري(٣) لحرب طاهر بن الحسين، وأعطاه ولاية المشرق من حلوان (في أرض العراق) وحتى ما يستطيع أن يستولي عليه من أعمال المأمون، وخرج الجيش في عشرين ألفًا، وصار مركزه العسكري في مدينة همذان، وعندها دارت معارك شديدة لعدة أيام ثم كانت الغلبة لطاهر بن الحسين بعد بطولات وبسالات من الجيشين، فلجأ الأنباري إلى همذان فحاصره طاهر حصارًا شديدًا اضطرَّ معه إلى الاستسلام وطلب الأمان في النهاية فأجابه طاهر لذلك، غير أن عبد الرحمن غدر بجيش طاهر وفاجأوهم بالقتال وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، إلَّا أنَّ طاهرًا استطاع استعادة زمام المعركة وانتصر مرة أخرى وقُتِل الغادر عبد الرحمن بن جبلة(٤).

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢، ٤٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٤، ٤٥، ٥٤.
(٣) في بعض المصادر «الأبناوي»، وقيل لأن غالب جيشه كان من الأبناء: آباؤهم عرب وأمهاتهم موالي. وثمة شواهد أخرى ترجح أنه «الأنباري». انظر: د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٨٧ (الحاشية ٧).
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٥، ٥٦.

لم يكن بين خبري الهزيمتين إلا شهران فحسب، إذ وصل نبأ هذه المعركة إلى بغداد في (ذي الحجة ١٩٥هـ)، فتضاعف القلق والفزع في بغداد، لا سيما وأن المأمون لم يَعُدْ مكتفيًا بصدِّ الجيوش بل بدأ في التقدم لأول مرة، حيث طرد طاهر بن الحسين ولاة الأمين عن قزوين وتلك النواحي، وتعاظم نفوذ المأمون في هذه المناطق، واستولى طاهر على عدة مدن بل بدأ في التوجه نحو العراق[١].



على أن السنة لم تنته بهذه المصائب التي نزلت على رأس الأمين، بل في الشهر ذاته الذي وصلت فيه أنباء الهزيمة الثانية (ذي الحجة ١٩٥هـ) كان الأموي علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، يشعل ثورة في الشام ويحاصر واليها سليمان بن أبي جعفر الذي استطاع الهرب بصعوبة، فيضطر الأمين إلى أن يرسل إليه بجيش آخر يقوده الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، غير أن قائد الجيش خرج من بغداد ووصل إلى الرقة فأقام بها ولم يتحرك نحو مهمته في الشام[٢]!!

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٥، ٥٦.

وعلى عكس هذا المشهد كانت خراسان تحتفل بانتصاراتها، وكان المأمون يكافئ وزيره الفضل بن سهل فيرفع من مكانته ورتبته وأمواله ويلقبه بـ «ذي الرياستين»، والرياستان هما: رياسة الحرب ورياسة التدبير (الإدارة)، وهو أول وزير نودي بلقب الأمير فاجتمع له الوزارة والإمارة[١]، وقد نقش الفضل على حافة سيفه: رياسة الحرب، وعلى الأخرى: رياسة التدبير[٢]، وصار للفضل مظاهر سلطانية كسروية؛ يجلس على كرسي ذي أجنحة ويُحمل به أينما ذهب على نحو ما كان يفعل وزير فارسي شهير[٣]، ولقد كان دور الفضل بن سهل في رأي كثير من المؤرِّخين هو الدور الرئيسي والأساسي فهو السياسي العبقري والعقل المدبر لكلِّ مسار الصراع مع الأمين[٤].

وفي مشهد بغداد اختار الأمين أسد بن يزيد بن مزيد الشيباني ليكون قائد الجيش الثالث الذي يواجه طاهر بن الحسين، غير أن أسد بن يزيد اشترط أن يُعطى جميع الجند الذين في جيشه رواتب عامين حتى يُخلصوا الحرب وأن يكون لهم خراج وأموال كل البلدات والمدن التي يستولون عليها، فغضب الأمين أمام هذه المبالغات وأمر بحبسه[٥]، وتذكر رواية أخرى أن أسدًا إنما طلب أن يُعطى ولدي المأمون رهينة ليكونا أسيرين وتكون لديه صلاحية مساومة الوليد بهما وله -أيضًا- صلاحية قتلهما، فهذا الذي ارتاع له الأمين وانزعج وقال: «أنت أعرابي مجنون! أدعوك إلى ولاء أعنة العرب والعجم وأطمعك خراج كور الجبال إلى خراسان وارفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القواد والملوك وتدعونني إلى قتل ولدي وسفك دماء أهل بيتي؟!!» فلهذا غضب عليه وحبسه[٦].

ثم التمس الأمين قائدًا آخر من أهل بيت يزيد بن مزيد؛ لكي لا يكسب أعداء جددا، فكلف عمه أحمد بن مزيد ومعه عبد الله بن حميد بن قحطبة بقيادة جيشيْن من أربعين ألفًا (أوائل ١٩٦هـ)[٧]، فخرجا إلى حلوان (من بلاد العراق) فلما وصلوا إلى قريب من حلوان

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٥٠، وابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢١٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦١.
(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٥٩.
(٤) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١٥٥.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٨، ٥٩.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩.
(٧) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٠، ٦١.

كان طاهر بن الحسين قد صنع خندقًا حول جيشه، وأهمُّ من ذلك أنه صنع جواسيس وعيونًا في الجيشين فكانت مهمَّة هؤلاء أهمَّ من أي ترتيب حربي آخر؛ إذ ما زالوا يوقعون الفتنة بين القائدين وجنودهما وينشرون الأخبار المغرضة حتى اختلف القائدان وتقاتل جنودهما فرجعا دون حرب عدوهما طاهر بن الحسين الذي دخل دون حرب إلى حلوان، وفيها وصل إليه جيش آخر يقوده القائد الفذ هرثمة بن أعين من قِبَل المأمون، ومعه رسالة تأمره بأن يترك إدارة البلاد التي استولى عليها وشئونها لهرثمة ثم ليكمل تقدمه في منطقة الأهواز[١].

ثم جاء دور عبد الملك بن صالح ليرد الجميل للأمين، لقد فهم عبد الملك أن جنود العراق قد فسدوا ولم يَعُدْ يُجدي معهم إصلاح، فهم إن افتقروا إلى الأموال شغبوا واضطربوا ولم يكن لهم بذل في القتال، كما أنهم إذا أُعطوا طمعوا أكثر، ثم هم قد انتشرت بينهم جواسيس المأمون وقد انهارت معنوياتهم بعد هزيمتين قاسيتين حتى وصل الحال إلى أن اقتتلوا ولم يواجهوا عدوهم، فأشار على الأمين أن يوليه الشام فله فيها أنصار وأتباع وأحباب[٢]، وأهل الشام مقاتلون أفذاذ وهم منذ قديم أهل الجهاد مع الروم وغيرهم، فوافق الأمين وولاه الشام[٣].

غير أن الشام نفسه يعاني من ثورة قائمة لم يتحرك لها جيش الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان بل أقام في الرقة، ففيه ثورة وجيش خامل، فتحرك عبد الملك بن صالح إلى الرقة وبدأ في مراسلة أهل الشام وقد بذل إليهم الأموال وأعلى مقامهم فاجتمع لديه عدد كبير منهم، لكنه عند اكتمال الحشد وقعت به مصيبتان؛ الأولى: اشتباك بين الجنود الخراسانية في الجيش الذي لم يحارب وبين أعراب الشام انقلب إلى نزعة عنصرية بين العرب والعجم وانحاز فيه عبد الملك إلى العرب، فمن الشاميين من كاد يقلب العرب معه إلى حرب على العباسيين انتقاما لما فعلوه بأهل الشام قبل ستين سنة، ومنهم من آثر ترك الأمر كله ورفض أن يقاتل تحت راية العباسيين (معركة عباسية – عباسية) فانسحب وانسحب معه عامة أهل الشام، وأما من بقي منهم فقد استمروا في الحرب مع

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦١.

(٢) كان الشام قد تولى أمره عبد الله بن علي العباسي حتى طالب بالخلافة في عهد المنصور ثم هُزِم، فتولى الشام من بعده أخوه صالح بن علي، وبقيت أسرة صالح في ولاية الشام نحو نصف قرن مع استثناءات وفترات متقطعة، صالح بن علي ثم ولده إبراهيم بن صالح ثم عبد الملك بن صالح حتى حبسه الرشيد. زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٤٣.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢.

الخراسانية فقتلوا من بعضهم خلقا كثيرًا. وأما المصيبة الثانية: فهي موت عبد الملك بن صالح الذي كانت تُعقد عليه الآمال[١]. فكانت مصيبتان نزلتا على رأس الأمين في بغداد!

وهنا عاد الجيش إلى بغداد بقيادة الحسين بن علي مرة أخرى، وقد كانت عودته غير المظفرة تمثل أملا لأهل بغداد الذين تتقدم نحوهم جيوش المأمون فاستقبلوه بالحفاوة والتكريم (رجب ١٩٦هـ)، إلَّا أنَّ أمل أهل بغداد لم يكن في محله، إذ قدم الحسين بن علي وهو ناقم على الأمين ومُخالف له، ولما استدعاه الأمين رفض أن يذهب إليه وأغلظ في الرد فقال: «والله ما أنا بمسامر ولا مضحك، ولا وليت له عملا ولا جبى على يدي مالا، فلماذا يطلبني في هذه الليلة؟»[٢].

بل وأعلن الحسين نفسه ومن بغداد ثورة على الأمين فقام في الناس خطيبا فَأَلَّبهم على الأمين، وكان في تمرده نَفَسًا عنصريًّا وميلًا إلى الخراسانيين عن العرب، وتحذيرًا لِمَنْ معه من الجنود والناس عن دعم الأمين؛ فإنهم إن نصروه اليوم فسينقلب عليهم غدًا انحيازًا للعرب، وقد استجاب له الكثيرون[٣].

ولا شَكَّ أن خبرا كهذا كان له أسوأ الأثر على الأمين الذي كلما أراد إطفاء نار اشتعلت عليه، فلا هو قادر على إيقاف زحف جيوش المأمون، ولا إطفاء فتن الشام، بل وقد فاجأته ثورة عليه في قلب بغداد!!

ولم يكن العرب في بغداد وغيرهم ممن يسكتون على مثل هذا فانطلقت سرية منهم لقتال الحسين بن علي ومن معه فانهزمت هذه السرية، فتفاقم أمر الحسين بن علي، فأعلن خلعه الأمين وبايع للمأمون (١١ من رجب ١٩٦هـ)، وضاقت الدنيا على الأمين، ولم يَعُدْ في شَكٍّ من أنه في آخر أيامه، لا سيما بعد أن انطلق أمير من البيت العباسي وهو العباس بن موسى بن عيسى -والذي كان من قبل سفيرا من الأمين إلى المأمون فكسبه المأمون في صفه- فاقتحم مجلس الأمين واعتقله هو وأمه وإخوته في قصر أبي جعفر المنصور[٤].

ثم جاءت للأمين بارقة أمل غالية، ذلك أن الحسين بن علي لم يكن يملك من الأموال

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢، ٦٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٤.
(٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٤.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٤.

والأرزاق ما يعطي جنوده ومن معه فيواصل ثورته، فاضطرب أمر من معه من أتباعه، ثم إن غالبية أهل بغداد -وهم الذين لم يروا من الأمين شرًّا ولا ظلمًا ولا إهانة- تعصبوا للأمين ورفضوا ما فعله العباس بن موسى، ومنهم من رفض أن يكون رئيسهم الحسين بن علي وهو ليس عربيا وليس من ذوي المكانة والمقام، فحشد كل أولئك جمعًا كبيرًا قاتلوا به من ما زال مع الحسين بن علي فهزموهم بعد مقتلة كبيرة وأسروا الحسين نفسه في اليوم التالي (١٢ من رجب ١٩٦هـ)[1]، وكان انفراجة مفاجئة للأمين!

وانطلق زعيمهم -واسمه أسد الحربي- فأخرج الأمين من اعتقاله وأعاده إلى قصر الخلد (مقر الخلافة)، ولما رأى الأمين نصرًا جاء من العامة والشعب من حيث لا يحتسب، فكر في استخدام القوة الشعبية فأمر بتسليح كل من لا يملك سلاحًا، ثم طلب الحسين بن علي فأخذ الحسين في الاعتذار للأمين وطلب العفو، فعفا عنه الأمين، بل وجعله وزيرًا مفوضًا، بل وكلفه بقيادة جيش لمقاتلة طاهر بن الحسين (١٣ من رجب ١٩٦هـ)[2]!!

يبدو قرارا أحمق، ولكن هل كان الأمين يملك غير ذلك في هذا الوقت؟ فلعلَّه بإكرامه الزائد لعلي بن الحسين أَمَّل في أن يستفيد منه، فليس هذا بالوقت الذي يخسر فيه قائدًا عسكريًّا كالحسين بن علي؛ على الرغم مما كان منه سابقًا من إقامة بالرقة وترك ثورة الشام تتفاقم، ثم رفضه الخضوع للأمين، ثم إشعاله ثورة كادت تنجح لولا أن فشلت بشكل غير متوقع!

على أن علي بن الحسين كان على موقفه الأول، فما إن خرج لقتال طاهر بن الحسين فوصل إلى أطراف بغداد حتى هرب هو وحاشيته، فبعث الأمين سرية استطاعت أن تلحق به هذه المرة فقاتلهم وقاتلوه فقتلوه (١٥ من رجب ١٩٦هـ)، وجاءوا برأسه إلى الأمين[3].

ما أعجب تقلب الأيام!! خمسة أيام مدهشة في حياة الحسين بن عيسى بن علي، فهو متمرد أول أمس، ثائر بالأمس، أسير هذا اليوم، وزير في الغد، قتيل بعد غد!!!

في هذه الأثناء (رجب ١٩٦هـ) كان طاهر بن الحسين قد استحوذ على أغلب بلاد فارس وما يليها من جهة العراق ووجد مقاومة شديدة من والي الأهواز محمد بن يزيد بن حاتم

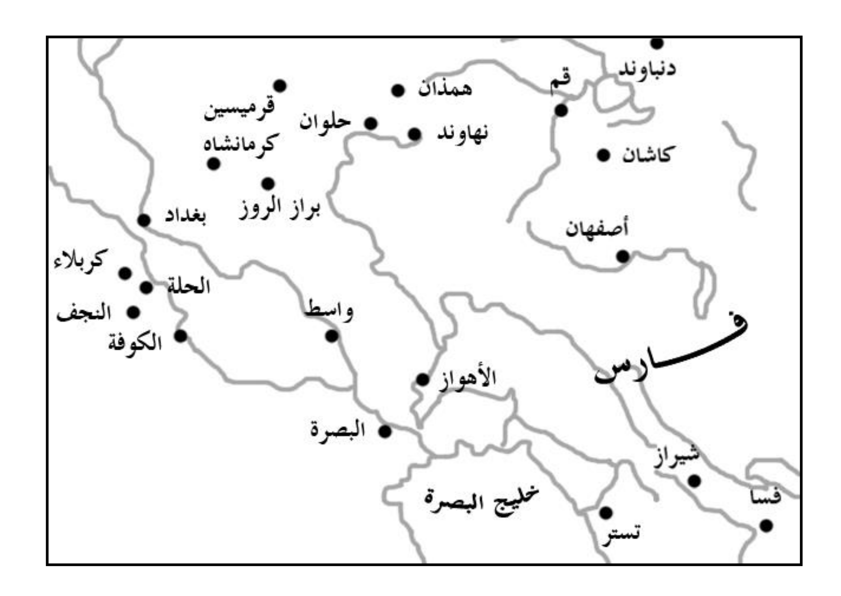
---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٣٩، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٥.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٥.

(٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٥، ٣٨٦، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٥، ٦٦.

المهلبي، وبايع أكثر ولاة الأقاليم للمأمون، واستولى طاهر على المدائن وواسط ونواحيها، وكان داود بن عيسى بن موسى -والي مكة- قد خلع الأمين وبايع للمأمون منذ أن أرسل إليه في طلب وثيقة ولاية العهد التي وقعت في مكة وعلقت في الكعبة ومزقها وبايع لابنه موسى، ثم أرسل داود إلى ابنه سليمان -وكان والي المدينة- ففعل مثل أبيه، وكذلك أرسل المأمون رجلًا من أشراف أهل اليمن واليًا عليهم فدعاهم إلى خلع الأمين وبيعة المأمون فاستجابوا، فلم يبقَ مع الأمين من البلاد إلا القليل[1].



وفي هذه اللحظات الحرجة هرب الفضل بن الربيع حاجب الأمين الذي أشعل هذه الفتنة أول مرة، ولم يُعثر له على أثر[2]، فلعلَّه خاف أن يقتله الأمين كما قتل علي بن الحسين بن عيسى، أو لعلَّه رأى أن هروبه الآن يوفر له فرصة أكبر للنجاة من جيوش المأمون التي يقلل اقترابها مساحات النجاة أمام الفضل بن الربيع.

بدأ الأمين يُلقي بآخر أوراقه العسكرية، فجهز أربعمائة سرية بقيادة علي بن محمد بن عيسى بن نهيك، فهزمهم هرثمة بن أعين وأسر قائدهم[3]، ثم جاءت انتعاشة أخرى للأمين

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٦ وما بعدها.
(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٧١.

حيث انشقت مجموعة من جيش طاهر بن الحسين وانحازوا إلى الأمين لما رأوه من كثرة إنفاقه على جنده، فأكرمهم غاية الكرم حتى إنه «غَلَّف لحاهم بالغالية[1]»، فسُمُّوا «جيش الغالية»، فكانوا قوة مضافة لآخر جيش في حوزة الأمين، فأرسلهم لقتال طاهر بن الحسين ولم يكن مصيرهم أفضل من سابقيهم، وهزمهم طاهر[2].

بعد هذا النصر كان طاهر على مشارف بغداد وبدأ في حصارها عسكريًّا، ثم مارس أسلوبه الناجح في دس العيون والجواسيس الذين ينشرون الإشاعات ويذيعون الأخبار التي تثير الاضطرابات في جنود بغداد وأهلها، وكان له ما أراد وكثرت القلاقل بين الجنود وقياداتهم وبين فرق الجنود بعضها وبعض، وانقسموا على أنفسهم وعلى الأمين (٦ من ذي الحجة ١٩٦هـ)، فصار الأمين في حيرة لا سبيل منها؛ حتى وصل طاهر بن الحسين بجيوشه إلى باب الأنبار من بغداد (١٣ من ذي الحجة ١٩٦هـ)، وكان طبيعيًّا أن يفضي هذا إلى الفوضى والانفلات الأمني في بغداد وكثرت الجرائم والسرقات وحوادث القتل[3].

وكان هذا العام (١٩٦هـ) هو العام الأول الذي دُعي فيه للمأمون في الحرمين، وحجَّ بالناس فيه العباس بن موسى بن عيسى، وكان طاهر بن الحسين قد ولاَّه أمر الحج.

وإذا كان (١٩٦هـ) هو عام هزائم الأمين وانحسار نفوذه، فإن العام التالي (١٩٧هـ) كان عام انتهاء نفوذه على بغداد نفسها، فلم يخرج هذا العام إلا وبقي في عمر الأمين بضعة أيام لا غير.

حوصرت بغداد حصارًا محكمًا، واجتمع عندها جيشا طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين، وانحاز عدد من أمراء البيت الهاشمي إلى المأمون مثل القاسم بن الرشيد وعمه منصور بن المهدي فأكرمهما، بل وولَّى القاسم ولاية جرجان، كذلك هرب كثير من جند الأمين وانحازوا إلى جيش طاهر، ولم يَعُدْ أمام الأمين من أموال يستعين بها على الحرب فباع كل ما في خزائنه من أشياء وتحف، بل اضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير، ولما استطاع هرثمة اقتحام جانب من بغداد وأحدث «ثغرة حربية» فاتخذ الأمين قرارا بنسف هذه الثغرة فأمر بضرب هذه المنطقة بالمجانيق والقذائف الحارقة لا يبالي قتلت عدوًّا أو

---

(١) الغالية: هي أخلاط من الطيب كالمسك والكافور والعنبر، ابن منظور: لسان العرب ١١/ ٤٩٩، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٦٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٧١، ٧٢.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٧٢، ٧٣.

صديقًا؛ حتى لقد قال عمرو بن عبد الملك العتري الشاعر:

يـــــا رمــــــاة المنجنيـــــــق كلكـــــــم غـــــير شـــــفيق
مـــــــا تبـــــــالون صـــــديقا كـــــان أو غـــــير صـــــديق[1]

ثم أحرق الأمين كثيرًا من القصور والدور في بغداد، ولعلَّ ذلك كان لحرمان وصول ما فيها من الأموال والتُحَف إلى طاهر بن الحسين عن طريق بعض من سينحاز إليه، وعلى الجانب الآخر كان الحصار يشتد على بغداد والأسعار ترتفع والاضطراب في الداخل يزيد، وقد سيطر طاهر بن الحسين على ضياع وأرض من لم ينحز إليه لا سيما إن كان من البيت الهاشمي أو الأمراء فكان ذلك إضعافًا جديدًا لهم فدخل بعض أكابر أمراء الأمين في طاعته كعبد الله بن حميد بن قحطبة (الذي خرج لحربه من قبل) ويحيى بن علي بن ماهان وغيرهما، وهدم طاهر كذلك ما رأى أنه يضر بالمحاصرين ويزيد من شدة الحصار، وما يمكن أن يكون ذا ضرر حربي عليه[2].

وصارت بغداد الزاهرة الباهرة الفاخرة التي كانت فخر البلاد في أيام الرشيد صورة بائسة كئيبة موحشة، أثارت وجدان الشعراء والأدباء حتى قال عبد الملك العتري:

مــن ذا أصــابك يــا بغــداد بــالعين؟ ألم تكـــوني زمانـــا قـــرة العـــين؟
ألم يكــن فيــك قــوم كــان مسـكنهم وكــان قــربهم، زينــا مــن الـــزين؟
صــاح الغــراب بهــم بــالبين فــافترقوا مــاذا لقيــتُ بهــم مــن لوعــة البــين؟
اســـتودع الله قومـــا مـــا ذكـــرتهم إلا تحـــدر مـــاء العـــين مـــن عينـــي
كـــانوا، ففـــرقهم دهـــر وصـــدَّعهم والــدهر يصــدع مــا بــين الفــريقين[3]

وثمة أشعار أخرى مؤثِّرة أوردها الطبري في تاريخه.

ومضى هذا العام على هذا الشأن، حصار يشتد وبينهما جولات من المعارك، وقد انتصر جنود الأمين في جولة منها سُمِّيت «وقعة الشماسة» وفيها أُسِر هرثمة بن أعين نفسه غير أن

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٧٤، ٧٥، والأزدي: تاريخ الموصل ص٣٢٨.
(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٦، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٧٥، ٨١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٧٥.



هجومًا باسلًا من جيش طاهر؛ الذي أصر أن يستعيد هرثمة استطاع أن يعيد الأمور إلى سيرتها الأولى، كما حققت «المقاومة الشعبية» التابعة للأمين انتصارًا في جولة أخرى سميت «وقعة درب الحجارة» حيث كانت الحجارة هي السلاح الرئيسي فيها من جانب العامة، وقد أبدى العامة الذين ناصروا الأمين من البسالة والبطولة والشجاعة ما لم يظهر من كل جيوشه مجتمعة، بل ولا عشر معشاره[1].

غير أن الناس انحازوا في النهاية إلى جيش طاهر حيث الأمن قائم ومتحقق في الجزء الذي يسيطر عليه من المدينة بخلاف الآخر الذي ما زال في حوزة الأمين والذي وصل من فساد الأمر فيه وانهيار الأمن أن وصفه الطبري بقوله: «لم يبلغنا أن مثله كان في شيء من سائر بلاد الحروب»، وشُبِّه الحد الفاصل بين سيطرة الجيشين بقوله تعالى: ﴿**بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ [الحديد: ١٣][2]، فلقد كان لصوص بغداد وأهل الشر فيها أضر على الأمين من جيش طاهر بن الحسين، فإذا هدم جيش طاهر دارًا أو قصرًا سارعوا هم إلى سلب أثاثه وسقوفه وأبوابه[3] فتزيد بهم الخسارة والتخريب، وقد علق عمرو العتري -وهو الذي يحسن أن نسميه شاعر هذه النكبة- على هذا بقوله:

لنا كل يوم ثلمة لا نسدها ... يزيدون فيما يطلبون وننقص

إذا هدموا دارا أخذنا سقوفها ... ونحن لأخرى غيرها نتربص

وإن حرصوا يومًا على الشر جهدهم ... فغوغاؤنا منهم على الشر أحرص[4]

وحتى الأمين نفسه قال: «وددت أن الله ﷻ قتل الفريقين جميعًا وأراح الناس منهم فما منهم إلا عدو ممن معنا وممن علينا أما هؤلاء فيريدون مالي وأما أولئك فيريدون نفسي»[5].

وما كاد ينفض عام (١٩٧هـ) إلا وانفض معه آخر الأمراء الذين كانوا مع الأمين عنه كخازم بن خزيمة الذي أخذ الأمان من طاهر بن الحسين ومحمد بن علي بن عيسى بن ماهان[6].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٨٠ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٨١ وما بعدها.
(٣) وهذه كثيرًا ما تكون مُذَهَّبَة إن كانت لأمراء أو أعيان.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٨٣.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٨٩.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٨٧، ٩٠، والأزدي: تاريخ الموصل ص٣٢٨.

وما هي أيام مضت من أوائل عام (١٩٨هـ) إلا واستطاع هرثمة بن أعين اقتحام بغداد من الجانب الشرقي، وتم السيطرة على جسر بغداد الممتد على نهر دجلة (٢٢ من المحرم ١٩٨هـ)، ودخل جيش طاهر من الجانب الشرقي ونادى بالأمان لِمَنْ لزم منزله، وجرت عند دار الرقيق والكرخ وغيرهما اشتباكات شديدة، وحاصروا مدينة أبي جعفر قصر الخلد وقصر زبيدة، ونصبوا المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة، وظل الأمين يتنقل بين هذه القصور في الجزء الملكي من المدينة والمجانيق ترميها، ومعه أمه وولده، وحرق في أثناء ذلك ما في قصر الخلد من الأثاث والبُسُط والمتاع[1].

ولما اشتد الحصار ولم يَعُدْ من سبيل، اقترح عليه مَنْ كان معه من المشاورين والخدم ثلاثة أمور: أن يهرب إلى الشام أو الجزيرة، ويعيد ترتيب أموره من هناك، أو أن يأخذ الأمان من طاهر بن الحسين، أو أن يأخذه من هرثمة بن أعين وفي حالة الأمان هذه فإن المأمون لا يضره ولا يؤذيه بل سيوفر له الأمان والكفاية كما يشاء، فمال إلى أخذ الأمان من هرثمة لأنه كان من المقربين إلى الرشيد فهو أقرب صلة وأرفق به من طاهر، وبالفعل تواصل الأمين مع هرثمة، فأعطاه الأمان فخرج في ليلة الأحد (٤ من صفر ١٩٨هـ) فأكرمه هرثمة وعَظَّمه وقبَّل يديه، وأركبه مركبا يعبر به نهر دجلة[2].

إلا أن طاهر بن الحسين (القائد الأعلى للجيشين) علم بهذا، وغضب من انفراد هرثمة بالرأي ومن أن ينسب النصر إلى هرثمة وحده، وقال: أنا الذي فعلت هذا كله ويذهب إلى غيري، وينسب هذا كله إلى هرثمة؟ -وفي روايات أخرى أنه اشترط أن يتنازل عن الخلافة بتسليم الخاتم والقضيب والبردة[3] قبل أن يخرج بالأمان، فلما لم يتم هذا رفض طاهر إجارته أو إعطاءه الأمان- فبعث من جنوده من أغرق المركب الذي فيه الأمين، فعبر الأمين النهر سباحة حتى الجانب الآخر، والتجأ إلى بيت، فأرسل طاهر خلفه جنودا من الخراسانيين -ولعلَّهم لا يفقهون اللغة العربية- فهجموا على هذا البيت فجعل يقول: ويحكم أنا ابن عم رسول الله ، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي. فلم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، بل تكاثروا عليه فقتلوه وحملوا رأسه

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٩١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٩٣ وما بعدها، والأزدي: تاريخ الموصل ص٣٣٠.
(٣) الخاتم هو خاتم الخليفة الذي يوقع به على القرارات، والقضيب والبردة يقال إنهما للنبي ﷺ وكان الخلفاء يتوارثونها كمظهر من مظاهر الشرعية وخلافة النبوة.

إلى طاهر بن الحسين، فقتل الأمين في ليلة (٤ من صفر ١٩٨هـ)[١].

وهو بهذا أول الخلفاء العباسيين المقتولين، وتلك بداية ضعف الدولة!

خارج سلطة الأمين

لئن كان سوء الحظ وعدم التوفيق قد سيطرا على الأمين في الداخل، فإن حسن الحظ كله قد كان له من جهة الخارج.

كان الروم مشغولين بمشكلاتهم الداخلية، وهذا ما حمى الأُمَّة من لحظات عصيبة طالما استغلَّ الأعداء مثلها في الغزو والاستيلاء على بلاد المسلمين ونفوسهم ونسائهم، إذ مات نقفور (١٩٣هـ) في إحدى حروبه بعد أن دام ملكه تسع سنوات، وخلفه ابنه الذي كان جريحا فلم يلبث أن مات بعد شهرين من حكمه، فخلفه زوج أخته ميخائيل بن جرجس الذي تعرض لمحاولة اغتيال نجا منها فقرر ترك الحكم والدخول في سلك الرهبنة (١٩٤هـ)، ثم تولى الحكم بعده الملك إليون[٢].

وعلى جبهة الداخل الإسلامي، فقد نجحت رؤية الرشيد في دولة الأغالبة التي مثلت حاجزا أمام امتداد حركات الخوارج والعلويين في المغرب، فظلت دولة بني الأغلب قوية وعلى ولائها الرسمي للعباسيين وظلت في الوقت نفسه تُمَكِّن لاستقلالها العملي في إفريقية، فلهذا لم تنشأ دول أخرى في تلك المناطق البعيدة على عهد الأمين، وهو ما لم يحدث في عهود الأقوياء الكبار الذين ما استطاعوا إيقاف نشوء الدول في المناطق البعيدة!!

وقفة مع الأمين

قضى الأمين في خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر لم يكن في يوم منها سعيدا أو هانئا، فهو منذ اللحظة الأولى يفكر ويقدر ويخطط ويدبر للإيقاع بأخيه المأمون، وحين لم ينجح في هذا كان عليه أن يقضي حياته في التفكير والتقدير والتخطيط والتدبير للنجاة من المصير المحتوم الذي يبدو كل يوم أوضح وأظهر منه في الأمس!

فهذه الخلافة التي تغري الأبصار وتخطف القلوب.. كانت همًّا يزداد ويثقل في كل يوم

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٩٥ وما بعدها، والأزدي: تاريخ الموصل ص٣٣٠، ٣٣١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١، ٤٠، ومحمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ١٩٢.

حتى جاءت بالموت الشنيع!

لكن الأمين بكل يقين لم يكن على مستوى المهمَّة ولا على قدر الخلافة، ثم لم يتهيأ له من البطانة ما يعتدل به حاله، بل كان رجاله في السياسة والحرب أقلَّ شأنًا من تحمُّل مهمَّة الخلافة العظيمة!

١- تهمة اللهو والعبث

تفيض الكتب بأخبار اللهو والعبث والمجون لدى الأمين، ووصلت في اتهامه أخلاقيا إلى حد الرمي بفعل قوم لوط وأنه آثر هذا على النساء الحلال، وأن انشغاله انصب على سفاسف الأمور مثل بناء ساحات الصيد وصناعة مراكب النزهة في دجلة على هيئة الحيوانات: الأسد والفيل والحية والفرس والعقاب....

ونحتاج في معالجة هذه الروايات أن نلقي الضوء على بضعة أمور:

الأول: أن المؤرِّخين المتقدمين لم يهتموا بذكر الإسناد في هذه الفترة بل كانوا يروون الخبر بلا إسناد أو بإسناد لا يُلتفت إليه، وهذا عند المُكثرين المهتمين بالجمع كالطبري، بينما نجد المصادر الأخرى المتقدِّمة والمعروفة بتثبتها شحيحة في هذه السنوات كخليفة بن خياط والفسوي، وهذا ما يجعل مهمَّة تصحيح تاريخ هذه الفترة وما بعدها لا يتوصل إليه بفحص السند، بل بفحص المتن وبمراجعة الكثير من كتب الأدب لفحص الأقوال والأشعار وصحَّة نسبتها إلى قائليها[1].

الثاني: أن الكتب تفيض بروايات تخدم وجهتي النظر، فمن أراد وصف الأمين بالقدرة والقوة والمزايا الحسنة فسيجد، ومن أراد العكس فسيجد أيضًا، ولذا سلك كثير من المؤرِّخين مسار ضرب الروايات بعضها ببعض لتخدم الهدف، فمن شاء الثناء عليه قال: تورد الروايات أنه كان كذا وكذا وهذا لا يتفق مع أنه كان كما يقال كذا وكذا، ومن شاء الذم عَكَسَ المسار.. ومنهج ضرب الروايات بعضها ببعض لا يُطمأن إليه في التعامل مع أي نص مهما كان ثابتًا متواترًا[2]، فكيف بروايات منهارة السند؟!

الثالث: ما يُروى في إنفاق الأمين وتبذيره، أو في اتخاذه مظاهر سرف وترف، لو أنه كان في عهد قوة لكان نُظِر إليه على أنه دليل غنى وسخاء وكرم ونهضة مستقرَّة، وأما مظاهر ترفه وسرفه فهي أبهة

---

(١) محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ١٢/ ٥ وما بعدها.

(٢) وكم حفلت أقوال العلماء بالنهي عن هذا الأسلوب في التعامل مع القرآن الكريم بضرب آياته بعضها ببعض!

الخلافة وجلالة الدولة وزينة السلطان.. لكن طبيعة التحليل أن النتائج النهائية تُؤَثِّر على تلمس الأسباب، ولكن ينبغي ألا تكون النتيجة مؤثِّرة في تشويه كل التصرفات والأفعال حتى العادي منها ولا التماس السوء حتى داخل البيوت وحتى الوصول لتهمة فعل قوم لوط!

الرابع: لكن بين أيدينا تراث ضخم عن مهازل الأمين وسوء تدبيره وإدارته، والتشكيك فيه كله ورميه عن قوس واحدة أمر لا يقدم عليه باحث فيه رائحة نزاهة، «ثم إن ما كتب عن الأمين لم يكتب كله ولا جله في عهد المأمون، إذًا فلا نفوذ للمأمون في توجيه هذا التاريخ[1]، وقد كَتَب عن الأمين كثير من ثقات المؤرِّخين والكُتَّاب، وكلهم أجمعوا على خلاعته وإسرافه في التهتك والمجون مع أنهم استقوا معلوماتهم عن مصادر مختلفة ورواة متعددين، ولا يمكن أن نعتقد أن هذه المصادر وأولئك الرواة قد أجمعوا على باطل، هذا ولم يتول الخلافة أحدٌ من ذرية المأمون، وعلى ذلك فلا يمكن أن نقول: إن نفوذ المأمون عاش طويلًا، وأثر في كتابة تاريخ هذه الحقبة... وليس معنى هذا أن كل ما كتب عن الأمين صحيح في جملته وتفصيله، فإني أميل إلى القول بأن بعض الرواة استغلُّوا حماقة الأمين ومجونه فوضعوا بعض الأقاصيص عنه، ولكن هذا يجب ألا يُثير الشكوك حول التراث العلمي الضخم الذي كتبه الثقات من المؤرِّخين. هذا ومن مهمَّة المؤرِّخ الحديث أن يزن الأمر، وأن ينتقي لكتابته ما تدل الدلائل على صحته وصدقه»[2].

الخامس: أن الأمين كان ذا حظ وافر من العلم والأدب، وقد تتلمذ علي يدي أفذاذ عصره كالأصمعي الذي تفرغ لتعليمه بطلب من الرشيد حتى «قرأ القرآن، وتفقه في الدين، وروى الشعر واللغة، وعلم أيام الناس وأخبارهم»[3]، ويبدو هذا على أخلاقه في نصائحه لقواد جنوده قبل الخروج لحرب الأمين ففيها ما يدل على حكمة وفصاحة ثم في غضبه على أسد بن يزيد الذي أراد مساومة المأمون بابنيه!

٢- درس اختيار الرجال

حياة الأمين درس في اختيار الرجال، وقد كان الفارق واضحًا بين رجال الأمين ورجال

---

(١) وهذا على افتراض أن الخلفاء كانوا ذوي أثر في توجيه التاريخ، وهذا غير صحيح، فحتى عصر ظهور الدولة المركزية الحديثة كان العلماء يكتبون ويدرسون ما شاءوا بلا توجيه من الخلافة أو الحكومة، ولئن كان في كل عصر من يتقرب بعلمه إلى الحكام فيزوِّر، فإن هذا هو القليل من الإنتاج العلمي الضخم في التاريخ الإسلامي.

(٢) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/ ١٧٢، ١٧٣.

(٣) التنوخي: الفرج بعد الشدة ٣/ ١٦٣.

المأمون، فمنذ المواجهة الأولى كان يمثل الأمين الرجل الظالم المغرور الذي كرهه الخراسانيون علي بن عيسى بن ماهان، وقد أودى به غروره، ثم أرسل الأمين -في المواجهة الثانية- بعبد الرحمن الأنباري الذي هُزم ثم غدر ثم هُزِم، ثم بقائدين اختلفا حتى رجعا من غير حرب، ثم بالحسين بن علي بن عيسى الذي لم ينجح في أي مهمَّة أُسندت إليه، ومن وراء هؤلاء الفضل بن الربيع الذي أشعل فتنة وقت الأمن وهرب وقت الحاجة[١]!

على حين كان رجال المأمون رجالا كطاهر بن الحسين الذي كان قائدًا فذًّا وسياسيًّا محنَّكًا، ومخلصا إلى الحد الذي قال فيه «لا بد من قطع الأواصر والتنكر للأقارب في تأكيد الخلافة والقيام بحق الطاعة»[٢]، وكان من البطولة بحيث شهد له الأمين بقوله: «وهل كان المأمون لو اجتهد بنفسه وتولى الأمر برأيه بالغا عشر ما بلغه طاهر له؟!»[٣]، وحين هرب أمامه أحد خصومه لم يجد غضاضة ولا عارا وهو يبرر لنفسه فيقول: «إنه طاهر، ولا عار علينا في الهرب منه»[٤]، وقد ظلت أسرته الطاهرية تحكم خراسان من بعده لفترة طويلة وظلت حتى آخر أيامها ذات شعبية في تلك الأنحاء. وهرثمة بن أعين القائد المخلص الذي لم يفشل في مهمَّة سابقة أُسندت إليه إن كان في الشام أو في مصر أو في سمرقند أو في بغداد، ومن ورائهم الفضل بن سهل.

لقد أرسل الأمين في لحظاته الحرجة رسالة تهديد إلى طاهر بن الحسين تقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم أنه ما قام لنا مذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه منا إلا السيف، فأنظر لنفسك أو دع» وكانت هذه الرسالة عنوانا على حالة الأمين، حتى لقد احتفظ بها طاهر بن الحسين وأخرجها بعد مدة لبعض من خاصته وهو يقول: «والله ما هذا كتاب مضعوف، ولكنه كتاب مخذول»[٥].

فهكذا.. خذل الأمينَ رجالُه!

---

(١) بل تفيد رواية للمؤرخ المتقدم الزبير بن بكار أن الفضل ذهب إلى المأمون بعد استقرار ملكه وتوسط إليه في العفو عنه بطاهر بن الحسين، ورغم أن المأمون من طبعه العفو والصفح إلا أنه فعل هذا بصعوبة حتى لقد صلى ركعتين شكرا لله أن أنعم الله عليه بالقدرة على العفو عن الفضل بن الربيع، إلا أن الأخير ما كاد يسمع العفو حتى طلب أن يكون له منصب في دار الخلافة فأخرجه المأمون. الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٦٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٧.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٨٩ (ط٢. الشركة العالمية للكتاب).

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٨.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٧٦ (ط٢. الشركة العالمية للكتاب).



المأمـــــــــون

كان المأمون أبيض ربعة حسن الوجه، واسع العينين، طويل اللحية رقيقها، ضيق الجبين، على خده خال، عريض المنكبين، وأمه أم ولد فارسية يقال لها مراجل، وقد كان تاريخه قبل الخلافة مشهورا لا يحتاج إلى إعادة، فهو شهير منذ ليلة ولادته الشهيرة وحتى صارت إليه الخلافة.

***

لما قُتل الأمين انتهت دواعي الأزمة فعاد الهدوء إلى بغداد، وبسط طاهر بن الحسين سيطرته عليها، وخطب خطبة هادئة بليغة تبتعد عن الفخر بالنصر والقهر وما إلى ذلك[1].

واتخذ طاهر بن الحسين قرارًا حكيمًا، ذلك أنه أرسل موسى وعبد الله ابني الأمين إلى المأمون في خراسان؛ لكي يقطع الطريق على أي ثائر من البيت العباسي أو من غيره يحاول الخروج داعيًا إلى موسى بن الأمين «الناطق بالحق» أو أخيه عبد الله. ولم يمض خمسة أيام على هذا القرار إلا وظهرت حكمته؛ إذ تمرَّد بعض الجنود على طاهر لتأخر أرزاقهم فخربوا أجزاء من المعسكر وهتفوا: يا موسى يا منصور، وقد ظنوا أن موسى ما زال في بغداد، فلما علموا أنه ليس في بغداد كان ذلك من أكبر أسباب إحباطهم، وفي هذه الأثناء كان طاهر بن الحسين قد استعد لقتالهم، فرجعوا واعتذروا وأظهروا الندم، فقبل منهم طاهر بن الحسين بل واقترض لهم من أعيان بغداد رواتب أربعة أشهر، فتم احتواء التمرد وإنهاؤه على خير وجه[2].

ولا شك أن مقتل الأمين لم يمض بلا اعتراض، بل إن إبراهيم بن المهدي (عم الأمين) قال شعرا في رثاء الأمين حمل المأمون على أن يبعث إليه يعنفه ويلومه على ذلك.

وبعيدا عما دار في النفوس من الاعتراض أو الأسف، فإن البلاد قد استقرَّت عمليًّا للمأمون بنهاية عام (١٩٨هـ)، وأرسل عُمَّاله إلى الأقاليم، فتولى الحسن بن سهل -أخي

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٠١، ١٠٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٠٣، ١٠٤.

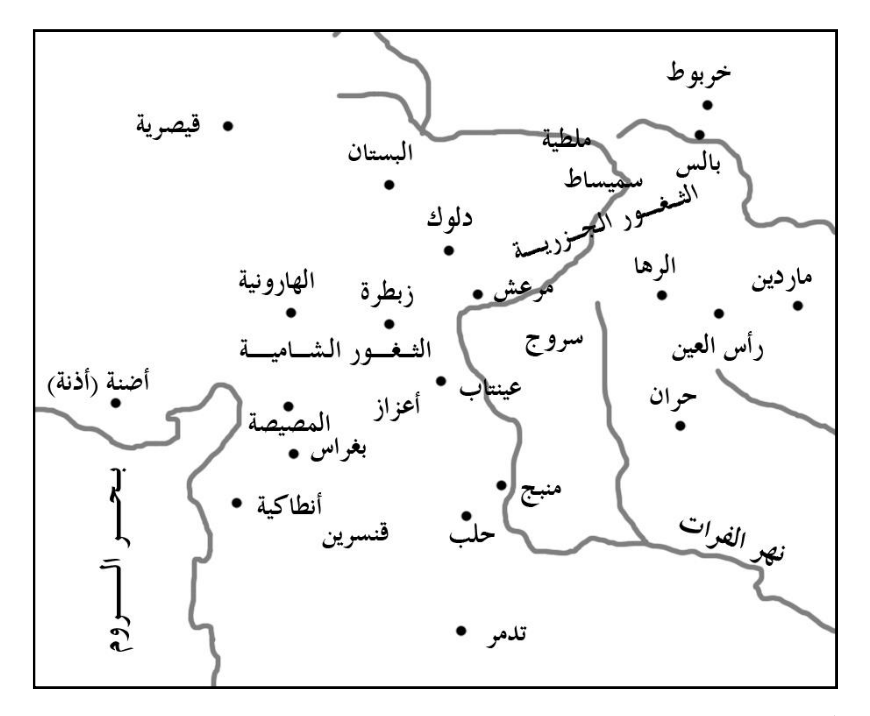
الوزير الأثير: الفضل بن سهل- نيابة العراق وفارس والأهواز والكوفة والبصرة والحجاز واليمن، وتولى هرثمة بن أعين نيابة خراسان، وتولى طاهر بن الحسين نيابة الجزيرة والشام والموصل والمغرب[١].

ويُسْتثنى من هذا الاستقرار (نهاية ١٩٨هـ) ثورتان أحدهما في خراسان أشعلها الحسن الهرش -زعيم عصابات بغداد- فدعا إلى مجهول آخر سماه «الرضا من آل محمد»، وسيطر مع بعض أتباعه على بعض المناطق فجبى الأموال ونهب القرى وأغار على التجار، فأرسل إليه المأمون جيشًا بقيادة أزهر بن زهير بن المسيب فقاتله حتى قتله (المحرم ١٩٩هـ)[٢].

ولئن كان تمرُّد الهرش قد استمرَّ شهرين، فإن الثورة الأخرى التي اشتعلت في الشام قد استمرت اثنى عشر عامًا حتى انتهت، وقد أشعلها نصر بن شبث العقيلي -وهو من عائلة تدين بالولاء للأمويين- وكانت ثورته لأجل تقديم الفرس على العرب وما صار إليه الحال بانتصار المأمون من سيطرة فعلية للفارسيين على الخلافة، وقد بدأت الثورة كحركة تمرُّد ضد الأمين الذي كان قد ولاه على الجزيرة ثم عزله وقتل نصرُ بن شبث داود بن عيسى الذي أنفذه إليه الأمين، ثم لبست الحركة ثوب العصبية العربية ضد الفرس فيما بعد، وقد انطلقت ثورته من مدينة كيسوم التي تقع شمال حلب والتابعة لسميساط، فسيطر عليها وعلى ما جاورها من البلاد، وعبر إلى الجانب الشرقي من نهر الفرات، وتابعه كل من وافقه على رأيه من العرب ومن أعراب هذه المناطق، غير أنه لم يستجب إلى العلويين الذين حاولوا تنسيق الجهود بينهم، وقد بدأت ثورة لهم في العراق، كذلك فقد رفض البيعة لأفراد من بني أمية حاولوا «ركوب الثورة» -بالتعبير المعاصر- وقد كانت تزداد قوة نصر؛ حتى إنه حاصر حران (١٩٩هـ)[٣].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢١، ١٢٢.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣، والأزدي: تاريخ الموصل ص٣٢٨، ٣٣٤.



ثورة علوية

ثم جاء العام التالي (١٩٩هـ) بثورة جديدة في الكوفة بدأت مع نصفه الثاني في (١٠ من جمادى الآخرة ١٩٩هـ)، وكانت علوية، قادها ابن طباطبا، وهو محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد دعا إلى الرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة، على أن القائد الفعلي للثورة ومدبر أمرها كان أبا السرايا السري بن منصور الشيباني[1].

وأبو السرايا كان في أول أمره زعيما لعصابة تقطع الطريق، ثم التحق بجيش يزيد بن مزيد الشيباني القائد العباسي الذي يجاهد على جبهة الشمال في أرمينية، وكان مع أبي السرايا ثلاثون فارسا، وظهرت شجاعته وقوته فجعله يزيد في القواد، ثم صار به الحال في ظلِّ الفتنة بين الأمين والمأمون إلى جيش هرثمة بن أعين، فكان قائدًا لألفي مقاتل، ومن جراء خلاف أو لظرف طبيعي أنقص هرثمة من رواتب فرقته، فانشق ومعه مائتا فارس وهجم على ناحية عين التمر فحاصر واليها وأخذ أمواله، ثم استولى على الأنبار، ثم ذهب إلى الرقة، وقد كثر

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٢.

جمعه، فالتقى هناك ابن طباطبا العلوي فبايعه أبو السرايا وتولى قيادة جنده(١).

وكعادة أهل الكوفة المنحازين دائمًا للعلويين، اجتمع أهل الكوفة وتوافدوا وانحازوا إلى هذه الثورة، ولم يستطع نائب الكوفة سليمان بن أبي جعفر أن يصنع شيئًا، فأرسل الحسن بن سهل (والي العراق، ومركزه بغداد) بجيش قوامه عشرة آلاف يقودهم زهير بن المسيب غير أنهم تلقوا هزيمة قوية أمام جيش أبي السرايا خارج الكوفة (نهاية جمادى الآخرة ١٩٩هـ)(٢)، ثم تُوُفِّيَ ابن طباطبا فجأة، وبعض الظنون تشير إلى أن أبا السرايا سَمَّه، وأقام مكانه غلاما صغيرا من العلويين كقائد للثورة هو: محمد بن محمد بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فقد أراد أبو السرايا أن يكون متحكما ومنفردا بالرأي لا يضايقه ولا يعطله وجود رجل ذي رأي من العلويين(٣).

بعد هزيمة زاهر أرسل الحسن بن سهل جيشًا من أربعة آلاف يقودهم عبدوس بن محمد، ليكونوا مددا لجيش زاهر المنسحب، غير أن هذا الجيش واجه جيش أبي السرايا مباشرة فتلقى هزيمة ساحقة حتى إنه لم ينج منهم أحد(٤)!

ومع كل نصر كان أمر العلويين يزداد ويقوى ويكثر انحياز الأتباع إليهم؛ حتى إن أبا السرايا بدأ في سك العملة ونقش عليها: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا**﴾ [الصف: ٤]، ثم بدأ في إرسال الجيوش للسيطرة على المدن الأخرى، فأرسل إلى البصرة وواسط والمدائن، وحققت تلك الجيوش انتصارات أزاحت بها قوات العباسيين وولاتهم، وضاق الحال على الحسن بن سهل الذي أصابه كرب شديد(٥).

لم يَعُدْ أمام الحسن إلَّا الاستعانة بمدد من الخارج فأرسل إلى هرثمة بن أعين يستدعيه لحرب أبي السرايا، فجاء هرثمة فكان -كالعهد به- قائدًا بارعًا استطاع هزيمة أبي السرايا في أكثر من جولة، وانتزع منه المدن التي كان قد استولى عليها، وانسحبت ثورة أبي السرايا لتعود إلى الكوفة من جديد! وهنالك انتقم العلويون ممن في الكوفة من العباسيين فنهبوا بيوتهم

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٧، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٢، والزركلي: الأعلام ٣/ ٨٢.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٢، ١٢٣.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٧٤، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٣.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٣.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٣.

وخربوا ضياعهم وممتلكاتهم وأفسدوا فسادًا كبيرًا، وفعلوا أفعالًا منكرة[١].

وكان أبو السرايا قد أرسل الحسين بن الحسن الأفطس العلوي إلى مكة ليكون أمير الحج لهذا العام (١٩٩هـ)، وهناك حدث موقف عجيب: إذ خاف الحسين الأفطس من دخول مكة جهرة، وكذلك خاف نائب مكة العباسي داود بن عيسى بن موسى من الحسين، فهرب من مكة، فدخلها الحسين في سهولة حتى إن بعض الروايات تقول بأنه دخل في صحبة عشرة من أصحابه فحسب! على أن من الروايات من يقول بأن داود بن عيسى إنما فضَّل ألا يحدث قتال في البلد الحرام فلهذا انسحب منها[٢]!

وفي أول يوم من العام الجديد (٢٠٠هـ) نزع الحسين الأفطس كساوى العباسيين من الكعبة، ووضع عليها كسوتين عليهما اسم أبي السرايا، وأخذ ما في كنز الكعبة من الأموال ومن ودائع العباسيين، وكان إذا أراد الاستيلاء على مال أو شيء ادَّعى أنه من أموال العباسيين فيأخذه، ولم يكتف بهذا بل خرب المسجد الحرام فخلع نوافذه وباعها، وكَسَّر ما كان مُذَهَّبًا من تيجان الأعمدة، وأساء السيرة في الناس، وقد أشاع العذاب في كل من له علاقة ببني العباس؛ حتى اتخذ دارًا سماها «دار العذاب» يعذب فيها الناس حتى هرب كثيرون من أهل مكة إلى الجبال[٣].

ولم يكن الحال في البصرة بأحسن منه في مكة، فقد تولاها -من قِبل أبي السرايا- زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، الذي لقب بـ «زيد النار» لكثرة ما حَرَّق من بيوت العباسيين وأملاكهم، بل لقد حرق من أمكنه من رجال العباسيين أنفسهم[٤].

وامتدت هذه الثورة إلى اليمن، الذي لم يكن أحسن حالا من مكة ولا البصرة، فقد خرج إلى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق لما سمع بأخبار أبي السرايا، وقد انسحب أمامه والي اليمن إسحاق بن موسى بن عيسى كما صنع عمه والي مكة، ولقب إبراهيم بـ «الجَزَّار» لكثرة من قتل من أهل اليمن، وأخذ من أموالهم[٥].

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٨، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٣، ١٢٤.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٤، ١٢٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٧، ١٢٨.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٦، ١٢٧.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٧.

وإذا عدنا بالمشهد إلى الكوفة سنجد هرثمة بن أعين ومعه منصور بن المهدي يحققان نصرًا كبيرًا على أبي السرايا وينتزعان منه الكوفة -معقل الثورة- فهرب أبو السرايا ومن انحاز إليه من العلويين (١٦ من المحرم ٢٠٠هـ)، ودخل هرثمة ومنصور فأَمَّنا أهل الكوفة ولم يتعرَّضا لأحد، وانتهت الثورة من معقلها. وأما أبو السرايا فقد هرب ومن بقي معه من فلول جيشه يريدون اللجوء إلى مسقط رأس أبي السرايا في قرية رأس العين في الجزيرة الفراتية، فخاضوا معارك أخرى مع سرايا عباسية انتصروا في واحدة منها ثم هُزِموا وأُسِر أبو السرايا وأرسل به إلى الحسن بن سهل الذي ضرب عنقه وطاف برأسه ليكون عبرة لغيره، وأُرْسِل محمد بن محمد (الغلام العلوي الذي جعله أبو السرايا أمير الثورة) إلى المأمون، وانتهت بذلك عشرة أشهر عصيبة عاشها الحسن بن سهل[١].

ولما وصلت إلى مكة أنباء هزيمة أبي السرايا، انزعج لذلك الحسين الأفطس، فاجتمع مع أصحابه وقرروا مبايعة محمد بن جعفر الصادق بالخلافة -وكان شيخًا ورعًا محببًا في الناس مفارقًا لما عليه أكثر أهل بيته من قُبْح السيرة- فأجاب بعد تردد، وقد خدعوه وأخبروه بأن المأمون قد مات، وحُشِر إليه الناس، فبايعوه طوعًا وكرهًا، وظل خليفة ليس له إلا الاسم، وكان ابنه علي مع الحسين الأفطس من أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلًا في الناس حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض[٢]!!

لكن الأمر لم يطل، إذ هرب الحسين الأفطس من مكة لما علم بتقدم هرثمة بن أعين إليها، وما إن جاء هرثمة على رأس جيش عباسي، إلا وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه، وقال: كنت أظن أن المأمون قد مات وقد تحققت حياته، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما كنت ادعيت من ذلك، وقد رجعت إلى الطاعة وأنا رجل من المسلمين، فأجيبوا إلى ذلك وأُعطوا الأمان ومهلة ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت جنود العباسيين مكة، وتفرق أمر العلويين[٣].

وفي البصرة استطاع علي بن سعيد -من جهة العباسيين- أَسْر زيد النار[٤].

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٦.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٨.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٨ وما بعدها.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠.

نهاية هرثمة بن أعين

لم تكن ولاية الحسن بن سهل -وهو فارسي- تلقى قبولا في نفوس أهل الأقاليم وجلهم من العرب، بما فيهم البيت العباسي، والعلويون بطبيعة الحال، وفوق كل هذا ما كان الحسن بن سهل بالكفء للولاية وإنما تولاها بتأثير أخيه الفضل بن سهل الوزير المفوض للمأمون، وقد كان وجود الحسن بن سهل من عوامل قيام هذه التمردات التي اشتعلت في الشام والعراق ومكة واليمن.

وكان الفضل بن سهل يتعاظم نفوذه حتى سيطر على ما يصل إلى المأمون من أنباء، وبالتالي على ما يصدر منه من قرارات، وكان وجود المأمون في مرو -وهي عاصمة خراسان ومعقل النفوذ الفارسي- ضمانة بقاء نفوذ الفضل بن سهل وبقاء الخليفة على اعتماده على الفارسيين -وفي القلب منهم آل سهل- ولم يصل للمأمون شيء يفيد بأن الناس كرهوا مقامه في مرو بعيدا عن حاضرة الخلافة بغداد، ولا أنهم كرهوا الحسن بن سهل وسياسته فيها!

ولكي يضمن الفضل بن سهل بقاء الوضع على ما هو عليه، حرص على إبعاد من قد يفضي إلى المأمون بالأمر، لا سيما تلك الشخصيات القوية كطاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين. فأما طاهر بن الحسين فقد حاول الفضل الوشاية به عند المأمون منذ اللحظة الأولى لنصره على الأمين، فعندما بعث طاهر بن الحسين برأس الأمين قال الفضل بن سهل: سلَّ علينا سيوف الناس وألسنتهم؛ أمرناه بأن يأتي به أسيرًا فأرسل به إلينا عقيرًا[١]. غير أن المأمون قال: قد مضى ما مضى، فاحْتَلْ في الاعتذار[٢] منه. وبطبيعة الحال لم يعدم المأمون من الكتاب والخطباء والشعراء من يرد مقالة الناس بما هو أبلغ منه[٣].

غير أنه احتال حتى عزل طاهر بن الحسين عن العراق وأرسل به ليتولى الشام ومصر والمغرب، حيث تشتعل ثورة نصر بن شبث وكأنما أراد هلاكه، وأسند العراق إلى أخيه الحسن بن سهل، فكان جراء ذلك ما كان!

وبعد أن أنهى هرثمة بن أعين ثورة العلويين في العراق ومكة عزم أن يعود إلى خراسان

(١) أي: قتيلاً.
(٢) أي: فانظر كيف نبرر فعله أمام الناس.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١١٠.

حتى يدخل على المأمون فيخبره بأحوال العراق التي لن تهدأ حتى يسير إليها المأمون، وكان هرثمة يعلم بنفوذ الفضل وخطورة ما ينوي إخبار المأمون به عليه، كما كان الفضل يعلم نية هرثمة، فحاول إثناءه وسعى في أن يصدر المأمون قرارا بولايته على الشام ومصر، إلَّا أنَّ هرثمة لم يقبل الولاية وأصر على ألا يعود قبل أن يلقى المأمون، ولم يكن الفضل بن سهل بالذي يترك الأمور تتم على نحو يذهب بنفوذه وسلطانه ومكانه من الخليفة، ومكان الخليفة منه، فما كاد هرثمة يصل إلى خراسان حتى كان الفضل قد أوغر صدر المأمون على هرثمة ونقل إليه من الأخبار والافتراءات ما جعل المأمون يحترق غيظا على هرثمة[١].

قيل للمأمون بأن أبي السرايا -وقد كان قائد فرقة في جيش هرثمة- إنما تمرَّد بأمر وتدبير من هرثمة، وأن هرثمة تباطأ في حربه، وذلك أن هرثمة امتنع أول الأمر عن تلبية نداء الحسن بن سهل بحرب أبي السرايا لأن خلافا وقع بينهما حين أتى الحسن بن سهل ليتسلم ولاية العراق حتى خرج هرثمة من العراق كله عائدا إلى مرو، لكنه لما علم باشتداد التمرد عاد وأبلى فيه البلاء الحسن حتى أنهاه[٢].

لما اقترب هرثمة من مرو خشي أن يُكْتَم عن المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا: هرثمة جاء يرعد ويبرق. فاكتملت صورة المتمرد الناكث لدى المأمون، فسمح بدخوله عليه لكنه لم يسمع منه كلمة -وقيل جرى بينهما كلام أغلظ فيه هرثمة على المأمون[٣]، وهذا مستبعد- وأمر بحبسه، وفي الحبس تولى الفضل بن سهل قتله (٣ من المحرم ٢٠١هـ)، إما بالسم أو بغير ذلك[٤]، ولعلَّ ذلك كان بأمر المأمون أو بغير أمره!

وما أعجب الدنيا! كيف تفعل بأبطالها!

هرثمة بن أعين الذي أقرَّ أمر الخلافة في طول الدولة وعرضها، من المغرب مرورا بمصر والشام والعراق وخراسان وحتى سمرقند فيما وراء النهر شرقًا، انتهى مقتولًا على يد خليفة كان من أخلص الناس له!

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٢٣، ١٣١.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٧٧، ١٧٨.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣١.

هذه النهاية المأساوية لبطل كهرثمة بن أعين تذكر المؤرِّخ والقارئ بأن الإخلاص لله تعالى وقصد وجهه سبحانه بالأعمال هو وحده الجزاء العادل، وأنه ينبغي للمرء ألا يقصد بعمله إلا وجه الله، فإن ما عند البشر غير مأمون ولا مضمون! وماذا تنفع البطولات إذا كان البشر هكذا، إن لم تتغير قلوبهم من تلقاء نفسها تغيرت بفعل الخصوم والحاسدين؟!

لعلَّ هرثمة يكون مخلصًا لينال حظه في الآخرة، فإنه إن لم يكن هكذا فقد خسر خسرانا مبينا!

اضطراب العراق

لم يرض أهل العراق بأن يكون واليهم الحسن بن سهل -الفارسي- ولا أن يكون خليفتهم ساكنا في مرو وتاركًا عاصمة خلافة الآباء والأجداد بغداد، فكيف إذا أضيف إلى كل هذا أخبار تقول بأن الفضل بن سهل قد استحوذ على المأمون وأنه هو المتصرف الحقيقي في الأمور والحاكم الفعلي للبلاد، فاشتعل العراق ضد الحسن بن سهل وقالوا: لا نرضى به ولا بعُمَّاله ببلادنا، وجعلوا قائدهم إسحاق بن موسى بن المهدي، واشتعلت حرب بين الفريقين استمرت ثلاثة أيام (شعبان ٢٠٠هـ).

ثم زاد الطين بلة أن الحسن بن سهل لم يكن لديه من الأموال ما يجعل جنود بغداد يحاربون معه فانضموا إلى التمرد عليه بعد أن طال بهم الانتظار وخابت وعود الحسن في إمهاله حتى رمضان ثم حتى ذي القعدة[١]، غير أن ذي القعدة أتى بتمرد جديد من الأنبار، حيث ثار زيد بن موسى العلوي الملقب بـ«زيد النار»، ومعه أخو أبي السرايا، فبعث الحسن بن سهل نائبه على بغداد علي بن هشام -وكان الحسن وقتها في المدائن- واستطاع علي بن هشام بمن معه من الجنود إخماد هذه الثورة[٢].

ثم كانت القاصمة بمقتل القائد المخلص الكبير هرثمة بن أعين فثبت بهذا أن الفضل بن سهل قد استحوذ على المأمون وصار له الأمر والنهي إلى حد قتل رجل من كبار قادة الخلافة كهرثمة.

لكلِّ هذا اجتاحت بغداد موجة من القلق والاضطرابات، كما أن تمردات الجند وتفرقها لإخماد الاضطرابات في نواحي العراق جعل بغداد بلا جيش قوي، فعاشت بغداد أجواء

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٢.

الانفلات الأمني والسرقات وقطع الطرق واختطاف النساء والأطفال وفرض الإتاوات على الناس. كانت العصابات تأتي الرجل فيسألونه مالا، فإذا رفض أخذوا جميع ما في منزله، وربما تعرضوا للغلمان والنسوان، ويأتون أهل القرية فيستاقون من الأنعام والمواشي ويأخذون ما شاءوا من الغلمان والنسوان، ونهبوا أهل قطربل ولم يدعوا لهم شيئًا أصلا[(١)].

على هذه الأجواء انتهت سنة (٢٠٠هـ) ودخلت سنة (٢٠١هـ).

وأضيف إلى هذا التمردات على عليٍّ بن هشام نائب بغداد عن الحسن بن سهل، وقد استطاع أهل بغداد بعد كثير من المعارك أن يطردوه عن بغداد، فانسحب الحسن بن سهل من المدائن إلى واسط[(٢)].

سعى العقلاء من البغداديين لإنهاء هذا الوضع العصيب، فذهب وفد منهم إلى منصور بن المهدي يعرضون عليه أن يبايعوه بالخلافة فرفض المنصور، فعرضوا عليه أن يكون نائب المأمون على بغداد، فوافق على هذا[(٣)].

وعلى المستوى الشعبي قام رجلان بتكوين «لجان شعبية» للحماية بعد انتشار الفوضى والاضطراب في بغداد، وهما: خالد الدريوش، وأبو حاتم سهل بن سلامة الأنصاري من أهل خراسان، وانضم إليهم متطوعون، فكانوا يقبضون على اللصوص وقطاع الطريق فيعاقبونهم أو يحبسونهم ثم يسلمونهم للسلطان، وقد استطاعت هذه «اللجان الشعبية» إنهاء حالة الفوضى بعد استمرارها نحو العام (شعبان، رمضان ٢٠٠ هـ - شعبان، رمضان ٢٠١هـ)[(٤)].

وبعد هذا الاستقرار في بغداد عاد إليها الحسن بن سهل بعدما استطاع توفيق أمر الجنود، ومن ثم غادرها منصور بن المهدي مع من انحاز إليه من الأمراء، ولم تكد أمور بغداد تستقر حتى اضطربت من جديد لسبب آخر قادم من مرو.

رأى المأمون أن علي بن موسى (الكاظم) بن جعفر (الصادق) بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، هو أفضل آل بيته، وليس في البيت العباسي مثله، فاختاره وليا للعهد من

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٣.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٣، ١٣٥.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٦.

بعده وسماه «الرضا من آل محمد» (٢ من رمضان ٢٠١هـ)، كما غَيَّر شعار الدولة العباسية من اللون الأسود إلى اللون الأخضر فلبسه وجنوده وكتب به إلى الأقاليم والبلاد[١].

ويمكن توقع أكثر من غرض ودافع لهذه التولية؛ **أولها**: أن المأمون كان ميَّالًا إلى العلويين، وهو يعتقد أن علي بن أبي طالب هو أفضل الصحابة جميعًا مع عدم الإساءة إلى الشيخين أو عثمان ﷺ، وهذا من مذاهب الشيعة، **وثانيها**: أن المأمون كان يعتنق مذهب المعتزلة وهو يقول بإمامة الأفضل من بين الأُمَّة وهو ما انطبق من وجهة نظر المأمون على علي بن موسى الرضا، **وثالثها**: أن المأمون كان يريد إيقاف حركات العلويين وحقن دماء المسلمين بتولية العهد واحدا منهم ويؤيد مثل هذه الفكرة أن المأمون كان في الثانية والثلاثين من عمره بينما كان علي بن موسى في الثامنة والخمسين فالاحتمال ضعيف في أن يصير خليفة، وقيل غير ذلك من أسباب ودوافع.

فلما وصل خبر تولية العهد إلى بغداد انقسم الناس بين مؤيد ورافض والرافضون رأوا تأثير الفضل بن سهل في هذا القرار[٢]، بل رآه بعضهم «تدبير المجوس»[٣]، وكان جمهور العباسيين مع الرافضين بطبيعة الحال -وكانت الأسرة العباسية آنذاك قد بلغت ثلاثة وثلاثين ألفًا[٤]- في وقتها لأن تخرج الخلافة عن بيتهم إلى غيرها، وتزعم هذه الحركة إبراهيم من المهدي وأخوه منصور بن المهدي، وقد انتهى الحال إلى أن خلع العباسيون المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة، ولقبوه بـ «المبارك»، وبايعوا لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي بولاية العهد (٢٥ من ذي الحجة ٢٠١هـ)، وفي الجمعة التالية لهذه البيعة (٢٨ من ذي الحجة ٢٠١هـ) كان الاضطراب الحاصل في بغداد قد وصل إلى صلاة الجمعة، حيث أراد بعضهم أن يدعو للمأمون ومن بعده لإبراهيم فعارض هذا من خلعوا المأمون وأرادوا ألا يُدعى إلا لإبراهيم واختلفوا فلم تُصَلَّ الجمعة في جماعة بل صلاها الناس فرادى[٥].

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٨، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٧٦، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٨.

(٢) كان التراث الفارسي يقدس الملوك الأكاسرة، وكان بيت المُلك يتوارث الحكم، وقد كان كثير من الفرس بعد الإسلام يرون أن طبيعة الأمور هي أن يكون علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) هو وريث النبي في الخلافة تأثرا بهذا التراث العميق والضارب في التاريخ، لذا كان مذهب الشيعة أسرع انتشارا في مناطق فارس منه في أي مناطق أخرى، وساعد على هذا أن علي بن أبي طالب وأهله كانت عاصمتهم الكوفة في أيام خلافته فكان العلويون وآل البيت قريبين من أهل فارس.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٧٩.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٢، والمسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤١٧ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).

(٥) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٨، ٣٨٩، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٨.

إبراهيم بن المهدي

كانت أهمُّ المشكلات التي تقف أمام إبراهيم ثلاثة: قلة الأموال وما يترتب عليها من شغب الجند الذين يتمردون إن تأخرت أرزاقهم، وأنصار المأمون في بغداد، ومتمردون طامعون أغراهم ضعف السلطان واضطراب الحال.

وعلى الرغم من أن إبراهيم قد بويع في (٢٥ من ذي الحجة ٢٠١هـ) وتمَّت له البيعة العلنية في (٥ من المحرم ٢٠٢هـ)؛ فإن المعارك بينه وبين أنصار المأمون في أنحاء العراق، ولا سيما في الكوفة، استمرت تسعة أشهر حتى (رجب ٢٠٢هـ)، ذلك أن أهل الكوفة قد انحازوا -كما هو المعتاد- إلى جانب المأمون موافقة على توليته علي الرضا ولاية العهد[١]!

إلا أن بغداد استقامت له، لولا تمرُّد من الجنود الذين تأخرت أرزاقهم ولم يصبروا حتى بعدما أعطى كل واحد منهم راتبا مؤقتا وتعهد لهم بتعويض من خراج أرض السواد، فأحدثوا كثيرًا من السلب والنهب لا يفرقون بين حاصل الفلاح وحاصل السلطان، كما قضى إبراهيم بن المهدي على ثورة مهدي بن علون من الخوارج، إذ أرسل إليهم جيشًا بقيادة ابن أخيه أبي إسحاق بن الرشيد (الخليفة المعتصم فيما بعد) فهزمه وأطفأ ثائرته، كذلك أرسل جيشًا آخر بقيادة غسان بن أبي الفرج لإخماد ثورة أخي أبي السرايا في الكوفة وقد فعل وقاتله فقتله (رجب ٢٠٢هـ)[٢].

وبسط إبراهيم بن المهدي سلطته على بغداد، وسجن سهل بن سلامة الأنصاري -زعيم اللجان الشعبية- إذ كان قد تجاوز الحد وصار له مظاهر السلطان كالحراسة الخاصة وأبهة الملوك، وصار يشبه السلطة الموازية ولم يكن يتردد في التنديد والاستنكار على أحد، وبلغ هذا جماعة من بيت الخلافة فعزموا على حربه، ولم يكن لمثله طاقة بحرب قادة عسكريين لهم جنود وهم تابعون لبيت الخلافة؛ ولهذا انفض كثيرون من حوله ثم قُبِض عليه (٢٧ من شعبان ٢٠٢هـ) وحُبِس واستمرَّ في السجن سنة كاملة ولم يخرج إلا لأن إبراهيم بن المهدي احتاج أن يستعين به في حرب المأمون[٣].

وكان اضطراب الأقاليم مساعدا لإبراهيم بن المهدي في الحصول على البيعة بسهولة،

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٠ وما بعدها.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٠، ١٤١.

(٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٣.

ففي مصر التي يشملها الاضطراب والاختلاف منذ معارك الأمين والمأمون لم يكن صعبا أن يجد بعض القادة والطموحين من المتنافسين في إبراهيم بن المهدي فرصة ليكتسب شرعية في حربه لواليها من قِبَل المأمون السري بن الحكم(١). غير أن مثل هذه الأقاليم لا تمثل إضافة حقيقية ولا ولاء حقيقيًّا للمتغلب في بغداد حتى يستقر له الأمر.

بداية تمرُّد بابك الخرمي

ويأخذنا مسار الحديث إلى مشهد جديد عن مشهدي الصراع في بغداد ومرو؛ ذلك أن ثورة بدأت تبزغ في أذربيجان على مهل، ثم استمرت ترهق الدولة العباسية أكثر من عشرين سنة.

في قرية فارسية اسمها «خرمة» بالقرب من أردبيل ظهرت الفرقة الباطنية التي نُسبت إليها فسُمِّيَت «الخرَّمية»، في (٢٠١هـ)، وقد بدأها جاويذان بن سهل (أو سرهك) الذي اعتنق مبادئ فارسية كالإيمان بإلهين للنور والظلمة، وتناسخ الأرواح، وأباح النساء وزنا المحارم والخمر وما إلى ذلك، يقول المطهر المقدسي: «يجمعون القول بالرجعة ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحد وأن الوحي لا ينقطع أبدًا، وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب ولا يرون هجينه والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرم كيد ملتهم، وخسف مذهبهم، ويتجنبون الدماء جدًّا، إلا عند عقد راية الخلاف، ويعظمون أمر أبي مسلم ويلعنون أبا جعفر على قتله ويكثرون الصلاة على مهدي بن فيروز؛ لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم، ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام، ورسل يدورون بينهم، ويسمونهم فريشتكان، ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة، وأصل دينهم القول بالنور والظلمة، ومن شاهدنا منهم في ديارهم ماسبذان ومهرجان قذق، فإنا وجدناهم في غاية التحري للنظافة والطهارة، والتقرب إلى الناس بالملاطفة بتقديم الصنيعة، ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن، وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع، ما لم يَعُدْ على أحد بالضرر»(٢).

وقال الإمام عبد القاهر البغدادي: «البابكية ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص١٢٧، ١٢٨.
(٢) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٤/ ٣٠، ٣١.

الجاهلية اسمه شروين، ويزعمون أن أباه كان من الزنج وأمه من بعض بنات ملوك الفرس، ويزعمون أن شروين كان أفضل من محمد، ومن سائر الأنبياء، وقد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين، يؤذن فيها المسلمون، وهم يعلِّمون أولادهم القرآن، لكنهم لا يصلون في السر، ولا يصومون في شهر رمضان، ولا يرون جهاد الكفرة... وللبابكية في جبلهم ليلة عيد لهم، ويجتمعون فيها على الخمر والزمر، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم، فإذا أطفئت سُرُجهم ونيرانهم افتضى فيها الرجال والنساء»[(١)]، وحول تلك الليلة يقول الإمام الغزالي: «... ويطفئون سرجهم وشموعهم، ثم يتناهبون النساء، فيثب كل رجل إلى امرأة فيظفر بها، ويزعمون أن من استولى على امرأة استحلها بالاصطياد، فإن الصيد من أطيب المباحات»[(٢)].

وحين مات جاويذان ورث بابك دعوته، ذلك أنه كان عشيقا لزوجة جاويذان، فرتب معها أمر إقناع أتباعه أن روح جاويذان «الإله» قد انتقلت إليه، وبدأ ثورته (٢٠١هـ) في جبل البدين في أذربيجان، ثم ظهر في «خرّمة»[(٣)].

زعم بابك أنه من نسل فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني -ويُؤَكِّد الدينوري صحَّة هذا[(٤)] لكنه كثيرًا ما ينفرد بالغرائب- وخاطب أحلام الفارسيين في القائد الذي سيزيل دولة العرب ويعيد دولة الفرس، ثم إنه أباح قتل المخالفين ونهب أموالهم -وكان هذا تطورًا جديدًا في فكر المزدكية والباطنية[(٥)]- فكانت فرصة ممتازة للمجرمين وقطاع الطرق أن ينضموا إليه، كما كانت فرصة لكلِّ صاحب مذهب أو نحلة أو اتجاه مناوئ للدولة الإسلامية أن يسير في ركاب بابك، ولا ريب أن ثمة مظالم واقعة جعلت كثيرين من عموم الناس ينضوون إلى حركته أيضًا، فلقد اتَّسع أمر بابك كثيرًا حتى كانت الوفود تأتي إلى أذربيجان تقدم ولاءها إلى بابك، وبلغت دعوته مدنا بعيدة نسبية كأصفهان وغيرها[(٦)].

---

(١) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٥٢.
(٢) الغزالي: فضائح الباطنية ص١٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٩، وابن النديم: الفهرست ص٤١٧.
(٤) الدينوري: الأخبار الطوال ص٤٠٢.
(٥) ابن النديم: الفهرست ص٤١٦.
(٦) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ١١٦، ونظام الملك: سياست نامه ص٢٨٦.



وإذا أخذنا بقول المقدسي أنهم يعظمون كل صاحب ديانة ولا يهاجمون إلا من يهاجمهم، فيكون من الطبيعي أن نتوقع كون بابك هو صاحب التطور في المذهب نحو التوسع وتأسيس دولة للمزدكية على نحو ما يذكر ابن النديم من أن وصية جاويذان -التي يعتقد أن بابك وضعها مع زوجة جاويذان- قالت عن بابك: «إنه سيبلغ بنفسه وبكم أمرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد وإنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية ويعز به ذليلكم ويرتفع به وضيعكم»(١).

وقد كان الصراع بين الأمين والمأمون ثم اضطراب البلاد على المأمون بثورات العلويين ثم العباسيين السبب الرئيسي في إعطاء تلك الحركة فرصة في تطورها واستفحالها، ورُوِي أن من أسباب خروج بابك هو بذرة تمرُّد أشعلها حاتم بن هرثمة بن أعين -والي أرمينية- بعدما قُتِل والده بأثر مكيدة الفضل بن سهل، إذ راسل الزعماء المحليين ودعاهم للعصيان، لكن

(١) ابن النديم: الفهرست ص٤١٧.

حاتم بن هرثمة مات فجأة قبل أن تظهر ثورته للعلن(١).

ساهم -أيضًا- في قوة بابك هو تحالفه مع الروم الذين ساعدهم وساعدوه في الأخبار والاستطلاع، وكان جنود بابك إذا هُزِموا في معركة لجأوا إلى أرض الروم، كما ساعده -أيضًا- أمير «آمل» -وهي المدينة الأهمُّ في طبرستان- الذي كان منضويا تحت نفوذ الخلافة ويدفع الخراج لكنه لم يكن صادق العهد فكان يساعد بابك ويحرضه، وسيقوم هو نفسه بتمرد -أيضًا- فيما بعد!

نهاية الفضل بن سهل

وصلت الأخبار إلى المأمون من حيث لا يحتسب الفضل بن سهل، أفضى إليه بها ولي عهده موسى الرضا، فأخبره باضطراب أمر العراق واختلاف الناس فيها، وأن العراقيين يوقنون بأن المأمون مسحور ومسجون يستحوذ عليه الفضل بن سهل ولا قرار له على شيء، وأن الناس يكرهون بيعته لعلي بن موسى بولاية العهد، وأن التمرد وصل إلى الحرب الصريحة بين الحسن بن سهل وبين إبراهيم بن المهدي(٢). وصرح له «الرأي أن تسير بنفسك إلى بغداد وتستدرك أمرك، وإلا خرجت الخلافة من يدك»(٣).

ولا عجب أن نزلت هذه الأنباء كالصاعقة على رأس المأمون، فاستدعى جماعة من الأمراء وأهل بيته على خلوة من الفضل بن سهل فسألهم في ذلك فأقروا بها قيل، وأضافوا على ذلك توضيحهم لجرائم الفضل: «إن الفضل بن سهل حَسَّن لك قتل هرثمة، وقد كان ناصحا لك، فعاجله بقتله، وإن طاهر بن الحسين مَهَّد لك الأمور حتى قاد إليك الخلافة بزمامها فَطَرَدْتَه إلى الرقة، فقعد لا عمل له ولا تستنهضه في أمر، وإن الأرض تَفَتَّقَت بالشرور والفتن من أقطارها»، فمن ثَمَّ عزم المأمون على الرحيل إلى بغداد(٤).

وأما أولئك الناصحون فلم يفلتوا من الفضل بن سهل الذي وصل إليه ما نصحوه وعرف عزيمة المأمون، فعاقب بعضهم بالجلد والتعذيب، ولم يتدخَّل المأمون لكي لا يفسد تدبيره للأمر(٥)!

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٩، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٩.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٤.
(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢١٦.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٤.

عزم المأمون على الذهاب إلى بغداد، وترك للفضل بن سهل كتابًا سماه «الشرط والحباء» حيث يثني فيه على الفضل بن سهل، ويصف «فيه طاعته، ونصيحته، وعظته، وعنايته، وذهابه بنفسه عن الدنيا، وارتفاعه عما بذل من الأموال والقطائع والجوهر والعقد ويشرط له على نفسه كل ما يسأل ويطلب، لا يدفعه، ولا يمنعه، ووقع فيه المأمون بخطه، وأشهد على نفسه»[١]، وكان هذا في إطار طمأنة الفضل وتسكينه كأنما لم يتغيَّر عليه شيء.

وفي طريق المأمون إلى العراق وعند وصوله إلى سرخس، هجم أربعة من المماليك على الفضل بن سهل في الحمام فقتلوه (٢ من شوال ٢٠٢هـ)، وبهذا انتهت قصة الوزير الأول ذي الرئاستين الفضل بن سهل، ولما وصل الخبر إلى المأمون أمر بالقبض عليهم، ثم أمر بقتلهم، وكتب إلى أخيه الحسن بن سهل يعزيه فيه، وولاه الوزارة مكانه[٢]، ثم هو -مع ذلك- أقصى وعزل قادة ورجال الفضل بن سهل[٣].

وما أشبه الفضل بن سهل بأبي مسلم الخراساني، بعد الذروة العالية سقط السقوط الذي لم يتوقعه أحد!! وعلى يد من وطأ لهم الدولة وإن كان وطأها -أيضًا- لنفسه معهم! ولقد اتهم الفضل بن سهل بمثل ما اتهم به أبو مسلم من الرغبة في إعادة الدولة كسروية فارسية[٤]، على أن أبا مسلم كان في الثلاثينيات من عمره وكانت أمامه آمال عريضة فيما كان الفضل حين قُتِل في الستين من عمره.. فكأن خراسان أبت أن تجود بمثيل لأبي مسلم!!

ولعلَّ في نفس المأمون أمورًا أخرى، فهو القائل: «لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين ملوكهم وحماتهم وكفاتهم، ولا بين صنائعهم وبطانتهم، وذاك أنهم يرون ظاهر حرمة وخدمة واجتهاد ونصيحة، ثم يرون إيقاع الملوك بهم مع هذه الصفات ظاهرًا، لا يزال الرجل، يقول: ما أوقع بهم إلا رغبة في أموالهم أو رغبة في بعض ما لا تجود النفس به، ولعلَّ الحسد والملالة وشهوة الاستبدال، اشتركت في ذاك منه، وهناك جنايات في صلب الملك، وفي بعض الحرم فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، ولما يستطيع الملك ترك

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٧٩.
(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤١، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٤.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٧٩.
(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٥٦.

عقوبة، لما في ذلك من الفساد على عمله، بأن عذره غير مبسوط عند العامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة»(١).

وعلى كل حال فقد كانت نكبة الفضل بن سهل هي نهاية نكبات الفرس التي بدأت بأبي مسلم الخراساني وعبرت بالبرامكة، ما دعا بعض المؤرِّخين إلى القول بأن هذه الحوادث الثلاثة تمثل الموقف الحقيقي من سياسة العباسيين في الاستفادة من العناصر الإيرانية ما دامت في إطار التوازن، فإذا أحست بالإخلال بادرت إلى الفتك والتنكيل(٢).

ومن هذه اللحظة ستختفي القوة الفارسية لتظهر قوة أخرى سيكون لها أي شأن في التاريخ العباسي.. تلك هي قوة الأتراك!

.. في الطريق إلى العراق

ترك المأمون خراسان وقد استقرَّ أمرها، واستتبت علاقاته مع ممالك الشرق جميعًا الذين أعطى ملوكها الولاء أو السلام، بل منهم من دخل في الإسلام مثل ملك التبت الذي جاء للمأمون بهدايا فيها صنم ذهبي مرصع بالجواهر على عرش ذهبي، فأرسله المأمون إلى مكة ليحج وليعرف الناس أن ملك التبت دخل في الإسلام(٣)، ومنهم من استسلم وأسلم بعد وقائع ومعارك كملك أشروسنة وهي من ممالك الأتراك(٤)، وهكذا حتى «لم تبق ناحية من نواحي خراسان يخاف خلافها»(٥).

لا ريب أن المأمون في طريقه إلى العراق كان مهتما بجمع كل المعلومات ومعرفة كل التفاصيل عما يحدث فيه وميول أهله واتجاهات البيت العباسي، ولم يصل إلى العراق إلا وكانت الصورة لديه على جانب كبير من الدقة.

وفي هذه الأثناء زوج المأمون ابنته أم حبيب من علي الرضا -ولي عهده- وزوج ابنته أم الفضل من ابن ولي عهده محمد بن علي، وكان هذا يعني أن العلاقة بينهما تزداد متانة وأنه لا تفكير في عزله من ولاية العهد نزولا على رغبة المخالفين والعباسيين في بغداد. وكذلك تزوج هو من ابنة الحسن بن

---

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص١٢٢.
(٢) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١١٨.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٠.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٣/ ٥٢٨.
(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٠.

سهل، وهذا يوحي كذلك بمتانة العلاقة بينه وبين آل سهل وأنها لم تضعف بمقتل الفضل[(١)].

وقد أخرج المأمون جيشًا لمقاتلة إبراهيم بن المهدي، وحين كان المأمون راحلا من سرخس باتجاه العراق في عيد الفطر (غرة شوال ٢٠٢هـ) كان جيشه في المدائن يواجه إبراهيم بن المهدي.

وفي الطريق إلى العراق مر المأمون على طوس حيث قبر أبيه الرشيد فمكث هناك أيامًا (صفر ٢٠٣هـ)، وفي آخر هذا الشهر مات علي بن موسى الرضا فجأة، فصلى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد، «وأسف عليه أسفًا كثيرًا **فيما ظهر**»[(٢)]، وكتب إلى الحسن بن سهل يعزيه فيه ويخبره بما حصل له من الحزن عليه[(٣)]، وبمناسبة الوفيات الغامضة نتذكر وفاة الفتى العلوي محمد بن محمد الذي كان قد ثار أبو السرايا باسمه قبل سنين في بغداد، فبعدما حُمِل إلى المأمون في خراسان تُوُفِّيَ هو الآخر بغير سبب معلوم (٢٠١هـ)[(٤)].

هذه الزيجات الدبلوماسية قبل أو بعد الوفيات المفاجئة تدفع للشك بأن المأمون هو المدبر لها، وأن هذه الزيجات ليست إلا دليل البراءة أمام الرأي العام، فكل هذه الوفيات كانت في الصالح السياسي للمأمون أو بالأحرى كانت تصحيحا لأخطائه السياسية.. صحيح أننا لا نملك الدليل الأكيد ولكن من الظنون ما هو أقوى من صرفه ودفعه!

وبعد وفاة الرضا كتب المأمون إلى بني العباس يقول لهم: «إنكم إنما نقمتم عليَّ بسبب توليتي العهد من بعدي لعلي بن موسى الرضا، وها هو قد مات فارجعوا إلى السمع والطاعة»، فأجابوه بأغلظ جواب كُتِب به إلى أحد[(٥)]!

وقد تمهل المأمون في الوصول إلى العراق والترتيب لأمره هناك، فقد أقام شهرًا في جرجان، وكان يقضي في المنزل (المحطة) يومًا أو يومين، فمضى عليه هذا العام (٢٠٣هـ) وهو بين خراسان والعراق ولم يصل إليها بعد! وقد أرسل المأمون إلى القائد الكبير طاهر بن الحسين أن يلقاه عند

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٢، وفي حين يتورع المحدث ابن كثير عن التصريح ويبدو في عبارته شك مشوب بحذر، فإن روايات أخرى لا تحجم عن اتهام المأمون بوضع السم له في فاكهة. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٠، وابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢١٦.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤١، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٦.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٩.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٦.

النهروان قبل الوصول إلى بغداد[1]، ويبدو أنه كان يجمع عناصر قوته والولاء له.

وفي العراق كانت الاضطرابات قائمة، وقد تفاقمت بين إبراهيم بن المهدي وأتباع المأمون، وخرج الحسن بن سهل من المشهد تمامًا؛ لا سيما بعد أن مرض مرضًا شديدًا لم يكن له علاج إلا تقييده وحبسه لما كان ينتابه من هياج، فكتب أمراؤه إلى المأمون بما حدث يستحثونه فرد عليهم: «إني واصل على إثر كتابي هذا»[2].

فزاد هذا من اضطراب بغداد التي انقسمت على نفسها بين مؤيد للمأمون ومؤيد لإبراهيم بن المهدي، فجرت بينهم معارك واشتباكات وقتال وكانت الغلبة لِمَنْ أَيَّدُوا المأمون، وفي ظلِّ هذه الاضطرابات عادت الفوضى وحالة الانفلات الأمني إلى بغداد وعاد اللصوص والفساق وقطاع الطريق إلى الظهور! وكان قد وصل جيش للمأمون يقوده حميد بن عبد الحميد فحاصر بغداد، واستمال الجنود في بغداد بما وعدهم من أموال وعطايا إذا انحازوا إليه فنجح في ذلك؛ حتى إن قائد جيش إبراهيم بن المهدي واسمه عيسى بن محمد بن أبي خالد أوقع نفسه في أسر جيش المأمون (ذي الحجة ٢٠٣هـ)، فحسم الصراع سريعًا لحساب المأمون، واختفى إبراهيم بن المهدي بعد أن ظل عامين إلا أيامًا خليفة[3]!!

المأمون في بغداد

وعند النهروان -قبل بغداد- قدم على المأمون طاهر بن الحسين، ووجوه أهل بيته العباسيين الموالين له، وجمهور الجيش العباسي، ثم دخل المأمون بغداد (١٦ من صفر ٢٠٤هـ) في أبهة عظيمة وجيش عظيم، بألوانهم الخضراء، وقد كان اللون جديدًا على أهل بغداد، فلبسوا الثياب الخضراء، وقضى المأمون أيامه الأولى في استقبال الأمراء والأعيان ووجوه الدولة، ثم نصحه طاهر بن الحسين -وكذا نصحته عمته زينب بنت سليمان بن علي- بالعودة إلى الثياب السوداء لأنها شعار الدولة منذ بدايتها، والرجوع عنه يُثير التساؤلات والتشككات، والدولة في تلك اللحظة أحوج ما تكون إلى الهدوء والاستقرار ونزع ذرائع التشكيك، فاقتنع المأمون، ولكنه أراد أن يختبر رد فعل الناس فأقام حفل تكريم للأمراء (٢٣ من صفر ٢٠٤هـ)، فألبس طاهر بن الحسين خلعة سوداء ثم جماعة من

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٧، ١٤٨.

الأمراء، فعاد الناس في اليوم التالي إلى السواد فعرف أنهم يميلون إلى هذا ويفضلونه، فعاد شعار الدولة العباسية إلى اللون الأسود[١].

وبنى المأمون قصورا إلى جانب قصره على شاطئ دجلة، وكان هذا علامة استقرار المأمون في بغداد، فسكنت الفتن وانزاحت الشرور وعمَّ الأمان في بغداد بعد عشر سنوات من اضطراب وفوضى منذ بدأت فتنة الأمين والمأمون! وبدأ في مواجهة ثورة بابك فأرسل جيشًا بقيادة يحيى بن معاذ لمقاتلة بابك الخرمي فلم يظفر به[٢].

ومنذ هذه اللحظة استقرَّ أمر الخلافة العباسية، وقبض المأمون على زمام الحكم واهتم بتطلع أحوال الناس بنفسه، فكان «يحضر مع الناس الطعام ويخرج في الليل يطوف في عسكره خوفًا على خلافته، وكان يجبي أخبار الناس؛ حتى جعل برسم الأخبار ببغداد ألف عجوز وسبعمائة عجوز، فما كان يخفى عنه شيء من أمور الناس ظاهرًا وباطنًا، وكان لا ينام كل ليلة حتى يقف على جميعها»[٣].

فنعود منذ عام (٢٠٥هـ) إلى استعراض عصر المأمون على طريقة العناصر كما وضحناه في منهج الكتاب، فنستعرض حركة الجهاد ومشكلات المتمردين والنهضة العلمية وما إلى ذلك..

المشكلات الداخلية

من الملاحظ في سياسة المأمون الجنوح إلى الأمان مع الثوار وهذا ما أفضى إلى انتهاء الثورات بأقل خسائر..

ونستطيع أن نرى خريطة التمردات على المأمون كالآتي:

١- الشام

أولاً: ثورة نصر بن شبث

ظلت ثورة نصر على قوتها وربما تصاعدت نتيجة انشغال الخلافة بأحوال العراق والحجاز واليمن وخراسان، وقد كانت في بداية الأمر من مسئولية طاهر بن الحسين الذي أزيح -بفعل الفضل بن سهل- إلى الرقة باعتباره نائب المأمون عن الشام ومصر والمغرب،

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٠، وابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢١٧.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥١.
(٣) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٣٤٠.

وقد استمرَّ طاهر يقاتل نصر بن شبث دون نتيجة حاسمة[1] حتى عام (٢٠٤هـ)، حيث ترك الرقة وذهب إلى العراق لملاقاة المأمون، ثم ولاه المأمون ولاية الجناح الشرقي من البلاد، ومقرها خراسان، ثم ترك طاهر بن الحسين ولده عبد الله على الرقة وكلفه بحرب نصر (٢٠٥هـ) غير أن المأمون ولَّى عليها يحيى بن معاذ، لكن يحيى لم يلبث أن مات فولَّى المأمون عبد الله بن طاهر مرة أخرى (٢٠٦هـ) وكان شهمًا بصيرًا بالأمور[2]، وظلَّ عبد الله بن طاهر يحقِّق انتصارات على نصر حتى حاصره تمامًا وألجأه إلى طلب الأمان شرط أن يأخذه من المأمون نفسه (٢٠٩هـ)، فكتب عبد الله بذلك إلى المأمون فأعطاه الأمان، ولكن نصرًا اشترط ألا يذهب إلى بغداد فرفض المأمون ذلك، فاستمرت الحرب حتى استسلم نصر تمامًا فأعاد عليه المأمون عرض الأمان فلم يكن أمامه إلا الاستجابة، وأُرسل إلى بغداد فوصلها في (صفر ٢١٠هـ)، وأمر عبد الله بن طاهر بتدمير حصونه، وانتهت بهذا قصة ثورة استمرت اثنى عشر عامًا[3].

ثم أتبعها عبد الله بن طاهر بحملة تطهير وإصلاح واسعة حتى صار «يستقري الشام بلدًا بلدًا لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل[4]، وهدم الحصون وحيطان المدن وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر، وضمهم جميعًا، ونظر في مصالح البلدان، وحط عن بعضها الخراج، فلم يبق مخالف ولا خالع إلا خرج من قلعته وحصنه»[5].

٢- المشرق

أولاً: تمرُّد الحسن بن الحسين

وهو -للمفارقة- أخو طاهر بن الحسين القائد العباسي الذي يمثل أحد أركان الدولة العباسية، هرب من خراسان إلى كرمان فتمرد هناك (٢٠٨هـ)، فقاتله أحمد بن أبي خالد وحاصره حتى أسره، وذهب به إلى المأمون فعفا عنه[6].

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٨٧، ٣٨٨.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٣، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٤، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٨٢.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٥ وما بعدها.

(٤) الزواقيل: أي اللصوص.

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٧.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٤.



ثانيًا: تمرُّد في قم

وخلع أهل قم الطاعة إذ استكثروا مبلغ الخراج الذي يؤدونه، وقد كان مليوني درهم، وطمعوا في أن يخففه المأمون كما فعل مع خراج أهل الري -أثناء عودته إلى بغداد- لكن المأمون لم يجبهم، فمنعوا الخراج وخلعوا الطاعة، فأرسل إليهم المأمون علي بن هشام فأخضعهم، وهدم سور قم لمنع قيام تمرُّد جديد، وجبى الخراج سبعة ملايين درهم(١).

٣- اليمن

وبدأت في اليمن ثورة علوية (٢٠٧هـ)، حيث خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عك في اليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد، وكانت ثورته لمظالم الولاة فاتبعه كثير من الناس، والظلم من أهمِّ أسباب الثورات ومن أهمِّ وسائل نجاحها، فأرسل المأمون جيشًا كثيفًا يقوده دينار بن عبد الله، وأرسل معه كتاب أمان لعبد الرحمن إن هو رجع إلى الطاعة، فعرض عليه دينار الأمان فاستجاب وسار معه إلى بغداد(٢).

وعاشت اليمن تمردات أخرى صغيرة سرعان ما قضت عليها الدولة، كتمرد حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان (٢٠٢هـ)، وأحمد بن محمد العمري الملقب بالأحمر (٢١٢هـ)(٣).

٤- مصر

أولاً: تمرُّد عبيد الله بن السري بن الحكم

وظلت ثورته قائمة حتى انتهى عبد الله بن طاهر بن الحسين من قتال نصر بن شبث في الشام، فقبل هذا فشل خالد بن يزيد بن مزيد في قتاله بل وقع في أسره، فعفا عنهم عبيد الله بن السري وأرسلهم إلى المأمون، فلما انتهى عبد الله بن طاهر من نصر بن شبث توجه إلى مصر فهَزَمَ عبيدَ الله بن السري -بعد عدد من الجولات- وحاصره في الفسطاط حتى استسلم وطلب الأمان (٢١٠هـ)، وخرج إلى عبد الله بن طاهر ثم أرسل إلى بغداد (رجب ٢١١هـ)(٤).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٧٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٢.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٤٥، ١٧٨.
(٤) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩٠، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٤، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٧٢، ١٧٥.

ثانيًا: انتفاضة شعبية

ولَّى المأمون أخاه أبا إسحاق (الخليفة المعتصم فيما بعد) نيابة الشام، وولى ابنه العباس نيابة الجزيرة والثغور والعواصم، وأمدهما ومعهما عبد الله بن طاهر -والي مصر- بمليون ونصف المليون دينار[1]، ثم تُوُفِّيَ طلحة بن طاهر فولي المأمون عبد الله بن طاهر خراسان وأضاف ولاية مصر إلى أبي إسحاق بن الرشيد فأقرَّ ولاة مصر الذين كان ولاهم عبد الله بن طاهر، فالأمير هو عيسى بن يزيد الجلودي وصاحب الخراج هو صالح بن شيرزاد، إلَّا أنَّ هذا الأخير ظلم الناس وعسفهم في الأموال وزاد عليهم في الخراج[2] فانتفض عليه الناس وبدأت حركة شعبية واسعة في شرق الدلتا -التي يسكنها الأعراب القيسية واليمانية- عجزت السلطة عن مواجهتها، فلقد استطاع الثوار إفناء الجيش الذي قاده ابن الوالي محمد بن عيسى عند بلبيس[3] (صفر ٢١٤هـ) حتى لم ينجُ منه إلا قائده وبصعوبة[4].

فولي أبو إسحاق عمير بن الوليد الباذغيسي (١٩ من صفر ٢١٤هـ)، فاستعد لمواجهتهم وأرسل الزعيم القيسي عبد الله بن حليس الهلالي ليصلح أمر القيسية فإذا به ينقلب على الأمير ويتزعم حركة القيسية ثم يتفق مع زعيم يمني آخر -هو عبد السلام بن أبي الماضي- ليقوم بأمر اليمانية، وفشل رسول آخر من قِبَل المأمون في إنهاء الحركة سلميًّا، واقتتلت الجيوش واستطاع القيسية واليمنية هزيمة الوالي عمير بن الوليد وقتلوه (١٣ من ربيع الآخر ٢١٤هـ)[5].

فعاد عيسى بن يزيد الجلودي لولاية مصر، ولمرة أخرى تلقى هزيمة قوية وانسحب إلى الفسطاط (رجب ٢١٤هـ)، فحينئذٍ تحرك أبو إسحاق بن الرشيد بنفسه إلى مصر وكان خروجه سريًّا حتى لقد فوجئ به القوم وقد نزل في أراضيهم، فدعاهم إلى الطاعة فامتنعوا، فنشب بينهم القتال فهزمهم أبو إسحاق (٢٠ من شعبان ٢١٤هـ) وهرب عبد السلام وابن حليس ثم قُبِض عليهما (غرة رمضان ٢١٤هـ) فأخذهما أبو إسحاق ونزل الفسطاط والجيزة، وأقر الأمور بمصر ثم قتلهما (١٨ من ذي القعدة ٢١٤هـ)، وظل في مصر حتى نهاية العام ثم

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٧٩.

(٢) كان خراج مصر في عهد المأمون، وهو المقدار المأخوذ بالإنصاف ٤٢٥٧٠٠٠ (أربعة ملايين ومائتان وسبعة وخمسون ألف) دينار، وهو رقم يدل على نهضة واسعة في عهد المأمون. انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ١٥٤.

(٣) وهي الآن تابعة لمحافظة الشرقية في مصر.

(٤) الكندي: الولاة والقضاة ص١٣٨.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٠، والكندي: الولاة والقضاة ص١٣٩.

عاد إلى الشام (المحرم ٢١٥هـ)[١].

ثالثًا: انتفاضة شعبية أخرى

في بداية (٢١٦هـ) تولى عيسى بن منصور ولاية مصر، وكان عهده حافلا بالظلم حتى لقد انتفضت عليه «الأرض كلها، عربها وقِبْطها» -بتعبير الكندي- وطردوا الولاة (جمادى الأولى ٢١٦هـ)، وتزعم هذه الحركة من العرب عبدوس الفهري -من نسل عقبة بن نافع- وكان أبو إسحاق في ذلك الوقت يجاهد الروم في غزوة مع أخيه المأمون، فتصدى لهذه الحركة قائده الأفشين والذي كان في برقة فعاد إلى مصر وقاتل المتزعمين لهذه الحركة فهزمهم عند أشليم[٢] ثم في سلسلة معارك أخرى في سائر الأنحاء المصرية استمرت حتى نهاية عام (٢١٦هـ) ولم يبقَ ممتنعًا عليه إلا الإسكندرية[٣].

في هذه الأثناء كان المأمون قد عاد من غزو الروم إلى دمشق ثم خرج منها (١٤ من ذي الحجة ٢١٦هـ) إلى مصر، فوصلها في (١٠ من المحرم ٢١٧هـ)، وغضب على الوالي عيسى بن منصور وانتهره قائلًا: «لم يكن هذا الحدَث العظيم إلَّا عَنْ فِعلك وفِعل عُمَّالك، حمَّلتم الناس ما لا يُطيقون، وكتمتوني الخَبر حتى تفاقم الأمر، واضطربت البلد»، وبدأ في تنظيم الجيوش للقبض على عبدوس الفهري حتى نجح في هذا (صفر ٢١٧هـ) فأمر فضربت عنقه، ثم تتبع بؤر الانتفاضات حتى أخمدها، بما فيها تمرُّد الأقباط حيث قتل الرجال وسبى الذرية بقسوة، ولما استقرَّت أمور مصر عاد إلى الشام[٤].

٥- العراق

أولاً: ثورة الزط

وهؤلاء بدأت قصتهم بمأساة وانتهت بمأساة أيضًا!

والزط هم مجموعة من سكان منطقة السند (باكستان الآن) نزحوا غربًا حتى العراق لمجاعة أصابت بلدانهم على عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد سمح لهم الحجاج باستيطان جنوب

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٠، والكندي: الولاة والقضاة ص١٤٠، ١٤١.

(٢) وهي قرية تابعة لمركز قويسنا من محافظة المنوفية.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة ص١٤٢ وما بعدها.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٢، ١٩٣، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٢، ١٨٤، والكندي: الولاة والقضاة ص١٤٤ وما بعدها.

العراق في منطقة تسمى البطيحة أسفل كسكر، وقد كان من عاداتهم تربية الجواميس، فرأى الحجاج أن نزولهم بهذه البقعة يفيد الدولة لأن الأسود تخاف من الجواميس(١).

ويظهر أن وضعهم المعاشي كان واطئًا جدًّا، فأخذوا يقومون ببعض أعمال اللصوصية الصغيرة، لا سيما السفن التي تعبر في أنهار هذه الأنحاء، ثم زاد أمرهم بانضمام أقوام من الهاربين كالعبيد وغيرهم، فجرأهم هؤلاء على مزيد من الأعمال حتى الخروج على السلطان، فثورتهم أقرب إلى أن تكون اقتصادية بحتة، وهذا النوع من الثورات قليل الحدوث في التاريخ الإسلامي، واستولوا على الحبوب والغلال من المناطق التي حولهم مثل كسكر والبصرة، وسيطروا على الطريق بين واسط والبصرة، وقطعوا طريق البصرة بغداد، فانقطع عن بغداد ما كان يصلها من البصرة في السفن(٢).

وقد بدأ المأمون في مواجهة هذا التمرد منذ (٢٠٥هـ) حيث ولَّى عيسى بن يزيد الجلودي مقاتلتهم(٣)، ويبدو أنه لم يغن كثيرًا، فعزله (٢٠٦هـ) وولَّى المأمون داود بن ماسجور بلاد البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين، وأمره بمحاربة الزط(٤).

غير أن ثورتهم ظلت قائمة، لا هي بالخطيرة كما في حال تمرُّد بابك مثلًا، ولا هي بالهينة التي يمكن تأجيلها لموقعها القريب من العراق وتأثيرها على حركة التجارة في بغداد، وتختفي ثورة الزط من خريطة الأحداث المؤثِّرة اثنى عشر عامًا حتى تظهر مرة أخرى في عهد المعتصم.

ثانيًا: نهاية التمرُّد العباسي

في (صفر ٢١٠هـ) استطاعت شرطة المأمون إلقاء القبض على مجموعة من أكبر أمراء إبراهيم بن المهدي الذين كانوا قد هربوا لدى قدوم المأمون بغداد، فحبسهم، ثم في (١٣ من ربيع الآخر ٢١٠هـ) أُلْقي القبض على إبراهيم بن المهدي نفسه وقد كان متخفيا في زي امرأة منتقبة فاستراب فيه أحد عناصر الشرطة فقبض عليه وانكشف أمره، ثم أرسل إلى المأمون، فحبسه المأمون فترة، واستشار فيه بعض أصحابه فقال له وزيره أحمد بن أبي خالد: يا أمير

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٤٦٢، والمسعودي: التنبيه والإشراف ص٣٠٧، ود. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١٨٧.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٤٦٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٧، ود. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١٨٧.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٤.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٥.

المؤمنين إن قتلته فلك نظراء في ذلك، وإن عفوت عنه فما لك نظير. بينما أشار باقي رجال الدولة وأبناء المأمون بقتله، وكان المأمون يميل بطبعه إلى العفو، فلما حضر إبراهيم إليه جعل المأمون يعاتبه ويؤنبه فقال: يا أمير المؤمنين إن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك. فقال: بل أعفو يا إبراهيم إن القدرة تذهب الحفيظة، والندم توبة وبينهما عفو الله عزوجل، وهو أكبر مما تسأله، فكبر إبراهيم وسجد شكرا لله ﷻ(١).

ومما يدل على أن عفو المأمون إنما هو عفو القادر الذي لا ينقصه الحزم ولا يغلب على الحكمة والرشد، أنه قتل بعض أمرائه الذين كان قد جلدهم وسجنهم لما حاولوا الهرب من السجن وقتل السجانين، فصلب منهم أربعة(٢).

ثالثًا: تمرُّد بلال الضبابي

في (٢١٤هـ) خرج رجل يقال له بلال الضبابي فبعث إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من الأمراء فقتلوا بلالًا ورجعوا إلى بغداد(٣).

٦- أخطر التمرُّدات: تمرُّد بابك الخرمي

وهي أخطر الثورات التي واجهت المأمون، والتي بقيت حتى بعد عهد المأمون، وقد تولى يحيى بن معاذ والي الجزيرة قتال بابك ولكن لم يظفر أحدهما بالآخر (٢٠٤هـ)، ثم مات يحيى في العام التالي (٢٠٥هـ)، ثم تولى قتاله والي أذربيجان وأرمينية عيسى بن محمد بن أبي خالد الذي بعث حملة إلى بابك استمرَّ تجهيزها سنة كاملة لكنها -مع ذلك- هُزِمت(٤).

ثم ولَّى المأمون على أذربيجان وأرمينية زريق بن علي فندب أحمد بن الجنيد لقتال بابك (٢٠٩هـ) فاستطاع بابك أن يهزم الجيش بل وأن يأسر قائده ابن الجنيد وبعض الأمراء أيضًا، فكان وقع ذلك سيئا على أسماع المسلمين(٥).

ثم ولى المأمون إبراهيم بن الفضل التجيبي على أذربيجان فكان القتال مع بابك ضعيفًا، فأرسل المأمون (٢١٢هـ) محمد بن حميد الطوسي، فتمكن محمد من أسر بعض أتباع بابك لكنه بعد

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٥، ١٨٦، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٨، ١٦٩.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٦، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٩.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٠.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٦.

عامين من التقدم هُزِم بل وقُتل مع كثير من جنوده (٢٥ من ربيع الأول ٢١٤هـ)[١]، وكان قتله خبرا آخر سيئا وقع على المأمون وعلى جميع المسلمين، ورثاه أبو تمام بقصيدة رائعة منها:

كذا فليجلّ الخطـبُ وليفدح الأمر ... فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر

وعندئذٍ كلف المأمون عبد الله بن طاهر -والي خراسان بعد أبيه طاهر بن الحسين- لحرب بابك، وأضاف إلى سلطته كل ما تم فتحه من أذربيجان، وخرج عبد الله بن طاهر في جيش كبير لم يستطع بابك أن يثبت أمامه بل فرَّ إلى قلعة حصينة وتشتت جموع الخرمية مؤقتا[٢].

وقد ساعدت تضاريس جبال أذربيجان على عدم حسم المعركة، فطال حصار عبد الله بن طاهر لبابك دون فائدة، ثم أتى طارئ جديد إذ تُوُفِّيَ طلحة بن طاهر (٢١٣هـ) وهو أخو عبد الله بن طاهر ونائبه على خراسان وهو الذي كان يتصدى لحركة الخوارج في خراسان، فاضطر إلى فك الحصار والعودة إلى خراسان (٢١٤هـ).

أتاحت هذه الفرصة متنفسًا جديدًا لبابك الخرمي؛ حتى لقد انتهز أتباعه انشغال المأمون في حربه مع الروم وخروجه إلى الشام (٢١٨هـ) فنفذوا حركة تمرُّد ضخمة في ليلة واحدة في أنحاء فارس وأصفهان وقوهستان[٣] وأذربيجان خرجوا فيها جميعهم في كل المدن والولايات بإيعاز من بابك وتدبيره، فقتلوا عمال المدن وأعدادًا غفيرة من المسلمين ونهبوا منازلهم وسبوا أبناءهم وأخذوهم عبيدًا، وقد فشلت حركتهم في فارس؛ إذ استطاعت مقاومة شعبية من المسلمين أن تنتصر عليهم وتقتل منهم الكثير لكنها نجحت في أصفهان حيث خرج رئيسهم علي بن مزدك في وقت غاب فيه والي أصفهان عنها ولم يستطع أخوه مقاومة جموع الخرمية فانسحب منها، فقتل الخرمية كثيرًا المسلمين وسبوا كثيرًا من نسائهم وأبنائهم، ثم خرجوا بقوتهم هذه وتمركزوا في بلدة تسمى «شارستانه» فأصبحت مركو تجمع البابكية، وهناك التحق بهم بابك نفسه، وقد بلغ جمعهم خمسة وعشرين ألفًا[٤].

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤١، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٧٨، ١٨٠، ونظام الملك: سياست نامه ص٢٨٧.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩١، ونظام الملك: سياست نامه ص٢٨٧.

(٣) قوهستان: منطقة جنوبي خراسان، أغلبها جبال وصحراء ومساكنها متباعدة، وهي محرفة عن «كوهستان» و«كوه» معناه الجبل. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٤١٦.

(٤) نظام الملك: سياست نامه ص٢٨٧.

عندئذٍ بعث المأمون القائد إسحاق بن إبراهيم الطاهري ووزيره يحيى بن أكثم إلى عبد الله بن طاهر ليختار بين ولاية خراسان، وكان قد تولاها بعد وفاة أبيه طاهر بن الحسين، وبين ولاية الجبال وأذربيجان وأرمينية فيكون من مسئوليته محاربة بابك، فاختار عبد الله المقام بخراسان وبرر ذلك بحاجته إلى ضبط أمرها لا سيما وقد ظهرت بوادر تمرُّد للخوارج فيها، فمن ثم تولى إسحاق بن إبراهيم قتال بابك، وقاد جيشًا كبيرًا حقق به نصرًا عزيزًا على بابك (٢١٨هـ) وهو النصر الذي طالما تاقت له القلوب وإن كان غير حاسم، إلَّا أنَّ المأمون قد تُوُفِّيَ هذا العام قبل أن تصله أنباء هذا النصر.

وبالتوازي مع هذا نظم أهل أصفهان مقاومة ضد الخرمية تزعمهم فيها قاضي أصفهان وأعيانها فقتلوا منهم مقتلة كبيرة وأسروا منهم كثيرًا[1].

يرى بعض المؤرِّخين أن هذه الحركات الكثيرة إنما تدل على ضعف هيبة الحكم الذي نتج عن الخلاف بين الأخوين على السلطة، ثم بقاء المأمون مدة من الزمن بعيدا عن مركز الحكم، الأمر الذي أطمع الكثير من الطامحين بالمخالفة وعدم الطاعة؛ حتى وإن قوي الحكم نسبيا عندما رجع المأمون إلى بغداد[2] إلَّا أنَّ هذا الرأي لا يبدو مفسرًا للأغلب الأعم من حركات التمرُّد، والتي بدأت بعد استقرار المأمون في بغداد واستقرار أمر الحكم، فتلك اثنتا عشر حركة تمرُّد لم يكن فيها إلا اثنتان فقط بدأتا قبل عام رجوع المأمون إلى بغداد (٢٠٤هـ)، وتحليلها يحتاج دراسة أعمق وأكثر استيعابا للتفاصيل فهي خليط من أوضاع عامة وخاصة، وتلعب فيها الظروف المحلية والدوافع الشخصية دور البطولة.

الجهاد والفتوحات

لم يكن عصر المأمون بالنسبة إلى الفتوحات خيرًا من عصر سابقيه، فقد توقفت الفتوحات الواسعة الحاسمة منذ عهد الدولة الأموية، وإن بقيت جبهات الجهاد قائمة لا سيما مع الروم.

١- جبهة الروم

كان من فضل الله تعالى على المسلمين أن الروم كانوا مشغولين بمشكلاتهم الداخلية في

(١) نظام الملك: سياست نامه ص٢٨٨.

(٢) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ٢٠٦.

وقت اضطراب البلاد الإسلامية في صراع الأمين والمأمون، ثم من بداية حكم المأمون؛ حتى استقرَّ حكمه وعاد إلى عاصمة الخلافة في بغداد.

لقد شُغِل الروم بجبهتين: حربهم مع البلغار، وصراع داخلي على الحكم حتى لقد تعاقب عليه أربعة منهم خلال أربع سنوات فيما بين (١٩٤ - ١٩٨ هـ = ٨٠٩ - ٨١٣ م)، لذا لم يكن لهم غارات على حدود الدولة الإسلامية كما هي العادة في مثل هذه الأحوال.

وقد استغلَّ المأمون ذلك التمرُّد الذي قاده توماس الصقلي ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن (٢٠٦ هـ = ٨٢١ م) وأخذ يمد تلك الحركة بالمال والسلاح -وفي بعض المصادر أنه أمده بجيش كبير[١]- كي يساعده في الاستيلاء على القسطنطينية، إلَّا أنَّ هذه الحركة انتهت بالفشل وقُتِل زعيمها توماس الصقلي على أبواب القسطنطينية (٢٠٨ هـ = ٨٢٣ م)[٢].

وأول ما نطالعه من غزو المأمون لأرض الروم البيزنطيين كان في (أواخر المحرم ٢١٥هـ) وقد انضم إليه أخوه أبو إسحاق قادما من مصر قبل أن يصل إلى الموصل ثم سارا إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ثم طرسوس التي وصلها (١٥ من جمادى الأولى ٢١٥هـ)، وفتح حصن قرة (٢٦ من جمادى الأولى ٢١٥هـ) وخرشنة وصمالو، ودخل حصن ماجدة، وذهبت فرقتان من الجيش إحداهما بقيادة أشناس نحو حصن سندس وجاءت برئيسه إلى المأمون، والأخرى جاءت بالطاعة والاستسلام للمأمون من رئيس حصن سنان، ثم عاد من غزوه هذا إلى دمشق فأقام فيها[٣]، ويذكر بعض المؤرِّخين أن المأمون اقتحم أنقرة وفتحها «نصفًا بالصلح ونصفًا بالسيف» وفتح حصنًا آخر[٤].

وفي العام التالي (٢١٦هـ) هجم الروم على طرسوس فقتلوا من أهل طرسوس ألفًا وستمائة، وأرسل ملك الروم توفيل بن ميخائيل إلى المأمون فبدأ بنفسه (وهذا يعد تمردًا بالنسبة إلى العلاقة بين الدولتين آنذاك)، فسارع المأمون بالخروج إلى بلاد الروم، وصَحِبَه أخوه أبو إسحاق مرة أخرى، ولكنهما سارا في هذه الغزوة كجيشين مستقلين، فدخل المأمون أرض الروم (١٩ من جمادى الأولى ٢١٦هـ) وسقطت أمام الجيوش معاقل ومدن كثيرة صُلْحًا وعُنْوة، منها ثلاثون

---

(١) محمود عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص١٢٥.

(٢) د. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي ص٨٧.

(٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩١، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨١.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٢.

حصنًا فتحها جيش أبي إسحاق وحده بالإضافة إلى مطمورة[١]، وكذلك أخرج المأمون فرقة بقيادة يحيى بن أكثم كان لها أثر قوي في تخريب الحصون وتدميرها بغية ضرب القوى الحربية للروم، ثم عاد مرة أخرى إلى جيش المأمون، وفي هذه الأثناء أفرج إمبراطور الروم توفيل بن ميخائيل عن خمسمائة أسير مسلم طلبًا للصلح مع المأمون، وقد استغرقت هذه الغزوة شهرين (حتى نصف شعبان)، ثم عاد إلى دمشق حيث كان في انتظاره ثورة عبدوس الفهري في مصر[٢]!

ثم عاد إلى الغزو في العام التالي (٢١٧هـ)، فحاصر حصن لؤلؤة مائة يوم، ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها قائده عجيف بن عنبسة، فوقع في فخ فأسره الروم، فظل ثمانية أيام ثم استطاع الهرب وعاد إلى حصارهم؛ حتى جاءه جيش الروم الرئيسي بقيادة ملكهم توفيل فحاصره من ورائه، على أن هذا لما بلغ المأمون أسرع بالعودة إليهم بجيشه الرئيسي، ويبدو أن توفيل قد أحس بخطورة أن يتلقى جيشه الرئيسي هزيمة ساحقة فتصبح بلاد الروم جميعها مفتوحة أمام الجيش الإسلامي، فلذلك انسحب لدى علمه بقدوم المأمون، وترك وزيره يفاوضه بطلب الأمان، وترك رسالة يبدأ فيها بنفسه أيضًا، فرفض المأمون هذا الصلف والتعاظم المصطنع، فرَدَّ عليه المأمون كتابًا بليغًا مضمونه التقريع والتوبيخ، «وإني إنما أقبل منك الدخول في الحنيفية وإلا فالسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى»[٣].

ولم يَعُدْ المأمون إلى العراق؛ بل نزل حصنًا في بلاد الثغور يسمى سَلَغوس -وهو قريب من طرسوس[٤]- ثم فكر في تفريغ مدينة الرافقة لتكون منزله مع حاشيته لكنه تراجع حين رفض أهلها، ومن موضعه هناك وجَّه (غرة جمادى الآخرة ٢١٨هـ) ابنه العباس لبناء حصن الطوانة وتجديد عمارتها، وبعث إلى سائر الأقاليم في تجهيز الفعلة من كل بلد إليها، من مصر والشام والعراق، وأمره أن يجعلها ميلًا في ميل، وأن يجعل سورها ثلاث فراسخ، وقد بنى لها أربعة أبواب وجعل على كل باب حصنًا، ثم إنه زاد في أعداد الجند وفي رواتبهم وبعث في طلب جنود من مصر والعراق والشام ليزيد بهم أعداد الجند المرابطين في الثغور[٥].

---

(١) المطمورة: معقل حصين، وهو أقل من الحصن.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٢.
(٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩١، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٣، ١٩٤، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٥.
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٢٣٨.
(٥) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩١، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٦.

وكل هذه الإجراءات تفيد أن المأمون كان ينوي إدارة المعركة مع الروم من موقع متقدم وبنفس طويل، لكن الأجل لم يمهله إذ تُوُفِّيَ في هذا العام ذاته.

وعلى الرغم من أن جهاده لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات في خلافة دامت عشرين سنة؛ فإنها كانت كافية لإلقاء ضوء جديد على شخصية المأمون، كي يسجل المؤرِّخون أن «فيه شهامة عظيمة وقوة جسيمة في القتال وحصار الأعداء ومصابرة الروم وحصرهم»[1].

٢- جبهة المشرق

في الوقت الذي كانت تموج فيه بغداد بالفتنة والاضطراب على المأمون إذ كان العباسيون قد خلعوه بعدما ولى علي بن موسى الرضا ولاية العهد، كانت جبهة الشرق آمنة مطمئنة بل كانت تفتح البلاد، ففي ذلك الوقت فَتَح والي طبرستان عبد الله بن خرداذبه منطقتي اللارز والشيرز من بلاد الديلم (٢٠١هـ) فأصبحتا ضمن أرض الدولة الإسلامية، واستسلم ملكا الديلم مازيار بن قارن وأبو ليلى، فأما الأول فأُرسل إلى المأمون، وأما الثاني فقد أُسِر في المعركة، كذلك أنزل عبد الله بن خرداذبه شهريار بن شروين عن جبال طبرستان، وقد مدحه الشاعر سلام الخاسر بقوله:

إنا لنأمل فتح الروم والصين ... بمن أدال لنا من ملك شروين

فاشدد يديك بعبد الله إن له ... مع الأمانة رأيًا غير موهون[2]

٣- فتح بلاد النوبة

ومن الفتوحات التي جرت في عهد المأمون دخول بلاد النوبة في النفوذ الإسلامي، وكانت بلاد النوبة قد تأخر فتحها وواجه صعوبات كثيرة لطبيعة أهلها ومناخها، وكثيرا ما نشبت معارك أزعجت وأقلقت الولاة في مصر؛ حتى استقرَّ الأمر بينهم وبين المسلمين على أن يُعطوا حوالي أربعمائة رأس من الماشية سنويًّا مع عدد من الرقيق مقابل بضائع من القمح والخل والثياب والفرش أو قيمة ذلك من الأموال، وهو بهذا عهد صداقة واتفاق لا إذعان، وظل هذا الاتفاق حتى عهد المهدي يتعرَّض لتغيرات قليلة[3]، وفيما يبدو أن اضطراب أمر

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٠٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٤٣٢.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٨١.

الخلافة في حرب الأمين والمأمون وما صاحبها من اضطرابات كثيرة في مصر قد شَجَّع البجاة -وهم أهل هذه البلاد- في هذه المناطق على نقض الاتفاق بل والتعدي على بلاد المسلمين، وقد زادت هذه التعديات والمشكلات في أيام المأمون، فقاتلهم، وانتهى القتال إلى اتفاق دخلت بموجبه هذه المناطق في عهد الدولة الإسلامية، وقد نص الاتفاق على:

١- أن تكون بلاد البجاة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتدُّ بين دهلك[١] وباضع[٢] ملكًا للخليفة، وأن يكون كنون بن عبد العزيز ملكًا على البجاة.

٢- أن يؤدي ملك البجاة كل عام الخراج على ما كان عليه أسلافه، مائة من الإبل وثلاثمائة دينار (ويبدو من أرقام هذه الجزية أنها بلاد قليلة وفقيرة).

٣- أن يحترم البجاة الإسلام، وألا يذكروه بسوء، ولا يُعينوا أحدًا على أهله.

٤- ألا يمنعوا أحدًا من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها برا وبحرا.

٥- إذا نزل البجاة صعيد مصر مجتازين أو تجارا فلا يُظهرون سلاحًا ولا يدخلون المدن والقرى بحال[٣].

يفسر بعض المؤرِّخين تأخر حركة الفتوحات وبدايتها في (٢١٥هـ) أي قبل وفاة المأمون بثلاث سنوات فحسب، وبعد استقراره في بغداد بأحد عشر عامًا، بأن المأمون رأى ما آل إليه العرب من رفاهية ركنوا إليها فتركوا القتال وضعف عندهم روح الجهاد، ثم ما أصابهم من الفرقة التي مزقتهم وشجعت روح التمرد لا سيما في المراكز البعيدة[٤].

الجنود الأتراك

مَثَل التمزق والفرقة التي أصابت العرب كمثل الذي أصاب الفرس، إلى جانب تنامي قوة الشعوبية الفارسية التي تطمح إلى إعادة ملك الفرس وأمجادهم، مما جعل الاعتماد على العناصر الفارسية في القتال أمرا لا يُطْمَأنُّ إليه تمامًا، فبدأ المأمون وعبر أخيه إبي إسحاق

---

(١) دهلك: جزيرة في البحر الأحمر قريبة من اليمن.

(٢) باضع: جزيرة أخرى تابعة للحبشة.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٣٦١، ٣٦٢، وقد ذكر المقريزي نص الاتفاق وهو طويل ففضلنا أن نضع هذا الاختصار المذكور للدكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٢/ ١٦٧، وهو اختصار لاقى قبولا عاما من المؤرخين والباحثين فنقلوه في كتبهم.

(٤) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ٢١٠.

(المعتصم) في ضم الجند من العناصر التركية التي ما زالت تحتفظ بالقوة والبداوة والشجاعة ولم تصبها فرقة كالتي أصابت العرب والفرس[١]، ولم تَفْشُ فيهم أفكار متمردة كالشعوبية أو العلوية أو الخارجية، تلك الأفكار التي جعلت كثيرًا من الجند وأمرائهم يشاركون في الانقلاب على الخلفاء كالأمين وإبراهيم بن المهدي!

فكان المعتصم يرسل مبعوثه جعفر الخشكي إلى سمرقند حيث نوح بن أسد الساماني، ليشتري الأتراك ليكونوا العنصر القوي الجديد؛ الذي يمثل عصب جيش الخلافة، وكان هذا يتكرر سنويًّا في عملية دورية مستمرة؛ حتى مات المأمون وقد بلغ عدد الأتراك مع المعتصم نحو ثلاثة آلاف[٢]، وقد رُصِدَت ميزانية كبيرة لهذه العملية إذ كان الواحد منهم يُشترى أحيانًا بمائة ألف أو مائتي ألف[٣].

النهضة العلمية

١- المأمون العالم

كان المأمون «من عظماء الخلفاء، ومن عقلاء الرّجال، وله اختراعات[٤] كثيرة في مملكته، منها: أنّه هو أوّل من فحص منهم عن علوم الحكمة، وحصّل كتبها وأمر بنقلها إلى العربيَّة وشهرها، وحلّ إقليدس، ونظر في علوم الأوائل، وتكلّم في الطّبّ وقرّب أهل الحكمة»[٥]، وكان «نجم ولد العباس في العلم والحكمة، وقد كان أخذ من جميع العلوم بقسط، وضرب فيها بسهم»[٦].

ومن بديع ما يُروى في هذا أنه جلس مرة في وليمة بها ثلاثمائة نوع من الطعام فأخذ يقول: «هذا نافع لكذا ضار من كذا، فمَنْ كان منكم صاحب صفراء[٧] فليأكل من هذا، ومن

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩١، ومحمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٥/ ٢١٠.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص٥٥.

(٣) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ١١٢.

(٤) اختراعات: المقصود بها هنا سوابق أو ابتكارات في السياسة والإدارة.

(٥) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢١٤.

(٦) الدينوري: الأخبار الطوال ص٤٠١.

(٧) كان القدماء يعتقدون أنه ينشأ عن أن يتغلب في الجسم أحد العناصر الأربعة وهي الدم والصفراء والسوداء والبلغم ومن ثم كانوا يقولون بأربعة أمزجة هي الدموي والصفراوي والسوداوي والبلغمي أما المحدثون من علماء النفس فيوافقون القدماء على أن الأمزجة ترجع إلى مؤثرات جثمانية ولكنهم يخالفون في عدد الأمزجة وأسمائها إذ يعتدون بالإفرازات التي تفرزها الغدد الصم كالغدة الدرقية والغدة الكلوية ويجعلونها المؤثرات الأساسية في تكوين المزاج. المعجم الوسيط ٢/ ٨٦٦.

غلبت عليه السوداء فلا يعرض لهذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا، ومن قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا. قال (الراوي الفقيه محمد بن جعفر الأنماطي): فوالله إن تلك حاله من كل لون يقدم؛ حتى رفعت الموائد. فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين، إن خضنا في الطب كنت جالينوس[١] في معرفته، أو في النجوم كنت هرمس[٢] في حسابه، أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب عليه السلام في علمه، أو في السخاء فأنت حاتم طيء في جوده، أو صدق الحديث فأنت أبو ذر في صدق لهجته، أو الكرم، فأنت كعب بن مامة[٣] في إيثاره على نفسه. فَسُرَّ بذلك المأمون، وقال: يا أبا محمد، إن الإنسان إنما فضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ولا دم أطيب من دم»[٤].

وكان فصيحا سريع البديهة حاضر الجواب وله في هذا مواقف بديعة[٥].

٢- بيت الحكمة

لهذا تمم المأمون ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم، وسألهم صلتهم بما لديهم من كتب الفلسفة وغيرها من «مُختار العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم»، وحين وافق ملك الروم كلف المأمون لجنة من المشرفين على بيت الحكمة وأهل العلم بالذهاب وتخير المفيد من هذه الكنوز، ثم اختار مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها[٦].

ولم تكن بلاد الروم هي المصدر الوحيد للكتب والعلوم القديمة، بل إن الدولة الإسلامية في ذلك الوقت كانت تحكم فعليًّا سائر المدن القديمة التي بقي فيها تراث اليونانيين في الشام ومصر، كما أن الدولة الإسلامية كان تحت يدها بالفعل كل التراث الفارسي، وقد شملت السفارات الهند والصين حيث تراث علمي وحضاري آخر زاخر!

ولهذا تطور «بيت الحكمة» في عهد المأمون حتى أصبح مؤسسة علمية من الطراز الممتاز

---

(١) جالينوس: الطبيب اليوناني الأشهر بعد أبقراط، وصاحب المؤلفات الطبية الشهيرة.
(٢) هرمس: فلكي مشهور ورأس في علم التنجيم.
(٣) كعب بن مامة: جاهلي يضرب به المثل في الإيثار وحسن الجوار.
(٤) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٤٥، ٤٦.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٩٧، ١٩٨.
(٦) ابن النديم: الفهرست ص٣٠١، وابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٥، ٢٣٦.

همها ترقية البحث والدرس والتجرد للدراسات العليا، ويمكننا القول أن هذه المؤسسة «بيت الحكمة» قد أصبحت زمن المأمون أكاديمية بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة؛ فيها أماكن للدرس وأماكن لخزن الكتب، وأماكن لنقلها، وأماكن للتأليف، إلى جانب المرصد الفلكي الذي مارسته[(١)].

ودامت أعمال الترجمة المخصبة المثمرة، مائة وخمسين عاما فيما بعد، وفي هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية، واليونانية، والفهلوية، والسنسكريتية. وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين في بيت الحكمة طبيب نسطوري هو حنين بن إسحاق، وقد ترجم وحده-كما يقول هو نفسه-إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية، وإلى اللغة العربية تسعًا وثلاثين رسالة أخرى. وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء. وترجم حنين فضلًا عن تلك الرسائل السالفة الذكر كتب المقولات والطبيعة، والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتب الجمهورية، وطيماوس، والقوانين لأفلاطون؛ وعهد أبقراط، وكتاب الأقرباذين لديوسقريدس، وكتاب الأربعة لبطليموس، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية. وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين على عملهِ هذا يمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهبًا، وكان ابن إسحاق بن حنين يساعد أباه في أعمال الترجمة، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو كتب الميتافيزيقا، والنفس، وفي توالد الحيوانات وفسادها كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسي، وهو كتاب له أثر كبير في الفلسفة الإسلامية. وبعد مائة عام من حركة المأمون كانت معظم الكتب اليونانية القديمة في علوم الرياضة، والفلك، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية. وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المجسطي على كتاب بطليموس في الفلك، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات ٥، ٦، ٧ من المخروطات لأبولونيوس البرجاوي وكتاب الحِيَل لهيرو الإسكندري وكتاب الخصائص الآلية للهواء والغازات لفيلون البيزنطي[(٢)].

وكان راتب المترجم من أعلى الرواتب في وظائف الدولة، فكان حنين بن إسحاق

(١) د. خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٩.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٨ وما بعدها.

ومجموعته يحصلون على خمسمائة دينار في الشهر، هذا بخلاف ما يعطيه عقب كل ترجمة، وهي مكافأة هائلة: وزن الكتاب ذهبا[١]! ولا ريب أن هذه مبالغة ولكنها تعبير عن حفاوة المأمون بعمل المترجمين!

وكانت حاشية المأمون زاخرة بأهل العلم لا فرق بين مسلم ونصراني ويهودي، بل كان في حاشيته من يدعي النبوة ممن لديه علم بالفلك والنجوم، ولم يزل المأمون يستفيد منه ويراجعه حتى أقرَّ واعترف وتاب من دعوى النبوة وكشف عن الحِيَل العلمية التي صنع بها ما ظهر للناس كأنه معجزات[٢].

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكي، ويدرسوا كلف الشمس. واتخذوا كرية الأرض أساسًا بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت واحد. وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلًا وثلثي ميل وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا في الوقت الحاضر ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل. ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئًا إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية، وكانوا يسيرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة، وكتب أحدهم وهو الفرغاني كتابًا في الفلك ظل مرجعًا تعتمد عليه أوربا وغربي آسية سبعمائة عام. وأوسع منه شهرة البتاني الذي ظلَّ واحدًا وأربعين عامًا يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتِّساع مداها. وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من «المعاملات» الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام[٣].

٣- عصر المناظرات

لقد أتاح المأمون لكلِّ ذي نظر وفكر ورأي أن يقول بما يعتقد، مهما كان خطر هذا على الدولة ذاتها، وهذه عادة الدول في مراحل استقرارها بعكس مراحل تأسيسها لا سيما إن كان على رأسها حاكم يقدر الفكر، فكيف بالمأمون وهو واحد من علماء عصره!

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٣٣، والقفطي: إخبار العلماء ص٣١، والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٨٧.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٦ وما بعدها.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٨٢.

وقد كان للمأمون مجلس مناظرات يصفه المسعودي بقوله: «إذا حضر الفقهاء ومَنْ يناظره من سائر أهل المقالات أُدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا أخفافكم، ثم أحضرت الموائد، وقيل لهم: أصيبوا من الطعام والشراب وجَددوا الوضوء، ومن خُفّه ضيق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قَلَنْسوته فليضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه، ويناظرهم أحسن مناظرة، وأنْصَفَهَا وأبعدَهَا من مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس، ثم تُنْصَبُ الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون»[(١)]، وكان يفيض عليهم بالأموال ويتفقدهم إذا غابوا عنه ويزُورهم في بيوتهم[(٢)].

ومجلس المناظرة هذا يجمع من لو صحت مذاهبهم وأفكارهم لذهبت بشرعية الخلافة للعباسيين!

ومن أبرز آثار هذه المناظرات:

١) كان من إيجابيتها ثراء العلوم الدينية من خلال الحوار والمناظرة خاصة في الجانب الفقهي الذي يتعلق بالأحكام العملية فكانت ثروة للأُمَّة...

٢) نشوء علم الكلام في حد ذاته لإثبات العقائد بالعقل والمنطق كان مناسبًا لمخاطبة الداخلين في الإسلام من الفرس، الذين يتحاجون بهذه الطرق، فمخاطبتهم بطريقتهم شيء مؤثِّر لاشك في ذلك.

٣) ولكن اعتماد العقل وحده في إثبات العقائد يؤدي إلى انحراف، لأن العقل محدود والعقائد تتعرض للغيبيات، والحجة فيها للنص الصحيح من القرآن أو السنة.. فحدث انحراف في مسائل كثيرة تمذهب بها فرق وأدت إلى تفرق بعض أجزاء الأُمَّة.

٤) كان للمأمون وجهة نظر تبدو صائبة[(٣)] في تعليله محاولة توحيد القوم على رأي واحد

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ص٤٠٩ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).

(٢) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٣٣٩.

(٣) والحقيقة أنها ليست صائبة لأن توحيد الآراء في الأمور الفرعية، وفيها يحتمل وجوهًا عدة هو ضرب من المستحيل، وهو مخالف لسنن الله وقد كان أكابر العلماء لا يمتعضون من الخلاف في الفروع، ولا يرون حمل الأمة على رأى واحد، بل كانوا يقولون: من لم يعرف الخلاف لم يشم رائحة الفقه. أي من لم يعرف الآراء المتعددة في المسألة ووجهة نظر أصحابها لم يكن واسع الأفق أو الفقه (مؤلفو الموسوعة الميسرة).

فيما اختلف فيه من المسائل، وقد كبر الخلاف في مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلًا ولكنه كان يقول: «إن أصغر المسائل متى كانت أساسًا لنحلة أو سببًا لرياسة فإن الخلاف يعظم بسببه؛ أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلًا؛ إذا لم يكن أساسًا لنحلة أو سببًا لرياسة»(١).

ويرى ابن تيمية أن مثل هذه السياسة كانت بداية ضعف الأُمَّة الإسلامية، يقول: وفي دولة أبي العباس المأمون ظهر الخرمية ونحوهم من المنافقين وعرب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودة. فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق في المسلمين وقوي ما قوي من حال المشركين وأهل الكتاب؛ كان من أثر ذلك: ما ظهر من استيلاء الجهمية والرافضة وغيرهم من أهل الضلال وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة. وذلك بنوع رأي يحسبه صاحبه عقلًا وعدلًا، وإنما هو جهل وظلم»(٢).

والتعرض للأفكار المختلفة دون عدة وافية من العلم بالكتاب والسنة يوقع صاحبه في التشوش ويزل به في بعض الأخطاء، وقد كان هذا مثال المأمون كما وصفه ابن كثير بقوله: «كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة»(٣).

الدولة الطاهرية

وهي إحدى تطبيقات سياسة الرشيد في مناطق الأطراف، بحيث يُسند الأمر إلى من يستطيع إدارة هذه البلاد على طريقة الحكم الذاتي المنضوي تحت راية الخلافة كما هو الحال في دولة الأغالبة في المغرب من قبل.

والطاهريون أسرة فارسية أسلمت والتحقت بقبيلة خزاعة فصاروا من مواليها على نظام الولاء السائد في ذلك العصر، ولكن بعض مؤرِّخي إيران المحدِّثين يحاولون التشكيك في ولاء الطاهريين لخزاعة، بل حاول كل من مؤرِّخي إيران وأفغانستان إثبات نسب الطاهريين على أساس النزعات القومية الحديثة، فراح مؤرِّخو إيران يعملون جهدهم في إثبات نسب

---

(١) مجموعة: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ١/ ٢٧٧ وما بعدها.
(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٢١.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٠١.

الطاهريين الإيراني وبادلهم مؤرِّخو أفغانستان الجهد نفسه في إثبات نسب الطاهريين الأفغاني[1].

وتبدأ الدولة الطاهرية منذ أن ولَّى المأمونُ طاهرَ بن الحسين ولاية العراق وخراسان وما والاها إلى الشرق (٢٠٥هـ)، وقد رفع المأمون من قدر طاهر ومنزلته، وتلقب طاهر بـ «ذي اليمينين» لشجاعته، وكان طاهر معروفا بمعارضته لسياسة الوالي السابق علي بن عيسى بن ماهان؛ حتى إن هذا الأخير نفاه إلى مدينة سارية في طبرستان، وبدأ صعود نجمه حين اشتعلت الأزمة بين الأمين والمأمون فكان علي بن عيسى في صف الأمين بينما كان طاهر بن الحسين في صف المأمون، ثم قاد طاهر جيوش المأمون حتى النصر على الأمين وقتله فصفت الخلافة للمأمون، ثم آل به الأمر أن عاد واليًا إلى خراسان.

وأغلب الظن أن حالة المشرق بعد عودة المأمون إلى بغداد هي التي دفعته لإسناد حكم خراسان إلى طاهر بن الحسين، فقد كان والي خراسان (٢٠٥هـ) هو غسان بن عباد، وكان على صلة قرابة بالفضل بن سهل، وكان المأمون لا يثق فيه، فأحس غسان بهذا فاضطرب أمره وظهرت منه بوادر الشقاق، وإضافة إلى هذا فقد اشتعلت حركات تمرد في أرض المشرق، وأولها حركة بابك الخرمي الخطيرة (٢٠١هـ) في أذربيجان، وحركة الحسين الكواكبي العلوي (٢٠٢هـ) في قزوين، وشبه حركة تمرد تلوح في الأفق حيث قام أحدهم -واسمه عبد الرحمن المطوعي- بجمع الجموع لقتال الخوارج دون إذن والي خراسان (٢٠٥هـ)، وقد وافق هذا رغبة لدى طاهر بن الحسين الذي كان يتولى الشرطة في بغداد ذلك الوقت[2].

كان المأمون مضطرًّا إلى أن يضع في خراسان واحدًا ممن يحبهم أهلها كطاهر بن الحسين، لكن خبرته السابقة مع الفارسيين وحركات التمرد تجعله يتخوف من قرار كهذا قد يكون بذرة لاستقلال طاهر بخراسان، فلعلَّه -لهذا تحديدًا- جعل ابنه عبد الله بن طاهر واليًا على الرقة في الغرب، وجعل ابن عمه إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد، وهو ما يفسره بعض المؤرِّخين بأنه ضمانة لعدم انشقاق الطاهريين بخراسان، فيما يشبه أن يكون الطاهري الذي في

---

(١) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٧٧. وهو ينقل عن مؤرخي إيران سعيد نفيسي ونيساري وعن المؤرخ الأفغاني أمين الله أحدي زاده.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٣، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٣.

بغداد رهينة للطاهري في خراسان[١].

عُرِف طاهر، فضلًا عن شجاعته، بالحكمة والعدل وحسن السياسة، وكان مشهورًا بالكرم والسخاء «وَقَّع يومًا بِصِلاتٍ أُحْصِيَت ألف ألف وسبعمائة ألف»[٢]، واستقرَّت له خراسان، غير أنه ما لبث أن تُوُفِّيَ فجأة (٢٥ من جمادى الآخرة ٢٠٧هـ) وهو على مشارف الخمسين من عمره[٣]، وقد أثيرت شكوك كثيرة حول هذه الوفاة المفاجئة، فمما قيل فيها: أن طاهر بن الحسين كان قد عزم على الاستقلال بأمر خراسان لنفسه وولده، وأنه خطب يومًا فلم يَدْعُ للمأمون في خطبته[٤]، واختلفت الروايات التي تفسر هذه الوفاة وهل هي وفاة طبيعية من أثر الحمى[٥] أم اغتيال من قِبَل المأمون[٦]، وهل كان استقلال طاهر بسبب سوء العلاقات بينه وبين المأمون كما يرى البعض أم أنه لم يكن ثمة استقلال أصلا كما يشكك البعض الآخر وينفون هذه التهمة عن طاهر[٧].

تذكر بعض الروايات أن سبب استقلال طاهر هو عِلْمُه أن المأمون قد غضب عليه قتله وإهانته لأخيه الأمين وأنه لن ينساها لطاهر وسيأتي يوم يوفيه جزاءه[٨]، فلهذا عزم على الاستقلال وخلع المأمون، غير أن المأمون كان قد أمر خادما من خدام طاهر بمراقبته جيدًا فإن رأى منه بوادر الاستقلال فليَسُمَّه، فلما لم يخطب طاهر للمأمون فعل الخادم ما أُمِر به، فلما بلغ موته المأمون قال: لليدين وللفم الحمد لله الذي قدمه وأخرنا[٩].

وهذه الرواية تفسر الاغتيال بأفضل مما تفسر السبب، فلا غرابة أن المأمون وضع خادما لمثل هذه الأحوال، لا سيما وهو الذي تُثار حوله الشكوك في قتل الفضل بن سهل وعلي بن موسى الرضا، إلَّا أنَّ تفسيرها للسبب متهافت في ظلِّ وجود الكثير من الروايات الأخرى التي تقطع بأن

(١) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٠١.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٩/ ٣٥٣، وابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٦٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٥٢١.

(٤) كان من التقاليد المعروفة طوال التاريخ الإسلامي أن يُدعى للخليفة على المنابر في يوم الجمعة وغيره بالتوفيق والسداد والبطانة الصالحة وما إلى ذلك، ثم صار هذا الدعاء علامة على الولاء، فكان خلع الخليفة وإعلان التمرد أو الاستقلال يتم بترك الدعاء.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٢، وابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٦٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٥٢١.

(٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٤، ١٨٥.

(٧) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٠٣.

(٨) ابن طيفور: كتاب بغداد ص٢٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٣.

(٩) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٣، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٥٢١، ٥٢٢.

طاهر بن الحسين لم يقتل الأمين إلا عن رغبة من المأمون، وأن المأمون لم يستجب لمحاولات الفضل بن سهل من قبل حين حاول إثارته على طاهر بهذا السبب، بل ثمة رواية عند ابن طيفور -المؤرخ العراقي المتقدم- تصرح بقول المأمون لطاهر بن الحسين: «أما إنه أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة، لستُ أنا ولا أنتَ رابعهم ولا خامسهم وهم: الفضل بن الربيع، وبكر بن المعتمر، والسندي بن شاهك، هم والله ثأر أخي وعندهم دمه»(١).

على كل حال مات طاهر بن الحسين فجأة ولم يُمتَّع بعد بمقعد السلطان بعد حياة حافلة بالحروب والبطولات ومكافحة التمردات، وذهب إلى ربه، فلئن كان أراد البطولة والخلود وذِكْرَ التاريخ في الدنيا فلقد حصل عليه، وإن كان أراد بهذا الآخرة فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وقد كانت لطاهر بن الحسين وصية لابنه عبد الله في الإدارة والسياسة تعد من بدائع ما كُتِب في هذا المجال(٢)؛ حتى لقد استقبلها الناس بالحفاوة والدراسة والكتابة، ولما بلغت المأمون هذه الوصية قال: «ما أبقى أبو الطيب شيئًا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به»، وأمر بأن تعمم هذه الرسالة إلى جميع ولاته ليعملوا بها فيها(٣).

وبعد وفاة طاهر بن الحسين عهد المأمون بولاية خراسان إلى ابنه طلحة بن طاهر، وورد أنه عهد بها إلى عبد الله بن طاهر الذي كان واليًا على الشام والجزيرة فبعث إليها عبدُ الله أخاه طلحة نائبا له على خراسان، وظل ابن عم أبيه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب نائبًا على بغداد وتابعا -رسميًّا- لوالي خراسان(٤).

وفي السياق نفسه استقلت الدولة الزيادية باليمن، حيث ولى المأمون (٢٠٣هـ) محمدًا الزيادي بلاد تهامة، ولظروف اليمن الجغرافية من حيث البعد عن حواضر الخلافة ووعورتها كانت الدولة الزيادية في اليمن هي أطول الدول عمرًا، وظلت ثلاثة قرون ونصفًا! حتى زالت (٣٥٥هـ)(٥).

---

(١) ابن طيفور: كتاب بغداد ص٢٢.
(٢) ولأهمية هذه الرسالة فقد آثرنا أن نضعها في الملحقات في نهاية هذا الكتاب.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦١.
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦١، ١٦٣.
(٥) تاج الدين اليماني: بهجة الزمن في تاريخ اليمن ص٣٠.

كما نلحظ بذرة دولة أخرى لم يكتمل استقرارها على نحو ما كان للأغالبة والطاهريين، وهم المهالبة في السند، فلقد ظل داود بن يزيد بن حاتم المهلبي واليًا على السند واحدة وعشرين سنة (١٨٤ - ٢٠٥هـ) وقد كان سبقه في ولايتها عمه روح بن حاتم لفترة بسيطة وهي سنة واحدة (١٦٠ - ١٦١هـ)[١]، ثم ولى المأمون ابنه بشر بن داود مقابل مليون درهم سنويًّا (٢٠٥هـ)[٢]، لكن ولاء المهالبة لم يكن كولاء الأغالبة والطاهريين، فبعد سنوات من ولايته بدا التمرد من بشر بن داود فأرسل المأمون حاجب بن صالح واليًا على السند فهزمه بشر بن داود (٢١١هـ)، ثم منع الخراج ولم يحمله إلى المأمون (٢١٣هـ)، فولَّى المأمون على السند غسان بن عباد[٣]، فخرج لولايته فاستأمنه بشر (٢١٦هـ) فأمَّنه وعفا عنه، وأصلح غسان حال السند وترك عمران بن موسى البرمكي واليًا عليها[٤].

فتنة خلق القرآن

لدخول الفلسفة والمنطق في الفكر الإسلامي قصة طويلة، نجم عنها آثار بعيدة لم تزل مؤثِّرة في السجال الفكري الإسلامي حتى اللحظة الحالية ولا يبدو أن هذا الأثر سيزول ولا حتى على المدى البعيد، والآفة -كما هي العادة في كل احتكاك حضاري- أن يتصدى للأمر من لم يكن من أهله ولم يستعد له، وهذا الاستعداد أو الأهلية منطقة ضبابية رمادية تزيد الطموح إغراء وتزيد الخائف رعبا!

من العقول من لم يتشرب القرآن والسنة والأصول ثم هو يقدم على الخوض في الأفكار الأخرى بلا تردد، وهو يثق في قدرة عقله على خوض الغمار، فثمة من يهلك وثمة من يوشك على الهلاك وثمة من يعود موقنا أنه قد فاته استكمال العدة من علوم الشرع، وثمة من يخوض الغمار وينتهي به الحال إلى حيث بدأ الشرع، فيجد نفسه بعد الجهد الجهيد تلميذا في رحاب الكتاب والسنة لا يرجو من الدنيا إلا إيمان العجائز والبسطاء حيث لا تعقيد ولا متاهات ولا مضايق ألفاظ وعبارات ومفاهيم. وثمة من استكمل العدة فخاض الغمار فكان فارسه المغوار وقليل ما هم!

(١) زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٤١٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٤.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٧٩.
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨٥، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٣.

ومن المشكلات المترتبة على قلة هذه النماذج افتتان الشباب والعقول بزخرف القول وتماسك العرض والصياغة، ذلك أن العلماء الذين لا يفقهون مذاهب عصرهم ولا فلسفاته ولا تياراته الفكرية يضعون الأُمَّة كلها في الحرج بجهلهم هذه الأمور، فينبني على هذا كفران العقول الجرئية الذكية بانغلاق الفقهاء والمشايخ وهجرتها إلى حيث القول المزخرف والعرض المتماسك للأفكار الباطلة.

والمأمون كان رجلًا شجاع العقل واسع الأفق ذكيًّا ألمعيًّا، جريئًا على التفكير والنظر، وكانت مشكلته في استكمال العدة من القرآن والسنة، ولذا صدرت عنه أكثر من بدعة.

خرج المأمون على الناس (ربيع الأول ٢١٢هـ) بالقول بخلق القرآن، وبالقول بأن علي بن أبي طالب هو خير الناس بعد النبي على الإطلاق[١]، وقال في هذا شعرا:

أصـبح دينـي الــذي أديــن بــه ... ولسـتُ منـه الغـداة معتـذرا

حــب عــلي بعــد النبــي ولا ... أشــتم صــديقًا ولا عمــرا

ثــم ابــن عفــان في الجنــان مـع ... الأبـرار ذاك القتيـل مصطبرا

ألا ولا أشـــتم الـــزبير ولا ... طلحـة إن قـال قائـل غـدرا

وعـــائش الأم لســـت أشـــتمها ... مـن يفتريهـا فنحن منه بـرا[٢]

وكان المأمون قد أعلن من قبل هذا (٢١١هـ) براءة الذمة ممن ترحم على معاوية ﵁ أو ذكره بخير أو ذكر فضائله[٣]، وكان قد عزم على هذا من قبل فردَّه عن ذلك وزيره الصالح يحيى بن أكثم[٤].

قال ابن كثير: «وهذا المذهب ثاني مراتب الشيعة[٥] وفيه تفضيل عليٍّ على الصحابة وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: لا أوتى بأحد فضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري، وتواتر عنه أنه قال: خير الناس بعد النبي أبو بكر ثم عمر، فقد

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٧٨.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٣/ ٢٨٧.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٧٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٨١.
(٤) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٤٦.
(٥) يعني بالمرتبة الأولى: قولهم بسب الصحابة.

خالف المأمون الصحابة كلهم حتى علي بن أبي طالب»[١].

ثم في (١٤ من رمضان ٢١٦هـ) أمر أن يُكَبِّر الناس بعد الصلوت الخمس جهرًا ثلاث تكبيرات[٢].

فأما التكبير بعد الصلاة فقد أجمل ابن كثير الرد على ذلك بقوله: «هذه بدعة أحدثها المأمون بلا مستند ولا دليل ولا معتمد فإن هذا لم يفعله قبله أحد، ولكن ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر كان على عهد رسول الله ﷺ حين ينصرف الناس من (الصلاة) المكتوبة. وقد استحب هذا طائفة من العلماء كابن حزم وغيره. وقال ابن بطال: المذاهب الأربعة وغيرهم على عدم استحبابه. قال النووي: وقد روي عن الشافعي أنه قال: إنما كان ذلك ليعلم الناس أن الذكر بعد الصلوات مشروع، فلما عُلِمَ ذلك لم يبقَ للجهر معنى. وهذا كما رُوِيَ عن ابن عباس أنه كان يجهر بالفاتحة في صلاة الجنازة ليعلم الناس أنها سنة، ولهذا نظائر، والله أعلم. وأما هذه البدعة التي أمر بها المأمون؛ فإنها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف»[٣].

وأما مسألة تفضيل عليٍّ على سائر الصحابة، وهي الفكرة التي نبتت عند الشيعة ومن غلا في علي رضي الله عنه فأفضل وأجمع قول فيها على ما نعلم هو كلام ابن تيمية في المسألة إذ يقول:

«قد حصل فيها (أي: مسألة تقديم علي على عثمان) نزاع فإن سفيان الثوري وطائفة من أهل الكوفة: رجحوا عليًّا على عثمان ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره. وبعض أهل المدينة توقف في عثمان وعلي وهي إحدى الروايتين عن مالك؛ لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علي كما هو مذهب سائر الأئمة: كالشافعي وأبي حنيفة وأصحابه وأحمد بن حنبل وأصحابه؛ وغير هؤلاء من أئمة الإسلام. حتى إن هؤلاء تنازعوا فيمن يقدم عليًّا على عثمان هل يعد من أهل البدعة؟ على قولين هما روايتان عن أحمد.

وقد قال أيوب السختياني وأحمد بن حنبل والدارقطني: من قدم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار. وأيوب هذا إمام أهل السنة وإمام أهل البصرة روى عنه مالك

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٠٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٦.

في الموطأ؛ وكان لا يروي عن أهل العراق وروي أنه سئل عن الرواية عنه فقال: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه. وذكره أبو حنيفة فقال: لقد رأيته قعد مقعدا في مسجد رسول الله ما ذكرته إلا اقشعر جسمي.

والحجة لهذا ما أخرجاه في الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر أنه قال: **كُنَّا نُفَاضِلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ؛ كُنَّا نَقُولُ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان.** وفي بعض الطرق يبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره.

وأيضًا فقد ثبت بالنقل الصحيح في صحيح البخاري وغير البخاري أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جعل الخلافة شورى في ستة أنفس: عثمان وعلي وطلحة (بن عبيد الله) والزبير (بن العوام) وسعد (بن أبي وقاص) وعبد الرحمن بن عوف - ولم يدخل معهم سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وكان من بني عدي - قبيلة عمر - وقال عن ابنه عبد الله: يحضركم عبد الله وليس له في الأمر شيء ووصى أن يصلي صهيب بعد موته حتى يتفقوا على واحد. فلمّا تُوُفِّيَ عمر واجتمعوا عند المنبر. قال طلحة: ما كان لي من هذا الأمر فهو لعثمان. وقال الزبير: ما كان لي من هذا الأمر فهو لعلي. وقال سعد: ما كان لي من هذا الأمر فهو لعبد الرحمن بن عوف. فخرج ثلاثة وبقي ثلاثة. فاجتمعوا فقال عبد الرحمن بن عوف: يخرج منا واحد ويولي واحدا فسكت عثمان وعلي. فقال عبد الرحمن: أنا أخرج. وروي أنه قال: عليه عهد الله وميثاقه أن يولي أفضلهما. ثم قام عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام بلياليها: يشاور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمهات المؤمنين؛ ويشاور أمراء الأمصار - فإنهم كانوا في المدينة حجوا مع عمر وشهدوا موته - حتى قال عبد الرحمن بن عوف: إن لي ثلاثا ما اغتمضت بنوم. فلما كان اليوم الثالث قال لعثمان: عليك عهد الله وميثاقه إن وليتك لتعدلن ولئن وليت عليًّا لتسمعن ولتطيعن؟ قال: نعم. وقال لعلي: عليك عهد الله وميثاقه إن وليتك لتعدلن ولئن وليت عثمان لتسمعن ولتطيعن؟ قال: نعم. فقال: إني رأيت الناس لا يعدلون بعثمان. فبايعه علي وعبد الرحمن وسائر المسلمين: بيعة رضا واختيار من غير رغبة أعطاهم إياها ولا رهبة خوفهم بها.

وهذا إجماع منهم على تقديم عثمان على علي. فلهذا قال أيوب (السختياني) وأحمد بن حنبل والدارقطني: «مَنْ قدَّم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار» فإنه وإن لم

يكن عثمان أحق بالتقديم وقد قدموه كانوا إما جاهلين بفضله وإما ظالمين بتقديم المفضول من غير ترجيح ديني. ومن نسبهم إلى الجهل والظلم فقد أزرى بهم.

ولو زعم زاعم أنهم قدموا عثمان لضغن كان في نفس بعضهم على علي وأن أهل الضغن كانوا ذوي شوكة ونحو ذلك مما يقوله أهل الأهواء: فقد نسبهم إلى العجز عن القيام بالحق وظهور أهل الباطل منهم على أهل الحق. هذا وهم في أعز ما كانوا وأقوى ما كانوا. فإنه حين مات عمر كان الإسلام من القوة والعز والظهور والاجتماع والائتلاف فيما لم يصيروا في مثله قطُّ. وكان عمر أَعَزَّ أهلَ الإيمان وأَذَلَّ أهلَ الكفر والنفاق إلى حد بلغ في القوة والظهور مبلغا لا يخفى على من له أدنى معرفة بالأمور. فمن جعلهم في مثل هذه الحال جاهلين أو ظالمين أو عاجزين عن الحق فقد أزرى بهم وجعل خير أُمَّة أخرجت للناس على خلاف ما شهد الله به لهم»[1].

على أن هاتين البدعتين تهونان أمام البدعة الأكبر في عهد المأمون.. وهي بدعة القول بخلق القرآن.

وبحث الفكرة نفسها خارج عن نطاق كتب التاريخ، لأن التفاصيل مؤثِّرة والألفاظ ذاتها في مباحث العقيدة تحتاج إلى شروحات وتوضيحات ودرجة من الانضباط يتعثر معها الإيجاز غير المُخِلّ؛ ولهذا فالفقرات التالية هي شرح موجز مُخِلّ بحقيقة الأمر تستهدف إلقاء الضوء من بعيد على الموضوع ليسهل على قارئ التاريخ فهم الحدث التاريخي لا أكثر.

موضوع خلق القرآن هو فرع عن موضوع البحث في الله وفي الصفات الإلهية، وهو أمر أوصانا الإسلام بترك البحث فيه بمجرَّد العقل؛ لأن عقول البشر غير مهيأة لفهم كُنه الإله الذي خلقهم إلا في ضوء الوحي، كما هو -والتشبيه لمجرَّد التقريب- من المستحيل على جهاز الكمبيوتر الذي أكتب عليه هذه السطور أن يعرف صفاتي وأفكاري ونواياي وأهدافي وأحلامي وأسلوبي في الحياة (ولله المثل الأعلى).. لكن فرقة المعتزلة كانت الأجرأ على اقتحام هذا المجال والبحث فيه بمجرَّد العقل وإهمال النصوص المانعة من هذا، بل كانت الأجرأ على تجاوز النصوص ذاتها، فوقعت في رفض أو تحريف أو تأويل النصوص المتعلقة بالدار الآخرة

(1) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٤٢٥ وما بعدها.

إذ يرونها مخالفة للعقل.

ولا تنفع النية الصالحة في تصويب العمل إذا كان خاطئا، فهم في إطار تنزيه الله تعالى عن كل ما يشبه خلقه نَفَوْا عنه كل صفة يعتقدون أنها تنزل بالمقام الإلهي فتشبهه بالبشر، ولهم في هذا كلام متماسك منطقيا إن كان في حال البشر ولكنه متهافت منهار ومناقض للقرآن تمامًا لأنهم يستخدمون العقل البشري واللغة البشرية والخبرة البشرية في بحث ذات الله، وما يهمنا الآن في هذا السياق هو أنهم قالوا بأن «القرآن مخلوق» بمعنى أنه خُلِق في لحظة ما، وأنه يستحيل أن يكون قديما أزليا لأن القول بأنه قديم وأزلي يعني أن الله لم يكن واحدا في وقت من الأوقات، ويعني بالتالي «تعدد القدماء» ويعني بالتالي أن الله لم يكن واحدا؛ ولهذا فإن القائل بأن القرآن قديم أزلي ينتقص من الله ولا يُقِرُّ بتوحيده، فهو بالتالي مشكوك في إيمانه وينبغي أن يُقَاوَم لأنه يمهد بفكره للإشراك بالله! وكذا بالنسبة إلى الكلام عن كلام الله المخصوص كالقرآن، وأنه يستحيل أن يصدر عن الله ولا يكون مخلوقا، لأنهم لم يتصوروا أن شيئًا يوجد بعد أن لم يكن ولا يكون مخلوقا، وهذا بالقياس لأفعال المخلوقين التي تكون بالضرورة مخلوقة!

هذا الكلام اصطدم مباشرة بكثير من الآيات والنصوص الصريحة التي تقول بوضوح أن القرآن كلام الله، منها قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ**﴾ [التوبة: ٦]، ﴿**لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**﴾ [الأنعام: ١١٥] والكلام بأن القرآن مخلوق يعني أن الله لم يكن متكلمًا ثم تكلم؛ فطرأ عليه التغير والتطور (وهذا كفر صريح)، ثم إن محاولة المعتزلة نفي الصفات عن الله -منعًا لتعدد القدماء- تصطدم بكل القرآن تقريبًا الذي يصرح بأن الله سميع بصير عليم قدير... إلخ، والفهم الطبيعي الذي فهمه المسلمون ببساطة عبر كل تاريخهم أن هذه وجود صفات الله لا ينتقص من كونه واحدًا، ولا يقتضي القول بتعدد القدماء، ثم إن كل هذا اللغط الفلسفي لم يُثَر في خير القرون، ولم يتكلم به أحد من الصحابة أو التابعين، وهو مجموعة استنتاجات عقلية محضة، ثم هو في جوهره يقيس الخالق على المخلوق، بل هو في الحقيقة يُخْضِع الخالق لأحد مخلوقاته وهو الزمن، إذ يخوض التفكير في مسائل «القدم والأزلية والاستحداث والخلق» وهي أمور يسهل بحثها في إطار المخلوقات الخاضعة للزمن لكنه يستحيل إذا كان البحث متعلقا بالإله الذي خلق الزمن!

لكلِّ هذا وغيره من المسائل المبنية على هذا القول أو السابقة عليه رأى المسلمون أن في هذا ضرب للدين كله، باستحداث ما لم يتكلم فيه النبي ﷺ ولا صحابته وهم خير القرون، وبضرب القرآن بعضه ببعض وتأويل آياته الصريحة لتؤدي لمعانٍ خطيرة تنفي عن الله صفاته بدعوى تنزيهه عن مخلوقاته، وتنسف الرؤية الإسلامية الفطرية الواضحة لتدخل به في متاهات الفلسفة والمنطق ثم تخرج بعقيدة أخرى عن الإله لا تتفق مع كل النصوص القرآنية والنبوية الصريحة، فوقف العلماء يجادلون ويقاومون هذا الفكر، واجتمع عليه أئمتهم جميعًا وكان لكلٍّ منهم جهاده فيه في مجالس العلم وعلى المنابر وفي الكتب وغير ذلك، فظلَّ فكر المعتزلة منعزلًا فلسفيًّا محصورًا بين المتخصِّصين، فلم يلتفت الناس إليهم ولم تَثُر مشكلات كبيرة لا سيما وأن الخلفاء إن لم يكونوا محايدين وبعيدين عن هذه المعركة العلمية؛ فهم قد كانوا على مذهب المسلمين وأئمتهم.. حتى استقرَّ عهد المأمون فبدأت الخلافة تدخل على الخط، وكانت المحنة!

بدأ المأمون في إعلان هذا (ربيع الأول ٢١١هـ) «فأنكر الناس ذلك، واضطربوا، ولم ينل مقصوده»[(١)] فهدأ بضع سنين ثم عزم على فرضه فكانت البداية هكذا:

ذات يوم من (ربيع الآخر ٢١٨هـ) أرسل المأمون -وكان في الرقة حينئذ- إلى نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم رسالة مفادها هذه النقاط[(٢)]:

١- أن الخلفاء قد حملهم الله أمانة هداية الناس وحماية دينهم وحراسة الأُمَّة من أفكار الضالين.

٢- وقد تبين للخليفة بعد المطالعة والتأمل والتفكير في الأدلة أن القرآن مخلوق كسائر المخلوقات الأخرى وأن القول بأنه «كلام الله غير مخلوق» مناقض للإسلام ويشبه اعتقاد النصارى في المسيح وهو ما أوقعهم في الشرك.

٣- ذكر بعض الأدلة على إثبات أن «القرآن مخلوق».

٤- هاجم من لا يقولون بهذا ووصفهم بالضلال وفساد العقيدة، وقرَّر أنه لا يرى «لِمَنْ قال بهذه المقالة حظًّا في الدين ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يَحِلَّ

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٨١.
(٢) انظر النص في الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٨، ١٨٩.

أحدًا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ولا تولية لشيء من أمر الرعية»؛ حتى وإن كان منهم الصالحون الحكماء؛ لأن اعتقادهم هذا دليل على جهلهم «ومَنْ كان جاهلًا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جهلًا، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلًا».

٥- ثم أمر المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم أن يختبر قاضي بغداد[١] جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق فإن أقرَّا بهذا بقيا في مناصبهما، وإلاَّ عُزِلا عنها لأن «أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق»، ثم بدآ في اختبار من يأتي إليهما من الناس فمن لم يقل بأن القرآن مخلوق أبطلت شهادته ولم يؤخذ بها ولم يحكم بمقتضاها.

٦- وصية بالتشديد على متابعة هذا الموضوع بشدة وإصرار والإشراف عليه «إشرافًا يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ويمنع المرتاب من إغفال دينه» ثم رفع التقارير بما يحدث «واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله».

وبدأت حملة السلطة على العلماء والفقهاء والناس بكل شراسة، فمن لم يقل صراحة بأن القرآن مخلوق عزل من وظيفته، ومنع عنه راتبه من بيت المال، وإن كان مُفْتِيًا مُنع من الإفتاء، وإن كان صاحب درس مُنِع من التدريس، وإن كان مُحَدِّثا مُنِع من رواية الحديث، ونزلت الدولة بكل ثقلها تريد فرض هذا الأمر على الناس قسرا، وسعى نائب بغداد في جمع الفقهاء والعلماء ووجوه الشيوخ وامتحانهم في هذا القول بخلق القرآن، فمنهم من استجاب، ومنهم من استجاب كارهًا ومضطرًّا، ومنهم من تحايل على الاستجابة بحِيَل لفظية يخرج بها من الضرر ولا يقع فيها في الحرام، ومنهم من رفض وامتنع عن الاستجابة، وكان على رأس هذا القسم الأخير الإمام أحمد بن حنبل[٢].

وفيما عدا هذا القسم الأخير كانت السلطة تذيع وتنشر أسماء الذين استجابوا بين الناس؛ لكي تتوصل بذلك إلى انتشار هذا الاعتقاد بين الناس؛ ليطمئنوا إليه بعد أن أقرَّه كبار

(١) كان لبغداد قاضيان: أحدهما على القسم الشرقي والآخر على القسم الغربي.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٨٩، ١٩٠.

العلماء والفقهاء والشيوخ، فما كان يدري أحد من الذي استجاب مؤمنًا، ومن الذي استجاب مكرهًا، ومن الذي فُهِم منه الاستجابة وهو صاحب حيلة خرج بها من الضرر(١).

ثم تطور الأمر حين أرسل المأمون رسالة مفادها أن من بقي من العلماء وليس يقول بخلق القرآن فليُعرض لامتحان أخير فإن استجاب نشر هذا بين الناس وإلا أرسل به إلى المأمون -وكان حينئذٍ في طرسوس- ليُقتل، فجمع نائب بغداد من لم يقل بخلق القرآن وامتحنهم للمرة الأخيرة فإما القول بأن القرآن مخلوق وإما أن يُقتل، فلم يثبت على القول إلا أربعة هم: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، والحسن بن حماد سجادة، وعبيد الله بن عمر القواريري. فقيدهم إسحاق استعدادًا لإرسالهم، ثم أعاد التحقيق معهم في اليوم الثاني فتراجع الحسن بن حماد سجادة، ثم أعاده في اليوم الثالث فتراجع القواريري، فلم يبقَ ثابتًا على موقفه إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، فأرسل بهما مقيدين على جملين إلى طرسوس(٢).

وتوقع المأمون أن يكون الذين تراجعوا قد أخذوا بالرخصة الشرعية في حكم المضطر من قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾ [النحل: ١٠٦] فأرسل رسالة أخرى إلى بغداد أن يُبعث إليه بكل الذين امتنعوا في هذه الجولة الأخيرة، فقيدهم إسحاق وأرسلهم إلى طرسوس.

واستجاب الله لدعوة الإمام أحمد بن حنبل إذ دعا أن «لا يجمع الله بينهما وبين المأمون، وأن لا يرياه ولا يراهما»، فتُوُفِّيَ المأمون قبل أن يصل إليه أحد منهم، فأعيدوا جميعًا إلى بغداد.

وغالب الظن أن أحدًا لم يصطل بنار هذه الفتنة غير علماء العراق، فعند الزبير بن بكار رواية عن سجال في هذا الأمر بين المأمون وبين أبي مسهر الدمشقي، وكان المأمون في دمشق، وعلى الرغم من تمسك أبي مسهر بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ فإن المأمون لم يؤذه بل أخرجه قائلًا: «اخرج قبحك الله وقبح من قلدك دينه واتخذك قدوة»(٣).

وفاة المأمون

تولى المأمون الخلافة في (٢٥ من المحرم ١٩٨هـ) بعد مقتل أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة،

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٩٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٩١ وما بعدها.
(٣) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٤٣، ٤٤.

واستمرَّ في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر، ودفن بطرسوس في دار خاقان الخادم(١).

وقد كان أوصى إلى أخيه المعتصم وكتب وصيته بحضرته وبحضرة ابنه العباس وجماعة القضاة والأمراء والوزراء والكتاب. وفيها القول بخلق القرآن ولم يتب من ذلك بل مات عليه وانقطع عمله وهو على ذلك لم يرجع عنه ولم يتب منه، وأوصى أن يكبر عليه الذي يصلي عليه خمسا، وأوصى المعتصم بتقوى الله ﷻ والرفق بالرعية، وأوصاه أن يعتقد ما كان يعتقده أخوه المأمون في القرآن وأن يدعو الناس إلى ذلك، وأوصاه بعبد الله بن طاهر وأحمد بن إبراهيم وأحمد بن أبي دؤاد، وقال: شاوره في أمورك ولا تفارقه، وإياك ويحيى بن أكثم أن تصحبه، ثم نهاه عنه وذمه وقال: خانني ونفر الناس عني ففارقته غير راضٍ عنه. ثم أوصاه بالعلويين خيرًا، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأن يواصلهم بصلاتهم في كل سنة(٢).

وقفة مع المأمون

أثارت شخصية المأمون إعجاب المؤرِّخين في القديم والحديث، مؤرِّخي المسلمين وغير المسلمين، وقد اجتمع للمأمون صفات يود كل قوم أن كان مثلها لأميرهم، فهو عالم متبحر في علوم كثيرة، حريص على النهضة العلمية والحضارية والبحث عن حكمة الأمم الأخرى وعلومهم شرقًا وغربًا، ميال إلى العفو والصفح كثير الحلم في غير ضعف أو لين فهو يجمع بين الحزم والرفق، قوي الشخصية يجاهد بنفسه في غير تهاون، يراعي إقامة العدل بين الناس وينظر في المظالم بنفسه.. ولولا زلته الخطيرة في آخر عمره واستعماله السلطة في فرض الآراء والقول بخلق القرآن ومعاقبة من لم يكن على رأيه لكانت نظرة المسلمين إليه عبر الزمان سترفعه إلى مقام بعيد لتجعله فوق الرشيد والمنصور وفوق كل خلفاء بني العباس!!

١- الحلم والعفو

ربما كان المأمون أشهر خلفاء بني العباس في جانب الحلم والعفو، لقد كان يبذل العفو ويصبر على سوء الصنيع كما لم يصنع خليفة قبله وما لم يتيسر لخليفة بعده، والروايات في ذلك كثيرة ولكن سنأخذ منها أبرزها وأدلها على ترسخ هذه الصفة فيه.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٩٧.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٩٤ وما بعدها.

حين اشتدت ثورة نصر بن شبث في الشام التمس المأمون رجلًا عاقلًا يكون رسوله إليه، فأُشير عليه بجعفر بن محمد من بني عامر، فذهب جعفر إلى نصر فاشترط الأخير أن يتوقف عن ثورته بشرط ألا يَقدم على المأمون، على أن المأمون رفض هذا الشرط تمامًا فبه تتأكد نية الرجوع والخضوع للدولة، فقال لجعفر: «ما باله ينفر مني؟! قال (جعفر) قلت: لجرمه وما تقدم منه. فقال: أتراه أعظم جرمًا عندي من الفضل بن الربيع ومن عيسى بن أبي خالد؛ أتدري ما صنع بي الفضل؟! أخذ قوادي وجنودي وسلاحي وجميع ما أوصى به لي أبي، فذهب به إلى محمد وتركني بمرو وحيدًا فريدًا وأسلمني، وأفسد عليَّ أخي، حتى كان من أمره ما كان، وكان أشد عليَّ من كل شيء، أتدري ما صنع بي عيسى بن أبي خالد؟! طرد خليفتي من مدينتي ومدينة آبائي، وذهب بخراجي وفيئي، وأخرب عليَّ دياري، وأقعد إبراهيم خليفة دوني، ودعاه باسمي. قال: قلت: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في الكلام فأتكلم؟ قال: تكلم. قلت: الفضل بن الربيع رضيعكم ومولاكم، وحال سلفه حالكم، وحال سلفكم حاله، ترجع عليه بضروب كلها تردك إليه، وأما عيسى بن أبي خالد فرجل من أهل دولتك، وسابقته وسابقة مَنْ مضى من سلفه سابقتهم، ترجع عليه بذلك، وهذا رجل لم تكن له يد قطُّ فيحمل عليها، ولا لمن مضى من سلفه؛ إنما كانوا من جند بني أمية. قال: إن كان ذلك كما تقول فكيف بالحنق والغيظ، ولكني لست أقلع عنه حتى يطأ بساطي»[1].

وكان يقول: ليت أهل الجرائم يعرفون أن مذهبي العفو حتى يذهب الخوف عنهم ويدخل السرور إلى قلوبهم.

وسُئل يحيى بن أكثم عن المأمون: أكان حليمًا؟ فقال: «لا والله ما حُدِّثْتُ عن أحلم منه، لا ملك ولا سوقة، ولا رأيت أكرم منه قطُّ»[2].

وكان العقو أقرب إليه حتى وهو في لحظات الحزن والغضب، روي أن طاهر بن الحسين دخل عليه ذات يوم، فلما رآه بكى لما تذكره من قتل الأمين على يديه، وكان طاهر حينئذٍ يتوسط لدى المأمون في العفو عن واحد من أهل بيته، فعفا عنه المأمون وقال: «قد رضيت

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٦٥.
(٢) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص١٢٢.

عنه، وأمرت بصلته، ورددت عليه مرتبته، ولولا أنه ليس من أهل الأنس لأحضرته»[1]. ولا أدل على عفو المأمون من عفوه عن شخصية مثل الفضل بن الربيع الذي كان رأسًا في الفتنة بينه وبين الأمين[2].

وبالجملة فأخبار المأمون في العفو والصفح غزيرة وكثيرة، وقد عدَّد اليعقوبي سبعة عشر رجلًا لو ظفر بهم المنصور مثلًا لكان مصيرهم القتل؛ ولكن المأمون عفا عنهم[3].

٢- الإنفاق والإسراف

جاء إبراهيم بن بريهة إلى غسان بن عباد يشكو إليه غلبة الدين، وضيق الحال، ويسأله أن يرفع له رقعة إلى المأمون في إدرار أرزاقه وقضاء دينه. فقال: وكم دينك؟ قال: ثلاثون ومائة ألف درهم. قال: هات رقعتك. فأخرجها من خفه وذهب ليقوم. فقال: مكانك، ثم دعا بالغداء، ودعا بوكيله، فقال: ادن مني، فساره، وقال: احمل الساعة إلى منزل بريهة مائة وثلاثين ألف درهم، فحملت قبل أن يتغدى فلما انصرف وجدها في منزله، وركب غسان من الغد، فكلم أمير المؤمنين في دينه وعرض رقعته، فقال له المأمون: قد بلغني ما فعلت أمس، فوصلك الله بصلتك، فأنت والله ممن إذا تكلم نفع كلامه، وإذا سكت حسن سكوته، ثم قال: نعم وكرامة، قد أمرنا بقضاء دينه والزيادة في أرزاقه، وأدررناها عليه. فدعا له غسان وانصرف، فلما ولى أتبعه بصره.

فقال: لا تزال الخلافة ذات بهجة ما حضر مجلسنا مثل هذا، ما اغتاب عندي أحدًا قطُّ، ولا اعترض في كلامه، ولا سأل حاجة لنفسه، ولا جربنا عليه كذبًا ولا خيانة، ولا سبقه لسانه بلفظة اعتذر منها. ثم كان أول توقيع بعد هذا خرج ثلاثة آلاف درهم لغسان بن عباد النازل ما لا يعنيه[4].

ورفعت رقعة إلى المأمون: أشكو غلبة الدين. فوقع بخطه فيها: «فيك خلتان: السخاء والحياء، فأما السخاء، فهو الذي أطلق يديك بما ملكت، وأما الحياء فهو الذي حملك على ذكر بعض دينك، وقد أمرنا لك بضعف ما ذكرت، فإن كنا قصرنا عن بلوغ حاجتك فجنايتك

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٣.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٨١.
(٣) اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم ص٤١، ٤٢.
(٤) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٨١، ٨٢.

على نفسك، وإن كنا بلغنا بغيتك، فزد في بسط يدك، فإن خزائن الله مفتوحة، ويده بالخير مبسوطة»[١].

على أن المأمون وإن لم يكن لديه مال فهو يساعد طالبه على الحصول عليه ولو من بعض حاشيته من رجال الدولة[٢].

وكان المأمون مسرفًا كثير الإنفاق إلى حد التبذير؛ حتى لقد بلغت نفقته في اليوم ستة آلاف دينار[٣]، وقد كان زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل (٢١٠هـ) أسطوريا أُنفق فيه من الأموال ما جعله مثالًا في السرف والتبذير عبر التاريخ.

وعلى الرغم مما كان من ضائقة يمرُّ بها المأمون؛ فإنه لما جاءه خراج بلغ ثلاثين مليون درهم، فرقه من يومه على رجال الدولة، واستبقى منه ستة ملايين درهم فقط لعطاء الأجناد[٤].

وكان من ولائم المأمون من عليها ثلاثمائة نوع من الطعام[٥].

***

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص١٢٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٣.
(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٢٤.
(٤) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٤٢، ٤٣، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٩٨.
(٥) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٤٥، ٤٦.

المعتصـــم

ولد المعتصم في بغداد (١٠ من شعبان ١٧٩هـ)، كان أبيض مشربًا بالحمرة، جميل العينين، ذا لحية صهباء طويلة، وكان عريض الصدر ذا قوة جسدية خارقة وشجاعة بالغة، كان يحمل الأثقال التي لا يستطيع الأشداء حملها ويسير بها خطوات، و«لا يقاس به الرجال قوة بدن، وشدة بأس، وشجاعة قلب، وكرم أخلاق»[(١)] وكان كأنما لا يشعر بالألم، إذ يقول وزيره أحمد بن أبي دؤاد: كان المعتصم يخرج ساعده إليَّ ويقول: يا أبا عبد الله عض ساعدي بأكثر قوتك، فأقول: والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك. فيقول: إنه لا يضرني، فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلًا عن الأسنان.

ومما يروى في ذلك أنه مر في معسكر للجنود في خلافة أخيه المأمون فوجد امرأة تستغيث وتصيح وتترحم على ولدها، فسألها عن ذلك فقالت: بأن صاحب هذه الخيمة قد أخذ ولدها، لا ندري هل ذلك ظلمًا أو لجناية أو عقابًا، فدخل المعتصم على القائد صاحب الخيمة وأمره أن يفرج عن ولد هذه المرأة فرفض، فأمسك به المعتصم، فما تركه إلا حين سُمِعت قعقعات عظامه بين يديه فتركه فسقط ميتا!!

وعلى الرغم من هذا فإن الأصل في المعتصم أنه كان شفوقًا رقيقًا، إلا حين الغضب فإنه إذ ذاك لا يبالي من قتل[(٢)].

وكان من عيوب المعتصم أنه لم يتعلم، وكان أقرب إلى الأمية، وقد كان منذ نشأته يكره التعلم والقراءة وينفر من الكتاب، وقد ساعده على ذلك تدليل الرشيد له لصغره بين إخوته، فقد مات صديقه في الكتاب ذات يوم فكلمه أبوه الرشيد: يا محمد مات غلامك. فقال: نعم يا سيدي واستراح من الكُتاب. ففوجئ الرشيد وقال: وإن الكُتَّاب ليبلغ منك هذا المبلغ أن تجعل الموت راحة منه؟! دعوه حيث انتهى لا تعلموه شيئًا.

***

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣٠٧.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧٢.

بويع للمعتصم بالخلافة يوم مات أخوه (١٨ من رجب ٢١٨هـ) في طرسوس، وكان عمره تسعة وثلاثين عامًا، فعاد بالجيش إلى بغداد بطبيعة الحال خشية أن يصل الخبر إلى بغداد فيغري صاحب طموح متمرد، وقد حاول بعض الأمراء ذوي الأصول الفارسية أن يدفعوا العباس بن المأمون إلى أخذ الخلافة فأعلن رفضه لهذا وأعلن بيعته لعمه المعتصم[١]، ورُوِي أنه بدا من حمقه وخفته ما دعا الذين فكروا في بيعته إلى الانصراف عنه[٢]، كما روي أنه تردد في البيعة لعمه[٣]، وعلى أي حال فقد انْتُزِع بذلك فتيل فتنة في وقت خطر، لكنها ستبزغ بعد قليل مرة أخرى، وقد انطلقت رسائل المعتصم إلى البلاد بالتعزية في المأمون وطلب البيعة، واستقرَّ أمر الخلافة له، ودخل بغداد في أبهة عظيمة (أول رمضان ٢١٨هـ)[٤].

كان أول ما فعله المعتصم هو إجراء تقدير عام للوضع الذي استلم الخلافة فيه، فقرر إنهاء العمل في تحصين مدينة طوانة، ونقل ما كان حُوِّل إليها من السلاح وغيره إلى باقي الحصون والثغور[٥].

قضية الجنود الأتراك

لقد كان الوضع أمام المعتصم كالآتي:

ثورة بابك في أذربيجان تستفحل ولا يكاد ينفع معها قائدٌ فارسٌ ولا جيشٌ باسلٌ، وقد زادت خطورتها بالتحالف الذي تم بين بابك وبين الروم، فصار هؤلاء يقتنصون فرصة انشغال أولئك بحرب المسلمين معهم فيهجموا من ناحيتهم، كذلك ثورة الزط في البصرة وما حولها لا تزال قائمة ولئن استمرت فإن بغداد ستدخل في حالة ركود تجاري وأزمة اقتصادية مؤثِّرة.. هذا على مستوى الاضطرابات.

وأما على مستوى رجال الدولة فقد «وجد المعتصم نفسه في وضع حرج، فقد خيَّب المأمون أمل الخراسانيين من جديد بنكبته لبني سهل وبتركه لمرو ورجوعه إلى بغداد، وكان العرب في وضع متضعضع بعد مقتل الأمين، وزاد الطين بلة التفاف قسم كبير من

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٥.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٧.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٣٤ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٦.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٦.

الخراسانيين وجندهم حول العباس بن المأمون ضد المعتصم، فنكَّل بزعمائهم وأساء الظن بهم، وكانت الدولة مهددة بثورة بابك المستفحلة، وبخطر البيزنطيين على الحدود، وبتذمر أهل الشام ومصر، فكان المعتصم بحاجة إلى عنصر عسكري جديد يسند سلطانه، فالتجأ إلى عنصر بدأ يتوارد كرقيق إلى البلاد الإسلامية قبله، كما أخذ الإسلام ينتشر في بلاده بصورة بطيئة، وذلك هو عنصر الترك... وكانت خطوة المعتصم هذه بعيدة المدى بنتائجها، فالترك آنئذ شعب بدوي ميزته الوحيدة الشجاعة العسكرية، فهو لا يفهم الأسس المعنوية للدولة العباسية، ولا خبرة له بالإدارة، ومجرَّد من كل ثقافة»[١].

على أنه ينبغي أن ننتبه إلى أن بداية الأتراك لم تكن من المعتصم، وإنما بدأت منذ المأمون، إلَّا أنَّ المعتصم استكثر منهم فزاد في شرائهم من بلادهم بل واشترى ما كان منهم مملوكا في بغداد من أصحابهم[٢] وجعل اعتماده عليهم حتى بلغ عددهم لديه أربعة آلاف ثم ما زالوا يزيدون حتى بلغوا نحوا من عشرين ألفًا[٣]، فشكلوا فرقة متميزة عن الجند وكانت أزياؤهم أرفع أنواع الديباج وعليها الأحزمة والزخارف المُذَهَبَّة[٤].

ثم إن المعتصم بطبيعته الأقرب إلى العسكرية من المدنية ركز كل اهتمامه على تقوية الجانب العسكري فقيل في شأنه «ملك من آلات الحرب والدواب ما لم يتفق لغيره»[٥]، وهو وإن استكثر من الأتراك واعتمد عليهم إلا أنه لم يهمل الآخرين تمامًا، بل كوَّن قسما آخر من الجيش سماه «المغاربة» وكان فيه جنود من حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس وغيرهم[٦].

وهكذا، فلئن كان المأمون قد خاف من مساهمة الجند والأمراء في الانقلاب على أصحاب الخلافة كالأمين وإبراهيم بن المهدي فقد رأى المعتصم كيف كان هذا وشيكا عليه هو ذاته!

وإذن فقد كانت المزية الكبرى للأتراك متمثلة في قوتهم العسكرية مع خُلُوِّهم من الأفكار المتمردة كالشعوبية والعلوية والخارجية، فيما كانت المشكلة الكبرى أنهم قوم بلا

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص١٢، ١٣.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص٥٥، والمسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٤٠ (ط٢، الدار العالمية للكتاب).
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٤٠ (ط٢، الدار العالمية للكتاب).
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥.
(٦) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٤٠ (ط٢، الدار العالمية للكتاب).



حضارة، يغلب عليهم طابع الجفاء والغلظة، غير مستوعبين للمعاني المدنية الحضارية والأصول التي قامت عليها الخلافة العباسية.

وقد زرع الأتراك على هذين السبيلين أعمالًا مؤثِّرة، فلقد انتفعت الدولة والخلافة بقوتهم العسكرية أيما انتفاع ولكنها انتكست بعسكريتهم وبداوتهم وجهلهم بالحضارة والمدنية أسوأ انتكاس!

فعلى المستوى العسكري:

أنقذوا الدولة العباسية عسكريًّا، وحافظوا على بقائها، وحاربوا الثورات التي اشتعلت في الشرق والغرب والشمال والجنوب وأخمدوها، وبهم ظلت الخلافة العباسية كيانا يحتفظ بالقوة والصلابة والوجود.. وسيأتي هذا مفصلا في سياق استعراضنا لتاريخ الدولة العباسية، ولربما لو أن المعتصم لم يهتد لاستخدام الجند الأتراك لكانت الخلافة العباسية نسخة أخرى من الخلافة الأموية التي ما أكملت المائة عام حتى انهارت بعد أن أنهكتها الثورات وحركات التمرد.. لقد أعطى الأتراك دولة العباسيين مائة عام على الأقل من الحياة!

ولم تكن قوة الأتراك العسكرية كقوة الفارسيين بل كان التركي أقوى وأصبر على القتال بطبيعته البدوية حتى إنه إذا «سار التركي في غير عساكر الترك، فسار القوم عشرة أميال سار عشرين ميلًا؛ لأنه ينقطع عن العسكر يمنةً ويسرة، ويسرع في ذرى الجبال، ويستبطن قعور الأودية في طلب الصيد؛ وهو في ذلك يرمي كل ما دب ودرج، وطار ووقع، (فإذا ضعف الناس عن المسير واستكانوا للراحة) ترى التركي في تلك الحال وقد سار ضعف ما ساروا وقد أتعب منكبيه كثرة النزع، يرى قرب المنزل عيرًا أو ظبيًا، أو عرض له ثعلب أو أرنب، فيركض ركض مبتدئ مستأنف، كأن الذي سار ذلك السير وتعب ذلك التعب غيره»، كما أن التركي -أيضًا- قليل التكلفة يقوم بشئونه، فهو «الراعي، وهو السائس وهو الراكض، وهو النخاس، وهو البيطار، وهو الفارس، والتركي الواحد أُمَّةٌ على حدة»[١]، وهو يصنع سيفه بنفسه منذ إذابة الحديد وتشكيله وتحديده وصناعة مقبضه وغمده، وكذلك باقي السلاح دون أن يستعين بصانع[٢].

---

(١) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٤٨ وما بعدها.

(٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٧٢.

وبالجملة: فالأتراك «في الحرب كاليونانيين في الحكمة، وأهل الصين في الصناعات، والأعراب فيما عددنا ونزلنا، وكآل ساسان في الملك والرياسة»[1]. وقد أكثر الجاحظ في نقل أقوال القادة وخبراء الحروب في قوة الترك وشجاعتهم ومواهبهم في القتال في رسالته «مناقب الترك».

وعلى مستوى البداوة والجهل بالمدنية والحضارة:

بدا واضحًا منذ اللحظة الأولى أن القوم عسكريون وبدو أقحاح، فنشبت بينهم وبين أهل بغداد الاشتباكات والمعارك فلا هؤلاء استوعبوا أنهم في عاصمة الدنيا ثقافة وحضارة ولا هؤلاء تحملوا بينهم قوما بأخلاق العسكر والصحراء.

وأدرك المعتصم نفسه الفارق بين الأتراك وبين الفارسيين، وبدا متحسرا وهو يسأل إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الطاهري -والي بغداد- في لحظة صفاء ومودة: «يا أبا الحسين، في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه إليك. فقلت: قل يا سيدي يا أمير المؤمنين فإنما انا عبدك وابن عبدك: قال: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم، قلت: ومن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله وأنت فأنت والله لا يتعارض السلطان منك أبدًا وأخوك محمد بن إبراهيم، وأين مثل محمد، وأنا اصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار أمره وأشناس ففشل آيه وإيتاخ فلا شيء ووصيف فلا مغنى فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك أجيب على أمان من غضبك؟ قال: قل، قلت: يا أمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب إذ لا أصول لها. قال: يا إسحاق لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل علي من هذا الجواب»[2].

ومن الفوارق المهمَّة بين الفرس والأتراك أن علاقة العباسيين بالفارسيين كانت ثمرة دعاية طويلة كان الترك بعيدين عن تأثيرها، فلم يكن يربطهم بالخلفاء ولاء روحي أو تفاهم عقلي[3].

---

(١) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٧١.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧٢.

(٣) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١٧٨.

وبعد وفاة المعتصم استولى القادة الأتراك شيئًا فشيئًا على مقدرات الدولة، وعظم نفوذهم، ودخلت بهم الدولة الإسلامية لأول مرة في مرحلة «الحكم العسكري»[1] بكل ما فيه من سلبيات وكوارث بالغة الضرر على الأُمَّة والخلافة والدولة، لقد طاولوا الخلفاء، بل جاوزوهم واستولوا عليهم، وصاروا يولون ويعزلون بل ويعاقبون ويقتلون، مما أذهب هيبة الخليفة كشخص وهيبة الخلافة كمنصب، فيما ظل كيان الخلافة قائما، وبدأت بسببهم ظاهرة جديدة في التاريخ الإسلامي، ظاهرة من يملك ولا يحكم، وهي ظاهرة يمثلها قول الخليفة المغلوب على أمره[2] في لحظة طلب فيها مالا ولم يُعطه:

أليس من العجائب أن مثلي ... يـــــرى ما قلَّ ممتنعا عليه
وتُملك باسمه الدنيـــا جميعًا ... وما من ذاك شيء في يديه

وقد تحمل المعتصم على هذا المستوى نقدًا كثيرًا من المؤرِّخين، غير أن أحدًا -فيما أعلم- لم يقدم بديلا كان على المعتصم اتخاذه في هذه الظروف العصيبة التي استلم فيها أمر الخلافة! وما من الإنصاف أن يتحمل المعتصم مسئولية ضعف الخلفاء من بعده وتسلط الأتراك عليهم، فكم من مريد للخير لا يدركه، والحمد لله الذي لم يعاملنا بنتائج أعمالنا بل جعل للمجتهد المخطئ أجرًا!

ولم يكن اعتماد الخلافة العباسية على الأتراك من الأمور التي مرت بسهولة آنذاك، بل نلمح في رسالة الفتح بن خاقان -وزير الخليفة المتوكل فيما بعد- إلى الجاحظ رفضا للقول بأن الأتراك عرق غير الخراسانيين ومحاولة كلها إلحاح وإصرار -وربما قلنا استعانت بالتلفيق والتدليس- للتقريب بينهما على هذا النحو «الخراساني والتركي أَخَوَان، وأن الحيِّز واحد، وأن حكم ذلك الشرق، والقضية على ذلك الصُّقع متفق غير مختلف، ومتقارب غير متفاوت. وأن الأعراق في الأصل إن لم تكن راسخة فقد كانت متشابهة، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لم تكن متساوية فإنها متناسبة، وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض الخصائص، فافترقوا ببعض الوجوه.

---

(١) من أسوأ ما تبتلى به أمة أن تكون الطبقات العسكرية هي الحاكمة، فهذا أول علامات انهيار الحضارة وانحسارها، وقلما انتهى الحكم العسكري لبلد إلا بغزو خارجي يمثل النهاية الطبيعية والثمن الفادح للاستبداد العسكري.

(٢) قيل هو المقتدر العباسي – وهذا بعيد كما سنرى عن عهد المقتدر فيما بعد- وقيل هو هشام المؤيد بالله الأموي في الأندلس وهو أقرب وقيل غيرهما.

وزَعَمْتَ[1] أن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلي والزغبي والحبشي، فضلًا عما هو أبعد جوهرًا وأشد خلافًا. بل كاختلاف ما بين المكي والمدني، والبدوي والحضري، والسهلي والجبلي، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي، وكما يقال: أن هذيلًا أكراد العرب، وكاختلاف ما بين من نزل الحزون، وبين من نزل البطون، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار.

وزعمتَ أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغة، وفارق بعضهم بعضًا في بعض الصور، فقد تخالفت عُليا تميمٍ، وسفلى قيس، وعجز هوازن وفصحاء الحجاز، في اللغة، وهي أكثرها على خلاف لغة حِمير، وسكان مخاليف اليمن، وكذلك في الصورة والشمائل والأخلاق. وكلهم مع ذلك عربي خالص...»[2].

لكن الزمان أكمل مسيرته، فقد كان زمان الخراسانيين في إدبار وزمان الأتراك في إقبال، وما هي إلا أعوام حتى صار الأتراك رجال الدولة، بل ودخلت الخلافة العباسية ذاتها «عصر سيطرة الأتراك»!!

القضاء على تمرد بابك الخرمي

كان أول عمل سُجِّل للجند الأتراك هو قضاؤهم على تمرد بابك الخرمي الذي استمرَّ عشرين سنة ذهب فيها نحو ربع مليون مسلم، وهو رقم ضخم هائل في ذلك الوقت، وكان أمر بابك قد اتَّسع واستفحل ودخلت همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان في تبعيته (٢١٨هـ)[3] ويبدو أن زعماء هذه البلاد قد حسموا موقفهم بموت المأمون ورأوا أن الدخول في طاعة بابك إن لم يكن خيرا فإنه سيجنبهم شره.

---

(١) الكلام هنا على لسان الجاحظ في رسالته للرد على الفتح بن خاقان.

(٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٩ وما بعدها.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٦.



وقد ظلت حرب بابك هي الشغل الشاغل للمعتصم والعمل الذي أمضى فيه سنوات خلافته الأولى، وقد أنفق على تجهيز الجيوش معه كل ما استطاع من الأموال، واهتم بتتبع أخبار الحرب حتى أنشأ مراكز البريد على طول الطريق فكانت الأخبار تأتيه يوميًّا.

أرسل المعتصم جيشًا بقيادة إسحاق بن إبراهيم (٢١٨هـ) وولاَّه على منطقة الجبال، وحقق الجيش انتصارا على بابك وصلت أخباره (٨ من ذي الحجة ٢١٨هـ)، وقد قتل فيه كثيرًا من أتباع بابك حتى اضطرَّ الباقون إلى الانسحاب إلى بلاد الروم، لكنه لم يكن انتصارًا مؤثرًا أو كبيرًا على مستوى إنهاء التمرد، وعاد إسحاق إلى بغداد فوصلها (١١ جمادى الأولى ٢١٩هـ) ومعه الأسرى[١].

ثم أرسل المعتصم جيشًا آخر (٢٢٠هـ) بقيادة أبي سعيد محمد بن يوسف فأحرز نصرًا آخر، وكان كسابقه غير مؤثِّر في إنهاء التمرد لكنه يرفع المعنويات ويهيئ النفوس في الجانبين لبدء تغير الأحوال، ثم أنعم الله على المسلمين فسخر لهم رجلًا يسمى محمد بن البعيث، وكان حاكمًا لقلعتين في أرض أذربيجان، وقامت بينه وبين بابك علاقة وثيقة حتى كان سرايا بابك تنزل بقلعة ابن

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٦، ٢٠٧.

البعيث فيضيفهم ويكرمهم، فحوَّل الله قلبه، فقام بعملية اغتيال كبيرة لسرية من سرايا بابك حين نزلوا بقلعته، وأسر قائدهم -واسمه عصمة- فأرسل به إلى المعتصم، وكان هذا الرجل كنزًا معلوماتيًّا عرف منه المعتصم ما لا يقدر بثمن عن أرض بابك وجيوشه وطريقته في الحرب[١].

ثم عهد المعتصم (٢٢٠هـ) بقيادة الجيوش إلى القائد التركي حيدر بن كاوس الأشروسني، الملقب بـ «الأفشين» الذي كان قد تعرّف على مناطقهم وطريقتهم في القتال التي غالبا ما كانت ليلًا وعلى شكل غارات سريعة، ونصب كمائن في الفجاج بين المرتفعات، وقد استعد الأفشين خير ما وسعه الاستعداد، فأحكم العيون والاستطلاعات وتقوية الحصون وتأمين طرق الإمدادات، بحيث صار الطريق آمنًا ومنقسمًا إلى مراحل، ويشرف على كل مرحلة مجموعة عسكرية، وقد كان من ثمار هذه الخطَّة أن سقط عدد من جواسيس بابك، وكانت طريقة الأفشين أنه يعطي الجاسوس ضعف الثمن الذي كان يأخذه من بابك مقابل أن يكون جاسوسًا للمسلمين[٢].

وأرسل المعتصم إلى الأفشين مع القائد التركي بغا الكبير أموالًا جزيلة نفقة لمن معه من الجند والأتباع، وكاد بابك أن يهاجمها قبل أن تصل لولا أن جواسيس المسلمين في معسكر بابك أوصلت الخبر، فأنقذت الأموال بخطَّة مناورة وتمويه حتى وصلت إلى جيش المسلمين الذي يقوده الأفشين، وبفضل المعلومات التي جاءت بها العيون والنظام المحكم الموضوع لحراسة الطريق استطاع الأفشين مهاجمة بابك في جيشه وهو يحاصر قلعة من قلاع المسلمين، ودارت معركة مريرة استطاع فيها الأفشين إحراز أول نصر قوي على بابك وقتل من أتباعه أكثر من مائة ألف في بعض التقديرات، واضطرَّ بابك إلى الانسحاب إلى عاصمته «البذّ» الحصينة منهزما[٣].

واستمرت الحروب والوقائع بجيشي الخلافة اللذين يقود الأفشين أحدهما ويقود بغا الكبير الآخر، وقد جرت معركة هائلة بين بغا الكبير وبابك (٢٢١هـ) استطاع بابك فيها أن يهزم بغا الكبير ويقتل كثيرًا من جنوده، وكان الخطأ البارز أن بغا تصرف منفردا بجيشه دون خضوع للقيادة العامة للأفشين، غير أن معارك أخرى بين بابك والأفشين استطاع فيها

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٩، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١٠، ٢١١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١١، ٢١٢.

الأفشين هزيمة بابك، وقد استمرت تلك الوقائع حتى دخل العام التالي (٢٢٢هـ) حيث أمد المعتصم الأفشين بجيش آخر، ومعه ثلاثون مليون درهم، واستطاع الأفشين اقتحام معقل بابك وعاصمة تمرده «البذّ» (٢٠ من رمضان ٢٢٢هـ) بعد حصار مرير ومعارك قاسية واجتهاد وجهاد وتعب! وحرر أكثر من سبعة آلاف أسير مسلم[١].

وهرب بابك مع أهله وأولاده من البذ لكنه وقع في يد أمير بلدة اسمه سهل بن سنباط فخدعه سهل وادعى أنه من الموالين لبابك حتى أسره وأرسل به إلى الأفشين، وصنع الأفشين استقبالا شعبيا لهذا الأسير الذي دوخ الخلافة الإسلامية (شوال ٢٢٢هـ)، وكتب إلى المعتصم بما تم، فأمره أن يأتي به أسيرًا إلى بغداد[٢] فوصلها (٣ من صفر ٢٢٣هـ) واستقبلها هارون بن المعتصم (الخليفة الواثق فيما بعد) وأمر المعتصم بإركابه فيلًا؛ لكي يراه الناس في تشهير شعبي كالذي تم في أذربيجان، ثم أُحْضِر عند المعتصم فأمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وشق بطنه (١٣ من ربيع الآخر ٢٢٣هـ)، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان «يُطاف بها كل مدينة من مدنها وكورها لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره، وعظم شأنه، وكثرة جنوده، وإشرافه على إزالة ملك، وقلب ملة وتبديلها»[٣]. وصَلَب جثته وعلقها في سامراء، وأرسل بأخيه عبد الله بن شروين إلى نائب بغداد ليقتله هناك ويفعل به مثلما فعل المعتصم بأخيه[٤].

وكَرَّم المعتصم قائده الفذ البطل، فقلَّده وشاحين من الجواهر، وأمر له بعشرين مليون درهم، وولاَّه على السند، وأمر الشعراء أن يمدحوه، وهذا في ذلك الوقت يعني حملة إعلامية لتكريمه، فقيلت أشعار كثيرة حسنة، كما كافأ الجيش بعشرة ملايين درهم.. وبهذا انتهى تمرد ذهب فيه ربع مليون مسلم[٥]!

تمردات أخرى

لم يكن الوضع مشتعلا على جبهة الشمال عند بابك الخرمي فحسب، بل قام تمرد آخر في الشرق (٢١٩هـ)، في الطالقان من أرض خراسان، وهو تمرد علوي قاده محمد بن القاسم بن

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٩، ٢٠٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١٢ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٢٩ وما بعدها.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٠، والمسعودي: مروج الذهب ص٤٤٤ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٣، ٢٣٤.
(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٤.

عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو يدعو -كالعادة- إلى الرضا من آل محمد، وقد اتبعه كثير من الخراسانيين، وتصدى لهذا التمرد ولاة خراسان التابعون لعبد الله بن طاهر بن الحسين الذين استطاعوا إخماده وأسر محمد بن القاسم فأرسل به إلى بغداد فوصلها (١٥ من ربيع الآخر ٢١٩هـ) فأمر به المعتصم فحُبِس لكنه استطاع الهرب بعد خمسة أشهر وبالتحديد في ليلة عيد الفطر واختفى ذكره[١]! ولهذا يحسب بعض أتباعه أنه مُخْتفٍ في جبال طبرستان وسيظهر ليملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت جورا[٢].

وأما في الجنوب حيث تزيد ثورة الزط الذين عاثوا فسادا في البصرة وما حولها فقطعوا الطريق ونهبوا المحاصيل، فقد أرسل إليهم المعتصم القائد عجيف بن عنبسة -من قواد المأمون- في جيش كثيف، فخطط لحصارهم عبر سد الأنهار الكثيرة في هذه المنطقة فاضطرَّهم إلى الخروج إليه وقتاله، ومكث في قتالهم تسعة أشهر حتى هزمهم وأنهى تمردهم وأخمد قوتهم، وعاد إلى بغداد (١٠ من المحرم ٢٢٠هـ) في السفن ومعه سبعة وعشرون ألفًا قد جاءوا بالأمان إلى الخليفة، فأُنْزِلوا في الجانب الشرقي من بغداد، ثم نفاهم إلى عين زربى على الحدود مع الروم، فكان من سوء نهايتهم أن أغارت عليهم الروم فاجتاحوهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم أحد[٣].

وهكذا انتهت قصة بدأت فصولها من مأساة الجوع الذي نقلهم من السند إلى العراق، واستمرت فصول المأساة فيها حتى انتهت بحرب نقلتهم من العراق إلى الثغور ثم بمذبحة شنيعة حصدتهم جميعًا، وهي مذبحة تتحمل الخلافة مسئوليتها الكاملة، وهي نقطة سوداء وعار كبير في عهد المعتصم.

فتح عمورية

وبعد أن انتهى المعتصم من بابك تفرغ للعدو التاريخي للمسلمين، الروم، لا سيما وهم كانوا يهاجمون البلاد الإسلامية طوال هذه الفترة، ويتحالفون مع بابك ويستقبلون جنوده المنهزمين في بلادهم.

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٨، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٧.
(٢) د. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي ص٩٢.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٨، ٢٠٩.

وصلت رسالة من بابك الخرمي حين كان مُحاصرا في معقله «البذ» إلى ملك الروم توفيل بن ميخائيل يقول له: «إن ملك العرب قد جهز إليَّ جمهور جيشه ولم يبقَ في أطراف بلاده من يحفظها، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض سريعًا إلى ما حولك من بلاده فخذها فإنك لا تجد أحدًا يمانعك عنها»، وكان بابك يطمع في تخفيف العبء عليه؛ لكي يضطرَّ المعتصم إلى إخلاء بعض قواته من حرب بابك لحرب الروم، وما إن وصلت الرسالة حتى خرج توفيل في جيش من مائة ألف، وانضاف إليه المحمرة الذين كانوا قد خرجوا في منطقة الجبال وقاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فلم يقدر عليهم لأنهم تحصنوا بتلك الجبال فلما قدم ملك الروم صاروا معه على المسلمين فاجتاحوا بقيادة ملكهم توفيل بن ميخائيل حصن زِبَطْرة ثم مدينة ملطية (٢٢٣هـ)، وقتلوا كثيرًا وأسروا أكثر حتى بلغ عدد الأسيرات فحسب ألف امرأة مسلمة، ثم لم يكتف بهذا بل مارس أبشع التعذيب على من في يديه من الأسرى فقطع آذانهم وأنوفهم، وسَمَل أعينهم[١]!!

انزعج المعتصم وغضب جدًّا، لا سيما وقد وردت أنباء أن بين الأسرى امرأة صارت تصرخ على المعتصم كأنه ميت «وامعتصماه.. وامعتصماه»[٢]، فقام على الفور بتجهيز الجيوش التي لديه، وأعلن أنه سيقودها بنفسه، واستعد استعداد من يؤمن بأنه لن يرجع إلا منتصرًا أو شهيدًا فجمع القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه، وخرج من بغداد (٢ من جمادى الأولى ٢٢٣هـ)، وخرج في الجيش أهل ثغور الشام وثغور الجزيرة والجزيرة الفراتية «إلا من لم يكن عنده دابة أو سلاح»، وأرسل المعتصم جيشًا يتقدَّمه بقيادة عجيف بن عنبسة لإدراك مدينة زبطرة التي تتعرض لهجوم الروم، فلم يدركوا إنقاذها، فقد اجتاحها ملك الروم وخربها ثم عاد إلى بلاده فرجعوا إلى الخليفة الذي اشتد غضبه فسأل: أي بلاد الروم أمنع؟ فقالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية[٣].

تجهز المعتصم للحرب «جهازا لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء»، وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال والسلاح شيئًا لم يُسمع بمثله، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال[٤].

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٥.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٤/ ٢٢١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٥.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٥.



كان الهدف النهائي اقتحام أنقرة وعمورية -أعظم وأحصن مدينتين في الإمبراطورية البيزنطية بعد العاصمة «القسطنطينية»- وكان مركز العمليات عند نهر اللمس الذي يعبر على بلدة «سلوقية» القريبة من طرسوس، ووضعت الخطَّة بحيث يتوجه جيشان من طريقين مختلفين إلى أنقرة، أحدهما بقيادة الأفشين ويخرج من سروج إلى أنقرة عبر درب الحدث، والثاني هو الرئيسي بقيادة المعتصم ولكنه منقسم إلى جيش أساسي وطلائع، الطليعة الأولى يقودها أشناس والثانية يقودها وصيف (وكل هؤلاء القادة أتراك)، هذا الجيش الثاني سيتحرك منقسمًا من درب طرسوس ثم سيجتمع عند حصن الصفصاف[1].

وأدت أجهزة الاستطلاع عملها بكفاءة، فأنقذت طليعة أشناس من كمين قاتل لملك الروم الذي كان ينتظر عبورها نهر اللمس ليهاجمها عبر مخاضة في النهر لم تكن معروفة للمسلمين، لولا أن رسالة وصلت إلى المعتصم فأرسلها إلى طليعة أشناس فأوقف بها تقدمها نحو حصن الصفصاف، وظلت الطليعة معسكرة عند منطقة تسمى «مرج الأسقف» تنتظر

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٦.

وصول الإمدادات والمعدات الثقيلة كالمجانيق والتي كانت في مؤخرة الجيش[١].

وفي مرج الأسقف وصلت رسالة من المعتصم تُكَلِّف أشناس بأن يقوم باستطلاع خبر ملك الروم الذي لم يُعرف أين هو، فأخرج أشناس سرية من مائتي فارس تحرشت بحصن قرة وانقسمت إلى ثلاثة مجموعات فوقع في أسرهم مجموعة من الروم قدموا معلومات غالية عن جيش الروم منها:

١- أن صاحب حصن قرة يعد كمينا للسرية، فسارع قائدها عمر الفرغاني بتجميع المجموعات الثلاثة في مكان جديد وخطَّة جديدة فأفلت من الكمين، ورجع إلى طليعة أشناس ومعه الأسرى.

٢- أن ملك الروم يعسكر منذ أكثر من ثلاثين يومًا ينتظر عبور جيش المعتصم لنهر اللمس.

٣- أن ملك الروم فوجئ بجيش آخر -وهو جيش الأفشين- الذي بلغه وصوله وتوغله في أرض الروم حتى صار في ظهره، فانطلق ملك الروم بقسم من الجيش لحرب الأفشين وترك على بقيته ابن خاله، فأرسل المعتصم عدة رسل -من طرق مختلفة- لتلحق الأفشين بهذه المعلومات وجعل لكلٍّ منهم عشرة آلاف درهم إن استطاعوا إيصال الكتاب، لكن أحدًا منهم لم يدرك الأفشين الذي كان قد توغل بحيث استحال الوصول إليه[٢].

ثم وصلت المعدات الثقيلة مع مؤخرة الجيش، وبدأ تحرك جيش المعتصم وطليعته التي يقودها أشناس نحو أنقرة، وتعرض جيش المعتصم لضائقة في الغذاء وأعلاف الدواب، فأوقع الله أسيرًا من الروم بين أيدي طليعة أشناس فعرض عليهم أن يدلهم على أرض أقوات وعلى مكان أهل أنقرة الذين هربوا منها مقابل تركه، فتم له ما أراد، وظفر الجيش بأرض مرعى ثم بمكان أهل أنقرة الهاربين منها فسُدَّ النقص في إمدادات الجيش الذي ظفر بكثير من الغنائم[٣]، وظفر بما هو أغلى من هذا.. ببشرى انتصار الأفشين على ملك الروم!

لقد انطلق ملك الروم على رأس قسم من الجيش لملاقاة جيش الأفشين، ودارت معركة

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٦، ٢٣٧.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٧، ٢٣٨.

هائلة بينهما (٢٥ من شعبان ٢٢٣هـ) قرب منطقة تسمى «لورله» انتصر فيها الروم أول الأمر، ثم صمد فرسان المسلمين وأعادوا الهجوم بقوة حتى هزموا جيش الروم ومزقوه تمامًا، وصار لا يدري أحد منهم موضع الكتائب الأخرى، ولا حتى أين ملك الروم فينحازون إليه[١]، فعادت فلولهم إلى معسكر الجيش الرئيس عند نهر اللمس فإذا بهم يجدون الفوضى ضاربة بأطنابها فيه، وقد تنازع الأمراء مع ابن خال الملك الأمر، ونشبت بينهم خلافات كبيرة، ولما عاد ملك الروم من هزيمته أمام الأفشين فوجئ بهذا الوضع القاتل، فقتل قريبه -الذي رآه مسئولًا عمَّا حدث للجيش، أو لعلَّه قتله إرضاء للأمراء وطلبًا لتوحدهم في القتال من جديد- وأرسل نداء عامًّا إلى كافة المدن والبلدات أن لا يدخلوا إليهم رجلًا كان في الجيش هاربًا إلا جلدوه، أو يرجع إلى معسكر الملك ليباشر الحرب، وأرسل من فوره جزءًا من الجيش إلى أنقرة ليحفظوها قبل أن يأتيها المعتصم، لكن هذا القسم وصل إليها فوجد أن أهلها قد خربوها وهجروها وهربوا منها، فانطلق الملك يجمع شتاته ليسير نحو هدف المسلمين الثاني.. عمورية[٢].

بعد ثلاثة أيام من وصول هذه المعلومات إلى المعتصم، وصلت رسالة الأفشين تخبر بما جرى وبالنصر الذي أنزله الله على المسلمين، وتؤكد أن مسار الخطَّة كما هو وأن التقاء الجيوش سيكون في أنقرة[٣].

ومن أنقرة أعاد المعتصم هيكلة الجيش فجعله ثلاثة جيوش منقسمة إلى كتائب، وعزم على تدمير كل ما بين أنقرة وعمورية من قدرات الروم الاقتصادية والعسكرية، فسلكت الكتائب طرقا عديدة فبلغت في إنهاك الروم وتخريب حصونهم أقصى ما استطاعت ثم اجتمعت مرة أخرى أمام الهدف الأكبر.. عمورية[٤]!

حاصرت الجيوش المدينة الهائلة التحصين (٦ من رمضان ٢٢٣هـ)، ذات السور الشاهق الذي يسبقه خندق عريض، فكانت خطَّة المعتصم صناعة مجانيق شاهقة بمقدار ارتفاع السور وتكون واسعة بحيث تسع أربعة مقاتلين، وأما الخندق فقد أمر المعتصم كل جندي إذا أكل

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٨.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٨.
(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٩.

شاة أو غنمًا أن يحشو جلدها ترابا، ثم ترمى كل هذه في الخندق، وكان المأمول أن يردم الخندق ثم تأتي الدبابة[1] فتسير عليه حتى تنقب السور، لكن رمي جلود الشياه كان يتم على عجل هربا من سهام الروم وحجارتهم فلم يكن ردم الخندق سهلًا، ثم لم تفلح الدبابات في تسوية الجلود بل عَلَقت بها، ففشلت هذه الخطَّة[2].

لكن الله لا يخيب سعي المخلصين فما هو إلَّا أن سَخَّر الله لهم أسيرًا كان من المسلمين قديمًا ثم تنصر وتزوج في عمورية؛ فلما رأى جيوش المسلمين هرب إليهم، وكان أغلى ما هرب به أن دلهم على موضع في المدينة خربته سيول قريبة ولم يكتمل بناؤه بعد إهمال من الوالي، فلما جاءت هذه الحرب وخشي الوالي من ملك الروم بنى السور بناء هشا بحيث يظهر كأن بناءه قد اكتمل على أن الحقيقة أن الحجارة ليست إلا واجهة لهذه المنطقة الضعيفة في السور[3].

اختبر المعتصم كلام الرجل فركز ضربات المجانيق عليها فبدأت في الانهيار، وتركز عليها دفاع الروم بطبيعة الحال، ولكن هذا الانهيار السريع غير المتوقع ضرب معنوياتهم في مقتل، فقرر والي المدينة مع القائد العسكري الذي أرسله ملك الروم أن ينفذ هجومًا مفاجئًا في الليل ليتخلص به من الحصار مع ما أمكنه من الجنود، وأرسلوا بهذا رسالة إلى ملك الروم، لكن الرسالة وقعت في يد جيش المسلمين فتم تشديد الحراسة بالليل على الأبواب ففشلت خطَّة الهروب الخاطف، مع استمرار التركيز على الناحية المنهارة من السور حتى سقطت تحت وقع الضربات الدائمة[4].

انحصرت الحرب حول هذه النقطة حتى انهارت دفاعاتها وعزم قائدها على التسليم وطلب الأمان بعدما تخلى عنه القواد الآخرون، وقبل أن يتم الاتفاق على التسليم اقتحم المسلمون المدينة (١٧ من رمضان ٢٢٣هـ)[5] فهرب الروم في كل وجه وشاع فيهم القتل والأسر في سائر الجهات وانهارت دفاعات المدينة جميعًا، وأخذ المسلمون من عمورية أموالًا لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك،

---

(١) الدبابة القديمة: هي بناء خشبي قوي مغطى بالجلود والمواد غير القابلة للاشتعال، وتسير على عجل، ويكون المقاتلون داخلها يحتمون بسقفها من الحجارة والسهام ويسيرون بها حتى يقتربوا من السور لنقبه.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٠.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٩.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٩، ٢٤٠.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٢.

وبإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لمزيد من إضعاف القوة الحربية للروم، ثم عاد راجعًا (٢٣ من رمضان ٢٢٣هـ)[١].

وكان نصرًا عظيمًا باهرًا، قتل فيه من الروم ثلاثون ألفًا وكان الأسرى مثل ذلك، ومنهم ستون قائدًا، وبينهم واليها، كما جاء المعتصم بأحد الأبواب الفاخرة من عمورية إلى بغداد فجعله في دار الخلافة ببغداد[٢].

وقد أنشد أبو تمام قصيدته الشهيرة في هذا النصر ومنها:

السَّـيْفُ أَصْـدَقُ أَنْبَـاءً مِـنَ الكُتُـبِ ... في حـدهِ الحـدُّ بـينَ الجـدِّ واللعـبِ

بيضُ الصَّفائحِ لاَ سودُ الصَّحائفِ في ... مُتُـونِهِنَّ جـلاءُ الشَّـك والريَـبِ

وفيها هاجم أقوال المنجمين بقسوة، إذ كانوا نصحوا المعتصم بألا يخرج في هذا الوقت من السنة لأن خبر النجوم يشير إلى الهزيمة:

والعِلْـمُ في شُـهُبِ الأَرْمَـاحِ لاَمِعَـةً ... بَـيْنَ الخَمِيسَـيْنِ لافي السَّـبْعَةِ الشُّهُبِ

أَيْـنَ الروايَـةُ بَـلْ أَيْـنَ النُّجُـومُ وَمَـا ... صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومنْ كَـذِبِ

تخرُّصًـا وأحاديـثَ ملفَّقـةً ... لَيْسَـتْ بِنَبْـعٍ إِذَا عُـدَّتْ ولاغَـرَبِ

عجائبًـا زعمـوا الأَيَّـامَ مُجْفلـةً ... عَـنْهُنَّ في صَـفَرِ الأَصْـفَار أَوْ رَجَـبِ

وخَوَّفُـوا النـاسَ مِـنْ دَهْيَـاءَ مُظْلِمَـةٍ ... إذا بـدا الكوكـبُ الغـربيُّ ذو الـذَّنبِ

وصـيَّروا الأبـراجَ العُلْيـا مُرتَّبـةً ... مَـا كَـانَ مُنْقَلِبًـا أَوْ غـيْرَ مُنْقَلِـبِ

يقضـون بـالأمر عنهـا وهـي غافلـة ... مـا دار في فلـك منهـا وفي قُطُـبِ

لـو بيَّنـت قـطّ أمـرًا قبـل موقعـه ... لم تُخْـفِ ماحـلَّ بالأوثـان والصـلُبِ

ثم بدأ في وصف الفتح وما جرى فيه، فمما قال هذه الأبيات:

فَـتْحُ الفُتُـوحِ تَعَـالَى أَنْ يُحِـيطَ بِـهِ ... نَظْمٌ مِن الشعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

فـتحٌ تفـتَّحُ أبـوابُ السَّـماءِ لـهُ ... وتـبرزُ الأرضُ في أثوابهـا القُشُـبِ

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٤.

لقد تركتَ أميرَ المؤمنينَ بها ... للنَّارِ يومًا ذليلَ الصَّخرِ والخشبِ

غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهوَ ضُحًى ... يَشُلُّهُ وَسْطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللهَبِ

حتَّى كأنَّ جلابيبَ الدُّجى رغبتْ ... عَنْ لَوْنِهَا وكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

ضوءٌ منَ النَّارِ والظَّلْماءُ عاكفةٌ ... وظُلمةٌ منَ دخان في ضُحًى شحبِ

فالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وقدْ أَفَلَتْ ... والشَّمسُ واجبةٌ منْ ذا ولمْ تجبِ

تَدْبيرُ مُعْتَصِمٍ بِالله مُنْتَقِمٍ ... لله مرتقبٍ في الله مُرتغبِ

لَمْ يَغْزُ قَوْمًا، ولَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ ... إِلَّا تقدَّمهُ جيشٌ من الرَّعبِ

رمى بكَ اللهُ بُرْجَيْها فهدَّمها ... ولوْ رمى بكَ غيرُ اللهِ لمْ يصبِ

ثم يهجو توفيل ملك الروم ويزري بشجاعته في الهجوم والسلب على المدن الآمنة الغافلة وفراره حين تأتيه الكتائب:

أجَبْتَهُ مُعلنًا بالسَّيفِ مُنصَلتًا ... وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجِبِ

حتَّى تَرَكْتَ عَمود الشرْكِ مُنْعَفِرًا ... ولم تُعرِّجْ على الأوتادِ والطُّنُبِ

لَمَّا رأى الحربَ رأْي العينِ تُوفلِسٌ ... والحَرْبُ مَشْتَقَّةُ المَعْنَى مِنَ الحَرَبِ

غَدَا يُصَرِّفُ بِالأَمْوال جِرْيَتَها ... فَعَزَّهُ البَحْرُ ذُو التَّيارِ والحَدَبِ

هَيْهَاتَ! زُعْزِعَتِ الأَرْضُ الوَقُورُ بِهِ ... عن غزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غزْو مُكتسبِ

لمْ يُنفقِ الذهبَ المُربي بكثرتهِ ... على الحصى- وبهِ فقْرٌ إلى الذَّهبِ

إنَّ الأُسُودَ أسودَ الغيلِ همَّتُها ... يوم الكريهةِ في المسلوب لا السَّلبِ

وَلَّى، وَقَدْ أَلجَمَ الخطيُّ مَنْطِقَهُ ... بِسَكْتَةٍ تَحْتَها الأَحْشَاءُ في صخَبِ

ثم يعود إلى مدح المعتصم وشكره على هذا الجهاد والفتح

خَلِيفَةَ الله جازَى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ ... جُرْثُومَةِ الدينِ والإِسْلاَمِ والحَسَبِ

بصُرْتَ بالرَّاحةِ الكُبرى فلمْ ترها ... تُنالُ إلَّا على جسرٍ منَ التَّعبِ

إن كان بينَ صُرُوفِ الدَّهرِ من رحمٍ ... موصولةٍ أوْ ذمامٍ غيرِ مُنقضبِ

فَبَـيْنَ أَيَّامِـكَ الـلاَّتِي نُصِرْـتَ بِهَـا ... وبَـيْنَ أَيَّـامِ بَـدْرٍ أَقْـرَبُ النَّسَـبِ

أَبْقَتْ بَنِي الأَصْـفَرِ المِمْـرَاضِ كاسِمِهِمُ ... صُفْرَ الوجُوهِ وجلَّـتْ أَوْجُـهَ العَـرَبِ

مقتل العباس بن المأمون

كان العباس عاقلا حين لم يستجب لتحريض بعض أمراء أبيه بأن يتولى الخلافة بعده عند موته منازعا لعمه المعتصم، غير أن تحريض الأمراء لم يتوقف، وما زال يزداد الإلحاح على العباس لا سيما من عجيف بن عنبسة الذي كان من قواد المأمون الكبار، فتغير الحال بسطوع نجم الأفشين فلم يَعُدْ كما كان أولًا، ولم يُعطه المعتصم مثل الصلاحيات التي أعطاها له المأمون أو التي أعطاها المعتصم للأفشين، فعمل عجيف على تحريض العباس بغية أن يعود إلى ما كان عليه، كما تزعم الحارث السمرقندي -صديق العباس- حركة إقناع الأمراء بالبيعة للعباس حتى أخذها من جماعة منهم(١).

تحركت الرغبة في صدر العباس، وعزم على قتل عمه المعتصم، وبينما يتحرك الجيش نحو أنقرة ثم عمورية وأثناء المرور في مضيق أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق، ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد، فكان العباس أعقل وأخلص للإسلام من صاحبه الذي ما يبالي لأجل غرضه من تعطيل فتح يؤدب الروم وينتقم لشهداء المسلمين وأسراهم، فقال العباس: إني أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة، فلما تم الفتح عاود عجيف تحريض العباس لقتل عمه بينما الناس مشغولون بالفتح والغنائم فوعده العباس أن يكون ذلك في المضيق الذي مروا عليه حين يكون الجيش في طريق العودة(٢).

ثم عمق غزو عمورية من عزم هؤلاء القادة، ذلك أن قيادة الغزوة كانت لثلاثة من الأتراك: الأفشين وأشناس ووصيف وغيرهم -أيضًا- مثل إيتاخ، وهؤلاء صار لهم أمر ونهي وتحكم واشتداد على القادة القدماء مثل عجيف بن عنبسة وعمرو الفرغاني وأحمد بن خليل بن هشام، فكان هذا أكثر ما أغاظهم وفتح النية لضم المزيد من الأمراء إلى حركة تستهدف قتل المعتصم ومبايعة العباس بن المأمون(٣).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٣.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥.



كان الترتيب أن ينفذ الأمر في طريق العودة عند المضيق في درب الحدث حيث تقل الأعداد، وكانت الخطَّة قائمة على تحديد الاغتيالات بحيث تولى كل أمير ممن بايع العباس اغتيال قائد من قواد المعتصم الأتراك، لكن بعض الأنباء تسربت لأشناس الذي قبض على الحارث السمرقندي وأرسله إلى المعتصم مقيدا ومعه ما وصله من المعلومات، وعند المعتصم اعترف الحارث السمرقندي بمجمل الأمر وعرَّفه بأسماء الأمراء الذين بايعوا للعباس وكانوا كثرة، فتحايل المعتصم على ابن أخيه العباس بن المأمون واستطاع أن يستخلص منه تفاصيل الموضوع التي طابقت ما قاله الحارث السمرقندي، فقبض المعتصم على الأمراء الخائنين، وعلى ابن أخيه العباس فقتلهم جميعًا، كما أمر بلعن العباس على المنابر وسماه اللعين(١).

تمرد المازيار

عادت التمردات إلى الشرق، وثار في «آمل» طبرستان المازيار بن قارن (٢٢٤هـ)..

كان جد المازيار اسمه ونداد هرمزد، وكان يحكم طبرستان في عهد الرشيد ويلتزم بدفع مبلغ سنوي لوالي طبرستان، وكان ابنه قارن موجودًا في بغداد كرهينة عند الرشيد لضمان عدم التمرد والإخلال بدفع الأموال، وبعد هذا بسنين ساعد قارن بن ونداد الخليفة المأمون في حروبه ضد الروم حتى تمنى المأمون أن يدخل قارن في الإسلام، وبعد وفاة قارن تغلب زعيم قبلي على ملكه وانتزعه من ابنه المازيار فلجأ المازيار إلى بغداد وساعدته الخلافة على استرجاع ملكه والتمس منه المأمون أن يدخل في الإسلام فأسلم وسمى «محمد مولى أمير المؤمنين» وتكنى بـ «أبي الحسن»(٢).

ولطبيعة هذا القرب بين المازيار والمأمون كان يرفض أن يدفع الأموال المقررة إلى نائب المشرق عبد الله بن طاهر بل كان يرسلها مباشرة إلى الخلافة، لكنه لم يلبث كثيرًا حتى أعلن العصيان على الخلافة (٢١٨هـ) بعد مناورات، وارتد عن الإسلام واعتنق المزدكية(٣).

ولم يستطع المأمون مواجهة المازيار إذ تُوُفِّيَ في العام ذاته، فوقع عاتق المواجهة على المعتصم.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٣ وما بعدها.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٤١٦، وابن اسفنديار: تاريخ طبرستان ص٢٠٣ وما بعدها.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٨، وابن اسفنديار: تاريخ طبرستان ص٢١٣ وما بعدها.

وكانت وفاة المأمون فرصة لاتِّساع ظلمه وبطشه وفساده، فقد امتنع عن إرسال الخراج وأخذ في اضطهاد المسلمين ممن هم تحت ولايته حتى لقد هرب كثير منهم من أرضه، ولجأ إلى خراسان، وأرسلوا إلى المعتصم يشكون إليه الحال الذي هم فيه فأرسل إليهم يطمئنهم ويخبرهم أن عبد الله بن طاهر سيتولى هذا الأمر[١].

وقد قيل إن الأفشين كان يحبُّ أن يتولَّى نيابة الشرق مكان عبد الله بن طاهر، وأنه لذلك حرض المازيار على التمرد متوقعا فشل عبد الله بن طاهر في التصدي له، ومن ثَمَّ يعهد الخليفة إليه بمواجهة هذه الثورة وبالولاية على المشرق[٢]، وقد استند هذا التوقع لما سيظهر بعد ذلك من الأفشين!

راسل عبد الله بن طاهر المزيار فكان الرد عنيفًا، إذ طالبه المازيار بدفع خراج عامين له، فبدأت خطَّة عبد الله بن طاهر في حربه، وكان يخطط لحصاره من ثلاث جهات بثلاثة جيوش، جيشان من خراسان أحدهما بقيادة عمه الحسن بن الحسين لحصاره من ناحية جرجان، والثاني بقيادة حيان بن جبلة لحصاره من ناحية قومس، واستدعى جيشًا من نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم فأرسل جيشًا يقوده محمد بن إسحاق الطاهري، فجرت بين هذه الجيوش وبين المازيار حروب طويلة مُجْهِدة استطاع فيها عبد الله بن طاهر أن يوقع بين المازيار وبين قادته ومنهم ابن أخيه، ثم انتهت إلى أسر المازيار وإرساله إلى ابن طاهر، وهناك اعترف المازيار بخطَّة كبيرة شاركه فيها الأفشين -القائد التركي الكبير الذي أنهى تمرد بابك- لإسقاط الدولة العباسية، وكانت مهمَّة الأفشين هي قتل المعتصم وأبنائه، فكان أول هَمِّ عبد الله بن طاهر أن يحصل على رسائل الأفشين إليه، ثم أرسله أسيرًا إلى المعتصم فوصل بغداد في (٢٢٥هـ)، ومعه كثير من الغنائم النفيسة من الجواهر والذهب والثياب[٣].

وفي هذه الأثناء وقبل أن يصل المازيار أسيرًا إلى الخليفة، كان نائب الأفشين في أذربيجان وهو من قرابته -أيضًا- واسمه منكجور الأشروسني قد وجد أموالًا كثيرة ونفائس كانت مكنوزة من تراث بابك الخرمي فأغراه كثرتها، فلم يخبر بها الخليفة، فوصل الخبر إلى المعتصم

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٥٠ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٨.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٥١ وما بعدها.

عن طريق شاهد عيان، فكتب الخليفة إلى منكجور بهذا فأنكر أن يكون قد حدث وعزم على قتل من أبلغ الخليفة لولا أنه هرب منه واحتمى بأهل أردبيل، ثم تأكد للمعتصم كذب منكجور فأرسل إليه جيشًا يقوده بغا الكبير فقاتله حتى ألجأه إلى طلب الأمان فعاد به إلى الخليفة (٢٢٥هـ)(١).

ثم وصل المازيار أسيرًا إلى المعتصم فأنكر عنده ما اعترف به لعبد الله بن طاهر من أن يكون الأفشين قد كتب إليه شيئًا، وعاقبه المعتصم بالجلد أربعمائة وخمسين سوطا، فأقر بأن الأفشين كان يراسله ويحرضه على التمرد، ثم لم يتحمل المازيار ما نزل به من الضرب فمات فيه، ثم صُلب إلى جوار جثة بابك الخرمي على جسر بغداد، وقَتَل المعتصم أهمَّ قواده ورجاله(٢).

ومن ناحية أخرى تحقق المعتصم بما كان من خيانة الأفشين، وقد كانت تلوح الشبهات حول الأفشين من عدة أمور: فهو يرسل أموالًا جزيلة إلى أشروسنة -من معاقل الأتراك فيما وراء النهر- بغير علم الخليفة أو عماله، فوقع هذا في يد عبد الله بن طاهر -والي خراسان- الذي تعبر هذه الأموال في ولايته، وأبلغ المعتصم بهذا فأرسل إليه المعتصم أن يتابع مراقبة الأمر، ثم هذا الاعتراف الخطير الذي صرح به مازيار عند القبض عليه بأن الأفشين هو مَنْ كان يحرضه على الخروج فأمر بحبسه(٣).

وسبحان المعز المذل! فقبل هذا الحبس بشهور كان الأفشين في أعظم مكانة لدى المعتصم بل إن زواج ابنه الحسن بن الأفشين (جمادى الآخرة ٢٢٤هـ) تم في قصر المعتصم بسامراء، وكان المعتصم بنفسه يتفقد الحضور، وكان توزع على الناس أطيب أنواع العطور «الغالية» فتُدهن بها لحاهم(٤)!

نهاية الأفشين

بعدما تكشف من أمر الأفشين ما سبق أحس بالخطر وعزم على الهروب، ولم يكن

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٠، ٢٦١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٥٨، ٢٥٩.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦١، ٢٦٢.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٠، ٢٦١.

بإمكانه أن يهرب شرقًا، فإنه لا محالة سيقع في أيدي ولاة الخلافة في العراق وفارس وخراسان -التي يتولاها خصمه عبد الله بن طاهر- حتى يصل إلى مراده في بلاد الترك فيما وراء النهر، لذا كانت خطته الهرب في النهر شمالًا حتى بلاد الجزيرة الفراتية، ثم شمالًا إلى أرمينية، ثم شمالًا إلى بلاد الخزر، ثم يدور من حول بحر قزوين حتى يصل إلى مراده في بلاد الترك، ثم يُثير من هناك -وبالاستعانة بالخزر- تمرده الكبير الذي يدبر له[(١)].

وكان من خطته إقامة وليمة للمعتصم وقادته وأن يضع لهم سُمًّا فيها، فإن لم يستجب المعتصم فحسبه هؤلاء القادة، إلَّا أنَّ أحد الأتراك أفضى بما يعلم إلى المعتصم، فدبر المعتصم حبسه في قصر الجوسق وبنى له سجنا مرتفعا سمي باللؤلؤة وعُرِف فيما بعد بسجن الأفشين[(٢)].

وفي الوقت ذاته أرسل المعتصم سريعًا إلى عبد الله بن طاهر ليحتال حتى يحبس الحسن بن الأفشين، وقد كان في بلاد ما وراء النهر، قبل أن يصل إليه خبر أبيه، فتعاون عبد الله بن طاهر مع نوح بن أسد الساماني حتى خدعوه وقبضوا عليه وأرسلوا به إلى المعتصم في سامراء[(٣)].

وكعادة رجال السياسة إذا سقطوا تكشفت الكثير من أفعاله التي كانت خافية!!

أقيمت محاكمة للأفشين، كان قاضيها أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي، وممثل الاتهام هو الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، وحضرها نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وقد اتهم فيها بما يدل على بقائه على دين الفرس:

١- أنه غير مختتن.

٢- أنه ضرب رجلين إمامًا ومؤذنًا كل واحد ألف سوط لأنهما هدما بيت أصنام فاتخذاه مسجدًا.

٣- أن لديه كتاب كليلة ودمنة مصورًا فيه الكفر وهو محلى بالجواهر والذهب.

٤- أن الأعاجم يكتبون في رسائلهم إليه: أنت إله الآلهة من العبيد. دون أن يعترض عليهم.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٢، ٢٦٣.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٣.

٥- أنه كان يكاتب المازيار بأن يخرج عن الطاعة وأنه في ضيق حتى ينصر دين المجوس الذي كان قديما ويظهره على دين العرب.

٦- أنه يستطيب المنخنقة على المذبوحة.

٧- أنه كان في كل يوم أربعاء يستدعي بشاة سوداء فيضربها بالسيف نصفين ويمشي بينهما ثم يأكلها (وهي عادة مجوسية).

وقد رد الأفشين على بعض هذه الاتهامات، فقال بأنه لم يختتن لأنه يخاف الألم، ولم يبد هذا مقنعا فقال له الوزير: أنت تطاعن بالرماح في الحروب ولا تخاف من طعنها وتخاف من قطع قلفة ببدنك؟ وبأنه إنما ورث كتاب كليلة ودمنة الفارسي من آبائه، وبأن سكوته على تلقيبه بالإله، إنما لكي لا ينحط من نظر الأعاجم الذين كانوا يكاتبون آباءه وأجداده بهذا[١].

وظل الأفشين محبوسا بعد العزة الكاملة والمكانة الرفيعة حتى مات في حبسه (شعبان ٢٢٦هـ)، فأمر به المعتصم فصُلِب ثم أحرق وذُرِّي رماده في دجلة، وصودرت أمواله فوجدوا في أملاكه أصناما مكللة بذهب وجواهر، وكتبا في فضل دين المجوس وأشياء كثيرة كان يتهم بها، تدل على كفره وزندقته، وتحقق بسببها ما ذكر عنه من الانتماء إلى دين آبائه المجوس[٢].

وهذه النهاية غير المتوقعة للقائد الأكبر للدولة الإسلامية، وثبوت انتمائه لغير الإسلام جعلت بعض المؤرِّخين يتشككون في كثير من أعماله وقد ذهب بعضهم إلى أن من سيئاته أنه تثاقل عن قتال بابك وأنه كان يضمر موافقته على ضلالاته، فهذا ما ساهم في تعاظم قوة بابك وتجرئه، وهو ما جعل المعتصم يصلبه بجوار بابك على جسر بغداد[٣]، كذلك لم نعدم بعض من نفى التهمة بالكلية وقال بأن الأفشين إنما كان ضحية مؤامرات الحاسدين والوشاة على المكانة التي وصل إليها ببطولته وأنه لم يكن كافرا ولا منافقا[٤].

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٣ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٧، ٢٦٨.
(٣) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٦٨، والغزالي: فضائح الباطنية ص١٤.
(٤) أبو تمام: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٢/ ١٩٩، ٢٠٠.

تمرد المبرقع اليماني

ساق الطبري سببًا في سبب نشوب هذا التمرد لا يصدق، وذلك أن أبا حرب المبرقع كان من أهل الجهاد في الثغور، وجاء رجل من الجند أراد أن ينزل في منزله لدى غيبته فلما عارضت هذا زوجته بطبيعة الحال ضربها الجندي ضربة أثَّرت في معصمها، فلما جاء أبو حرب أخبرته فتتبع الجندي فقتله ثم وجد نفسه مُطاردا من قبل السلطات فهرب إلى رءوس الجبال وتطور الحدث الفردي إلى تمرد وثورة[١]!

اعتصم في رءوس الجبال، وكان إذا مرَّ به أحد دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فانضم إليه كل مَنْ كانت له مظلمة أو أراد الإصلاح، وكان غالب من اتبعه من المزارعين وظن الناس أن هذا هو السفياني الذي ورد في الحديث[٢] أنه يملك الشام، فاستفحل أمره جدًّا، واتبعه نحو من «مائة ألف مقاتل»، وكل هذا في عام (٢٢٧هـ)، وعند هذا أرسل المعتصم وهو في مرض الموت جيشًا ففوجئ قائد الجيش رجاء بن أيوب بأنهم كثرة كثيرة، فكان على قدر من الذكاء؛ حتى أَجَّل المواجهة إلى حين تأتي أيام حراثة الأرض متوقعا أن ينفض عنه أغلب أتباعه، وهو ما كان بالفعل، فعند ذلك قاتله وأسره، وعاد به إلى المعتصم الذي كان قد أغضبه التأخر في القتال حتى عرف السبب فشكره[٣].

بناء سامراء

وسامراء هي المدينة التي عاشت في عمر الزمان نصف قرن فحسب، إلَّا أنها عاشته على قمة الدنيا، عاصمة سياسية وازدهارًا حضاريًّا فائقًا، ثم انطفأت فجأة كما وُجدت فجأة، فكأنها في عمر الزمن لحظة برق أضاء للناس فمشوا فيه ثم أظلم عليهم فقاموا!

كان المعتصم يحبُّ العمارة، ويقول: «إن فيها أمورًا محمودة، فأولها عمران الأرض التي يحيى بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع المعاش»، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك الزيات: «إذا وجدت موضعًا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهمًا فلا تؤامرني (تشاورني) فيه»[٤].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٩.
(٢) وهو الحديث الموضوع الذي أشرنا إليه من قبل.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٦٩، ٢٧٠.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٣٤ (ط٢ الدار العالمية للكتاب).

لقد كان بناء سامراء من توابع اتخاذ المعتصم الجنود الأتراك وإدخالهم كعنصر جديد في المجتمع، إذ هجمت على أهل بغداد زيادة سكانية تركية، فضاقت بغداد بهذا الانفجار المفاجئ الذي ضيق على الناس في الديار والمساكن والحركة في الطرقات، وأشد ما تكون الأزمة حين يتحرك المعتصم بموكبه في بغداد، فكان «إذا ركب يموت جماعة من الصبيان والعميان والضعفاء لازدحام الخيل وضغطها»(١).

وكانت فضلًا عن ذلك هجمة بدوية وعسكرية، فلم يتحمل أهل بغداد -التي صارت ذروة الحضارة والتمدن في العالم- طباع الجند الأتراك البدوية الغليظة الجافة، إذ كانوا يركضون بالخيول والدواب فيصدمون الناس يمينا وشمالا، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صَدْمِه لامرأةٍ أو شيخٍ كبير أو صبي أو ضرير(٢).

وصاحب ذلك كله حالة من التذمر بين الجنود القدامى المقيمين في بغداد، فهم بخلاف المعاناة العامة للبغداديين يرون في الأتراك وارثي مكانهم ومقامهم ومنزلتهم في الدولة، وقد وصل إلى المعتصم هذا التذمر واتِّساعه حتى لقد خشي من حركة عسكرية منظمة أو انقلاب عسكري فأصدر أمرا: «اطلبوا لي موضعا أخرج إليه وأبني فيه مدينة وأعسكر به، فإن رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة، وكنت قادرا على أن آتيهم في البرّ وفي الماء»(٣).

فاجتمعت هذه الأسباب الثلاثة: ضيق بغداد، وكراهية أهلها لغلظة الأتراك وبداوتهم والاشتباكات اليومية بين الطرفين، وتذمر الجنود البغداديين لتحسم خيار المعتصم بالانتقال إلى مدينة أخرى.

وزاد من وتيرة التنفيذ حين اجتمع عليه وفد من أهل بغداد، وقيل إن رجلًا اعترضه في موكبه قائلًا: يا أبا إسحاق، فأراد الجند ضربه فمنعهم المعتصم، وقال له: ما لك يا شيخ؟ فقال: لا جزاك الله خيرا عن الجوار! جاورتنا مدَّة فرأيناك شرّ جار، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت نساءنا، والله لنقاتلنّك بسهام السَّحَر، والمعتصم يسمع ذلك ساكتًا، وفي رواية أنه قال: وما سهام السحر. قالوا: ندعو

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٧٤.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص٥٥، ٥٦، والمسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٤٠ (ط٢، الدار العالمية للكتاب)
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١٣، وابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٢٩.

عليك. فقال المعتصم: لا طاقة لي بذلك. وخرج من بغداد»[١].

جرت أكثر من محاولة لاختيار المكان لكنها لم تصلح، إما للقرب من بغداد مما يجعل الخطر الأمني قائما، وإمَّا لسوء المناخ وإما لابتعادها عن المياه، وإمَّا لضيق المساحة مما يجعل توسعها في المستقبل محدودا، ثم استقرَّ الأمر أخيرًا عند هذه المدينة التي عرفت باسم «سُرَّ من رأى» أو «سرور من رأى» ثم خففت إلى «سرمري» و«سامراء» وقيل بأنها سميت سامراء تخفيفا من «ساء من رأى» وذلك بعد أن خربت وانتقلت عاصمة الخلافة منها عائدة إلى بغداد[٢].

وكان من مزايا الموقع أن المياه التي تحيط بموضع سامراء تشكل منطقة دفاعية تحيط بالعاصمة الجديدة، كما أن أرض سامراء ترتفع عن مستوى مياه النهر، مما يحميها من أخطار الفيضان التي تعرضت لها بغداد دائمًا[٣].

لم يكن شيء في ذلك المكان إلا دير قديم للنصارى، فاشتراه منهم المعتصم بأربعة آلاف دينار، ثم بدأت رحلة البناء واستجلاب المهندسين والعمال والصناع وأصحاب الحرف والرسامين من سائر الأنحاء لتخطيط المدينة الجديدة وبنائها، وأنشئت لهم منطقة خاصة للسكن وبها سوق لسد حاجاتهم، كذلك بدأت رحلة جمع مواد البناء من الخشب والساج والحديد والحجارة والرخام والزجاج[٤].

وتم اختيار أفضل الأماكن لتخصص لقصور الخليفة ورجال الدولة من الكتَّاب والوزراء والقادة العسكريين[٥].

وفي قلب المدينة وُضِع المسجد الجامع، وحوله أنشئت الأسواق وصممت لتكون واسعة فسيحة، وقسمت إلى أنواع التجارات على النحو الذي كان في بغداد، وكان في كل قسم من أقسام المدينة سوق صغير خاص منفرد بها فيها كل ما يلزمهم من أنواع التجارات والمهن...[٦]

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١٣، وياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٧٤.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص٥٦، ٥٧، والمقدسي: أحسن التقاسيم ص١٢٢.
(٣) د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص١٤١، وهي تنقل عن: أحمد سوسة: ري سامراء ١/ ٥٥.
(٤) اليعقوبي: البلدان ص٥٨ وما بعدها.
(٥) اليعقوبي: البلدان ص٥٧، ٥٨.
(٦) اليعقوبي: البلدان ص٥٧ وما بعدها.

ولكي يتجنب ما وقع في بغداد فقد جعل منطقة الأتراك منفردة وبعيدة عن باقي أهل سامراء، ويجاورهم باقي الجيش من الفراغنة والعجم، فلا يختلط بهم أحد من الناس، ومنع عليهم بيع أملاكهم في هذه الأنحاء لغيرهم، بل لقد اشترى لهم الجواري؛ لكي يمنع اختلاطهم بالناس ومنعهم أن يصاهروا أحدًا من غيرهم، وكانت كل أسرة مسجلة في الدواوين، بل لقد أمر ألا يُطلّق أحد زوجته[(١)]!

إن هذا يدعو إلى الاعتقاد بأن الأمر لم يكن فقط محاولة تجنب اشتباكهم مع المدنيين، بل هو نظام عسكري صارم استهدف عزلهم عن المدنيين ربما لكيلا تتكرر تجربة الخراسانيين أو العرب الذين تحولوا إلى عبء على الدولة فيما بعد حتى لقد خاف الخليفة ذاته انقلابهم عليه، وربما لكي يبدأ تجربة عسكرية كاملة الاحتراف بحيث لا يكون للعسكري أي ميول مدنية تجذبه نحو الدعة والراحة والترف، ربما هذا كله، وربما كان ثمة أسباب أخرى لا نعرفها.

واتَّسع البناء في سامراء اتِّساعًا هائلًا أكثر من معدل اتِّساع بغداد ذاتها، وساهم موضعها المائي في اتصال التجارة عبر النهر بالموصل وديار ربيعة، وامتد البناء إلى الضفة الغربية من نهر دجلة والتي كان يغلب عليها الطابع الزراعي من البساتين والجنان والمتنزهات، وكان هذا الجانب بمثابة الاستراحات التي يتخذها القادة لأنفسهم في مسكن ريفي يتكون من قصر أو دار فسيحة تحيطها البساتين والزروع والأراضي التي يملكها كإقطاع له، وكما جاء المعتصم بالبناء ورجاله وأدواته من كل مكان ليعمر الجانب الشرقي جاء -أيضًا- بالزراعة ورجالها وأدواتها وحبوبها وغراسها حتى أحيا الجانب الغربي ومد إليه المياه من النهر، وقد أخرجت الأرض محصولًا كبيرًا بلغ عشرة ملايين درهم في العام، وقد كان لهذا أثره في إقبال الناس والتجار والأعيان على سامراء مما جعل توسعها مثلا[(٢)].

وحتى بعد أن عادت العاصمة إلى بغداد بعد نحو ثلث القرن ظلت عمارتها واتِّساعها مثلًا مدهشًا، يسجل الرحالة الحسين المهلبي العزيزي في رحلته: «اجتزت بسرّمن رأى منذ صلاة الصبح في شارع واحد مادّ عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها للوقت[(٣)] لم تعدم

(١) اليعقوبي: البلدان ص٥٩.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص٦٤ وما بعدها.

(٣) كأن اليد رفعت عنها للوقت: أي ما زال بناؤها كأنه جديد حديث البناء، ولم يَزُل منها إلا الأبواب.

إلاّ الأبواب والسقوف، فأمّا حيطانها فكالجدد، فما زلنا نسير إلى بعد الظهر حتى انتهينا إلى العمارة منها، وهي مقدار قرية يسيرة في وسطها، ثم سرنا من الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء إلى نحو الظهر، ولا شكّ أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ»(١).

وفيما بعد كتب الأمير العباسي عبد الله بن المعتز الذي نشأ في سامراء بعد أن زالت أيامها وعادت العاصمة إلى بغداد، كتب إلى صديق له رسالة يقارن فيها بين سامراء وبغداد متحسرا فيقول: «على أنها (سامراء) وإن جُفِيَت معشوقة السكنى، وحبيبة المثوى، كوكبها يقظان، وجوها عريان (نقي)، وحصباؤها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وشرابها مريء، لا كبلدتكم (بغداد) الوسخة السماء، الومدة الماء والهواء، جوها غبار، وأرضها خبار، وماؤها طين، وترابها سرجين، وحيطانها نزور، وتشرينها تموز(٢)، فكم من شمسها من محترق، وفي ظلِّها من عرق...»(٣).

وجرت على سامراء سنة التاريخ، وصارت أحاديث، ولو أن الملوك يتعظون لكنا نكتب الآن تاريخًا آخر، فما كان في بال أحد أن يكون عمر المدينة في التاريخ نحو ثلث القرن لا غير، يقول القزويني عبارة تلخص عظة التاريخ: «ولم تزل سامرا في زيادة عمارة من أيام المعتصم إلى أيام المستعين، فعند ذلك قويت شوكة الأتراك ووقعت المخالفة في الدولة، فلم تزل في نقص إلى زمان المعتضد بالله، فإنه انتقل إلى بغداد وترك سامرا بالكلية، فلم يبقَ بها إلا كرخ سامرا وموضع المشهد والباقي خراب يباب، يستوحش الناظر إليها؛ بعد أن لم يكن في الأرض أحسن ولا أجمل ولا أوسع ملكًا منها. فسبحان مَنْ يُقَلِّب الأمور ولا يتغيَّر بتغيُّر الأزمنة والدهور»(٤)!

محنة الإمام أحمد بن حنبل

على يد المعتصم جرت محنة الإمام أحمد بن حنبل ﵁..

ويبدو المشهد مفهوما حين يتولى رجل كالمعتصم أمر الخلافة بعد أخيه المأمون، فهذا

---

(١) العزيزي: المسالك والممالك ص١١٥.

(٢) أي أنها شديدة الحرارة حتى إن شهري أكتوبر ونوفمبر (تشرين الأول، تشرين الثاني) كأنهما شهر يوليو (تموز).

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٤٦٤، ٤٦٥.

(٤) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص٣٨٦.

المعتصم الذي لا يكاد يجيد القراءة والكتابة ولا حظ له من العلم، لا ريب أنه كان ينظر لأخيه المأمون نظرة ملؤها الإكبار والإجلال على ما له من العلم، وما يساهم به في المناظرات والمجالس مع كبار علماء الدنيا في ذلك الوقت، ولم يكن بالإمكان أن يقتنع المعتصم أن أخاه واسع العلم هذا الذي انصاع الفقهاء والعلماء لرأيه في خلق القرآن يمكن أن يكون على ضلال، وما هو بأهل لأن يتفهم أمرا دقيقا في مسألة فلسفية كلامية كانت جدالا بين أهل السنة والمعتزلة فترة طويلة، تنقدح فيها القرائح وتشتبك فيها العقول وتأتي بالدقائق والنوادر والردود والحجج!

لكلِّ هذا كان المعتصم مترددا بين قناعته بما كان عليه أخوه من القول في خلق القرآن، ويزيد من هذا استمرار وزير المأمون أحمد بن أبي دؤاد -رأس المعتزلة- في حاشيته، وبين ما يراه من زهد وثبات وأخلاق الإمام أحمد الذي طارت شهرته في الآفاق وشهد له الكبار الأجلاء؛ حتى قال فيه الشافعي قبل موته: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أحدًا أتقى ولا أورع ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل»[1]، وبغداد في هذا الوقت هي مجمع العلماء والفقهاء والزهاد.

كان قلب المعتصم منقسما بين هاتين العاطفتين، وأراد حسم تردده هذا بالضغط على الإمام أحمد وامتحانه ثم رأى منه ما جعله يكف عنه بعدئذٍ لكنه منعه من الخطابة والتدريس، فهو في تصوره ينشر الضلالة بين الناس!!

حُبِس الإمام أحمد ووضع في القيود، ثم أُدخل على المعتصم الذي اندهش حين رآه شيخا كهلا وكان يظنه شابا حدث السن فيه روح تمرد وقلة علم وسذاجة، وكان الإمام أحمد في أواخر الخمسين من عمره، وقال له: لولا أنك كنت في يد مَنْ كان قبلي لم أتعرض إليك.

وجرت مناظرة في مسألة خلق القرآن لم يفهمها المعتصم بطبيعة الحال، وكان من في حضرته يحرضونه على أحمد حين استطاع إفحامهم حتى ختم الكلام أحمد بن أبي دؤاد بقوله: هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع، وهنا قضاتك والفقهاء فسلهم، فقال لهم: ما تقولون؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/ ٤١٩.

واستمرت المناظرة ثلاثة أيام، والمعتصم يسمع كلامًا لا يفهمه ويرى رجلًا ثابتًا زاهدًا يفحمهم، فكان يتلطف له ويقول: يا أحمد أجبني إلى هذا (القول بخلق القرآن) حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي. فيقول الإمام: يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله حتى أجيبهم إليها.

فلما خاب سبيل المناظرات ونقد الأفكار جاءت توازنات السياسة، فقال إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين، فعند ذلك حمى المعتصم واشتد غضبه، وأتى تحريض إسحاق هدفه فاعتبر المعتصم الأمر وكأنه هزيمة شخصية له، فغضب على الإمام أحمد وأمر بجلده.

وقد استمرَّ الجلد أمام المعتصم، والقوم يحاولون تحريض المعتصم على أحمد ويحاولون إثناء أحمد عن رأيه، فلا يزيده هذا إلا ثباتا؛ حتى فقد وعيه من كثرة السياط وعند ذلك أمر المعتصم بإطلاقه، فعاد الوعي إلى الإمام أحمد وهو خارج الحبس في (٢٥ من رمضان ٢٢١هـ)، وعُرِض عليه الماء وهو في شدة التعب فرفض وأكمل صوم يومه.

ثم ندم المعتصم على ما كان منه ندما كثيرًا، وكان يسأل عن حاله يوميًّا؛ حتى شفي ففرح المعتصم، وعفا الإمام أحمد عن كل من آذاه إلا أهل البدعة، وكان يقول: «ماذا ينفعك أن يُعذَّب أخوك المسلم بسببك؟».

وقفة مع المعتصم

تُوُفِّيَ المعتصم (٧ من ربيع الأول ٢٢٧هـ) بعد مرض بدأ في المحرم من هذا العام، وظل به حتى كان فيه أجله، وكان ولي عهده ابنه هارون.

يقال له المُثَمَّن؛ لأنه ثامن ولد العباس، وأنه ثامن الخلفاء من ذريته، ومنها أنه فتح ثمانية فتوحات، ومنها أنه أقام في الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام وقيل ويومين، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة، وأنه تُوُفِّيَ وله من العمر ثمانية وأربعون سنة، ومنها أنه خلف ثمانية بنين وثماني بنات، ومنها أنه دخل بغداد من الشام في مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة بعد موت أخيه المأمون[1].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٤.



١- التواضع والرفق

يروي وزيره ابن أبي دؤاد حين كان معه في فتح عمورية أن المعتصم سأله: ما تقول في البُسْر[١] يا أبا عبدالله؟ قلت: يا أمير المؤمنين نحن ببلاد الروم والبسر بالعراق. قال: صدقت قد وجهت إلى مدينة السلام فجاءوا بكباستين وعلمت أنك تشتهيه ثم قال: يا إيتاخ هات إحدى الكباستين فجاء بكباسة بسر فمد ذراعه وقبض عليها بيده وقال كل بحياتي عليك من يدي. فقلت: جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين بل تضعها فآكل كما أريد. قال: لا والله إلا من يدي. قال: فوالله ما زال حاسرا عن ذراعه ومادا يده وأنا أجتبي من الغدق وآكل حتى رمى به خاليا ما فيه بسرة[٢].

٢- رجل القوة والحرب

يقول ابن كثير: كان شهما وله همة عالية في الحرب ومهابة عظيمة في القلوب، وإنما كانت نهمته في الإنفاق في الحرب لا في البناء ولا في غيره[٣]، وهو لا يهتم بالتزيين ولا الزخارف بل بالقوة والمتانة كما يقول كاتبه الفضل بن مروان: «لم يكن للمعتصم لذة في تزيين البناء وكانت غايته في الإحكام، ولم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة في الحرب»، لكنه مع هذا تصدق بمائة مليون درهم بشهادة وزيره ابن أبي دؤاد[٤].

❋❋❋

(١) البُسر: جمع بُسْرة وهي ثمر النخل قبل أن يرطب. المعجم الوسيط ١/ ٥٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧١.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧٢، ٢٧٣.



الواثـــق بالله

وُلد هارون الواثق بالله (شعبان ١٩٦هـ) في طريق مكة، وتولى الخلافة وهو في الحادية والثلاثين من عمره، وكان أبيض اللون، مشربا حمرة، جميل المنظر، حَسَن الجسم، قاتم العين اليسرى، فيها نكتة بيضاء، وكان شاعرا ويروي الشعر، وكان محببا إلى عمه المأمون الذي كان يفضله عن بعض أولاده، كما كان هو يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته.

وكان الواثق هو النائب على بغداد حين انتقل عنها المعتصم مع الأتراك إلى سامراء.

وكانت أمه جارية رومية، ولكنها لم تتمتَّع بخلافة ابنها، إذ خرجت إلى الحج في العام الذي تولى فيه الخلافة فماتت في الحيرة (ذي القعدة ٢٢٧هـ)، فدفنت في الكوفة!! ولولا أن التاريخ لا ينقل كل شيء، لكان لنا أن نسأل: أيهما غلب في نفس الواثق؟ لذة الخلافة والسلطان أم غصة موت أمه؟؟.. إن للقلوب تاريخًا غير مكتوب!

***

بويع هارون الواثق بالخلافة في (٨ من ربيع الأول ٢٢٧هـ)، وكان على مذهب أبيه وعمه في القول بخلق القرآن، وعلى مذهب عمه في الإحسان إلى العلويين.

ومما يدل على صلاح الواثق وإيثاره مصلحة الأُمَّة ما فعله مع وزير أبيه محمد بن عبد الملك الزيات، إذ كان قد طلب مالا من أبيه فنصح الوزير أباه المعتصم ألا يعطيه إياه واستمع المعتصم لنصيحته، فأقسم الواثق لئن آل إليه أمر الخلافة ليقتلن محمد بن عبد الملك الزيات، فلما آل إليه الأمر اجتهد في البحث عمن يصلح مكانه للوزارة فلم يجد من هو مثله، فاستدعاه قائلًا: سأستبقيك خوفًا من خُلُوّ الدولة من مثلك، وسأكفِّر عن يميني، فإني أجد للمال عوضًا، ولا أجد عن مثلك عوضًا، وظل وزيره حتى مات الواثق[1].

---

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٣٢، ٢٣٣.



ازديـاد نفوذ الأتـراك

سار الواثق على خطى أبيه في تقديم الأتراك والاعتماد عليهم، ففي (رمضان ٢٢٨هـ) خلع الواثق على أشناس الأمير التركي، لقب السلطان، وتَوَّجَه وألبسه وشاحين من جوهر[١]، وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخاصة؛ حتى إذا تُوُفِّيَ الواثق في سنٍّ مبكرة كان وصيف -خَلَف أشناس- قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع إلى العرش الرجل الذي يرتضيه[٢]، وسيأتي ذلك معنا فيما بعد.

والواثق هو الخليفة الذي يمكن للمؤرِّخ أن يحمله مسئولية ما آل إليه حال الأتراك، فإنه طوال فترته «لم يقم بفعاليات عسكرية تذكر، فكان حكمه فترة ركود جعل الترك يشعرون بأهمِّيَّتهم ويتدخَّلون في السياسة، وبدل أن يقف الخليفة ضد هذا الاتجاه ويقصر فعاليتهم على النواحي العسكرية -كما كان يفعل المعتصم- نراه يسهل الطريق لهم بتعيينهم في الإدارة، فاتَّسع مدى نفوذهم، ولعلَّ ضعفه وقلة إدراكه مسئولان عن خطئه الخطير، وهو عدم تعيين ولي عهده بعده، ففتح للترك باب التدخل في آخر مراحل السلطة وهي اختيار الخليفة، فلم يترددوا في استغلال الفرصة؛ بل كانت لهم اليد الطولى في انتخاب المتوكل فكانت هذه سابقة جرت الويلات على العباسيين»[٣].

نكبة الكُتَّاب

وكانت في (٢٢٩هـ) حيث ظهر للواثق تلقي مجموعة من كتاب الدواوين للرشاوى، ويبدو أنه انتبه لذلك على إثر نقص واضح في بيت المال، فاستخلص منهم لخزانة الدولة كلٌّ على حسب جريمته فمنهم من أخذ منه مليون دينار فما أقلّ، كما عاقب بعضهم بالجلد على قدر ما فعل، فمنهم من ضرب ألف سوط وأكثر من ذلك وأقل، وكان حدثًا كبيرًا وحركة تطهير في صفوف عُمَّال الدولة امتدت لولاة الشُرَط (وهم مديرو الأمن بالتعبير المعاصر)، وتولى أمر التحقيق في هذا إسحاق بن إبراهيم في تحقيقات علنية شهدها الناس[٤].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧٤.

(٢) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/ ١٩٨.

(٣) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص١٣.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧٥.

حركات التمرد

١- تمرد أعراب الحجاز

تمردت قبيلة بني سليم في أرض الحجاز، وكانت البداية أنهم يقطعون طريق الناس ثم تطور الحال إلى أن صاروا يدخلون الأسواق فيأخذون ما شاءوا بالسعر الذي يحبون، ثم توسعت عمليات قطع الطريق حتى صارت كبيرة ومنظمة وقُتِل فيها بعض من أشراف القبائل من بني كنانة وباهلة، فأرسل إليهم والي المدينة المنورة سرية عسكرية صغيرة انضم إليها المتطوعون من الأنصار ومن العرب فقاتلوا بني سليم لكنهم انهزموا أمام الأعداد المتتالية التي قدمت إليهم دعما لهم، فتطور أمرهم إلى أن استولوا على المنطقة ما بين مكة والمدينة (٢٣٠هـ)، فبعث الواثق جيشًا يقوده أبو موسى التركي المعروف بـ «بغا الكبير»، فقاتلهم (شعبان ٢٣٠هـ) في عقر ديارهم وهزمهم وأسر منهم، ثم أخذ منهم ألف رجل من المعروفين بالإفساد والشر فحبسهم، وبعد انقضاء الحج فعل هذا -أيضًا- مع بني هلال الذين دفعوا إليه ثلاثمائة من أهل الإفساد فيهم ليتجنبوا حربا كحرب بني سليم، فحبسهم مع مجرمي بني سليم في المدينة المنورة[١].. لكن هؤلاء انتهزوا فرصة خروج بغا من المدينة ونفذوا عملية هروب كبيرة من سجنهم في المدينة لكنهم وقعوا في يد أهل المدينة الذين قاتلوهم قتالًا شديدًا؛ حتى قتلوهم جميعًا وأخذوا بثاراتهم الماضية[٢].

وكان بغا يثبت الأمن ويؤدب قبائل الأعراب التي جرت على المنوال ذاته مثل غطفان وثعلبة وفزارة وأشجع وبني كلاب، فكان معهم كما كان من قبل يأخذ منهم مجرميهم ويحبسهم[٣].

ومن حسن حظ بغا والخلافة أنه مكث في أرض الحجاز وشهد موسم الحج ولم يكن يعلم أن ثورة أخرى ستنشب قريبًا منه!

٢- تمرد انتحاري!!

وفي الشمال عادت ذكرى الخوارج إلى أرض الجزيرة الفراتية إذ تمرد محمد بن عمرو

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٠، ٢٨١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨١.

التغلبي (٢٣١هـ) من الخوارج في بلاد ربيعة، لكنه كان تمردًا محدودًا وانتحاريًّا، إذ لم يكن معه إلا ثلاثة عشر رجلًا فحسب، فاستطاع القائد العسكري للموصل غانم بن أبي مسلم بن حميد الطوسي أن يهزمه على الرغم من أنه خرج له في ثلاثة عشر رجلًا أيضًا! ثم بعث به أسيرًا إلى بغداد فقُتِل، وعلق رأسه إلى جوار غيره من المقتولين ليكون عبرة(١).

٣- تمرد كردي

وكان تمرد آخر قد قام به جماعة من الأكراد في نواحي أصبهان وطبرستان أخافوا الناس وقطعوا الطريق، فتصدى له وصيف الخادم التركي، فهزمهم ودخل بغداد (٢٣١هـ) ومعه نحو خمسمائة أسير منهم، قدم وصيف الخادم بجماعة من الأكراد نحو من خمسمائة في القيود، فكافأه الواثق بخمسة وسبعين ألف دينار، وقلَّده سيفا وخَلَع عليه(٢).

٤- ثورة في قلب بغداد

وفي هذه الأثناء كانت بغداد تشهد تمردًا آخر قاده أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم، وهو حفيد مالك بن الهيثم أحد النقباء الاثني عشر الذين بدءوا الدعوة في خراسان وكان في مجلس النقباء، وكان من أقرب الناس إلى أبي مسلم الخراساني.

وأبوه هو نصر بن مالك الذي كان أحد زعماء اللجان الشعبية لحماية بغداد في أثناء الانفلات الأمني في بداية ذلك القرن عند غياب المأمون عن بغداد (٢٠١هـ)، وكان أحمد ذا شخصية قوية وكان لمكانته من الدولة وتاريخ أبيه وجده أكثر جرأة على مهاجمة القول بخلق القرآن بل والتعريض بالخليفة ذاته، وذلك أنه كان صديقا لكبار المحدِّثين في وقته كيحيى بن معين وأحمد بن حنبل والدورقي وغيرهم، وكان هو من أهل العلم والدين والخير، وكانت له وجاهة ورياسة واعتداد بنفسه(٣).

وكان الواثق لتأثره بالمأمون، أشد الخلفاء في الدعوة إلى القول بخلق القرآن والإلزام به، وقد رأى من يجتمعون على أحمد بن نصر أنه خير من يمكن أن يقود الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما له من وجاهة ولما لآبائه من تاريخ وإنجازات في الدولة

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٤.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٢.

العباسية، فقام أحمد يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان على رأس ما ينهى عنه: القول بخلق القرآن، فاجتمع عليه جماعة الألوف من أهل بغداد، فتكونت نواة تنظيم سري أدى البيعة لأحمد بن نصر (شعبان ٢٣١هـ)، على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن، ولما هو عليه وأمراؤه وحاشيته من المعاصي والفواحش وغيرها. غير أن خطأ خطيرا في توقيت الخروج والثورة من رجلين من أتباع أحمد أدى إلى انكشاف الأمر كله، فقبض نائب بغداد على زعماء الحركة وأهمّ أتباع أحمد بن نصر، وأرسل بهم إلى الخليفة في سامراء (آخر شعبان ٣٣١هـ)[1]، فانتهت هذه الحركة قبل أن تبدأ، وسيأتي بنا ما صار إليه أمر أحمد بن نصر بعد قليل.

على أن حركة أحمد بن نصر هذه «تدل دلالة واضحة على قوة أعداء المعتزلة على الرغم من استمرار ثلاثة خلفاء على نشرها، فلا تستغرب سهولة ضربها (أي المعتزلة) سياسيًّا في عصر المتوكل»[2].

٥- تمرد في اليمامة

بعدما انتهت ثورة بني سليم وأقر بغا أمر الأعراب في الجزيرة اندلع تمرد آخر في بني نمير بعدها بعام ونيف (٢٣٢هـ) في اليمامة شرق الجزيرة العربية، وكان بغا الكبير ما زال في أرض الحجاز، فوجهه الواثق لحربهم، فعرض عليهم الأمان والتسليم فرفضوا، ولم يزل يواصل إرسال الرسل إليهم حتى قتلوا آخرهم وجرحوا رفيقه، فقاتلهم فلقي منهم عناء شديدًا، وهُزم في أكثر من جولة ثم شاء الله له فهزمهم، ثم قاتل بعدهم بني تميم فهزمهم -أيضًا- (١٥ من جمادى الآخرة ٢٢٣هـ)، ثم عاد إلى بغداد ومعه زعماء التمرد مأسورين[3].

تمكن الدولة الطاهرية

قامت الدولة الطاهرية بدورها خير قيام، إذ حملت عبء مواجهة التمردات على الخلافة كتمرد بابك الخرمي (٢٠٢هـ)، والمازيار بن قارن (٢١٨هـ) ومحمد بن القاسم العلوي (٢١٩هـ) في الطالقان، والخوارج في خراسان، فإما قضوا عليها جزئيا أو كليا، واكتشف

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٢، ٢٨٣.
(٢) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص٣٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٨ وما بعدها.

الطاهريون مؤامرة الأفشين ضد المعتصم فكان هذا عملًا كبيرًا جليلًا، وحمل الطاهريون عبء إقرار المشرق ولم يكن هذا بالأمر السهل، وأهمُّ من كل ما سبق أنه لم تَبْدُ من الطاهريين بوادر استقلال أو انفصال عن دولة الخلافة!

وحين تُوُفِّيَ عبد الله بن طاهر (١١ من ربيع الأول ٢٣٠هـ)[١] كانت موارد ولايته ٤٨ مليون درهم سنويًّا، وهو رقم كبير يدل على حسن السياسة والإدارة، وقد كان عبد الله هذا هو أفضل حكام الدولة الطاهرية، فقد أزال «فتن الخوارج في خراسان، ولم يتهاون مع حكام الأقاليم الذين ظلموا الرعية، وجمع الفقهاء من العراق وخراسان، وأمرهم بوضع كتاب عن الأرض وملكيتها وأساليب الري واستخدام الماء، وألزم أهل دولته باتباع ما جاء في الكتاب»[٢].

وكان الطاهريون يشرفون على بلاد ما وراء النهر التي تعد إحدى ولاياتهم وعهدوا بها إلى السامانيين؛ حتى كان عهد الواثق الذي فصل إقليم ما وراء النهر عن سلطة الطاهريين في خراسان وجعل ولايتهم على المستوى ذاته تابعة للخلافة مباشرة.

وتتعدد التفسيرات في هذا، إما لرفع شأن السامانيين وقد أبدوا هم -أيضًا- كفاءة في إدارة هذه المناطق، أو رفعا للعبء عن الطاهريين الذين بدأ حالهم في التراجع في ذلك الوقت.

ظلت الدولة الطاهرية نصف قرن في خراسان، حكم فيها ستة هم: طاهر بن الحسين، ثم ابناه: طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر، ثم طاهر بن عبد الله بن طاهر، ثم ابنه محمد بن طاهر، ثم ابنه طاهر بن محمد.. حتى زالت على يد الدولة الصفارية كما سيأتي معنا فيما بعد.

العلاقة مع الروم

مات توفيل بن ميخائيل (٢٢٧هـ)، وكان ابنه ميخائيل صغيرا، فحكمت أمه تيودورة[٣]، فجرى اتفاق بين المسلمين والروم لتبادل الأسرى، وكان عدد الأسرى المسلمين

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧٩.
(٢) د. عصام الدين الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ص٣٣.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٧٣.

٤٣٦٢ أسيرًا، بينهم ثمانمائة من النساء والأطفال، ومائة من أهل الذمة[١]، بينما كان عدد أسرى الروم[٢] مختلفا فيه بين المصادر ففيما تشير روايات الطبري أنهم كانوا أقلَّ كثيرًا تذكر روايات أخرى أن عددهم كان أكبر من أسرى المسلمين بكثير[٣].

وهذا الخلاف راجع إلى أن سفارة الروم ذكرت عددا أكبر لأسرى المسلمين ثم اتضح فيما بعد أنهم أقلَّ من هذا؛ ولذلك سعى الواثق إلى شراء الرقيق الروم من كل المملكة ليساوي بهم أسرى المسلمين ولما لم يكتمل العدد أفرج عمَّا في قصره من الرقيق حتى النساء والعجائز وما إلى ذلك، ثم اتضح في لحظة الفداء أن عدد الروم عند المسلمين أكبر من عدد المسلمين عند الروم.

وقد تولَّى هذه العملية الأمير التركي خاقان الخادم (المحرم ٢٣١هـ)، فنُصِب جسران عند نهر قريب من طرسوس، «فإذا أرسل الروم مسلمًا أو مسلمة في جسرهم فانتهى إلى المسلمين كَبَّر وكَبَّر المسلمون، ثم يرسل المسلمون أسيرًا من الروم على جسرهم فإذا انتهى إليهم تكلم بكلام يشبه التكبير أيضًا، ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام بدل كل نفس نفس، ثم بقي مع خاقان جماعة من الروم الأسارى فأطلقهم للروم حتى يكون له الفضل عليهم»[٤].

وقد وقع لأسرى المسلمين محنة لم يتوقعوها في أثناء هذه المبادلة.. سنأتي لها بعد قليل!

ووقعت -أيضًا- غزوة بحرية (٢٣٠هـ) قادها إبراهيم بن هاشم في بحر البصرة فبلغ أداني بلاد سرشب وبعض قراها وأصاب سبيًا، لكن المأساة التي تمَّت في عهد المنصور تكرَّرت مرَّة أخرى؛ فقد أصيبت مراكب المتطوعين (٢٣١هـ) في بحر البصرة بين جنابا وسينين وأصيب عدد منهم[٥].

على خطى المأمون.. بل أسوأ!

وسار الواثق على خطى عمه المأمون في مسألتين: تقريب العلويين، والاعتزال.

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٣، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٨٨.

(٢) كان كثير من أسرى الروم يدخلون الإسلام وينحازون إلى المسلمين، ومن يُطلق عليهم أسرى الروم فالمقصودون به هم من ظلوا في الأسر على دينهم وولائهم للروم.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٥.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٦ وما بعدها، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٨.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٢.

فأما تقريب العلويين، فيلخصه قول القاضي يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق: ما مات وفيهم فقير(١).

وكان الواثق -كأبيه المعتصم وعمه المأمون- يحبُّ الاعتزال، ويبغض ما يسميه «التقليد» وأهله، لذا امتحن الناس في القول بخلق القرآن وأرسل إلى القضاة في الأمصار ليمتحنوا الناس، وأمرهم ألا يقبلوا شهادة إلا من رجل قال بالتوحيد(٢)، وحُبس بهذه التهمة خلق كثير(٣).

ولا أوضح على هذا من واقعتين لهما دلالتهما القوية: موقفه من أحمد بن نصر الخزاعي، وجريمته المسماة «امتحان الأسرى».

١- مقتل أحمد بن نصر الخزاعي

استدعى الواثق أحمد بن نصر إلى مجلسه، وحضر عنده القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي، فحضر أحمد موقنا بنهايته فأتى مستعدا للقتل، غير أن الواثق لم يحقِّق معه في التمرد الذي قاده بل امتحنه في مسألة خلق القرآن، فثبت أحمد بن نصر الخزاعي وظل ينافح عن القرآن وعن السنة ويخاطب الخليفة بما يعلم أنه يكرهه، فحكم جلساء الخليفة ممن على مذهبه بكفره واستحلال دمه، فقام الواثق إليه فقتله بنفسه (٢٨ من شعبان ٢٣١هـ) وهو يظن أنه يبلغ أجرًا عند الله بهذا(٤)!!

ثم قطع رأسه فعلقه في الجانب الشرقي في بغداد فترة، ثم في جانب الغربي، وعليه حرس مخافة أن ينزله الناس ويكرمونه، وعلق في أذن الرأس رقعة مكتوب فيها: «هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه»، وظل هذا الموضع معروفا في بغداد باسم «رأس أحمد بن نصر»، وسجن الواثق أصحاب أحمد بن نصر، وسُمُّوا «الظَلَمَة»، ومنع عنهم

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٠٧.

(٢) كان المعتزلة يسمون أنفسهم «أهل العدل والتوحيد»، وكان من تنزيه الله عندهم وتوحيده الإيمان بخلق القرآن!

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٧.

(٤) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩٣، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٣.

الزيارة وقيدهم داخل السجن، وأسوأ من هذا أنه منع عنهم الأرزاق التي تعطى للمساجين[1]!

وكان مقتل أحمد بن نصر خبرا حزينا على العلماء وعلى عامة أهل بغداد، فلقد كان أحمد نفسه من العلماء الأكابر، وقد تتلمذ على يد الأجلاء كالإمام مالك وسفيان بن عيينة وحماد بن زيد، كما نقل عنه جمع من الأكابر -أيضًا- كيحيى بن معين الذي قال فيه: ختم الله له بالشهادة! وأحمد بن حنبل الذي قال عنه: ما كان أسخاه بنفسه لله!

إن قتل الواثق لأحمد بن نصر بتهمة القول بخلق القرآن لا بقيادة تمرد ضد الخليفة لهو أكبر دليل على عظم هذه المسألة في ذهن الواثق وتمسكه بها، وليس الأمر كما ظن البعض من أنها كانت عقوبة على التمرد أُلبست ثوبًا دينيًّا، فذلك ما يرده الأمر الثاني من سلوك الواثق خطى المأمون.

٢- امتحان الأسرى

فحين قدم خاقان الخادم من بلاد الروم بعد أن تم تبادل الأسرى بينه وبين الروم، كان في صحبته مجموعة من أعيان البلاد المتاخمة للحدود مع الروم، فأمر الواثق بامتحانهم بخلق القرآن، وأنَّ الله لا يُرى في الآخرة[2]، فأجابوا إلى القول بذلك إلا أربعة منهم، فأمر الواثق بقتلهم[3]!!

ثم أمر -أيضًا- بامتحان الأسرى المسلمين الذين تم تحريرهم في المسائل نفسها، فمن

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) ردَّ المعتزلة النصوص التي تؤكد أن المؤمنين يرون الله في الآخرة، فتأولوا الآيات القرآنية مثل (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) كما شككوا في الأحاديث مثل (إنكم ترون ربكم يوم القيامة... الحديث)، وحجتهم في هذا أن إثبات هذه الرؤية يعني أن الله جسم موجود في مكان وتدركه الأبصار وهذا مما ينافي تنزيه الله وتقديسه، وقالوا بأن القائل بهذا إنما يتجاوز في حق الله إذ ينزله منزلة المخلوقات والأشياء. وصارت هذه المسألة وغيرها -كخلق القرآن- مسألة عقيدة من لم يوافق قولهم فيها فهو ضال كافر.

والخطأ في موقفهم هذا يكمن في أكثر من أمر: أولها أن الصحابة والتابعين وسلف الأمة لم يفهموا من هذه الآيات والأحاديث انتقاصا من تنزيه الله بل قرأوها وفهموها بالمعنى البسيط الذي يفهمه أي مسلم، والثاني: أن الرؤية لا تعني التحيز ولا التجسم ولا تنافي أن الله لا تدركه الأبصار، فالإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو غير مجرد الرؤية، كما أن الأمور في يوم القيامة غير مثيلاتها في الدنيا فيحكم عليها بمثل ما نحكم عليه في الدنيا.

والخلاصة التي نؤكد عليها في سياق العرض التاريخي فقط: أن هذه المسائل التي تجاوزها السلف دون أن يناقشوها أصلا تحولت في عهد الكلام والجدل إلى مسائل في صلب العقيدة عليها يُقتل الناس ويسجنون ويعذبون! فالأمر في تصورهم كان عظيما ينبغي أن تكون له هذه العقوبات.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٨٥.

أجاب إلى القول بهذا يتم استبداله، ومن رفض يُترك في أيدي الروم أسيرًا ولا يستبدل!! «وهذه بدعة صلعاء شنعاء عمياء صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا عقل صحيح، بل الكتاب والسنة والعقل الصحيح بخلافها»[1].. بل هذه إحدى الجرائم البشعة التي لم تحدث من قبل، وهي دليل على أن فساد العقول يفضي إلى فساد الأخلاق وضياع المروءة! وهي وحدها كافية لتكون عارا خالدا للواثق، وهو بهذا أسوأ من المأمون وأشد في تلك الأمور؛ حتى «أصبح الاعتزال رمز المواطنة الكاملة»[2]، وكان هذا سببًا في سخط الناس عليه، فهو قد «شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم وأوجدهم السبيل إلى الطعن عليه»[3].

وكان وزيره المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد معه مثلما كان مع عمه وأبيه، وهو نموذج لمن استعمل نفوذه وقربه من السلطان في تصفية معارضيه، وكانت خاتمته عبرة كما سيأتي.

غير أن الواثق تغير رأيه في آخر أيامه، فرُوِي أنه حين مات كان قد تاب من القول بخلق القرآن[4]، وسبب هذا فيما كما حكاه ابنه محمد (المهتدي بالله) «أن شيخا دخل يومًا على الواثق فسلم فلم يرد عليه الواثق بل قال: لا سلم الله عليك.

فقال: يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك معلمك، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ [النساء: ٨٦] فلا حييتني بأحسن منها ولا رددتها.

فقال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين الرجل متكلم!

فقال الواثق لابن أبي دؤاد: ناظره.

فقال ابن أبي دؤاد: ما تقول يا شيخ في القرآن، أمخلوق هو؟

فقال الشيخ: لم تنصفني، المسألة لي. فقال ابن أبي دؤاد: قل.

فقال الشيخ: هذا الذي تقوله علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أو ما علموه؟ فقال ابن أبي دؤاد: لم يعلموه.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٨.

(٢) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص٣٥.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣١٣.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/ ٣٤٠. ولا يضر الرواية أن تكون من طريق ابنه محمد (المهتدي بالله)، ذلك أنه من الصالحين الأتقياء.

قال: فأنت علمت ما لم يعلموا؟!! فخجل وسكت، ثم قال: أقلني[١] بل علموه.

قال: فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت؟ أما يسعك ما وسعهم؟ فخجل وسكت.

فأعجب الواثق به، وأمر له بأربعمائة دينار فلم يقبلها الرجل، ثم دخل منزله فاستلقى على ظهره وجعل يكرر قول الشيخ: أما وسعك ما وسعهم؟ وسقط من عينيه ابن أبي دؤاد، ولم يمتحن بعد ذلك أحدًا في هذه الأمور[٢].

وقفة مع الواثق

في (٢٤ من ذي الحجة ٢٣٢هـ) تُوُفِّيَ الواثق، وهو ما زال في السادسة والثلاثين من عمره، بعد خلافة قصيرة لم تكمل السنوات الست: خمس سنين وتسعة أشهر[٣]! وقد رفض الواثق أن يعهد لأحد من بعده، لا ندري هل هذا ورع أم أنه طول أمل، لكن ورد عنه قوله: «لا يراني الله أتقلدها حيا وميتا»[٤].

«كان عصر الواثق عصر هدوء نسبي»[٥]، وكان متفقدا لرعيته يحسن إلى الناس، وقد «فرق في أهل الحرمين أموالًا لا تُحصى؛ حتى إنه لم يوجد في أيامه بالحرمين سائل»[٦]، وقد أعطى المال لأهل فرغانة لسد بثق وحفر نهر هناك. وشجع التجارة فأمر (٢٣٢هـ) بترك جباية أعشار سفر البحر لتنشيط الحركة التجارية في الجنوب مع الهند والصين[٧]؛ ولهذا كانت حياة الناس ميسورة في عهده، وفي هذا قال الشاعر علي بن الجهم:

قد عم بالإحسان في فضله ... فالناس في خفض وفي لين

ما أكثر الداعي له بالبقا ... وأكثر التالي بآمين[٨]

وروي أن الواثق دخل عليه يومًا مؤدبه فأكرمه إكراما كثيرًا فقيل له في ذلك فقال:

---

(١) أَقِلْني: أي اعذرني لقد أخطأت.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٥٤.

(٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣٩٣.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٨.

(٥) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص٣٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٩٢.

(٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٨، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٠.

(٨) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩١.



هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني برحمة الله.

ومن شعره قوله:

هِـــيَ الْمَقَـــادِيرُ تَجْـــرِي فِي أَعِنَّتِهَـــا فَاصْـبِرْ فَلَـيْسَ لَهَـا صَـبْرٌ عَـلَى حَـالِ

ومن شعر الواثق قوله:

تَـــنَحَّ عَـــنِ الْقَبِـــيحِ وَلَا تُـــرِدْهُ وَمَـــنْ أَوْلَيْتَـــهُ حُسْـــنًا فَـــزِدْهُ

سَـــتُكْفَى مِـــنْ عَـــدُوِّكَ كُـــلَّ كيـــدٍ إِذَا كَـــادَ الْعَـــدُوُّ وَلَمْ تَكِـــدْهُ

ولما احتضر جعل يردد هذين البيتين:

المـــوت فيـــه جمـــع الْخَلْـــقِ مُشْـــتَرِكٌ لَا سُـــوقَةٌ مِـــنْهُمْ يَبْقَـــى وَلَا مَلِـــكُ

مَـــا ضَرَّ أَهْـــلَ قَلِيـــلٍ فِي تَفَـــاقُرِهِمْ وَلَيْسَ يُغْنِي عَنِ الْأَمْلَاكِ مَا مَلَكُوا

وبينما يصفه البعض بأنه ذو شخصية كبيرة[١] وكان حاكمًا ممتازًا كريمًا صبورًا[٢]، يراه آخرون نكرة في السياسة والإدارة[٣]، ويؤيد القول الثاني ما ورد من شعر دعبل بن علي الذي كتب عند تولي الواثق:

الْحَمْـــدُ للهِ لَا صَـــبْرٌ وَلَا جَلَـــدُ وَلَا عَـزَاءٌ إِذَا أَهْلُ الْهَـوَى رَقَـدُوا

خَلِيفَـةٌ مَـاتَ لَـمْ يَحْـزَنْ لَـهُ أَحَـدٌ وَآخَـرُ قَـامَ لَـمْ يَفْـرَحْ بِـهِ أَحَـدُ

فَمَـــرَّ هَـــذَا وَمَـــرَّ الشُّـــؤْمُ يَتْبَعُـــهُ وَقَـامَ هَـذَا فَقَـامَ الْوَيْـلُ وَالنَّكَـدُ

ويجمع بين هذين الرأيين المتناقضين قولُ بعض المؤرِّخين بأنه أقلَّ الخلفاء في وضوح الشخصية[٤].

* * *

---

(١) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/ ١٩٨.

(٢) سيد أمير علي: مختصر تأريخ العرب، ص٢٥١.

(٣) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص١٣.

(٤) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٤١.

المتوكل على الله

كان أسمر حسن العينين نحيف الجسم خفيف العارضين أقرب إلى القصر، وكان عهد المتوكل كأنه رد فعل على الخلفاء الذين سبقوه، لا سيما المأمون والمعتصم والواثق، وقد كان رد فعل متطرفًا في الاتجاه الآخر، وسنرى كيف أن مواقفه من كل القضايا تقريبًا كانت على النقيض تمامًا!

وكما سبق ذكره في منهج الكتاب فسنستعرض تاريخ المتوكل على الله حسب الموضوعات التي هي أقرب للانسجام التاريخي في الفترات المستقرَّة من تاريخ الخلفاء كما كانت حال الخليفة المتوكل.

المتوكل والأتراك

كان نفوذ الجند الأتراك قد ازداد جدًّا حتى أصبحوا الآمر الناهي في شئون الدولة مهما كبرت؛ حتى مسألة الخلافة كان أمرها بيدهم، وحين مات الواثق كانت رغبة الأتراك في تولية ابنه محمد غير أن سنه الصغيرة وقفت حائلا دون تنفيذ مرادهم، ولعلَّهم خشوا أن يُثير هذا عامة العرب وأهل البلاد إذ سيصير واضحًا أن الخلافة في أيديهم فعليًّا، فربما تهيبوا من هذا الموقف وتداعياته، ومن ثم ذهبوا بالخلافة إلى جعفر المتوكل الذي كان في السادسة والعشرين من عمره مؤملين أن يكون الأمر فعليًّا بيدهم في وجود واجهة مقبولة(١).

وكان أول ما فعله المتوكل أن أمر بإعطاء الشاكرية(٢) من الجند راتب ثمانية شهور، بينما أعطى للأتراك أربعة أشهر، وللمغاربة ثلاثة أشهر(٣). فيما يبدو أنها محاولة لتقريب عنصر غير الأتراك إليه.

وعلى عكس ما فعل الواثق من ترك أمر ولاية العهد -أو ربما تَعَلُّمًا من الدرس- فما هي

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٣.

(٢) الشاكري: الأجير المستخدم، وهو معرب من جاكر. انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط ص٥٣٨. والشاكرية هم أحد الفرق العسكرية للدولة العباسية.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٣.



إلا شهور حتى ولى المتوكل ابنه محمد المنتصر الحجاز واليمن وعقد له على ذلك كله في رمضان (٢٣٣هـ)[١]، في خطوة بدت تحاول ترسيخ سلطان العرب، ففي ذلك الوقت كان محمد يبلغ من العمر عشر سنوات فقط، فكأن المتوكل أراد منذ البداية حصار النفوذ غير العربي في الخلافة.

في العام التالي (٢٣٤هـ)، وذات ليلة سمر وخمرٍ صدرت عن المتوكل إساءات للحاجب التركي إيتاخ[٢]، الذي هو أقوى رجال الدولة وأكثرهم حرسًا ونفوذًا، فهمَّ إيتاخ أن يقتل الخليفة، ثم اعتذر إليه المتوكل مُذَكِّرًا إياه بأنه منه في مقام الأب من ابنه والمربي من ربيبه، غير أن هذا الاعتذار ما كان يكفي لطمأنة الخليفة، فأوحى إلى أحد أتباعه أن يقنع إيتاخ بالذهاب إلى الحج هذا العام حتى اقتنع، وبهذا أبعده المتوكل عن حاضرة الخلافة وقتًا جيدًا، ولمزيد من إخفاء ما يدبره له بالغ في إكرامه وجعله الوالي على كل بلدة ينزل بها وأمر الولاة الذين يمر بهم إيتاخ بتعظيمه وإكرامه، وخرج إلى الحج في موكب عظيم، وتولى الحجابة (١٨ من ذي القعدة ٢٣٤هـ) القائد التركي وصيف بدلًا عنه[٣].

وما كاد يعود إيتاخ إلى سامراء حتى استقبلته هدايا الخليفة في الطريق إليها، ثم وصلته رسالة من إسحاق بن إبراهيم (نائب بغداد) أن الخليفة رأى أن يأتي إلى بغداد أولًا؛ لكي يستقبله وجوه الهاشميين، فما إن دخل إلى بغداد حتى قبض عليه إسحاق بن إبراهيم فحبسه، ثم قُتل داخل سجنه (٥ من جمادى الآخرة ٢٣٥هـ)، وقد علَّق الطبري بعبارة تدل على نفوذ إيتاخ الواسع «لو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه ولو دخل إلى سامرا فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك»[٤].

وفي آخر هذا العام، وتحديدا (٢٧ من ذي الحجة ٢٣٥هـ)، أخذ المتوكل العهد من بعده لأولاده الثلاثة وهم: محمد (المنتصر بالله)، ثم محمد (أو الزبير) المعتز (المعتز بالله)، ثم إبراهيم وأعطاه لقب (المؤيد بالله)، وجعل لكلٍّ منهم الإشراف على البلاد التي تقع تحت سلطة

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) وأصله عبد من بلاد الخزر التحق بخدمة المعتصم ثم ظهرت منه مواهب القتال والفروسية فارتفعت مكانته في الدولة أيام المعتصم والواثق والمتوكل، وتولى كثيرًا من الأعمال الإدارية المهمة، فهو قائد جيش المغاربة والمسئول عن دار الخلافة، والمسئول عن تنفيذ عقوبات الأسر والحبس. الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٠٠.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٠٠.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٠٢، ٣٠٣.

الخلافة، فالمنتصر بالله كان له الإشراف على مصر والشمال الإفريقي وثغور الشام والعراق وبلاد اليمن والحجاز والعراق وفارس، والمعتز بالله كان له الإشراف على خراسان وما والاها وأرمينية والري وأذربيجان، وأما المؤيد بالله فكان له الإشراف على الجيوش في دمشق وحمص والأردن وفلسطين. فكان الواحد منهم يستنيب الولاة في حكم هذه البلاد ويرجعون إليه، وكانت تُضْرب السِّكَّة (العملة) في البلاد باسم المتولي عليها من أبناء الخليفة[(١)]. وفي مثل هذه الخطوة محاولة حصار مبكر لنفوذ الأتراك في السلطان على البلاد.

وكان من أهمِّ وأخطر ما قام به المتوكل للخروج بالخلافة من نفوذ الأتراك هو محاولته تغيير عاصمة الخلافة، وقد بدأ هذا بعد شهور قليلة من توليه حين استقرَّ في المدائن (جمادى الأولى ٢٣٣هـ) ، غير أن الأمر لم يكتمل، فكرره مرة أخرى بعدها بعشر سنين حين اتخذ القرار الأجرأ بنقل عاصمة الخلافة إلى دمشق (ذي القعدة ٢٤٣هـ)، معقل العرب وحاضرة الخلافة الأموية السابقة، وقد وصلها (صفر ٢٤٤هـ) في موكب عظيم فخم، وبدأ في نقل الدواوين (الوزارات) وبناء القصور له ولحاشيته، غير أن جوَّ دمشق لم يلائمه، فهي أكثر برودة من بغداد وأكثر أمطارا وثلوجا، ثم إن وجوده المفاجئ فيها هو وحاشيته الكبيرة سبب أزمة اقتصادية في دمشق، زاد من تفاقمها شح الغذاء بسبب انقطاع الطرق لما نزل بها من الأمطار والثلوج، فكان طبيعيًّا -والحال هذا- أن يراها غير مناسبة لمقام الخلافة، فعاد إلى سامراء بعد إقامته بدمشق شهرين وعشرة أيام، وعاد الفرح لأهل العراق بعد أن أصابهم خبر انتقال حاضرة الخلافة من بلادهم بحزن شديد[(٢)].

المتوكل ورجال الدولة

ولم يكمل المتوكل شهرين في الخلافة حتى بدأ في حركة تطهير لرجال الدولة، وكان أول من بدأ به الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، حيث قبض عليه (٧ من صفر ٢٣٣هـ)، وهو الوزير الذي كان الواثق قد نوى إبعاده لولا أن لم يجد له بديلًا في ذات كفاءته، ويبدو أن ذلك الوزير استمرَّ على غروره واعتداده بنفسه ولم يتعظ مما حدث له حين عادى الواثق من قبل، فكان أن كرر السيرة ذاتها بين الواثق والمتوكل، ولم تكن العلاقة جيدة بين الواثق والمتوكل في

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٠٦ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٧، ٣٢٦، ٣٢٧.

أمور كثيرة، فكان ابن الزيات يحرض الواثق على المتوكل ويزيد من غضبه عليه، ثم كانت القاصمة حين مات الواثق فسعى ابن الزيات في خلافة محمد بن الواثق وفي جمع الأمراء عليها، وكل هذا أمام المتوكل الذي كان موجودا في دار الخلافة فلم يعامله ابن الزيات إلا بالإهمال والاستخفاف[1].

لكن المتوكل مكث شهرين إلا قليلًا وهو يحتفظ بالوزير ابن الزيات قريبًا منه ومستشارًا له، فلعلَّ ابن الزيات قد ظن بأنه مهما فعل في الأمراء فإنهم لا غنى لهم عنه حين يصيرون خلفاء! لكن ظنه قد خاب هذه المرة!

قبض المتوكل على ابن الزيات، وصادر أمواله وأملاكه التي بلغت تسعين ألف دينار، وأنزل به العذاب في السجن فكان يُحرم من النوم ومن الكلام ومن الجلوس، بل أجبروه على الوقوف، ثم ألقي به في النار فمات حرقًا (١١ من ربيع الأول ٢٣٣هـ)[2]، وكان قد دعا على نفسه بالموت حرقًا كما سيأتي ذلك بعد قليل!

ثم استكمل المتوكل (٢٣٣هـ) حركة التطهير في رجال الدولة، فأعاد الحركة ذاتها التي نفذها الواثق من قبل، فصادر أموال عمال الدواوين وكبار رجال الدولة الذين ثبت عليهم الرشاوى والفساد والاستكثار من الأموال، فصادر أموالهم وعزلهم من وظائفهم[3]. ولا نستبعد -من قراءة تاريخ المتوكل- أن يكون من أهمِّ أهداف هذه الحركة إبعاد ذوي الولاء للواثق والمعتصم والمأمون الذين يعد عصر المتوكل انقلابًا كاملًا على سياستهم.

ثم لم يمض شهران على مقتل ابن الزيات، وبالتحديد في (جمادى الأولى ٢٣٣هـ) حتى استجيبت دعوة أحمد بن أبي دؤاد على نفسه، فأصيب بالفالج[4]، وهو زعيم المحنة التي نزلت بالعلماء والناس في فتنة خلق القرآن، فمكث على هذه الحال أربع سنوات، ثم ازداد الحال سوءا حين تنكر له المتوكل فعزله عن القضاء، وأتى مكانه بواحد من أئمة السنة وهو يحيى بن أكثم (٢٠ من صفر ٢٣٧هـ)، ثم أمر في الشهر التالي (ربيع الأول ٢٣٧هـ) بمصادرة أموال ابن أبي دؤاد التي بلغت مائة وأربعين ألف دينار أموالًا وجواهر وستة عشر مليون درهم

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٤، ٢٩٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٥، ٢٩٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٧.
(٤) الفالج: هو مرض الشلل النصفي.

أملاكًا وضياعًا، وحُبِس ابنه محمد (٣ من ربيع الآخر٢٣٧هـ)، ثم نفى بقية أهله من سامراء إلى بغداد (٧ من شعبان ٢٣٧هـ)! ومكث على هذا الحال ثلاث سنوات أخرى حتى مات (٢٣ من المحرم ٢٤٠هـ) وقد رأى في حياته موت ابنه (٢٠ من المحرم ٢٤٠هـ)[١]، فكانت نهايته بعد حياته عبرة وعظة!

فعظة في الذل بعد العزة، وفي المرض بعد الصحَّة، وفي تنكر السلطة بعد النفوذ فيها، وفي إهانة الخلفاء بعد الاستحواذ عليهم، وفي تذوق الجزاء من جنس العمل.. ولعلَّ كل من استعان بالسلطة والنفوذ لإجبار الناس على رأيه أن يعتبر بحياة ابن أبي دؤاد!

وقد ذهبت هذه السيئة بما له من حسنات ومكارم، قال الصولي: لم يكن بعد البرامكة أكرم منه، ولولا ما وضع من نفسه من محبة المحنة لاجتمعت عليه الإنس. وقد أورد الخطيب البغدادي في ترجمته حكايات عن كرمه وفصاحته وأدبه وحلمه ومبادرته إلى قضاء الحاجات!

وممن أصابه غضب المتوكل من رجال الدولة الكبار الطبيب النصراني الشهير بختيشوع، فنفاه إلى البحرين وصادر أمواله (٢٤٣هـ)، وقد كان بختيشوع قد بلغ في الدولة مكانة عظيمة.

وأما تفسير ما وقع بابن الزيات وابن أبي دؤاد، فذلك حينما دخل عبد العزيز بن يحيى الكتاني على المتوكل فقال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعجب من الواثق! قتل أحمد بن نصر الخزاعي وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن.

فوجل المتوكل من كلامه، وساءه ما سمع في أخيه الواثق، وأراد أن يطمئن إلى هذا فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال المتوكل: «في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر».

فقال ابن الزيات: يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إنْ قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا[٢].

ثم دخل عليه هرثمة فسأله المتوكل فقال: «قطعني الله إربًا إربًا إن قتله إلا كافرًا».

ثم دخل عليه ابن أبي دؤاد فسأله المتوكل فقال: «ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافرًا».

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٨، ٣١٤، ٣١٩.

(٢) أي لم يقتل الواثق أحمد بن نصر إلا لكفر أحمد!!

وبعد هذه الواقعة بشهور، قال المتوكل: فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فإنه هرب فاجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه إربًا إربًا. وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده - يعني بالفالج- ضربه الله له قبل موته بأربع سنين.

المتوكل وعلم الكلام

ذكرنا ما فعله المتوكل بابن أبي دؤاد بعدما تنكر له في عام (٢٣٧هـ)، ثم بدأ المتوكل في تصحيح المسيرة، ففي يوم عيد الفطر (٢٣٧هـ) أمر بإنزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي التي لم تزل مصلوبة، وأن تسلم جثته ورأسه إلى أهله، فكان خبرا سعيدا طار له أهل بغداد فرحا، وشيعت جنازته فكانت حاشدة هادرة، بل بالغ الناس في التمسح بالنعش، وبالجذع الذي صُلِب عليه حتى أمر المتوكل نائب بغداد بردعهم عن مثل هذا التقديس، ثم أصدر المتوكل قراره إلى كل بلاد الخلافة بالمنع من ممارسة علم الكلام والكف عن القول بخلق القرآن، والانشغال بتدريس العلوم الشرعية دون الفلسفة، وتهدد من مارس علم الكلام بالسجن مدى الحياة[١]!

ثم كَرَّم الإمام أحمد بن حنبل فاستدعاه إليه في سامراء، وأمر له بجائزة غير أن الإمام أحمد لم يقبلها، فأمر له بكسوة من ملابسه فقبلها على استحياء منه، وظل المتوكل مستضيفا أحمد بن حنبل إلى جواره في سامراء، ويستشيره في تعيين القضاة والولايات وينفذ مشورته، وكان يرسل إليه من طعامه الخاص يوميًّا، على أن أحمد كان يتجنب الأكل من طعامه ورعًا وحرصًا؛ حتى كاد أن يموت من الجوع لولا أن عاد إلى بغداد سريعًا!

كما كرم غيره من علماء أهل السنة مثل الزبير بن بكار إذ عينه مؤدبا لولده، ثم عينه على قضاء مكة، وكان غالب قضاة المتوكل على مذهب مالك وهو مذهب أهل المدينة السني، وترك المتوكل إسناد أي أعمال للمعتزلة[٢].

ومنذ تلك الأيام عادت الأيام سيرتها فارتفع أهل السنة ومذهبهم وذهبت أيام المعتزلة[٣].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٤، ٣١٥.
(٢) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٩ (مقدمة د. صالح العلي).
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٣٥١، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣١، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٧١.

المتوكل وأهل الذمة

وجريا على سياسة رد الفعل المتطرف في الاتجاه الآخر كانت سياسة المتوكل مع أهل الذمة، ونحتاج في هذا الباب أن نرجع إلى الوراء قليلًا لننظر في مقدمات هذا الموضوع.

لقد عاش أهل الذمة من غير المسلمين عصرهم الذهبي من التسامح في ظلِّ الدولة الإسلامية، وقد اعتمدت الدولة الإسلامية عليهم في الكثير من الأعمال الإدارية، وتمتَّعوا بحريتهم الدينية وبناء الكنائس والبيع والأديرة، وكان الزعماء الدينيون لليهود والنصارى والمجوس هم ممثلي طوائفهم في قصر الخلافة.

وكان الأعلام من أهل الذمة من جلساء الخليفة وخاصته، فجرجيس بن بختيشوع(١) الطبيب كان يجالس المنصور ويسامره؛ بل إنه حين مرض كان المنصور يطمئن عليه يوميًّا، وتمنى أن لو يسلم فعرض عليه الإسلام فأبى جرجيس(٢).

وقد تجاوز الأمر كونهم يتمتَّعون بحريتهم إلى ما هو فوق ذلك، فقد وقعت منهم كثير من المظالم على المسلمين من خلال مناصبهم الإدارية حتى إن المسلمين لم يجدوا غير تفويض شبيب بن شيبة ليخاطب المنصور في الحج عن المظالم التي يوقعها النصارى على أصحاب الضياع والأراضي من المسلمين بحكم أعمالهم في جباية الأموال والخراج وما إلى ذلك، على أن المنصور وإن كان قد قام بإجراءات وقتية لرفع هذه المظالم؛ إلَّا أنَّ بقاء نفوذ النصارى وسلطتهم ظل كما هو، فتكررت شكايات أخرى من ظلمهم في عهد ابنه المهدي، وسعى المسلمون إلى بعض جلساء المهدي الذي أوصل إليه الحال، فأمر المهدي بمعالجة هذه المظالم وإقصاء الولاة والعمال من أهل الذمة، وقد كانوا من النفوذ بحيث كان متولي بعض ضياع المهدي في البصرة نصرانيًّا، وقد ثبت عليه ظلم الناس واستقواؤه بمنصبه حتى أهان القاضي سوار بن عبد الله الذي أدانه واقتحم عليه مجلسه في المسجد، غير أن القاضي كان صارما فأدبه تأديبًا بليغًا(٣).

ولم تعنِ هذه الإجراءات أن الدولة انتقلت إلى ظلمهم، بل استمرت حالة التسامح كما

---

(١) بختيشوع: عبد المسيح؛ لأنه في السريانية البخت هو العبد، ويشوع هو المسيح (عليه السلام).

(٢) القفطي: إخبار العلماء بأخيار الحكماء ص١٢٤.

(٣) ابن القيم: أحكام أهل الذمة ٣/ ٤٦٠ – ٤٦٤.

هي، بل كان للمهدي جارية نصرانية تعلق صليبا ذهبيا في صدرها[١]، وكان للنصارى على عهده كثير من الأديرة في بغداد وضواحيها[٢].

واستمرَّ الحال هكذا في عهد الرشيد، فارتفع في عهده شأن الطبيب جبرائيل بن بختيشوع فكان من خاصة أصحابه، وقد بلغ من نفس الرشيد أن قال الرشيد: مَنْ كانت له حاجة إليّ فليخاطب بها جبرائيل لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني[٣]، وكان الأطباء النصارى هم القائمين على المستشفيات (التي كانت -أيضًا- كليات للطب) مثل يوحنا بن ماسويه، وكذلك حركة الترجمة من السريانية وغيرها، وكان النصارى في عهد الرشيد يخرجون في موكب حافل وبين أيديهم الصليب ويتقدمهم رؤساء دينهم[٤]، وكان رؤساء أهل الذمة يُخْتَارون بالانتخاب ولا تتدخل الدولة في تعيينهم، ويتلقون الهدايا والأموال والهبات! وكانت الدولة تساعد في بناء الكنائس والأديرة، وقد ساعدت زبيدة زوجة الرشيد أسقف البصرة في بناء كنائس بالبصرة، بل كانت تهدي للنساطرة والكاثوليك الهدايا من الصلبان الذهبية والفضية على ما يذكر المستشرق فتال (Fattal)[٥].

وقد ذكرنا من قبل -في حديثنا عن عهد الرشيد- الأزمة التي حدثت بين الرشيد وأهل الذمة في منطقة الثغور حين أعانوا الروم في هجومهم على المسلمين، فأمر بهدم الكنائس في هذه المناطق لئلا تكون جيوبا للعدو ونقاطا للتجسس أو للمساعدات للروم.

وكان عصر الأمين بحسب المستشرق فتال (Fattal) هو عصر ازدهار في بناء الكنائس والصوامع المسيحية[٦]، كما شهد عصر المأمون إصلاحًا واسعًا للكنائس والمعابد[٧]؛ حتى قُدِّر اليهودية وبيوت النار المجوسية[٨]، وقد ذكرنا سابقا وجود أهل الذمة وعلمائهم في قلب

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٩٢.

(٢) د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص١٦٥، وهي تنقل عن لسترنج: بغداد ص١٨٠ وما بعدها.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٦١.

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٢٦ وما بعدها.

(٥) د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص١٦٦، ١٦٧. وهي تنقل عن: Fattal: Le statut des Non Musulmens, P. 188.

(٦) د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص ١٦٧، وهي تنقل عن: Fattal: Le statut des Non Musulmens, P. 189.

(٧) د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص ١٦٧، وهي تنقل عن: Fattal: Le statut des Non Musulmens, P. 189.

(٨) د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص ١٦٧. وهي تنسب هذه المعلومة إلى سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ولكني لم أجدها فيه، وقد تكرر هذا في غير مرة أني أراجع المصادر التي نَقَلَتْ عنها فأحيانا لا أجد المعلومة وأحيانا أجد بعضها فحسب!

حركة النهضة العلمية والترجمة التي تمَّت في عصر المأمون.

وكان الطبيب الخاص للمعتصم سلمويه بن بنان نصرانيًّا، وكان من خاصة المعتصم ومن أحظى الناس عنده وأقربهم إليه؛ حتى إنه لما مات شيع المعتصم جنازته من قصر الخلافة، وامتنع عن الطعام ذلك اليوم، وكان أخوه إبراهيم خازن بيوت الأموال ومعه خاتم الخليفة(١).

وقد انتهت حالة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي إلى وضع رفيع - لا سيما النصارى- فلم يشهد تاريخ المسلمين ما شهده تاريخ غيرهم، فلم «يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء مختصَّة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدَّوْنها، وإنْ آثَرَ أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين، وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية»(٢).

وبهذا الوضع الرفيع زادت به مظالمهم -النصارى تحديدا- للمسلمين، وافتخروا بما لهم من تراث اليونان من علوم الطب والفلسفة وبما صاروا إليه في الدولة، وبأنهم أكثر كفاءة ومهارة وعقلًا من المسلمين؛ حتى انخدع بهذا شرائح من عوام المسلمين، ما جعل الجاحظ - الذي عاش في تلك الفترة- يرد على هذا الوهم بلهجة حانقة تسيطر على وصفه لما صار إليها حال النصارى في الدولة الإسلامية، يقول: «ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان، ولا بعد روية، إلا حكمة الكف، من الخرط والنجر والتصوير، وحياكة البزيون لأخرجتهم من حدود الأدباء، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء؛ لأن كتاب المنطق والكون والفساد، وكتاب العلوي، وغير ذلك، لأرسطاطاليس، وليس برومي ولا نصراني. وكتاب المجسطي [في الفلك] لبطليموس، وليس برومي ولا نصراني. وكتاب إقليدس [في الهندسة] لإقليدس، وليس برومي ولا نصراني، وكتاب الطب لجالينوس، ولم يكن روميًا ولا نصرانيًّا، وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وأفلاطون، وفلان وفلان. وهؤلاء ناس من أُمَّة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم، وهم اليونانيون، ودينهم غير دينهم، وأدبهم غير أدبهم، أولئك علماء، وهؤلاء صناع أخذوا كتبهم لقرب الجوار، وتداني الدار، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم، ومنها ما حولوه إلى ملتهم. إلا ما كان من مشهور كتبهم، ومعروف

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/ ٨٩ وما بعدها.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٧٥.

حكمهم، فإنهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم، ففخروا بأديانهم على اليهود، واستطالوا بها على العرب، وبذخوا بها على الهند؛ حتى زعموا أن حكماءنا أتباع حكمائهم، وأن فلاسفتنا اقتدوا على أمثالهم، فهذا هذا... ومما عظمهم في قلوب العوام، وحببهم إلى الطغام، أن منهم كتاب السلاطين، وفراشي الملوك، وأطباء الأشراف، والعطارين والصيارفة»(١).

وإضافة إلى هذا فقد كانت حركات الزنادقة الذين حاربتهم الدولة العباسية تجد لها رواجا بين النصارى، وفي هذا يقول الجاحظ: «ودينهم -يرحمك الله- يضاهي الزندقة، ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة، والدليل على ذلك أنا لم نَرَ أهل ملَّة قطُّ أكثر زندقة من النصارى، ولا أكثر متحيرًا أو مترنحًا منهم، وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة: ألا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة ممَّنْ كان ينتحل الإسلام ويظهره هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى. على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم تَجِدْ أكثرهم إلا كذلك»(٢).

ويُجمل الجاحظ ما وصل إليه النصارى في تلك الفترة في قوله: «اتخذوا البراذين الشهرية(٣)، والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات(٤)، وضربوا بالصوالجة(٥)، وتحذفوا المديني، ولبسوا الملحم والمطبقة(٦)، واتخذوا الشاكرية، وتسموا بالحسن والحسين، والعباس وفضل وعلي، واكتنوا بذلك أجمع، ولم يبقَ إلَّا أنَّ يتسموا بمحمد، ويكتنوا بأبي القاسم. فرغب إليهم المسلمون، وترك كثير منهم عقد الزنانير(٧)، وعقدها آخرون دون ثيابهم، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية، وأنفوا مع أقدارهم من دفعها وسَبُّوا من سَبَّهم، وضربوا من ضربهم. وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه، وقضاتنا أو عامتهم يرون أن دم الجاثليق

---

(١) الجاحظ: الرسائل ٣/ ٣١٤ - ٣١٦.

(٢) الجاحظ: الرسائل ٣/ ٣١٥، ٣١٦.

(٣) البراذين: جمع برذون، وهو الخيل غير العربي.

(٤) الجوقات يعني الجماعات والأتباع.

(٥) الصوالجة: جمع صولج، وهو عصا معقوف يُلعب به لعبة الصولجان، وهي لعبة تشبه إلى حد ما لعبة «الهوكي» لكن أفرادها يلعبونها وهم على الخيل. وهي في ذلك الوقت من علامات الغنى والجاه!

(٦) أي الملابس الفاخرة.

(٧) الزنانير: جمع زنار، وهو الحزام الذي يُربط في الخصر.

والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة[١]، ويرون أن النصراني إذا قذف أم النبي ﷺ بالغواية أنه ليس عليه إلا التعزير والتأديب، ثم يحتجون أنهم إنما قالوا ذلك لأن أم النبي لم تكن مسلمة. فسبحان الله العظيم! ما أعجب هذا القول وأَبْيَنَ انتشاره[٢]!... وهم إذا قذفوا أم النبي عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أمته إلا التعزير والتأديب. وزعموا أن افتراءهم على النبي ليس بنكث للعهد، ولا بنقض للعقد... أو ما ينبغي للجاهل أن يعلم أن الأئمة الراشدين، والسلف المتقدمين لم يشترطوا عند أخذ الجزية، وعقد الذمة عدم الافتراء على النبي وأمته، إلا لأن ذلك عندهم أعظم في العيون، وأجل في الصدور من أن يحتاجوا إلى تخليده في الكتب، وإلى إظهار ذكره بالشرط، وإلى تثبيته بالبينات، بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوهن عليهم، والمطمعة فيهم، ولظنوا أنهم في القدر الذي يحتاج فيه إلى هذا وشبهه. وإنما يتواثق الناس في شروطهم، ويفسرون في عهودهم ما يمكن فيه الشبهة، أو يقع فيه الغلط، أو يغبى عنه الحاكم، وينساه الشاهد، ويتعلق به الخصم، فأما الواضح الجلي، والظاهر الذي لا يخيل فما وجه اشتراطه، والتشاغل بذكره»؟!![٣]

وقد اضطررنا للإطالة في هذا السياق؛ لكي يُفهم الإجراء الذي اتخذه المتوكل ضد أهل الذمة في سياقه، وهذا هو الإنصاف العلمي الذي ينبغي أن توضع فيه القضية لا حبا في المتوكل وهو الخليفة المسلم ولا كرها في أهل الذمة، وإنما هو ما أمرنا به الله حين قال: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ**﴾ [المائدة: ٨].. على أننا بعد هذا لا نرى فيما فعله المتوكل إلا تجاوزا في الجهة الأخرى ولا نقر به ولا نقبله.

أمر المتوكل (٢٣٥هـ) أهل الذمة «بلبس الطيالسة[٤] العسلية والزنانير وركوب السروج برُكُب الخشب، وبتصيير كُرَتَيْن على مؤخر السُّروج وبتصيير زِرَّيْن على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس

(١) ينبغي أن نعترف بأن غضب الجاحظ وحنقه مما صارت إليه الأوضاع دفعه إلى تبني الآراء الفقهية التي لا تسوي في الحقوق والقصاص بين المسلم والذمِّي، على أن هذا في حد ذاته دليل على أن الدولة الإسلامية كانت تسوي بين المسلم والذمي في القصاص وسائر الجزاءات.

(٢) أَبْيَنَ انتشاره: أوضح فساده.

(٣) الجاحظ: الرسائل ٣/ ٣١٧ – ٣٢٠.

(٤) الطيالسة: جمع طيلسان، وهو ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن خال عن التفصيل والخياطة أو هو ما يعرف في العامية المصرية بالشال. المعجم الوسيط ٢/ ٥٦١.

مماليكهم مخالف لونها لون الثوب الظاهر الذي عليه؛ وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى منها خلف ظهره، وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونها عسليًّا، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي، ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي، وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير، وبمنعهم لبس المناطق وأمر بهدم بيعهم المحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وإذا كان الموضع واسعًا صير مسجدًا، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجدًا صير فضاء، وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة؛ تفريقًا بين منازلهم وبين منازل المسلمين، ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان، التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين، ونهى أن يتعلَّم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يُعَلِّمهم مسلم، ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليبًا[(١)]، وأن يشعلوا في الطريق، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض؛ لئلاَّ تشبه قبور المسلمين»[(٢)].

وعاد بعد أربع سنوات أخرى شهدت خفوت تطبيق تلك القرارات، فأعاد (المحرم ٢٣٩هـ) وزاد في التشديد على أهل الذمة في أمر اللباس وهدم الكنائس التي بنيت في خلال الإسلام ومنعهم من ركوب الخيل والبراذين واقتصر على ركوبهم الحمير والبغال فقط[(٣)].

المتوكل والعلويون

عاش العلويون أفضل أيامهم في عهد المأمون، ثم وصى المأمون المعتصم بهم فأكرمهم، ثم بلغوا أطيب حالهم في عهد الواثق الذي لم يمت وفيهم واحد فقير، فكان عهد المتوكل هو الانقلاب على ما سبقه. قال الذهبي: «وكان المتوكل فيه نَصْبٌ[(٤)] وانحراف»[(٥)].

وبدأ هذا الانقلاب بعد عامين من خلافة المتوكل (٢٣٥هـ) حين تمرد يحيى بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين على المتوكل واتبعه قوم من الشيعة، فقُبِض عليه وأمر بضربه وحبسه[(٦)].

(١) شعانينهم: أي عيد الشعانين، وهو عيد الفصح أو القيامة، واليوم الذي قبله يسمى أحَد الشعانين. يشعلوا في الطريق: أي التفاخر والتعالي والزهو والتباهي علانية. المعجم الوسيط ١/ ٤٩٤.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٠٤ وما بعدها.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٨.

(٤) النَصْب: هو ضد التشيع، وهو كراهية آل البيت، وانحراف: أي انحراف عن السنة، فأهل السنة يحبون آل البيت ويحبون عليا ويوالونهم، ويرون أن عليا كان على الحق في خلافه مع معاوية رضي الله عنه، وأن الحسين قُتِل شهيدا مظلوما وهو سيد شباب أهل الجنة.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٥.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٠.

وفي العام التالي (٢٣٦هـ) أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من المنازل، وأعلن أن من وُجِد بعد ثلاثة أيام فسيسجن، فهجر الناس ذلك الموضع، واتخذه المتوكل أرضا للزراعة والحرث؛ لكي ينتهي الأمر تمامًا ولا يُعاد بناؤه[١].

وقد أَثَّر هذا الحادث في وجدان المسلمين جميعًا حتى قال الشاعر ابن بسام[٢]:

تالله إن كانت أميـــة قـــد أتت	قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتـــــــاه بنـــو أبيه بمثله	هذا لعمرك قبره مهدومــا
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا	في قتله فتتبعــــــــوه رميما[٣]

وكان المتوكل يتتبع الشيعة والمتشيعين، مثل الشيخ بشر الجعاب الذي كان يظهر التشيع في الدينور واستطاع تكوين أتباع يأخذون عنه[٤]، وقد شهد سبعة عشر رجلًا عند قاضي الجزء الشرقي من بغداد على رجل من أعيان بغداد أنه يسب أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة فأمر المتوكل أن يُضرب ضربًا شديدًا مبرحًا؛ حتى يموت ويُلقى في نهر دجلة ولا يُصَلَّى عليه[٥]!

ويروي ابن الأثير – وهو ممن فيهم ميل إلى الشيعة– أن «المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق في محبة عليٍّ وأهل بيته، وإنما كان ينادمه ويجالسه جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعلي منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة بن لؤي وعمرو بن فرخ الرخجي وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة من موالي بني أمية وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمي المعروف بابن أترجة، وكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثم حَسَّنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين»، وهو ما يراه ابن الأثير سيئة المتوكل التي غطت على «جميع حسناته، وكان من أحسن الناس سيرة»[٦].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٢.
(٢) شاعر مشهور في زمن الخليفة المقتدر.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٦٥، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٥٣.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٣٥١.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٠، ٣٢١.
(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٠٩.



لقد اختلط في المتوكل دافع السياسة مع دافع المذهب، فهذا أبو الحسن علي بن الهادي المعروف بأبي الحسن العسكري، قيل للمتوكل أنه ينوي الخروج فأرسل بالقبض عليه من المدينة المنورة، فلم يوجد في بيته شيء وصحت براءته، فلم يعاقبه المتوكل بشيء بل أنزله في سامراء وسدد عنه ديونه[١]، وربما كانت إقامته في سامراء بهدف الاحتياط عليه مما يجعل الأمر متعلقا بالصراع القديم العميق بين العباسيين والعلويين بأكثر منه صراعًا مذهبيًا بين النصب والتشيع.

حركة الجهاد

١- مع الروم

يورد الطبري غزوة صائفة قادها علي بن يحيى الأرمني (٢٣٧هـ) دون أي تفاصيل أخرى[٢]؛ ولهذا يمكن اعتبار بداية المواجهات بين المسلمين والروم في عهد المتوكل حين هاجم الروم سواحل دمياط المصرية (٢٣٨هـ) بأسطول من ثلاثمائة قطعة، على حين غفلة من أهلها فقُتِل كثير من المصريين، وغرق كثيرون وهم في حال الهرب أغلبهم من النساء والصبيان، وأحرق الروم المسجد الكبير في المدينة، وأسروا نحوًا من ستمائة امرأة، غالبهن من القبطيات، واستولوا على الخزائن والسلاح، وكانت الغارة قوية ومفاجئة بحيث استطاعوا العودة إلى بلادهم دون أن يتحرك لهم جيش من مصر أو من الخلافة، وكان من حسن حظ الروم أن جنود دمياط كانوا في ذلك الوقت يشاركون في احتفال بالقاهرة فكانت مهمتهم أسهل وأيسر، غير أن والي مصر -أيضًا- لم يكن على مستوى المهمَّة وتهاون في التصدي للروم حتى أرسل الشاعر يحيى بن فضل للمعتصم يقول:

أترضى بأن توطأ حريمك عنوة ... وأن يُسْتَبَاح المسلمون ويُحربوا[٣]

فقاد علي بن يحيى الأرمني غزوة الصائفة في هذا العام (٢٣٨هـ)، ولا نملك -أيضًا- تفاصيل عن هذه الصائفة وما إذا كانت ردًّا على ما حدث أم كانت في التوقيت ذاته على العادة المتبعة في حفظ الثغور واستنزاف الروم[٤].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٧٤، وابن الوردي: تتمة المختصر ١/ ٢٢٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٥.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٧، والكندي: الولاة والقضاة ص١٥١.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٧،

ثم هدأ الأمر عاما ونيفا حتى أقدمت الملكة البيزنطية «تيودورة» (٢٤١هـ) على فعل خطير، إذ جمعت الأسرى المسلمين لدى الروم وكانوا في ذلك الوقت عشرين ألف أسير، ثم خيرتهم بين الدخول في النصرانية وبين القتل، فتنصر بعضهم تحت خوف السيف، وثبت ثلاثة عشر ألف أسير، فقتلت منهم اثني عشر ألفًا، وأبقت نحو تسعمائة لمفاداة الأسرى بينها وبين المسلمين، وكانوا ٧٨٥ رجلًا و١٢٥ امرأة، وتم فداء الأسرى التسعمائة في طرسوس (١٢ من شوال ٢٤١هـ)[١].

ثم نفذ الروم البيزنطيون في العام نفسه (٢٤١هـ) إغارة أخرى على مدينة عين زربة، التي كان بها الزط بعدما تم إخماد ثورتهم في عهد المعتصم، فأسروا الرجال والنساء والأطفال واستولوا على أموالهم ودوابهم[٢]!

ثم تكررت القصة مرة أخرى، فبعد الفداء عاد الروم إلى إغارة أخرى في العام التالي (٢٤٢هـ) على بلاد الجزيرة فنهبوا أموالًا كثيرة، وأسروا نحوا من عشرة آلاف من الذراري، فخرج إليهم جيش بقيادة عمر بن عبد الله الأقطع لكنه كان متأخرا فلم يلحق بهم! وقد فودي ما بين الثلاثة آلاف إلى الأربعة آلاف[٣] منهم بعد نحو أربع سنوات (صفر ٢٤٦هـ)[٤].

كذلك استطاع الروم قتل وأسر حوالي خمسمائة من المسلمين في إغارة أخرى على سميساط (٢٤٥هـ)، وفي هذا العام ذاته استغلَّ ملك الروم أزمة داخلية حين لم يرض أهل مدينة لؤلؤة الواقعة على الثغور بالوالي عليهم ومنعوه من تسلم منصبه ثلاثين يومًا، فأرسل لهم ملك الروم بطرقًا من لديه أفاض الأموال عليهم، فوعد كل رجل فيهم ألف دينار ورواتبهم السنوية فاستقبلوه ثم سلموه إلى القائد التركي بلكاجور -أو علي بن يحيى الأرمني- فأرسله إلى المتوكل أسيرًا، فعرض ملك الروم ألفًا من أسرى المسلمين مقابل استنقاذه، كل هذا وما زال علي بن يحيى الأرمني يقود غزوات الصائفة[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢١، ٣٢٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢١.
(٣) عند الطبري وابن الأثير ٢٣٦٧، وعند ابن كثير ٤ آلاف.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣٢.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣١.

وبعد سكوت غريب من قبل الخلافة تخرج أربعة جيوش في عام (٢٤٦هـ)، فعمرو بن عبد الله الأقطع يقود الصائفة في سبعة آلاف، وقائد آخر يدعى قربياس يقود خمسة آلاف، وقائد آخر يسمى بلكاجور يعود بسبي وغنائم، وغزوة بحرية عدتها عشرون مركبًا قادها الفضل بن قارن تفتح حصن أنطاليا على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى[١]. لكنها غزوات ومعارك في غاية الهامشية أمام ما وقع من جرائم الروم.

وظل المتوكل إلى نهاية خلافته حريصًا على تقوية الجيش في منطقة الحدود، بشقيه البري والبحري، وفي ذلك يقول البلاذري: «وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة، وذلك في سنة سبع وأربعين ومائتين»[٢]، أو لعلَّه كان ينوي بهذا الرد على جرائم الروم التي مرت دون رد مناسب على الرغم من شناعتها!! وهذا من علامات ضعف الحكم وبداية دخول الدولة العباسية في عصور التراجع!

٢- فتح النوبة

وبخلاف جبهة الروم الرئيسية في الجهاد، انفجرت في (٢٤١هـ) جبهة أخرى في بلاد النوبة في أرض مصر، حيث أغارت قبائل البجة السودانية -وهي قبائل وثنية- على جيش من أرض مصر، فنقضوا بذلك الهدنة بينهم وبين المسلمين بعد أن كانوا قد امتنعوا سنين عدة عن أداء الضرائب التي التزموا بها في الهدنة، وهي حوالي أربعمائة مثقال تِبْر (ذهب)، فكتب والي مصر يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي المعروف بقوصرة بذلك إلى المتوكل، وعلى الرغم من نية المتوكل في حربهم؛ فإن بُعد بلادهم وقوتهم في الحرب وكونهم من أهل البادية الأشداء منعه من إرسال جيش لما يتطلبه هذا من كثرة العدد والمئونة وطول غياب الجيش مع وجود التهديد الرومي القائم، فكان هذا مما جرَّأهم أكثر حتى أغاروا على بلاد الصعيد في مصر، فلم يكن بد من إرسال جيش عهد بقيادته إلى محمد بن عبد الله القمي، وجعله واليًا على تلك البلاد المجاورة لهم، وأمر الولاة في مصر أن يعينوه بكل ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك[٣].

وصل محمد عبد الله القمي إلى بلاد البجة وقد بلغ جيشه عشرين ألف فارسٍ بمن

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣٢.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٩٣.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٢، ٣٢٣.

أضيف إليه من جنود مصر، واستغلَّ وجود النيل في تسهيل حمل الأطعمة والمتاع فحملها في سبع سفن؛ بحيث تسير في النيل على مقربة من الجيش-وفي روايات أخرى[١] أنها كانت عبر البحر الأحمر ووصلت إلى ساحل عيذاب- إلَّا أنَّ ذلك لم ينجح كما أراد، فقد تأخرت المراكب عن الجيش، الذي وصل إلى أرض البُجاة وواجه جيشها الكبير، الذي بلغ أضعاف جيش المسلمين بقيادة ملكهم علي بابا، الذي أدرك بدوره شح العتاد لدى المسلمين؛ فظل في مكانه لا يُقبل على المواجهة؛ ابتغاء نفاد الطعام والمتاع عند الجيش المسلم[٢].

عاش المسلمون أيامًا عصيبة يرتقبون وصول المراكب، بما فيها من الأطعمة والأمتعة على أحر من الجمر، لا سيما وهذه بلاد شديدة الحر والماء فيها أغلى وأثمن ما يُتَزَوَّد به، وما إن نفد ما لديهم حتى يسر الله وصول تلك المراكب في لحظة فاصلة، فعندئذٍ فشلت خطَّة الانتظار عند جيش البجاة.

في تلك الأيام انتبه محمد بن عبد الله القمي إلى أن الإبل التي يُقاتل عليها البجاة تنفر من الأصوات المزعجة، فعَلَّق في رقاب خيله أجراسًا كثيرة؛ فأحدثت عند الهجوم صليلًا مزعجًا فرَّت له إبل البجاة وتفرقوا، فاتبعهم المسلمون فهزموهم هزيمة ساحقة، «فلا يعلم عدد من قتلوا منهم إلا الله عز وجل»[٣]. ثم استعدوا لهجوم آخر صباح اليوم التالي لكن القمي كان قد استعد لهم بكمين استطاع فيه أسر ملكهم بعد أن طلب الأمان، وأخذه معه إلى الخليفة المتوكل؛ ولهذا النجاح في تلك المهمَّة أقرَّ الخليفة محمد بن عبد الله القمي على هذه البلاد كمكافأة له، وكذلك لما استقرَّ في نفوس الناس من الهيبة له في تلك الأنحاء[٤].

حركات التمرد

على طول فترة حكم المتوكل نسبيًّا كانت حركات التمرد قليلة، وقد بدأت كما هي العادة في أوائل العهد الجديد، حيث تضعف الدول ويُختبر الخلفاء.

كان محمد بن البعيث بن حلبس أسيرًا، فهرب من السجن وتوجه إلى أذربيجان، وقاد

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٨٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٣.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٥٨.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ٢٨٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٣، ٣٢٤، ود. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص٣٣٤.

من هناك ثورة مركزها مدينة «مرند» (٢٣٤هـ)، وكان طبيعيًّا أن يواجه المتوكل هذا التحدي الأول بأقوى ما يستطيع، فأرسل الجيوش تباعا إليه، فحاصروا «مرند» وقصفوها بالمجانيق، وصبر محمد بن البعيث صبرًا بليغًا وقاوم مقاومة هائلة لكن هذا لم ينفعه؛ إذ انتهت ثورته إلى الفشل وقتل رءوس أصحابه وانتهى هو إلى الأسر، وأُرْسِل إلى المتوكل في سامراء فوصلها (شوال ٢٣٥هـ) ومعه ١٨٠ من قادة التمرد فأُدْخِلوا على الجمال ليكونوا عبرة ومثلا، وهَمَّ المتوكل بقتله فاعتذر إليه محمد اعتذارًا أدبيًّا بليغًا، فقَدَّر له المتوكل هذه الموهبة الأدبية فقيل: عفا عنه وأطلقه، وقيل: بل أودعه السجن حتى استطاع الهرب منه بعدئذ[١]!

ما إن انتهى تمرد محمد بن البعيث حتى حدث تمرد محدود قاده محمود بن الفرج النيسابوري أحد المفتونين ببابك الخرمي في (٢٣٥هـ)، كان يجلس إلى الخشبة التي صلب عليها، ثم ادعى أنه نبي، وأنه ذو القرنين، وكتب مصحفًا ادعى أن الله أوحي به إليه، لكن السلطة انتبهت إليه مبكرًا حين لم يزد من استجابوا له عن ٢٧ رجلًا، فأحضر إلى الخليفة وجُلِد فاعترف بما كان منه وأعلن التوبة والرجوع، فأمر المتوكل كل واحد من أتباعه أن يصفعه ليزيد من إهانته في نفوس أتباعه ويكسر تعظيمهم له، ويبدو أن نفسه لم تتحمل هذا الفشل البليغ فمات في العام نفسه (٣ من ذي الحجة ٢٣٥هـ)[٢].

بعد هذا بسنتين وفي (٢٣٧هـ) قاد البطريرك الكبير في أرمينية تمردًا نصرانيًّا على نائبها يوسف بن محمد بن يوسف الذي قبض عليه وأرسله أسيرًا إلى نائب الخليفة، فأثار هذا النصارى في أرمينية، وكان مما زاد في تعصبهم سقوط الثلوج في هذه الفترة مما جعلهم يعتقدون أنها من كراماته، فحاصروا الوالي يوسف بن محمد بن يوسف فقاتلوه حتى قتلوه ومعه طائفة كبيرة من المسلمين، ومن لم يقتلوه أجبروه على الهروب عاريا فمات كثير منهم من شدة البرد. وأمام هذا الوضع الخطير الذي وصل إليه التمرد، أرسل المتوكل جيشًا كبيرًا بقيادة بغا الصغير (أو بغا الشرابي) كانت مهمته تعقب الذين شاركوا في قتل الوالي، واستطاع إخماد هذا التمرد بقسوة، فقتل منهم كثيرًا وأسر كثيرًا، ثم سار في تلك الأنحاء ليعيد هيبة الخلافة فيها فوطد المدن والبلاد والنواحي[٣].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٩ وما بعدها.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٠٦.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٣.

وظلت تداعيات هذا التمرد، ومواجهة الخلافة له مستمرة أكثر من عام، وحاصر بغا الكبير مدينة تفليس (ربيع الأول ٢٣٨هـ) التي كانت من أقوى المدن المشاركة في التمرد على يوسف بن محمد بن يوسف، ونشب القتال حتى أُسِر واليها إسحاق بن إسماعيل، وكان القتال مستعرًا حتى أحرق بغا المدينة؛ التي كان أغلب بنائها من خشب الصنوبر المنتشر في تلك الأنحاء، وقتل الكثيرون وأُسِر الكثيرون، وتم تدمير المدينة اقتصاديًّا لئلاَّ تقوى على إنشاب تمرد أو مواجهة مع جيش الخلافة بعدئذ، وظل بغا في تتبع من شارك في هذا التمرد ومقتل يوسف بن محمد حتى أخذ بثأره وأعاد هيبة الخلافة[١].

ثم نشب تمرد جديد في حمص بعد عامين، إذ غضب أهل حمص على واليهم موسى بن إبراهيم الرافعي (٢٤٠هـ)؛ لأنه قتل رجلًا من سادتهم، فتمردوا عليه وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوه من بلدهم، فسلك المتوكل سبيل الصرامة في إنهاء مثل هذه التمردات التي تهدد رمز الخلافة، فأرسل لهم واليًا غيره وهو ينوي أن يحاربهم إن لم يقبلوه، غير أنهم حين قبلوه لم يتغيَّر الأمر كثيرًا فقد كانت سياسته قهرهم وإهانتهم غاية الإهانة، فكان طبيعيًّا والحال هكذا أن يتجدد التمرد ضد الوالي الجديد محمد بن عبدويه الأنباري بعد شهور، وبالتحديد في (جمادى الآخرة ٢٤١هـ)، وحاولوا قتله، وانضم إلى هذا التمرد كثير من النصارى في حمص، فأمره المتوكل بحربهم ثم أرسل إلى والي دمشق أن يمده بجيش من عنده، وكان مما أمره به أن يجلد الثلاثة الكبار المعروفين في هذا التمرد حتى الموت ثم صلبهم على أبواب البلد ليكونوا عبرة، وأن يضرب العشرين الآخرين ثلاثمائة سوط ثم يرسلهم أسرى إلى سامراء، وأن يطرد النصارى من حمص وأن يهدم كنيستها الكبرى، ثم أمده والأمراء الذين دعموه بخمسين ألف درهم وهدايا أخرى[٢].

وأخيرًا نذكر أن ثمة تمردًا بدأ صغيرا في عهد المتوكل سيكون له أثر بعيد فيما بعد، إذ ظهر يعقوب بن الليث الصفار في سجستان (٢٣٧هـ) وسنستعرض هذا التمرد فيما بعد بشكل أكثر تفصيلا إن شاء الله تعالى.

لعلَّه لولا ثورة محمد بن البعيث ثم عفو المتوكل عنه لقلنا: إن المتوكل ممن يجنح إلى إنهاء

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٦، ٣١٧.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣١٩، ٣٢٠.

التمردات بالعنف والقسوة؛ إلَّا أنَّ هذا العفو يدفعنا للتفكير بعمق في سر قسوته في إنهاء التمردات الأخرى، لقد كانت ثورة أرمينية كبيرة الخطر فعلًا، قادها بطريك نصراني ووصلت إلى قتل الوالي واشتركت فيها مدن كثيرة من تلك المناطق، وكانت الأمور ذاهبة على ما يبدو إلى انفصال هذا الجزء عن سيطرة الخلافة الإسلامية، فكان لا بُدَّ من التعامل بالحزم والشدة، على أن أرقام القتلى والأسرى الواردة تصيبها مبالغات غير مقبولة؛ إلَّا أنها تشي في الوقت ذاته بقسوة وشدة التمرد وانتشاره الواسع. ومثل هذه الثورة ثورة أهل حمص التي طردت الوالي وقتلت أصحابه ثم تجددها الذي شارك فيه النصارى فأعاد كل هذا نفس تلك المخاوف السابقة، ولا يفوتنا أن نذكر سببًا لا يمكن تجاوزه في هذه التمردات وفي معالجتها، ذلك هو استبداد المتوكل نفسه، وانقلابه على سياسة أسلافه من الخلفاء، فانقلابه هذا قد صنع له خصوما كثيرين زادتهم شدته وقسوته كثرة وغضبًا.

النهضة والعمران

كان المتوكل يحبُّ العمران[1]، وكان عهده من عهود البناء والتشييد؛ حتى إن المسعودي الذي مات بعد المتوكل بمائة عام يذكر «أنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل، ويقال إنه أنفق على [تطوير قصري] الهاروني والجوسق أكثر من مائة ألف ألف درهم، هذا مع كثرة الموالي والجند والشاكرية، ودرور[2] العطاء لهم وجليل ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات»[3]، واستمرَّ هذا الحال مع المؤرِّخين بعدئذٍ، فهذا ياقوت الحموي الذي عاش بعد المتوكل بثلاثة قرون يصف النهضة العمرانية بقوله: «لم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل»[4]، وذكر المؤرِّخون للمتوكل تسعة عشر قصرًا منها: الشاه والعروس والشبذار والبديع والغريب والبرج والمختار والوحيد والجعفري والجوسق والقلائد واللؤلؤة والمليح والصبيح [الأخيران ربما يكونان اسمين لقصر واحد] والمعشوق[5]، واتصفت هذه القصور

(١) الزركلي: الأعلام ٢/ ١٢٧.
(٢) درور العطاء: أي كثرة وتوالي الأموال.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٠٤ (ط٢، الدار العالمية للكتاب).
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٧٥.
(٥) اليعقوبي: البلدان ص٥٨.

بالتطور العمراني والتقدم الفني ودلت على ثراء الدولة العباسية في عهد المتوكل[1]، وقدَّر ابن الفقيه الأموال التي أنفقت في هذه النهضة بمائتين وأربعة وتسعين مليون درهم[2].

وقد سار عمل المتوكل في البناء والتشييد على مسارين: تطوير العاصمة سامراء، إنشاء مدينة المتوكلية الجديدة.

ففي تطوير سامراء، اختط المتوكل شارعين جديدين واسعين في المدينة هما شارع الأسكر وشارع الحير الجديد، فبلغت الشوارع الرئيسية المتسعة للمدينة سبعة، وأنشأ المتوكل خمسة قصور جديدة هي: بركوان والعروس والصبيح واللؤلؤة والمختار، كذلك هدم المتوكل المسجد الجامع للمدينة الذي كان المعتصم قد بناه بعدما ضاق على الناس وأنشأ مسجدا جامعا أكثر اتِّساعًا منه بكثير؛ حتى صار أوسع من المسجد الأموي في دمشق، ووَسَّع الطرق إلى المسجد بحيث تسع موكبه إذا قدم في جنوده[3]، وقد شُيِّد المسجد على صورة فاخرة «طُلِيَت حيطانه بالميناء، وكانت أساطينه بالرخام، ويمتاز بمنارته الطويلة وبنافورته التي لا ينقطع ماؤها، وارتفاعها على سبعة أذرع، ومحيطها ثلاثة وعشرون ذراعًا، وسمكها نصف ذراع»[4].

وأهمُّ ما في هذا المسجد مئذنته الملفوفة التي صارت علامة على سامراء كلها، بل وأثرًا خالدًا من آثار الدولة العباسية جميعًا، وقد ارتفعت نحو اثنين وخمسين مترًا، أي ارتفاع سبعة عشر دورًا تقريبًا بمقاييسنا المعاصرة، وهو ارتفاع ضخم بمقاييس ذلك الزمن، ما جعل المئذنة تُرى من جميع أنحاء سامراء.

كذلك أنشأ المتوكل مدينة ملكية خاصة به، هي مدينة المتوكلية أو الجعفرية، وسبب إنشائها خليط بين تخليد ذكره كما فعل جدُّه الأكبر أبو جعفر المنصور حين بنى بغداد، وكذلك الابتعاد عن الجنود الأتراك الذين كانوا السبب في أن يبني أبوه المعتصم مدينة سامراء من

---

(١) د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص١٣٩.
(٢) ابن الفقيه: البلدان ص٣٦٨، وياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٧٥.
(٣) اليعقوبي: البلدان ص٦٦، ٦٧.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٢٢، وانظر: د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني ص١٤٥، وهي تنقل عن: أحمد سوسة: ري سامراء ١/ ١١٠ وما بعدها.

قبل، فقد زاد نفوذ الأتراك في عهد المتوكل وكثر صدور الشغب عنهم[١].

بدأ البناء في المدينة الجديدة (٢٤٥هـ)، فحُفِر نهر في وسطها، وبُني فيها قصر اللؤلؤة الذي «لم يُر مثله في علوّه»[٢]، واستمرَّ البناء ساريا بسرعة كبيرة وبلغت التكلفة مليوني دينار؛ حتى دخلها المتوكل (١٠ من المحرم ٢٤٦هـ)، في احتفال كبير أنفق فيه الكثير من الأموال على القراء ثم على الشعراء والمطربين، ثم كان الانتقال الرسمي إليها ونقل دواوين الدولة في أول السنة التالية (٢٤٧هـ).

وكان أبرز ما في المتوكلية -مثل الحال في سامراء- هو مسجدها الجامع، وقد عُرِف بمسجد أبى دلف الذي كان مشهورا بالشجاعة والكرم، وكان بناؤه شبيها بالمسجد في سامراء، وكان ذا مئذنة ملفوفة -أيضًا- كمئذنة سامراء.

على أن سنن الحياة جرت على المتوكل كما جرت على غيره، فلم يهنأ بمدينته الملكية بل قُتِل بعد تسعة أشهر (شوال ٢٤٧هـ)، وذهب إلى الآخرة، وترك قصوره لم يأخذ منها شيئًا، ولم تغن عنه شيئًا، وقليل من الناس من يتعظون.

ثم جاء ولده من بعده، فهجر المتوكلية وعاد إلى سامراء، فعادت المتوكلية بقعة خرابا كما كانت قبل ثلاث سنوات، كأن لم تنشأ فيها مدينة ملكية، وصدق الله تعالى: ﴿**كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**﴾ [يونس: ٢٤]! وبعد قليل هُجرت سامراء -أيضًا- وعادت الخلافة العباسية إلى بغداد التي شاء الله لها البقاء حاضرة زاهرة قرونا حتى دارت عليها الأيام هي الأخرى ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٦٢]!

مقتل المتوكل

استقرَّ أمر ولاية العهد منذ نحو اثني عشر عامًا قبل هذه الأيام، منذ (٢٧ من ذي الحجة ٢٣٥هـ) حين كتب المتوكل كتاب الولاية بالعهد من بعده لمحمد المنتصر ثم لمحمد (أو الزبير) المعتز، ثم لإبراهيم المؤيد.

لكن المتوكل بدا له أن ابنه عبد الله (المعتز) هو أصلح للخلافة من ولي عهده محمد

(١) اليعقوبي: البلدان ص٦٧، ٦٨، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٨.

(المنتصر)، وقد ظهر هذا في كثير من المواطن والمواقف، وطبيعي أن هذا لم يكن يُرضي المنتصر، ثم كان أن قدَّم المتوكل ابنه المعتز ليخطب خطبة الجمعة -التي كان سيخطبها المتوكل نفسه في آخر جمعة من رمضان- مما أثار المنتصر وأوغر صدره، وزاد في تمسك كل طرف بموقفه، على أن المعتز أدى هذه الخطبة أداء بليغًا أفصح عن فهمه للسياسة والجمهور وطبائع الأشياء، فزاد هذا من إصرار المتوكل على توليته الخلافة، وزاد هذا من خوف المنتصر وغيظه، ثم طلب المتوكل من المنتصر أن ينزل عن ولاية العهد للمعتز، فرفض المنتصر، فكان المتوكل بعدها يُحَقِّره ويهينه ويُنْقِص من شأنه أمام الناس، فزاد هذا من تغير المنتصر على أبيه[١].

وعلى جهة أخرى كان المتوكل قد عزم على مصادرة ضياع القائد التركي وصيف في مناطق أصبهان والجبل، وكتب هذا القرار ولم يبقَ إلَّا أن يُختم، فبلغ هذا وصيفًا، فكانت لحظة اجتمع فيها حنق المنتصر والأتراك على المتوكل[٢].

تحالف الطرفان الغاضبان، وكان المتوكل مريضًا في تلك الأيام من عيد الفطر (٢٤٧هـ)، لكنه بدا يتجه نحو العافية في صباح الثلاثاء (٣ من شوال ٢٤٧هـ)، فلما جاء الليل وعزم على الجلوس إلى السمر مع الشعراء والسُّمَّار كعادته، دخل عليه جماعة من الأمراء فقتلوه في تلك الليلة ثم بايعوا ولده المنتصر بالله[٣].

كان عمر المتوكل في هذه اللحظة أربعين سنة فحسب، ونحسب أنه لو امتد به العمر لكان قد استطاع القضاء على نفوذ الأتراك وإعادة قوة الدولة، ولكن هكذا جرت الأيام ولا يعلم الغيب إلا الله!

إلَّا أنها كانت سابقة جديدة في نفوذ الأتراك الذين وصلوا إلى قتل الخليفة نفسه، فكان لهذا ما بعده، وأعلنت هذه الحادثة عن فشل الخليفة في مسعاه بإنهاء نفوذ الأتراك، لا سيما وأنهم «على الرغم من انقسامهم على أنفسهم كانوا يشعرون بالمصلحة المشتركة، وساعدهم تخليط الخليفة في أمر العهد وانقسام العائلة المالكة على نفسها فاستغلُّوا ذلك لقتل خصمهم والتخلص منه، وتلا ذلك فترة فوضى مريعة»[٤].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣٤ وما بعدها.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣٤.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٣٥ وما بعدها.

(٤) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٤.

وقفة مع المتوكل

قال يومًا لبعضهم: إن الخلفاء تتغضب على الرعية لتطيعها، وإني ألين لهم ليحبوني ويطيعوني.

وقال أحمد بن مروان المالكي: حدثنا أحمد بن علي البصري قال: وجه المتوكل إلى أحمد بن المعذل وغيره من العلماء فجمعهم في داره ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم إليه إلا أحمد بن المعذل. فقال المتوكل لعبيد الله: إن هذا لا يرى بيعتنا؟ فقال: يا أمير المؤمنين بلى! ولكن في بصره سوء. فقال أحمد بن المعذل: يا أمير المؤمنين ما في بصري سوء، ولكن نزهتك من عذاب الله. قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه.

وقال الفتح بن خاقان: دخلت يومًا على المتوكل فإذا هو مطرق مفكر فقلت: يا أمير المؤمنين ما لك مفكر؟ فوالله ما على الأرض أطيب منك عيشًا، ولا أنعم منك بالًا. قال: بلى أطيب مني عيشًا مَنْ له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة، لا يعرفنا فنؤذيه، ولا يحتاج إلينا فنزدريه.

وكان المتوكل محببًا إلى رعيته قائمًا في نصرة أهل السنة، وقد شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الردة، لأنه نصر الحق ورده عليهم حتى رجعوا إلى الدين. وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية. وقد أظهر السنة بعد البدعة، وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها فرحمه الله.

من حرصه على السنة: وفيها (٢٤٤هـ) أتى المتوكل بالحربة التي كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ ففرح بها فرحًا شديدًا، وقد كانت تحمل بين يدي رسول الله يوم العيد وغيره، وقد كانت للنجاشي فوهبها للزبير بن العوام، فوهبها الزبير للنبي ، ثم إن المتوكل أمر صاحب الشرطة أن يحملها بين يديه كما كانت تحمل بين يدي رسول الله [1].

* * *

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٧.

نظرة عامة على خلفاء العصر

لقد كان عصر العباسيين الأقوياء هو عصر مجد الدولة العباسية، وكالعادة في عصور المؤسسين يكثر الرجال الأقوياء الذين أقاموا الدولة فحولوها إلى واقع بعد ما كانت حُلما وأمنية، ثم إن هذا الجيل يورثها إلى أبنائه ممن تعهدهم بالرعاية والعناية والتدريب لكي يحملوا هذه الأمانة من بعدهم، ثم يأخذ الحال في الضعف والانحلال بنشوء جيل نشأ في القصور والترف ولم يعانِ مما ذاقه جيل المؤسسين، ولم تبلغ بهم الرعاية والعناية مثلما بلغت المعاناة الحقيقية بآبائهم، وهكذا حتى يظهر الخلفاء الضعفاء فيتسلط عليهم الوزراء أو العسكر أو تأتي دولة أخرى تذهب بالدولة كلها وتعيد سيرة السابقين!

وقد شهد هذا العصر العباسي عدة تغيرات مهمة في مسار التاريخ الإسلامي ينبغي أن يُشار إليها إذ ليس هذا الكتاب مقام بحثها بتفصيل.

الإمامة وتغير الفكرة عن الحاكم

لقد توفي رسول الله ﷺ دون أن يعهد إلى أحد بعينه بالخلافة، وترك الأمر شورى، ولذا اختلف المسلمون فيمن يولونه عليهم حتى استقر أمرهم على أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، ثم كان واضحا لدى المسلمين ولدى أبي بكر أن استحقاقه الخلافة لم يكن إلا باختيار الناس وبتوكيل الأمة له، فهو وكيل عن الأمة وليس وصيا عليها أو مستحقا للخلافة بميزة أو بعهد! فكان للأمة أن تعزله مثلما نصبته وأن تحاسبه وتراقبه، فهو واحد منها..

وقد استمر هذا ثابتا راسخا في عهد الخلافة الراشدة، الخليفة يكتسب شرعيته من اختيار الناس له، فهكذا كان عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم جميعا!

ثم رأى معاوية (رضي الله عنه) أن يعهد بالخلافة لابنه من بعده، تجنبا للفتن والمشكلات والصراع على منصب الخلافة بعد ذهاب الكبار وعودة العصبيات، وقد رضيت الأمة بهذا فيما عدا اثنين: خرج أحدهما (الحسين بن علي) ولم يخرج الآخر (عبد الله بن الزبير).. ثم أثبت التاريخ أن بني أمية كانوا العصبة الأقوى والأقدر على حكم الدولة الإسلامية، بل وهم الذين حققوا أوسع

الفتوحات التي نشرت الإسلام في جنبات الدنيا مما لم يستطعه أحد بعدهم.

إلا أن تلك اللحظة كانت أول انحراف عن الشورى التي أقرها النبي ﷺ والتي اطردت في عهد الخلافة الراشدة، لكن بقي الحاكم يعرف أن لا شرعية له إلا باختيار الناس ولا ميزة له عليهم ولا اختصاص له دونهم، وكان الحكم ينتقل في الدولة الأموية إلى الأقوى من بيت الخلافة وليس الابن بالضرورة.

أما التغير الكبير فقد جاء مع الدولة العباسية، فهنا ظهرت للمرة الأولى فكرة «استحقاق آل البيت بالخلافة» وأن الأمر ليس مجرد اختيار الناس لخليفتهم، بل هو أمر مقرر سلفا، فالخليفة متميز بأنه من بيت النبوة، وأن الله قد اختص هذا البيت بعلم لم يكشفه لأحد غيرهم، يجعلهم وحدهم أهل تولي هذه المسؤولية.. وتظل بيعة الناس التزاما على الناس بالسمع والطاعة لخليفتهم.

وهذه الفكرة ابتكرها اليهودي عبد الله بن سبأ منذ عهد عثمان رضي الله عنه وكانت أول الفتنة، لكنها تسربت فيما بعد إلى الشيعة وظلت تتمدد وتُلتمس لها الأدلة والروايات حتى صارت فكرة راسخة لديهم قامت كثير من الشخصيات بترجمتها إلى ثورات طوال العهد الأموي.. ثم كانت هي الفكرة الأساسية التي اعتمدت عليها الدولة العباسية.. الدعوة إلى «الرضا من آل محمد».

ولما كانت هذه الفكرة تجمع العباسيين والعلويين، وتُشَغِّب على العباسيين انفرادهم بالخلافة من بين آل البيت، ظهرت فكرة أخرى تجعل العباسيين وحدهم أولى بهذا المنصب.. تلك هي اعتبار الخلافة ميراثا، وحيث إنها كذلك فإن أولى الناس بها بعد النبي ﷺ هو عمه العباس، فقد مات النبي ولا ولد له، ولكن العباسيين لم يصنعوا مذهبا جديدا على غرار الشيعة بل كان الأفضل لهم أن يقولوا بأنه طالما رضي العباس عن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان فخلافتهم صحيحة من قبيل تنازل صاحب الحق عن حقه.

والصحيح الذي لا شك فيه أن كل هذا كلام باطل، وأنه اختُرِع لإسباغ الشرعية على الصراع السياسي، لكن الذي يهمنا في هذا السياق هو الإشارة إلى تغير الفكرة عن الخليفة، فهو لم يعد اختيار الناس بل هو حق شرعي لمجموعة من الناس هم «آل البيت».. ثم هم «العباسيون».

وهذا الانحراف عن الإسلام هو أكبر بكثير وأعظم بكثير من ذلك الانحراف الجزئي الذي كان في صدر الدولة الأموية، لأنه يؤسس لفكرة شرعية ولا يتحدث عن الاضطرار وحكم الضرورة ومصلحة الأمة كما كان الأمويون يتحدثون.

فمن هنا بدأت فكرة «الإمام الولي أو الوصي على الأمة» من بعد ما أسس الإسلام لقاعدة «الإمام وكيل عن الأمة»..

وقد ساهم في رسوخ هذه الفكرة وتجذرها عدد من العوامل منها: استمرار التنظيم العباسي «الدعوي» حتى بعد قيام الدولة، فقد «ظل الخليفة العباسي صاحب الدولة في مقام الإمام صاحب الدعوة وكانت له رسائل إلى أتباعه، كما كان لأتباعه رسائل إليه، واستمرت الصلات بتنظيمات الدعوة وجماهيرها، واعتمد الحكم في العصر العباسي الأول على القاعدة الجماهيرية للدعوة، وبالنظر في الرسائل المحفوظة - ومنها على سبيل المثال رسائل الخميس لأحمد بن يوسف، والتي استمرت حتى عهد المتوكل - يتبين أن التعليمات كانت تُرسل إلى المريدين من مختلف الأقطار للاحتفاظ بتشكيل الدعاة والنقباء والعمال، ولعلَّ هذا هو ما أكسب النظام السياسي صلابة وقوة، وهو يفسر ما قام به أنصار الخلافة من تبرير لأعمالهم في «رسائل التقريظ»[1].

ومنها كون الفرس والموالي قد أصبحوا هم رجال الدولة العباسية، وهم الذين اعتادوا على فكرة الولاء للسيد، فالفارسي صاحب تقاليد عريقة ضاربة في القدم منذ الحكم الكسروي في الامبراطوريات الفارسية، والمولى لا طمع له في المنافسة على السلطان!

وقد كان من البصيرة النافذة للإمام محمد بن علي إدراك هذا الأمر، وهو الاستعانة بالموالي من غير ذوي الأصول العربية، فبهذا استطاعت الدولة العباسية أن تحفظ بقاءها لفترة طويلة حتى وإن كان الخليفة ضعيفا مغلوبا على أمره كما سيبدو في العصور التالية، لكن وجودهم رسخ فكرة حق العباسيين في الخلافة وكيف أن أحدا لا ينبغي له منافستهم عليها، فقنعوا بالوجود في مصاف الوزراء والأجناد.

على أن ثمة نتيجة أخرى في غاية الأهمية ترتبت على وجود الفرس كرجال للدولة، تلك هي:

---

(١) د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص١٢٨، ١٢٩.

المظاهر السلطانية

لقد ظلت الدولة الأموية عربية في أسلوبها وتقاليدها، فهم لم يتخذوا قصورا ملكية للحكم، ولم يتخاطبوا مع الناس بـ «سيدي» أو «مولاي» ولم يكن في بلاطهم تقبيل اليد أو تقبيل الأرض أمام الخليفة، ولم يتخذوا ألقابا ملكية.

بينما سنجد المظاهر السلطانية انتقلت إلى الدولة العباسية، فكأنما جددت البلاط الفارسي الكسروي، فصار للخليفة ألقاب ومراسم وتقاليد ملكية، ودخل التعظيم الكسروي إلى قصر الخليفة العباسي، ودخلت في النظام الإسلامي فكرة الوزير صاحب الصلاحيات الواسعة في التصريف والتدبير.

وعلى الجانب الآخر كان اشتعال نزاع عربي - عربي كبير كفيلًا بتقويض الدولة الأموية، بينما كان غاية ما تفعله الصراعات الفارسية أو التركية أو العربية أن تنقل الخلافة من عباسي إلى عباسي آخر، لأنهم جميعا يعلمون استحالة قبول الناس لهم كخلفاء!

وهكذا، كان دخول الفرس بميراثهم الكسروي من عوامل الاستقرار نوعا ما وإطالة عمر الخلافة العباسية ولكنه كان أيضا من عوامل انحراف كبير عن الأسلوب الإسلامي في تقرب الخلفاء من الناس ورعايتهم المباشرة لأحوالهم..

لقد صار الخلفاء محجوبين على العامة، قد يظهرون في العام مرة أو مرتين، ويفصلهم في حال احتجابهم مساحات من الفخامة والترف والمظاهر الملكية، فإذا كان حال ظهورهم ظهروا في مواكب ملكية فاخرة تزيغ لها العيون رهبة ورغبة!

لقد كانت طبقة الكُتَّاب وأصحاب الدواوين غالبا من الفرس في ذلك العصر، فنقلوا الأدبيات السلطانية الفارسية، ويعد تراث ابن المقفع مثالا واضحا، بل إن ثمة مؤلفات -مثل الوزراء والكتاب للجهشياري- يبدو واضحا فيها استقرار الأمر على اعتبار تاريخ الوزراء الإسلامي تَبَعًا لتاريخ الوزراء الفرس، وشاعت في أدبيات تلك الفترة الحكم الفارسية وتاريخ ملوك آل ساسان وأقوالهم وأفعالهم وأسلوبهم في السياسة والإدارة، بل إن موجة الترجمة الهائلة التي بلغت ذروتها في عهد المأمون والتي نقلت كل ما طالته يدها من تراث روماني لم تنقل أبدا آداب الرومان ومسرحياتهم وأساطيرهم، ولا نعرف تفسيرا لهذا إلا أن

الأدب الفارسي كان قد سدَّ هذا الاحتياج أو حتى منع من تسرب هذه الأفكار –المخاصمة للتراث الفارسي– عن وعي!

ومن هنا دخلت المظاهر السلطانية إلى الحياة الإسلامية، ثم دخل التنافس إلى قلوب الخلفاء في بناء القصور وتكثيرها والمبالغة في فخامتها لتحكي للأجيال سيرته وعظمته، وكان هذا انحرافا جديدا عن المسار الإسلامي كما تبدى في سيرة النبي والخلفاء الراشدين.

وحيث بُنِيت القصور الفاخرة التي احتجب فيها الخلفاء عن الناس.. فقد استتبع هذا ظاهرة أخرى، تلك هي:

الشراب ومجالس السمر

لقد صار من اليسير بعد هذا الاحتجاب عن العامة أن تنشأ مجالس تشهد ما لا يمكن أن تقبله العامة، وأن تنمو حاشية تحف بالملك في أوقات سمره ولهوه، فتطربه بأخبار القدماء وأيامهم وآدابهم وأشعارهم وطرائفهم ونوادرهم، ولئن كان خلفاء العصر العباسي الأول كانوا من الجد واليقظة ما جعل مجالسهم هذه بحرا من الثقافة، فإن من بعدهم لم يكونوا هكذا.. بل صارت مجالسهم بحرا من اللهو!

وفيما عدا المنصور يعد وجود الشراب جزءا من سيرة أولئك الخلفاء في لحظات سمرهم، وقد اختلف كثيرا فيما إذا كان هذا الشراب من المُسكر المحرم أم هو من الحلال، وهو خلاف مشهور بين علماء العراق وعلماء الحجاز، لكن كثيرا من المجالس شُرب فيها الخمر وقيل فيها ما هو حرام من الأشعار، وكتب الأدب تفيض بأخبار هذا وتبالغ فيه جدا إلى الحد الذي يجعل الأخذ منها والثقة في أخبارها في حكم المستحيل أحيانا.. وأشهر ما يُذكر في هذا كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي وُصِف بحق بأنه «النهر المسموم»!

لكن المبالغات لا تنفي الأصل الذي تتناثر أخباره في كتب التاريخ والتراجم وغيرها.. وهذا بلا شك انحراف عن المسار الإسلامي!

ولعل كل هذه الانحرافات تجعل القارئ يتساءل:

أين كانت الأمة؟

أين كانت الأمة لتصحح هذا وتقومه وتعيده إلى مساره؟ وأين كان علماؤها وفقهاؤها؟

لقد كانت الأمة موجودة وقائمة وتمارس مقاومتها لكل هذه الانحرافات.. فالعلماء يمارسون المقاومة العلمية بالكتابة والتأليف والتدريس كما يمارسون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو للخليفة نفسه، وقد مرَّ بنا بعض من هذا..

لقد وقف العلماء ضد أفكار العباسيين والعلويين في الإمامة، وما زالت كتب الأحكام السلطانية وكتب الفقه التي كتبت في ذلك الوقت تؤكد على أن الخليفة بالاختيار وأنه وكيل عن الأمة وليس وصيا عليها وأن الخلافة ليست ميراثا ليكون مختصا في آل البيت أو في نسل العباس عم النبي ﷺ، لكنهم كانوا يوازنون بين السكوت على هذه الانحرافات لا سيما والخلفاء يقيمون الشريعة ويجاهدون العدو ويحفظون الثغور وبين الخروج عليهم.. فمنهم من رأى الخروج ومنهم من أدت به الموازنة إلى السكوت على منكر دفعا لمنكر وفتنة أشد منه وأعظم!

ووقف العلماء المسلمون بالمرصاد أمام تسرب الثقافة الفارسية إلى الحياة العربية، ونقبوا وقلبوا ليعيدوا كتابة تاريخ العرب وأيامهم وأنسابهم وأبطالهم، فظهرت مؤلفات كثيرة كانت تُغني عن سير الأكاسرة وعن بلاطهم، كما كان العلماء خلف كل حركة شعوبية تحاول القضاء على الإسلام أو نشر الإلحاد والزندقة والمجون والاستهتار، وفي كتب الطبقات والتراجم أخبار كثيرة تثبت وقوف الأمة في مواجهة انحرافات السلطة، ولولا هذه المقاومة لكنا نكتب الآن تاريخا آخر، حتى وإن كنا نقر ونعترف أنها مقاومة لم تبلغ غايتها التي كانت تطلبها كاملة.

❋ ❋ ❋



ملحقات الكتاب

- الوصية البديعة الذائعة الصيت لطاهر بن الحسين في السياسة والإدارة.
- تقسيم الجيش البيزنطي في العصر العباسي الأول.

الوصية البديعة الذائعة الصيت لطاهر بن الحسين في السياسة والإدارة

«بسم الله الرحمن الرحيم

عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته، ومزايلة سخطه، وحفظ رعيتك، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه؛ فإن الله قد أحسن إليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذب عنهم، والدفع عن حريمهم وبيضتهم، والحقن لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك، ومُوقِفك عليه، ومسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت، ففرِّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك، ولا يذهلك عنه ذاهل، ولا يشغلك عنه شاغل؛ فإنه رأس أمرك، وملاك شأنك، وأول ما يوفقك الله به لرشدك.

وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها، على سننها في إسباغ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله فيها، وترتل في قراءتك، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتصدق فيها لربك نيتك، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك، وادأب عليها؛ فإنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله ، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله في كتابه من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبي ، ثم قم فيه بما يحق الله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله،

والدين وحملته، وكتاب الله والعالمين به؛ فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله، والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب فيه منه إلى الله؛ فإنه الدليل على الخير كله، والقائد له، والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله ﷻ وإجلالًا له، ودركًا للدرجات العلا في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك، والهيبة لسلطانك، والأنسة بك، والثقة بعدلك.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها؛ فليس شيء أبين نفعًا، ولا أحضر أمنًا، ولا أجمع فضلًا من القصد، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق منقاد إلى السعادة، وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد؛ فآثره في دنياك كلها، ولا تقصر في طلب الآخرة والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له؛ إذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته ومرافقة أوليائه في دار كرامته.

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العزَّ، ويحصن من الذنوب، وإنك لن تحوط نفسك ومن يليك ولا تستصلح أمورك بأفضل منه؛ فأته واهتدِ به تتم أمورك، وتزدد مقدرتك، وتصلح خاصتك وعامتك.

وأحسن الظن بالله ﷻ تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك، ولا تنهض أحدًا من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشُّف أمره بالتهمة؛ فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك، واطرد عنهم سوء الظن بهم، وارفضه عنهم؛ يُعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم، ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزًا؛ فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك؛ فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينغصك لذاذة عيشك.

واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة، وتكفي به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبتك، والاستقامة في الأمور كلها لك، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة، والبحث عن أمورك، والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرعية، والنظر فيما يقيمها ويصلحها؛ بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية، والنظر في حوائجهم، وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك؛ فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة.

وأخلص نيتك في جميع هذا، وتفرد بتقويم نفسك تفرُّد من يعلم أنه مسئول عما صنع

ومجزي بما أحسن، ومأخوذ بما أساء؛ فإن الله جعل الدين حرزًا وعزًّا، ورفع من اتبعه وعززه، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطل ذلك، ولا تهاون به، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة؛ فإن في تفريطك في ذلك لما يفسد عليك حسن ظنك.

واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب الشبه والبدعات يسلم لك دينك، وتقم لك مروءتك، وإذا عاهدت عهدًا ففِ به، وإذا وعدت الخير فأنجزه، واقبل الحسنة وادفع بها، واغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهله، وأقصِ أهل النميمة؛ فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب؛ لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمتها؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب، ولا يستقيم لمطيعها أمر.

وأحب أهل الصدق والصلاح، وأعن الأشراف بالحق، وواصل الضعفاء، وصل الرحم، وابتغِ بذلك وجه الله وعزة أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة.

واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك، وأنعم بالعدل سياستهم، وقُمْ بالحقِّ فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى، واملك نفسك عند الغضب، وآثر الوقار والحلم، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله.

وإياك أن تقول: إني مسلط أفعل ما أشاء. فإن ذلك سريع فيك إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له، وأخلص لله النية فيه واليقين به، واعلم أن الملك لله يعطيه مَنْ يشاء وينزعه ممن يشاء، ولن تجد تغيُّر النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة؛ إذا كفروا بنعم الله وإحسانه، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله، ودَعْ عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدَّخر وتكنز البِرَّ والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم، والتفقد لأمورهم، والحفظ لدهمائهم، والإغاثة لملهوفهم.

واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر، وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وربت، وصلحت به العامة، وتزينت الولاة، وطاب به الزمان، واعتقد فيه العز والمنعة، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوفِ رعيتك من ذلك حصصهم،

وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم؛ فإنك إذا فعلت ذلك قرَّت النعمة عليك، واستوجبت المزيد من الله، وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك، وأطيب أنفسًا لكلِّ ما أردت.

فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب، ولتعظم حسبتك فيه؛ فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه، واعرف للشاكرين شكرهم، وأثبهم عليه، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة؛ فتتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يوجب التفريط، والتفريط يورث البوار، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى، وارج الثواب؛ فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا، وأظهر لديك فضله، فاعتصم بالشكر وعليه، فاعتمد يزدك الله خيرًا وإحسانًا؛ فإن الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين، واقض الحق فيما حمل من النعم، والبس من العافية والكرامة، ولا تحقرن ذنبًا، ولا تمايلن حاسدًا، ولا ترحمن فاجرًا، ولا تصلن كفورًا، ولا تداهنن عدوًّا، ولا تُصَدِّقن نمامًا، ولا تأمنن غدارًا، ولا توالين فاسقًا، ولا تتبعن غاويًا، ولا تحمدن مرائيًا، ولا تحقرن إنسانًا، ولا تردن سائلًا فقيرًا، ولا تجيبن باطلًا، ولا تلاحظن مضحكًا، ولا تخلفن وعدًا، ولا ترهبن فجرًا، ولا تعملن غضبًا، ولا تأتين بذخًا، ولا تمشين مرحًا، ولا تركبن سفهًا، ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا تدفع الأيام عيانًا، ولا تغمضن عن الظالم رهبة أو مخافة، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا، وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة، ولا تدخلن في مشورتك أهل الدقة والبخل، ولا تسمعن لهم قولًا؛ فإن ضررهم أكثر من منفعتهم، وليس شيء أسرع فسادًا لما استقبلت في أمر رعيتك من الشح، واعلم أنك إذا كنت حريصًا كنت كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلًا؛ فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم، وترك الجور عنهم، ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم، وحسن العطية لهم، فاجتنب الشح، واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه، وأن العاصي بمنزلة خزي، وهو قول الله ﷻ: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩] فسهل طريق الجود بالحق، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظًّا ونصيبًا، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد، فاعدده لنفسك خلقًا، وارضَ به عملًا ومذهبًا.

وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأدرر عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معايشهم؛ ليذهب بذلك الله فاقتهم، ويقوم لك أمرهم، ويزيد به قلوبهم في طاعتك، وأمرك خلوصًا وانشراحًا، وحسب ذي سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في

عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته، فزايل مكروه إحدى البليتين باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تلق -إن شاء الله- نجاحًا وصلاحًا وفلاحًا.

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور؛ لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه الأحوال في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء.

واشتد في أمر الله، وتورع عن النطف، وامض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وأبعد من الضجر والقلق، واقنع بالقسم، ولتسكن ريحك، ويقر جدك، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، واسدد في منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا محاماة ولا لوم لائم، وتثبت وتأنّ، وراقب وانظر، وتدبر وتفكر واعتبر، وتواضع لربك، وارأف بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم؛ فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكًا لها بغير حقها.

وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزًّا ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتًا وغيظًا، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلًا وصغارًا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه، ولا ترفعن منه شيئًا عن شريف لشرفه، وعن غني لغناه، ولا عن كاتب لك ولا أحد من خاصتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمرًا فيه شطط، واحمل الناس كلهم على مُرِّ الحق؛ فإن ذلك أجمع لألفتهم، وألزم لرضا العامة، واعلم أنك جعلت بولايتك خازنًا وحافظًا وراعيًا، وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيِّمهم؛ تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم، فاستعمل عليهم في كور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة وبالعمل والعلم بالسياسة والعفاف، ووسع عليهم في الرزق؛ فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرفنك عنه صارف؛ فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحدوثة في أعمالك، واحترزت النصيحة من رعيتك، وأعنت على الصلاح؛ فدرت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب في كورك، فكثر خراجك،

وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جندك، وإرضاء العامة بإقامة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة، فنافس في هذا، ولا تقدم عليه شيئًا تحمد مغبة أمرك إن شاء الله.

واجعل في كل كورة من عملك أمينًا يخبرك أخبار عمالك، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم؛ حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لأمره كله، وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك؛ فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه؛ وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم، ثم خذ فيه عدته؛ فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقواه ذلك وأعجبه، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره.

فاستعمل الحزم في كل ما أردت، وباشره بعد عون الله بالقوة، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك؛ فإن لغد أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين فشغلك ذلك حتى تعرض عنه، فإذا أمضيت لكلِّ يوم عمله أرحت نفسك وبدنك، وأحكمت أمور سلطانك.

وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم، ثم استيقن صفاء طويتهم، وتهذيب مودتهم لك، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك؛ فاستخلصهم وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤنتهم، وأصلح حالهم؛ حتى لا يجدوا لخلتهم مسًّا، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فاسأل عنه أحفى مسألة، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله أمرهم، وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقًا من بيت المال؛ اقتداء بأمير المؤمنين -أعزه الله- في العطف عليهم والصلة لهم؛ ليصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة، وأَجْرِ للأضراء من بيت المال، وقدِّم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دورًا تئويهم، وقومًا يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤدِّ ذلك إلى سرف في بيت المال، واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم؛ طمعًا في نيل الزيادة وفضل الرفق منهم، وربما برم

المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه؛ منها ما يناله به مؤنة ومشقة، وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل، وفضل ثواب الآجل؛ كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله، ويلتمس رحمته به، وأكثر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكِّن لهم أحراسك، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بِشْرك، ولن لهم في المسألة والمنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتمس الصنيعة والأجر غير مكدر ولا منان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله، (واعبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته، وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله، واعرف ما يجمع عمالك من الأموال وينفقون منها، ولا تجمع حرامًا، ولا تنفق إسرافًا، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك مَنْ إذا رأى عيبًا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سرٍّ، وإعلامك ما فيه من النقص؛ فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك، وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقِّت كل رجل منهم في كل يوم وقتًا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك، وامْرِ كورك ورعيتك، ثم فرِّغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك، وكرر النظر إليه، والتدبير له، فما كان موقفك للحزم والحق فأمضه، واستخر الله فيه، وما كان مخالفًا لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه.

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرها بمعروف تأتيه إليهم، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك.

وتفهم كتابي إليك، وأكثر النظر فيه والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره؛ فإن الله معلٍ الصلاح وأهله، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله رضًا، ولدينه نظامًا، ولأهله عزًّا وتمكينًا، وللذمة عدلًا وصلاحًا.

وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك؛ حتى يجعلك أفضل مثالك نصيبًا، وأوفرهم حظًّا وأسناهم ذكرًا وأمرًا، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك! وبغى عليك، ويرزقك من رعيتك والعافية، ويحجز الشيطان عنك وساوسه حتى يستعلي أمرك بالعز والقوة والتوفيق، إنه قريب مجيب[1].

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٥٦ وما بعدها.



تقسيم الجيش البيزنطي في العصر العباسي الأول

كما يصفه قدامة بن جعفر في كتابه الخراج وصناعة الكتابة[١]:

١) البطريق يكون رئيسًا على عشرة آلاف، مع كل بطريق طوماخان.

٢) كل طوماخ على خمسة آلاف، ومع كل طوماخ خمسة طربخارين.

٣) كل طربخار على ألف، ومع كل طربخار خمسة قمامسة.

٤) كل قومس على مائتين، ومع كل قومس خمسة قنطرخين.

٥) كل قنطرخ على أربعين، ومع كل قنطرخ أربعة داقرخين.

٦) كل داقرخ على عشرة.

فأما عدة جيوشهم:

١) فمنها بقسطنطينية وهي حضرة الملك أربعة وعشرون ألفًا منهم الفرسان ستة عشر ألفًا، والرجالة ثمانية آلاف.

٢) فينقسم الفرسان أربعة أقسام:

- أولها الاسخلارية: وصاحبهم الدمستق الكبير وهو صاحب فرض الفروض، والرئيس على الجماعة وعدتهم أربعة آلاف فارس.
- والصنف الثاني الحسف وهم أربعة آلاف فارس.
- والصنف الثالث أوقومس، وهم للحرس وصاحبهم طريخان وعدتهم أربعة آلاف.
- والصنف الرابع، قيدار طين وهم يخرجون مع الملك اذا خرج في سفر وعدتهم أربعة آلاف

٣) وينقسم الرجالة قسمين:

- فالأول منهما يسمون اتليمسا وعدتهم أربعة آلاف راجل.
- والباقي يسمون موبرة وعدتهم أربعة آلاف.

وهذا بخلاف الفرق العسكرية المحلية الخاصة بالولايات والأنحاء.

---

(١) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص١٨٩، ١٩٠.

محتويات الكتاب



* * *